



المجتمع الإسلامي والغرب

تأليف: هاميلتون غيب وهارولد باون
ترجمة ودراسة: د. أحمد إيبش
الجزء الأول

المجتمع الإسلامي والغرب

تعرّض التاريخ العثماني للإهمال بوجه عام حتى النصف الأول من القرن العشرين. فقد تأثر الكتاب الأوروبيون باتجاهات معاصريهم من الدولة العثمانية التي ظلت تشكّل بالنسبة إلى أوروبا لمدة ستة قرون مشكلة كبرى: فهي في بادئ الأمر كانت تمثل ردّ الفعل الإسلامي ضد الخطر الصليبي. ثم ما لبثت أن اعترضت المشروعات الاستعمارية الأوروبية، وحين ضعفت أثارت ما عُرف في المصطلح السياسي باسم "المسألة الشرقية"، التي شغلت أذهان الأوروبيين ولم يسدل عليها الستار إلا بانتهاء الإمبراطورية العثمانية.

بيد أنّ الاهتمام بالوثائق العثمانية ودراستها قد عدّلا النظرة إلى التاريخ العثماني خلال العقود الأخيرة. وأضحى التاريخ العثماني المحور المفضّل لأقسام الدراسات الشرقية في جامعات أوروبا وأميركا، وأصبح بالإمكان وضعه في مكانته الصحيحة في إطار التاريخ العالمي: إذ أنّ الدولة العثمانية قد ظهرت في ثانيا ردّ الفعل الإسلامي إزاء أوروبا الآخذة في التوسّع في شرقي البحر المتوسط بالقرنين الرابع عشر والخامس عشر. وهي تمثل أقوى وأجح مقاومة لأوروبا من جانب المشرق. كما أنها لعبت دورها في تكوين ما نطلق عليه اسم أوروبا الحديثة، وفي إعادة تشكيل مجتمعات جنوب شرقي أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

السعر 65 درهما



إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

المجتمع الإسلامي والغرب

روّاد المشرق العربي

المجتمع الإسلامي والغرب

دراسة حول تأثير الحضارة الغربيّة
في الثقافة الإسلاميّة بالشرق الأدنى
في القرن الثامن عشر للميلاد

للمؤرّخين البريطانيين
هاميلتون غِيب وهارولد بوون

الجزء الأول

ترجمة ودراسة
د. أحمد إيش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
نهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS38.G45812 2012.

Gibb, Hamilton Alexander Rosskeen, 1895-1971

المجتمع الإسلامي والغرب: دراسة حول تأثير الحضارة الغربية في الثقافة الإسلامية/ تأليف هاميلتون غيب، هارولد بن، ترجمة وداسة أحمد
إيش. - ط. 1. - أبو ظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012.
2 مج. 4 سم. - (رواد المشرق العربي)

Islamic society and the West; a study of the impact of western civilization on
Moslem culture in the Near East

تتملك: 978-9948-01-469-0

1. الحضارة العربية — أوروبا. 2. الحضارة العربية — تاريخ. أ. إيش، أحمد. ب. Bowen, Harold. ج. العنوان. د. السلسلة.



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية

© حقوق الطبع محفوظة
دار الكتب الوطنية
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
«المجمع الثقافي»

© National Library
Abu Dhabi Tourism &
Culture Authority
"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى 1434 هـ - 2012 م

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - المجمع الثقافي
أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae

سلسلة رؤاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» للمكتبة العربية بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السلسلة الثقافية التراثية التي تصدرها تحت عنوان: «رؤاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويتهم الوطنية، وذلك من خلال الحرص على جمع كافة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلمية بنشر التراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلمية ومؤسّساتنا الثقافية على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثية عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربية في مجالات شتى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشعر، النحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطب وهندسة ورياضيات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوّكد على أنّ ثمة تياراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتممه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدمه من فوائد لمثقفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيلْيوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط الساحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

هذا الكتاب

ظهور الدولة العثمانية وبداية توسعها

ينتمي السلاطين العثمانيون إلى جدّهم الأمير «عثمان بن أرطغرل»، وتُعدّ سلطتهم التي ظهرت على مسرح الأحداث في القرن الثالث عشر الميلادي دولة حديثة العهد حينذاك. كانت نقطة البداية عندما تقدّموا بزعامة أرطغرل ابن سليمان شاه لمساندة سلطان قونية السلجوقي علاء الدين الأول ضد الغزاة المغول، فمنحهم علاء الدين جزءاً من أراضي آسيا الصغرى مقابل هذه المساعدة. وأخذ العثمانيون بقيادة عثمان ابن أرطغرل (1299-1324 م) في التوسّع بسرعة كبيرة في الأناضول على حساب الدولة البيزنطية، وعلى حساب بقية الإمارات التُركيّة الصغرى هناك. وهذا ما تابعوه أيضاً في عهد السلطان الغازي أورخان الأول ابن عثمان.

ثم اتجه العثمانيون، بقيادة السلطان مراد خان الأول ثم ولده السلطان بيازيد خان الأول، في موجة جديدة للتوسّع في أوروبا بادئين بالبلقان، فأخضعوا أجزاء كبيرة من بلغاريا والبوسنة وصربيا، وبالرغم من الهزيمة الساحقة التي لاقاها العثمانيون أمام تيمورلنك (1402 م) في أنقرة، فسرعان ما نجحوا في استرداد قوتهم، ومواصلة فتوحاتهم التي توجت بالاستيلاء على القسطنطينية (1453 م) بقيادة السلطان محمد خان الثاني «الفاتح»، وتحويلها إلى عاصمة نهائية لهم باسم «إسطنبول» من بعد عاصمتهم السابقة بورصة. وأعقب ذلك توسّعهم سريعاً في شرق أوروبا ووسطها.

وما إن حلّ مطلع القرن السادس عشر حتى حدث تغيّر في اتجاه فتوحاتهم، إذ تحوّل العثمانيون مؤقتاً إلى الفتح والغزو في بلاد الشرق، بادئين بالدولة الصفوية في

فارس، فتمّ لهم إخضاعها على يد السلطان سليم الأول إثر معركة چالديران الفاصلة وسقوط تبريز سنة 1514 م. ثم تابع السلطان سليم فتوحاته في الشرق، فبدأها بإخضاع الشام بعد عامين في مرج دابق سنة 1516 م كما ذكرنا، راسماً بذلك الفصل الأخير لانتهاء السلطنة المملوكية، التي سرعان ما تداعت بعد عام واحد فقط (1517) تحت ضربات العثمانيين.

اختلفت الآراء كثيراً في أسباب فتوحات السلطان سليم في البلاد العربية، فالفكرة الشائعة تنحو إلى أن السلطان سليم باتجاهه إلى الشرق قد أدار ظهره لأوروبا، وأن ذلك كان يمثل تغييراً واضحاً في استراتيجية الدولة العثمانية. ولكن الواقع في رأينا يخالف ذلك، فما اتجه السلطان سليم إلى الشرق، وإلى البلاد العربية خاصة، إلا ليؤمن ظهر دولته ويحميها من القوتين الكبيرتين اللتين كانتا متحفّزتين للقضاء على دولته، وهما أولاً الدولة الصفوية ذات الطابع الثيوقراطي المذهبي، التي كان من أهدافها بالطبع مناوئة الدولة العثمانية التي تتزعم المعسكر الشّيئي المواجه لها، وثانياً الدولة المملوكية التي رأت بلا شك في الدولة العثمانية القوية خطراً يتهدد وجودها نفسه⁽¹⁾.

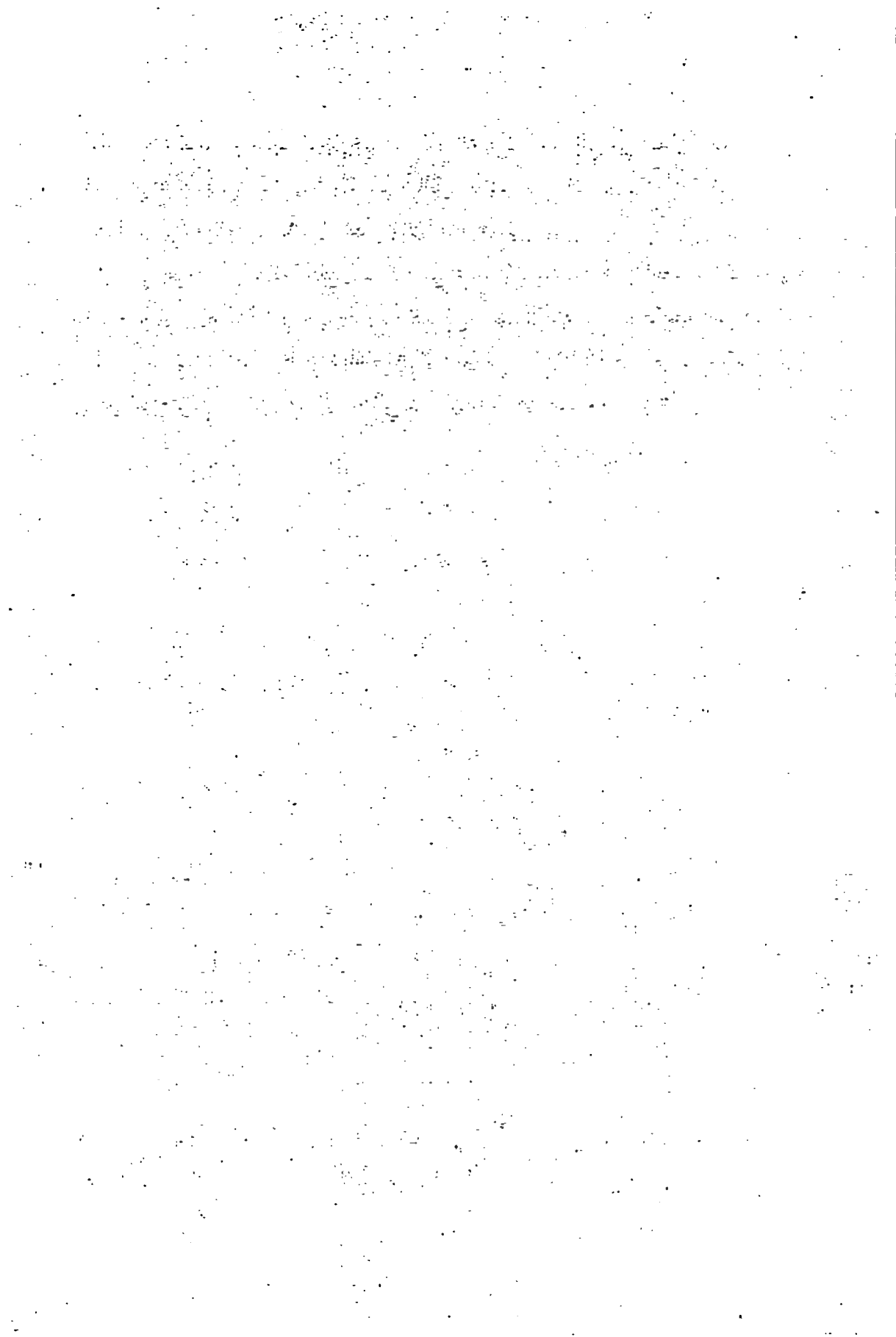
فالأمر إذاً راجع، بالدرجة الأولى، إلى صراع بين قوى ثلاث في منطقة واحدة، وقد تلامست حدودها وظهر الاحتكاك بين قواها. فكان لا بدّ لتوفير الحماية والأمان للدولة العثمانية من القضاء على القوى الكبيرة في الشرق، وأهمّها قوّة سلطنة المماليك في مصر والشام، ثم متابعة الفتوحات في أوروبا بعد تأمين العثمانيين لظهرهم في الشرق. قام بالدور الأول السلطان سليم، ثم كانت المهمة الثانية من نصيب ابنه السلطان سُليمان، الذي بلغت الإمبراطورية العثمانية ذروة أوجها وقوتها وعهدها الذهبي في أ أيامه.

وخلال عهد حكم السلطان سُليمان الذي دام أكثر من أربعين عاماً، بلغت

(1) راجع: تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني، دكتورة ليلي عبد اللطيف أحمد، ص 10.

الإمبراطورية ذروة مجدها. وأوصلت فتوحاته العثمانيين إلى أبواب فيينا غرباً، وإلى عمق إيران شرقاً. وانضوى شمال أفريقيا بأسره تحت سلطته الاسميّة، أمّا آخر إمارات الصليبيين، ومعقل فرسان المشفى (الإسبتاريّة) في جزيرة رودس، التي استعصت على كلّ من رام احتلالها على امتداد مئتي عام، فقد سقطت أخيراً بعد معركة طويلة وطاحنة في عام 1526 م. ثمّ أحرزت جيوش سليمان انتصارات خاطفة على الهنغار والصّرب في معركة موهاچ Mohács الفاصلة في عام 1529 م، بحيث تمكنوا على نحو غير متوقع من الزّحف إلى أعالي نهر الدّانوب صوب مدينة فيينا ذاتها.





أوروبا والعثمانيون

دامت الإمبراطورية العثمانية قرابة خمسمئة سنة، فكانت أطول الدّول عمراً إلا باستثناء عدد قليل من الأسر الحاكمة التي عرفها العالم. وقبل ذلك بقيت بيزنطة وروما على قيد الحياة أكثر من ألف سنة، ولكن العثمانيين وحدهم كانوا هم مَنْ أمكنهم التّفاخر بأن العائلة ذاتها حكمت على التوالي منذ البداية حتى النهاية. ورغم أنه قد يكون هناك إعادة صوغ توفّقي لشجرة العائلة، فإنّ ثمة عدم انقطاع في السّلسلة المتصلة الممتدة من عُثمان في القرن الثالث عشر إلى آخر السّلاطين محمّد الخامس في العقد الأول من القرن العشرين. وعلى سبيل المقارنة، لم تدُم الأسر الحاكمة الأوروبية أكثر من بضع مئات السنين، ولم تحكم مساحة أكبر من إقليم عُثماني واحد فحسب.

وعلى أي حال وفي غالبية خمسة قرون، شملت الإمبراطورية العثمانية شرق البحر الأبيض المتوسط برمته، من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، كما حكمت شمال أفريقيا ومصر، والقفقاس ما بين البحر الأسود وبحر قزوين، إضافة إلى شبه جزيرة القرم والمناطق المحيطة بها، وكامل الشرق الأدنى إلى حدود إيران، كما حكمت البلقان، بما فيها اليونان، وصربيا، وكرواتيا، وبلغاريا، ورومانيا، وأجزاء من هنغاريا الحديثة.

وفي الذاكرة الجماعية للغرب، كان العثمانيون يلوّحون بشكل ضخم جداً، أكثر من الموجه الأولى من الفتوحات العربية وأكثر من المسلمين في إسبانيا أو صلاح

الذين وجيوشه. كانوا يشقون طريقهم نحو مدارك أوروبا الحديثة. وفي نفس الوقت الذي كانت تنبثق فيه الممالك المركزية في أوروبا الغربية والوسطى، واجهت خصماً قد يقزم بحجمه وتنظيمه وثروته وقوته أي شيء يجتمع معه. ولربما ظن زعماء بلدان إسبانيا، وفرنسا، وبريطانيا، وألمانيا، والإمبراطورية الرومانية المقدسة بأنهم جبابرة، ولكن ضدّ العثمانيين بالكاد أمكن تصنيفهم بأنهم أقزام. وبالكاد تمكنت الأساطيل الإيطالية وفرنسا إسبانيا وفرنسا وجنود المشاة من هتاريا وبولونيا، والتمسا، وروسيا من تجنّب الهزيمة الكاملة، ولكن حتى القرن الثامن عشر، كدّر ما وصفوه بـ «الترك الغاشمين» أكثر أيامهم إشراقاً على الإطلاق.

ثم تدريجياً فقد العثمانيون مزيّتهم النسبية، وفي أواخر القرن الثامن عشر عكس ملوك أوروبا وروسيا دقة الأحداث. وحتى في ذلك الحين تقلّصت الإمبراطورية العثمانية لكنها لم تنهر. وخلافاً للعديد من مناطق أخرى من العالم، لم تُحتلّ الإمبراطورية العثمانية أو يحكمها الأوروبيون على الإطلاق. ومع أن الإمبراطورية تقلّصت فإن وسط أراضي تركية وأجزاء كبيرة من الشرق الأوسط بما فيها العراق وجزيرة العرب ظلّت تحت الحكم العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

وبالرغم من التجاور، فقد فصلت بين العثمانيين والأوروبيين هوة ثقافية واسعة. ولكن ربما كان الدين الحدّ الفاصل الأقل أهمية. فلقد حكمت العثمانيين عائلة تركية أصولها كما لاحظ العديد من الباحثين تبقى غامضة. وثمة القليل ممّا يُعرف عن عثمان مؤسس السلالة، بقدر ما يُعرف عن رومولوس وريموس المؤسسين الأسطوريين لروما. ولا يوجد هناك تقريباً سجلات مكتوبة عن العثمانيين للقرن الأول من بداية ظهورهم، كما لم يترك خصومهم الأوائل من صرب ومجر وبيزنطيين، والأمراء الترك في الأناضول أية أوصاف عن الهزائم التي لحقت بهم على أيدي العثمانيين.

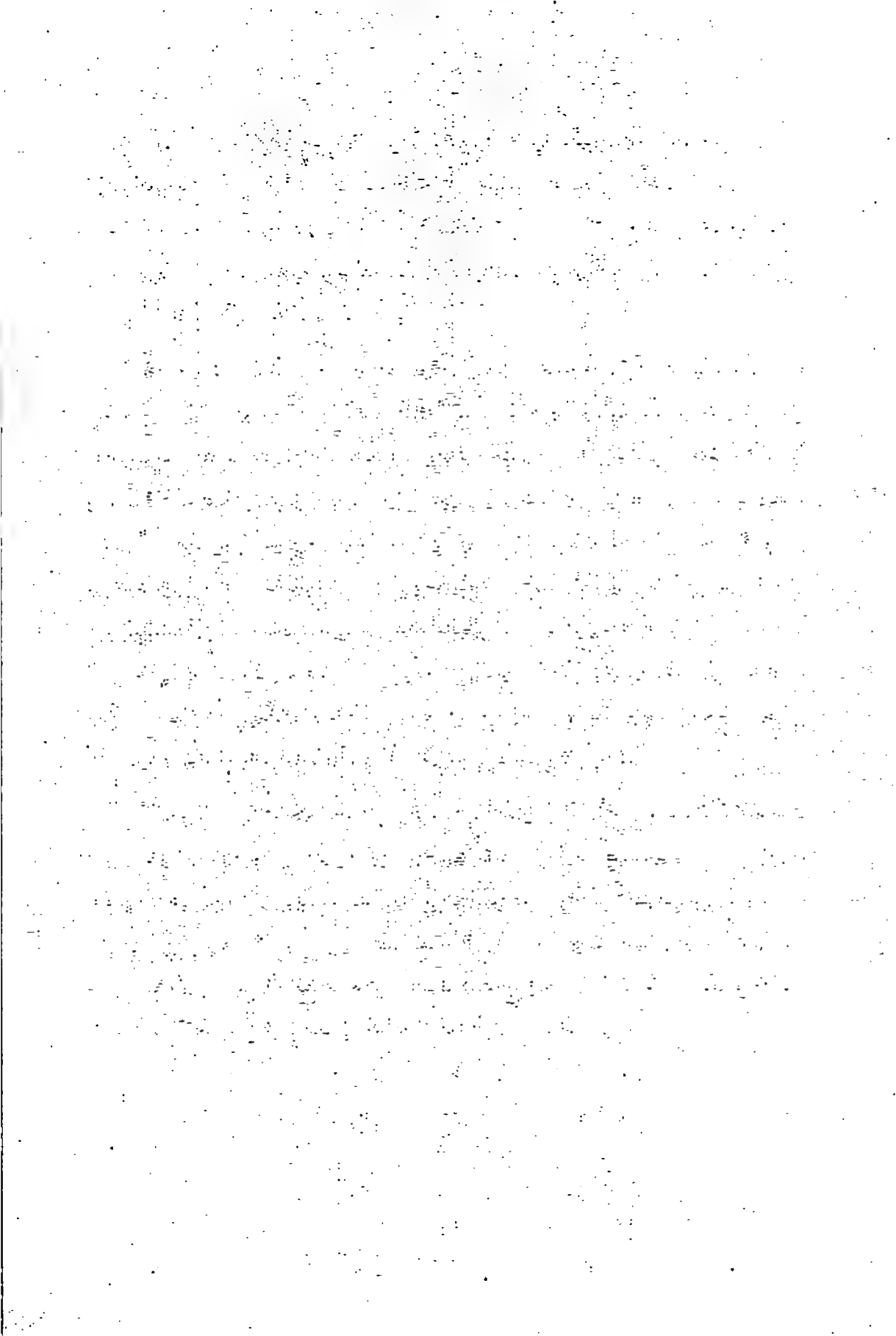
مع مضيّ الوقت، أضحت أوروبا معتادة على وجود الدولة العثمانية، ولكن حتى تضاعف القرن التاسع عشر بقيت شؤونها الداخلية غير معروفة لها. وأصبح السلطان ونسأؤه بمثابة الأسطورة. والقليل فقط من الغربيين فهموا كيف يحكم العثمانيون،

ويحاربون، أو يعيشون. كتب السفراء الغربيون في إسطنبول أوصافاً عن عاصمة الإمبراطورية، لكن بقي احتكاكهم بالنخبة محدوداً، وكانوا يشاهدون من سمات الحياة المدنية ما يُسمح لهم بمشاهدته فقط. فقط في القرن التاسع عشر، عندما اضطرَّ العثمانيون على فتح مجتمعهم للعيون الفاحصة الأجنبية، أُلقيت الحجب والستور، وحتى آنذاك لم يكن الكشف إلا جزئياً.

عادةً ما يكون الخيال نتاجاً للجهل، وفي أوصاف غالباً ما تكون خيالية وشهوانية، حيث استحضر الغربيون صورة للسلطان تخدمه نساء جامحات شهوانيات يحرسهن خصيان من جنوب صحراء أفريقيا، ويدافع عنه جيش من العبيد أسروا حينما كانوا لا يزالون أولاداً صغاراً، وتم تدريبهم على حياة خشنة كمحاربين جاهزين للموت حالما ينبس السلطان بأوامره. وفي قاعة العرش، يجلس السلطان العثماني يلفّه الغموض في قاعة عرشه، محاطاً بالوزراء الذين يخططون للحملة المقبلة ضد الغرب. وتقليداً لملوك الشرق، نادراً ما كان يُسمح لزواره بالنظر إليه ممّا عزّز هالة الغموض تلك. ملأ الغربيون الثغرات التي تتخلّل ما يعرفونه عن السلطان بالرّهبة، وحولوه إلى محارب مقدّس يعمل على إهلاك السلطة المسيحية، بغية إنجاز ما بدأ به النبيّ محمّد (صلى الله عليه وسلّم)، وانتقاماً للعالم الإسلامي عن خسارته لإسبانيا.

هذا الخليط من أنصاف الحقائق والأساطير غدّى القلق الغربي، لقد كان السلطان المُهاب والمكروه بآنٍ واحد والذي ينال الإعجاب مشوباً بالحسد، يحكم إمبراطورية عظيمة تتخم حدود أوروبا. ورغم أن الأتراك كانوا فرقةً واحدةً فقط من بين العديد من الفرق التي حوتها الإمبراطورية، فإنّ كلمة «التُرك» أصبحت مصطلحاً دالاً على كل ما هو عُثماني، وفي الواقع لم يكن هذا المصطلح إيجابياً. فبالنسبة للإنكليز خاصةً ولمعظم الأوروبيين عامةً تعني كلمة «التُرك» الهمجيّة والوحشيّة.





التاريخ العثماني في الدراسات النقدية المعاصرة

تعرض التاريخ العثماني للإهمال بوجه عام حتى النصف الأول من القرن العشرين. فقد تأثر الكتاب الأوروبيون باتجاهات معاصريهم من الدولة العثمانية التي ظلت تشكل بالنسبة إلى أوروبا لمدة ستة قرون - أي منذ نشأتها حتى الحرب العالمية الأولى - مشكلة كبرى: فهي في بادئ الأمر كانت تمثل رد الفعل الإسلامي ضد الخطر الصليبي، ثم ما لبثت أن اعترضت المشروعات الاستعمارية الأوروبية، وحين ضعفت أثارت ما عُرف في المصطلح السياسي باسم «المسألة الشرقية»، التي شغلت أذهان الأوروبيين ولم يُسدل عليها الستار إلا بانتهاء الإمبراطورية العثمانية⁽¹⁾.

وهكذا ظل الأوروبيون، ردحاً طويلاً من الزمان، يعتبرون الدولة العثمانية العدو الأكبر للمسيحية، ووصمة سوداء تُلطخ قيم الحضارة الغربية وكابوساً يخيم على التطور التاريخي للبشرية. وأضحت عبارة *Turco* (بصيغتها الإيطالية) مرادفاً للتعصب والجهل والتخلف. وعكس المؤرخون الأوروبيون بوجه عام هذه النظرة المتحيزة،

(1) راجع البحث القيم الذي كتبه أحمد عبد الرحيم مصطفى بعنوان: في أصول التاريخ العثماني، المقدمة. وكذلك انظر:

Halil İnalcık, *The Ottoman Empire: conquest, organisation and economy* (collected studies), Introduction, pp. I-II

Kemal Karpat (editor), *The Ottoman State and its Place in History*, pp. 1-6.

Albert Hourani, *The Ottoman background to the modern Middle East*, *ibid*, pp. 61-3.

بغض النظر عن قليل من الاستثناءات التي خرجت عن هذه الأحكام العامة.

وعلى أثر انهيار الإمبراطورية العثمانية وظهور عدد من الدول الجديدة على أنقاضها، جرى تفسير التاريخ العثماني من وجهة النظر القومية لكل من هذه الدول، وهي بوجه عام تفسيرات متحيزة ومنقوصة. فقد اعتبرها مؤرخو البلقان والدول العربية الحديثة دولة أجنبية استعمارية عرقلت قيام نظم سياسية حديثة في بلادهم، وجعلوا منها في كثير من الأحوال مشجباً يعلقون عليه مشاكل هذه البلدان ودواعي تأخرها. بل إن غالبية مؤرخينا العرب قد أبدوا نفورهم من التاريخ العثماني الذي لم يلعب العرب خلاله سوى دور ثانوي، واعتبروا ظهور الأتراك نهاية لازدهار الحضارة العربية - الإسلامية، وعقبة في سبيل اقتباس درجات التطور التي أصابتها الحضارة الأوروبية الحديثة.

ومثل هذه الأحكام العامة المتسرعة والانفعالية لا تتماشى مع الحقائق التي تبرزها الدراسة الجادة الشاملة، ولا مع الملاحظة المتأنية لما خلفه العثمانيون في بلادنا من آثار مادية وسياسية وسلوكية تنفي ما يقال عادة من أنهم كانوا مجرد محاربين مجردين من أية قيم حضارية. بل إن هذه النظرة العامة إلى العثمانيين قد انتقلت إلى تركة العلمانية الحديثة، التي قامت على أنقاض الدولة العثمانية، فراحت تكيل هجومها الشديد إلى الماضي العثماني.

غير أنه يستثنى من بين الكتاب والمفكرين العرب والأتراك المعنيين بالكتابة عن التاريخ العثماني، أولئك أصحاب الاتجاهات الإسلامية الراديكالية. فقد انبرى هؤلاء، تحركهم الدوافع الدينية، يدافعون عن الدولة العثمانية على اعتبارها حاضرة الخلافة، وراحوا يقدمون الحجّة تلو الحجّة على فضل هذه الدولة الإسلامية القوية على تحويل مسار الأحداث لصالح الأمة، وأنها كانت الوحيدة القادرة على المنافحة عن الدين والخلافة الإسلامية في وجه الأطماع الأوروبية. ناهيك عن أنها تمكّنت من تحدّي أوروبا الغربية في عقر دارها، عندما شرعت جيوشها في دك أسوار فيينا وكادت أن تستولي عليها في عهد السلطان سليمان القانوني، ومرة لاحقة بعده. أما أساطيل

البرتغاليين التي كانت تجوب منطقة الخليج العربي وتغير على موانئه فلم يتصدّ لها غير العثمانيين أنفسهم، حتى أن المغيرين قد بلغوا في إحدى المرات ميناء جدّة وكان في نيّتهم احتلال مكّة المكرّمة ذاتها، لولا أن أدركتهم القوّات العُثمانية وألحقت بهم شرّ هزيمة وطردتهم.

كما يتمسّك الإسلاميون الرّاديكاليون بفكرة فضل السّلطنة العُثمانية بخصوص الحفاظ على رموز الخلافة - حيث كانت آخر حلقات الخلافة الجامعة الإسلامية في عصرنا الحديث - وعلى إقامة شعائر الدّين. ويسبغون عليها فضل نيل البشارة النبوية الواردة في الحديث الشّريف: «لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلنَعَمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلنَعَمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ»، نعني الفتح العُثماني الإسلامي للقُسْطَنْطِينِيَّة عاصمة بيزنطة وإحدى أبهى معاقل الشّرق المسيحي، الذي تم في عام 1453 م فغيّر وجه تاريخ المنطقة برمتها.

وظهرت على صعيد المنشورات العربية في النّصف الثاني من القرن العشرين أعداد من الدّراسات التي حاول مؤلفوها ردّ الاعتبار إلى دولة بني عُثمان، وتبيان فضلهم في التاريخ الإسلامي، وأنّ السّبب الحقيقي في التّهتّم على ماضيهم إنّما يقف وراءه دعاة الغرب المناوئون للإسلام. ومن هذه الكتب، على سبيل المثال نقرأ العناوين التّالية: الدّولة العُثمانية دولة إسلامية مفترى عليها؛ الفتح الإسلامي للقُسْطَنْطِينِيَّة؛ حياة العاهل العُثماني أبي الفتح محمد خان الثاني؛ تاريخ الدّولة العلية العُثمانية (بتحقيق جديد يتعاطف مع التاريخ العُثماني)؛ موقف الدّولة العُثمانية من الحركة الصّهيونية؛ دور اليهود والقوى الدّولية في خلع السّلطان عبد الحميد الثاني عن العرش؛ صحوة الرّجل المريض.. إلخ.

حتى أن الرّعيم المصري جمال عبد النّاصر، وهو أبرز دعاة القومية العربية في عصرنا الحاضر، خطب مرّة عام 1954 في القاهرة يقول⁽¹⁾:

(1) انظر: العرب والتّرك لعبد الكريم غرايبة، صدر المقدّمة.

«مهما يكن الأمر بيننا وبين تُركية، في الماضي أو الحاضر، فهي مِنّا ونحن منها، ماضينا وماضيتها فصلان من كتاب واحد في تاريخ العرب والإسلام. ونحن إلى كل ذلك أنسباء وأقرباء وأصهار، ففي كل دار من دور العرب على اتساع بلادهم عربيّ يمتّ إلى التُّرك بخؤولة، وفي كل دار من دور التُّرك برغم اعتزالهم في ديارهم تُركيّ يمتّ إلى العرب بعمومة.. فقد اختلطنا نسباً، وإن قامت بيننا الحدود والسُدود والأسلاك الشائكة».



على أن النظرة العامة للتاريخ العُثماني قد أخذت تتعدّل في أوروبا وتُركية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبدأ يشوبها الاتزان والموضوعية. وفي البلقان، الذي اعتنقت كثير من دوله الإيديولوجية الماركسية، فُسّر التاريخ العُثماني بأنه العصر الإقطاعي الذي سبق ظهور البورجوازية الصّغيرة، فالرأسمالية في القرن التاسع عشر ثم الاشتراكية بعد ذلك. وترتّب على ذلك ظهور مادة وفيرة ترتبط بالتطوّر الاقتصادي والاجتماعي. وجرت محاولات مماثلة في البلدان العربية، وإن لم تفِ بتعديل النظرة العامة للتاريخ العُثماني الذي لا تزال دراسته موضعاً للإهمال.

بيد أنّ الاهتمام بالوثائق العُثمانية ودراستها قد عدّلا النظرة إلى التاريخ العُثماني خلال السّنوات الأخيرة، وأضحى التاريخ العُثماني خلال العقود الأخيرة المحور المفضّل لأقسام الدّراسات الشّرقية في جامعات أوروبا وأميركا، بحيث أصبح بالإمكان وضعه في مكانته الصّحيحة في إطار التاريخ العالمي: إذ أنّ الدّولة العُثمانية قد ظهرت في ثنايا ردّ الفعل الإسلامي إزاء أوروبا الآخذة في التّوسّع في شرقي البحر المتوسط خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ورغم استعارتها بعض التّقنيات الأوروبية بطريق التّقليد والتّقل، فإنها تمثل أقوى وأنجح مقاومة لأوروبا من جانب أمة حضارة غير عربيّة. كما أنها لعبت دورها في تكوين ما نطلق عليه اسم أوروبا الحديثة، وفي إعادة تشكيل مجتمعات جنوب شرقي أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا، في الوقت الذي استدامت فيه هوية معظم المجموعات الجنسية واللغوية والدينية

الخاضعة لحكمها.

وهنا، ينبغي لنا التنويه بأن الدولة العثمانية كانت التنظيم السياسي الوحيد في العصور الوسطى والحديثة، الذي اعترف رسمياً بالأديان السماوية الثلاثة، وأوجد بينها تعايشاً سلمياً يشوبه شيء من الانسجام (نظام المِلّيت). وقد بلغ عدد المجموعات اللغوية والجنسية التي خضعت للحكم العثماني بين وقت وآخر أكثر من ستين مجموعة، لعبت فيما بعد دورها، إما في قيام دول قومية حديثة أو في إثارة كثير من مشاكل الأقليات التي استعصى حلّها على الحكومات الحديثة، كما جرى في عصرنا الحاضر مثلاً في أزمتي البوسنة والهرسك وكوسوفا بأقلياتها المسلمة البوسنية والعرقية الألبانية ضمن المحيط الصّربي المعادي لها. على أن الحكم العثماني كان، بشكل أو بآخر، قد أوجد الحلول الملائمة لهذه المشاكل العالقة، واستعاض في كثير من الأحيان بمفهوم «المواطنة العثمانية» عن روابط القومية واللغة وحتى الدين، بصورة أضيق قليلاً.

أما المدرسة الاشتراكية في دراسة التاريخ، والتي أفرزت عدداً من الباحثين المعروفين في التاريخ العثماني، في روسيا وغيرها، فقد قدّمت نظريات رصينة بعيدة عن التحيز، ومن خلال أسلوبها المعهود في تقصي الدّيالكتيك المادي والتاريخي خرجت بملاحظات جديدة بالنظر.

ويمكن لنا، من خلال اقتباس بعض أفكار هذه المدرسة⁽¹⁾، وصف العلاقات الاجتماعية في الدولة العثمانية بعبارة «الإقطاعية الشرقية»، التي يمكن إيجازها بأنها كانت شكلاً خاصاً للمجتمعات ما قبل الرأسمالية، والتي تختلف عن الإقطاع الغربي (الفيودالية) بالمفهوم السّوسولوجي للنموذج الاجتماعي. والفارق الرئيسي بينهما يتبين في أن هذه الإقطاعية الشرقية تمثّلت بصورة «إقطاعية الدولة»، ففي الشرق لم تكن هناك أرستقراطية التّبلاء بالوراثة أو نبلاء الدّم التي ارتبطت ملكية الأرض بهم. فالطبقة الإقطاعية الحاكمة في الشرق، بخاصة الأسر المسيطرة، قد مثّلت أرستقراطية جيل واحد اكتمل عدده عن

(1) رجعنا في ذلك إلى دراسة بالروسية للباحث الرّوسي نيقولاي إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية، 1516-1574، دار المعرفة للنشر، موسكو 1984.

طريق الاختيار بالمصادفة أو الجدارة، وليس بالحقوق العائلية الموروثة.

تميّزت الإقطاعية الشّرقية كذلك بدمج الفرد، إلى أقصى حدّ، بالمؤسسات الاجتماعية والسياسية ذات الطابع الدّيني والتصوّفي الغيبي (الماورائي). وتجدر الإشارة كذلك إلى عامل الزمن، إذ تمّت الفتوحات الإسلامية تحت راية الإسلام ودفاعاً عن حقوق المقهورين والمحرومين. وارتفعت شعارات مجاهدة الكفّار والملاحدة الذين حادوا عن تعاليم الشّريعة المطهرة. ولذا فإن تاريخ الفتوحات العثمانية يقدّم لنا معلومات بالغة الأهمية تدعو إلى التفكير والتأمّل، فالدولة العثمانية شكّلت أهمّ وأكبر دولة إسلامية تستند بالفعل إلى مبادئ الشّريعة الإسلامية، خلال التّاريخ الإسلامي الطويل الأمد، من بعد عصر الدّولة الإسلامية الأولى في عصر الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) والخلفاء الراشدين، عندما كانت الدّولة الإسلامية في طور التّكوين.

وحول مصداقية الدّولة العثمانية في تطبيق شعاراتها ومبادئها الإيديولوجية عموماً، نرجع هنا إلى مقولة للمفكر الفرنسي روجيه غارودي، بأن مقارنة الواقعيّة الغربية بالمثالية الدّاتية للمشرق هي مقارنة غير صحيحة، إذ لا بدّ من مقارنة المثالية بمثالية، والواقعية بواقعية. أما تاريخ الفتوحات العثمانية فهو يتيح فعلاً، وبسبب توافر المادة التّاريخية، المقارنة بين الشّعارات التي رفعها العثمانيون وبين ما تحقّق منها على أرض الواقع. وبكلمة أبسط، يتيح مقارنة «مثاليتها» الدّاتية بـ «واقعيّتها» الدّاتية.



أما حول رأينا الشّخصي في الموضوع، فنرى أن من الواجب إخضاعه لدراسة نقدية باحثة متأنية، بعيدة كلياً عن الأهواء والنزعات - المتحاملة منها أو المتعاطفة - فإنّ تاريخ العرب الحديث ما هو إلا تاريخهم أثناء فترة العهد العثماني بذاته، ودراسة هذه الفترة الحسّاسة الحاسمة في تاريخ العرب كفيلة بوضع الأسس الجوهرية التي ينبغي اتّباعها اليوم وفي المستقبل القريب، بخصوص طبيعة المبادئ الأساسية التي تحدّد هوية الأمة وتعبّر عن قضاياها ومفرازاتها الإيديولوجية. والتّاريخ ما هو إلا سلسلة مستمرة دائمة من المسبّيات والنتائج المرتبطة ببعضها، فلا يمكن لأيّ كان

فصل الماضي عن الحاضر أو الحاضر عن المستقبل.

ولذا، فلا بدّ لأمتنا العربية من إعادة تقييم ماضيها، بخاصة القريب منه، للانطلاق نحو مستقبل القرن 21 وتحديات «العولمة» بوعي أكبر وانفتاح أعمق. وهذا ما يتيح مثلاً الإجابة على أسئلة هي غاية في الأهمية، تقع في صميم الحوار الفلسفي الإيديولوجي للأسس النظرية التي تقوم عليها أمتنا:

ما المبدأ الأساسي الذي يحدّد انتماءنا كعرب اليوم: هل هو الانتماء القومي العرقي إلى العروبة؟ أم هو الانتماء الديني إلى الإسلام؟ أم أنه انتماء إيديولوجي مركب يحمل في جناحيه كلاً من مفردات العروبة والإسلام؟

ثم ما مدى نجاح الخطاب السياسي القومي العلماني في خدمة قضايا الشعوب العربية وتحدياتها المعاصرة؟ وهل يقدم الخطاب السياسي الديني حلولاً أكثر نجاحاً وفاعلية منه، أم أن العكس هو الصحيح؟

كل هذه أسئلة جوهرية لا ندعي الإجابة عنها هنا، إنما نرى ونؤكد أن دراسة تاريخنا تحت الحكم العثماني، بطريقة نزيهة وموضوعية، يمكن أن تقدّم لنا صورة إجمالية بالغة الوضوح والتعبير حول هذه القضايا بالذات. وكذلك نعتقد بأن ذلك الحكم العثماني كان يحمل إيجابيات كما كانت له سلبيات، سنحاول فيما يلي إيجاز بعضها قدر الإمكان:

إيجابيات الحكم العثماني

أولاً: أدّت سيطرة العثمانيين على أقطار الوطن العربي إلى توحيد هذه الأقطار في إطار سياسي واحد، بعد أن كانت كياناتٍ متنافرة ومتباعدة، منذ سقوط الوحدة الإسلامية نتيجة لضعف الخلافة العباسية، قبل ستة قرون من الحكم العثماني. هذا رغم أن هذه الوحدة السياسية التي حقّقت استقراراً سياسياً نسبياً، فرضت في الوقت نفسه جموداً وعزلة على نشاط العرب في المجال السياسي خصوصاً.

ثانياً: استطاع العثمانيون وقف توغل البرتغاليين في البحار العربية، بالبحر الأحمر والخليج العربي، بعد أن كان عجز المماليك وحلفاؤهم العرب من المغاربة وغيرهم عن الوقوف أمام تهديدات البرتغال لأقطار الوطن العربي. وكان العثمانيون بوقفهم هذه قد بسطوا حمايتهم على أقطار الوطن العربي ضد الأطماع الاستعمارية الأوروبية، حتى أواخر القرن الثامن عشر عندما بدأ الضعف يدب في كيان الدولة العثمانية ذاتها.

ثالثاً: استطاع العثمانيون ملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردهم من ليبيا عام 1551 م، بعد أن سبق لهم أن طردوهم من جزيرة رودوس التي انتقلوا إليها إثر طردهم من فلسطين على زمن سلاطين المماليك في مصر والشام. كما تمكن العثمانيون من كسر شوكة الإسبان في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وفرضوا حمايتهم على الأقطار العربية في شمال أفريقيا.

رابعاً: فرضت الدولة العثمانية أثناء صدامها مع البرتغاليين حول مداخل البحار العربية تقليداً جديداً يقضي بمنع دخول المراكب الأوروبية في البحر الأحمر بحجة أنه يطل على الأماكن المكرمة للمسلمين في القرن الثامن عشر. وهذا التقليد أفاد الوطن العربي ومنع الدول الاستعمارية الأوروبية من تحقيق أطماعها فيه.

خامساً: استفادت شعوب الأمة العربية الإسلامية من الحكم العثماني ذي الوجه الإسلامي في تقوية الحياة الدينية الإسلامية. وذلك أن الحكام العثمانيين حافظوا على مشاركة الشعوب العربية الإسلامية في كافة الاحتفالات الدينية، ومراعاة الشرائع الإسلامية، وكل ذلك انعكس على تأكيد القيم والمبادئ الدينية في نفوس العرب المسلمين.

وكان الاتصال بين العرب في موسم الحج، أو التعلم بالجامع الأزهر وغيره من المساجد الكلية الجامعية، من عوامل ترابط العرب المسلمين واتصالهم الوثيق بعضهم ببعض، وتأصيل القيم الدينية في نفوسهم. خاصة أن التعليم كان جوهره دينياً، وكان يؤدي وظيفة اجتماعية بما يضيفه على المتعلم من مركز اجتماعي ومادي. وخلال فترة الحكم العثماني بالوطن العربي بقي نفوذ العلماء وكبار رجال الدين لدى السلطات الحاكمة التركية قائماً وقوياً، وأقبل كبار رجال هذه السلطات على تشجيع

العلماء ورصد الأوقاف الخيرية والتعليمية، بل وعلى حضور مجالس العلم العامة والخاصة، ومنح الهدايا والمُنح للعلماء من وقت لآخر.

سادساً: استفادت الشعوب العربية من أن الحكم العثماني للأقطار العربية كان حكماً غير مباشر، حيث لم يتدخل العثمانيون في تغيير البناء الاجتماعي والاقتصادي السائد في العالم العربي قبل القرن السادس عشر، وتبعاً لذلك احتفظ العرب تحت الحكم العثماني بمؤسساتهم السابقة ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم. وليس أدلّ على ذلك من أن العثمانيين أبقوا على التقسيم الشائع في المجتمعات العربية الإسلامية إلى طبقات: رجال السيف، ورجال القلم، والتجار، وأصحاب الحرف، وأهل الدُّمة، والعبيد. كما أبقوا على انتظام أصحاب الحرف في طوائف لكل منها شيخ ينظم شؤون العاملين فيها مع كامل هيكلتها الإدارية الأصلية.

هذا ناهيك عن أن نظرة الحكام العثمانيين لغالبية الأقطار العربية في المشرق كانت نظرة إجلال وتقديس واحترام تام، فالحجاز مهد الإسلام ومهبط الوحي، والشَّام الشريف موئل الأنبياء والأولياء والأبدال والصّالحين وبوابة الحجّ، أما مصر فهي كنانة الله ودُرّة المشرق.

ونتيجة لبقاء التراث العربي بعيداً عن تدخل التنظيمات العثمانية، فقد استفاد العرب في بقاء الفكرة القومية ومقوماتها في نفوسهم، إلى أن تهيأت لها الظروف في أوائل القرن العشرين لتنتقل إلى مجال الإعلان والتحرّك نحو الوجود والتحقيق.

سلبات الحكم العثماني

أولاً: قصور إدراك العثمانيين لمدى حجم وظائف الدولة ومسؤولياتها نحو رعاياها. ذلك أن هذا الإدراك كان يقوم على أن مهمّة الدولة تتمثل في ثلاثة أمور فقط:

1 - الدفاع عن الولايات ضدّ أية اعتداءات خارجية، وهذا يستلزم وجود قوَّات عثمانية تدافع عن البلاد أو تشارك في مهاجمة القوى المعادية للسلطنة، كما تحافظ

أيضاً على الأمن والنظام وعلى ضمان تبعية الولايات. فلذا كانت مهمتها عسكرية وأمنية في آن واحد. وبطبيعة الحال فالقوات التي وجدت بالولايات العربية لم تكن عربية، إنما كانت عثمانية بتشكيلاتها، ممّا أفقد المواطنين العرب الإحساس بقدرتهم على حماية بلادهم والدفاع عنها.

2 - تحصيل الأموال الأميرية (الضرائب) على تنوعها، ثم توزيعها على وجوها المختلفة عن طريق إدارة مالية. وأهم وجوه إنفاق هذه الأموال هو إرسال الضريبة السنوية للسلطان التي تعرف بالميري، إلى جانب الرسوم السنوية الأخرى. ولم يكن ذلك يتطلب أكثر من الإشراف على الموظفين الذين يجمعون الضرائب والملتزمين، ولا يهتم ما يقع على الرعايا من ظلم أو إجحاف.

3 - الفصل في الخصومات بين الناس، وهذا أمر يستلزم من الدولة إقامة نظام قضائي حسب ما تقضي به الشريعة الإسلامية، الأمر الذي يحظى بأهمية خاصة لدى السلطان العثماني، باعتباره خليفة المسلمين في الوقت ذاته.

ولم يكن إدراك العثمانيين لوظائف الدولة ومسؤولياتها، في ذلك العصر، ليعي بأن هناك أموراً أخرى على درجة من الأهمية تدخل في وظائف الدولة، مثل التعليم والصحة والتنمية الاقتصادية والرعاية الاجتماعية، ولذلك فقد تركت الدولة العثمانية هذه الأمور للأفراد والهيئات تقوم بالصرف عليها، باعتبارها خارجة عن مسؤولياتها التي حددتها الأنظمة الموضوعة⁽¹⁾.

ثانياً: طبيعة نظرة العثمانيين إلى المجتمع وتقسيمه إلى طبقتين متميزتين:

1 - الطبقة الحاكمة التركية، التي كوّنت داخل مجتمعات أقطار الوطن العربي أرستقراطية حاكمة منعزلة عن بقية أجزاء المجتمع، بحكم اعتبارها لمكانتها ووظيفتها وإحساسها بذاتيتها. واستمدّت هذه الطبقة كيانها بالطبع من قوة الدولة وسلطتها المطلقة.

(1) وإن كنا بطبيعة الحال لا نستطيع افتراض وجود مثل هذه النظرة الواعية آنذاك، على غرار ما هو مألوف في أنظمة الحكم الحديثة المتطورة، بل إن الواجب تطبيق معايير كل عصر على الدول التي قامت فيه، لا الشطح بالمقارنات والمعايير عدة قرون إلى الأمام.

2 - الرعايا العرب في بلادهم الخاضعة للحكم العثماني، الذين كان عليهم خدمة الطبقة الحاكمة ومدّها بكل ما تحتاج إليه، كما كان عليهم تنظيم أمورهم الحياتية بمفردهم حسب مألوف ما اعتادوه قبل مجيء العثمانيين.

ولا شك أن هذه النظرة القاصرة نحو تقسيم المجتمع قد تركت تأثيرات سلبية على المجتمعات العربية، أدت إلى عدم شعور المواطن العربي بالولاء الكامل للدولة العثمانية، بل أحس كل مواطن بولائه لوطنه وقطره الذي ولد فيه.

ثالثاً: الرّجعية وعدم التجديد، اللتان كانتا من معالم السياسة التي جرى عليها الحكم العثماني في البلاد العربية. فلقد رأينا هذا الحكم يستبقي على الأوضاع الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمعات العربية كما كانت قبل الغزو العثماني للأقطار العربية، بل إننا نرى أن مجموعة النّظم والقوانين التي وضعت في عهد أوائل السلاطين الفاتحين، سليم وسليمان⁽¹⁾، قد بقيت نافذة المفعول وظلت أساساً سار بموجبه السلاطين الذين خلفوا أصحاب القوانين وواضعيها. وإن دلّ هذا على شيء فإنما على أن الدولة العثمانية لم تكن ترجّح كثيراً بأيّ تجديد في نظم الحكم السائدة أو في عادات الناس وتنظيماتهم الاجتماعية.

رابعاً: الطابع العسكري للحكم العثماني في الأقطار العربية، الذي تمثّل في اعتبار الجيش العثماني أداة للحرب وأداة للحكم معاً، باعتبار أن الجيش العثماني غزا وفتح أقطار الوطن العربي وسيطر عليها، ومن عقب ذلك تفرّعت منه أداة الحكم في الولايات. ولا شك أن ذلك كان له تأثيره السلبي الخطير على الجيش نفسه، الذي راح يتبعد عن وظيفته الأصلية وهي الدفاع عن البلاد، وتأثيره على العرب الذين يخضعون لحكم عسكري يبعدهم عن حياتهم المدنية ويقاسون خشونة الحكّام العسكريين الأتراك وغلظتهم.

خامساً: سوء الإدارة العثمانية، التي تجلّت في الاهتمام بالمدن والبلاد الواقعة على

(1) راجع: قانون بني عثمان المعروف بأصف نامة، للطفي باشا وزير السلطان سليمان الكبير، نشره الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1911.

سواحل البحار والطرق الرئيسية، دون الاهتمام بالمناطق الصحراوية الريفية والنائية من أقطار الوطن العربي، فتركوها في يد رؤساء القبائل والعائلات يدبّرون أمرها بما تعودوه من أساليب الحكم القبلية.

سادساً: فرض العزلة على الوطن العربي، وحرمان الشعوب العربية من الاتصال بالحضارة الأوروبية الناهضة، بدعوى الخوف على الأقطار العربية من أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية. وإذا كانت الأقطار العربية قد استفادت حقيقة ببقائها بعيدة عن أطماع الدول الأوروبية قرابة ثلاثة قرون تحت الحكم العثماني، أي إلى أواخر القرن الثامن عشر، فإن العزلة التي عاشتها قد جعلتها تتخلف مئات السنين عن البلدان الأوروبية الناهضة.

غير أن ثمة رأياً يقول: إن مسألة ربط تخلف الأمة العربية عن ركب التطور الحضاري بحكم العثمانيين لها، أمرٌ يحمل قدراً من المبالغة وهو يظلّ من قبيل إلقاء تبعات التقصير على الغير. فتاريخ العرب أثناء الحكم العثماني مليء بالشواهد الحية على أن الكيان القومي العربي ومؤسّساته الدينية المغرقة في الأصولية آنذاك، كانت رافضة كل الرّفص أي احتكاك بالغرب «الملحد»، وتعتبر كل ما يتأتى منه من قيم وأخلاق وعلوم ومعارف أمراً مجلوباً مقيتاً، بل وتصفه بكل صرامة تحت خانة «البدع المرفوضة». فإن كان أبناء ذلك العصر لم يتمكنوا، ضمن مجتمعاتهم الداخلية المستقلة عن تأثير العثمانيين، من تجاوز المشاحنات والتحامل والسلبية ما بين المذاهب والأقوام والإفرازات الفئوية والعشائرية والإقليمية، فمن يتخيّل أنهم بإيديولوجياتهم الشيوعية والفئوية المحافظة كانوا مهيبين لمسألة الانفتاح والتمازج الحضاري مع كيان مُعادٍ وغريب كأوروبا؟

سمعنا وقرأنا بعضهم يطرح المقولة التالية: ليت أوروبا أدخلتنا قسراً في فلكها الحضاري وطوّرت شؤون حياتنا بالإكراه عن طريق استعمار بلادنا بدلاً من العثمانيين أنفسهم! هذا طبعاً منطق مرفوض جملة وتفصيلاً، فعندما قامت فرنسا، وهي أرقى دولة في مطلع القرن العشرين حضارة وثقافة وعلماء، باحتلال سوريا (1920-1945)

تحت اسم الانتداب، هبّ الشعب العربي السوري وبذل كل ما بوسعه ثائراً في وجه الاستعمار البغيض إلى أن نال استقلاله عنها.

إنّ أمتنا العربية لم تكن أبداً مهتأة عشية مطلع العصور الحديثة لتعاطى معها أوروبا بشكل سلمي وحضاري إيجابي، فهي كانت محطّ أطماع الغرب بأسره، أما الدولة العثمانية فكانت على علاقتها وتخلفها وظلمها تمثل الحد الأدنى المطلوب للوحدة السياسية للمشرق العربي، تحت إطار الرابطة الإسلامية الجامعة. ويكفي للدلالة على ذلك أنه بمجرد انهيار الكيان العثماني تمزق الوطن العربي بين براثن الاستعمار الأوروبي، الذي استولى على أقطارنا الواحد تلو الآخر. وعندها فقط ظهرت الصورة الحقيقية للـ «الغرب المتحضّر»، ومدى ما كان يهيئه للعرب من حضارة ومدنية، اللهم بالحديد والتار.

لم يكن من الوارد لأمتنا العربية النهوض إلا في أواخر القرن التاسع عشر، عندما تنامت حرية الفكر ونضجت، وبدأ يظهر الفصل بين القومية والدين. ومن المفارقات التي غابت عن أذهان الكثيرين أنّ الحركات الإصلاحية العثمانية ذاتها، وبخاصة عهد التنظيمات الخيرية (بدءاً من عام 1839 م) كان لها أبلغ الأثر في خلق الفعاليات الفكرية العربية، ومهدت لقيام مناخ إيديولوجي أكثر نضوجاً، كان من ثماره فهم كل من التُّرك والعرب على حدّ سواء وجوب إدراك حضارة الغرب. وتناهى ذلك إلى وعي العرب قوميتهم ووجوب تخطي نطاق «الوحدة الدينية» التقليدية إلى أفق الحرية السياسية البراغماتية، وضرورة الانعتاق من الحكم العثماني البالي المترهل، والانطلاق إلى بناء المجتمع الحديث المتحضّر.



وختاماً، فينبغي لكل دارس لتاريخنا العربي والإسلامي، عدم القفز على القرون الأربعة التي حكمت الدولة العثمانية خلالها مساحات واسعة من وطننا العربي، وتبرير ذلك بأن الحكم العثماني للبلدان العربية لا يعدو أن يكون فترة جمود وركود، بل واستعمار أسود واستغلال. إذ لا مرأى أن هذه الفترة تشكّل جزءاً لا يتجزأ من التاريخ

العربي والإسلامي العام، وبدونها لا يمكن تفسير كثير من الأوضاع والنظم العربية المعاصرة.

وينبغي كذلك لكل دارس، لا بل لكل مثقف عربي، أن يعي الفارق الجوهرى الكبير، ما بين التاريخ العثماني ككل والمرحلة الأخيرة من عمر الدولة العثمانية، والتي تسّمت مقاليد الحكم فيها جمعية الاتحاد والترقي، فتعاظمت إبانها حركة التعصّب الطوراني ضد العروبة، وتم ارتكاب جرائم الإعدامات بحقّ الوطنيين العرب وغيرهم.

هذا مع العلم بأنّ هذه المرحلة الأخيرة لا تعدو الثماني سنوات، بين 1908-1916 م، غير أنها طبعت التاريخ العثماني برمّته في أذهان الناس بالصّور الدّموية من جّور وعسف وإعدامات وفظائع. رغم أن تاريخ الشّام ما قبل ذلك، في غضون عهد التنظيمات الخيرية (1839-1908 م) شهد رخاءً ونهضة مدنيّة وحضارية، لا مثيل لهما في مجمل ماضيه. وهذا ما نراه بكل وضوح عند تتبّع الآثار والأعمال الباقية من فترة التنظيمات، في كل من دمشق وبيروت والقدس وكافة كبريات المدن في بلاد الشّام والحجاز.

ونرجو أن يكون في عملنا هذا ما يفيد ويمتّع.
والحمد لله على ما وفق وأعان.

جبيل، 29 أغسطس 2012

د. أحمد إيبش

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبية، يواجه القارئ العربي دوماً خللاً كبيراً لم يتمكن مجامعنا اللغوية من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتباع طريقة اللّغة التركية العثمانية القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسية، أمّا في الاسماء الإيطالية والإسبانية فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاجين، سلجوق. وهو ليس بحرف عربي، ويمثله في الإنكليزية ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسبانية كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يمثله في الإيطالية حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويمثله في التركية حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّج، شلونج، پاچه. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرققة، التي يُعبر عنها في التركية العثمانية والفارسية والأوردية بحرف: ژ، ويمثّلها في الفرنسية والبرتغالية z والإنكليزية zh والروسية ж والبولونية z والحيكيتية ž.

3 - أما عقدة الترجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغوية، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشام: غوجل، وفي العراق: گوگل، وفي السعودية: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: فوغل، وفي فلسطين: چوجل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعداد، چدعون، چدّول، رامات چان (علماً أن ٦٥ هي ذاتها جَنَّة بالعربية أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهـي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كلوقز، قَلَف. ومن مظاهر التشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجرية: جَلنط Galant، كتالوج Catalogue جَندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيات العربية باسم (الجيم اللهوية) تمييزاً له عن (الجيم الشجرية) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربية القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عربّوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نسمّه بثلاث نقاط: (غ) تمييزاً له عن الغين العربية المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميز: ولتكن بقلم المُسنَد الحِميري اليماني، أو جيماً كنعانية، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللسانيات التيمانية» تحتمل الإقلاب بين الجيم المُشبعة وهذه الجيم اللهوية، التي حافظت عليها القبطية بمصر كاليونانية γ المفتقرة إلى جيم مُشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربية الجنوبية القديمة، وما زالت في العبرية والسريانية كالجيم المصرية.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهوية، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غُيُوم). وكذلك حلّ الطليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهوية. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطالية فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كِيِفُو).

وأما الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانية القديمة تُكتب الجيم الشجرية كالعربية ج، وأما اللهوية فاستعاروها من الفارسية گ. وفي التركية الحديثة بالأبجدية اللاتينية جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهوية، كقولهم: gerçek (غِرْچَك)، وحرف c للجيم الشجرية، كقولهم: geceler (غِجَلار)، Avcı (أَوْجِي)، Cem (جَم).

أما الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجرية أصلاً بل لهوية فحسب، كما في: Gewehr (غيفير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربية لقوا التباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (بوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأما لدى الإسبان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتالية أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصوتية اللفظية ثمة مناطق تلفظه غيناً لهوية، وسمعتُ بأذني في غرناطة من يلفظ اسم Aragon: «آراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التعبير في العربية عن حرف الجيم اللّهي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السعودية) يمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع الكلمات الأجنبية، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرُنْجال،

بلجاريًا، مِجَنْطِيس، إَجْرِيق.. أم هل نسمّى البُرْغُل مثلاً: بُرْجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركية bulgur).

4 - ثمة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أو Gervais، ونظراً لانعدام وجود الكسرة الممالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التّباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربيّ تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويّز كولي (وهي أدبية ورخالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيّويه، خسرويه، حُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللغات الكنعاويّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وستّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليّه، رُنيّه، غارنييه، جرّفيّه. والأسماء الإسبانيّة: خوسيه، بيكيّه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسباني Condé كوندّه، أو Enrique إنريكيّه، والألماني Porsche پورشه، أو Pritzke پريتسيكه، والهولندي Goeje غوئيّه، والبولوني Tyskie تيسيكه، والإيطالي Simone سيمونه، أو Michele ميكيله.

5 - نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصحّ بالألمانيّة: مدينة لايتسيك وليس لايزغ،

زولنغن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، فلهم وليس وليم، ريكارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميركا وليس أمريكا، فارشافا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس بكين. وفي البرتغالية الأصح لفظ: كريشيانو، كوشتا، جواو. ولكن ثمة أسماء رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربية مثل: برشلونة (وصوابها بالقطالانية: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتالية: دون كيخوته)، باريز أو باريس (وصوابه بالفرنسية: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجان (غي دي لوزينيان)، وليم الصوري (غيتوم)، برج إيغل (وصوابه: آيفل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أن أحفاد كنعان العاشقين للفرنسية يصرون على لفظ الكنى الأرمنية المنتهية جميعها بلاحقه: ian بلفظ فرنسي فيه غنة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Partisan، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسي، علماً أن ثمة شيئاً في التركية يسمى: Yumuşak Ge أي الجيم الطرية، تلفظ كمدة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آج.

6 - حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينية: الإيطالية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والرومانش والرومانية، ما خلا حالة في البرتغالية بآخر الكلمة مع الألف والواو فيقرأ ياء، مثل: Covilhã كوفيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أنري، وهو بالإيطالية إنريكو، والإسبانية إنريكه. وأيضاً فيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7 - وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربية التي ترد على السنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظية مختلفة دون انتباه لأصولها العربية، كالاسم التركي ميرفت Mervet الذي ترتمت به الأسماع دون إدراك أن أصله: مروة. أو اسم فتاة الشاشة التركية Tuba الذي يكتب لدينا بالعربية «توبا» على أنه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبى.

وثمة كنية عريقة في لبنان: جانييه، يطيب للناس أن يلفظوها بلكنة فرنسيّة: Jean-Bey بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتركيّة: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نَفْس. وكذلك اسم قَبْلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتركيّة: النمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلينيّة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سمّيت بها بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أن حرف الشين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوّطاً بعد 27 قرناً من الزّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة. وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش



التَّسميات التُّركيَّة

بما أنَّ هذا الكتاب يتناول جزءاً من تاريخ الدَّولة العُثمانيَّة وولاياتها في القرن الثَّامن عشر، فهو يحفل بكَم كبير من التَّسميات التُّركيَّة التي كانت تُكتب آنذاك بالحرف العربي، غير أنَّ المؤلِّفين استخدموا بالطبع لرسمها الحرف اللاتيني، وفق أسلوب كتابة التُّركيَّة اليوم (القائم منذ عام 1928)، ولكنهما مع ذلك استخدموا بعض الرَّموز الدَّلاليَّة المختلفة التي ينبغي لنا توضيحها هنا. وأنا بالطبع عمدت إلى ردِّ التَّسميات بالحروف العربيَّة، وفق الكتابة العُثمانيَّة القديمة غالباً، والتي تختلف عن كتابة هذه التَّسميات بالعربيَّة، وما زال بعضها مستخدماً إلى اليوم.

مثال ذلك: تستخدم في مصر عبارة «بلطجي»، بينما أكتبها كما هو أصلها: «بالطَّه جى». وترد في الشَّام كنية: شُرْبِجي، لكنني أكتبها كأصلها: «چوزبَه جى»، أو كنية: «قَبَه قولى»، فأكتبها: «قاي قُولى». وقد اتَّبعْتُ في ذلك القواميس العُثمانيَّة المعتبرة، مثل: رسملى قاموس عثمانى: محرَّرى على سيِّدى، ناشرى مطبعة وكتبخانه جهان صاحبي مهران، دار الخلافة العلية 1330 هـ.

الدَّراري اللَّامعات في متخبات اللِّغات: محمَّد علي الأنسي، مطبعة جريدة بيروت 1318 هـ.

لكن، بسبب غرابة كتابة بعض التَّسميات قديماً، اضطرَّرتُ لتقريبها إلى النُّطق العربي السَّائد، كما في عبارة: «إنكشاري» التي كانت تُكتب: «يكيچرى»، وعبارة:

«يرمي» (أي رقم 20) التي كانت تكتب: «يكرمي»، وعبارة: «دنيز» (أي بحر) التي كانت تكتب: «دكيز». وفي كل هذه العبارات توسم الكاف بثلاث نقاط وتُلفظ نوناً.

حول حرف الجيم اللّهُوية:

على نقيض ما اتّجهتُ إليه في هذه السّلسلة من كتابة حرف الجيم اللّهُوية G بحرف (غ)، سأضطرّ لكتابته هنا كما كان يكتب باللغة العُثمانيّة القديمة (گ)، مثال: گیرای، جنگیز، سگمن، گدیک، سرگی. وبالطبع فإنّ كتابته بغين (غ) ستكون أمراً غير وارد على الإطلاق، لأننا هنا أمام محتوى تراثي ذي صفة عُرفيّة لا يحسن تشويهه. وفي هذا تأكيد جديد على استفحال إشكاليّة كتابة هذا الحرف بالعربيّة.

إشكاليّة حروف العلة:

لا ريب أنّ أفدح مشكلة أدّت في عام 1928 إلى التحوّل في كتابة اللغة التّركيّة عن الحرف العربي إلى اللاتيني، هي قصور حروف العلة الصّوتية في العربيّة، كما هو الحال في جميع اللغات المسماة بـ «السّاميّة». ففيما تقتصر العربيّة على ثلاثة حروف علة: (ا، و، ي) في التّركيّة 12 حرفاً هي: a, â, o, ö, u, û, ü, i, î, ı, e, y. لا يمكن لثلاثة حروف فقط أن تعبّر عنها بدقة. ولذلك فكان على كل من يدرس التّركيّة العثمانيّة القديمة أن يميّز (سماعياً) الفارق ما بين حرف وآخر، رغم كتابته بحرف العلة ذاته. فمثلاً: كلمة بُيوك (كبير) تلفظ: büyük بينما بييق (شَنَب) تلفظ: büyük رغم تشابههما الكبير لفظياً، ويعسر على غير التّرك نطقهما بشكل سليم.

كما كانت جميع حروف العلة بآخر الكلمة (وهي تفيد التعريف أو التّنوين) تكتب بالّف مقصورة بالإطلاق، رغم أن لفظها يتراوح بين a أو u أو ü أو i أو ı وفي ذلك اختلاف كبير. مثلاً: في التّركيّة عبارة «كُوپرى» تُلفظ إلى اليوم بمصر: «كوبري» بياء، وصوابها: köprü. وعبارة «طوغرى» تُلفظ إلى اليوم بالشام: «دغري» بياء، وصوابها: doğru بواو. وعبارة «اوغلى» تُلفظ إلى اليوم بالشام: «أوغلي» بياء، وصوابها: oğlu بواو.

مع ذلك، حاولتُ في هذا الكتاب إبقاءها ألفاً مقصورة بالإجمال، لكنني في التسميات التي تنتهي لفظياً بـياء تركتها ياءً لصواب لفظها (مثل: أفندي سي)، رغم أنها لم تكن توسم بنقطتين في العثمانية القديمة أبداً. والملاحظ أن هذه العادة ما زالت حية بمصر حتى اليوم، فلا توسم الياء بآخر الكلمة بنقطتين: كما في: مصرى، على، عربى. ولكنهم مع ذلك يخطئون بقولهم: «شوربجي»، وصوابها: çorbacı بحركة تقع بين بين الضم والكسر.

الحروف التُّركيَّة الساكنة:

لا تختلف التُّركية في لفظ حروفها الساكنة عن بقية اللغات الأوروبية عموماً، لكنها اختصت ببعض الحروف المعدلة، كما يلي:

c	تلفظ كالجيم العربيّة	Cennet, cam, cesur
ç	تلفظ مثل ch بالإنكليزيّة	Çırağan, çok, çoban
ğ	الجيم الطريّة، تلفظ كمدة فقط	Ağaç, doğru, doğan
ı	حرف علة بين الضمّ والكسر	Canlı, kırk, çıplak
ö	حرف مرقق مثل ö الألماني	Böcek, döviz, dönmek
ş	تلفظ كالشين العربيّة	Şen, şimdi, şahin
ü	حرف مرقق مثل ü الألماني	Süt, dün, cüce

جميع هذه الحروف ترد في كتابنا الحاضر، بالإضافة إلى حروف أخرى يستخدمها المستشرقون للتمييز بين الحروف التُّركية التي لها مصدران، وهذا للتمييز بينهما، فحرف k للكاف، ويكتبانه k إن كان أصله قافاً. وحرف t للتاء، ويكتبانه t إن كان أصله طاءً. وحرف h للهاء، ويكتبانه h إن كان أصله حاءً، ويكتبانه ħ إن كان أصله خاءً. وحرف s للسين ويكتبانه ş إن كان أصله صاداً.

ولا داعي للشرح فيما يخص حرف پ الأصيل في الأبجدية التُّركية، أما حرف الواو الذي يلفظ بنكهة (ف) مخففة فقد تركته على حاله كما في عبارة: «دوشِرمه»

أو «چاؤش»، باستثناء وحيد حينما كتبت: «فوينوق» حتى يتبين لفظها بشكل واضح، وكانت تكتب بالعُثمانية القديمة: «وينوق». لكن الواو التركية لا تلفظ أبداً مثل v ويُعدّ نطقها لدى الترك بمثابة معيار لصحة اللفظ.

والجدير بالذكر هنا، أنّ هذه الحروف اللاتينية التي صارت تكتب بها التركية اليوم، بما فيها من رموز مستحدثة، إنّما ابتدعها المستشرقون في أواخر القرن التاسع عشر، وأخصّهم المستشرق البريطاني جايمس ردهاوس James Redhouse (ردحاوص) الصّليح باللغة التركية وصاحب القواميس الشهيرة. وكانت النتيجة اعتمادها في عام 1928 لما أدّت إليه من ضبط دقيق لكتابة المفردات والعبارات التركية، فصارت تُكتب كما تُلفظ تماماً، مثلها في ذلك مثل الألمانية والإيطالية، وإلى حدّ ما الإسبانية.

لكن من الأخطاء الفادحة التي تعمّ بين مثقفينا، اعتبار أنّ اعتماد الترك للحرف اللاتيني إنما كان من جرّاء البغض للعرب ولغتهم، وهذا غير صحيح على الإطلاق، بل برّده دقة الضبط وسهولة تعليم اللغة للجميع. ولا يتخيلن القارئ مدى صعوبة ضبط ألفاظ العُثمانية القديمة، ومدى عُسر الحاجة إلى حفظ جميع حركات الحروف الصّوتية من خلال 3 حروف لا غير.



أخيراً، عليّ أن أتبّه أن المؤلفين يستخدمان أداة الجمع الإنكليزية s مع الكلمات التركية، كقولهم: Ağas (أغوات)، Şubaşıs (صوباشية)، ocaklıks (أوجاق لق) بصيغة الجمع. وهذا ما يجعل الكلمات التركية تبدو غريبة جداً ولا تستقيم أبداً. أمّا أداة الجمع في التركية فهي: لر، مثال: Ağalar. لكنني اضطررت لترك عباراتهما على ما هي عليه، لأنّ تحويل علامة الجمع إلى التركية ler, lar سيقلب النصّ إلى صيغة مُقحمة لم يكتبها المؤلفان، وهذه مسألة تثير إشكالية. لكنني أتبّه القارئ إلى عدّم الظنّ أنّ حرف s من أصل هذه الكلمات.

ختاماً، بالنسبة للاحقة التركية lik, lık, lük إلخ، فيمكن كتابتها بالعُثمانية القديمة

على وجهين: لقْ أو لِكَ، وهي تلحق الصّفات فتفيد المصدرية، مثل (آلق) بياض. كما تلحق الأسماء فتفيد التّسبة والمكان، مثل (قيشلك) شتوي، (چيچكلك) موضع الزّهر، (إنجيرلك) موضع شجر التّين.

وفي العُثمانيّة لا وجود لهزمة القطع، فيكتبون: احمد، افندي، اسلام. لكنني سأضطرّ لإثباتها في الأسماء العُثمانيّة هنا، مثال ذلك: «إنجيرلك» بدلاً من (إنجيرلك) كما هو مفترض وكما كتبه قبل سطرين. وأيضاً: «أفندي» بدلاً من (افندي).. غير أنّ الضّرورات تبيح المحظورات.



كتاب دوسون الشهير:

مما أحب ذكره هنا أنّ من بين أهمّ المراجع التي استند إليها المؤلفان كتاب إغناطيوس مُرادجا دوسون Ignace Mouradgea d'Ohsson المعنون: «الجدول العام للدولة العثمانية».

Tableau Général de l'Empire Ottoman, Paris 1787 - 1824.

كان دوسون (1740-1807) مواطناً عُثمانيّاً، ولد لأب أرمني وأمّ فرنسية، وعمل ترجماناً للقنصلية السّويدية في إسطنبول، وقد نال رتبة فارس Chevalier عام 1780 من مملكة السّويد، فلُقّب d'Ohsson تحريفاً عن كنيته بالتركية: طوسونيان. ويبقى كتابه أحد أهمّ المراجع عن الحياة الإداريّة للسلطنة العُثمانيّة، نُشر في باريس بسبعة أجزاء أنيقة حُصّص الأول منها للرّسوم المنقّذة بطريقة النّقش. ولقد بدأ مُرادجا بطباعته ثم تابعه ابنه بعد وفاته، فاستغرقت طباعته 37 عاماً.

هذا ومما أطمح إليه ترجمة هذا العمل الموسوعي الكبير، بما ضمّه من رسوم جميلة نادرة، وخاصّة أنني ظفرت بالجزء الأول بطبعته النّادرة في باريس عام 1787 وبقية الأجزاء مصوّرة من المكتبة الوطنيّة في باريس. وأسأل الله تعالى أن ييسّر لي هذا العمل الكبير ضمن سلسلتنا الرّائدة هذه «رؤاد المشرق العربي».

كذلك لا بدّ من الإشارة إلى أنّ غِب وبوون كانا ينويان متابعة كتابهما الحاضر في جزء آخر يغطّي القرن التاسع عشر، لكن هذا لم يُقَيِّض لهما. ولذا يلاحظ القارئ أنهما وسما هذين الجزئين بعبارّة: الجزء الأول، القسم الأول والقسم الثاني. لكنني اطّرحُ هذه التّسمية على اعتبار أنه لم يظهر غير الجزء الأول، واكتفيت بتقسيم الكتاب إلى جزئين اثنين كما ينبغي.

والحمد لله على ما يشر وأعان.





لوحة من كتاب مُرادجا دوسون
تمثل استقبال الصّرة أمني



نُقِيشة قديمة تمثل السلطان العثماني سليمان القانوني
 للفنان الدنماركي ملكيور لورك Melchior Lorck
 رُسمت في إسطنبول بتاريخ 15 فبراير 1559

المجتمع الإسلامي والغرب

المجلد الأول

الجزء الأول

مقدمة

عندما طُلب إلينا القيام باستطلاع التأثير الغربي على تركيا والأقاليم العربية التابعة لها منذ بداية القرن التاسع عشر، لم يكن لدينا أدنى فكرة عن الطبيعة الهائلة لهذه المهمة، ولا عن الصّعاب التي ستواجهنا. تبدّت أولها لما باشرنا بتحضير قائمة المراجع التي سنعود إليها. لم تكن توجد قائمة كاملة قبل هذا وربما لن توجد أبداً، أما القائمة الجزئية الموجودة فهي تظهر ضخامة حجم المنشورات المتعلقة بهذه البلدان منذ عام 1800. حتى في العمل بالمجال المحدود الذي قام به رُنيه مونييه René Maunier «المراجع الاقتصادية والقضائية والاجتماعية عن مصر الحديثة (1798-1916)»⁽¹⁾ فإن عدد الكتب والمقالات، المدرجة باللغات الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية بالإضافة إلى العربية واليونانية، يصل إلى 6695. وعندما تضاف إليها الأعمال المنشورة المتعلقة بتركيا وسوريا والعراق فإن العدد سيصل على الأقل، في عام 1919، إلى عشرين ألفاً، وربما يعادل عدد ما كتب منذ عام 1919 هذا الرّقم أيضاً⁽²⁾. لكن عندما يبدأ المرء بدراسة ما يصل إلى يده من هذه المراجع سيكتشف

(1) راجع:

Publications spéciales de la société Sultanieh d'Économie Politique, Cairo 1918.

(2) سلسلة مراجع الأدب المتعلق بالأراضي الواقعة تحت الانتداب منذ عام 1919 والمنشورة برعاية الجامعة الأميركية في بيروت باسم (سلسلة العلوم الاجتماعية)، وقد صدر منها ثمانية مجموعات.

فوراً أن قسماً كبيراً منها يتصف بالتقصص إما بسبب قلة الخبرة أو الجهل بلغة البلد أو الاعتماد على ما يقال، أو عدم المعرفة بالخلفية التاريخية للمنطقة، وهكذا. وإن أشهر روايات الرحلات في بداية القرن التاسع عشر، بما لا يقل عن المئة منها، تقع بمثل هذه الأخطاء. بل يضاف إلى ذلك تبنيها لوجهات النظر الرسمية أحياناً أو، على العكس، انتقاصها غير المبرر لقيمة المؤسسات المحلية. أما الانتقاد الآخر الموجه إلى معظم هذه الكتب والمقالات فهو أنها ركزت إما على الحوادث السياسية أو على الوصف الخارجي للمجتمعات (وبالأخص في المدن)، بينما أهملت تقصي البنية الداخلية والقوى التي أثرت في تكوين تلك المجتمعات. حتى في كتاب لاين Lane «المصريون المعاصرون»، بما يمتاز به من روعة، فهو يبعد عن الكمال في عدة نواح، نذكر منها ما يتعلق بالحياة الاقتصادية والصناعية؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى أعمال أخرى ككتاب كرومر Cromer «مصر الحديثة».

هناك خلل مهم آخر هو الغياب النسبي للدراسات الأصلية المفصلة بما يتعلق بعدة مشكلات اجتماعية يتعلق بحثنا بها. لقد اكتفى الكتاب اللاحقون بتصريحات من سبقوهم دون مناقشتها، بينما تم إهمال المواد التركية والعربية، وفي الوقت نفسه فقد لاقينا صعوبة كبيرة في الوصول إلى المراجع والسجلات الوثائقية. وفي الواقع تم بذل جهد ضئيل لمعالجة هذا الخلل خلال السنوات الأخيرة، فتحت رعاية الملك فؤاد بُدئ بتصنيف ونشر السجلات الحكومية في القاهرة⁽¹⁾؛ كما قام الدكتور أسد رستم في الجامعة الأميركية في بيروت⁽²⁾ بعمل رائع، إذ جمع الوثائق السورية المتعلقة بالفترة

(1) راجع:

J. Deny, *Sommaire des Archives Turques du Caire*, 1930; *Receuil des Firmans Imperiaux Ottomans adressés aux Valis et aux Khédives d'Égypte*, Cairo, 1934.

(2) راجع:

Materials for a Corpus of Arabic Documents relating to the History of Syria under Mehemet Ali Pasha, 5 volumes, Beirut, 1930, etc.

الواقعة بين عامي 1830-1840. لكن هذه الجهود لم تقف إلا على جوانب بسيطة من المشكلة الرئيسية ويُخشى أنه إذا لم تتخذ خطوات جدية خلال فترة قصيرة لتكوين سجلات محلية سياسية وقضائية وثقافية وتجارية، فإن جزءاً كبيراً من المواد القيمة سيفقد إلى الأبد.

هناك نقص آخر لا يخفى على من يدركون تأثير الشخصية الفردية في تقديم أفكار جديدة وتطوير الأساليب الحديثة، ألا وهو غياب الترجمات باللغتين العربية والتركية. ففي الأدب العربي يعدّ أهم عمل من هذا النوع ترجمة السيد رشيد رضا لحياة الشيخ محمد عبده، وعلى الرغم مما يتصف به الكتاب من إطالة وملل فإنه يقدم فكرة عن ضخامة الفجوة التي لا يمكن ملؤها الآن. صحيح أنه هناك الكثير من أعمال التراجم، لكنها مقتصرة على المظاهر الخارجية فقط. وفي الأدب التركي لم تتواجد المذكرات القيّمة إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

لا تنطبق هذه الانتقادات على كل الفترات والمناطق والدراسات بشكل متساوٍ، ففي بعض المجالات، كالأمور الإدارية والقانونية، ربما تكون الإصدارات كافية للقيام بالدراسة المرجوة. ومن جهة أخرى، وبالرغم من أهمية الثقافة والعدد الكبير للمنشآت الثقافية الغربية في الشرق، يندر وجود بحوث متعمّقة عنها في مصر أو سوريا⁽¹⁾.

صحيح أنّ التقارير الرسمية والمشاهدات الخاصة قد غطّت جزءاً واسعاً من الموضوع، وأنّ ثمة قيمة يمكن أن تُستقى من هذه المصادر، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو مدى توافقها مع أهداف الدراسة التي نحن بصدد القيام بها. لا بدّ من أن نؤكد مجدّداً أنّ الغاية هنا هي دراسة عضوية للمجتمعات الإسلامية والقوى والأفكار والتّيارات المؤثرة فيها. أما عمل التقارير الرسمية فمختلف، وإن تحليلها للأوضاع القائمة مدون بشكل عام من وجهة نظر إدارية موجهة في اتجاه محدّد، بينما يتجه هدفنا

(1) منذ كتابة هذه السطور صدر المجلد الأول للدكتور ج. هيوورث ديون:

Introduction of the History of Education in Modern Egypt (London, 1939).

إلى سبر أغوارها بشكل موضوعي. إن الشرط الأول في أي عمل مُرضٍ هو التفحص الكامل وغير المتحيز لكل الحقائق المتعلقة بالموضوع، دون محاولة إخضاعها لأية تصورات مسبقة بحيث تتلاءم معها.

أما مشاهدات الكتاب المعاصرين فهي تفتقر إلى العنصر الأساسي في البرنامج الحالي، وهو تتبع التطور الاجتماعي وإسقاط هذا التطور على الظروف الراهنة. لكن هناك مصدرين، إذا تم استخدامهما بشكل صحيح، قد يفيدان في تقديم الدلائل والانعكاسات القيمة للتطور الاجتماعي. أحدهما هو سلسلة التقارير الإحصائية السنوية الصادرة من قبل الحكومة التركية منذ تأسيس الجمهورية، ومن قبل الحكومة المصرية منذ عام 1909، مع وجود بعض التقارير الإحصائية المختلفة التي تعود في تاريخها إلى عام 1870. من الواضح أن تلك التقارير بحد ذاتها ليست هي التي تفيدنا بقدر ما نستفيد من مقارنتها ببعضها على مدى السنين. أما المصدر الآخر فيتعلق بالإنتاج الأدبي في الفترات المتلاحقة، وبالأخص ما يتعلق بالمطبوعات الدورية والأدب الروائي الخيالي. إن هذا المصدر قد ناله الكثير من الإهمال، لكنه مع ذلك يقدم أوضح وأصدق صورة عن القوى الأخلاقية والفكرية في المجتمع. لكن الاستقاء من هذا المصدر يتطلب، ربما أكثر من المصادر الأخرى المندرجة ضمن بحثنا، معرفة عميقة بالفروق بين اللغتين التركية والعربية، وقدرة نادرة على انتقاء الحقائق والأدلة الصحيحة وسط ركام كبير من الهراء.

بدأ الأمر يتضح أمامنا وهو أنه بالرغم من الحرائث المكثفة لحقل بحثنا، فقد كان في جزء كبير منه تربة لم تمسها يدٌ من قبل. وبدا واضحاً من خلال هذا الاستطلاع الأولي أن الموضوع لا يمكن التعامل معه بشكل مباشر دون معالجة من الناحية التاريخية بشكل مفصل. لذلك قمنا بوضع ثلاثة أقسام يدور البحث حولها هي: (أ) استطلاع المؤسسات الاجتماعية في تركيا وأقاليمها العربية التي سبقت دخول التأثير الغربي؛ (ب) دراسة الظروف والآثار المباشرة للتأثير الغربي منذ بداية القرن التاسع عشر؛ (ج) التحقيق بالأوضاع الراهنة والقوى الفاعلة. وفي الوقت نفسه قمنا بتقسيم

الفترات الزمنية مما يجعل المعالجة التاريخية للحوادث تتألف من سلسلة من الأجزاء المتقاطعة يمكن من خلالها إنجاز الهدف الرئيسي قدر المستطاع. أما الخطوة التالية فكانت وضع لائحة بالتقسيمات العمودية، أو بعبارة أخرى تقسيم الحقل إلى عدد من الأجزاء المستقلة القابلة للضبط. وإن رسم حدود فاصلة لهو أمر مستحيل إذ أن الصلة بين الأنظمة الاجتماعية المختلفة تجعل القصة متداخلة ومتشابكة. وإن أكثر خطوط التماس طبيعية هي: أولاً، التقسيم المهني الذي يقود إلى الحكومة والإدارة، ويتبعه تقسيم حضاري يتقاطع مع كل الطبقات والمجموعات. وفق هذا الأساس قمنا بتحضير مخطط كامل يحدّد تحت كل عنوان المسائل التي تحتاج إلى بحث. مع أن هذا المخطط، ولأسباب ستوضح لاحقاً، لا يمثل البرنامج الفعلي لدراستنا فإنه يقدّم الخطوط العامة التي يسير عليها البحث.

1. الأسرة

إن القاعدة الواضحة في أيّ تحقيق اجتماعي شامل يجب أن تكون دراسة الوحدة الاجتماعية التي تكوّنها الأسرة. والمسائل المتعلقة بالموضوع عديدة، ومنها: بنية وتفرعات الأسرة بما في ذلك، إن وجد، نظام الترابط الأسري الذي تعيش ضمنه عدّة أجيال؛ والحقوق والواجبات المشتركة لأفراد الأسرة؛ والسلطة الداخلية لها؛ والصّلات الناتجة عن الزواج والتبني؛ وآثار نظام الموارث؛ وأشكال ملكيّة الممتلكات المنقولة وغير المنقولة، الخاصّة أو العامة؛ والإحصائيات السكانية إن أمكن إجراؤها. بالإضافة إلى تلك المظاهر الوصفية، فإن أحد الأعمال المهمّة للباحث يكمن في تحليل ما يسمى بالروح الأسرية، واكتشاف طبيعة ومثانة العلاقات التي توحد أفراد الأسرة الواحدة ليس فقط من الناحية الشاقولية للنسل بل للفروع المباشرة ودراسة الآثار الاجتماعية لهذه العلاقات، كما هو الحال على سبيل المثال في تكون الجماعات المغلقة والمتخاصمة، وعادة الثّار، وانتقال الوظائف بفعل الزواج والوراثة، والميل إلى محابة الأقارب. يتعلق كل ذلك بشكل طبيعي بالطريقة التي تترابط بها الأسرة مع المجموعات الأكبر والقبيلة والقرية والطائفة... الخ، وقد

يكون من الضروري تقسيم بحث الأسرة إلى فروع أكثر لنقوم بدراسة الأسرة القروية والأسرة الصناعية والأسرة المهنية وهكذا، كوحدات مستقلة مختلفة. أما البحث التالي المدرج في المخطط فيهتم بالتغيرات الناجمة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مما يؤثر في بنية ووظائف وروح تلك الأسر، إما من خلال العمل الإداري أو المبادرة الشخصية نتيجة للثقافة أو التغيرات الاجتماعية (وبالأخص بين النساء)، وأهمية قوة الروابط الأسرية في تحديد البنية الاجتماعية اليوم. وهناك ملحق قيم لهذه الدراسة (يلقي الضوء على مسائل مهمة أخرى) يركز على تصنيف توارخ المجموعات الأسرية البارزة، وتتبع التغيرات البنيوية، والمهن، وعلاقتها بالمجموعات الأخرى.

2. القرية

تلي الأسرة وحدة اجتماعية مهمة في كل البلاد الإسلامية خارج الجزيرة العربية، ألا وهي القرية أو المجتمع الزراعي؛ ومع ذلك فقد تم إهمالها حتى اليوم بشكل واضح. لم يقم أي كاتب مسلم، سواء في العصور الوسطى أو الحديثة، بوصف نظام الحياة القروية في بلده، ومن أجل إنجاز مهمتنا يعتمد جزء كبير من البحث على المصادر الغربية. وهناك صعوبة أخرى هي أن المجتمعات القروية في البلدان المختلفة ليست موحدة في نمطها، فتجد مثلاً أن نظام القرية في مصر مختلف تماماً عنه في فلسطين وسوريا والعراق وتركيا، وفي مصر نفسها أيضاً تختلف القرية في الوادي الأعلى عن «العزبة» في الدلتا.

قد تكون هذه الاختلافات مهمة أو غير مهمة، اعتماداً على طبيعة البنى الاجتماعية المرتبطة بها. وتتضمن النقاط الرئيسية للبحث توزع عدد السكان والأراضي بين المالكين، والفلاحين المستأجرين، والفلاحين الممتلكين، والعمال؛ والروابط الاجتماعية والاقتصادية المتبادلة بينهم والحقوق والواجبات لديهم؛ والسلطة الداخلية (كمثال عليها، العقوبات المطبقة دون الرجوع إلى المحاكم ورجال الشرطة)

والموافقة عليها، وتقدير الضرائب التي يتوجب دفعها، وعلاقاتها بسلطات الأقاليم والمقاطعات، أو وجود عداوات بين الجماعات داخل القرية أو بين القرى المتجاورة؛ والتغيرات التي أثرت في المجتمع القروي، وفق بعض أو كل هذه المظاهر.

هناك مجال ثانٍ للبحث ناجم عن المظاهر الاقتصادية للمجتمع الزراعي؛ والطرق الأساسية والأساليب والتنظيم الزراعي (بما في ذلك نظام الري)؛ وطبيعة نتاج المحاصيل وطرق التخلص من الفائض؛ وتنظيم أسواق القرية والمعارض الدورية؛ واستخدام الوسائل الحديثة؛ والتطور في وسائل النقل والتسويق؛ ونظام التسليف والمصارف؛ ونشوء المشاريع التعاونية؛ وتطور الثقافة القروية؛ وتأثير كل ذلك على القرية والاقتصاد الريفي.

2. (أ) البدو

ويشمل ذلك العلاقات بين القبائل البدوية وسكان الحضر؛ ومهن رجال القبائل في تربية المواشي وتزويد القوافل بوسائل النقل؛ والسلطة في القبائل واستقرارها الداخلي؛ وبشكل خاص الإرث البدوي في التجمعات البشرية من الناحية الاجتماعية والقانونية.

3. الصناعة

بالرغم من إهمال المجتمع القروي، فإنه يعد قد نال حقه من الاهتمام مقارنة بنظام الصناعة المحلية في غرب آسيا ومصر. ويصدق هذا الأمر على الصناعات المنظمة أكثر مما هو في الصناعات القروية البدائية التي ذكرها الكتاب الغربيون في وصفهم للاقتصاد القروي. في هذا المخطط نقوم بدراسة تلك الصناعات المنظمة في المدن والبلدات مع أن الوصف قد يشمل أحياناً الصناعتين معاً.

يجب أن يكون الموضوع الأول في دراستنا هو الوحدة الصناعية، أي المصنع: بتنظيمه وإدارته وتجهيزاته والأشكال المتنوعة للمشاريع الصناعية (بما فيها المصانع

الخاصة والصناعات المحلية أو المعامل الصناعية ذات المستوى العالي الخاضعة لإدارة مالكي رؤوس الأموال، والأوقاف الصناعية). ثم يأتي توزيع المنتجات، وكل المظاهر الاجتماعية للحياة الصناعية: تنظيم الفئات أو المؤسسات الصناعية، وطرق التوظيف والسلطة الداخلية؛ والحالة الاجتماعية وعلاقاتها المجموعات الأخرى والسلطات الإدارية (وخصوصاً المحتسب)؛ والاحتكار الحكومي؛ ونظام توزيع الضرائب⁽¹⁾.

ستشمل دراسة التطورات اللاحقة في الصناعة المحلية، من وجهة النظر الاقتصادية، العوامل التي أسهمت في تراجع بعض الصناعات وبقاء الأخرى، كظهور المنتجات الغربية وتحول الأسواق وتحسن وسائل النقل والتغير في حجم واتجاه القوة الشرائية؛ والتسهيلات المصرفية؛ ودخول الآلات والأساليب الصناعية الغربية؛ ونتائج العمل الإداري (فرض التعريفات وتطور الثقافة الصناعية... الخ)؛ وتقدم الأساليب الصناعية؛ وإعداد الإحصائيات الصناعية؛ ومن وجهة النظر الاجتماعية، اختفاء بعض المؤسسات الصناعية ونشوء أنواع من المنظمات الصناعية؛ والتغيرات في وضع الصناعة والموظفين في مشاريعها؛ وأثر المكننة على المجتمعات الصناعية.

4. التجارة

إن النظام التجاري للبلاد الواقعة في غرب آسيا، حتى قبل القرن التاسع عشر، كان بكل مظاهره نظاماً معقداً بسبب الطبيعة العالمية التي اتخذها منذ البداية. لقد تمت دراسة العلاقات التجارية بين البلدان الأوروبية والمشرق بشكل وافٍ من قبل السيد شارل رو Charles Roux وغيره، لكن التبادل التجاري بين تركيا واليونان وسوريا ومصر والسودان والمغرب والجزيرة والعراق لا يزال حقلاً بكرّاً لم تمسه الأيدي. كثيراً ما يسود الاعتقاد بأن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الموصول إلى الهند

(1) تشمل دراسة هذه المؤسسات حقلاً أوسع من حقل الصناعة، وتتضمن الفئات المختلفة بمن فيهم العلماء والتجار وموظفي الضرائب والشحاذين والراقصين ومدربي القروء. وقد تفيد دراسة هذه الحرف في التحقيق اللغوي المهم والممتع.

قد أدى إلى ركود التجارة في الشرق، لكن بالرغم من أنه قد قلل من حجم تجارة الترانزيت، فقد بقي التبادل التجاري للسلع المحلية قائماً ونشأت المجتمعات الرأسمالية الثرية في كل المدن الرئيسية، وحول تاريخ هذه المجتمعات سيدور بحثنا بالطبع دون التطرق إلى البضاعة المتبادلة بحد ذاتها. وبالرغم من الطبيعة المركبة لهذه المجتمعات فإن تنظيماتها واضحة من خلال التقارير الموجودة؛ أما بنية التنظيمات وعلاقاتها مع التنظيمات الصناعية من جهة والإدارية من جهة أخرى فهي بحاجة إلى توضيح مع معادلة القوى المتعلقة بالأموال المصرفية والمبادلات وأشكال العقود التجارية وقانون العمل والتجارة وأنظمة الاستيراد والتصدير والجمارك والوكالات... الخ.

وارتباطاً مع التطورات الأخيرة، لا بد من دراسة نقاط مهمة مثل التنافس بين التجارة الأوروبية والمؤسسات التجارية، وأثر القوانين الإدارية ونشوء المحاكم التجارية، وتحديث طرق التجارة والتنظيم، وتشكيل الغرف التجارية، والتغيرات في الحالة الاجتماعية للتجار، وهكذا. كما يجب تضمين هذا الحقل تطور المصارف وأنظمة التبادل المالي وعلاقاتها بالمشروع التجاري.

5. المدينة

تم تحت هذا العنوان دراسة البنية الاجتماعية ومؤسسات المدينة كوحدة متكاملة بغض النظر عن الجماعات الفردية التي يتألف منها المجتمع المدني، والتي سنبحثها تحت عناوين مستقلة. يقول شبنغلر Spengler إن المدينة الشرقية ليس لها روح، ويعني بذلك أنها مجموعة من الوحدات وليست منظمة معقدة حية. مهما تكن الحقيقة فقد وجدت بعض أشكال التنظيم في المدن، بدءاً بتقسيم المدينة إلى أحياء وأسواق عديدة تشكل كل منها وحدة مستقلة، ولكل منها شيخ أو رئيس مسؤول عنها، ولا بد أنه كان لهذه التنظيمات شروط للمحافظة على القانون والنظام، ونوع من خدمات الشرطة والصحة، وعلى الأقل العناصر الأساسية المتوفرة في كل حياة

مدنية. اتخذت الدراسة منحى مهماً جداً منذ بداية القرن التاسع عشر، بما في ذلك توسع المدن وتشكيلاتها الخارجية، وتحليل التقسيمات القديمة، ونشوء البلديات وخدماتها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، وهي الأهم، ظهور الطبقة الوسطى وتطور الحياة الفكرية في المدن واتساع تأثيرها، وعلاقتها مع المناطق الريفية وتأثير وضعها المهيمن على الحركات الاجتماعية والسياسية.

6. الجيش

لقد وصفت التنظيمات العسكرية القديمة في الإمبراطورية العثمانية ومصر بشكل وافٍ أيضاً، وبهذا توجد مواد كثيرة من أجل دراسة تكويناتها وأجهزتها وبنيتها الداخلية وقواها العسكرية. مع ذلك هناك متسع للبحث في مكان الطبقات العسكرية في الحياة الاجتماعية للمجتمعات، والمزايا التي يتمتعون بها، وعلاقتهم بالمجموعات الأخرى (وخاصة الحرفيين والعلماء)، والموقف الذي تتخذه الفئات الأخرى من السكان حيالهم، وارتباطهم الديني (وخاصة علاقة الجيش الإنكشاري بالطريقة البكتاشية).

من ناحية أخرى، إن ظهور المؤسسات الأوروبية المتعلقة بالنظام والتدريب وتجهيزات الجيش جعل من الضرورة دراسة الآثار التي تركتها على شخصية وكفاءة القوات العسكرية والبحرية نفسها، وبالتالي على النتائج الاجتماعية المرتبطة بها. وبالمقابل فقد ساعد الجيش في التدخل الغربي من خلال تنظيم الحملات الأجنبية وإرسال المرشدين وتقديم الخدمات الطبية والصحية وتطوير أساليب التدريب وضرورة تأمين المعدات الحديثة. وأيضاً كانت هناك حاجة لدراسة الوضع الاجتماعي ونفوذ القوات المسلحة وبالأخص الدور الذي لعبه أفرادها في الحركات الاجتماعية والسياسية لبلادهم.

7. الحكومة والإدارة

يبدو للوهلة الأولى أن موضوع الحكومة قد دُرس بشكل وافٍ بحيث لا يتسع إلا لمقدار قليل من البحث، لكن الأمر غير ذلك تماماً، فإن التنظيم الخارجي للحكومة

قد وُصف بشكل دقيق أما العلاقات الداخلية بين الحكومة والشعب فلا نعرف عنها الشيء الكثير، وهي تعتمد على نتائج الدراسات السابقة داخل الظروف المختلفة للتقسيمات البشرية (بمن فيهم العلماء - انظر البند القادم) لذلك علينا القيام ببحث دقيق وشامل لهذه المسألة الشائكة. لا مجال للشك بأن الحكومة، بمظهرها الإداري، لم تكن مجرد مجموعة أعراف مفروضة على الشعب وفق إرادة المحتل، بل هي وحدة متكاملة مرتبطة ببنية المجتمع وشخصية وأفكار من تحكمهم، وكان هناك تفاعل دائم بين الحكام والمحكومين. لا بدّ من توضيح المفاهيم المحدثة بسبب سوء استخدام المصطلحات الأوروبية كالحكم المطلق والحكم الذاتي، وإخضاع كل الوسائل والأساليب الحكومية القديمة للبحث والتحقيق من أجل فهم الأفكار والصّلات والمبادئ التي تسيّر عملها. تتضمّن هذه الدراسة تحليلاً معقداً للمركبات النفسية، وربما تكون أصعب مهمة في البحث كله. من المستحسن أيضاً متابعة مسألة أسباب الانحطاط الإداري الواضح خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر وتفتحّص إن كان ذلك أحد أعراض تفسخ النظام بأكمله أم أن هناك عناصر كافية قد تبقت من أجل الإصلاح والبناء دون تدخل المؤسسات والأفكار الأوروبية.

ما لم تتم هذه الدراسة الأولية حول الوظائف والمبادئ والتركيبية النفسية التقليدية للحكومة في العالم الإسلامي، فإن البحث اللاحق للتفاعلات الاجتماعية مع التغيرات الإدارية والسياسية في الأزمنة الحديثة سيعاق حتماً، وسيختبط الباحث في الظلام. هناك تغيرات واضحة أحدثها انتشار الأفكار الغربية (كالأفكار الليبرالية في القرن التاسع عشر والأفكار الديكتاتورية في القرن العشرين) بواسطة التطورات المؤسسية والبيروقراطية، وتوزيع الوظائف بين الأقسام الحكومية، وتأمين الخدمات الاجتماعية، والتغيرات الاقتصادية وغيرها، وتبقى مع ذلك خصائص مورثة متأصلة لا يمكن محوها بسهولة. تنطبق الاعتبارات نفسها على دراسة الأثر الاجتماعي للحركات السياسية الأكثر تشدداً كنهوض الأحزاب الوطنية وردود الفعل ضد الهيمنة السياسية الغربية والصّلات المتبادلة بين الأقطار الإسلامية.

8. الدين

لدى مناقشة موقع الدين في الحياة الاجتماعية لا بدّ من دراسة مظهرين مميزين مرتبطين ببعضهما. الأول هو تأثير المبادئ والأخلاق الدينية في حياة أفراد الطبقات الاجتماعية كلها والمجموعات كوحدات متكاملة وعلاقتها بالعادات والعناصر الغريبة عن الإسلام المتداخلة معها. أما الثاني فيتعلق بالتنظيم والتطبيقات والوظائف في مختلف المؤسسات الدينية. يأتي العلماء في المقام الأول في هذا المجال، وبالرغم من كل ما كتب عن الموضوع فهو لا يزال بحاجة إلى بحث أوسع عن تنظيم وتجديد وثقافة العلماء ووضعهم الاجتماعي خاصّة أثناء الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر (على سبيل المثال، ما يتعلق بانتشار وراثه المناصب الدينية وشراء الوظائف الدينية)، وعلاقتها بالحكومتين المركزية والمحليّة، والإدارة القانونية، والقوانين الدينية، وتعداد سكان المدن والمناطق الريفية. ومن الأهمية بمكان دراسة الطرق الدينية ونظام الدراويش وبنيتهم الاجتماعية وشعائهم وأقسامهم وصلتهم وتأثيرهم الخاص على فئات معيّنة، عسكريين ومدنيين، في المدن والقرى على حدّ سواء. لكن من الخطأ أن نقصر البحث على المؤسسات الدينية المرتبطة بهاتين الفئتين من رجال الدين، بل لا بدّ من فهم ارتباطها بالمؤسسات الأخرى وتركيزها على عقيدة الولاء الديني. وبهذا يمكن لكل فئات الشعب الانضمام إلى البنية الدينية بدءاً بالسلطان وانتهاءً بالفلاح. هذا الجانب من اشتراك الجميع بالدين هو الذي يحتاج إلى بحث واسع مع مظاهرها الخارجية المتعلقة بالشعائر العامة والاحتفالات ونظام الأوقاف والوسائل الأخرى التي من شأنها المحافظة على الحياة الدينية المشتركة ومؤسساتها المختلفة والتقييد والقلقل الناجمة عن ظهور الفرق الإسلامية.

من هذا المنطلق يجب متابعة التطورات الدينية للتاريخ الممتدّ منذ نهاية القرن الثامن عشر. كما يجب دراسة اضطراب النظام القديم بسبب التغيرات الإدارية والاجتماعية والاقتصادية، وأثر بعض الحركات كالوهابية⁽¹⁾ والسنوسية والمهدية

(1) كذا بالأصل، والأصح: حركة الإصلاح السلفي. (أحمد)

والجامعة الإسلامية، وحركات الإصلاح، والبعثات التبشيرية المسيحية، وتغيرات الثقافة الدينية وآلية النظام الديني، وتسرب الأفكار الغربية داخل وخارج طبقة العلماء، ونشاطات الأنظمة الدينية... الخ، وإن التأثير الكامل لكل ما سبق لا يمكن تقديره إلا بارتباط الحياة الدينية مع مناحي الحياة الاجتماعية ككل.

9. التعليم

لا يمكن فصل البنية التقليدية للتعليم والقانون عن الدين (انظر البند العاشر)، لكن بسبب الفصل اللاحق بين هذه الميادين الثلاثة وجدنا أنه من الضرورة بحث كل واحد منها على حدة. كانت المنظمات التعليمية القديمة مرتبطة بشكل وثيق مع منظمة «العلماء»، ليس بسبب رجحان عدد التلاميذ والمواضيع الدينية فحسب، بل بسبب المفاهيم السائدة حول أساس وأهداف التعليم. وبهذا ينبغي القيام بدراسة مفصلة من أجل توضيح نقاط عدة التبت في أذهاننا في الوقت الحاضر وتصورناها بشكل خاطئ، كوجود المدارس والإدارة في البلدات الصغيرة، وتدريس مواضيع أخرى غير دينية، وتعليم طبقتي العسكريين والموظفين، وبشكل خاص الأدب وحرفته في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

بدءاً من هذه الفترة وما بعدها، أخذ التعليم الديني بالتراجع نظراً لانتشار طرق التدريس الغربية بفضل البعثات العلمية إلى أوروبا وتزايد عدد المدارس الأوروبية والتقنية، ونشوء المراكز التعليمية الحكومية. أدى ذلك كله إلى إثارة مشكلات اجتماعية ناجمة عن المؤسسات التعليمية وآثارها على المجتمع. لا يمكننا تلخيصها هنا بسبب كثرة عددها⁽¹⁾، ويمكن ذكر أهمها كنشوء أهداف جديدة للتعليم، والتأثير النسبي للمدارس الدينية والحكومية والخاصة والأجنبية، والاستمرار في إضعاف

(1) للاطلاع على المناقشة الكاملة للموضوع اقرأ مقالة «ردود الفعل الاجتماعية في العالم الإسلامي»، في:

التمييز الطبقي، ومكانة اللغة الأوروبية في التعليم وأثارها على اللغتين المحكية والأدبية، ونتائج تعليم الفتيات. كما يتعلق بموضوع التعليم أيضاً مسألة التطور الفكري بما في ذلك الأدب والعلوم والطب والفن والموسيقى والمعدات التقنية.

10. القانون

سبق ونوّهنا أن المفاهيم التقليدية للقانون والإدارة القانونية العامة مرتبطان بشكل وثيق بموضوع الدين، لكن صلة القانون بالمؤسسات الدينية لم تكن بتلك القوة التي اعتقدها الناس. صحيح أنّ المحاكم وحيدة التي كانت تملك السلطة والقبول المطلقين هي المحاكم الشرعية التي يديرها القضاة ونوابهم، وصحيح أيضاً أنّ القانون المدوّن الوحيد هو قانون الشريعة، فلا بدّ من دراسة جادة لتلك المحاكم وعمل القضاة والمفتين في النظام العثماني القديم. لكن الباحث سيدهش عندما يجد أن هذه المحاكم الشرعية لم تكن تستخدم للفصل في نطاق واسع من القانون. لقد أدى انقسام المجتمع إلى جماعات مستقلة كثيرة إلى نشوء سلطات قضائية محلية هدفها حلّ النزاعات بين أفراد المجموعة الواحدة. ويدعونا ذلك إلى حقل واسع من دراسة القانون العرفي المطبق في القرى والمجتمعات الصناعية، الخ، والذي لم يكن قد بُحث من قبل في غرب آسيا⁽¹⁾. ومن هنا ينشأ الخلاف بين القانون العرفي وقانون الشريعة ومدى تأثير كل منهما على الآخر. وهناك سبب مهم آخر لتراجع استخدام القانون الشرعي، وبالأخصّ في القضايا الجنائية، هو منح السلطة للضباط العسكريين والإدارة العامة بمحاكمة ومعاقبة المجرمين، حتى لو اقتضى الأمر إعدامهم، دون تدخل القاضي أو الموظف القانوني، وأحياناً كثيرة دون وجود محاكمة من أي نوع. وأخيراً لا بدّ من التحقيق في موضوع المفهوم العام لطبيعة القانون، وسيكولوجية الموقف العام تجاهه، وإمكانية تطبيقه بشكل عملي.

(1) مع ذلك هناك بحث موسع باللغة الألمانية حول القانون العرفي المطبق في إندونيسيا، انظر مقالة «قانون العادات» في ملحق الموسوعة الإسلامية.

وبالتالي فقد أثار تطور تطبيق الأحكام القانونية خلال القرن التاسع عشر عدة مشكلات اجتماعية معقدة. وإن نشوء القوانين العسكرية بالمرتبة الأولى، ثم محاولة تنظيم القانون المدني والجزائي، ودخول القوانين والمبادئ الغربية، يتضمنن الصّلات بين هذه القوانين والمبادئ المقبولة في القانونين الشرعي والعرفي، وأثار تغير الأحكام القانونية، ونظام إجراء المحاكمات تبعاً للموقف العام، وظهور مفاهيم جديدة للجريمة. كما أنّ هناك مظهراً آخر للقضية نفسها مهّد له التطور السريع لطبقة جديدة من المحامين المتدربين ذوي التأثير الاجتماعي والسياسي الواسع والمُشبعين بالأفكار القانونية الغربية، ممّا زاد من تعقيد الموقف.

تؤلف هذه العناوين العشرة أهم المسائل المؤثرة في الحياة الاجتماعية وتطور الشعوب الإسلامية في غرب آسيا خلال القرنين الماضيين. ومن أجل إكمال المقطع العرضي للمجتمع الإسلامي في المنطقة، لا بدّ من إدراج مظهرين خاصين يؤثران بالبنية الاجتماعية هما:

11. الرّق

هناك ثلاث نقاط مهمّة، هي مكانة وعمل العبيد في الاقتصاد القديم (كخدم وعمّال وجنود)، والأثر الاجتماعي لإبطال ظاهرة الرّق، وتطور الرّأي العام والتعاليم الدّينية في موقفها من الرّق.

12. الأقليات غير المسلمة

إن مسألة الوضع القديم لغير المسلمين في الدّول الآسيوية قد تكون أقل أهمية في بحثنا، إذ ما يهتمنا حقاً هو التّحقيق في تنظيم المجتمعات المسيحية واليهودية المختلفة، ما قبل القرن التاسع عشر، وصلاتها الاجتماعية والاقتصادية بالمسلمين بكافة طبقاتهم، وبالحكومات المحليّة، وبمؤسّسات التجارة الأوروبيّة. لقد زادت صلتهم بالأوروبيين خلال القرن التاسع عشر وسعوا إلى اكتساب الطّرق التّعليمية

والاقتصادية الأوروبية الحديثة ممّا وسع نشاطهم ومنحهم أهمية أكبر في المجتمع الاقتصادي من جهة، ومن جهة أخرى حصلوا على وظيفة جديدة بعملهم في نقل الأفكار الأوروبية المتداولة. كانت هذه السلسلة من التفاعلات الاجتماعية والثقافية قد درست من قبل لكنها تتطلب تحليلاً مفصلاً عن انتشارها وآثارها. وإن المظاهر والصّلات الاجتماعية للعلاقات السياسية بين المسلمين والجماعات غير المسلمة تقدّم حقلاً واسعاً للبحث والدراسة.

إن مجرد وضع هذا المخطط يبيّن بشكل كافٍ اتساع مجال البحث ومدى قصور كل ما تمّ بحثه للحالة الاجتماعية التاريخية في المنطقة، وعدم نضوج الدراسات بشأن التطور الاجتماعي في تركيا وغرب آسيا. وإن تنفيذ هذا المخطط بأكمله يحتاج دون شك إلى فريق كامل من الباحثين لسنوات طويلة، وقد يتضمّن سلسلة مطوّلة من المراحل. إنّ أول ما يحتاجه البحث هو سلسلة من الرسائل العلمية حول المشكلات الفردية التي ستناقش في كل منطقة على حدة، ثم تحيط في النهاية بالصّلات بين المناطق المختلفة وتخرج بسمات التشابه والاختلاف من خلال علاقتها بالقوى الدّخيلة. وثمة عنصر أساسي هو جمع الحقائق المتعلقة بالموضوع، بل وينبغي أن تجرى دراسة حول أهمية هذه الحقائق في حياة الفرد وتطور المجتمع ككل. على أساس من هذه الرسائل العلمية يمكن أن نتقدّم بثقة نحو دراسة شاملة للمشكلات بشكل عام، مع مراعاة التفسير المنطقي وتحرير الشخصية الفردية. أما ما هو أبعد من ذلك، أي أهمية العمل على مستوى تاريخ العالم، فهو غير مُدرج ضمن نطاق بحثنا. وإن السرعة في إنجاز العمل هي شرط أساسي نظراً لأن المواد المطلوبة، الشّفوية منها والوثائقية، تتناقص سنة بعد سنة. وبعد مضي عشر سنوات ستنشأ فجوات يصعب ملؤها، وبعد عشرين عاماً سيغدو من المستحيل ملؤها على الإطلاق.

يبقى فقط أن نشير إلى علاقة دراستنا بهذا المخطط النّمودجي الكامل، وذلك أن الدّراسة ستغطي جزءاً من المخطط دون الحاجة إلى تبرير أو اعتذار؛ بل سيتحدّد ذلك الجزء من خلال ظروف عملنا. هناك مساحات واسعة في كل قسم من مجال البحث

لا يمكن دراستها إلا في الشرق بعد صبر طويل في جمع الروايات الشفوية والبحث عن المواد المخطوطة، وبعد اندماج عميق في الحياة الشرقية. وإن زيارتنا إلى مناطق بحثنا لهي محدودة حقاً، لهذا لا بدّ من أن نستقي أغلب موادنا من الأعمال المنشورة المكتوبة باللغتين التركية والعربية ونرفدها بالمعلومات المستخلصة من اللقاءات الشخصية. تتغير قيمة هذه المصادر من فترة إلى أخرى ممّا يستوجب تغير اتساع وعمق دراستنا أيضاً، وهناك بعض أجزاء من البحث (بالأخصّ ما يتعلق بالأسرة) بعيدة عن متناولنا بشكل كامل تقريباً. ليس بالإمكان تجاوز هذا الخلل، وإن كان كبيراً، في بحثنا الرائد، لكننا سنشعر بالرضا إن تمكنا من إثارة الاهتمام والمساهمة بالبحث المعمق في بنود المخطط الموضوع.

تنطبق هذه الاعتبارات على المواد المتضمنة في المجلد الأول من البحث. ففي محاولتنا تقديم استطلاع شامل للمؤسسات الأصلية والتنظيمات الاجتماعية في الإمبراطورية العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر، نشأت أمامنا عقبة عدم وجود أية دراسة عميقة سابقة للبنية الاجتماعية القديمة في الأراضي الإسلامية. وبالتالي كان من المستحيل إسقاط المعلومات المستقاة من مصادر القرن الثامن عشر على الصورة الحالية. كانت الحاجة ملحة إلى وجود نقطة انطلاق واضحة ومحددة لبحثنا، إذ كشف التمهّص في روايات الرّحّالين في القرن الثامن عشر والكتابات المتحيزة والمبرّرة لمحمّد علي في القرن التاسع عشر أنها غير مُرضية أبداً. ومن جهة أخرى فإن المواد المتوافرة حول البحث العميق الهادف للقرن الثامن عشر هزيلة وسيئة التصنيف والتبويب. ومن بين المناطق المجهولة مترامية الأطراف لا تجد سوى بلد واحد فيه وصف مقبول كتبه العلماء الذين رافقوا حملة بوناپارت إلى مصر وقاموا بجمع أربعة مجلدات ضخمة أسموها *Description de l'Égypte, État Moderne*. «وصف مصر، الدولة الحديثة»، وتكمن مزيّتهم الواضحة في الجمع بين المواهب الشخصية والخبرة الوثيقة بالإدارة أثناء الاحتلال الفرنسي، وهي تجربة لا أعتقد أنها قد تتكرّر في مكان آخر. وهناك أيضاً عمل جيّد آخر لمُرادجا دوسون Mouradjea d'Ohsson

هو «الجدول العام للدولة العثمانية» *Tableau Général de l'Empire Ottoman* يقدم صورة خارجية نظرية أضيف إليها الشيء القليل بأعمال دي توت de Tott وثورنتون Thornton وغيرهما. أما ما يتعلق بسوريا وفلسطين والعراق، فلم توجد أعمال مشابهة حتى فترة متأخرة.

مع ذلك فقد كان هؤلاء الكتاب، بمن فيهم علماء وصف مصر، أفضل بقليل من رحالي القرن الثامن عشر. لقد كان المجتمع الإسلامي ذا نسيج متلاحم لا يسمح للأوروبيين بالاتصال الاجتماعي اللصيق بأفراده. ولملء هذه الفجوة لا بد من الرجوع إلى المصادر التركية والعربية، وبما أن المواد لم تكن مصنفة أو في متناول اليد فقد اضطررنا إلى الاعتماد على الأعمال المنشورة، وهي ليست بالمواد الشاملة طبعاً.

لم تكن أية من الأعمال التركية التي حصلنا عليها تصف القرن الثامن عشر بشمولية. كانت أعمال بعض المحللين قد قامت بذلك بالفعل لكنها اهتمت بالأحداث السياسية فقط وكانت محشوة بالإسهاب البياني بحيث تجاهلناها باستثناء بحثين عن القرن التاسع عشر يتضمّنان ما نسعى للحصول عليه في دراستنا. هذان البحثان هما كتاب «التاريخ» لأحمد جودت پاشا وكتاب «Consequences of Events» (نتائج الوقوعات) -Netâyicü'l- Vukuât لسيد مصطفى نوري پاشا، وقد ألفا بعد أن غيّرت إصلاحات محمود الثاني وجه البلاد. لقد ساعدنا المجلد الأول التمهيدي لجودت پاشا وملحقات الأقسام المختلفة في كتاب سيد مصطفى على التزود بفكرة عامة عن الحكومة المركزية وإدارة الأقاليم والجيش والبحرية والتعليم المهني. كان هدف جودت پاشا من تأليف هذه المقدمة مشابهاً لهدفنا، وهو تقديم خلفية يمكن بناءً عليها تصوير أحداث الفترة التي تهتم بها مجلداته الباقية، وهي الفترة اللاحقة مباشرة لتلك التي اخترناها في استطلاعنا. لقد قام بوضع الخلفية بوصف التدهور الذي عانت منه المؤسسات المسؤولة منذ عهد القوة في القرن السادس عشر، وهو أمر اضطررنا نحن أيضاً إلى اتباعه من أجل توضيح الأوضاع في القرن الثامن عشر. أما عمل سيد مصطفى فهو تاريخ عام للإمبراطورية العثمانية منذ نشوئها، وتصف الملحقات التي خصصها لكل قسم المؤسسات نفسها التي نشأت في أطوار مختلفة من الازدهار

والانحطاط. لقد كانت الفترة التي كتب فيها المؤلفان كتابيهما بعيدة عن مجال استطلاعنا، وذلك بهدف إيضاح نقاط اعتبرها المؤلفون السابقون أموراً بديهية، ولتقديم فهم أوضح عن الأوضاع التي يقوم بها بوصفها، والتي قد يعجز الكتاب اللاحقون عن فهمها. وإن كانا يبدیان بعض التحيز فذاك نحو الإصلاحات في بداية القرن التاسع عشر ممّا يفسّر وصفهما للعهد السابق بألوان داكنة.

أما المعلومات التي تخص البيت السلطاني فكان مصدرنا الرئيسي لها هو كتاب «التاريخ» لطيار زاده أحمد عطا (Tayyâr-zâde Ahmed)، وهو عمل آخر من أعمال منتصف القرن التاسع عشر. وقد استقينا الكثير من تفاصيل حياة المدينة، وخصوصاً فئة التجار، من عمل حديث هو كتاب «Code of Municipal Affairs» (Mecellei Umûru Belediye) لعثمان نوري، ويعتمد المجلد الأول منه على وثائق القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر. وهناك دراسات حديثة استعنا بها منها: «The Economics of the Turkish Village» (Türkiye Köy İktisâdiyatı) لإسماعيل خسرو، ويتعلق جزء منه بالأوضاع الزراعية في الأناضول أثناء العهد الإقطاعي؛ و«Bulgaria under Turkish Rule» (Türk Idârisende) و«The Tribes of the Turks in Anatolia» (Anadoluda Türk) و«The Life of Istanbul in the Twelfth Century of the Hegira» (Aşîretleri Hicrî) و«The Life of Istanbul in the Thirteenth» (on ikinci 'aşırda İstanbul Hayâtı) و«Century of the Hegira» (Hicrî on üçüncü 'aşırda İstanbul Hayâtı)، وهذه كلها مطبوعات رسمية قدّم لها أحمد رفيق؛ وهناك أيضاً «Mohammedanism in Anatolia» (Anadoluda Islâmiyet) للأستاذ كوبريلي زاده محمد فؤاد، والذي على الرغم من أنه يدرس أوضاع الفترة ما قبل العثمانيين، فإنه يصف الطريقة البكتاشية والطرق الأخرى التي تأثر بها التاريخ العثماني بشكل عميق. وأخيراً، مع أن هذه القائمة ليست مفصلة، لا بدّ من ذكر مجموعات القوانين Kânûns المختلفة المنشورة في Revue Historique في معهد التاريخ العثماني (Ta'rihi 'Oşmânî Encümeni Mecmû'ası) و«Review of National Studies» (Millî Tettebbü'ler Mecmû'ası).

أما المواد العربية المطبوعة والمتعلقة بالقرن الثامن عشر فهي أقل من ذلك، ويتصدّرها السجل الدقيق الصادق للمصري الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، وهو تأريخ واقعي يبرز نظرة رجل مثقف نزيه عن العقود الأخيرة للحكم المملوكي والحملة الفرنسية والخمس عشرة سنة الأولى من حكم محمد علي. وهو يحتوي، بتفاصيله المتسلسلة الواسعة على ملاحظات مهمّة على أهمية التاريخ الاجتماعي على مرّ الأزمنة، لكن البعض منها لا يُفهم بشكل كامل دون العودة إلى «وصف مصر»⁽¹⁾ Description، ومع ذلك فهي تؤلف ملحقاً بالغ القيمة يصحّح الرّسائل العلمية التي وضعها العلماء الفرنسيون. كما قام الأمير حيدر أحمد الشّهابي بتأليف كتاب معاصر عن الأحداث في سوريا⁽²⁾، لكنه لا يرقى إلى مستوى كتاب الجبرتي من حيث شمول النظرة ويهتم (لسوء حظنا في بحثنا) بلبنان أكثر ممّا يهتم بسوريا. لكنه على كل حال يتضمن، بالإضافة إلى ملاحظات الكاتب، عدداً من الوثائق المهمّة لهدفنا. وفي غياب التأريخ السوري الداخلي فقد استعنا بعمل مختلف هو معجم تراجم أعيان وعلماء القرن الثاني عشر للعهد الإسلامي (1689-1786 للميلاد) الذي قام بتأليفه مفتي دمشق محمد خليل المُرادي المتوفى عام 1791⁽³⁾. في هذا العمل، تبعاً لنمط التّأليف الإسلامي، تجد نحواً من ألف ملاحظة حول التراجم تتراوح في طولها من ثلاثة أو أربعة سطور إلى عشر أو اثنتي عشرة صفحة، وذلك عن رجال من بلدان مختلفة أو عن أنماط الحياة، وبشكل خاص عن العلماء السوريين. يقدّم هذا الكتاب صورة حية للحياة الاجتماعية والفكرية في تلك الفترة أفضل من أي روايات وصفية، وسنرى كيف أنه قد زوّدنا بتنوع مذهل من الحقائق المتعلقة بهؤلاء. مع ذلك فإن كل هذه المؤلفات،

(1) ولهذا السبب، وأيضاً بسبب بعض الإهمال، فإن الترجمة الفرنسية التي قام بها المصريون الأربعة (1888-96) *Merveilles biographiques et historiques*, Cairo, هي بديل غير مُرضٍ للنص الأصلي لأية دراسة معمقة.

(2) انظر كتاب: *Le Liban à l'époque des Amirs Chihab*، الذي نشره الدكتور أسد رستم وفؤاد البستاني في ثلاثة مجلدات في بيروت عام 1933.

(3) «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر»، أربعة مجلدات مطبوعة في القاهرة ما بين 1874-1883.

باهتماماتها العلمية والسياسية الراجحة، تترك حيزاً واسعاً من المجتمع الإسلامي خارج الرؤية ولا تستطيع التعويض عن غياب الأرشيفات المتعلقة بسجلات الأسرة. إن صلات الفرد بالمجتمع من جهة، والعلاقات الداخلية للمجتمع بالنظام الاجتماعي ككل من جهة أخرى، لم تنعكس بشكل واضح وبقيت غير دقيقة إلى حد ما.

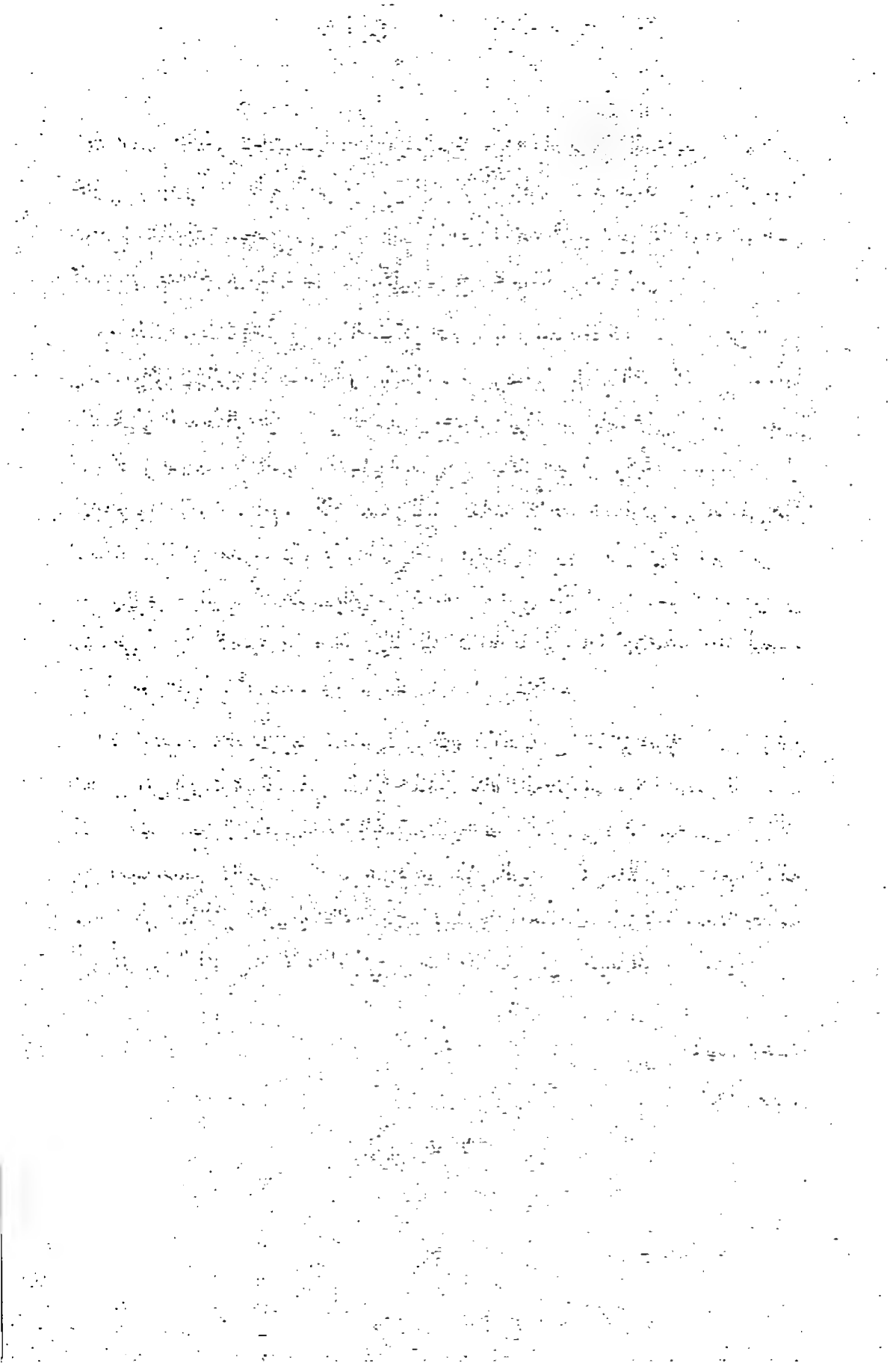
مع ذلك، وبفضل الدمج بين المصادر الأوروبية والشرقية، كان من الممكن القيام ببحث مباشر في البنية الاجتماعية والمشكلات في تركيا ومصر في القرن الثامن عشر. أما بالنسبة إلى البلدان الأخرى، فمن الضروري اعتماد طريقة غير مباشرة في الوقت الحالي، إما بتفصيل المعلومات المبعثرة لدينا بواسطة مطابقتها بالوضع في تركيا ومصر، أو بالعمل الرجوع بواسطة الاستنتاج من التغيرات والمستجدات اللاحقة. وبما أن الأبحاث في هذا الاتجاه قليلة أو معدومة فإن الاستطلاع الموجود في المجلد الأول ينظر إليه على أنه عرض أولي جزئي يركز على وثائق غير كافية، ويحتوي على ثغرات نأمل أن نتمكن من ملئها في الأجزاء الأخرى من بحثنا. هناك مظهران خاصان للحياة الاجتماعية أجلبنا البحث فيهما هما وضع المرأة والعبيد ووظيفة كل منهما في المجتمع.

أخيراً، فقد قمنا عمداً بوضع تحقيق قريب قدر الإمكان من الحقائق، وقاومنا إغراء إثارة النقاش على المستوى الفلسفي. لقد لاحظنا أن النظرة الحالية إلى تركيا ومصر في القرن الثامن عشر مليئة بالمفاهيم المغلوطة، وقعنا فيها نحن أيضاً في بداية البحث، ورأينا أنه من واجبتنا تقديم يد العون للآخرين عن طريق تنظيم البيانات التي قادتنا إلى نتائج مختلفة تماماً. ومن جهة أخرى فإن الطبيعة التجريبية لمشروعنا تحذرننا من أن أي تعميم للأحداث قد يؤدي إلى الالتباس أو الأخطاء التي من هدفنا العمل على محوها قدر ما نستطيع.

هاميلتون غيب

هارولد بوون





الفصل الأول

الإمبراطورية العثمانية والشرعية

من أهداف عملنا هذا دراسة تحولات المجتمع الإسلامي في الإمبراطورية العثمانية بفعل التأثير الغربي⁽¹⁾. ولهذا انصبّ اهتمامنا أولاً على تحديد تاريخ نستطيع منه رصد المجتمع قبل الفترة التي سنبدأ بها بحثنا. وهو ليس بالأمر السهل في الواقع لأن الإمبراطورية العثمانية⁽²⁾ لم تكن في يوم من الأيام، كمجتمعات الشرق الأقصى، منقطعة الاتصال عن أوروبا؛ ومن جهة ثانية، لأن بعض أجزاء من الإمبراطورية تأثرت فعلاً قبل غيرها؛ ومن جهة ثالثة، لأن العملية كانت في البداية بطيئة نسبياً. في فترة ازدهار الحكم العثماني قدم إلى المنطقة عدد كبير من الأوروبيين وأدخلوا أفكارهم الغربية في المجتمع الإسلامي. كانت النتيجة ملحوظة في بعض الأحيان، كما حدث أثناء الإصلاحات التي تناولت بعض تقسيمات الجيش في بداية القرن الثامن عشر. ولكن لم تتبع الطرق الأوروبية تماماً حتى الجزء الثاني من القرن. ولغاية تلك الفترة لم يكن قادة الطبقة الحاكمة يدركون تخلفهم عن أوروبا، لكن، ونتيجة لحربين مدمرتين استمرت أولاهما من عام 1767 إلى عام 1774، والأخرى من عام 1788 إلى عام 1792، تغير الموقف كلياً. وحتى في الحملة الأولى لجأ السلطان إلى بعض المقيمين

(1) العثماني كلمة مشتقة من اسم Osman (وبالعربية عثمان)، والصفة بالتركية هي عثمانلي، وبالعربية عثماني.

(2) أطلق الأتراك العثمانيون على فترة حكم السلاطين اسم الإمبراطورية (*Imparatorluk*) بتأثير من الكتاب الأوروبيين. أما قبل ذلك فكانت تدعى بالدولة العلية (*Devlet-i Aliye*) أو السلطنة السنية (*Salṭanati Seniye*).

الأوروبيين طالباً مشورتهم ومساعدتهم. ومع أن التطورات التي حدثت بعد ذلك لم تكن بذلك الاتساع، فقد دلت بشكل كافٍ على ما يستحق تضمينه في بحثنا اللاحق وليس في مقدّمتنا عن المجتمع العثماني قبل حدوث التّغيير. لهذا السّبب اخترنا فترة السّلام التي سبقت إعلان الحرب على روسيا عام 1767، وفي الواقع كانت فترة سلام غير مسبّقة دامت أكثر من ثلاثين عاماً، في أوروبا على الأقل، نستطيع وضع مخططنا التّمهيدي بناءً عليها.

خلال تلك الفترة كانت الإمبراطورية تشمل المناطق التّالية: في أوروبا، شبه جزيرة البلقان بأكملها حتى نهر الدّانوب (باستثناء بعض الحصون في ألبانيا) والبوسنة ومقاطعتي مولداثيا وفالاخيا (الافلاق) وبيستارابيا والسّاحل الشّمالي كله للبحر الأسود بما في ذلك شبه جزيرة القرم. وفي آسيا، آسيا الصّغرى كلها وأرمينيا وكردستان الغربية والعراق وبلاد الرّافدين وسوريا والحجاز والأحساء واليمن. وفي أفريقيا، مصر وطرابلس وتونس والجزائر. وأخيراً قبرص وكريت وجزر بحر إيجه. وكانت من قبل قد ضمّت مناطق أخرى كهنغاريا وترانسلفانيا وپودوليا وجورجيا وداغستان وشروان وجزءاً من أذربيجان. وكانت البندقية قد استولت على بلاد المورة في عام 1699، فاستعادتها الإمبراطورية في عام 1718، واستعادت أيضاً في عام 1739 بعض الأراضي حول بلشّراد جنوبي نهر الدّانوب وجزءاً من فالاخيا (الافلاق)، والتي كانت النّمسّا قد استولت عليها عام 1718. وكانت روسيا قد استولت على قلعة آزوف ووصلت إلى حدود البحر الأسود، لكنها أرغمت على التّراجع في علم 1711 وفقاً لمعاهدة پروث Pruth؛ كما أن الصّفويين من الفرس كانوا قد احتلّوا بغداد في بداية القرن السّابع عشر وبقوا فيها مدة خمسة عشر عاماً.

وبمقارنة الأراضي المنضمّة إلى لواء السّلاطين العثمانيين بتلك التي فقدوها تبدو الأخيرة قليلة بالفعل. لكن هذه الخسارة، وبالأخصّ في أوروبا والمناطق التي كان حكمهم لها مؤقتاً، كانت نذير شؤم. ولقد كانت بعض أقاليم الإمبراطورية أضعف ارتباطاً بها من غيرها، وكان ولاء بعضها اسمياً فقط، ويعود ذلك إلى الطّروف التي

نشأت فيها تلك الأقاليم وإلى تأثير التّطورات السّياسية اللاحقة من جهة، ومن جهة أخرى إلى كون الإمبراطورية قد أُسست وفق مبادئ إسلامية ممّا سمح بمرونة صلاتها مع الأقطار المكوّنة لها. وبالفعل فإنّ بنية الإمبراطورية العثمانية تركز إلى تعاليم ومبادئ من حكموها في الظروف الخاصّة التي نشأت وتطوّرت فيها. وقد نستطرد هنا لاستطلاع تلك المبادئ وما تتضمّنه من خصائص رسمية.

يتلخّص أول هذه المبادئ بأنّ العالم مقسوم إلى قسمين: دار الإسلام ودار الحرب، ومن واجب المؤمنين، حيثما استطاعوا، توسيع رقعة الدّار الأولى على حساب الثّانية. وفي دار الحرب نوعان من السّكان: أهل الكتاب (المسيحيون واليهود والزّرادشتيون)، والكفار، وعلى النّوع الثّاني الدّخول في الإسلام أو يُقتلون. أما أهل الكتاب فيمكنهم الاحتفاظ بديانتهم ويصبحون خاضعين للحاكم المسلم شرط أن يدفعوا الجزية. ويمكن للحاكم قبول هذه الجزية من كل أهل الكتاب الذين يرغبون بالانصواء تحت راية الدّولة الإسلامية.

والمبدأ الثّاني هو أن النّاس يقسمون إلى فئتين: أحرار وعبيد، وقد يكون أصحاب الفئة الثّانية عبيداً بالولادة، لكنّ المبدأ يركز على أنّه لا يجوز استعباد المسلمين أو أهل الكتاب. يمكن للأسياذ تحرير عبيدهم أو شراء العبيد من بعضهم البعض، لكنّ ينبغي أن يكون العبيد الجدد من السّكان غير المسلمين في دار الحرب.

تشمل الشّريعة الإسلامية هذه المبادئ، وقد وضعت أسسها أثناء القرون الأولى من تاريخ الإسلام بناءً على تعاليم وأحكام القرآن، وسنّة النّبي وأصحابه، والإجماع. مع ذلك ظهرت، منذ الأيام الأولى للإسلام، خلافات قانونية وفقهية وسياسية بين المسلمين، وبسبب تمسّك كل فئة برأي معيّن نشأت الفرق المتعدّدة والمذاهب داخل كل فرقة. لذلك لا بدّ لنا من دراسة بعضها بشكل موجز لتوضيح تنوع الآراء الشّرعية داخل الإمبراطورية العثمانية.

منذ الأيام الأولى للإسلام هناك غالبية عظمى من المسلمين ممّن يعدّون أنفسهم أصحاب المنهج القويم، ويدعون أنفسهم بأهل السّنة أي أتباع سنة النّبي. وبالتالي

كانوا يدعون القسم الأعظم من مخالفيهم بالشيعة⁽¹⁾. وكان خلفاء النبي من بني أمية والعباسيين من السنة. ولغاية القرن العاشر فشل الشيعة، باستثناء بسيط، في تحقيق أهدافهم، إذ كانت الخلافات بينهم وبين السنة سياسية وليست دينية فقط. ومنذ ذلك الحين أخذت الحركة الشيعية تصطبغ بالثورية وتدعو للانضمام إليها كل الساخطين والمعارضين.

تقدّمت الحركات الشيعية الثورية بشكل ملحوظ في القرنين العاشر والحادي عشر وتمزقت وحدة الإسلام، ووجدت ببعض السلالات الحاكمة الشيعية كما شنّ الشيعة حملة دعائية واسعة لطائفتهم. وفي الوقت ذاته اصطبغ الدين بصبغة جديدة بسبب نشوء التصوف بين السنة والشيعة معاً، وفي هذا الوقت بدأت هجرة القبائل التركية إلى بلاد فارس وباقي أراضي الخلافة. كان معظمهم حديثي الدخول بالإسلام واحتفظوا بالكثير من عاداتهم الوثنية، وكانت الفئة التي ينتمون إليها بشكل اسمي هي السنة، لكنهم تأثروا كثيراً بالشيعة وطرقهم الصوفية. كان قادة هذه القبائل المهاجرة قد أخذوا على عاتقهم نصرة الخلفاء العباسيين على خصومهم من غير أهل السنة، الذين كانوا قد أذلّوهم بتبعيتهم لهم لقرن من الزمان، وتوحد من جديد جزء كبير من العالم الإسلامي بقيادة حكومة سنية واحدة. وتُشكّل هذه السلالة الحاكمة، التي تدعى بالسلاجقة والتي تعود في جذورها إلى آسيا الصغرى، الأصل الذي تفرع منه آل عثمان، وانتقل مذهبهم السني بالوراثة إلى السلاطين العثمانيين. وسنرى فيما بعد أن المفاهيم الإسلامية للطائفة غير السنية قد تسرّبت إلى المجتمعات العثمانية الناطقة باللغة التركية، حسب طبقتها، والتي كانت قد راقّت لأجدادهم الغزاة الأتراك من قبل ولا تزال تلاقي الزواج بين أحفادهم. أما الحكومة فقد كانت حازمة تجاه الابتعاد عن السنة في أنحاء الإمبراطورية، وخاصة منذ بداية القرن السادس عشر، عندما قامت الدولة الشيعية في بلاد فارس.

في القرون الستة الأولى للإسلام كانت الشريعة، القانون المطهر لأهل السنة، تفتقر

(1) منهم الموالون لعلي بن أبي طالب، صهر النبي، وأحفاده.

إلى المرونة بالتدرّج، وكانت طبيعتها مستندة إلى نقطتين رئيسيتين: تحديد المصادر التي تعتمد عليها، ومن بعد ذلك تفسيرها. وبحلول القرنين العاشر والحادي عشر كانت تعاليم السّنة قد حُصرت في ست مجموعات هي المراجع الفقهية الأساسية. وفي القرنين التاسع والعاشر كانت قد ظهرت تفاسير للقرآن والسّنة، من النّاحية التشريعية أكثر من النّاحية العقائدية، وصُنّفت في أربعة مذاهب. كانت هناك اختلافات بين هذه المذاهب لكنها تنتمي جميعها إلى أهل السّنة. اتخذ السّلاجقة منذ البداية المذهب الحنفي مذهباً لهم⁽¹⁾، وورثت الدّولة العثمانية هذا المذهب أيضاً. كانت الدّولة تعترف بالمذاهب الأخرى، لكن تم اعتماد المذهب الحنفي في تفسير الشّريعة بشكل رسمي. تم تطبيق المذهب كنظام غير قابل للتّعديل، وقد قيل «لقد أغلق باب الاجتهاد» (İctihâd kapısı kapandı). وبهذا وضعت اللّمسات النّهائية للقانون الشّرعى على أساس المذهب الحنفي في المجتمع العثماني في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وتم تأليف كتابين هما «الدّرر» و«مُلْتقى الأبحر»⁽²⁾، جُمعت فيهما وصُنّفت كل آراء الفقهاء الحنفيين في الأزمنة السّابقة.

لم تكن الشّريعة قانوناً دينياً فحسب، كقانون المسيحية الكنسي، بل تتضمّن قانوناً مدنياً ينظم بعض الشّؤون الدّنيوية. مع ذلك فقد قامت على عادات في حياة المجتمع تختلف كثيراً عن بدايتها وحتى عن الفترة التي تم فيها انتشار الإسلام. هناك ممارسات كثيرة ليس لها إرشاد مفصّل، وفي بدايات الدّولة العثمانية كانت تلك الأمور تعتمد على الأعراف السّائدة في المجتمع، وكانت تتغيّر بحسب الزّمان والمكان. لكن السّلاطين العثمانيين أسسوا في دولتهم نظاماً حكومياً أكثر شمولية ممّن سبقوهم، وغدا المجتمع العثماني مقسماً بشكل واضح إلى فئات محدّدة؛ وكانت صلات الأفراد بالحكومة تتم بناء على أفضلية انتمائهم إلى هذه المجموعات. ومن أجل تحديد الالتزامات المترتبة

(1) ويدعى كذلك نسبة إلى مؤسسه أبي حنيفة (696-767 للميلاد).

(2) «الدّرر» أو بعنوانه الكامل (Durar al-ḥukkâm fî şarḥ ğurar al-aḥkâm) «دُرر الحُكّام في شرح غُرر الأحكام» تأليف محمّد بن فرامرز المعروف بملا خسرو، المتوفى عام 1840، و(Multaḳāʾl-Abḥur) تأليف إبراهيم بن محمّد الحلبي المتوفى عام 1549.

على هذه الصّلات وكذلك المكانة الاجتماعية والواجبات والزّواتب واللباس، الخ، للأشخاص المنضمين إلى السّلك الحكومي، لجأ السّلاطين إلى وضع تنظيمات دعوها بالقانون Kânûn. لكن هذا القانون لم يكن يشمل القانون المدني أو ينافس قانون الشّريعة أو حتى يقضي بما ليس فيها، بل كان مجرد تنظيمات تفصل في الأمور التي لم تحددها الشّريعة وبالطبع بما لا يتعارض معها⁽¹⁾.

وقد تمسّك الفقهاء العثمانيون بالشّريعة لإضفاء صفة الشّريعة على البنود الواردة في القانون، ولا مّيازها بأنّها السّلطة العليا في الدّولة وليطبّق القانون بالتّناغم مع مبادئها، وذلك من أجل خير ومنفعة المجتمع. ولقد نشأ «العُرف» بالأوامر اليومية للفتة الحاكمة، وبهذا فإن القوانين هي مجرد تطبيقات مدوّنة لهذه الأعراف. كما أن هناك بعض «العادات» المتضمّنة في القوانين والتي كانت موجودة حتى قبل استيلاء الإمبراطورية على كافّة الأراضي، وبذلك كانت واجبات رعايا السّلطان تقضي بتطبيق الشّريعة والقوانين التي تتضمّن العرف والعادات. علاوة على ذلك، هناك بعض العادات التي لم تندرج في القانون لكنها لعبت دوراً مهماً في مجال الإدارة القضائية على الرّغم من أنها لم تكن ملزمة قانونياً. أخيراً، وبالرّغم من إعلان إغلاق باب الاجتهاد، فإن ضغوط الأحداث فرضت إبقاءه موارباً. وكان هناك فئة خاصّة من الخبراء القانونيين الذين عملوا على البحث في المشاكل العامة والخاصّة الموكلة إليهم ثم سنّ القوانين المناسبة التي تتوافق بالطّبع مع مبادئ الشّريعة لكنها تجد حلولاً للقضايا المستجدة التي لم يَر في الشّريعة نصّ واضح وصريح لها. وبإصدار هذه الفتاوى، كان هؤلاء الخبراء مجبرين، وإن لم يقرّوا بذلك، على ممارسة دورهم بدقّة ليتلاءموا مع الفقهاء القداميّ العظماء. والأمر المهمّ هو الفائدة والتطبيق النّاجمان عن اجتهاداتهم التي أصبحت جزءاً من القانون، والتي ستفتح الطّريق أمام من يلونهم.

لم يكن في الشّريعة نصوص تشير إلى استيلاء حاكم مسلم على أراضي حاكم

(1) وعلى هذا جاء في مقدمة قانون نامة Kânûnnâme للسّلطان سليمان العظيم (M.T.M). ج 1 ص (49) هذه العبارة: «إن القانون الإمبراطوري الذي يتوافق مع ما جاء في الشّريعة....».

مسلم آخر، لكن المصادر تعود إلى الأيام التي كان الإسلام فيها وحدة سياسية، وحتى في الاجتهاد الذي تلا فيما بعد، وبالرغم من تفكك هذه الوحدة، فقد بقي الخلفاء العباسيون مسيطرين، ولو اسمياً، على كل المناطق باستثناء تلك الواقعة في أطراف الدولة الإسلامية. ومنذ ذلك الوقت لم يذكر الفقهاء من أهل السنة حكم استيلاء الحكام المسلمين على أراضي المسلمين، لكنهم طالبوا بأن يكون الحكام الفعليون لتلك البلاد من السنة أيضاً. ومن هنا أخذت الإمبراطورية العثمانية، باندماجها التدريجي بالبلاد الغربية التي كانت مندرجة تحت الخلافة في السابق، تقترب شيئاً فشيئاً من كونها دولة إسلامية نموذجية. أما ما يتعلق بفتح البلاد الأوروبية، فقد سبق للقوانين أن دعت إلى توسع رقعة الإسلام خارج حدود جزيرة العرب.

كان هذا المد الإسلامي المُباح ينقسم إلى قسمين: الأراضي الواقعة تحت السيطرة المباشرة للإدارة المركزية، والأراضي التي يدفع أصحابها الجزية. كانت كل البلاد الأوروبية في القرن الثامن عشر تابعة للقسم الأول عدا ثلاثة هي جمهورية كرواتيا (Dubrovnik or Ragusa)، ومقاطعتا مُلداڤيا وڤالاخيا (الافلاق) الرومانيتان. كانت دوبروفنيك Dubrovnik تدفع الجزية ولم يكن للحكومة العثمانية أي تدخل في شؤونها الداخلية، أما المقاطعتان الرومانيتان، وبالرغم من دفعهما للجزية، فقد كانت تحكمان من قبل حكام (ڤويڤودا) *Voyvodas* أو (هوسپودار) *Hospodars* تقوم الحكومة العثمانية بتعيينهم. لغاية عام 1716 كان البوير (سكان المنطقة) في المقاطعتين ينتخبون ڤويڤودا *voyvoda* محلياً، لكن اختيارهم كان يخضع إلى الموافقة والتصديق من حكومة إسطنبول. ولكن منذ الحرب مع روسيا التي انتهت عام 1911، تبين أن هؤلاء الحكام كانوا يتآمرون مع العدو، لذلك تم وضع حد لهذا الأمر وأصبح ڤويڤودا *Voyvodas* يُختارون من الأسر اليونانية التي تسكن حي الفنار Phanar في إسطنبول. ولم يكن هناك موظفون مسلمون يحتلون مراكز مهمة في المقاطعتين، باستثناء عدد من الحصون الحدودية التي كانت تشغلها حاميات دائمة استدعى وجودها تعيين موظفين مدنيين عدة.

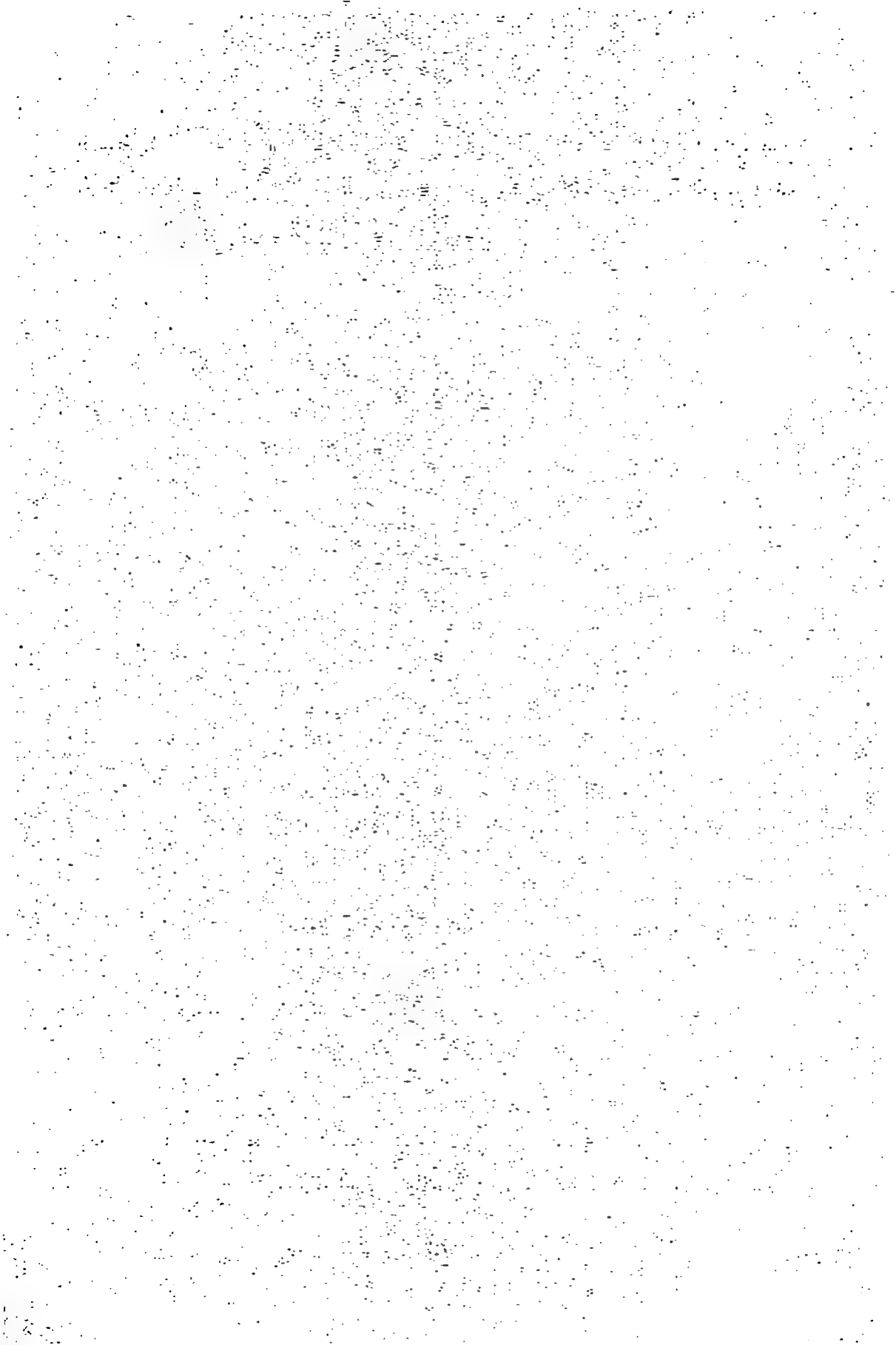
أما خاتية Hanate شبه جزيرة القرم فقد كان لها وضع مختلف، إذ كانت أرضاً مسلمة قبل ضمها إلى الإمبراطورية. كان الجزء الجنوبي منها قد فُتح من قبل العثمانيين في القرن الخامس عشر وأصبح تحت الحكم المركزي. أما الجزء المتبقي، والذي يشغل منطقة واسعة من الأرض الأساسية، فقد حكمها خانات التتار لكنهم أقرّوا بالسلّاطين كأسياد لهم. وكانت الأسرة الحاكمة، التي تدعى گیرای Girey Hans، ذات مكانة رفيعة لدى العثمانيين كونها من سلالة «القبيلة الذهبيّة» المنحدرة بالتأكيد من القائد المغولي جنگیز خان. وإذا قُدّر زوال الأسرة العثمانية - مع أن هذا الأمر بعيد الاحتمال بسبب القوانين التي تحكم تعاقب الخلفاء - فقد كان من المتفق عليه أن ينتقل العرش إلى أسرة گیرای Girey تلك.

لم تكن المقاطعات المندرجة تحت الحكومة العثمانية مقتصرة على أوروبا فحسب، بل هناك أولاً ولايات ثلاث في شمال أفريقيا، وثانياً مناطق أشرف مكّة، والتي كانت الأمور فيها تسير على نمط الحكم في خاتية شبه جزيرة القرم. وكان اختيار كل من دايات الجزائر وتونس وطرابلس، وأشرف مكّة يتم بمعرفة السلّاطين الذين يوافقون عليهم رسمياً. لكن هذه الأقاليم لم تكن تدفع الجزية، بل على العكس، كانت تتلقى العطايا من الباب العالي. بالنسبة إلى الدايات كانت الأعطيات تقدّم في أوقات متفرّقة وبشكل ذخائر حربية، أما أشرف مكّة، الذين كرّمهم العثمانيون ليس فقط بسبب حكمهم المديد لمكّة بل أيضاً لانتسابهم إلى النبي، فكانت أعطياتهم سنوية تقدّم إليهم عند وصول القوافل في موسم الحج. أما الحكومة في المدينة، ثاني المدن المكرّمة، فكانت غريبة إذ تُمنح لأحد الخصيان السود المتميزين في قصر السلطان. أخيراً، هناك بعض المناطق في كردستان وألبانيا تسكنها قبائل نصف بدوية، ويحكمها زعماء من بينهم.

أما إدارة باقي أنحاء الإمبراطورية فقد كانت موحّدة على الرّغم من وجود بعض الاستثناءات في مصر، إذ كان الحكام يعيّنون في كل مقاطعة رسمياً من إسطنبول. في الواقع، وفي الفترة المتعلقة ببحثنا، لم تكن هيمنة الحكومة المركزية في بعض

المناطق الآسيوية سوى اسمية فقط. لكننا قد نؤجل الحديث عنها إلى حين تناول إدارة الأقاليم بالتفصيل، وقبل فعل ذلك نقترح تقديم وصف لبنية الحكومة المركزية بدءاً بمحورها الأساسي وهو السلطان الحاكم نفسه.





الفصل الثاني الخلافة والسلطنة

رأينا أنه من الضرورة بمكان تقديم شرح للعادات والأفكار التي رسختها المبادئ المتعلقة بكافة مناحي الحياة الاجتماعية، وذلك لأهمية الشريعة والتراث الإسلامي والسعي إلى تطبيقهما من قبل طبقة الحكام العثمانيين وعامة المسلمين على حد سواء. وهذا الأمر يتطلب البحث بشكل خاص في مهمة الحاكم، لأن الفكر السياسي والتطبيق السياسي للإسلام مرتكزان على شخصه منذ البداية. كانت السلطنة العثمانية وريثة تسعّمته سنة من التاريخ، التي تطوّرت أثناءها مفهوم الإسلام عن الملكية بسيرة النبي محمّد مع ما ترافق معها من التقاليد القديمة في جزيرة العرب وبلاد فارس، ونظريات أفلاطون وأرسطو، واجتهاد الفقهاء السّنة وضرورات ممارسة الحكم. فترك كل ذلك تأثيرات على تركيبة الأفكار التي تجمعت فيما يتعلق بالحكم لكن دون أن تغير من طبيعته الأساسية.

كانت الحكومة التي أسسها النبي محمّد في المدينة تمثل مرحلة انتقالية بين القبلية العربية والمملكة بمعناها الحرفي. كانت المهمة الرئيسية لحكومة جزيرة العرب، المتمثلة بشيوخ القبائل، هي حلّ النزاعات بواسطة التحكيم وتطبيق القوانين القبلية السائدة. لم تكن لديهم سلطة تنفيذية سواء في الحرب أو السلم، كما لم تكن هناك سلطة تشريعية. وكان أساس الحكومة في زمن النبي محمّد يعتمد على المهمة القضائية التي تدعمها سلطة الوحي الإلهي، بالإضافة إلى المهمة التشريعية كونه نبياً ومبلّغاً للشريعة الإلهية. في زمن النبي محمّد اندمجت المهمتان التنفيذية والقضائية معاً للمرة الأولى، والأهم من ذلك هو

أن هذا الاندماج قد ورثه خلفاؤه من بعده بفضل مركزهم كزعماء للمجتمع الإسلامي. من جهة أخرى، انتهت المهمة التشريعية بحلول القانون الإسلامي محل القانون العُرفي القبلي، وحتى حق الاجتهاد في القانون الإسلامي اقتصر تدريجياً على فئة من العلماء أو أصحاب الإرث الروحي للنبي (أي القرآن والسنة النبوية)⁽¹⁾.

في الوقت الذي توطدت فيه دعائم الخلافة⁽²⁾ العباسية في العراق في منتصف القرن الثامن، كان تقسيم المهام قد أصبح عرفياً، وعلى الرغم من محاولة بعض الخلفاء القيام بالتحدي والادعاء بأحقية الاجتهاد، فقد نجح العلماء في المحافظة على سلطتهم. مع ذلك أكد الخلفاء العباسيون على ملكيتهم المطلقة للسلطتين التنفيذية والقضائية بدرجة أكبر ممن سبقوهم، فقد احتفظوا بالسلطة التنفيذية عن طريق مركزية الحكومة، وبالسلطة القضائية عن طريق بالتعيين الشخصي والموافقة على القضاة في كل الأقاليم وإحياء التقليد الساساني القديم بعقد محاكم منتظمة للاستماع إلى الشكاوى (المظالم). وخلال هذه الفترة تشكلت المذاهب الأساسية للخلافة، والتي كان من شأنها أن تقرر النظرة الإسلامية للعلاقة بين الحاكم وأفراد رعيته. ولعل من واجبا أن نفصل في هذه النقطة بالذات نظراً لتطورات القرن التاسع عشر.

من المهم ملاحظة أن علماء السنة الذين نظموا القوانين المتعلقة بالخلافة لم تكن لهم حرية تطوير طريقتهم بواسطة الاستنتاج النظري البسيط من مصادره. بل على العكس كانوا مقيدين تماماً من جهة بعقيدة التوجيه الإلهي للمجتمع، وضرورة تجنب أية نتيجة من شأنها أن تنأى بالمجتمع بعيداً عن الشريعة (وتطبيقاتها القضائية والدينية، مما يؤدي إلى فساد المجتمع)، واضطروهم ذلك إلى التغاضي عن المنهج التاريخي. ومن جهة أخرى أدت الأسباب نفسها إلى وجود ضبابية في وضع بنود لقضايا لم

(1) أما النظرية الشيعية فقد ابتعدت عن ذلك بإدخالها للسلطة التشريعية للأئمة المعصومين

المنحدرين من سلالة النبي عن طريق زواج ابنته فاطمة من ابن عمه علي.

(2) مصطلح Caliph و Caliphate هما مصطلحان إنكليزيان مقبولان عن الكلمتين العربيتين

خليفة (المختصرة عن خليفة رسول الله)، وخلافة (أي تعاقب). وهناك أشكال أخرى (غير

صحيحة) للكلمتين مثل Khalif و Khalifat.

تظهر بعد. وبالتالي اتخذت النظرية السُّنَّية منذ البداية (وهذا ضروري لفهم تطوراتها اللاحقة) موقف تبرير الوضع الرَّاهن في ذاك الوقت مهما كانت عليه الأمور في الواقع. كانت نظرتهُم أساساً هي أن الخليفة أو الإمام هو ممثل ونصير لقانون الشريعة وأن وظيفته لا يمكن الاستغناء عنها وهي واجب ديني، بالرغم من أن هذا الشخص ينتخب من قبل البشر⁽¹⁾؛ وأن الشريعة كل لا يتجزأ وكذلك الخلافة⁽²⁾؛ وأن القانون يطبّق على كل المسلمين دون نقاش أو شروط، فمن الواجب أيضاً الخليفة نصرة الخليفة وإطاعة أوامره (باستثناء ما يخالف الشرع). هناك شروط تقضي بأن يكون الخليفة ذكراً حراً بالغاً سليم الجسم ورعاً ذا بصيرة وعلم بالقانون⁽³⁾، قادراً على قيادة الإدارة العامة والإدارة الحربية. علاوة على ذلك، مع أنه قد يكلف بعض الأشخاص المؤهلين للقيام بمهام معيّنة، فلا يمكنه التخلي عن المسؤولية الكاملة فيما يتعلق بكافة شؤون الحكومة. وهناك شرط آخر يقضي بعدم أحقية أحد بالخلافة إلا إذا كان فرداً من قبيلة قريش المكيّة، وهو أمر وافق عليه الكل بالإجماع ما عدا بعض الفقهاء. أخيراً اتفق الجميع على أنه إذا صدر من الخليفة إلحادٌ أو إخلال بالأخلاق فيحق لمنتخبه فسخ العقد معه وخلعه من منصبه، لكن الفقهاء يمتنعون عن تحديد محكمة أو جهة تقوم بإعلان خلعه، بل كانوا مجبرين على الإقرار بخلعه بالقوة، وكانوا من الأمانة بمكان بحيث لم يسمحوا بأن يكون للفتوى أية صلاحية في خلع الخليفة بعيداً

(1) ليس من قبل عامة الناس بل من قبل مجموعة صغيرة من منتخبين مؤهلين موثوقين، أو بواسطة ترشيحه من قبل سلفه. ثم يوثق هذا الانتخاب بالبيعة التي تؤخذ من أصحاب المناصب المهمة.

(2) مع ذلك فقد أفتى بعض الفقهاء، من القرن الرابع فصاعداً، بجواز وجود أكثر من خليفة في البلاد المتباعدة، بحيث لا توجد إمكانية بسط أحدهما لنفوذه على الآخر، أصول الدين للبغدادي الجزء الأول ص 274، وابن خلدون الجزء الأول ص 3 و 26.

(3) هذا هو التعريف العام الذي وضعه فقهاء السُّنَّة لتحديد شروط الخلافة، لكنهم بعد ذلك وضعوا تعريفاً أكثر تقييداً. أمّا ممارسة المهمة الروحية للخليفة، فلم يقرّها أي من فقهاء السُّنَّة، بل ولم يفكروا بها. ومن الجدير بالذكر أن هذه الفكرة قد اقترحت من قبل سلاطين القرن الأخير من الخلافة العباسية، لكن الخلفاء والعلماء رفضوها بشدة. انظر بارتولد «تركستان تحت الغزو المغولي»، ص 347.

عن القوة العسكرية التي تساندها⁽¹⁾. فضلاً عن ذلك، فقد عُدل القانون المتشدد بشأن إجبار الإمام على التخلي عن منصبه بسبب أن رعيته قد أجمعوا على طاعته حتى ولو كان ظالماً أو متسلطاً، ومُنِعوا من الثورة ضده والتراجع عن نصرته. نجد تأييداً لهذا المفهوم في القرن الأول إذ قال الإمام الحسن البصري:

«قال رسول الله: لا تعصوا أولي الأمر منكم. فإن عَدَلُوا فلهم الأجر وعليكم الشكر. وإن بغوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر. هو امتحان من الله يبتلي به من يشاء من عباده؛ فعليكم أن تقبلوا امتحان الله بالصبر والأناة لا بالثورة والغضب»⁽²⁾. وبهذا فإن الخلافة في نظر الفقهاء هي حكم مطلق محدود إذ لا يخضع الخليفة لأية سلطة أخرى طالما أنه يقوم بواجبه بإخلاص ووفق الشريعة التي لا يجوز له تعديلها أو تأويلها، بل هو خاضع لها وهي تحدّد له المبادئ التي يجب عليه اتباعها في حكمه للبلاد. لكن قانون الركون السياسي وغياب الرقابة على أفعاله الاستبدادية، إلا بواسطة الثورة، قد حوّلت نظرية الفقهاء من عقد ثنائي الجانب إلى مجرد لفظة أكاديمية تعني الانفراد المطلق بالسلطة الذي لا يحدّ منه سوى القيام بثورة مسلحة.

لقد دُعم مبدأ الملكية هذا، وربما بشكل أقوى، بوجود ممارسات أخرى أقدم. كانت أقواها تقاليد الإمبراطورية الساسانية القديمة التي أوجدت ثغرة كبيرة بين الحاكم والرعية وأرست مبدأ الحق المقدّس للملوك بأقوى صورته والذي لا يقف في وجهه سوى الرّدة العلنية⁽³⁾. تصادف إحياء الخلفاء العباسيين لهذه التقاليد الساسانية

(1) انظر الماوردي، ص 32 (ترجمة Fagnan ص 40).

(2) انظر «كتاب الخراج» لأبي يوسف، ص 11 (ترجمة Fagnan ص 14). وقد أرسى الإمام الأشعري قواعد هذا الرأي في العقيدة الشّنيّة إذ قال: «إننا ندعو إلى وجوب طاعة أئمة المسلمين ونرى خطأ من يرون الحق في الخروج عليهم مهما ظهر عليهم من بعد عن الحق. نحن ضد الخروج عليهم وإقامة حرب أهلية» (د. ب. مكدونالد، تطور الفكر الديني الإسلامي، ص 298).

(3) انظر كتاب ت. و. أرنولد «الخلافة»، ص 48 وما يليها؛ و كريستنسن «إمبراطورية الساسانيين» (كوپنهاغن، 1907)، ص 79-80.

مع بدايات وضع النظرية الفقهية، وظهر في تطبيقات عدة كعزل الخليفة عن الرعية. كما أن آثارها تظهر بوضوح أكبر ممّا هي عليه في كتابات الفقهاء وذلك بانعكاسها على حياة الأمراء أو آداب الحكومة والبلاط والتي دُوّنت باللغة العربية في العصور الوسطى⁽¹⁾. وبما أن هذه الكتب تظهر ما يدعى بالآداب العملية للطبقة الحاكمة وتعكس نظراتهم وآراءهم، فهي قيمة للغاية من أجل هدفنا الحالي. صحيح أن أهواء الكتاب يمكن أن تلعب دوراً في عدم توضيح تفاصيل الصورة المركبة، فإن هناك ملامح معينة تبرز بوضوح من خلال وضعياتها المختلفة، وإننا ننظر إليها كونها حجر الزاوية في البنية النظرية لبحثنا. إن الملكية المؤقتة هي ضرورة اجتماعية ولا يوجد وسيلة أخرى للحفاظ على النظام الاجتماعي ضد الطمع والعنف البشريين. ومن هنا نجد أن وظيفة المُلك حق مقدّس وأن طاعة الحاكم جزء من الدين. أما الصفات الأساسية للملك الجيّد فهي العدل والكرم: «تكمن عظمة الملوك في العطاء، ونبلمهم في التسامح، وعزهم في عدلهم». يعتمد العدل نظرياً على أسس دينية وأخلاقية، أما عملياً فيرتكز على أرضية يقف فوقها الحاكم الظالم المستبد ليفقد عرشه آجلاً أم عاجلاً. وإنّ السّخاء «هو أحد دعائم المُلك وأساساته وتاجه وزينته». إنه ليس كرمًا ورغبة في الإنفاق فحسب، وإنما يعني أن على الحاكم أن يتعد عن جمع الثروات ويعطي كل ما لديه. وإنّ أهم من يناله هذا السّخاء هو الجيش: «إن ثروة الملك هي عدوّ له وجيشه هو صديقه، وعندما يقوى أحدهما يضعف الآخر». مع ذلك نلمح في هذه الكتابات ملاحظات اعتذار مثل: «هكذا يجب أن يكون الملوك، ولكن للأسف فإن الملك ما هو إلا تسوية فاشلة بين المثالية والقصور البشري، وهي مقبولة نوعاً ما لأنه ليس لها بديل سوى الفوضى العارمة». إن مسؤوليات الحكام ضخمة تجعل من حياتهم الطّبيعية أمراً متعذراً: «وبهذا يجب على الناس أن يتعلّموا كيفية تحمّل شرو

(1) من أشهر هذه الأعمال الكتب الهندية والفارسية التي ترجمها ابن المقفع (القرن الثامن الميلادي)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (القرن التاسع)، و«سراج الملوك» للطّوطشي، (المتوفى عام 1126)، و«كيمياء السعادة» للغزالي (المتوفى عام 1111). انظر دراسة Richter *Studien zur arabischen Fürstenspiegel*, Leipzig, 1932.

المُلك الذي يشبه المطر بما قد يحمله من ضياع ودمار على القوافل والمدن والسفن، لكنه يجلب الحياة للأرض وأهلها. وإنّ ستين سنة من الاستبداد لهي أفضل من ساعة من الحرب الأهلية».

إن الواقعية الشديدة التي تقوم على أساس وثنى أكثر منه إسلامي، والتي تركز على هذه التفسيرات قد لقيت دعماً من أحد أشهر الوزراء المسلمين الذي يُعدّ كتابه «سياسة نامِه» (كتاب الحكم) نبعاً للحكمة السياسية لخمسة وعشرين جيلاً من الحكام الفرس والأتراك⁽¹⁾. ظاهرياً، سعى نظام المُلك إلى تلخيص الحوادث التاريخية من أجل سيده السلطان السلجوقي مَلِكشاه (الذي دام حكمه بين 1072-1092) وصاغ منها سلسلة من المبادئ العملية التي فيها مصلحة الدولة. إنه طريقة تضع شخص السلطان (البادشاه) *pādiṣāh* في المقام الأول ثم تأتي بعده طبقة الإقطاعيين، وهم عسكريون أرسقراطيون، مُسلطة على رؤوس الشعب ومرتبطة بالبادشاه شخصياً، وهناك الطبقة الثالثة من الموظفين المدنيين والدينيين وهم مجرد أدوات تخدم الإدارة، أما الطبقة الرابعة والأخيرة فتألف من فئة غير فاعلة تُدعى بدفعي الضرائب. لا تستطيع هذه الفئة أن تطالب بحقوقها ضد الدولة أو حتى المشاركة في شؤونها، وهي أمور لم ترد في الكتاب أو ربما لم يرحّب الكاتب بإيرادها. قد لا يكون هناك ما هو أشدّ تناقضاً مع روح القاعدة التأسيسية للفقهاء من هذا الخليط من التقاليد الساسانية القديمة والمبادئ العسكرية التركية التي هي محور الكتاب. لا نجد هنا دستوراً مقدساً شرع لما فيه خير العباد في الدنيا والآخرة، وليس فيه عقد بين الحاكم والمحكوم، بل هو مجموعة من الحقوق المكتسبة بالقوة والمحافظ عليها بالقوة، وهو دولة تعتمد مؤسساتها على الارتياح وعدم الثقة. فالبادشاه يخشى الفرق التي تناصره وتمدّه بالقوة، وهو لا يثق بالموظفين الذين يديرون شؤون الأقاليم، والولاء معدوم ولا يحصل على الأمانة إلا بالتهديد بالعقاب.

يلاحظ في هذه الأعمال أن الخليفة لم يعد يبرز كحاكم للبلاد، بل أصبح صاحب

(1) نظام المُلك، «سياسة نامِه»، تحرير وترجمة Ch. Schefer، باريس، 1891-1893.

السلطة الزمنية هو السلطان أو، حسب الاصطلاح الساساني القديم، البادشاه. لقد فقدت الخلافة منذ منتصف القرن العاشر سلطتها التنفيذية وظهر من يقول أن البنية التي أسسها الفقهاء قد تهاوت وأن الخلافة لم يعد لها وجود. لكن الفقهاء، الذين اضطروا إلى تعديل نظرياتهم مجارة للأحداث، لم يستسلموا نهائياً، لأن ذلك يعني الإقرار بأن المجتمع يعيش في الإثم. وكوسيلة للخروج من هذه المعضلة التي واجهتهم قدام الخلفاء وثيقة رسمية للحكام الزميين، وبهذا أصبحت حكومتهم التي يديرونها بالقوة العسكرية حكومة شرعية وهي في الواقع توهم بأن الخليفة هو مصدر التفوذ. لكن، وفي نهاية القرن الحادي عشر، جاء الإمام الغزالي بصراحته المعهودة ومنطقه السليم ليحطّم هذا الزيف ويظهر الأمور على حقيقتها:

«إن السلطان الظالم الجائر طالما ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان في الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له كما تجب طاعة الأمراء إذ قد ورد في الأمر بطاعة الأمراء والمنع عن سلّ اليد عن مساعدتهم أوامر وزواجر... فالذي نراه أن الخلافة منعقدة للمتكفل بها من بني العباس رضي الله عنه وأن الولاية نافذة للسلطين في أقطار البلاد التابعة للخليفة... بل إن الولاية الآن لا تتبع إلا الشوكة فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة ومن استبدّ بالشوكة ومطيع للخليفة في أمر الخطبة والسكة⁽¹⁾ فهو سلطان نافذ الحكم والقضاء في أقطار الأرض ولاية نافذة الأحكام»⁽²⁾.

ثم يشرح الغزالي في موضع آخر أن هذه التنازلات «ليست مسامحة عن الاختيار ولكن الضرورات تبيح المحظورات»⁽³⁾.

مهّدت هذه التسوية الطريق للخطوة الأخيرة. لقد أقحمت السلطنة نفسها ضمن النظرية الفقهية للحكومة، وهي خاضعة فقط لسيادة الخلافة مع أنها في الواقع قد

(1) أعني أنه يذكر اسمه في الصلوات في المساجد وعلى العملات النقدية، وهما المظهران التقليديان للحكم في الإسلام.

(2) إحياء علوم الدين، ج 2 ص 124.

(3) كتاب الاقتصاد في الاعتقاد، ص 107.

استولت على القسم الأكبر من امتيازاتها، وفي الوقت نفسه تخلّت عن التزاماتها السابقة. وكما يُظهر الغزالي بوضوح، فإن الخلافة قد غدت مجرد رمز لشرعية الحقوق المكتسبة بالقوة. وفي عام 1258 عندما مُحيت الخلافة في بغداد على أيدي التتار، لم يؤثر غيابها كثيراً على الرأي السياسي للفقهاء. وهنا لم يعد هناك انتخاب وموافقة، بل أُعلن أن الحقوق التي تكتسب بالقوة هي الحقوق الشرعية وأن القوة العسكرية يمكنها تشكيل إمامة سارية المفعول. كما لم يشكل تأسيس خلافة اسمية في مصر أيّ فارق بما أن القليلين جداً من فقهاء ذلك الوقت هم من أقرّوا بها⁽¹⁾. وفي الواقع فإنّ رئيس القضاة في مصر هو من كرّس الشرعية الدينية في الجزء الأخير من النظرية الفقهية. فبعد أن لخص الطرق التقليدية للانتخاب وتعيين الإمام، تابع قائلاً:

«أما الطريقة الثالثة (للحصول على الإمامة) فهي حين تستحصل البيعة بالقوة ويحصل هذا عندما يلجأ رجل الجيش إلى الإرغام، فإن كانت الإمامة شاغرة في ذلك الوقت وكان الطّامح إليها لا يصلح لها إلا بإكراه الناس على قبوله بالبطش والجيش دون مبايعة ودون تسمية من سلفه، فإن بيعته تفترض صحيحة والطّاعة واجبة له حفظاً لوحدة المسلمين. أما كونه جاهلاً أو جائراً⁽²⁾ فذلك لا يبطل البيعة على أصحّ الأقوال. والإمامة المتحصّلة لهذا الشخص بالقوة والسّلاح إذا نهض لها شخص آخر وغالب الأول بقوة السّلاح والجيش أيضاً، فإن الأول ينخلع ويصير الثاني إماماً من أجل خير المسلمين ووحدتهم كما قلنا آنفاً»⁽³⁾.

(1) انظر كتاب «الخلافة» لأرنولد، ص 99-102. إن هذه النقطة بالغة الأهمية في التصور اللاحق بأن الخليفة الصوري قد تنازل عن مهمته للسلطين العثمانيين. وحتى المماليك المصريون أنفسهم، في منتصف القرن الخامس عشر، قد اتخذوا لقب الإمام الأعظم بالرغم من كونهم من رعايا الخليفة العباسي. انظر A. N. Poliak in *Revue des Études Islamiques*, ix (1935), p. 236, n. 3.

(2) في Santillana, *Istituzioni di Diritto* (روما 1926) أضيفت هذه الكلمات: أو عبداً أو امرأة، وهي لا وجود لها في النص الأصلي.

(3) انظر «تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام» الجزء السادس ص 357 لبدر الدين بن جماعة الذي كان قاضي قضاة الأحناف في مصر بين عامي 1291 و1294 ثم بين عامي 1309 و1327.

لكن هذه التعاليم، التي تفصل عملياً بين الإمامة أو سطوة المُلْك وقانون الشريعة التي يُفترض أن تمثلها وتدعمها، لم تكن مقبولة كحلّ مناسب برأي المسلمين، وخصوصاً في الأقاليم الفارسية التركية في العالم الإسلامي الشرقي التي فصلت عن الأراضي العربية بسبب غزو التتار الهمجيين وتقويض دعائم التعاليم القديمة، وحيث نشأ صراع من أجل استرجاع سيادة الشريعة، ورأوا أنه من الضرورة بمكان وضع تعاليم أخرى قابلة للتطبيق بما يناسب أحوالهم وطموحاتهم. بدا واضحاً أن النظرية الفقهية القديمة قد تم استبعادها وظهرت نظرية أخرى (تم قبولها فيما بعد كدستور رسمي من قبل الفقهاء الأحناف في الإمبراطورية العثمانية)⁽¹⁾ مفادها أن الخلافة الحقيقية قد انتهت عندما فشل رابع خلفاء النبي بإرضاء حاجة المجتمع الشّني إلى وجود إمام واحد منظور. ولقد نشأ قانون آخر لقي دعماً حتى في فترة الخلافة العبّاسية بالرغم من أنه لم ينل موافقة الفقهاء الرسميين. نشأ هذا القانون في الأوساط الفلسفية ويتأثر من آراء أفلاطون، وسعى للمساواة بين نظرية الملك الفيلسوف والخليفة الإمام المسلم، وتطبيق الشريعة تحت توجيه من الحكمة المقدّسة.

تعارض هذا القانون في شكله الأصلي⁽²⁾ مع النظرية الشّنية إلى حدّ ما، ولاقي قبولاً في الأوساط الفلسفية والشيعة. ولكن بعد تجريده من عناصره الدّينية الفلسفية وتقاربه مع النظرة القويمية، زوّد فقهاء السّنة المتأخرين بقاعدة ارتكزت عليها البنية السياسية والدّينية للمجتمع.

«الحاكم شخص اختصّه العناية الربّانية ليدلّ الناس على الكمال ويؤمن النّظام الصّالح لهم، وقد أطلق عليه الفلاسفة اسم «الملك المستبدّ» ويسمّيه فلاسفة الإسلام الإمام ووظيفته الإمامة، ويسمّيه أفلاطون «ضابط العالم»، ويسمّيه أرسطو «الرجل المدني»⁽³⁾.

(1) انظر كتاب «الخلافة» لأرنولد، ص 163.

(2) انظر كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» للفارابي، وهو النسخة المترجمة عن كتاب «الجمهورية».

(3) انظر «أخلاقي جلالی» لجلال الدّین الدّوّانی، ترجمه و. ف. تومسون بعنوان Practical Phi-

وردة في هذه النظرية أيضاً أن المُلْك عطاءٌ من الله منحه لشخص مختار، وأن الحكومة إما أن تكون صالحة أو غير صالحة. فالحكومة الصالحة هي التي تعدّ رعاياها أبناء وأصدقاء وتعمل على تأمين مصالحتهم الدنيوية والروحية، وهي الإمامة؛ إما الحكومة غير الصالحة فهي تحكم بالقوة وتعامل رعاياها كدواب وعبيد⁽¹⁾. وبالتالي فإن كل حاكم صالح يحكم بالعدل ويطبق الشريعة يندرج تحت نظام الخلافة. إن هذه النظرية وليست النظرية القديمة، هي التي سادت الأراضي الفارسية التركية؛ وإن الدّواني لم يتدعها بل أعطاها صيغة نهائية مقبولة بسبب شهرته الشخصية الواسعة⁽²⁾. وكان لقب «الخلافة» يطلق قبل قرنين من عصره، بشكل أو بآخر، على عدد من الحكام المسلمين (بمن فيهم السلاطين العثمانيين)، ربما دلالة على اختلافه عن المغول الهمجيين ومن ينهجون نهجهم⁽³⁾. ولعل الفكرة كانت شائعة في ذلك الزّمان ففي الطرف الآخر من العالم الإسلامي، في شمال غرب أفريقيا، توصل المؤرخ وقاضي المالكية ابن خلدون (المتوفى عام 1406) إلى النتيجة ذاتها⁽⁴⁾.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت كلمتا الخلافة والسلطنة مصطلحين مترادفين بكل المعايير. لكن لا بدّ من ملاحظة أن السلطان لم يكن يلقب أبداً باسم الإمام أو الخليفة بالمعنى الرسمي أو العادي. أما الكتاب المعاصرون في القرنين السابع عشر والثامن

Iosophy of the Muhammadan People (لندن، 1839)، ص 322. ينتمي الدّواني إلى عائلة مثقفة على المذهب الشافعي وكان قاضياً في ولاية فارس Fârs حيث توفي عام 1502/1503 (انظر براون، التاريخ الأدبي الفارسي، الجزء الثالث ص 444). كانت أبحاثه في الأخلاق من أهم الكتب المقروءة وأكثرها انتشاراً في العالم الإسلامي الشرقي.

(1) المصدر السابق، ص 337 وما يليها.

(2) من الجدير بالذكر أن السلطان العثماني بايزيد الثاني قد أرسل رسالة مديح وهدية إلى الدّواني وأن الفقيه العثماني الشهير عبد الرحمن الجليبي قد درس على يديه لمدة سبع سنوات. انظر كتاب براون، ج 3 ص 423.

(3) انظر كتاب «الخلافة» لأنرولد، الفصل التاسع: اتخاذ لقب الخليفة من قبل الأمراء المسلمون المستقلون، والفصل الحادي عشر: العثمانيون والخلافة.

(4) انظر مقدمة ابن خلدون، الجزء الثالث الفصل 25.

عشر فيشرون إلى القسطنطينية عرضاً بأنها دار الخلافة أو دار السلطنة⁽¹⁾، ويلقب السلطان إما بهذا اللقب أو باللقب الفارسي «پادشاه الإسلام». ولغاية عام 1813، بعد استعادة محمد علي لمكة والمدينة نيابة عن سيده العثماني، أصبحت الصيغة الرسمية التي تقال في الخطبة هي «السلطان ابن السلطان ابن السلطان محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان المجاهد في الدين وخادم الحرمين الشريفين»⁽²⁾، ولم يخطر في بال أحد من الفقهاء المسؤولين أن يلقب السلطان، كما كان يلقب خلفاء المدينة ودمشق وبغداد، بلقب «الخليفة العام للمسلمين»⁽³⁾.

هناك تأييد غير متوقع لهذه النظرة ورد في كتاب المرادي، وقد يلاحظ أن الفقهاء المتأخرين عندما يستخدمون لقب «الخلافة» فإنهم يحرصون على تجنب اللقب التاريخي الذي كان الخلفاء الأوائل يحملونه، وهو لقب «أمير المؤمنين». ولم يظهر هذا اللقب سوى مرة واحدة في أدب الأراضي التابعة للعثمانيين في القرن الثامن عشر، ولم يطلق حينها على سلطان عثماني بل على ملك الهند، ففي ذكر المرادي الموجز لأورنگ زيب (الذي حكم بين عامي 1659-1707)، يقول عنه إنه «سلطان الهند في عصرنا وأمير المؤمنين وإمامهم وركن المسلمين ونظامهم، المجاهد في سبيل الله،

(1) المرادي، الجزء الأول ص 50، 32، 25، وأحياناً أيضاً في «دار الملك»، الجزء الأول ص 41.
(2) تاريخ الجبرتي، الجزء الرابع، ص 178 / الجزء التاسع، ص 23. من الغريب أن تجد في كتاب المرادي استخداماً للألقاب السلطانية لا (الخلافة)، أي أن مصطفى الثالث يدعى بالسلطان (أبو التأييد والظفر)، نظام الدين مصطفى خان (الجزء الأول، ص 258)؛ وعبد الحميد الأول هو السلطان الأعظم (أبو النصر) غياث الدولة والدين عبد الحميد خان (الجزء الأول، ص 228).

(3) قد تبدو هذه النظرة متعارضة مع التعبيرات الواردة في الأعمال التركية، مثل مقدمة «قانون نامه» لسليمان القانوني التي جاء فيها: «خاقان الأرض وخليفة رسول رب العالمين، ملك ملوك الأرض والظل الممدود فوق جميع البشر، ... الحائر على الإمامة الكبرى والسلطان المجيد، وارث الخلافة الكبرى»، لكن قد تكون هذه اللغة هي المستخدمة عادة في الأساليب المنمقة في نصوص كهذه ولا يؤخذ بها كواقع تاريخي أو نظرية فقهية. ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح أيضاً في مقدمة المؤرخ ابن غلبون الذي استخدم ألفاظ «ظل الله» و«خليفة» لأمير قزمانلي وبنفس الطريقة يؤكد سيادة العثمانيين. انظر كتاب إ. روسي، بولونيا، 1936، ص 26.

... ليس له نظير بين ملوك الإسلام في حسن السيرة وخشية الله والجِدِّ في الصَّلاة⁽¹⁾. ومن الجليّ هنا أن المفهوم الحقيقي للخلافة قد زال وتبدّد كالخيال. قد يكون هناك عدّة «خلفاء»، لكن ليس هناك سوى «أمير مؤمنين» واحد «يحقق نصر الإسلام، وهو الذي أباد الكفار في أرضه وقهرهم وهدم كنائسهم وأضعف شوكتهم وأيد الإسلام وأعلى في الهند مناره وجعل كلمة الله هي العليا»⁽²⁾.

أما ما يتعلق بالالتزام بقوانين الشريعة (وقد التزم بها السلاطين العثمانيون أكثر من أية سلالة حاكمة قبلهم) فالنتيجة هي أن المفهوم العام لنفوذ وسلطة الملك في الإمبراطورية العثمانية لم تتأثر بالأفكار الإسلامية إلا بشكل ضئيل. كان السلاجقة قد تشربوا المبادئ الفارسية التي تلاءمت مع النظريات التركية بشأن التنظيم العسكري للجماعة التركية، ومن ثم نقلوها إلى من خلفوهم من العثمانيين. إن المهمة الرئيسية لمنظّم الكون «خُنكار»، وهو اللقب المفضل للسلاطين العثمانيين، هي المحافظة على الأرض وفق محورها عن طريق العناية بأمور الجيش، والتحقق من أن أية فئة من الناس لا يتجاوزون حقوقهم وواجباتهم على حساب فئة أخرى. وكلّما كان السلطان أشد ضعفاً وأقل نفوذاً كان تمسّكه أقوى بهذه العادات والتطبيقات التقليدية.

كانت السلطنة العثمانية متواجدة قبل الفترة التي تجري بحثنا فيها بحوالي أربعمئة عام، مرّت خلالها سياسياً بأطوار عدّة تقسم إلى قسمين، يشمل الأول حكم السلاطين العشرة الأوائل وينتهي بسليمان العظيم⁽³⁾. وبحكمه انتهت فترة الفتوحات باستثناء بعض الإضافات الصّغيرة المترافقة بخسائر أكبر، والتي قامت أثناء حكم لاحق

(1) المُرادى، الجزء الرابع ص 113-114. ومن الجدير بالذكر أن المُرادى كان المفتي العام للأحناف في دمشق، وعلى صلة شخصية مع السلطان عبد الحميد وعلماء الدين الأتراك.

(2) هناك معنى مشابه مرتبط بإطلاق لقب أمير المؤمنين على السلاطين العثمانيين الأوائل؛ انظر كتاب «Archives d'Histoire du Droit Oriental» Gibb المجلد الثالث (وترن 1948)، ص 406 وما بعدها.

(3) إن هذا اللقب ليس تركيا بل كانوا يطلقون عليه لقب «القانوني». وقد بدأت فترة حكم هؤلاء السلاطين العشرة من عام 1300 وانتهت بموت سليمان عام 1566.

للإمبراطورية. في الوقت ذاته بدأ طور الانحطاط وتجميع القوى، لا سيما في عهد حفيد سليمان، مُراد الثالث (1574-1595). كانت الألفية الهجرية قد اكتملت في عهد مُراد، فرأى المؤرخون الأتراك أن يعدّوا هذا التاريخ المميز نقطة تحول مهمّة. لكن مُراد الثالث ووالده سليم الثاني كانا ينتميان إلى الفترة الثانية من حكم السلاطين الذين كفّوا، باستثناء واحد أو اثنين منهم، عن إدارة شؤون البلاد بالطريقة التي كان أجدادهم النشيطون يحكمون بها. لقد التفت معظم سلاطين الفترة الثانية بشكل كامل إقاً إلى المتعة أو العبادة، كل بحسب أهوائه، وتركوا عظام الأمور لوزرائهم الذين لم يكونوا دائماً جديرين بمناصبهم.

إن كان سلاطين الفترة الثانية يتّصفون بعدم الكفاءة بشكل واضح، فهذا يعود أساساً إلى طريقة تشبّثهم الغربية. لقد اعتاد العثمانيون الأوائل، كمن سبقوهم من الحكام الأتراك، على منح أمراء السلالة الحاكمة بعض الأقاليم ليدرّوا شؤونها، لكن ذلك لم يكن يرضي طموح هؤلاء الأمراء، بل كان يشجّعهم على محاولة الاستيلاء على العرش بالثورة، وكان السلاطين معرّضين لمخططات أبنائهم التآمرية إضافة إلى إخوتهم وأبناء عموماتهم. وإن تنحية الأبناء يعني تعريض الأسرة الحاكمة للخطر، وبما أن العرش هو أهم ما في الموضوع، فقد أصدر محمّد الفاتح قانوناً يأمر كل من يأتي بعده بأن يفتح حكمه بتصفية إخوته⁽¹⁾. استمرّ العمل بالقانون حتى نهاية القرن السادس عشر ثم وضع قانون بديل⁽²⁾. ومنذ ذلك الوقت كان كل الأمراء، ما عدا

(1) انظر O. T. E. M. 1912، رقم 14، الملحق 27 (قانون نامه بى علي عثمان): «على كلّ واحد من أبنائي ممّن تيسّر له تولّي السلطنة، أن يعلم أن نظام العالم تفرض عليه قتل جميع إخوته، وقد أجازت أكثرية العلماء ذلك، فعليهم العمل به». والنص بالتركية كما يلي:

Ve her kimseneye evlâdından salânet müyesser ola, qardaşlarını nizâmı 'alem için katl etmek munâsibdir. Ekseri 'ulemâ daği tecvîz etmişdir. Onunla 'âmil olalar.

(2) يقول جوشيرو إن عزل الأمراء كان بأمر من سليمان الأول لكن ذلك لم يطبّق حتى عهد مُراد الثالث، بينما ينسب دوسون ذلك إلى عهد أحمد الأول. ويدين مصطفى الأول ببقائه على قيد الحياة إلى اللين في تطبيق القانون (انظر «الموسوعة الإسلامية، مصطفى الأول». أما خلفه مُراد

الأبناء، يُحجزون داخل منطقة خاصّة من القصر ويحرمون من أي اتصال مع العالم الخارجي. كانوا يمضون حياتهم برفقة بعض الخصيان والإماء والغلمان يكتسبون منهم معلومات عن العالم. كانوا في بعض الأحيان يزودون بمعلمين لكن لتعليمهم القرآن وعلم الفلك والإنشاء⁽¹⁾، كما كانوا بشكل عام يكتسبون منهم شخصية محافظة للغاية واحتقار شديد لكل ما هو غير إسلامي. علاوة على ذلك، كان كل طفل، ذكراً كان أو أنثى، يولد للأمراء من الجوّاري اللواتي يتم اختيارهن بسنّ يتجاوز سنّ الحمل لهذا السبب، كان يُحكم عليه بالموت. وبهذا كان كل الأمراء الأحياء أبناءً للسلطان الحاكم أو من سبقوه.

منذ بداية القرن الرابع عشر إلى بداية القرن السابع عشر، كانت السلطنة تورث من الأب لابنه خلال ثلاثة عشر جيلاً. ولكن بوفاة السلطان أحمد الأول عام 1617 لم يكن أحد من أبنائه قد بلغ سنّاً يؤهله للحكم، لذلك تولى السلطنة أخوه مصطفى الأول بالرغم من أنه كان مختلّ العقل. وفي الوقت نفسه أصدر قانون ينظم تتابع السلاطين في المستقبل، ممّا أكد على أن كل سلطان سيأتي لا بدّ وأنه قد أمضى جزءاً من حياته في العزلة التي تحدثنا عنها. وقد اتفق على أنه عندما يبقى كرسي العرش خالياً يتسلمه أكبر ذكر من الأسرة الملكية. وفي الواقع فقد سمح هذا القانون، لمدة قرن ونصف لاحق، للإخوة والأعمام وأبناء الأعمام (الذين كانوا وفقاً للقانون القديم مجبرين على الحجز داخل) «أقفاصهم»⁽²⁾ بأن يحلوا محل الأبناء (إن لم يوجدوا) ولم يحصل هذا سوى في حالة واحدة.

كان هذا الاستثناء الوحيد هو محمّد الرابع الذي خلف أباه إبراهيم عام 1648 وهو لا يزال في عمر السابعة عشرة، وذلك لأنه كان الأمير العثماني الوحيد الباقي

الرابع فقد قتل ثلاثة من إخوته (المرجع السابق، مُراد الرابع).

(1) انظر كتاب جوشيرو دى سان دُني Juchereau de Saint-Denys «ثورات القسطنطينية» الجزء الأول ص 17 وما يليها.

(2) كانت أجنحة حجز الأمراء محاطة بحديقة مسورة بجدار عالٍ ولذلك يطلق عليها اسم «الأقفاص».

على قيد الحياة. وتعدّ هذه القصة مثيرة للاهتمام، إذ كان كل السلاطين اللاحقين من أحفاد إبراهيم، الذي كان شبه مجنون بأطواره الغريبة⁽¹⁾. وبما أن سقوط حكم العثمانيين قد سمح، أو ربما شجّع على إلقاء اللوم على السلاطين بجلب الولايات على الإمبراطورية، فقد ادعى البعض أن البلاد بقيت لمدة تزيد عن أربعمئة وخمسين عاماً يحكمها أحفاد إبراهيم، لكن هذا القول فيه الكثير من التّجني إذ لم تظهر علامات الجنون سوى لدى شخص واحد منهم⁽²⁾. وبانتهاء نظام العزل اعتلى العرش بعض من الأمراء الجديرين بالتقدير والاحترام، وإن كان قد بدر من بعضهم ميل للانحراف عن الطريق القويم فيمكن تبرير ذلك بالظّروف التي كانت تحيط بهم.

بالرّغم من أن سلاطين الفترة الثّانية كانوا قليلي الأهمية، فهم مع ذلك الأسياد المطلقون ولم تظهر قوة منافسة يمكن أن تقصّهم عن العرش وتحلّ محلهم. لكن حكمهم المطلق كان مقيداً بقوانين الشّريعة من جهة وباحتمال خلعهم في أية لحظة من جهة أخرى، وبهذا يمكن تصوير نقاط ضعفهم في الفترة الثّانية بمقارنة وضعهم مع وضع سلاطين الفترة الأولى. ففي تلك الفترة لم يُخلع أيّ سلطان أو يجبر على التنازل عن عرشه سوى في حادثة واحدة (وذلك من قبل ابنه وخليفته)، بينما في الفترة الثّانية، ولغاية الفترة التي تجري فيها بحثنا، هناك أكثر من ستة سلاطين إما خُلعوا أو أُجبروا على التنازل عن العرش، وقد قُتل منهم اثنان. ولم يكن أبنائهم المسؤولين عن إقصائهم بل في كثير من الأحيان كان ذلك يحدث بفعل الجنود القادمين من العاصمة.

في الواقع اتُخذ بعض هؤلاء السلاطين ككبش فداء لهزيمة جيوشهم في المعركة، وكانوا بريئين من أيّ أمر سوى إهمالهم. هناك اثنان منهم فقط هما من أثارا المعارضة بسبب سلوكهما، وأمرهما مهمّ من وجهة نظرنا لأن مصيرهما حدّد ما ستكون عليه

(1) قد تكون دراسة حياة إبراهيم السابقة ممتعة، فقد فرض مرة ضريبة خاصّة على استيراد فراء السّمور من روسيا حتى يتمكن من تغطية جدران بيته به، وكم كان سعيداً عندما كسا لحيته بشبكة من الألماس.

(2) هو مُراد الخامس الذي تمت تنحيته بسبب ذلك (سواء أكان ذلك عدلاً أم لا) وتلاه أخوه الشّهير عبد الحميد الثّاني.

الأحداث. لقد تمت تنحية السلطان عثمان الثاني وقتله عام 1622 لأنه تردّد في القضاء على الجيوش الإنكشاريّة (وكان ذلك الأمر مطلوباً لكنه لم يتحقق سوى بعد قرنين)، بينما أُجبر السلطان أحمد الثالث على التنازل عن العرش عام 1730 نتيجة لما عُرف بالثورة الاجتماعية⁽¹⁾ التي هتّجها الترف والبذخ الزائدان في بلاطه، وزاد في اشمئزاز رعيته ما كان فيه من صبغة أوروبية⁽²⁾.

مع ذلك بقي السلاطين، وإن لم يكن لهم دور كبير في شؤون البلاد، هم أساس الإمبراطورية يحملون مصيرها بين أيديهم، مع استمرار وجود الأمرين اللذين يقيّدانهم. وفي المستقبل سيخضعون إلى صعوبة التوفيق بين المستجدات، حين يرونها ضرورية، وبين مبادئ الشريعة وتجنّب الصراع مع من يريدون حرمانهم من عرشهم.



(1) انظر «الموسوعة الإسلامية»، محمود الأول.

(2) كمثال على ذلك، حضّر رجال بلاطه على بناء أبنية لهم فوق الهضاب المحيطة بكاغد خانة *Kağidhâne* (المياه العذبة الأوروبية) على نمط ضاحية مارلي. وبعد سقوطه قام الشعب بتحطيمها بمتعة كبيرة. انظر «مذكرات» دي توت، الجزء الأول ص 5.

الفصل الثالث

المؤسسة الحاكمة

1. مقدمة

بعد أن حدّدنا موقع السلاطين في الحكومة العثمانية، ننتقل الآن إلى النظام الذي كانوا يحكمون وفقه. كان هذا النظام تقليدياً إلى حدّ كبير: فمظاهره الأساسية موروثه من النظام الفارسي، وإن كانت صُبغت نوعاً ما بالصبغة التركية، التي اعتمدها السلاجقة وورثوها بدورهم مع بعض التعديلات عن العباسيين من خلال الغزنويين. لكن نظام الحكم العثماني كان يضم مظاهر غريبة بعض الشيء وربما يعود ذلك إلى الوضع الجغرافي للدولة العثمانية في أيامها الأولى. ففي الفترة الأولى من الإسلام كانت أعظم مملكة في دار الحرب هي الإمبراطورية البيزنطية، وقد كانت هناك محاولة لفتح القسطنطينية في القرن الأول الهجري وبقي الاستيلاء عليها مطمحاً للحكام المسلمين على مدى الأيام. كانت لبيزنطة أهمية كبرى في أعين المسلمين وعندما سقطت ولاياتها أولاً ثم تلا ذلك سقوط المدينة بيد الفاتحين العثمانيين، كان لا بدّ من تأثير الإدارة السياسية بالدولة التي تم فتحها. حصل التلاؤم بسهولة نظراً لأن التأثير المتبادل للحضارتين البيزنطية والإسلامية كان كبيراً بينهما، وبسبب تزايد النفوذ الأرمني في إدارة شؤون الدولة البيزنطية، فقد اتجهت تدريجياً لأن تصبح شرقية. لم يكن هناك أية مؤسسة عثمانية إلا وقد تشكلت وفق نظام إسلامي قديم أو معاصر، لكنها اتحدت في العالم الجديد ضمن دولة واحدة أكثر ثباتاً وتنظيماً، وهنا من الصعب ألا نلاحظ

التأثير البيزنطي. وإن السمة البيروقراطية الدقيقة للإدارة العثمانية تعكس ما اعتدنا على اعتباره تميّزاً بيزنطياً. إن مفهوم «القانون» ابتكار عثماني لكن يمكن تبين أنها تخفي وراءها كلمة *canon* التي تعني الشريعة الكنسية. وإن الإقرار بأعراف السلطان هو أمر آخر يلفت الانتباه، فمع أنه يتوافق مع التقاليد الملكية الفارسية، لكنه على الأرجح محاكاة لأباطرة بيزنطة.

لكن المؤسسات العثمانية لم تنظم على نمط الإمبراطورية البيزنطية وهي في أوج قوتها إلا بعد فتح القسطنطينية في منتصف القرن الخامس عشر. لكن لا يمكننا القول إن النهج البيزنطي لم يبدأ إلا حينها، لكنه تكثف في تلك الفترة. وإن السلاطين لم يضيفوا أهمية كبيرة للأراضي الآسيوية الخاضعة لهم إلا عندما فتحوا شبه جزيرة البلقان كلها، التي لم تعد خاضعة سياسياً لحكم الأباطرة، وكانوا يتطلعون إلى فتح القسطنطينية بسبب حضارتها الرائعة.

لكن علينا ألا نبالغ بشأن المظاهر البيزنطية في الحكومة العثمانية⁽¹⁾ فقد كان أهم ما تأسست عليه الدولة ذا طابع إسلامي بحت، لكن تأثر السلاطين بأسلافهم البيزنطيين وفتحهم المتميز لأوروبا كان شأناً ذا أهمية، وكان للاتجاه الذي أطلقوا حملاتهم الأولى نحوه أثر كبير في طبيعة الحكم والمؤسسات الناشئة.

كان المنحى الذي اتخذته هذه الفتوحات موفقاً. كانت الحروب بين الحكام المسلمين أكثر عدداً من الحروب ضد الكفار ولم يكن هناك في التاريخ الإسلامي اتساع مهم إلا في ثلاثة ميادين هي: الفتوحات العربية الأولى، وحملات الغزنويين في الهند، ودخول السلاجقة الأتراك إلى آسيا الصغرى؛ بينما في الفترة التي بدأت بانحطاط الخلافة العباسية في بداية القرن العاشر، لم يشهد العالم الإسلامي سوى حروب طاحنة دعاها المفكرون المسلمون بالحروب الأهلية. أما الدولة التي أسسها عثمان في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر - وهي عبارة عن مقاطعات تركية

(1) انظر كوبريلي زاده: «Bizans'ın Osmanlı Mü'esseselerine Te'siri» في:

Türk Hukuk ve İktisat Mecmuası, i.

صغيرة برزت في آسيا الصغرى عند تراجع سيطرة المغول، أو التتار، عليها - فتقع على ما كان يعرف آنذاك بحدود الدولة الإسلامية. وكانت الأراضي المحيطة بها، داخل نطاقها أو خارجه، في حالة من الاضطراب والثوران وكان من الواضح للعثمانيين أن سيطرتهم لن تستمر إلا بقوة السلاح ولن يستطيعوا الدفاع عن أراضيهم إلا بتوسعتها، وإن قانون الإسلام الذي يقضي بتوسيع رقعة الإسلام قد حدّد الجهة التي يجب عليهم الامتداد عبرها. لقد أحب السلاطين الأوائل زعماء القبائل الأتراك المنافسين لهم الذين يقطنون المناطق المجاورة أكثر بقليل من حبهم للكفار الذين كانوا يقفون ضدهم خارج نطاق أراضيهم. لكن معظم مسانديهم كانوا مُشرّين بالتعصب الديني وكان بعضهم الآخر مرتبطاً بمواثيق دينية مع رعايا الزعماء الأتراك الآخرين⁽¹⁾. وبهذا وجه العثمانيون قواهم إلى دار الحرب وكسبوا من الكفار مغنم كبرى طالما حلموا بها.

بفضل الاتجاه الذي اتخذته التوسّعات، تأثرت الدولة العثمانية النامية بالأساليب البيزنطية من جهة، والأهم من ذلك هو أنها تمكنت من صيانة شخصيتها العسكرية إلى الأبد. وبما أن حدود الإسلام قد تقدّمت إلى الأمام، فقد تزامن ذلك مع تقدّم مركز الدولة الجديدة⁽²⁾؛ وبقيت بهذا منظّمة حدودية بما يتطلبه واجب التأهب العسكري. علاوة على ذلك فإن هذا التوسّع كان سريعاً بحيث لم يترك المجال للكفار بالذّوبان في المجتمع الجديد ضمن حدودهم. وكان قيام حكومة عسكرية أمراً ضرورياً وذلك

(1) انظر كتاب «أسس الإمبراطورية العثمانية» لغيبونز الذي يؤكد فيه على حقيقة أن الأمراء الأتراك في آسيا الصغرى لم يبذلوا جهداً في نصرة العثمانيين ضد من كانوا يعادونهم، ولا يكتفون لهم الود والصداقة. لكنه أغفل نظام الأخية *Ahi* في تحديد الصّلات المشتركة لهؤلاء الحكام الأتراك. كان لهذا المجتمع الفاضل الذي يقوم على الصّلة الاجتماعية - الدينية مراكز في كل مدن الأناضول، وكان معادياً لكل الحكومات. ويبدو أنه كان من القوة بمكان بحيث منع حدوث أية حرب بين الزعماء، ولعب في الوقت ذاته دوراً فعالاً في انطلاق المشروع العثماني بالجهاد المقدّس. وبعد تأسيس الجيش الإنكشاري تمكن السلاطين العثمانيون من تجاوز الصّلات التي تربط العديد من رعاياهم بمنافسيهم الأتراك أولئك، وقاموا بالهجوم عليهم.

(2) انتقلت العاصمة من إسكي شهر إلى بورصة ثم من بورصة إلى إدرنة *Adrianople*.

للمحافظة على السلام بينهم ولا إخضاعهم بالكامل⁽¹⁾.

لا يزال تاريخ تأسيس الإمبراطورية موضوعاً للجدال، ولكن من المؤكد أنه كان في أصوله دينياً أكثر من أن يكون مشروعاً لأسرة حاكمة. مع ذلك، بمرور الوقت وحكم السلاطين لمناطق أوسع، فقد اكتسب المظهر العائلي مكاناً متفوقاً وفترت حماسة الشعب للفتح وتضاءل عدد المتطوعين للجهاد، لهذا السبب ولكثرة القتلى والضحايا. وهنا بدأت اهتمامات السلاطين تفتقر عن اهتمامات الشعب المسلم، وشعرت الأسرة الحاكمة بالحاجة إلى قوات خاصة لحماية العرش. ولعل هذه هي الأسباب الرئيسية التي أدت إلى اكتساب الحكومة العثمانية لطبيعة متميزة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

وكما ذكرنا قبلاً، فإن الشريعة ترى أن الإنسان على نوعين: حرّ وعبد، وارتكزت على قاعدة أن الفئة التي يمكن أن تكون من العبيد هم غير المسلمين الذين يقطنون دار الحرب. أما من يولدون عبيداً فهم موجودون في دار الإسلام ويمكن بيعهم وشراؤهم، لكن هذا الأمر تضاءل بسبب الإعتاق وتحرير الأطفال الذين يولدون من إماء وأسياد أحرار. وإن حصول قاطني دار الإسلام على العبيد بشكل عام يعتمد على أسرهم أو شرائهم خارج حدود بلادهم. وهناك مبدأ آخر في الشريعة يمنح الإمام خمس الغنائم، بما فيها من الأسرى، التي يتم الاستيلاء عليها في الحملات ضد الكفار. وكان السلاطين منذ البداية يُعدّون أئمة يحقّ لهم التمتع بهذه المزية⁽²⁾. وبهذا وجدوا لديهم أعداداً كبيرة من العبيد الأسرى تحت تصرفهم. وبما أن عدد المتطوعين للجهاد قد تناقص، فقد فكروا في تحويل من يصلح من الأسرى ليصبحوا جنوداً. لكن في نهاية القرن الرابع عشر توقفت الفتوحات الكبرى في أوروبا وأخذ السلاطين يبذلون جهداً كبيراً في توسيع رقعة دولتهم في آسيا الإسلامية حيث لا يمكن تحويل

(1) انظر الموسوعة الإسلامية، مادة «الأترك».

(2) يقول أحمد راسم في الجزء الثالث ص 1236، منذ عهد السلطان مراد الأول إن ثمن الأسير (أو بدلي إيسارت *Bedeli Esâret*) كان حينها 125 آقچه *akçes* أو قطعة فضية. (من أجل العملة انظر الفصل السابع).

أسرى الحرب إلى عبيد، وإذا كانوا يرغبون فعلاً في الحفاظ على قوة جيشهم فلا بد أن يحصلوا على العبيد من مصادر أخرى.

في ذلك الوقت كانت القوات العثمانية تُصنّف ضمن فئتين: أولئك الذين يتقاضون أجورهم من خزينة السلطان مباشرة، وأولئك الذين يُمنحون بعض الأراضي مع حق جباية الضرائب والمستحقات من سكانها⁽¹⁾. وبالرغم من أن أفراد الفئتين كليهما هم من المسلمين الأحرار، فقد توقفوا عن الدخول في خدمة الفئة الأولى بعد أن أصبح عدد العبيد فيها كبيراً. وبهذا بدأت فئة من يتقاضون أجوراً ثابتة تقتصر تدريجياً على العبيد وهم مُلك خاص للسلطان، وتتميز عن فرقة الخيالة (التي تشكل أغلبية الجنود من مالك الأراضي).

ربما يكون السلاطين راضين تماماً عن حيازتهم لجيش ضخم من الإقطاعيين وحراس خاصين من العبيد. وفي الواقع فإن هذه السياسة التي اتبعتها الأسرة الحاكمة مستقاة من التقاليد الموروثة من أسلافهم السلاجقة، وإن شراء العبيد وتوظيفهم كجنود لم يكن من ابتداع العثمانيين بل كان شائعاً أيضاً لدى الخلفاء العباسيين. أما العثمانيون فقد جندوا لديهم ما تبقى من أسرى الحرب، وأضافوا عليهم من يتعاونهم في بلادهم أو خارجها. وفي ذلك الوقت كانت الفتوحات قد أصبحت تقليداً مصيرياً، وإن كانت تلك القوات تكفي للحفاظ على النظام داخل حدود الإمبراطورية (التي شملت حينها شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى فقط)، ولا ننسى أن اهتمامات السلاطين كانت قد اختلفت عن اهتمامات الرعية ممّا ولّد عداً بين الفريقين، فإن تلك القوات لم تعد كافية لإحلال النظام وتوسعة رقعة البلاد معاً.

لذلك عمد السلاطين إلى اللجوء إلى طريقة أخرى لم تكلفهم شيئاً لكنها كانت مناقضة لأصول الشريعة الإسلامية. لقد قرروا القيام بتجنيد دوري للذكور غير

(1) تدعى الفئة الأولى بـ «عُلوّفه لي» أي من يتقاضون راتباً ثابتاً (وفي العربية علوفة تعني علف الماشية)، انظر أ. جواد «الدولة العسكرية العثمانية»، 15-16.

المتزوجين من رعاياهم المسيحيين الأرثوذكس⁽¹⁾، فيأخذونهم من آبائهم في عمر يتراوح بين العشرة والعشرين، ويجعلونهم كالعبيد ويدربونهم على العمل في خدمة الدولة.

كان لهذا الأسلوب فائدة كبرى في رأي السلاطين، وهي أن الأطفال الذين يُلحقون بالخدمة يعتمدون عليهم وحدهم، إذ كانوا يؤخذون من مجتمعاتهم المسالمة ويتم قطعهم تماماً عن صلاتهم السابقة. ومن هنا قاد نظام التجنيد - أو الدوشيرمه⁽²⁾ *devşirme* - إلى تطور أمر آخر، فالإدارة في الأيام الأولى للإمبراطورية كانت بيد المسلمين الأحرار، ثم تم استبدالهم بأعداد كبيرة من عبيد السلاطين، إلى أن أصبحت كل مناصب المؤسسات الحاكمة للإمبراطورية تقريباً مشغولة إما من قبل المجندين المسيحيين أو بالعبيد الذين حصل عليهم السلاطين بوسائل أخرى⁽³⁾.

لسوء الحظ نحن مضطرون لاستخدام لفظة «عبد» لهؤلاء الأشخاص إذ أنها لا تصلح إلا في بعض الحالات. كان العبيد في الإسلام ملكاً لأسيادهم ولهم كامل الحق في التصرف بهم، لكن خدمتهم لهم لم تكن تحمل بين طياتها أي نوع من الذونية ولم يكن هناك تمييز بين أبناء الإماء من أسيادهم الأحرار وبين الأبناء الذين يولدون لأم حرة. وفي الواقع فإن معظم الخلفاء العباسيين في بغداد، علاوة على الأسر الحاكمة الأقل شأنًا، كانت أمهاتهم من الإماء، ومنذ منتصف القرن الخامس عشر وما تلاه كان السلاطين العثمانيون يتصفون بالأم ذاتها⁽⁴⁾. وهناك في التاريخ الإسلامي أمثلة

(1) يقول جودت (الجزء الأول ص 90) إن الرعايا المسيحيين في الدوشيرمه كانوا من الألبان والبوسنيين والبلغار والأرمن. لكن تم إعفاء الأرمن لأنهم ليسوا من الأرثوذكس، انظر ليبير *Lybyer*، الفصل الرابع عشر ص 34 وما بعدها.

(2) تلفظ بالتركية: دوشيرمه. (أحمد)

(3) انظر الموسوعة الإسلامية، «الدوشيرمه»، «الأترك»؛ وكذلك هاسلك «المسيحية والإسلام تحت حكم السلاطين» الجزء الثاني ص 493. أما تعبير المؤسسة الحاكمة فهو من ابتداع أ. هـ. ليبير *Lybyer*. انظر كتابه «حكومة الإمبراطورية العثمانية» ص 36.

(4) يقول غيرونز في كتابه ص 183 إن بايزيد الأول كان آخر سلطان يعقد له زواج رسمي. بينما يرد في كتاب دوشون في الجزء السابع ص 63 أن السلطانين مراد الثاني ومحمد الثاني قد تزوجا

أخرى لأسر حاكمة من العبيد، وهي أسر إمّا ممّن استُعبدوا أو ممّن ولدوا عبيداً، أي من أب أو أم من العبيد، ومن أشهرها السلاطين المماليك في مصر الذين عاصروا العثمانيين في فترتهم الأولى. في هذا العالم ليس هناك أي عار تتصف به حالات كتلك. وبالنسبة للعثمانيين لم يكن هناك أمر مخز في النظام الذي وضعوه والذي شغل نصف المناصب العليا فيه فئة من العبيد، لكن تأثيره السلبي كان كامناً في إقصاء الرعايا المسلمين الأحرار منه. كان عبيد السلاطين، أو عبيد الباب العالي كما كانوا يدعون⁽¹⁾، *Kapı Kulları*، كلهم قد اعتنقوا الإسلام ليس لأنهم أجبروا على ذلك بل لأنهم لم يكونوا قادرين على الحصول على منصب نفوذي لولا ذلك. مع ذلك كان من طموح من يرغب في نيل الامتيازات هو أن يولد غير مسلم. وباستمرار هذا الحال لم يعد المسلمون الأحرار قادرين على التكيف مع الأمر.

وإن استخدام العبيد في شؤون الإدارة والجيش ليس بالأمر الجديد في التاريخ الإسلامي أيضاً، لكن لم يسبق أن أقصي المسلمون الأحرار عنها تماماً. ولا بد أن حقيقة إقصائهم ترتبط بواقع آخر: إن نسبة غير المسلمين من سكان الدولة العثمانية (خصوصاً قبل الفتوحات الآسيوية في القرن السادس عشر) كانت مرتفعة بشكل غير مسبوق. ولأن ولاءهم لم يكن في أحسن حالاته ليدخلوا من الحسد والضغينة وفي الوقت نفسه، لم يكن المسلمون الحاكمون لهم يحبّونهم أيضاً، فقد وجد السلاطين أنفسهم محاطين بعدد من الرجال المخلصين أقل ممّا كان لدى أسلافهم. وبهذا يمكن

من أميرتين. وقد تزوج إبراهيم أمة من إمائه.

(1) تعني كلمة *قاپی* *Kapı* بالتركية البوابة أو الباب، وكلمة *قُول* *Kul* عبد. وإن استخدام كلمة الباب هو للإشارة إلى البلاط الملكي الفارسي بالأصل، وكان من عادة الملك أن يجلس في إيوان قصره ليستمع إلى المظالم وإحقاق العدل. وبالإضافة إلى كلمة *Kapı* التركية فقد استخدمت كلمتا باب العربية ودار الفارسية في العديد من العبارات العثمانية بهذا المعنى. انظر الموسوعة الإسلامية باب «دار». ولم تستخدم كلمة الباب العالي للإشارة إلى مقر الحكومة لتمييزها عن بلاط السلطان إلا في وقت متأخر. وعلى الرغم من أن تعبير *Kapı Kulları* يشمل كل العبيد الذين يعملون في خدمة السلطان، فقد كانت تطلق بشكل خاص على العبيد المأجورين لتمييزهم عن الفرق الإقطاعية. انظر هامر *Staatsverwaltung* ص 189.

القول إن تأسيس فرقة قايى قول لرى *Kapı Kulları* كان لتلبية حاجة ضرورية، فقد قامت بحماية السلاطين ضد من يطمع في خلعه من الرعايا الساخطين عليه، ولتأمين لغير المسلمين، بطريقة محسوبة جيداً، وظائف في الدولة تتوافق وأعدادهم الكبيرة.

لكنّ المسلمين احتفظوا بمؤسسة أخرى اقتصرت عليهم هي هيئة العلماء والباحثين في أمور الشريعة⁽²⁾. لكن الإمبراطورية العثمانية كانت دولة إسلامية، ومن التناقض العجيب فيها أن تجد غير المسلمين يحتلون كل مؤسساتها، وستحدث لاحقاً عن كيفية إيجاد المسلمين وسيلة للتمرد على هذا الوضع. يكفي القول هنا إن المؤسسة الحاكمة القائمة بأكملها على موظفين من العبيد قد زالت بحلول القرن الثامن عشر، واستعاد المسلمون الأحرار كل المناصب تقريباً التي كانوا قد فقدوها وبتائج كارثية، وفي الوقت نفسه لم يعترف أحد بهذا التغير. وفيما يتعلق بهذا الأمر وغيره من الأمور كان هناك اتفاق ضمني بإغماض العين عن الحقائق التي تقارن بأحلام الماضي بشكل مقلق. وبهذا بقي جهاز المؤسسات الحاكمة موجوداً على الورق لم يتغير، والأغرب من ذلك بقي جميع من يتمون إليه عبيداً للسلطان على الرغم من بقاء العبيد فيه كأقلية فقط. وإنّ هذه العبودية التقليدية للبقية كانت أمراً محزناً كلّفهم الحرمان من حقوقهم المدنية، فبدخلولهم في خدمة السلطان يصبحون ملكاً له يحقّ له إنهاء حياتهم دون سبب قانوني ومصادرة ما يشاء من أموالهم بعد وفاتهم أو قبلها⁽³⁾.

2. الجيش

يتطابق ما أشرنا إليه بالمؤسسات الحاكمة نوعاً ما مع فئة عرفها الكتاب المسلمون عند تصنيفهم لبنية مجتمعهم. كانوا يميزون بين طبقة الموظفين العسكريين والمدنيين للحاكم وطبقة العلماء، فيدعون أفراد الأولى «بأهل السيف» وأفراد الثانية «بأهل القلم»، ولعل لقب «أهل السيف» يدلّ تماماً على أفراد المؤسسات الحاكمة، لأنه

(2) انظر الفصل التاسع من الكتاب.

(3) انظر كتاب دوسون، الجزء السابع ص 148.

يبرز الطّبيعة العسكرية للحكومة العثمانية. لكن هذا التّعبير يجب أن يقال بصيغة «من يدعمون سيف الحكومة» ليشمل كل العاملين في بلاط السّلطان والإدارة المركزية والإقليمية. وبهذا فهو يشمل كل موظفي المكاتب والمحاسبين، بالرّغم من أنهم من حملة الأقلام. وأمّا «أهل القلم» الحقيقيون فهم المدرّسون في الكليات الدّينية والمسؤولون عن أمور الشّريعة وعلماء الدّين والحكماء وغيرهم ممّن سنفصل في أمرهم في موضع آخر من الكتاب⁽¹⁾، أمّا مهمّتنا الحالية فهي وصف بنية المؤسّسة الحاكمة بالتفصيل. ولكن بما أننا سبق وأشرنا أنها بحلول القرن الثامن عشر قد غيّرت طبيعتها مع الاحتفاظ بشكلها، فلا بدّ من البدء بوضع مخطط لتكوينها الأساسي، ثم إثر ذلك ندرس كيف ولماذا وأين حدث هذا التّغير.

تشمل المؤسّسات الحاكمة، فضلاً عن السّلطان، الموظفين في قصره والموظفين التنفيذيين في حكومته، والجيش بأكمله «المأجور والإقطاعي» ورجال البحرية. في أوج الحكم العثماني كانت كل المناصب، عدا معظم مناصب الجيش الإقطاعي والبحرية، مشغولة من قبل القايى قُول لرى الذين جُنّدوا بطريقة الدّوشيرمه أو ممّن جلبوا بطريقة أخرى.

نقترح أن ندرس أولاً الجيش والبلاط والحكومة المركزية، تاركين الحكومة الإقليمية والبحرية للدراسة في فصول لاحقة. لا يمكن دراسة المواضيع الثلاثة الأولى منفصلة عن بعضها، وذلك لأن أفراد البلاط والحكومة المركزية والجيش المأجور ينحدرون من المصدر نفسه (القايى قُول لرى) ولأن بعض الأفراد كانوا يشغلون منصباً ما اليوم ثم ينتقلون إلى غيره وهكذا. ولكي نتمكن من دراسة القسمين اللذين يتألف منهما الجيش علينا البدء بالفرق الإقطاعية ممّا يتطلب وصفاً موجزاً لنظام الإقطاع المعتمد، بالرّغم من أننا سنعود إلى ذلك لاحقاً عند الحديث عن الزراعة وحياة الفلاحين.

(1) انظر الفصول الثامن والتاسع والعاشر من الكتاب.

أ. القوات الإقطاعية

لقد اعتمد نظام الإقطاع في وقت مبكر لدى الأسرة الحاكمة العثمانية وكان هدفه الرئيسي تأمين مصدر معيشي لفئات الجند المختلفة بدلاً من إعطائهم أجوراً ثابتة. وكما في أوروبا، كان يتضمن تقديم الأراضي لأولئك المحاربين، وبالمقابل فهم يلتزمون بالخدمة العسكرية عندما يدعون إليها، ولهذا لم يكونوا يجهّزون أنفسهم فحسب، بل هناك من يعمل في خدمتهم كلٌ بحسب حجم الأرض التي يملكها. وكان العمل في الأراضي يتم إما ممّن يملكونها أو من الفلاحين المقيمين فيها كمستأجرين. وكان مصدر الرزق يأتي من المحاصيل التي يزرعونها بأنفسهم ومن الضرائب والمستحقات التي يفرضونها على الفلاحين.

لم يكن هذا النظام من ابتداع العثمانيين، فقد بدأ تقديم الإقطاعيات للمقاتلين بالشيوع أثناء فترة تدهور الخلافة، لكنه اتخذ في العهد السلجوقي طبيعة مشابهة لتلك التي اتخذها العثمانيون⁽¹⁾. ولقد تمّ اعتماد هذا النظام في تلك الأزمنة المبكرة كطريقة لإراحة الخزينة من عبء جباية الضرائب ودفع أجور الجند، وحافظ السلاطين العثمانيون عليه للسبب ذاته. ولكن عندما توسّعت الإمبراطورية بالفتوحات الجديدة نشأ سبب آخر، فقد أعطى طبقة الفرسان المسلمين المرتبطين بالفتح سيطرة على سكان الرّيف في المقاطعات المفتوحة ممّا حال دون اتخاذ الفتوحات شكل الاحتلال العسكري، وذلك بإقامة هؤلاء الفرسان في تلك الأراضي. وبفضل الامتيازات التي أعطتها الشريعة لأهل الكتاب الخاضعين للحكم الإسلامي، فقد أصبح الفرسان والفلاحون على مرّ الأيام يعدّون أنفسهم شعباً واحداً على اختلاف أصلهم.

في معظم أنحاء هذه الأقاليم كان هناك نظام إقطاعي مشابه بين الأوروبيين والآسيويين المشمولين بالأراضي الخاضعة للسلطان قبل القرن السادس عشر،

(1) انظر كتاب هامر «*staatsverfassung*» ص 337، وكتاب تيشندورف «*Das Lehnswesen*» الفصل الأول، و«الموسوعة الإسلامية» مادة «الإقطاع»، وكتاب بيكر «*Steuerpacht und Lehnswesen*».

مما دفع ببعض المؤرخين للقول بأن العثمانيين ينحدرون من أصول بيزنطية، وكانوا يقولون إن النظام الذي اتبعه السلاجقة في آسيا الصغرى (وقلدهم العثمانيون فيه) لم يكن مشابهاً لما اتخذته الأسر الحاكمة في بلاد فارس والعراق، ولا بد أن ذلك ناتج عن التأثير البيزنطي. إن آسيا الصغرى لم تبَقَ جزءاً من الإمبراطورية الرومانية الشرقية حتى فتحها السلاجقة فحسب بل ظلت بعد الفتح، وإن كان جزئياً، تسير على نفس نظام البيزنطيين. وبما أن النظام العثماني يختلف عن النظام السلجوقي في آسيا الصغرى، فلا بد أن ذلك بسبب التأثير البيزنطي من جديد. وفي الواقع لا يزال موضوع التأثير البيزنطي على المؤسسات العثمانية مثار جدال وخلاف⁽¹⁾. وعلى كل حال، فإن بقاء الأقاليم الأوروبية المفتوحة من قبل العثمانيين على نظامها المشابه لما توارثته قد يسهل تطبيق هذا النظام إلى حد كبير.

كانت للإقطاعيات في النظام العثماني تسميات عدة، فكانت بشكل عام تسمى «ديرلك» أي «مورد الرزق»⁽²⁾. لقد أسست معظم هذه الإقطاعيات من أجل إعالة هؤلاء الفرسان الخيالة الذي أطلق عليهم مصطلح تركي ذو أصل فارسي هو سپاهي Sipâhi⁽³⁾؛ وفي هذه الحالة صارت تدعى تيمار⁽⁴⁾ Timar وزعامت⁽⁵⁾ Zi'âmet تبعاً لإيراداتها الصغيرة أو الكبيرة. أما الإقطاعيات التي تفوق الزعامت Zi'âmetس حجماً فتعرف باسم Hass (أي خاص)⁽⁶⁾. وبعض من هذه الأخيرة ذات المساحة

(1) لنظر كوبرلي زاده، المصدر المذكور سابقاً، مادة «تيمار»؛ و«الموسوعة الإسلامية» مادتي «تيمار» و«زعامت».

(2) تحمل كلمة ديرلك معنى أوسع، فقد كانت تطلق على أية طريقة لكسب العيش يقدمها السلطان لمن يعملون في خدمته إما نقداً أو بشكل أراضي. انظر سيد مصطفى الجزء الأول ص 100.

(3) تحولت الكلمة في اللغة الفرنسية إلى Spahi وفي الإنكليزية إلى Sepoy.

(4) يشك في أصل هذه الكلمة هل هو تركي أم يوناني. انظر الموسوعة الإسلامية.

(5) كلمة «زعامت» عربية وكان صاحبها يسمى «الزعيم» ثم أطلقت لاحقاً في مصر على بعض الضباط.

(6) وهي أيضاً كلمة عربية.

الأكبر هي من ممتلكات السلطان الخاصة وتدعى «خواصى هُمَايُون» *Havâssı* *Hümâyûn* ⁽¹⁾ بينما كانت الأخرى توهب لأفراد العائلة المالكة: الأميرات وسيدات الحريم... إلخ. أما بقية «الخاص» وبعض الإقطاعيات الأصغر مساحة من الفئتين فكانت مخصصة لأصحاب الوظائف، ويتغير مالكيها بتغير من يشغل هذا المنصب أو غيره. وهي تختلف في هذه النقطة عن الإقطاعيات التي يملكها السباهي التي تعدّ ممتلكات شخصية ويمكن توريثها ضمن حدود خاصة. تشكل «الخاص» و«التيمار» و«الزعامت» الإقطاعيات الأساسية، لكن هناك أصنافاً أخرى تشترك مع الإقطاعيات في طبيعتها. فهناك بعض الأراضي التي تُترك وارداتها جانباً لأغراض معينة كإعالة حراس الحصون والحاميات الخاصة أو الأدميرالية في إسطنبول، وتعرف باسم يورتلك *Yurtluks* وأوجاقلك *Ocaqlıks* ⁽²⁾. علاوة على ذلك يوجد أنواع أخرى تدعى عسكري *Askerîs* ⁽³⁾ أي الجنود، مع أن بعض أصحابها يؤدّون وظائف خدمية فقط، ولقد خُصّصت لهم قطع صغيرة من الأراضي وأعفوا من دفع المستحقات والضرائب. وستكلم عن ذلك لاحقاً.

إن العديد من الإقطاعيات المخصصة للموظفين تغلّ واردات لأشخاص لا يرتبطون بالقوات المسلحة مباشرة، والنظام في أساسه كان مالياً أكثر من كونه عسكرياً. مع ذلك فاهتمامنا هنا ينصبّ على الجيش، وسوف نقتصر في الوقت الحالي

(1) العبارة *Hümâyûn* كلمة فارسية تعني المبارك أو المقدّس أو المحفوظ أو الملكي.
(2) كلمة يورت *yurt* التركية تعني المنزل أو الخيمة أو الملكية، وتعني كلمة اوجاقل *ocaqlı* التركية أيضاً الموقد لكنها كانت تطلق على كل فيلق من فيالق قايى قُول لرى وهذه التسمية مشتقة من أعمال الطبخ (انظر الملحق A). ومن هنا استعملت كلمة الموقد كناية عن مركز القوات، ثم تأسسها بأكملها. واللاحقة *luk* و *lik* تعني ينتمي إلى، وبذلك يعني المصطلح الانتماء إلى اليورت *Yurt* أو الأوجاقل *Ocaqlı*.

(3) العبارة *Askerîs* وبالعربية العسكر هي تحريف عن كلمة *Lâşkâr* الفارسية وتعني الجيش. إن كل العاملين في الحكومة، باستثناء رجال الدين، من متعلمين وغيرهم يدعون «عسكري» ويتميزون بذلك عن الرعايا أو عامة الناس.

على ذكر الإقطاعيات التي يرتزق منها السباهية والضباط الأعلى رتبة⁽¹⁾. أما «التيمار» و«الزعامت» فكانت موجودة في أقاليم الإمبراطورية التي تُحكم مباشرة من إسطنبول، ولم تكن القواعد المتعلقة بها متشابهة في المناطق كلها. وبهذا فإن التفاصيل اللاحقة قد لا تنطبق عليها كلها.

كان الفرق بين «الزعامت» و«التيمار» مالياً، فإن الإقطاعية التي تعود بواردات تتراوح من 2,000 أو 3,000 إلى 19,999 آقجه⁽²⁾ *akçes* في العام هي التيمار، أما التي تعود بواردات أكبر تصل إلى 99,999 آقجه فهي الزعامت. ويمكن تقسيم كل نوع منها إلى فئتين: الأولى هي التملك الأصلي وتدعى القليج⁽³⁾ *Kılıç* والثانية إضافية وتدعى الترقى⁽⁴⁾ *Terakki* وتمنح كل واحدة منها عندما تبلغ إيراداتها عُشر إيرادات القليج. وكانت الإقطاعيات الصغيرة المؤلفة من هذه الإضافات تدعى الحصّة⁽⁵⁾ *Hişsa* وهي على عكس القليج، إذ قد تصبح شاغرة فتؤخذ من مالكة لتعطى لشخص آخر. وضعت هذه القاعدة لتشجيع السباهية على القيام بواجباتهم على نحو مُرضٍ. فكما أن من يفشل في القيام بذلك يُحرم بشكل مؤقت أو دائم، فإن من يكون سيره حسناً يكافأ بمنحه الترقية. وبالفعل فقد كان طموح السباهية، في البدايات على الأقل، أن يترقوا إلى رتبة زعيم.

(1) تدعى الواردات التي تأتي من إقطاعيات كهذه *Mâli Mukatele* أي مال القتال واللفظتان كلتاهما عربيتان. انظر «Ayni Ali» في تيشندورف، ص 88.

(2) تسمى أيضاً «أسپر» *aspres* أي قطعة من الفضة (لمعلومات عن العملة انظر الفصل السابع من الكتاب). كانت 3000 آقجه في المقاطعات الأوروبية هي الحد الأدنى و2000 آقجه في المقاطعات الآسيوية بحسب عيني علي «Ayni Ali» في تيشندورف ص 89-90. وفي قانون ناميه المنشور في O.T.E.M. العدد 15 الملحق الثاني، ذكرت الإقطاعيات التي لا تعود بأكثر من 1,000 آقجه.

(3) هي كلمة تركية تعني السيف. وكانت هذه الإقطاعية تدعى كذلك لأن إيراداتها تكفي لإعالة السباهي وبالتالي يكسب السلطان سيفاً في الحرب.

(4) العبارة *Terakki* كلمة عربية من فعل ترقى أي نما وازدهر وتقدم.

(5) الحصّة كلمة عربية وتعني الجزء أو التصيب الذي يعود إلى أحد الأشخاص.

كما سنرى، فقد كان ضباط السباهية هم حكام الأقاليم وكانت الإقطاعيات أصلاً ملكاً لذوي الرتب العالية منهم وهم البكلربكوات ⁽¹⁾ *Beylerbeyis*. وبمنح إقطاعية البكلربكية *Beylerbeyis* يزود صاحبها بشهادة تملك تدعى «براءات» (*Berât*). وفي عام 1530 أثناء حكم السلطان سليمان العظيم سحبت الحكومة المركزية هذا الحق جزئياً، ومنذ ذلك الحين صارت البراءات بيد الحكومة باستثناء بعض إقطاعيات التيمار الصغيرة. أما البكلربكية الآن فهي تزود المرشحين لها بإقطاعية مترافقة مع مذكرة توصية تدعى تذكرة ⁽²⁾ *Tezkere*. كانت هذه التذاكر تقدم في مكتب خاص في العاصمة، وإذا ثبت أن المرشح يستحق الهبة يتلقى شهادة بذلك. وبالتالي كان هناك منذ ذلك الوقت نوعان من التيمار: نوع لا يحصل عليه دون تذكرة، ويعرف بتذكره لى تيمار، ونوع لا يحتاج إلى تذكرة يعرف بتذكره سز أي دون تذكرة ⁽³⁾. وبعض الأراضي التي لا تعود بإيرادات أكثر من 3,000 آقچه في العام لا تحتاج إلى تذكرة، أما البعض الآخر فالتذكرة ضرورية عندما يدرّ التيمار 5,000 أو 6,000 ⁽⁴⁾. في الوقت نفسه كانت هذه العطايا تمنح لمن كانت لديه إقطاعية أو يحق له تملكها وراثة عن ملاك سابقين ⁽⁵⁾. وإذا كان الشخص يمنح الإقطاعية للمرة الأولى فعليه أن يحصل على براءات من الحكومة المركزية حتى وإن كانت إيرادات التيمار تجعلها من النوع الذي

(1) يشير قانون نامه الفاتح (*O.T.E.M.* العدد 14 الملحق 22) إلى منح الإقطاعيات كما يلي:

«في المقاطعات التي يمنح فيها البكلربكوات التيمار والزعامت، عليهم أن يقدموا تقاريرهم ويجب أن تقبل منهم.

(2) كلمة تذكرة عربية من فعل ذكر أو ذكر.

(3) لي *Li* هي الأداة الدالة على الصفة أو مع أو من، بينما تعني سز *Siz* بدون.

(4) كانت الأرقام: 6000 في إيلات الروملي *Eyâlets Rumelia*، وكذلك في Buda والبوسنة

Bosnia وتمشوار Temeşvar ودياربكر *Diyâr Bekr* وأرضروم *Erdeşrûm* ودمشق Damas

cus وحلب Aleppo وبغداد Bağdâd وشهرزور Şehrîzor؛ و5000 في الأناضول Anatolia

والأرخبيل Archipelago؛ و3000 في قرمان Karamân ومرعش Mer'aş وسيواس Sivas.

تيشندورف، 89-90.

(5) انظر الفصل الخامس من الكتاب.

لا يحتاج إلى تذكرة⁽¹⁾. وكانت هذه الأنظمة في عهد السلطان سليمان تقسم أصحاب التيمار إلى فئتين تتعلقان بنوع إقطاعياتهم، إن كانت تحتاج إلى تذكرة أم لا. وبهذا كان من يملك التيمار ذا التذكرة هو فقط من يستحق اسم السباهي، أما البقية فكانوا يدعون بالتيمارجية⁽²⁾ أو *Timariot*. لم يكن هذا التفريق سوى بشكل رسمي، أما بشكل عام فقد كان كل من لديه إقطاعية، حتى الزعامت، يدعى بالسباهي.

كان السباهية، مقابل تمتّعهم بإيرادات الأراضي، مجبرين على الذهاب في حملات عسكرية، ولكن فيما بعد سمح لهم بدفع بدل عن الخدمة التي لم تكن ذات شكل واحد للجميع. كان البعض ملزمين بتلبية نداء الحرب⁽³⁾ بينما كان الآخرون يتناوبون في الخدمة⁽⁴⁾. كان أفراد الفئة الأدنى من السباهية يذهبون إلى الحرب دون مرافقة، راكبين الخيل، مرتدين الدروع وحاملين خيامهم معهم. أما أولئك الذين لديهم ضعف أدنى إيرادات التيمار فكانوا يجبرون على اصطحاب خيال مسلح بالكامل يدعى *جَبَه* لي⁽⁵⁾ *Cebeli*، ولكل 3,000 آقچه أخرى كان عليهم تجهيز *Cebeli* آخر بحيث يمكن أن يصل العدد إلى خمسة رجال. كانت الإجراءات نفسها تنطبق على الزعيم ما عدا أن المبلغ لكل *جَبَه* لي *Cebeli* هو 5,000 آقچه⁽⁶⁾، ويبلغ عدد أتباعه ثمانية عشر رجلاً لم يكونوا يخضعون لتدريب منتظم، لكن السلطات كانت واثقة من مقدراتهم، إذ لم تكن الإقطاعيات تمنح إلا لأبناء أو أحفاد السباهية الذين نشأوا منذ طفولتهم على تقاليد القتال.

(1) كانت البراءة التي من هذا النوع تدعى ابتداء براءتي. انظر تيشندورف.

(2) ليبير ص 103.

(3) ويدعى هؤلاء *Eşkıncis* المشتقة من فعل *Eşmek* أي يذهب إلى الحرب.

(4) ويدعى هؤلاء *Bi-nevbet* من العربية «أصحاب التوبة».

(5) من كلمة *Coba* الفارسية وتعني رداء درعي، وهي بدورها مشتقة من الكلمة العربية *جَبَه* *Cubba* وتعني رداء الرجل.

(6) من الغريب أن على الزعيم أن يجهز عدداً أقل من *Cebelis* مما يجهزه صاحب التيمار الذين يحصلون على عائداً أقل. ولعل ذلك يعود إلى أن تجهيز الزعيم لأتباعه أكثر تفصيلاً.

ينقسم ضباط السّباهية الخاضعين لحكام الأقاليم الذين يقودون حملاتهم، وستحدّث عنهم في فصل إدارة الأقاليم، إلى ثلاثة أصناف: الأول هم أصحاب الرّتب العليا ويدعون آلاي بك ⁽¹⁾ *Alay-beyis* ويتخبّهم إقطاعيو كل منطقة أو السّناجق (*Sancak*) ومهمّتهم حشد الجنود للحملات. كانوا يمنحون إقطاعيات الرّعامت مدى الحياة، كما كانوا يزوّدون براية وطبل ولهم القيادة المباشرة في الفوج الذي ينتظم فيه السّباهية. وكان منح الإقطاعيات الشّاغرة يتم بناءً على توصياتهم. والصّنف الثّاني هم الجّري باشي *Çeri-başı* أو الصّوباشي ⁽²⁾ *Su-başı* الذين كانوا يُختارون من بين زعماء المقاطعات الإدارية الصّغيرة المسماة قضاء ⁽³⁾ *Kadâ* وهم يقومون في وقت السّلم بمهام رجال الشرطة. أما الصّنف الثّالث فهم *Çeri Sürücü* أو جّري سروجي ⁽⁴⁾ الذين يجنّدون السّباهية ويحافظون على أمنهم أثناء الحملات.

في الظروف الطّبيعية عندما يموت أحد السّباهية يرث الابن قليج *Kılıç* أبيه حتى لو كان الابن صغير السن، وفي هذه الحالة يجب أن ينوب عنه جّبه لى *Cebeli* في القتال. وإذا لم يكن لدى السّباهي أولاد أو كان أولاده غير قادرين على تحمل أعباء الإدارة، تصبح الإقطاعية شاغرة وتعود واردة إلى خزانة الدّولة بانتظار إعادة منحها من قبل موظف يدعى موقوفاتجي ⁽⁵⁾ *Mevkûfâtçı*. وبالتالي يمنح القليج لأفضل من يستحقه من جّبه لى *Cebelis* السّباهي المتوفى، وتضاف الأجزاء الخاصّة من الإقطاعية بواسطة التّرقى *Tarakkı* إلى أملاك السّباهية الأقلّ رتبة من المتوفى ⁽⁶⁾. ومن المحتمل أن تكتسب كل هذه الأعطيات بسبب الشّجاعة في الحرب. وفي العادة يكون لأصغر

(1) العبارة *Alay* كلمة تركية وتعني صف الجنود أو التّشكيلة العسكرية.

(2) تعني كلمتا *Çeri* و *Su* الفرق العسكرية ومن هنا أتت كلمة *Yeni Çeri* (Janissary) أي الفرق الجديدة.

(3) القضاء هي المقاطعات التي يحكمها قاضٍ.

(4) أي الذين يقومون بنقل الجيش.

(5) تصبح الإقطاعية في الفترة الواقعة بين وفاة صاحبها وإعادة منحها موقوفة.

(6) يقول سيّد مصطفى في الجزء الأول ص 121 إن التيمارات التي تتجاوز إيراداتها 15,000 آفچه والرّعامات التي تدر بين 30,000 و 40,000 آفچه يتم تقسيمها.

ولدين من أبناء معظم السباهية الحق في الأجزاء الخاصة من التيمارات الشاغرة كما ينال أبناء القايي قول لرى، ويتوقف حجم الأعطيات التي تمنح لهم (والتي قد تكون من فئة الزعامات) على الرتبة التي وصل إليها آباؤهم⁽¹⁾.

إن مصدر الرزق الأساسي للسباهية هو الضرائب والمستحقات التي كلفوا بتحصيلها من الفلاحين المقيمين في إقطاعياتهم، وبهذا الحق يتمتعون بالسيادة على الفلاحين الذين كانوا في الواقع عبيداً يعملون في الأرض. ومن هنا نجد أن دعوة السباهية فجأة للقتال يعرض النظام في الريف للخطر، ولمنع حدوث ذلك كان يسمح لكل واحد من عشرة رجال بالبقاء في إقطاعيته، وإن السباهية الذين يذهبون للحرب يضطرون للبقاء في مساكنهم الشتوية ويسمح لبعضهم بالعودة لتحصيل الواردات التي تراكت لهم ولأتباعهم وإلا ضاعت عليهم.

إن مجمل القوة التي يجهزها السباهية مع الجبّة لية *Cebelis* (بمن فيهم *Cebelis* الذين يزودون بإقطاعيات الخاص العسكرية التي يتمتع بها القادة الكبار والفرق العسكرية) قد تصل إلى مئتي ألف شخص ويكون أغلبهم من الآسيويين، مع أن مقاطعة الروملي قد جهّزت نحواً من ثمانين ألفاً مقابل ثلاثين ألفاً قادمين من الأناضول. لكن يبدو أن هذه الأرقام غير دقيقة تماماً. وقد قدرّت جهات أخرى القوات الإجمالية للقوات المحليّة في أوج الإمبراطورية بما لا يزيد عن مئة وأربعين أو خمسين ألفاً، ويبدو أن السلطات العثمانية نفسها غير متأكدة بشأن عدد قواتها.

كان نظام الإقطاع العثماني مختلفاً عن النظام الأوروبي الغربي، بأن الإقطاعيين

(1) إن حجم الأعطيات التي تمنح لأبناء الصوباشيّة *Subaşı* والسباهيّة *Sipâhîs* يعتمد من جهة على إقطاعية أبيهم ومن جهة أخرى على طريقة وفاته؛ فإن كان قد قتل أثناء الخدمة ينالون حصصاً أكبر مما لو مات في فراشه. انظر هامر *Staatsverfassung* ص 352 وما يليها. وقانونه يحدّد التقسيمات التالية لأبناء القايي قول لرى: (1) أبناء الوزراء (عدا أبناء رئيس الوزراء) والسناجق ينالون الزعامات ذات 30,000 آقچه. (2) أبناء الجاوشيّة *Cavuşes* ينالون التيمارات ذات 10,000 آقچه. أما التقسيمات المفضّلة لأبناء السنجق بك والكلربك فتجدها في كتاب هامر نفسه ص 364 وما يليها.

الأساسيين يملكون أراضيهم بشكل مؤقت تبعاً لوظائفهم، ويبدو أن أقل من نصف الأراضي قد مُنح للشيّاهية الذين كانوا يتمتّعون بحقوق التوريث⁽¹⁾. وبهذا لا تتعرّض الأسرة الحاكمة إلى خطر منافسيها من طبقة المستأجرين لديها. ومؤخراً أصبح لحكام الأقاليم نفوذ هدد الحكومة المركزية، لكنهم لم يكونوا بأي حال سوى سباهية محدثي النعمة، وإن كان هناك موظفون متمرّدون قاموا بتحدي الحكومة المركزية عندما ضعفت ولم تعد قادرة على صدّهم. وطالما أن السلاطين لم يكن لديهم في الحرب قوّات مدرّبة فقد شكّل الإقطاعيون المجندون جزءاً مهماً من قواتهم⁽²⁾. لكن ارتباطهم بالأرض كان نقطة سلبية لأنهم يتردّدون في ترك إقطاعياتهم ويشقّون دائماً للعودة إليها، وكان الشرط الأول لضمان كفاءتهم هو إحكام الحكومة المركزية سيطرتها عليهم، وعندما كانت ترخي قبضتها كانوا يصبحون عديمي الفائدة فوراً⁽³⁾.

يكفيّننا الكلام الآن عن السباهية، ولكن قبل الانتقال للكلام عن الجيش النظامي يمكن أن نتحدّث باختصار عمّن يسمّون «العسكرية» الذين أشرنا إليهم سابقاً على أنهم أصحاب الأراضي، وكانوا كلّهم أحراراً وأغلبهم من المسلمين. وستتكلّم كذلك عن بعض البدو والمحاربين الآخرين الذين يتميّزون أيضاً بكونهم أحراراً ومسلمين.

أول فئة من العسكريين المقيمين هم من يدعون بالمسلّم *Müsellems*، ويبدو أنهم كانوا أصلاً من البدو الرّحل ذوي الأصول التّركية. ولكن من أجل تأدية الخدمة

(1) انظر سيّد مصطفى، الجزء الأول ص 120، ويقول فيها إن إيرادات الأراضي يمكن أو توزع كما يلي: خمس إقطاعيات الخاص وعشر إقطاعيات الرّعامات وخمسا التّيمارات وعشر الأوجاقلك *Ocaqlıks* واليورتلك *Yurtluks* وخمس الأوقاف. ولا بدّ من تذكّر أن بعض إقطاعيات الرّعامات والتّيمارات كانت تمنح للموظفين.

(2) انظر جودت، الجزء الأول ص 90. وجاء فيه أن أقوى الفرق العسكرية للدولة العليا هي من أصحاب التّيمارات والرّعامات.

(3) هذه الرّواية عن السباهية الإقطاعيين مأخوذة عن كتاب *Koçu Bey (Behrmaurer, p. 279)* وكتاب سيّد مصطفى ج 1 ص 120 وكتاب جودت ج 1 ص 90 وكتاب هامر ص 337 وكتاب بلين «نظام الإقطاعيات» ص 230 وكتاب دوسون الجزء السابع ص 372 وكتاب تيشندورف ص 39 وص 89 وكتاب ليبير *Lybyer* ص 101-102 والموسوعة الإسلامية مادة «تيمار».

للسلطان فقد تم منحهم قطعة أرض صغيرة وأعفوا من دفع الضرائب والمستحقات وبهذا يكون اسمهم «المسلم» أي المعفى من الرسوم⁽¹⁾. كانوا يعيلون أنفسهم بواسطة العمل في الأرض دون تلقي أي أجر، وكان وضعهم يشبه وضع السباهية إذ كانوا خيالة لكنهم يختلفون عنهم بأنهم يكسبون عيشهم من العمل في الأرض فقط دون أن ينالهم حصّة من جبي الضرائب. وعندما يدعون إلى الحرب كانوا ينتظمون في فرق تدعى أوجاق *ocak*⁽²⁾ تتألف كل واحدة منها من ثلاثة أو أربعة رجال⁽³⁾، وكان واحد منهم فقط هو الذي يلتحق بالخدمة بينما يبقى الآخرون كمساعدين له، ويدعون يماق (يَمَق) *Yamaks*، فيجهّزونه بمبلغ من المال حسب استطاعتهم⁽⁴⁾ ويُعشر إيرادات محاصيلهم. وهنا يشبه المسلم السباهي بأنهما يخضعان لقيادة چري باشية *Ceri-basis* كما يخضع لسلطة الحكام الإقليميين.

كانت أراضي المسلم موزعة بين الإقليميين الأصليين الروملي والأناضول، ويبدو أن أراضي العسكرية المقيمين، الذين هم محور اهتمامنا هنا، تعود لأحد الإقليميين. وبالتالي فإن الفرق المسماة باليايا أو الپياده⁽⁵⁾ *Piyâde* أي المشاة شبيهة بالمسلم من حيث أن أراضيها تقع في الأناضول فقط⁽⁶⁾، بينما هناك فئتان مقتصرتان على الروملي

(1) كلمة المسلم في العربية تعني الممنوح، ومن هنا استعملت في الفارسية بمعنى المعفى من الأعباء العامة.

(2) أوجاق *Ocak* تعني بالتركية الموقد. انظر ص 48 من الكتاب.

(3) تبعاً لأحمد رفيق فإن القانون المدرج يظهر أرقاماً تختلف بحسب اختلاف الأماكن.

(4) تسمى هذه الإعانات خُرج لك *Harclik* أي التّفقات. وكان الأغنياء منهم يقدمون 50 إلى 60 آقچه ومتوسطو الحال يقدمون 30 إلى 40 آقچه بينما يقدم الفقراء 10 إلى 20 آقچه.

(5) وتعني باللغتين التّركية والفارسية «على الأقدام».

(6) يبلغ عدد أوجاقات اليايا من ستة إلى سبعة رجال. انظر هامر «*Staatsverfassung*» وأحمد رفيق في مقدمته حيث يقول إن عدد اليايا والمسلم في الأناضول هو 26,500 منهم 8,900 مستعدون للخدمة في أي وقت. بينما يقدر جودت عدد اليايا والمسلم معاً في أرض الروملي بـ 5,000 أو 6,000 ويبلغون مع اليماق *Yamaks* 40,000 ويقدر عدد اليايا في الأناضول بـ 3,000 أو 4,000 ومع اليماق *Yamaks* 30,000. يذكر سيّد مصطفى أن المسلم يقتصرون على الأناضول وأنهم يعدّون نحواً من 50,000 يقودهم في الحرب ميري مسلمان *Miri Müsel*

هما الفوينوق *Voynuk* والطوغانجي *Doğancı*.

أما الفوينوق⁽¹⁾ *Voynuks* فهم بلغار مسلمون أو مسيحيون، وتتضمن مهمتهم رعاية خيول الإصطبلات الملكية والعناية بها، بالإضافة إلى خيول كبار الضباط والطبقة العليا. كان نظامهم شبيهاً بنظام المسلم من حيث أنهم لا يدفعون الضرائب ويعملون تحت قيادة الجري باشي (ويرأسهم هنا فوينوق بك *Voynuk Beyi*) لكنهم يختلفون عنهم بأن ليس عندهم تنظيمات أو جاقات *ocaks*. لديهم بدلاً عن ذلك نظام احتياط⁽²⁾ ويعني وجود عدد منهم جاهز دائماً للالتحاق بالخدمة⁽³⁾. أما الطوغانجية⁽⁴⁾ *Doğancıs* أو مربو الصقور فمعظمهم من البلغار أيضاً ويمتازون بما يمتاز به الفوينوق. وكانت مهمتهم تربية الصقور لاستخدام السلطان ورجال بلاطه⁽⁵⁾.

كان المسلم واليايا الأوائل من التركمان البدو الذين رغب السلطان في جعلهم يستقروا ووهبهم الأعطيات واحتفظ بهم ليلتحقوا بخدمته في المستقبل عن طريق إعطائهم الأراضي. وهؤلاء التركمان الذين هاجروا حديثاً من الشرق إلى غرب آسيا الصغرى، والذين هدفهم الرئيسي هو كسب الغنائم، هم المكون الأساسي للجيش

Iemân. ويذكر قوچی بك *Koçu Bey* أن اليايا كان يقودهم أربعة عشر يايا باشي من جنود الإنكشارية. وقد ذكر اليايا باشي في القانون أيضاً.

(1) كلمة الفوينوق تعني العسكري وهي مشتقة من الجذر السلافي الذي يعني الحرب، ونجد الجذر نفسه في كلمة *Voyvoda* المستخدمة في التركية (انظر ص 198). قلت: كانت تكتب بالعثمانية القديمة: وينوق، لكنني ترجمتها هنا فوينوق لضبط لفظها. وأشير إلى أن حرف الواو بالتركية يُلفظ واو مع نكهة ف مخففة، ولا تلفظ أبداً مثل *V* ويُعدّ نطقها لدى الترك بمثابة معيار لصحة اللفظ. (أحمد)

(2) ويدعى رجال الاحتياط بفوينوق الزوايدي.

(3) انظر كتاب أحمد رفيق ص 108، 308-309؛ وكتاب دوسون ج 7 ص 378-379، ويذكر فيه أن عدد الفوينوق كان في زمانه 6,000 يعمل 800 منهم في العاصمة كسائي خيول.

(4) تعني كلمة طوغان *Doğan* الصقر. قلت: وتلفظ بالتركية دوغان، والغين هنا طرية ولا تلفظ (دوآن).

(5) انظر كتاب أحمد رفيق 3.

التي حققت الفتوحات العثمانية الأولى⁽¹⁾. لكن استقرارهم كان جزئياً، فقد حافظ الكثير منهم على الروابط القبلية واستمروا في حياتهم الرعوية التي كانت تتطلب الهجرة الموسمية، مع ذلك كان هؤلاء البدو الرحل⁽²⁾ أو اليوروك *Yürüks* يستدعون من قبل السلطان إلى الحرب مثلهم مثل المسلم واليايا.

كان نظامهم متشابهاً أيضاً، فقد كان يقودهم جري باشى في أيام الحرب ويرأسهم بكوات هم اليوروك بك *Yürük Beyis* ويخضعون لسلطة الحكام الإقليميين، كما كانوا يقسمون إلى أوجاقات *ocaks* من ثلاثين رجلاً⁽³⁾. كان كل خمسة رجال من الفرقة الواحدة يخدمون بالتناوب بينما يقوم بقية اليماق *Yamaks* بتجهيزهم. لم يكن اليوروك كغيرهم من العسكر معفين من الضرائب بل كانوا على العكس مُجبرين على تسديد مستحقات رعوية متعددة، لكن في أيام السلم كان كل أوجاق *ocağ* يدفع مبلغاً ثابتاً لقاء الخدمات التي يحصل عليها⁽⁴⁾. وكانوا يتواجدون في الرؤملي ومعظمهم في الأناضول⁽⁵⁾.

يعود تنظيم كل أولئك العسكر إلى القرون الأولى من الإمبراطورية، لكن أهميتهم تراجعت، حتى السباهية منهم، مع تأسيس ونمو جيش العبيد. وبحلول القرن السادس

(1) يقال إن السلطان الثاني أورخان (1321-1360) هو الذي أسس اليايا كأول فرقة مشاة للأسرة الحاكمة ومُنحوا الأراضي فقط عندما استبدلوا بالإنكشارية. انظر دوشون ج 7 ص 308، وبلين ص 224 الذي يفترض أنهم قد مُنحوا الأراضي منذ البداية كالمسلم.

(2) العبارة *Yürük* كلمة تركية من *Yürükmek* بمعنى يمشي أو يتجول.

(3) وهذا كما يبدو في أيام السلطان سليمان الأول. وفي قانون محمد الثاني (1488) كان *Yürüks* منظمين في *ocaks* من أربعة وعشرين رجلاً. انظر مقدمة أحمد رفيق، ج 5.

(4) كانت الرسوم المستحقة على اليوروك تسمى اوطلاق رسمي *Otlak Resmi* أي رسوم الرعي، و *Adeti Ağnâm* أي رسوم الأغنام، و *Ağil Resmi* أي رسوم القلم. وكان على كل أوجاق *ocağ* أن يدفع في حالة السلم 600 آقچه في العام. انظر أحمد رفيق ج 6.

(5) أحمد رفيق، ج 5، وجودت، ج 1 ص 91، وسيد مصطفى ج 1 ص 147 وكلهم يذكرون اليوروك والمسلم معاً فيقول سيد مصطفى إن وجود اليوروك كان مقتصرأ على الرؤملي ويقودهم ميري يوروكان.

عشر لم يعد المسلّم واليايا واليورك يشتركون في القتال الفعلي بالرغم من أنهم ظلوا مجبرين على مرافقة الجيوش في حملاتها. وبدلاً من ذلك أخذوا يقومون بأعمال أقل أهمية كجَرّ المدافع وتمهيد الطرقات وحفر الخنادق وحمل المؤن وتوزيع قذائف المدفعية. لقد اختفت فئة اليايا وتحوّلت أراضيهم إلى تيمارات⁽¹⁾، والأمر متشابه بالنسبة لمعظم الفرق التي لعبت دوراً مهماً في البدايات، إذ حلّت فرق قاہی قول لری محلّها بعد ازدياد عددها ونفوذها. وكذلك الأمر لفرق أقنجی *Akıncıs* وهم طلائع متطوّعون أو كشافة في الروملي، وكانوا قديماً يمشون أمام الجيش الأساسي في أرض العدو فينهون الغنائم⁽²⁾. أما فيما بعد فقد خضعوا للتتار تحت سلطة خانات القرم⁽³⁾. وهناك أيضاً فرقة العُربان (*Azebs (Bachelors)* التي استخدمت أولاً كفرقة مشاة ولاحقاً كحملة للذخيرة، وانضموا أخيراً إلى *ocağ* الجَبّة جية⁽⁴⁾ *Cebecis*، والجانبازان *Cânbazân*، والديوانگان *Dîvânegân* وغيرها من فرق المتطوّعين الذين اعتادوا على نهب الكفار في دار الحرب، وتراهم مستعدين لفعل الشيء نفسه مع المؤمنين في وطنهم⁽⁵⁾. ومن جهة أخرى بما أن الجيش قد تضاءل في القرنين السابع عشر والثامن عشر، فقد نشأت فئات أخرى من الجيش لترمّم القوى المنهكة، وسنشير إلى ذلك لاحقاً.

ب. الجيش الانكشاري

يمكننا الآن العودة للكلام عن القاہی قول لری، وقد وُجد معظمهم كما سبق أن أشرنا في العصر الذهبي للإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن الخامس عشر

(1) انظر جودت وسيد مصطفى، ودوتسون ج 7 ص 308-309.

(2) كلمة أقنجی *Akıncı* من آقن *Akın* التركية وتعني غارة أو هجوم. يقول كل من جودت وسيد مصطفى بوجود *Akıncı* 20,000 تحت إمرة *Akıncı Beyi*. انظر *Berhnauer* ص 282. ويتزايد عدد *Akıncıs* ليبلغ 40,000 أو 50,000 متطوّعاً.

(3) سيد مصطفى ج 2 ص 96.

(4) انظر تينكايزن ج 3 ص 202؛ ودوتسون ج 7 ص 309.

(5) انظر أحمد راسم ج 1 ص 501-502، الحاشية.

وفي القرن السادس عشر حيث جُتدوا من رعايا السلطان المسيحيين الأرثوذكس وأخضعوا ليكونوا عبيداً بشكل غير قانوني (من وجهة نظر الشريعة). كانوا يُجلبون وهم صغار السن ثم يخضعون لدورة تدريبية فكرية وجسدية صارمة. كان اختيارهم يتم في البداية بناء على مقوماتهم الجسدية ثم تُفحص كفاءاتهم أثناء الدورة التدريبية ويُعطى لكل منهم منصب مناسب له. كان أكفؤهم جسدياً وفكرياً، وبالأخص فكرياً، يُختارون ليصبحوا خدماً للسلطان⁽¹⁾ *İç Oğlans* (إيچ أوغلان) ويؤخذون للتدريب إما في أحد القصور الملكية القديمة في بورصة Brusa أو إدرنه Adrianople أو في مدارس خاصة في غَلطة Galata وفي إسطنبول نفسها⁽²⁾. ومن ثم ينتقلون إلى قصر السلطان حيث يترقون، كل حسب مزاياه، في درجات مختلفة من الخدمة ويصبح أكثرهم كفاءة المرافقين الشخصيين للعائلة المالكة، ويدعون برجال الغرف الخاصة⁽³⁾. مع ذلك لم يكونوا يتدربون على فن التعامل في القصور فحسب بل على

(1) وتعني الكلمة بالتركية صبيان الدّاخل.

(2) يقول سيّد مصطفى إنهم كانوا يتعلمون في قصور أدرنه وبورصة وغاليبولي وغَلطة، لكن يبدو أن الأمر التّبس عليه في غَلطة بين إيچ أوغلان *İç Oğlans* وعجمي أوغلان *Acemî Oğlans*. وربما يعود سبب هذا الالتباس إلى أن الوافدين الجدد إلى مدارس التدريب كانوا يدعون أيضاً عجمي *Acemîs* (انظر عطا ج 1 ص 138). هناك بالطبع *Acemî Oğlans* في غاليبولي وكان أحد ضباطهم يدعى غليبولي آغاسي *Gelibolu Ağası* (انظر الملحق الأول في الكتاب) وانظر أحمد جواد الذي يقول إن حياً من غاليبولي كان لا يزال في زمانه يدعى عجمي أوغلان لر *Acemî Oğlanlar*. أما كلية إبراهيم باشا في إسطنبول فقد افتتحت في عهد السلطان سليمان الأول، انظر الفصل الحادي عشر من الكتاب. وفي أدرنه كان هناك، على الأقل منذ عهد سليمان الأول، إيچ أوغلان *İç Oğlans* وعجمي أوغلان *Acemî Oğlans* (انظر الموسوعة الإسلامية مادة «أدرنه» حيث يشار إلى تحويل السلطان لقصره القديم إلى ثكنة *Acemî Oğlans*). وحسب المصادر الأجنبية للقرن السادس عشر كان هناك ثلاثمائة أو أربعمئة من *İç Oğlans* يتدربون في أدرنه وغَلطة، انظر ليبير ص 72. ولم نتوصل إلى معلومات أخرى عن مدرسة بورصة. يقول ليبير أيضاً إنهم كانوا يقومون بالأعمال المنزلية لدى الضباط المهمين في الحكومة ولدى الحكام الإقليميين لكننا لم نجد في المصادر التركية ما يشير إلى ذلك وربما يكون سپاندوغينو الذي ذكر الأمر لم يشر هنا إلى *İç Oğlans* بل إلى *Acemî Oğlans* الذين عملوا بالفعل في خدمة الحكام (انظر أحمد جواد ص 242).

(3) بالتركية: *Haşş Odalı*.

الأمر الإداري والقيادية، إذ يُختار أفضلهم لتسلم مناصب عليا في الحكومة⁽¹⁾.

لن نتحدث الآن عن الإيچ أوغلان *İç Oğlans* لأنهم ليسوا من أفراد الجيش بل من رجال القصر، وستتناول هنا بقية المجتدين الذين يدعون عجمي أوغلان *Acemî Oğlans* ومعناها (الصبيان الأجانب)⁽²⁾ والذين خضعوا لتدريس مختلف مصمم خصيصاً لتقويتهم. يوضع الذين لا يتحدثون التركية أولاً في خدمة السباهية الإقطاعيين في الأناضول⁽³⁾، ومن ثم ينتقلون إلى إسطنبول حيث يُختبرون من جديد وتوكل إليهم مهام مختلفة بحسب كفاءاتهم، وقد عُيّن قسم منهم في أوجاق البوستانجية⁽⁴⁾ *ocağ of the Gardeners* الذي عُيّن أفراد، كما سَنرى لاحقاً، في وظائف متنوعة بشكل كبير لا دخل للاسم بها كما شكلوا أيضاً جزءاً من خدم قصر السلطان بالإضافة إلى أولئك الذين وُضعوا في أوجاق البالطه جية⁽⁵⁾ *ocağ of the Wood-cutters* وأقسام أخرى من خدمات القصر. ومن هؤلاء انتقل عدد معين إلى أوجاق الجبّه جية⁽⁶⁾ *ocağ of the Armourers* وفروعه المختلفة وبهذا عادوا إلى الجيش. وهناك آخرون من *Acemî Oğlans* الذين منحوا وظائف في موقد البحرية فخدموا في العاصمة وغانليولي⁽⁷⁾، أو في المكاتب العامة في إسطنبول كما أن آخرين قد استؤجروا ليقوموا بالعمل كعمال لدى أشخاص معينين⁽⁸⁾. لكن كان مصير الغالبية هو الانضمام إلى فرقة المشاة في الفيلق الذي أصبح يعرف بالجيش الإنكشاري.

(1) انظر عطا ج 1 ص 138. ولقد درسوا تعاليم القرآن والشريعة باللغتين العربية والفارسية، وكذلك فنون رمي القوس واستعمال السلاح والعلوم العسكرية والفروسية ورمي الجريد *cerid-bâzî* والموسيقا.

(2) دُعوا بذلك لأنهم وُلدوا غير مسلمين. انظر الملحق الثاني للكتاب.

(3) ليسيير Lybyer ص 79، وأحمد جواد ص 224 والذي يقول في ص 242 إن هذه الطريقة في التعامل مع فرق الدوشيرمه كانت في الأيام الأولى فقط قبل أن تبنى لهم ثكنات تؤويهم.

(4) البوستانجية (انظر ص 84) وكتاب أحمد جواد ص 243؛ وسيد مصطفى ج 1 ص 149؛ ويسيير ص 81.

(5) تلفظ في عصرنا: البَلطَجيّة (انظر كتاب أحمد جواد).

(6) تلفظ في عصرنا ككنية في العربية: الجَبَجِي.

(7) أحمد جواد، ص 244؛ ويسيير، ص 803؛ وسيد مصطفى، ج 1 ص 146.

(8) ليسيير، المصدر السابق.

ليست هناك معلومات مؤكدة حول زمان وكيفية تأسيس الجيش الإنكشاري، إذ تبدو الروايات الموثقة لمؤرخي العصر الذهبي العثماني غير صحيحة في تفاصيل مهمة منها⁽¹⁾. لقد قامت الفتوحات الأولى بفضل مساعدة المسلمين المتحمسين وقطاع الطرق، وكانت أول فرقة مشاة نظامية أسسها السلاطين تدعى اليايا *Yaya* أو الهيايه *Piyâde* ويُنفق عليها من الإقطاعيات المخصصة للأناضول. يبدو أن اليايا هم الفرق الخاصة بالسلاطين، ويشكلون مع الخيالة الإقطاعيين نواة جيوش الفتح، مع أنه من المحتمل أن يكون للعثمانيين في بداياتهم، كالحكام المسلمين السابقين، حرس خاص من العبيد، لكن من الصعب عليهم تأمين المصادر الضرورية للإنفاق على فرق مأجورة كبيرة العدد. ومن هنا نشأت الطبيعة الإقطاعية لكل من السباهية واليايا. لكن اليايا لم يكونوا ليتين بطبعهم ولكونهم جنوداً مشاة وإقطاعيين في الوقت نفسه، فلم يكن بالإمكان استخدامهم في مهمات بعيدة عن مواقع إقطاعياتهم، ولذلك كان من الطبيعي أن يستبدلهم السلاطين بمشاة مجتدين ومنظمين لتجنب تلك العقبات. وقد سنحت الفرصة للقيام بذلك في الربع الثالث من القرن الرابع عشر وعادت أول الحملات العثمانية داخل أوروبا على السلاطين بغنائم وفيرة والكثير من الأسرى الذين أصبحوا عبيداً فوراً، وكان ذوو العمر والصحة المناسبين يُحوّلون إلى جنود يمكنهم بدورهم أن يتقاضوا أجورهم من العائدات الجديدة⁽²⁾.

هكذا تبدو الطريقة التي تشكلت بها الفرق الجديدة المسماة بالجيوش الإنكشارية *Yeni çeris* وهناك ما يشير إلى أن تنظيمهم كان مختلطاً أو على الأقل متأثراً بالحركة الدينية التي

(1) تقول هذه الروايات إن أورخان Orhan (المتوفى عام 1360) هو مؤسس هذا الجيش مما يجعل تجنيد الدوشيرمه معاصراً له وتروي مباركة المجتدين الأوائل من قبل الدرويش *Hâccî Bektaş* (انظر ص 64). لكن يُشك في صحة الرواية الأخيرة (انظر كوبرلي زاده *Anadolada Islâmiyet* ص 87 ونشأة البكتاشية ص 21-24؛ وكتاب *Giese, Zeitschrift für Semitistik* 1924 ص 266).
(2) انظر: *Giese* المصدر السابق ص 264-266 (مشيراً إلى أحد المؤرخين العثمانيين في القرن الخامس عشر وهو عاشق پاشا زاده *Aşık Paşa-Zâde*؛ والموسوعة الإسلامية مادتي مُراد الأول، والأتراك.

يعود إليها الفضل في حيوية المشروع العثماني في بداياته. وسنعود بالتفصيل في موضع لاحق إلى تلك الحركة التي كان أفرادها منفردين يدعون بكلمة آخي⁽¹⁾ *Ahi* واسمهم مجتمعين هو أهل الفتوة (أو الشَّهامة والفضيلة)⁽²⁾. وهنا يكفي أن نقول إن الفتوحات الأولى قد انطلقت بدافع ديني وإن الكثير من أهل المدن الذين تبناها، بمن فيهم من كانوا على صلة وثيقة بعثمان الأول ذاته، هم من أفراد هذه الجماعات⁽³⁾. ومن هنا يبدو أن الإنكشارية قد تأسست في البداية قبل أن ينشأ الانشقاق بين معتقدات السلاطين ورعاياهم المسلمين والذي أشرنا إليه سابقاً، بالرغم من أن السلاطين قد اعتمدوا عليهم لاحقاً ضد الانتفاضات التي أدَّى الانشقاق إلى ثورانها في ذاك الوقت. كان فيلق الإنكشارية، أو الأوجاق *ocak* كما سمي فيما بعد، خليطاً من ثلاث فرق مختلفة. نشأت إحداها، وهي فيلق السَّگْمَن⁽⁴⁾ *Seğmens*، بشكل مستقل في نهاية القرن نفسه لكنها وُضعت تحت إمرة قائد الإنكشارية بعد فتح القسطنطينية⁽⁵⁾. أما الفرقتان الباقيتان فإن مهامهما تلقي ضوءاً على

- (1) وفقاً لغيره Giese ص 256 من المصدر السابق كلمة آقى *Akı* تركية وتعني الكريم أو الشَّهم وتتطابق بذلك مع كلمة فتى العربية وجمعها فتیان، وقد أخذت بشكل عام من التناسق اللفظي لكلمة آخي العربية، وقد سمي أفراد إحدى الجماعات المبكرة أنفسهم بالإخوان. أما اللفظة المفردة المجردة فهي أخ. ويذكر عثمان نوري ج 1 ص 65 أن آخي قد تكون تحريفاً لكلمة آغا.
- (2) انظر الفصل الثالث عشر من الكتاب. وإن ملابس الإنكشارية وبالأخص غطاء الرأس والسرّوال مأخوذة من أهل الفتوة وقد لوحظت تشابهات أخرى بهم كالسكاكين الصغيرة التي يتقلدها أفراد الجيش الإنكشاري وفي استخدامهم لكلمة يولداس *Yoldaş* (أي رفيق السفر) وكانت العزوبية مفروضة عليهم حتى التقاعد - غيرَه Giese المصدر السابق ص 259. أما سلم ترتيب ضباط الأورطة فهو نظام غريب إذ لم يكن هرمياً كما هو عليه في الأنظمة الأخرى (أي كلما قلت الرتبة زاد عدد أفرادها) وهي صفة علق دوشون عليها بأنها سلبية وقد تشير إلى أنها مستقاة من مراسم الأخية إذ يتميز الإنكشارية بأنهم يمكن معاقبتهم من قبل ضباطهم أنفسهم.
- (3) انظر كتاب Giese ص 257؛ والموسوعة الإسلامية مادة «الأتراك».
- (4) هذه الكلمة التركية هي تحريف عن الكلمة الفارسية سگبان *Sāgbān* التي تعني حارس الكلاب.

- (5) الموسوعة الإسلامية مادة «محمد الثاني». انظر دوشون ج 7 ص 39-40. ويذكر هامر ص 191، 208 من كتابه أن اسم *Seğmen* أطلق على فرقة المشاة العثمانية قبل تأسيس الجيش الإنكشاري.

نشأتها⁽¹⁾ إذ كانتا فرقتين متحالفتين وتدعيان الجماعت⁽²⁾ *Cemâ'at* والبولوك⁽³⁾ *Bölük*.

مهما يكن الأمر، فإن الجيش الإنكشاري بكل تقسيماته هو منذ البداية من القايى قول لرى أى من عبيد السلطان، لكن من المؤكد أن تجنيد الدوشيرمه لم يحدث إلا بعد مرور أكثر من نصف قرن على تأسيس الأوجاق *ocak*⁽⁴⁾. وبعد ذلك أصبح معظم المجندين، وليس جميعهم، من الجيش الإنكشاري. ولم يكن كل أفراد الجيش الإنكشاري ممن يجندون فحسب بل هناك أيضاً الصبية الذين يؤسرون في الحرب أو يُشترون. لم تكن الدوشيرمه إذن المزية الأساسية في تنظيم الجيش الإنكشارية كما يقال عادة، وإن كان الجيش قد تداعى عند التخلي عن نظام الدوشيرمه، فما ذلك إلا لقبول رجال أحرار في جيش أنشئ في الأصل من العبيد.

وكما تبين أخيراً فإن الأوجاق *ocak* قد تشكل من مئة وست وتسعين فرقة متفاوتة الأحجام تدعى الأورطة⁽⁵⁾ *Orta*. وكان مئة وواحدة منها تكون

(1) انظر الملحق الأول.

(2) كلمة عربية.

(3) كلمة تركية.

(4) على الأرجح من قبل مُراد الثاني (الذي ورث العرش عام 1421) قبل عام 1438. انظر Giese ص 267؛ والموسوعة الإسلامية مادتي «الدوشيرمه» و«الأتراك».

(5) تعني كلمة أورطة المركز وبين فترتي تأسيس الفيلق وتشكيله النهائي كان هناك 165 أورطة (أحمد جواد ص 27). ولا أحد يعرف متى وصل الرقم إلى 196 تحديداً وكان ما يزال في حده الأدنى أيام سليمان العظيم، في البداية على الأقل، وكان عدد الرجال 12,000، انظر ليبير ص 95. ويذكر سيد مصطفى ج 1 ص 141 أنه لما تولى مُراد الثالث الحكم عام 1574 كان الفيلق مكوناً من 20,000 رجلاً؛ كما يذكر خوجة بك (أحمد جواد ص 90) أنه يتألف من 13,599 رجلاً. وإن الرقم الذي ذكره سيد مصطفى (ووافقه عليه هامر) يشمل أورطات العجمي أوغلان ولعل هذا هو سبب تعارض التقديرين. في هذه الحالة يبدو أن الزيادة قد تمت لاحقاً لكننا لا ندري للأسف في أي قسم تمت. إن كانت في الجماعت فلا بد أن ذلك كان قبل عام 1591 إذ كانت البكتاشية تابعة للأورطة التاسعة والتسعين آنذاك. إننا نعلم أن هناك زيادة كبيرة في الجيش الإنكشاري في عهد مُراد الثالث (انظر كتاب سيد مصطفى) عام 1583 فضلاً عن أن جودت قد نقل عن أحمد جواد أن قوام الجيش (على الأرجح دون العجمي أوغلان) قد بلغ 27,000

الجماعت⁽¹⁾، وواحدة وستون للبولوك بينما كونت أربع وثلاثون منها فرقة السگمن. كان الجميع خاضعين لأغا الجيوش الإنكشارية ينيچري⁽²⁾ آغاسى (*Yeniçeri Ağası*) الذي يعاونه قائد السگمن (سگمن باشى) *Seğmen Başı* وقائد البولوك⁽³⁾ (قول كاخية سى) *Kul Kâhyası*. وكان هؤلاء القواد الثلاثة مع قواد الأورطات الثلاث المتميزة يشكلون المجلس العام أو الديوان *Dîvân* للفيلق وكانوا يعرفون باسم أغوات الأوجاق⁽⁴⁾ *Ocağ Ağası*.

تحت هؤلاء القواد يندرج عدد من قواد الأورطة الذين يعملون في وظائف متنوعة كضباط عامين إما للفيلق بأكمله أو جزء منه ومنهم السكرتير ينيچري كاتبى *Yeniçeri Kâtibi* وضابط يدعى آغا إسطنبول الذي يقود الأورطات الأربعة والثلاثين ممّا يتمّ تشكيل أوجاق العجمي أو غلان الذي تُجند منه الفرق الثلاثة بحيادية⁽⁵⁾.

كان آغا الجيش الإنكشاري شخصاً بالغ الأهمية، لأن فرقته كانت أقوى أداة عسكرية بيد السلطان، وكان يشغل أيضاً منصب رئيس شرطة إسطنبول ذاتها. كان يتمتع بصفات

في منتصف فترة حكمه. وقد توفي مُراد عام 1594 لذلك يمكن أن يكون عام 1583 هو تاريخ حدوث الزيادة في الأورطات.

(1) يعود ذلك إلى عهد مُراد الرابع، لما قضى على الأورطة 65 لاشتراكها في قتل سلفه عثمان الثاني. انظر دوستون ج 7 ص 213. أما في كتاب هامر ص 195-196، 219 فقد كانت فرقة البولوك تشمل 62 أورطة بينما تتضمن فرقة السگمن 33 أورطة.

(2) كانت العبارة تكتب في العثمانية القديمة: يكيچري وتوسم الكاف بثلاث نقاط، لتلفظ نوناً مخففة عندما تليها ياء، كقولك: يكرمي، أو بغير ياء: صوكره. (أحمد)

(3) وتعني المشرف على العبيد وهي اختصار *Kapı Kulu Kâhyası* ويعرف باسم *Kâhya Beyi*. وكاخية *Kâhya* هي الكلمة التركية المأخوذة عن كلمة كتخدا *Kat-hudâ* الفارسية التي تعني سيد المنزل أو كبير مشرفي شؤون المنزل. وقد حافظت التركية على الكتابة الفارسية للكلمة بالرغم من أن لفظها قد تحرف. وستمرّ معنا كلمة كاخية *Kâhya* باستخدامات مختلفة.

(4) انظر دوستون ج 7 ص 315. ويذكر سيّد مصطفی ج 1 ص 143 أنهم كانوا يُعرفون أيضاً باسم قطار أغلاري *Kağâr Ağları* أي أغوات القطار أو الطابور لأن كل الدراجات الخمس الأدنى تترقى إلى التي الأعلى منها.

(5) انظر الملحق الأول.

عضو مجلس الدولة ويحتل الصدارة بين المؤهلين لمنصب الوزير وقد يصبح وزيراً هو أيضاً، كما يتصدّر المكانة بين الجنرالات كلهم⁽¹⁾. يمتلك أثناء الحرب مزية قيادة الأوجاق فقط عندما يشارك السلطان في الحملة بنفسه، وإلا فإنه يرسل مندوباً ينفذ أوامر الجنرال الذي يقود العمليات⁽²⁾. ولغاية بداية القرن السادس عشر كان الأغوات يُختارون من بين ضباط الفيلق نفسه. مع ذلك فقد سعى السلطان سليم الأول الذي كان يعاني من تمرّد الجيش الإنكشاري في الحرب، إلى كبح جماحهم بعكس هذه القاعدة ومنذ ذلك الحين وإلى مئة سنة تلت كان الأغوات يعيّنون من بين رجال القصر الإمبراطوري⁽³⁾. وعندما أعيد الأمر إلى حالته الأولى أصبح السكّمن باشى أو القُول كاخية سى يترقى على نحو نظامي إلى رتبة الآغالك (الأغوية). وأخيراً أصبح القُول كاخية سى يُعدّ معاون الأول للآغا، مع أن السكّمن باشى هو الذي كان يحتل هذا المنصب في البداية. ظل السكّمن باشى محتفظاً بحقه البارز كنائب عن الآغا أو القائم مقام *Kâ'im-makâm* في غيابه.

كانت أورطات التّقسيمات الثلاث بما فيها العجمي أوغلان منظمة بطريقة مشابهة، وكانت في البداية صغيرة لا تزيد عن مئة شخص⁽⁴⁾. وقد قسمت إلى ثلاث درجات تتكون العليا من المتقاعدين الذين لم يعودوا يذهبون للحرب. وكانت كل أورطة

(1) ما عدا في أيام الأعياد حيث كان جنرالات بولوك السّباهية وبولوك السّلخدارية إذ كانوا من المؤسسات الأقدم من الإنكشارية.

(2) انظر دوسون، المصدر نفسه.

(3) دوسون ج 7 ص 314.

(4) يشير ليبير Lybyer في كتابه ص 96 إلى أنه في زمانه، أي أثناء حكم محمّد الثاني، كانت كل أورطة مؤلفة من 50 رجلاً. وفي نهايات القرن الثامن عشر وصل عدد المقيمين في العاصمة إلى 100 وعدد المقيمين في المقاطعات إلى 300 في وقت السّلم أما في وقت الحرب فقد كان العدد يزيد ليصل إلى 500. انظر دوسون ج 7 ص 320-331. وكما سنرى فإن هذه الزيادات كانت تتم على عجل ولم يكن ينفق بشكل دائم إلا على القليل من الرجال بالإضافة إلى الضباط. يقول هامر ص 195 إن القوة الوسطية للأورطة كانت 400 رجل من بينهم 200 فقط قادرون على القتال لكنه لم يذكر الفترة التي كان ذلك فيها.

يقودها ضابط يدعى جُوزْبَه جى⁽¹⁾ *Çorbacı* مع ستة معاونين وعدد من الضباط المساعدين. ولكل واحدة منها موظف يحافظ على سجلاتها، وإمام للصلاة. كان الرجال يتدرجون حسب رواتبهم ومكانتهم التي تزداد بما يقدمون من خدمات⁽²⁾، وكانت الدولة تزودهم بالمؤن والملابس. وفي أوقات السلم كانوا لا يُزودون بالسلاح نظراً لميلهم إلى التمرد، وحتى في أوقات الحرب كانت هناك عادة غريبة بأن يختاروا ما يعجبهم من السلاح. وبما أن الإمبراطورية كانت في أوجها فقد تم تدريبهم بشكل جيد على الرمي بالقوس واستخدام الأسلحة النارية الصغيرة كما أنهم كانوا شديدي الانضباط، وهناك عبارة تركية تقول عنهم إن أربعين منهم يمكن قيادتهم بشعرة⁽³⁾. وكانت طاعتهم ولياقتهم محل تقدير لدى المراقبين الأوروبيين في ذلك الحين⁽⁴⁾. وبالرغم من أن الفيلق بأكمله كان يشعر بقوته ومستعد منذ القرن الخامس عشر لأن ينتزع العطايا من السلاطين، فإن الانضباط الذي كان الضباط يمارسونه على الرجال كان سهلاً طالما أن المجتدين كانوا مقتصرين على الدوشرمة والعبيد الآخرين، وكانت حياتهم مرتبطة بشكل وثيق بأوجاقهم. لقد دخلوا الخدمة في سن مبكرة وعُزلوا تماماً عن أقاربهم واضطروا للعيش في الشكنات كما أنهم مُنعوا من الزواج حتى يصلوا إلى سن التقاعد. وبالرغم من أن أبناء المتقاعدين كانوا يُقبلون في الفيلق، فقد كانوا قليلين جداً ويتم انتقاؤهم بعناية فائقة ليخضعوا إلى القواعد نفسها التي يخضع لها الموظفون الآخرون⁽⁵⁾.

يبدو أن الجيش الإنكشاري قد تشكل كحرس خاص للسلطان، وكانوا يتبعونه

(1) من كلمة جُوزْبَه *Çorba* أي الحساء وهي مأخوذة عن الكلمة الفارسية *şorba* وقد تكون مشتقة من الجذر العربي *Şaraba* أي شرب. انظر الملحق الأول لمعرفة الأصل المحتمل لهذا اللقب.

(2) سيد مصطفى ج 1 ص 142. وهامر ص 217-218.

(3) بالتركية: *Kırk bir kıl ile yedilir* انظر جودت ج 1 ص 97.

(4) على سبيل المثال Busbecq.

(5) دوسون ج 7 ص 328، 332-333، 346، 353؛ وأحمد جواد ص 54 وما يليها؛ والموسوعة الإسلامية مادة «الجيش الإنكشاري».

حيثما ذهب. لكن عندما ازداد عددهم وبالرغم من تواجد عدد كبير من الأورطات في قصر إقامة السلطان، فقد عُيِّن معظمهم في حاميات الأقاليم حيث خضعوا لقيادة الحكام المحليين. وفي الحاليتين معاً كانت كل أورطة تقيم في غرفة (Oda)⁽¹⁾، وتمركزت معظم الأورطات في إسطنبول داخل ثكنتين كبيرتين تدعيان الغرف القديمة والغرف الجديدة (Eski Odalar ve Yeni Odalar). لم تكن تلك الغرف تضم الأماكن المخصصة لمبيت الضباط والرجال فحسب بل المطابخ والمخازن أيضاً. وأثناء الحملة كانت الخيمة الكبيرة تقوم مقام الغرفة لكل أورطة، وكانت الثكنات والخيام مزينة بالرسومات كالمفتاح والمرساة والسمكة والعلم والصولجان بحسب الأورطة التي تملكها. وفيما بعد أصبح الرجال يحملون هذه الشعارات بشكل وشم على سواعدهم وسيقانهم⁽²⁾.

كان السلاطين في بداية دولتهم مهتمين بتركيز نشاط الجيش الإنكشاري على مهامه الرئيسية، وهي القتال والحفاظ على النظام. لم يكونوا يقبلون في الأوجاق سوى العبيد ويكون تدريب هؤلاء المجندين قد بدأ وهم لا يزالون يافعين ممّا يبعدهم عن التفكير بامتهان حرفة لكسب العيش، وقد عزّز من ذلك منعهم فيما بعد من مزاوله إحدى الحرف أو العمل بالتجارة⁽³⁾. وكانت الحكومة، كما سنرى، تؤمّن السلع المطلوبة لإعالة الجيش من المنتجين مباشرة دون اللجوء إلى وسطاء مدنيين، وتلحق برجال الأورطة المقيمين في العاصمة وأولئك الذين ترسلهم في حملات، تلحق بهم عدداً من الرجال من تلك الفئات التي ينتج أفرادها السلع المصنعة التي قد تحتاجها

(1) نظراً لسكن كل أورطة في أوضه فقد أصبحت كلمة الأوضه تستعمل أحياناً للدلالة على الأورطة.

(2) سيد مصطفى ج 1 ص 142؛ ودوسون ج 7 ص 347؛ وأحمد جواد ص 47.

(3) انظر سيد مصطفى ج 1 ص 140 من أجل القصتين اللتين تظهران غضب السلطان سليم الأول من فكرة قبول أحد أبناء التجار في الجيش ومن فكرة عمل الجنود بالتجارة. انظر أحمد جواد ص 64، 73-74؛ وعثمان نوري ج 1 ص 620.

الجيوش الإنكشارية⁽¹⁾، ولا يعود لها أية حجة في تجاهل هذا المنع. ويبدو أن أصحاب الحرف الملحقين بالجيش يكفون عن الارتباط بنقاباتهم الأصلية بل ينشئون نقابات جديدة واحدة لكل نوع من الصناعة وذلك تحت رعاية الأوجاق. لم يكونوا يُعدّون من التشكيلة الأساسية للجيش الإنكشاري، لكن يبدو أنهم يتمتعون بالمزايا ذاتها التي يتمتع بها أفراد الجيش كالحماية من السجن أو العقاب من قبل السلطات المدنية⁽²⁾.

هناك أشخاص بارزون انضموا أيضاً إلى الأوجاق، لكن دون أن يصبحوا جزءاً منه، وهم بعض الدراويش أصحاب الطريقة البكتاشية، وستكلم لاحقاً عن هذه الطريقة⁽³⁾. يمكننا هنا فقط أن نتحدث عن ارتباطهم بالجيش الإنكشاري إذ يُعدّ هذا الارتباط، وخصوصاً في الأيام الأخيرة، وثيقاً وبالع الأهمية. كان جنود الجيش الإنكشارية يدعون «عسكر البكتاشية»⁽⁴⁾، ويعود الفضل الأكبر في تأسيسهم إلى حاجي بكتاش⁽⁵⁾ *Hâccî Bektaş* صاحب الطريقة، ويُذكر أنه قد بارك المجتدين الأوائل بوضع أكمامه فوق رؤوسهم ممّا ألهمهم ارتداء غطاء الرأس ذي الأنبوب المتدلّي غريب الشكل⁽⁶⁾. لكن ثبت كما سبق أن ذكرنا أن هذه الرواية مجرد خيال وأن حاجي بكتاش لم يكن له علاقة بتأسيس الجيش الإنكشاري لسبب بسيط هو أنه توفي قبل التفكير بإعدادهم بقرن من الزمان⁽⁷⁾. وبالرغم من أن الطريقة البكتاشية لم تنظم حتى وقت متأخر،

(1) انظر الملحق الأول.

(2) انظر عثمان نوري ج 1 ص 621، 637. وقد يكون الأشخاص المتمتعون بالحماية المذكورون هنا ليسوا من أصحاب الحرف، ولكن إما من الجيش الإنكشاري الذين خالفوا النظام وعملوا بالتجارة، أو من الحرفيين الذين انضموا إلى الأوجاق في وقت لاحق.

(3) انظر الفصل الثالث عشر من الكتاب.

(4) عسكر البكتاشية *Askeri Bektaşîye* وفقاً لصاري محمد *Şarî Mehmed*، وانظر رايت «حرف الدولة العثمانية»؛ أو أولاد حاجي بكتاش *Hâccî Bektaş Oğulları* انظر الموسوعة الإسلامية مادة «بكتاش».

(5) يُطلق لقب حاجي أو حاج علي من أدى فريضة الحج إلى مكة.

(6) انظر أحمد جواد ص 24 وما يليها؛ والموسوعة الإسلامية مادة «الإنكشارية».

(7) كوبريلي زاده «نشأة البكتاشية».

في القرن الخامس عشر⁽¹⁾، فقد كانت الفتوحات العثمانية الأولى استجابة لتعاليمها وبقية أتباعها من الدراويش الأوائل. لكن يعود جزء من الفضل في هذا المشروع إلى الإخوان في المجتمع الفاضل الذين كان لهم نظام صوفي شبيه بنظام الدراويش مع أنه تطور بطريقة مختلفة، ونذكر هنا أن غطاء رأس أفراد الجيش الإنكشاري مأخوذ من نظام الأخية⁽²⁾ الذي كان نظام الجيش الإنكشاري قائماً على غراره. ولذلك كان في معتقدات الجيش الإنكشاري المستقاة من الأخية أموراً مشتركة مع دراويش الطريقة البكتاشية ومن المحتمل أن يكون في قصة مباركة حاجي بكتاش للمجندين الأوائل بعض الصحة إذا فكرنا في أن الدراويش قد تضرعوا لتنهال بركات سيدهم المتوفى على فرق الجنود الجديدة⁽³⁾. وبمرور الزمان بقي الطريق مفتوحاً أمام الدراويش باضمحلال مجتمع الأخية تدريجياً الذي قد يكون سببه التسرع في الارتباط بالجيوش الإنكشارية بعد أن كانت شديدة الصلة بالثقافات المهنية التي سيطرت على الصناعة في المدن الإسلامية لقرون عديدة⁽⁴⁾. ولكن، كما سبق أن رأينا، فإن الجنود كانوا ممنوعين من العمل بالتجارة أو الصناعة، وإن الغرابة في هذا المنع هو أن الجنود لا يميلون بطبعهم إلى العمل الحرفي مما يشير إلى أن السلاطين بتحويلهم إلى سنيين متشددين قد نظروا بعين الارتياب إلى الصلة بين أفراد الإنكشارية والإخوان إذ أن نظام الأخية، مع أنه سني اسمياً، يقوم على البدع⁽⁵⁾. على كل حال لقد توقف أفراد الأخية عن ممارسة أي نفوذ سياسي بعد القرن الرابع عشر⁽⁶⁾، ومنذ ذلك الوقت لم يعد

(1) المصدر نفسه.

(2) انظر غيزه Giese ص 261.

(3) كوبريلي زاده ص 24؛ و *Anadoluda Islâmiyet* ص 88.

(4) انظر الفصل السادس من الكتاب.

(5) تبعاً لقول كوبريلي زاده في كتابه ص 16، 67 (مشيراً إلى ملاحظات ماسينيون وهوار لدعم هذا الرأي). لكن غيزه Giese يخالف ذلك في كتابه ص 255.

(6) انظر: Giese ص 267-268. ويعزو كوبريلي زاده في كتابه ص 85 سبب زوال الأخية كقوة سياسية إلى إنشاء أعداد متزايدة من المدارس الشنية (*Madrasa*).

يُطبق سوى نظام التّقابات التجاريّة⁽¹⁾. ولكن إن كان هذا هو قصد السّلاطين فقد فشلوا في التّهاية في توجيه الأوجاق إلى الطّريق السّنيّ القويم، أو على الأقلّ المحافظة عليه هناك. لقد كان البكتاشيون أكثر بدعاً من الأخيّة وبطريقة ما⁽²⁾، سواء استفادوا من اضمّحالها أم لا، نجحوا في بسط سيادتهم كونهم ورثة الدّراويش الذين باركوا أصلاً تأسيس الأوجاق. كانت هذه السّيادة غير رسميّة في البداية لكن الدّولة اعترفت بها في التّهاية. يبدو أن الطّريقة البكتاشيّة قد نشأت خلال القرن الخامس عشر لكنها لم تُمنح الاعتراف الرّسمي إلا في نهاية القرن السّادس عشر. وفي عام 1591 أعلن أن الطّريقة قد أدرجت في الأورطة التّاسعة والتّسعين من الجماعات وتُخصّصت رتبة الجُوزبّه جي لشيخها الأكبر، وإثر ذلك أقام ثمانية من دراويش البكتاشيّة في أوضه هذه الفرقة الواقعة في الثّكنات الجديدة في إسطنبول. كانوا يدعون للإمبراطوريّة وجيوشها كما كانوا يمشون أمام الآغا في مواكب المراسم لابسين ثيابهم الخضراء بينما يصيح قائدهم قائلاً «الله كريم!»⁽³⁾ ويردّد البقية كلمة «هو!»⁽⁴⁾. لذلك أصبح الدّراويش يُعرفون باسم *Hû-keşân* أي المنادون بكلمة «هو»⁽⁵⁾.

ومن هنا نجد أن الصّلة بين البكتاشيين والجيوش الإنكشاريّة تعود إلى فترة الانحطاط التي سنناقشها فيما بعد. وهناك سبب للاعتقاد بأن الإخلال بالنّظام في الأوجاق الذي شارك بدوره في الانحطاط، إنما يعود إلى المعتقدات المتناقضة للبكتاشيين⁽⁶⁾. وانطلاقاً من هذه النّقطة قد نصل إلى نفس التّتيجه التي توصل إليها

(1) انظر عثمان نوري ج 1 ص 518 وما يليها.

(2) من الممكن أن يكون البكتاشيون قد بسطوا نفوذهم أولاً على أورطات الجماعات المقيمة في الأقاليم، إذ أن البكتاشيين هم الشّكل الرّيفي للدّراويش (انظر الفصل الثالث عشر من الكتاب)، وقد انتسبوا في التّهاية إلى أورطة الجماعات.

(3) كانوا يقولون *Kerim Allah*.

(4) باللغة العربيّة *Huwa*.

(5) انظر دوشون ج 4 ص 673، ج 7 ص 325.

(6) أحمد جواد ص 61، 64، يتناول بالبحث المادّة الرّابعة من القانون الأساسي للإنكشاريّة التي تفرض عليهم عدم الخروج على تعاليم الشّيخ حاجي بكتاش، وجاء فيها «أن الأوجاق

آخرون^(١) بأن البكتاشية قد سيطرت على توجيه الجيوش الإنكشارية قبل الاعتراف بها رسمياً بوقت قصير.

كان آغا الجيوش الإنكشارية جنرالاً وضابط شرطة، وبهذا فقد كان مسؤولاً عن حفظ النظام وحماية الممتلكات في معظم أنحاء إسطنبول الأساسية^(٢)، ولم يكن يقع خارج نطاق سلطته سوى قصر السلطان وحَيِّ مجاور له. كان هذا الحي مع المنطقة المحيطة بالعاصمة تحت سيطرة مشابهة لضباط عسكريين آخرين، إذ لم تكن هناك قوات شرطة ولا حتى في الأقاليم. ومن هنا نجد أنَّ المهام التي من المفترض أن تسلم لهذه القوة قد كانت في وقت السلم من نصيب أورطات وسرايا الجيش الإنكشاري والفرق العسكرية الأخرى. أما في المنطقة الواقعة تحت نفوذ الآغا فقد كانت تقوم بها الأورطات المقيمة في العاصمة. وفي أثناء الحرب كان العجمي أوغلان يحتلون مكان هذه الأورطات. كانت هذه المنطقة مقسمة، بغرض تأمين الحماية البوليسية فيها، إلى عدد من المقاطعات في كل واحدة منها أورطة متركزة لمدة عام تُرسل منها دوريات حراسة بشكل مستمر إلى كل الأسواق والشوارع والأزقة في كل مقاطعة^(٣). لم يكن الآغا وقادة الأورطة هم وحدهم المعيّنين في هذه المراكز بل هناك أيضاً ضباط آخرون من الأوجاق وضابط ذو رتبة أدنى قليلاً. كما كان الفيلىق يؤمن فريقين من المحققين للحفاظ على النظام والأمن ولمنع الجريمة وإيقاع العقاب بالمجرمين^(٤).

-
- الذي يتبع تعاليم الشيخ سيتبع عادات معينة كشرب الخمر مما يخالف المبادئ الأساسية للدين والشريعة». انظر الفصل الثالث عشر من الكتاب حول إدمان الدّراويش على شرب الخمر.
- (١) «المسيحية والإسلام في ظل السلاطين» لهاسلّك ص 490، وقد توصل إلى نتيجة تقول إن الصلة بين حاجي بكتاش والجيوش الإنكشارية إنما هي أسطورة ابتدعت في وقت متأخر وظهرت بداية في أعمال المؤرخين طاشكبرى زاده Taşköprüzade وعالي Ali اللذين توفيا في النصف الثاني من القرن السادس عشر.
- (٢) باستثناء أيوب وغلطة وأسكدار.
- (٣) دوشون ج 7 ص 348-349.
- (٤) انظر الملحق الأول.

ج. الطوبجية والجبه جية

لم يتأثر نظام الجيش الإنكشاري كثيراً بإدخال الأسلحة النارية في بدايات القرن الخامس عشر، لكن صناعيتها واستخدام المدفع قد قادا إلى نشوء ثلاثة فيالق خاصة مؤلفة من المجتدين، كما هو الحال في الجيش الإنكشاري، من بين العجمي أوغلان. كان رجال هذه الأوجاقات يُدعون، بحسب نشوئهم، بالمدفعيين أو الطوبجية *Topçus*، (والطوب *Top* هو المدفع)، وسائقي عربات المدافع أو الطوب عرجية⁽⁵⁾ *Top 'Arabacis*، وصانعي الدروع أو الجبه جية⁽⁶⁾ *Cebecis*.

كان السلطان مُراد الثاني (1421-1451) هو من أسس النوعين الأولين من الأوجاقات الثلاثة، وفي عهده استخدمت المدافع لأول مرة في حصار المدن⁽⁷⁾. كانت قد استخدمت قبل حوالي مئة عام في أوروبا الغربية ولكن لا أحد يعلم كيف أدخلت إلى الإمبراطورية العثمانية، وإن كانت صناعيتها محلية أم لا. على أي حال، لقد أنشأ هذا السلطان مسابك لصب المعادن فأنتجت مدافع برونزية كبيرة الحجم تطلق قذائف حجرية، ولعبت دوراً حاسماً في تمكين خليفته من فتح القسطنطينية. كانت المدافع الأوروبية الأولى ثابتة ولم تستعمل المدافع الميدانية المتنقلة بشكل واسع إلا عند قيام حروب الهوس *Hussite*. مع ذلك فإن إنشاء فيلق الطوب عرجية يظهر أن العثمانيين قد اعتمدوا نماذج يمكن نقلها، وينبغي ملاحظة أن الطوبجية والطوب عرجية هم من المشاة، ومن هنا نشأت ضرورة وجود العرجية. ولم يتم تأسيس فيلق خيالة المدفعية على الطراز الفرنسي إلا في نهاية القرن الثامن عشر.

كانت مهام صانعي الدروع متنوعة، ففي البداية كانوا مهتمين بصناعة الأسلحة

(5) من كلمة عربية *araba* العربية.

(6) من كلمة *Cebe* وتعني الأسلحة أو صانع الدروع.

(7) يقول دوتون في كتابه ج 7 ص 364 إن أول الإمبراطورية العثمانية قد استخدمت المدفعية أول مرة في حصار مدينة سمندر. ويقول البعض (على سبيل المثال عبد الرحمن شرف كتاب «تاريخ الدولة العثمانية ج 1 ص 105») إنها استخدمت من قبل مُراد الأول في معركة كوسوفو.

والذخائر لفرقة المشاة، لكن كان من واجبه أيضاً تأمين نقل الجيوش والعتاد في الحرب. أنشئ أوجاقهم من قبل محمد الفاتح⁽¹⁾ وكان يتألف من سبعة رجل كما هو أوجاق الطوبجية؛ بينما كان في أوجاق الطوب عربجية ثلاثة آلاف رجل⁽²⁾. كان لكل أوجاق تنظيم مشابه لتنظيم الجيش الإنكشاري، إذ كان أوجاق الجبهة مقسوماً إلى فرقتين تدعيان البولوك والجماعت وتحتوي كل منهما عدداً من الأورطات⁽³⁾. وكان يقود كل أوجاق آغا يدعى عند المدفعيين بطوبجي باشى *Topçu Başı* وعند السائقين بطوب عربه جى باشى *Top 'Arabacı Başı* وعند صانعي الذروع بجبه جى باشى *Cebeci Başı*؛ وكان له كاخية *Kâhya* وسكرتير⁽⁴⁾. كانت أورطات الفرق الثلاث متمركزة بعضها في العاصمة والبعض الآخر في الأقاليم⁽⁵⁾، وكان لكل أوجاق من الفرق المقيمة في العاصمة ثكنات خاصة بها.

بالإضافة إلى كون الطوبجي باشى قائداً للمدفعيين، فقد كان مسؤولاً أيضاً عن مستودعات الأسلحة ومخازن البارود⁽⁶⁾ (*Barud-hâne*) «البارود خانه» في سالونيك وغانليولي والعاصمة⁽⁷⁾. مع ذلك كان لترسانه الأسلحة ومخازن البارود مفتشون

(1) دوشون ج 7 ص 362؛ جوشيرو Juchereau ج 1 ص 83؛ أحمد راسم ج 1 ص 98، حاشية؛ عثمان نوري ج 1 ص 916. يقول هامر في كتابه ص 224 إن أوجاق الجبهة جية قديم قدم أوجاق الطوبجية وإن عدد أفراده كان 600 في الأصل.

(2) دوشون ج 7 ص 362-364.

(3) المصدر السابق؛ وجودت ج 1 ص 89؛ سيد مصطفى ج 1 ص 144 (ويقول إن للأوجاقات الثلاثة أورطات وبولوكات وضباط مثل أوجاق الإنكشارية)؛ وأحمد راسم ج 1 ص 99، حاشية.

(4) انظر لبيير Lybyer (رامبرتي Ramberti) ص 252. كان الطوبجي باشى والعربه جى باشى يُختاران من بين ضباط فيلقيهما، أما الجبهة جى باشى فكان يُختار من بين القاييجى باشية وهم فئة من الضباط ينتمون إلى القصر الإمبراطوري. دوشون 368-369.

(5) كان الجبهة جية يقيمون في الحصون الحدودية وكانوا يدعون في مصر بالزبان.

(6) البارود كلمة تركية.

(7) انظر جودت ج 6 ص 126، لدمج الثلاثة في عام 1792؛ وجوشيرو ج 1 ص 63، لنزع مخزن البارود والمصنع من سلطة الطوبجي باشى في عهد سليم الثالث.

حكوميون مستقلون⁽¹⁾ كما كان للترسانة مدير فني يدعى دو كجي باشى⁽²⁾ *Dökücü* *Başı* أي رئيس المسبك. وبما أن التحاس كان متوافراً في الإمبراطورية، فقد استمر صَبّ المدافع من البرونز بدلاً من الحديد (الذي كان يستخدم في أوروبا)⁽³⁾. وفي النصف الأول من القرن السادس عشر، لما بدى بصَبّ القذائف الحديدية، أبطلت المدافع الضخمة وحلت محلها مدافع أصغر حجماً.

وفي عهد سليمان العظيم ازداد عدد أفراد أوجاقات الطوبجى والجبه جى إلى ألفي رجل وألف وخمسمئة رجل على الترتيب، بينما بقي عدد الطوب عربجية على حاله وحتى وقت متأخر عندما اتسعت الأوجاقات الأخرى⁽⁴⁾. وفي عهد السلطان سليمان نشأت أوجاقان صغيران هما (رماة مدفع الهاون) أو الخمبرجية *Humbaracis* (ومقبو الألغام) أو اللغمجية⁽⁵⁾ *Lağımçis*. كان أوجاق الخمبرجية في الأصل جزءاً من فيلق الطوبجية⁽⁶⁾؛ لكن الخمبرجية واللغمجية لم يكونوا يتلقون روايتهم من الخزينة بل كانوا يُمنحون إقطاعيات عسكرية⁽⁷⁾. وكما سنرى لاحقاً فقد نُظم الخمبرجية في بداية

(1) ويدعون طوب خانة ناظري *Top-hâne Nâziri* وبارود خانة أميني *Barud-hâne Eminis*. انظر دوشون ج 7 ص 196.

(2) من كلمة دوكمك *Dökmek* التركية وتعني يصب أو يسبك. انظر أحمد راسم ج 1 ص 99. ويُمائل عثمان نوري في كتابه ج 1 ص 921 بين الدوكجى باشى والخمبرجى باشى *Humbaracı Başı* (انظر في الأسفل).

(3) جوشيروج 1 ص 70.

(4) انظر ليبير (رامبرتي) ص 252؛ ودوشون ج 7 ص 362-364.

(5) العبارة *Humbara* كلمة فارسية (من خُم أي جرة) وتعني المدفع أو الحوض. أما لغم *Lağım* فهي كلمة تركية وتعني التفق تحت الأرض أو اللغم أو أنبوبة المجاري.

(6) لم يذكرهم رامبرتي (انظر ليبير، المصدر السابق).

(7) تبعاً لجوشيروج 1 ص 71. ويذكر دوشون ج 7 ص 369 أنه لغاية عام 1732 كان الفيلق مؤلفاً من 300 رجل مزودين بإقطاعيات عسكرية. ويضع الخمبرجية واللغمجية في فئة خاصة من القوات لتكمل الفيالق الستة الأصلية التي تشكل الجيش الانكشاري: الطوبجية والطوب عربجية والجبه جية وأوجاقين من الخيالة لم نتحدث عنهما بعد.

القرن الثامن عشر بقيادة فرنسي شهير اعتنق الإسلام⁽¹⁾.

وكما هو حال آغا الجيش الإنكشاري فقد كان الطُوبجى باشى والجَبَه جى باشى مسؤولين عن الحفاظ على أمن مناطق معيّنة. تضم تلك التابعة لسلطة الطُوبجى باشى حيّ بك أوغلى أو پيرا والحي المحيط بترسانه السلاح⁽²⁾. أما سلطة الجَبَه جى باشى فتشمل أحياء آيا صوفيا وبوابة الإصطبل التي أشرنا إليها سابقاً، وأخرى تدعى خوجه باشا⁽³⁾ Hoca Paşa. ومن المحتمل أن تكون هذه المهام الأمنية تؤدى من قبل رجال الأورطات المقيمة في العاصمة كما هو الحال في الجيش الإنكشاري.

د. السَّواريّة (الخَيْالة)

كان باقي الجيش النّظامي مؤلفاً من ستة تقسيمات من الخَيْالة، ويقال بأنها أقدم حتى من الجيش الإنكشاري نفسه⁽⁴⁾. يظهر هذا القدم في اثنتين منها من اسم عُلوْفَه جى Ölüfeci (أي الرّجال ذوو الرّواتب)⁽⁵⁾ ممّا يميّزها عن باقي الفرق التي، كما سبق أن رأينا، تعيش على الإقطاعيات. علاوة على ذلك هناك فرقتان تدعيان العُربا⁽⁶⁾ Gurebâ، لأنهم كانوا يجتدّون من المسلمين الأجانب أي المسلمين القادمين من خارج حدود الدّولة العثمانية للبحث عن الرّزق المادي أو المعنوي في حروب السّلاطين ضد الكفار. ولقد استمروا في تجنيدهم بهذا الشّكل لغاية أواخر القرن السادس عشر⁽⁷⁾. مع ذلك كان لاشتراك المسلمين الأجانب أثر كبير في الحماس الذي رافق الفتوحات الأولى. كانت هذه التّقسيمات تُعرف باسم البولوكات الأربعة⁽⁸⁾، واحدة من العُلوْفَه

(1) الكونت دى بونفال، أحمد باشا.

(2) عثمان نوري ج 1 ص 920.

(3) المصدر السابق ص 916.

(4) دوسون ج 7 ص 364-366؛ وليبير ص 98.

(5) وردت بصيغة Ölüfeli عُلوْفَه لي في بداية الفصل.

(6) كلمة عربية وهي صيغة الجمع لكلمة غريب.

(7) انظر ليبير ص 98-99، والحاشية.

(8) بولوكاتى أربعة، وهو مزيج لغوي إذ أعطيت كلمة بولوك التّركية صيغة الجمع العربية بإضافة

جيه وواحدة من الغربا وتدعى بأصحاب الميمنة⁽¹⁾ واثنتان من أصحاب الميسرة⁽²⁾ بحسب المواقع التي اتخذوها من مكان السلطان في ساحة الوغى. أما التقسيمان الباقيان فيبدو أنهما قد أنشئا لاحقاً⁽³⁾، وكانا يتمتعان بمنزلة عالية وحجمهما أكبر من البولوكات الأربعة⁽⁴⁾. كان رجال الفرقة الأولى، وهم أرفع مكانة وأكثر عدداً من رجال الفرقة الثانية ويحتلون مكان الميمنة من السلطان، كانوا يدعون ببساطة بالسباهية وكأنهم من الخيالة المتميزين، وكان أفراد الخيالة النظامية والإقطاعية يدعون كلهم بهذا الاسم⁽⁵⁾. أما رجال الفرقة الثانية فكانوا يدعون بالسَلْخُدَّارية *Silîhdârs* أي حملة السلاح أو السيوف، ويحتلون مركز الميسرة من السلطان⁽⁶⁾.

كان السباهية والسَلْخُدَّارية والعُلوْفه جيه يُجَنَّدون من بين أفراد الجيش الإنكشاري

(ات) ووضعت بالتركية الفارسية مع كلمة أربعة العربية، ويبدو أن هناك خلط في استعمال هذا المصطلح. يقول سيّد مصطفى ج 1 ص 63 إنه كان يطلق على العُلوْفه جيه والغربا. ويذكر ليبير ص 98 أن الأربعة هي السباهية والسَلْخُدَّارية والعُلوْفه جيه والغربا.

(1) عُلوْفه جيانى يمين *Ölûfeciyânî Yemîn* وغرباى يمين *Ğurebâi Yemîn*.

(2) عُلوفجيانى يسار *Ölûfeciyânî Yesâr* وغرباى يسار *Yesâr Ğurebâi*.

(3) وفقاً لدوسون ج 7 ص 365. ويلمح سيّد مصطفى في المصدر السابق أنه كان هناك تنظيم سابق أضيفت إليه البولوكات الأربعة. ووفقاً لتسينكايزن ج 3 ص 175، فقد أنشئت فرقة الخيالة النظامية في عهد أورخان ثم أعيد تنظيمها في عهد خليفته مُراد الأول من قبل تيمورطاش پاشا. كما ينسب عبد الرحمن شرف إنشاء السباهية إلى هذا الضابط. ويمكن أن نقول إن البولوكات الأربعة قد أنشئت في عهد أورخان، بينما أنشئت السباهية والسَلْخُدَّارية في عهد مُراد الأول. ولكن تبقى بداية تاريخ الخيالة مجهولة كما هي الحال بالنسبة للجيش الإنكشاري.

(4) وكان يشكلان معاً الدرجة الأولى من الخيالة بينما يشكل العُلوْفه جيه الدرجة الثانية والغربا الثالث. سيّد مصطفى ج 1 ص 144. ومن أجل عددهم وأجورهم في عهد سليمان انظر ليبير في مقاطع ستذكر لاحقاً.

(5) ليبير (رامبرتي) ص 250. يشير رامبرتي وغيره إليهم باسم سباهي أوغلان. انظر عبد الرحمن شرف الذي يدعوهم بأبناء السباهية. وفي التركية يعادلها *Sipâhî Oğulları*.

(6) ليبير (رامبرتي) ص 251. انظر دوسون ج 7 ص 367 من أجل الانتساب اللاحق للعُلوْفه جيه والغربا إلى ميسرة السَلْخُدَّارية.

وجزاء من خدم القصر السلطاني⁽¹⁾. ويبدو أن نظامهم تقليد إلى حدّ ما عن الخيالة الإقطاعية. وبهذا يتوجب على كل رجل أن يدرّب خياليين مسلّحين من العبيد ويأخذهما معه إلى الحرب وينفق عليهما من مال الإقطاعيات⁽²⁾ كما يفعل الجبّ لية. وقد منح السّلخدارية مزيّة امتلاك الإقطاعيات⁽³⁾. وكان لكل فئة قائد هو الآغا⁽⁴⁾ الذي يُعيّن من القصر السلطاني ويساعده أربعة ضبّاط وسكرتير أو اثنان. كان رجال السّباهية والسّلخدارية منظمين في فرق من عشرين خيّالاً لكل واحدة منها قائد وضبّاط مساعدون⁽⁵⁾. وعلى عكس الإنكشاريّة وفرق المشاة الأخرى لم يكن للخيالة ثكنات بل كان معظمهم يعيشون في القرى القريبة من العاصمة، ويستخدمون المراعي المحليّة لإطعام خيولهم. فقط الأغوات وضبّاط التّقسيمات كانوا يملكون مساكن في إسطنبول إذ كان يُطلب من بعضهم المثول في القصر عدّة مرات في الأسبوع⁽⁶⁾.

وضع الكتاب أرقاماً مختلفة لأعداد فرق الخيالة لدى تأسيسها⁽⁷⁾، لكن يبدو أن

(1) من *Iç Oğlans* ومن الخاصّ أوضه لى *Hâşş Odalis* ومن أوجاق ضباط المشاة. كان العُلوّفه جية يستقبلون المجندين أيضاً من القوات غير النظامية. دوسون ج 7 ص 366؛ وليبير ص 78، 98؛ سيّد مصطفى ج 1 ص 144؛ وجوشيرج 1 ص 86؛ وتسينكايزن ج 3 ص 177.
(2) يروي ليبير ص 98 روايات القرن السادس عشر، ولم يشر سيّد مصطفى أو دوسون إلى هؤلاء العبيد المسلّحين.

(3) ليبير (رامرتي) ص 251. جوشيرج 1 ص 86.

(4) ويدعى أحدهما *Sipâhiler Ağası* والآخر *Sıltıhdârlar Ağası*. ويدعيان معاً *Bölük Ağaları*.

(5) سيّد مصطفى ج 1 ص 144. دوسون ج 7 ص 368 ويذكر أنهم كانوا يملكون مساكن في العاصمة وفي أدرنه وبورصة.

(6) «قانون ناميه» لعبد الرّحمن التّوقيعي ص 506، 511، 512 لحضور أغوات البولوك يوم الخميس إلى القصر السلطاني وتوزيع الأجور.

(7) يعتقد أن البولوكات الأربعة كانت تضم 2,400 رجلاً (دوسون ج 7 ص 365؛ ويقول تسينكايزن ج 3 ص 175 إن عدد السّباهية النظاميين 2,500 رجل). أما سيّد مصطفى ج 1 ص 144 فيؤكد أن عدد أفراد البولوكات السّنة لدى تأسيسها هو 7,000 رجل لغاية عهد سليمان الأول، وإذا كان عدد الأربعة 2,400، يبقى 4,600 للسّباهية والسّلخدارية. يقول تسينكايزن ج 3 ص 176 إن السلطان سليم الأول قد زاد العدد بعد فتح مصر وسوريا إلى 8,000 منهم 3,500 من السّباهية

العدد كان في عهد سليمان العظيم بين عشرة آلاف واثنى عشر ألفاً باستثناء العبيد المرافقين، إذ يبلغ العدد بعد إضافتهم من أربعين إلى خمسين ألفاً⁽¹⁾. وفي ذلك الوقت كان عددهم يفوق عدد القوات الإنكشارية. ولما كان رجال التقسيمات العليا يُجلبون من الإيچ أوغلان *İç Oğlans* ووصفاء القصر السلطاني، فقد كانت لهم منزلة أرفع من تلك التي تعطى للمشاة، وكان امتلاكهم للعبيد يعزز تلك المنزلة، كما كانوا يتميزون بفخامة لباسهم ومعداتهم التي تغطي بشكل واضح على تلك التي لدى الجيش الإنكشاري أو الخيالة الإقطاعيين⁽²⁾. لكنهم لم يكونوا يبرزون زيتهم فحسب بل كانوا خبراء في العناية بالخيول، في مجتمع للخيول فيه مكانة عالية متميزة⁽³⁾، كما كانوا يرمون بالقوس بمهارة لا تضاهي⁽⁴⁾. وكما سنرى لاحقاً فقد كان وصفاء القصر يُدربون منذ نعومة أظفارهم على الرمي بالقوس ولا شك أن احترافهم هذا هو الذي أهّلهم للترقي إلى الخدمة في البولوكات. ويبدو أن هذه المهارة بالرمي هي التي أدّت إلى اندحارهم إذ لما زوّد متان منهم عام 1548 بالمسدسات والبندقيات القصيرة في الحرب ضد الشاه طهماسب *Şâh Tahmâsp* الفارسي، سخر الجميع من هؤلاء لما امتلأت أجسادهم بغبار البارود وسُحبت الأسلحة الجديدة منهم ولم تزود فرق الخيالة بها حتى نهاية القرن⁽⁵⁾.

و2,500 من السِّلْخدارية و1,000 من العُلوفه جية و1,000 من الغربا. أما أرقام دوسون (ج 7 ص 365، 364) فهي 1,000 للسّباهية و8,000 للسِّلْخدارية في عهد محمّد الثاني. ويقول ليبير إننا إن كنا سنصدق هذه الأرقام فلا بدّ أنها تشمل الرّجال الذين يعمل أفراد هذه الفرق على تزويدهم بالسّلاح وتجهيزهم للقتال.

- (1) ليبير ص 99.
- (2) تسنكايزن ج 3 ص 169.
- (3) المصدر السابق ص 170-172.
- (4) المصدر السابق ص 173.
- (5) المصدر السابق ص 174.

3. سكان القصر السلطاني

قد لا يبدو وصف سكان القصر السلطاني مهماً جداً بالنسبة إلى المجتمع العثماني ككل، إذ أنهم لا يتعدّون كونهم مجموعة صغيرة مقتصرة على قصر السلطان في العاصمة. مع ذلك فقد شكّلت مثلاً لسكان بيوت أرستقراطيي الإمبراطورية قلّدها قدر ما تسمح به أساليبهم وعاداتهم، بل قلدها أيضاً كثير من المسلمين الأقل شأنًا. علاوة على ذلك فقد كانت مدرسة تدريبية للإداريين والضباط⁽¹⁾ الذين يعيّنون في مراكز التفوذ في العاصمة والأقاليم. ولهذا فهي تستحق الاهتمام والعناية.

كان تشكيل سكان القصر السلطاني مشروطاً بصفتين رئيسيتين لطريقة السلاطين في العيش، وبالأخص احتفاظهم بالحريم، والتزامهم بالعادات الفارسية القديمة في اتباع الطريقة الملكية. وعلى الرغم من أن عزل النساء كان ذا أصول قديمة في بلدان الشرق الأوسط، فقد طبّقه الإسلام في وقت مبكر وأصبح بالطبع صفة مميزة للمجتمع الإسلامي. لكن يجب التنويه هنا إلى أنه لم يكن مرتبطاً بشكل أساسي بتعدد الزوجات الذي أجازته الشريعة، وإن أي مسلم حتى لو كان من طبقة قليلة الشأن، وسواء أكان متزوجاً من امرأة واحدة أم غير متزوج، فقد كان يحافظ على النساء الملزم بإعالتهن منعزلات عن المجتمع الذكوري. كانت كلمة «الحريم» هي أداة عزل النساء، إذ تعني الكلمة الشيء المحرّم أو المكرّم، ثم استعملت كلمة «تابو» taboo في هذا السياق للإشارة إلى الشقق التي تعيش فيها النساء داخل أي بيت مسلم. كان أهل البيت من الرجال يذكرونهن بشكل ثانوي، إذ كان ذكر النساء محظوراً بين من يتحلون بقواعد الأدب، ولذلك كانوا يعبرون عنهن بكلمات أخرى مثل كلمة «البيت».

وبهذا كان قسم من القصر الملكي - السراي⁽²⁾ - مخصّصاً للحريم، أما ما تبقى

(1) انظر على سبيل المثال عطا ص 41: «تحويل القصر السلطاني إلى مدرسة عامة». انظر ليبير ص 75.

(2) كلمة فارسية، وإن استخدام الكلمة الإيطالية seraglio للدلالة على الحريم فقط غير شائع لدى المسلمين.

فكان مقسماً إلى جزأين. لقد أثرت التقاليد الفارسية في الحكم الإسلامي وكانت تميل إلى إبعاد الحاكم عن أعين رعيته إلا في المناسبات الرسمية، وهكذا فإن الساعات التي لا يكون فيها مع الحريم كان يمضيها في شققة الخاصة. ومن هنا كان لا بد من إجراء تقسيمات السراي بحيث يتألف من قاعة خارجية وأخرى داخلية وقسم الحريم. بل وزيادة في الحرص، كانت هناك غرف خاصة مُعدّة للانتقال من قسم إلى آخر بشكل منفصل. لذلك كانت غرفة الاستقبال الخاصة بالسلطان تقع بين القاعتين الخارجية والداخلية حتى يتمكن من لقاء الزوار وأهل البلد والغرباء، مع المحافظة على عزلته عنهم عندما يشاء. وبين القاعة الداخلية وقسم الحريم، الذي لا يدخله إلا هو والخصيان والسيدات، كانت هناك غرف تعرف باسم «ما بين»⁽¹⁾ *Mâ-beyn* كان السلطان يجلس فيها مع حاشيته من الذكور لأغراض خاصة كارتداء الملابس وحلاقة الرأس.

وبحسب تقسيم السراي بهذا الشكل فقد كان أفرادُه مقسمين أيضاً بين قسم الحريم وخدمات القسمين الداخلي والخارجي.

أ. قسم الحريم

كان الحريم عبارة عن مجموعة النساء والخصيان الذين يقومون بحمايتهن. وكان مركزه بالطبع هو عائلة السلطان أي زوجاته وجواريه وأبنائه. في البداية كان لدى السلاطين عادة الزواج بالأميرات المسلمات والمسيحيات، أكثر من واحدة في الوقت نفسه، لكن دون أن يجمعوا بين أكثر من أربع معاً. كان آخر سلطان تزوج بهذا الأسلوب هو محمد الفاتح، وبالرغم من أن سلطانين آخرين جاء بعده في النصف الأول من القرن السابع عشر قد تزوجا فتيات من عامة المسلمين - وكانت إحداها جارية معتقة - فقد تخلى من خلفوهم عن عادة الزواج برمتها. لم يضع القانون حداً لعدد الجواري التي يمكن للرجل أن يقتنيهن، ومع ذلك فقد كان السلاطين يقيّدون

(1) كلمة عربية تعني «بين».

أنفسهم بأربع حسب القاعدة⁽¹⁾، ومع أنهم تخلّوا عن عقد الزّواج فقد كانوا يعاملونهن كزوجات شرعيات، وكنّ يُعرفن باسم القادن⁽²⁾ *Kadins* وتشكلن الطبقة العليا من العنصر الأنثوي في قسم الحريم. كان لكل واحدة منهن شققها الخاصّة وفئة تعمل على خدمتها، ولم تكن إحداهن ترى نظيراتها إلا في المناسبات الرّسمية، وكنّ يتفاوتن في الرّتبة حسب ترتيبهن: الأولى، الثّانية، الثّالثة، ثم الرّابعة⁽³⁾، وتتمتّع كل واحدة منهن بدخل يتفاوت أيضاً حسب أسبقيتها.

ومن الطّبيعي أن تزداد منزلة القادن إذا ولدت أبناءً للسلطان، فإن ولدت غلاماً كانت مكانتها أكبر ممّا لو ولدت فتاة، وكانت النّساء اللاتي تنجحن بذلك تسمى: خاصكي سلطان⁽⁴⁾ *Hâşşekî Sultân* وتقارب بذلك منزلة السلطانة⁽⁵⁾ - وهو اللّقب الذي يعطى لبنات العائلة الملكية - بينما تدعى من تلد بنات فقط بخاصكي قادن *Hâşşekî Kadın* وقد يعلو شأن القادن عندما تصبح أمّاً للسلطان⁽⁶⁾ (*Vâlîde Sultân*) إذ كان السّلاطين يعاملون أمهاتهم باحترام شديد، وكان من عادة أولئك السيّدات أن

(1) كان ذلك على الأقل في الأيام اللاحقة، أما السّلاطين الأوائل فيقال إن بعضاً منهم كان لديه أكثر من ثلاثمئة جارية خلال فترة حكمهم؛ وكان لدى مراد الثّالث ما لا يقل عن 130 ولداً نتيجة لإسرافه الزّائد. وإذا اتخذ السّلاطان جارية من الغديكلي *Gediklis* دون أن يرفعها إلى مرتبة القادن، كانت تُعرف باسم خاص أوضه لك *Hâşş Odalık* أو إقبالة *İkbal*. وكلمة *Odalisk* هي تحريف لكلمة أوضه لك التي تعني الخاصّة بالغرفة، وإقبالة من العربية إقبال أي الحظ الحسن (دوسون).

(2) العبارة *Kadın* كلمة تركية تعني امرأة.

(3) وتدعى باللغة التّركية، كما في كتاب عثمان بك «النساء في تركية»: *Büyük, İkinci, Or-tanca, Küçük* (بُيُوك، إِيكْنَجِي، أَوْرْتَنْجِه، كُوچُوك) أي الكبرى، الثّانية، الوسطى، والصّغرى.

(4) مشتقة من العربية «خاص» ثم انتقلت إلى الفارسية *Hâşşagi* وتعني الصّفة المميّزة ومن هنا جاءت صفة «التميز» أو «المفضل». وتبدو الكلمة التّركية مجرد لفظ خاطئ بسبب التّباس الكتابة العربية. كما أنها قد استخدمت أيضاً للدّلالة على فئات من الجنود العثمانيين.

(5) يدعى السّلاطين عادة بالبادشاه *Pâdişâh*. وعندما تستخدم لفظة السّلاطان تأتي قبل أسمائهم مثل: سلطان أحمد، سلطان سليم، أما الأميرات فيأتي اللّقب بعد أسمائهن مثل: خديجة سلطان، عصمت سلطان. أما الكلمة العربية فلا تعود على شخص بل تعني التّفوذ والسّلطة.

(6) أي الأميرة الأم، من كلمة «والدة» العربية.

يصدرن أوامرهن مباشرة لكبير الوزراء. أما فيما بعد فقد أصبحت غالبيتهن مجهولات بسبب ندرة نجاح الابن في تولّي عرش أبيه. وكانت القادن التي ولد ابناً للسلطان تنقل عندما يملأها السلطان من السراي الجديد إلى السراي القديم⁽¹⁾، ولم تكن إحداهن لتعود إلا بعد أن يسعدها الحظ باعتلاء أحد أبنائها للعرش.

بعد القوادن هناك أربع فئات من الجوّاري تسمى أعلاهن *Gediklis* (أي المفضلة)⁽²⁾، ومن بينهن يتم اختيار القوادن، وكذلك سيدتين قيمتين على قسم الحريم تدعى الأولى السيدة المشرفة⁽³⁾، وهي مسؤولة عن الانضباط، والثانية هي مساعدتها ونائبتها وأمينة الخزانة⁽⁴⁾، وهي مسؤولة عن المال وإدارة إنفاقه. كانت المفضلات (الغديكلي) *Gediklis* يقمن على خدمة السلطان بأنفسهن، ومهامهن تشبه وظيفة وصفاء الجناح الخاص الذين سنتكلم عنهم لاحقاً، بينما تخدم النساء الأدنى مرتبة⁽⁵⁾ والدّة السلطان والقوادن وأطفالهن. أما الفئة الثالثة فتتألف من «التلميذات»⁽⁶⁾ أي الجوّاري الصغيرات القادمات حديثاً اللواتي تم تدريبهن على فنون القراءة والكتابة والخياطة والتطريز والموسيقى والرّقص حتى يتمكن من ملء المراكز الأعلى عندما

(1) كان السراي القديم بناءً بيزنطياً قام محمّد الفاتح بترميمه واستخدمه بعد الفتح مباشرة. ثم بنى السراي الجديد في عام 1468. انظر «عطا» ج 1 ص 39، 56. إذ يقول: وكان يشمل أبنية موجودة قبلاً وأصبح يُعرف بطوب قايى سراي. أما السراي القديم فأقيمت فيه جامعة إسطنبول الحالية. ولغاية عهد سليمان العظيم كان السلاطين يقسمون وقتهم بين القصرين عندما يكونون في العاصمة. وبعد ذلك اتخذوا من السراي الجديد مقراً دائماً لإقامتهم. عطا ص 57.

(2) العبارة *Gedik* كلمة تركية تعني الثغرة أو الفجوة فأصبحت تستخدم للدلالة على التميز، وستمر معنا هذه الكلمة بمعانيها المختلفة.

(3) كاخية قادن *Kâhya Kadını*.

(4) وتدعى خزينة دار أسطه *Hazîne-dâr Ustâ* من العربية «خزينة» مع النهاية الفارسية «دار» أي الإدارة، وكلمة أسطه فارسية أيضاً وتعني السيد، ومن هنا أيضاً كلمة أستاذ *Ustâd* وتعني المعلم.

(5) وتدعى الأسطه *Ustâ*.

(6) من الكلمة الفارسية *Sâgird* شاگرد وتستخدم للجنسين معاً.

تقتضي الحاجة. وتتألف الفئة الرابعة من الجواري⁽¹⁾ اللاتي نادراً ما يترقين في الرتبة، أما نساء الفئات الأعلى فكنّ يرتقين تدريجياً من فئة إلى أخرى.

طبقاً لقواعد الشريعة فيما يتعلق بالرق، تُعدّ كل نساء الحريم أجنيبات. ولغاية القرن السابع عشر كان العديد منهن أسيرات أوروبيات: وبهذا كانت السلطانة روكسلانا، القائد الشهيرة لسليمان العظيم، روسية الأصل، وكانت والدّة محمّد الثالث إيطالية من البندقية، والدة الأخوين مُراد الرابع وإبراهيم يونانية⁽²⁾. ومنذ نهاية القرن السادس عشر كان معظمهن يُجلبن من بلاد القوقاز لأن نساء تلك المناطق جميلات من جهة، ومن جهة أخرى لأن قومهنّ دخلوا طوعية في تجارة الرقيق المربحة. إذن كانت أغليبيتهن تشتري للعمل في خدمة القصر وذلك عن طريق مفتش الجمارك في العاصمة، فيدخلن قسم الحريم في سن العاشرة أو الحادية عشرة. أما الأخريات فكن يُقدّمن كهدية للسلطان من قبل الضباط الأثرياء وغيرهم بعد أن يتم تدريبهن على الأعمال المختلفة⁽³⁾.

وعقب ذلك كانت أغلبية السيدات اللاتي يعملن في قسم الحريم يغادرنه في النهاية، إذ أن القانون والعادات الإسلامية، كما سبق أن ذكرنا، تأمر بفضيلة إعتاق العبيد، وبناء على هذا كان السلاطين يهبون الحرية لعدد ممّن في قسم الحريم فيصبحن بذلك مؤهلات للزواج. وبعد موت السلطان كانت القوادن اللاتي لم ينجن أولاداً يُمنحن الحرّية أيضاً، وبالرغم من مغادرتهن للحريم فقد كن يتابعن تردّدهن هن والأخريات عليه، وكان أولو المآرب يطمحون للزواج منهن لنفوذهن داخل القصر. وبما أن السلاطين في الأيام الأخيرة استسلموا لحياة الدعة والراحة، فقد كانت قراراتهم متأثرة كثيراً بمن حولهم من الرجال والنساء، وكانت كلمة واحدة من القائد تكفي غالباً لصنع الأعاجيب، وقد تكون تلك القوادن مدفوعة من قبل زميلاتهن الأقدم منها.

(1) وتدعى الجارية *Câriye* من فعل «جرى» بالعربية: وهي فتاة صغيرة نشيطة؛ ويستخدم اللفظ للزق فقط.

(2) انظر الموسوعة الإسلامية «الحريم»، «مُراد الثالث»، «محمّد الثالث» و«Kösem».

(3) دوشون ج 7 ص 63-64؛ وليبير ص 57.

لقد وصل تأثير النساء على الشؤون العامة إلى أوجه في عهد السلطان غريب الأطوار إبراهيم، ومن خلال ذلك تمكنت بعض النساء من الحصول على حكومة الأقاليم التي كنّ يدرنها من خلال نواب عنهن دون أن يرينهم. ولم يكن يُسمح لأي منهن، بدءاً بالقوادن وانتهاء بالخدامات، بالخروج من حدود القصر إلا عندما يرافقن السلطان لزيارة أحد القصور الصيفية الصغيرة. وفي الواقع لم يكن يخرجن عن حدود قسم الحريم ذاته، بل كن يحصلن على إذن خاص من السلطان للتنزه في حدائق القصر؛ مع اتخاذ كل الاحتياطات حتى لا تقع عين غريبة عليهن.

كانت جدران قسم الحريم تضم عدداً من الباحات المكشوفة والحدائق الصغيرة، وكان للسلطان جناح خاص في وسطه يضم غرفة نوم وقاعة استقبال واسعة يؤدّي فيها واجباته الدينية ويسامر قريباته المتزوجات. وقد كان له وللقوادن والمشرفة وأمانة الخزانة حمّامات خاصّة منفصلة، بينما كانت بقية النسوة يستخدمن حمّاماً مشتركاً. كان الحريم في الواقع كالقرية الصغيرة، وكان السلطان يُعامل فيها باحترام غير عادي. كان من أصول الأدب ألا ترفع أي من السيدات نظرها إليه ما لم يدعُها، وعندما كان يقترب كن يتوارين عن الأنظار. من أجل ذلك كان السلطان يلبس خفّين بنعلين من الفضة حتى يُسمع وقع خطواته عندما يسير على الممرّ الرّخامي⁽⁴⁾.

كانت مهمّة حراسة قسم الحريم وشؤونه تقع إلى حدّ ما على عاتق الخصيان. ومنذ بداية القرن الخامس عشر⁽⁵⁾ حتى نهاية القرن السادس عشر كان الخصيان الموكلون بهذا المهام من البيض ومعظمهم من القوقازيين كنساء الحريم أنفسهن. وفي عهد مُراد الثالث - وهو العهد الذي شهد نقطة تحول في مصير الإمبراطورية - سلّمت

(4) إن معظم تفاصيل قصص الحريم مستقاة من كتاب دوسون ج 7 ص 62 وما يليها، فقد حصل على هذه المعلومات من أزواج الجوّاري اللاتي مُنحن الحرية وتزوجن. وقد كلفته استفساراته عن الموضوع عناء كبيراً وهدايا كثيرة تفوق ما كلفه باقي عمله (انظر ج 7 ص 85، الحاشية). أما روايات هامر في كتابه ص 63 وما يليها فهي تفتقد إلى الكثير من التفاصيل الدقيقة.

(5) تبعاً لتاريخ عطا ج 1 ص 34، 36 فإن مُراد الثاني (1421-1451) هو أول من وظف الخصيان البيض للعمل في حراسة الحريم. واستشهد بهذه الفقرة أحمد راسم ج 2 ص 273، الحاشية.

المناصب الثلاثة العليا لأول مرة لخصيان زنوج، وبالرغم من أن البيض قد احتفظوا بنفوذهم لبعض الوقت، فقد أصبحوا منذ عهد السلطان التالي ومن تلاه خاضعين للسود بل إنهم في بداية القرن الثامن عشر أجبروا على الخضوع لسلطة رئيس الوصفاء. في هذا الوقت، أي في عهد السلطان أحمد الثالث (1703-1730) كانت هناك محاولة من كبير الوزراء⁽¹⁾ لإبطال استخدام الخصيان في القصر على العموم، فقام بإصدار أوامره إلى مصر بضرورة إيقاف الإخصاء وتقديم العبيد السود للسلطان. ولكن بعد موت الوزير كانت هناك ردة فعل من قبل الخصيان السود الذين أخذوا يمارسون سطوة غير مسبقة على السلاطين. وهكذا حتى الفترة التي تجري بحثنا فيها بقي رئيسهم المدعو آغا دار السعادة *Dârü'l-Se'âdet Ağası* وكان يدعى أيضاً بآغا البنات *Kızlar Ağası*، بقي موظفاً رئيسياً في القصر بأكمله واحتل المركز الثالث في الإمبراطورية - بعد كبير الوزراء الذي كانت اتصالاته بالسلطان تمر من خلاله، وبعد شيخ الإسلام⁽²⁾ *Şeyhü'l-Islâm* - وكان يُعد كالوزير أو الباشا ذي الأطواغ الثلاثة. أصبح الخصيان البيض يوظفون فقط للخدمة الداخلية التي كانوا يقومون بها بالفعل، بينما انتقلت مهمة حراسة الحريم إلى الخصيان السود. وعلاوة على ذلك فقد أصبح آغا البنات مسيطراً على أوقاف مكة والمدينة، وهي وظيفة كانت حتى ذلك الحين مخصصة لرئيس الخصيان البيض، مما زاد في مزايا الآغا ومكانته. وكان يساعده في هذه الإدارة موظفون في الخدمة الخارجية يخضعون له وبعض علماء الدين⁽³⁾.

في القرن الثامن عشر، كان عدد الخصيان السود العاملين في قسم الحريم يُقدر بمئتين، وكان هناك آخرون خاضعين لآغا البنات يعملون في السراي القديم داخل أجنحة الأمراء وفي خدمة الأميرات المتزوجات. كان معظمهم يصل إلى السلطان كهدايا من حكام مصر⁽⁴⁾ ويحاكيهم في ذلك حكام الأقاليم الآخرون. أما القسم الآخر

(1) هو الدّاماد چورلولی 'Alî Paşa Damad Çorlulu في عام 1716 تحديداً.

(2) انظر الفصل الثامن من الكتاب.

(3) انظر الفصل الثامن.

(4) كانوا يُختارون من بين العبيد القادمين إلى مصر مع القوافل السنوية من دارفور وسنار (انظر

فكان يتم شراؤه وكانوا يوضعون أولاً، سواء أكانوا متدربين أم لا، في حراسة أبواب الحريم ويسكنون في مهاجع بجواره. وبعد إنهاء تعليمهم يمكن أن تتم ترقيتهم في أربع رتب يحافظون أثناءها على عملهم كمعاوني حراس، وينالون الرتبة الأرفع حسب أقدميتهم. وحتى يحصلوا على الترقية قد يوظفون من قبل إحدى القوادن في قسم الحريم نفسه، إذ كان لكل واحدة منهن أن تحصل على عدة خصيان يقومون بخدمتها. أما باقي الوظائف فكانت تُشغل عن طريق الكفاءة الشخصية كما هي وظيفة الأغا نفسه. وتأتي وظيفة أمين الخزانة في المرتبة الثانية من حيث الأهمية، ويحمل صاحبها لقب الوزير كالأغا أيضاً⁽¹⁾.

ب. الخدمة الداخلية

نكتفي بالكلام عن الحريم ونتقل إلى القسم الثالث من القصر التابع لسلطة الوصفاء والخصيان البيض. قد ترك كلمة الوصفاء انطباعاً بأن الأشخاص الذين نطلقها عليهم هم من اليافعين؛ وفي الأيام الأولى كان الوصفاء الأقدم نادراً ما يتجاوزون الخامسة والعشرين من العمر⁽²⁾. أما لاحقاً، بعد التخلي عن نظام الدوشيرمه في القرن السابع عشر، فقد تم التخلي أيضاً عن النظام الذي كان يفرض على الفتيان الترقى إلى مناصب في الخدمة الخارجية، في الجيش أو الإدارة، وأصبح الوصفاء الأقدم رجالاً بعمر

الفصل السادس من الكتاب. وكان إخصاء الصبية الصغار منهم في أبو تيج بالقرب من أسوان، وكان من يجرون العمليات هم من القبط إذ أن الإخصاء كان محرماً في الإسلام (انظر جيران ص 632).

(1) انظر عطا ج 1 ص 159، 37، 160، 257 وما يليها؛ ودوسون ج 4 ص 54-56، 58، 61. تختلف روايات هؤلاء الكتاب بشأن انتقال السلطة في قسم الحريم من الخصيان البيض إلى الخصيان السود بتفاصيل معينة، وقد أخذنا برواية عطا. انظر الملحق الثاني لمزيد من التفاصيل حول تنظيم الخصيان.

(2) انظر ليبير ص 78 نقلاً عن Postel. وكان من عاداتهم البقاء في أي منصب يحصلون عليه مدة سبع سنوات. انظر دوسون ج 7 ص 53.

السّتين أو أكثر⁽¹⁾. وفي تركية كان الوصفاء يُعرفون باسم أغوات الدّاخل⁽²⁾ *İç Ağas* أي العاملون في الخدمة الدّاخلية للقصر السّلطاني، والاسم الجديد لهم هو أندروني هُمَايون⁽³⁾ *Enderûnı Hümâyûn*.

سبق أن ذكرنا أن الخصيان البيض كانوا يحرسون الحريم، لكن في البداية كانوا مسؤولين عن الوصفاء؛ وبهذا نجد أن الوظائف الأربع الأدنى من وظائفهم الخمس الرّئيسية في القرن السّادس عشر كانت متطابقة مع الأقسام الأربعة التي قسمت وفقها الخدمة الدّاخلية. كان أدنى هذه الأقسام مكوناً من غرفتين تسميان «الكبرى» و«الصغرى»⁽⁴⁾. أما الأخرى التي تفوقها أهمية فكانت تسمى «مخزن الطّعام الخاص»⁽⁵⁾ و«الخزينة الملكية»⁽⁶⁾ و«الغرفة الخاصّة»⁽⁷⁾، وكان لكل منها مشرف من هؤلاء الخصيان البيض يساعده عدد من الخصيان الآخرين⁽⁸⁾.

كان رئيس الخصيان البيض يدعى إما آغا باب السّعادة *Bâbü's-Se'âdet Ağası* أو ببساطة آغا الباب⁽⁹⁾ *Kapı Ağası*. ولغاية استبداله بمنافسه الأسود كان بلا شك مسؤولاً بشكل واسع عن شؤون الحريم. ولكن حتى بعد تناقص مرتبة البيض كان صاحب الباب يملك مجموعة تعمل تحت إمرته عددها من ثلاثين إلى أربعين من صبيان الباب

(1) انظر عطا ج 1 ص 162، 208.

(2) عليّ أن أذكر أن المؤلفين يستخدمان أداة الجمع الإنكليزية s مع الكلمات التركية، كقولهم هنا: *Ağas* (الأغوات)، وهذا ما يجعل الكلمات التركية تبدو غريبة جداً، وأداة الجمع في التركية: لر، مثال: *Ağalar*. لكنني تركت العبارات على ما هي عليه. (أحمد)

(3) من الكلمة الفارسية *Āndārûn* أي داخل أو ضمن.

(4) بالتركية: *Büyük ve Küçük Odalar* وكانت تدعى في البداية *Eski ve Yeni Odalar* (أي الغرفتان القديمة والجديدة)، وكانت بالمستوى نفسه، انظر ليبير ص 78 نقلاً عن رامبرتي.

(5) بالتركية: *Kilâri Hâşş*.

(6) بالتركية: *Hazînei Hümâyûn*.

(7) بالتركية: *Hâşş Oda*.

(8) انظر الملحق الثّاني.

(9) العبارة *Bâb* هي اللفظة العربية لكلمة باب، أما الكلمة التّركية فهي *Kapı* قايى.

Kapı Oğlanı بينما كان من يتولّى إدارة القسم الأدنى مشرفاً على أربعين حارساً من الخصيان الآخرين⁽¹⁾. كانت الأقسام الأربعة تُعرف أيضاً باسم المهاجع *Koğuş* إذ كان كل الوصفاء والخصيان البيض يبيتون فيها باستثناء المسؤولين الأساسيين عن الغرفة الخاصّة، الذين كان لكل منهم جناحه المستقل⁽²⁾. كان كل عشرة من الوصفاء يسكنون مهجعاً ويرأسهم أحد الخصيان البيض⁽³⁾.

يبدو أن الخدمة الداخليّة قد نظمت بهذا الشكل من قبل محمّد الفاتح⁽⁴⁾ لكن يبدو أن سليماً الأول قد أجرى عليها تعديلات كثيرة بعد فتحه لسوريا ومصر، وقد أولى الغرفة الخاصّة أهمية أكبر بتشكيل وُصفائها ضمن حرس شرف لحماية عباءة النبي وغيرها من الآثار المكرّمة التي أتى بها السلطان من مكّة إلى إسطنبول بعد إخضاعه لمنطقة الحجاز⁽⁵⁾.

بعد اجتياز فترة التدريب البدئية في عدة كليات، وكان أهمها سراي غلطة⁽⁶⁾ التي أنشأها والد السلطان سليم السلطان بايزيد الثاني، كان الإيچ أوغلان *İç Oğlans* يُقبلون كمتدربين في الغرفتين الكبرى والصغرى حيث يستكملون تعليمهم⁽⁷⁾ الذي كان يتم بواسطة أساتذة زائرين⁽⁸⁾ *Hocas* خوجه لر من الخصيان البيض⁽⁹⁾ والوصفاء

(1) أحمد راسم ج 1 ص 184-185، الحاشية.

(2) تبعاً لدوتون ج 7 ص 49. يقول هامر ص 12 إن آغا الباب هو وحده من يملك مسكناً مستقلاً.

(3) عطا ج 1 ص 34، 160.

(4) انظر الملحق الثاني.

(5) عطا ج 1 ص 30، 73 وما يليها، 94، 98.

(6) المصدر السابق ص 72 وما يليها. وكانت مراكز التدريب الأخرى هي القصر القديم في أدرنه وقصر إبراهيم باشا الذي أسسه السلطان سليمان في موضع مسجد السلطان أحمد. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «أدرنه»؛ ودوتون ج 7 ص 47؛ وعطا ج 1 ص 112.

(7) عطا ج 1 ص 137.

(8) من الكلمة الفارسية خواجه *Hwācā*، المصدر السابق ص 75.

(9) المصدر السابق ص 160.

الذين وصلوا إلى سن الثلاثين وإلى مستوى من الاحتراف⁽¹⁾. وعندما يكتمل تعليمهم كانوا يسلمون وظائف في القسم الأدنى ثم يترقون، إما بحسب الأقدمية أو بفضل ما يظهرونه من مواهب، إلى غرفة الطّعام أو الخزينة الملكية، وقد يتقلون مباشرة إلى الغرفة الخاصّة.

كانت الغرفتان الأولى والثانية تختصان بتقديم وجبات السّلطان وتأمين مصروفه الشخصي، تمييزاً لها عن خزينة الدّولة. أما الغرفتان الكبرى والصّغرى فقد حوّلتا في القرن السّابع عشر إلى قسم رابع يُعرف باسم غرفة الحملات⁽²⁾ Campaign Chamber إذ عمل بعض أفرادها في خدمة تنظيف وكّي ملابس السّلطان أثناء الحملات العسكرية. وكانت تتضمّن أيضاً الحلاقين ومن يقومون بلفّ العمام والموسيقيين. ويبدو أن هناك الكثير من الوظائف التي أوكل بها الوصفاء في كل الأقسام وسنذكر بعضاً منها في فصول لاحقة⁽³⁾.

من بين وصفاء الأقسام السّفلى كان هناك من يشغلون وظائف ذات ألقاب مميّزة؛ أما الباقي فكانوا مقسمين إلى درجتين أو أكثر؛ وكان لكل قسم كاخية *Kâhya* يعمل تحت إشراف الخصيان البيض ويُعيّن من قبل الغرفة الخاصّة. كان بعض أولئك الوصفاء يقومون بخدمة رؤسائهم وذلك بصنع القهوة وإشعال الغليون وإيصال الرّسائل.. إلخ؛ بينما كان الآخرون، كالخدم الأربعين⁽⁴⁾ الذين يعملون بإمرة وصيف الغرفة الخاصّة، على اتصال مباشر بالسّلطان على الرّغم من مركزهم المتواضع. وكانت الخدمة الداخليّة تتضمّن أيضاً عدداً من الخرسان والأقزام العاملين في الأقسام الأربعة،

(1) المصدر السابق ص 138، 139. وكان هؤلاء الوصفاء يُعرفون باسم لالا *Lalas* كالخصيان السود المذكورين في الملحق الثّاني. وكان الجدد منهم يتعلمون آداب السّلوك والقراءة والكتابة والأمور العسكرية لكن كان الموهوبون منهم يُختارون بعناية ليتم استخدامهم في الوظيفة المناسبة. انظر ليسيير ص 76 وما يليها، وقد اعتمد في روايته على منافينو وريكو.

(2) بالتركية: *Seferli Odası*.

(3) انظر الملحق الثّاني، «الغرف السّفلى».

(4) بالتركية: *Çokadârs*، انظر الملحق الأول.

وكانوا يُستخدمون في إيصال الرسائل بالإضافة إلى أن الخرسان كانوا يقومون بخدمة السلطان أثناء المقابلات السرية⁽¹⁾.

كان طاقم الغرفة الخاصة مؤلفاً من أربعين وصيفاً يدعون خاص أوضه لي *Hâşş Odalı*، وقد كانوا تبعاً لبعض الروايات، حراساً لبردة النبي وأن عددهم قد وصل إلى الرّم الميمون «أربعين» بعد انضمام السلطان بنفسه إليهم⁽²⁾. كانوا يقومون بخدمة السلطان في الأقسام التي تُعرف باسم «ما بين» ولذلك كانوا يلقبون بالمابين جية *Mâ-beyncis* وكانوا أفضل خدم شخصيين للسلطان يحلقون له شعره ويلبسونه ثيابه ويقدمون له الطعام، وهكذا. لغاية القرن السابع عشر كان هؤلاء يعملون تحت إمرة رئيس الوصفاء الذي أشرنا إليه سابقاً ويدعى آغا السلخدار، أو حامل السيف. ولكن في عهد السلطان أحمد الثالث، عندما جرت محاولة من قبل رئيس الوزراء لإيقاف توظيف الخصيان في القصر، أعيد تنظيم أمور الخدمة الداخلية جزئياً، وارتفعت وظيفة حامل السيف (التي كان الوزير يشغلها سابقاً) إلى منزلة لم تُعرف من قبل. ولقد تلت وفاة هذا الوزير ردة فعل لصالح الخصيان السود، ومنذ ذلك الوقت حلّ حامل السيف محلّ رئيس الخصيان البيض كمسؤول عن الخدمة الداخلية بأكملها وأعفي وصفاء الغرفة الخاصة الذين يلونه مباشرة من القيام بوظيفة المابين جية وأصبحوا نائبين عنه⁽³⁾. كما تم استبدال الخصيان البيض الذين كانوا يشرفون على الأقسام الأربعة سابقاً، وأصبح كواخية الغرف السفلية مسؤولين عن أمور الإدارة الخاصة بحامل السيف؛ بينما أوكلت مسؤولية الغرفة الخاصة إلى أحد أفراد الخاص أوضه لي *Hâşş Odalı* الذي يدعى آغا المفتاح⁽⁴⁾.

(1) كان الخرسان يدعون *Dil-siz* ديل سز (أي دون لسان) ويدعى الأقرام *Ciice* (جوجه). انظر عطا ج 1 ص 171-172؛ ودوسون ج 7 ص 46-47.

(2) يذكر دوسون أن الخاص أوده كانوا تسعة وثلاثين وصيفاً ويكمل السلطان العدد للأربعين؛ أما عطا فيذكر أن عدد الوصفاء كان أربعين دون السلخدار، بغض النظر عن السلطان نفسه، انظر الملحق الثاني. ويقال إنه كان لدى السلطان محمد الثاني اثنان وثلاثون خاص أوده لي. انظر لبيير ص 127، حاشية.

(3) انظر الملحق الثاني.

(4) بالتركية: *Anahtar Ağası* آتختار آغاسى.

لم يعد هناك في قسم المايين أكثر من اثني عشر خاص أوضه لية، مع مساعدين من الغرف السفلى، الذين أصبحوا في مرتبة أدنى من الوصفاء الأساسيين للغرفة الخاصة. مع ذلك فقد كان اثنان منهم، هما رئيس الخدم⁽¹⁾ والسكرتير الخاص⁽²⁾، يمارسان نفوذاً لا يقل عن نفوذ حامل السيف، وذلك لصلتهما المباشرة بالسلطان التي حصلها من خلال مهامهما.

أدت إعادة التنظيم تلك إلى تناقص نفوذ الخصيان البيض إلى أن تلاشى تماماً، فبعد إقصائهم عن قسم الحريم ظلوا محتفظين ببعض المهام التفتيشية في مؤسسات دينية مختلفة وبالإشراف على الوصفاء؛ أما الآن فقد حُرِّموا من هذه الوظائف أيضاً. لكن مناصبهم بقيت كما هي، فلا يزال هناك قايى آغاسى مع أغوات يتصلون بغرف القصر، لكن مهامهم كانت تنحصر في مراقبة طعام الوصفاء وتعليم الوافدين الجدد⁽³⁾. وبهذا أوكل بغلطة سراي لأحد الخصيان، وكما كان الأمر في السابق فإن صاحب هذا المنصب قد أصبح قايى آغاسى⁽⁴⁾.

لقد أغلق غَلْطَة سَرَاي وأعيد فتحه عدة مرات خلال فترة قرنين من الزمان⁽⁵⁾، وكان

(1) بالتركية: *Baş Çokadâr* باش چوقدار.

(2) بالتركية: *Sirr Kâtibi* سرّ كاتبى.

(3) انظر الملحق الثاني.

(4) عطا ج 1 ص 81، 160-162، 164-165.

(5) فيما يخص التقلبات التي حدثت في غَلْطَة سَرَاي انظر عطا ج 1 ص 78-80:

أنشئ من قبل بايزيد الثاني

أغلق من قبل سليم الثاني، 1566-1574

أعيد فتحه من قبل مُراد الثالث، 1574-1595

أغلق من قبل أحمد الأول، 1603-1617

أعيد فتحه من قبل عثمان الثاني، 1618-1622

أغلق في عهد محمد الرابع، 1648-1687، من قبل كوبرلى محمد پاشا

أعيد فتحه من قبل أحمد الثالث، 1703-1730

جرى ترميمه وتوسيعه من قبل محمود الأول، 1730-1754.

الإيچ أوغلان *İç Oğlans* أثناء فترة إغلاقه ينتقلون مباشرة إلى غرفة الحملات⁽¹⁾. وبعد إعادة تنظيمه بقي مفتوحاً حتى الفترة التي تجري بحثنا فيها، وقد سبق ذلك توسيعه وترميمه في عهد السلطان محمود الأول، وتطور التعليم كثيراً في غلطة سراي وفي القصر نفسه. لم يعد الوصفاء عندها من مجندي الدوشرمة بل من المسلمين، ومعظمهم من العائلات البارزة في العاصمة⁽²⁾، لكنهم ظلوا عبيداً اسماً. لا شك أن توظيف مثل هؤلاء المسلمين منذ الولادة بدلاً من العبيد الذين اعتنقوا الدين فيما بعد، قد أدى إلى تزايد قوة حاملي السيف أثناء القرن السابع عشر، وإقصاء الخصيان البيض نهائياً إلى المراتب الدنيا.

إذا تتبعنا ازدياد وانحسار نفوذ الخصيان البيض والسود والوصفاء على السلاطين، نلاحظ أنه لغاية الفترة التي جنح فيها السلاطين للعزلة كان للخصيان البيض المرتبة الأولى يسيطرون على قسم الحريم والخدمة الداخلية؛ أما عندما فضل السلاطين حياة الراحة أصبح الخصيان السود والوصفاء متفوقين على الخصيان البيض، ويمكننا أن نفترض أن نفوذ قسم الحريم قد أصبح أقوى من نفوذ الوصفاء، بما أن حارسه الخصي الأسود قد خرج من المنافسة وقد نال مرتبة حامل السيف. ففي تنافسه مع القايي آغاسي حصل على مركز حامل السيف بعد إعادة التنظيم، مما منحه حق إجراء التواصل بين السلطان ووزرائه، وزاد ذلك من أهمية منصبه كردّ فعل تجاه محاولة إقصاء الخصيان عن الخدمة، واضطر الجميع إلى الخضوع له وإظهار ذلك بتقبيل حاشية ثوبه⁽³⁾.

ج. الخدمة الخارجية

تختلف الخدمة الخارجية عن الخدمة الداخلية لأنها ليست مقتصرة على شؤون القصر، وعلى عكس أفراد الخدمة الداخلية كان أفرادها على اتصال مباشر بضباط

(1) وفي بعض الأحيان كان التلاميذ أثناء فترة إغلاقه يُنقلون إلى خيالة البولوك.

(2) جوشيروج 1 ص 166.

(3) انظر عطا ج 1 ص 161، 265؛ ودوسون ج 7 ص 54.

الجيش وموظفي الإدارة، وفي الواقع لم يكن هناك حاجز بين هؤلاء الموظفين والضباط وبين العاملين في الخدمة الخارجية. وبهذا فقد كان ترتيبهم يتعلق بأسبقيتهم في الخدمة، بغض النظر عن أنواع المهام التي يؤدونها. وفي الواقع فإن بعض المهام التي كان خدام الخارج يقومون بها لم تكن تقلّ عن الأعمال العسكرية أو الإدارية التي يقوم بها الضباط والموظفون غير المرتبطين بالقصر. ولعل منشأ هذا الاضطراب يرجع إلى أن التنظيم العسكري والإداري، باستثناء القوات الإقطاعية، كان قد تطوّر بواسطة رجال حاشية السلطان اللصيقين به.

لهذا فليس من الغريب أن نجد أن الخدمة الخارجية تضم عدداً كبيراً من الأشخاص ذوي الوظائف المختلفة. لم يكن الجميع يقيمون ضمن حدود القصر بل كان بعضهم مرتبطاً بالجيش الإنكشاري والبعض الآخر لم يكونوا من القابلي قول لرى أصلاً وإنما من علماء الدين، بينما كانت هناك مجموعات تعمل تحت قيادة أغوات الدّاخل والخصيان السود والبيض. سوف نتحدّث عن فئة علماء الدين في موضع آخر، أما البقية فسوف نتطرّق إلى ذكرهم حسب أهميتهم، مع أن ذلك الأمر لم يكن ثابتاً في كل الحالات بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر.

كان معظم الموظفين الأساسيين في الخدمة الخارجية يندرجون تحت اسم آغا الرّكاب⁽¹⁾ *Agas of the Stirrup*. ويبدو أنه كان هناك سبعة عشر من هؤلاء الأغوات في عهد محمّد الفاتح، كان تسعة منهم جنرالات في الجيش النظامي⁽²⁾. أما البقية فقد

(1) بالتركية: *Üzengi Ağaları* أو *Agayânî Rikâbî Hümâyûn*. كانت كلمة الرّكاب تستعمل بشكل مجازي ليس في العهد العثماني فحسب بل أيضاً لدى السّلاجقة للدّلالة على السلطان أو وجوده، إذ كان الحاكم في الأيام الأولى يتلقى المظالم والشكاوى على ظهر الخيل (انظر هامر ص 60)، وأطلقها العثمانيون على موكب الخيالة والجماهير التي تظهر معه. ويمكن بهذا ترجمة لقب أوزنجي آغا لرى بأغوات الحضور الإمبراطوري. كما أن اللقب قد استخدم حرفياً إذ حظي هؤلاء الأغوات بمساعدة السلطان في امتطاء جواده فيمسك اثنان منهم بالرّكاب. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «الرّكاب» والملحق الثاني للكتاب.

(2) أي آغا الجيوش الإنكشاريّة وقادة التقسيمات الست للخيالة النظاميين بولوك آغا لرى (*Bölük Ağaları*) والطويجي باشي والجبّه جي باشي.

فقدوا رتبهم، ما عدا أربعة منهم، بحلول القرن الثامن عشر بينما رُقي ضابط آخر إليها، وبهذا أصبح عدد أغوات الرّكاب خمسة⁽¹⁾، باستثناء الجنرالات. كان الأربعة الذين احتفظوا بمناصبهم منذ البداية هم حامل العلم (مير عَلم) *Mir 'Alem*، وقائد الخيل الأكبر والأصغر (يُيوك وكچوك مير آخور لر) *Büyük ve Küçük Mir Ahorlar*، ورئيس حراس الباب (قاييجي لر كاخية سي) *Kapıcılar Kâhyası*. أما الموظف الإضافي فهو البوستانجي باشي *Bostancı Baş*.

بالإضافة إلى مسؤولية حامل العلم عن العلم الإمبراطوري وشعار السلطان ذي الأطواغ الستة أو ذيول الخيل، فقد كان يقدّم شعارات مشابهة للحكام الإقليميين لدى تعيينهم، كما كان مسؤولاً عن الفرقة العسكرية للقصر⁽²⁾ وفي الفترة الأخيرة أصبح قائداً لفيلق مهم من الرّسل الخاصين الذين يدعون لأسباب تاريخية حراس الباب الرئيسيين⁽³⁾ *Kapıcı Baş* (قاييجي باشي).

كان القائد الأكبر للخيل يقود كل أفراد الإصطبلات الإمبراطورية ويسيطر على المراعي الإمبراطورية على جانبي البوسفور، وكان عساكر الفوينوق يأترون بأوامره. أما القائد الأصغر، بالإضافة إلى مساعدته في قيادة الإصطبلات، فقد كان من مهامه تزويد وصفاء الدّاخل بحيوانات حمل المتاع والاعتناء بالعربات الإمبراطورية⁽⁴⁾. وكان رئيس حراس الباب مسؤولاً عن حراسة بوابات القاعة الوسطى والثّانية في السّراي، وكان يعمل أيضاً كرئيس للمراسم في اجتماعات الدّولة التي تدعى الدّيوان الإمبراطوري، يساعده موظف آخر كان مثله في الأيام الأولى آغا ركاب، ثم لم يعد كذلك بحلول القرن الثامن عشر إذ أصبحت مهامه أكثر ارتباطاً بكبير الوزراء منها

(1) انظر دوشون ج 7 ص 14-18؛ وعطا ج 1 ص 74 الذي يوافقه على هذا العدد. مع أن عطا يضع البوستانجي باشي قبل الباش قاييجي باشي، ونحن نتبع دوشون، لكن للمزيد من التوضيح انظر الملحق الثّاني.

(2) بالتركية: *Alem Mehteris* 'علم مهترى، انظر الملحق الثّاني.

(3) انظر دوشون ج 7 ص 14.

(4) دوشون ج 7 ص 33؛ وعطا ج 1 ص 302.

بالسلطان، وأصبح اسمه المرافق العام⁽¹⁾ چاؤش باشى *Çavuş Başı*.

بالرغم من ارتقاء رئيس البوستانجية إلى مرتبة آغا الركاب، فقد ظل منصبه أدنى من منصب حامل العلم، وكان مع ذلك يتمتع بنفوذ كبير في القصر من رفاقه الآخرين، من جهة لأنه كان يقوم باستجواب الموظفين المهملين ومعاقبتهم، ومن جهة ثانية لأنه كان يقود ألفي رجل يعملون تحت إمرته ويعرفون باسم البوستانجية لأن مهمتهم كانت في البداية تحويل الأرض الوعرة المحيطة بالقصر إلى حدائق وبساتين خضراء. ولكن في الحقيقة لم يكن سوى القليل منهم يقومون بهذا العمل، بينما تحول معظمهم إلى مراقبين أو حراس للأجنحة المختلفة في القصر وبعض بوابات الأسوار المحيطة به، أو الموانئ الصغيرة حول القرن الذهبي، والبوسفور، وجزء من بحر مرمره. كان هؤلاء المتمركزون في الموانئ مسؤولين عن حركة السفن، وكانت وظيفتهم أشبه برجال الشرطة، وكان البوستانجي باشى مسؤولاً عن المنطقة برمتها ويُعد مفتشاً فيها وفي الغابات والمجاري المائية التي تتضمنها. كوان أهم قسم في فيلق البوستانجية هو قسم الخاصكية *Hâşşekîs* الذين كانوا حرساً خاصاً للسلطان، والصندلجية *Sandalcıs* أو المراكبية الذين كانوا يسيرون قواربه. أما الأقسام الأخرى فكانت مؤلفة من الحمّالين وسائسي الخيول، بينما كان رئيس البوستانجية مسؤولاً أيضاً عن مراقبة تزويد المطابخ الإمبراطورية بالدجاج والغنم وإزالة النفايات من القصر وما حوله، والإشراف على القصّاصين والبهلوانية والموسيقيين المخصّصين لتسلية السلطان وحاشيته. لكن يُشكّ إن كان الرّجال المعنيون بكل هذه الأمور من فريق البوستانجية. كان البوستانجية الأصلون يجندون، كما الإنكشارية، من العجمي أوغلان وكانوا

(1) دوسون ج 7 ص 17. وفي قانون نامه لعبد الرحمن التوقيعي (1676) يقول أثناء تعريفه لترتيب المراسم من أجل الديوان الإمبراطوري إن الجاؤش باشى *Çavuş Başı* والقايي جي لركاخية سى *Kapıcılar Kâhyası* يستقبلان أصحاب السمو وهم يدخلون القاعة الثانية في الباب الأوسط (أورطه قايى *Orta Kapı* ويقدمان خدماتهما خلال الاجتماع. وكان من مهمة القايي جي لركاخية سى *Kapıcılar Kâhyası* حمل الرسائل التي تدعى «تلخيص» *telhîş* من كبير الوزراء إلى السلطان في هذه المناسبات.

في بعض المناسبات يرافقون السلطان في حملاته لكنهم لم يكونوا أبداً من القوات المقاتلة⁽¹⁾.

بعد مرتبة آغا الرّكاب أهمية في الخدمة الخارجية يأتي خمسة من أمناء الشّركة⁽²⁾ (*Emîns*) أولهم هو أمين العاصمة (شهر أميني *Şehir Emîni*)⁽³⁾ الموكل بمهمتين هما تسجيل نفقات القصر السلطاني⁽⁴⁾ ومراقبة أبنية العاصمة وتزويدها بالمياه، يساعده في ذلك موظفون أقل رتبة من أميزهم رئيس المعمارين (معمار باشي *Mi'mâr Başî*) ومفتش المياه (صو ناظري *Şu Nâziri*). لم يكن أمين العاصمة، وكذلك الأمناء الآخرون، مجرد خادم في القصر بل كان أشبه بموظف في الإدارة المحليّة إن صحّ ذلك، إذ لم تملك إسطنبول حكومتها الخاصّة المستقلة عن البلاط وعن الإدارة المركزية إلا في نهايات القرن التاسع عشر.

كان ثاني الأمناء أمين دار ضرب النقود⁽⁵⁾ (ضرب خانة أميني *Ḍarb-ḥâne Emîni*) الواقعة في السراي غير بعيد عن الباب السلطاني. كان موظفوه مؤلفين في القرن الثامن عشر من اثني عشر أسطة وحوالي خمسمئة عامل، لكن يبدو أن المؤسسة كانت أصغر في الأيام الأولى، إذ كانت هناك دور إقليمية متعدّدة لضرب النقود ألغيت فيما بعد⁽⁶⁾.

- (1) انظر دوتون ج 7 ص 27-30؛ وليبير ص 130-131؛ والملحق الثاني للكتاب.
- (2) كلمة أمين عربية وتعني المخلص، وجمعها أمناء، وترجم الكلمة في كثير من الأحيان للدلالة على المشرف وهي التي استخدمناها لكلمة كاخية *Kâhya*.
- (3) العبارة *Şehir* من الكلمة الفارسية *Şâhr* بمعنى المدينة.
- (4) عثمان نوري ج 1 ص 1363-1364. وفيه نسخة مطبوعة عن وثيقة تعود لعام 1527 يوكل فيها أمين العاصمة بمراقبة عمليات شراء المؤن لقصر إبراهيم باشا وقصر غلطة ويورد وصفاً للمؤرخ نعيما Na'imâ عن محنة سكان غلطة سراي في عهد السلطان إبراهيم (1640-1648) بسبب عدم كفاية مخصصات أمين العاصمة. انظر دوتون ج 7 ص 225، وكذلك الملحق الثاني للكتاب.

- (5) وتلفظ بالتركية *Zarb-hane*.
- (6) أي في أدرنه التي كانت تحوي داراً لضرب النقود منذ بداية القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن السابع عشر ثم لفترة قصيرة أيضاً في عهد السلطان مصطفى الثاني (1695-1703). انظر الموسوعة الإسلامية مادة «أدرنه».

كانت نشاطات الأمين خاضعة لرقابة موظف من الخزينة العامة، لكنه كان في الأساس موظفاً من موظفي القصر السلطاني. لقد تمكن السلطان من الحصول على دخل كبير خاص من دار ضرب النقود وذلك بإرغام مستثمري مناجم الذهب والفضة والتحاس على تسليم كل إنتاجهم لدار النقود بسعر أقل بكثير من القيمة المتداولة، وكان أمين الدار يتلقى عُشر هذه الأرباح⁽¹⁾.

أما الأمناء الثلاثة الآخرون فكانوا يهتمون بأمر الطعام والمؤن. كان أولهم أمين المطبخ (*Maṭbah Emîni*) وكان الثالث مساعداً له ويدعى أمين سر التفقات الملكية⁽²⁾ (*Maşrefî Şâhriyârî Kâtibi*) ويتولى شراء الطعام للقصر، أما الثاني الذي يدعى أمين الشعير (آرپه آمینی *Arpa Emîni*) فكان ذا مسؤوليات أكبر: كان أولاً مسؤولاً عن تزويد الإصطبلات بالعلف⁽³⁾، وهو ثانياً مسؤول عن تعيين والإشراف نوعاً ما على الموظفين الذين يشترون الحبوب بأسعار ثابتة في الأقاليم لبيعوها في العاصمة⁽⁴⁾.

لم يكن ضباط الخدمة الخارجية الذين يلون الأمناء رتبة ذوي شأن، على الأقل لغاية القرن الثامن عشر. كانوا ينقسمون إلى ثلاث فئات تتألف الأولى من أربعة رؤساء للصيادين بالصقور⁽⁵⁾، والثانية من أربعة موظفين تابعين لرئيس الخصيان السود⁽⁶⁾، والأخيرة من ستة موظفين أربعة منهم يعملون تحت إمرة أمين المطابخ والاثنان

(1) انظر دوشون ج 7 ص 252-254.

(2) المصدر السابق ص 20، 195 ويدعوه ببساطة *Massraf-Schehriyari*؛ وعطاج 1 ص 290 الذي يسميه *Maşref Kâtibi*.

(3) دوشون ج 7 ص 20.

(4) انظر عثمان نوري ج 1 ص 769-770، 773. كان هؤلاء الموظفون خاضعين بشكل دقيق لرقابة قاضي إسطنبول الذي كانت الشكاوى توجه إليه.

(5) يدعون *Atmacacı Baş*، *şahinci Baş*، *Çakırcı Baş*، *Doğancı Baş* الثاني.

(6) يدعون *Pişkeşci Baş* و *Çadır Mehteri Baş*، *Hazinedâr Baş*، *Bâzergân Baş* الملحق الثاني.

الآخران في غرفة الطعام الداخلية⁽¹⁾. عدا عن هؤلاء الأفراد ومساعدتهم الكثر كان هناك حوالي اثنتي عشرة مجموعة مستقلة نوعاً ما من الرجال يقودهم ضابط أو شخص من أفراد الخدمة الداخلية أو الحريم، وهم يستحقون بعض الاهتمام.

من أبرز هذه المجموعات المستقلة أوجاق الخطّابين أو الباطّلة جية⁽²⁾ (*Baltacı*) التي تشكلت قبل فتح القسطنطينية وكان أفرادها يعملون في تمهيد الطّرقات وتجهيف المستنقعات وقطع الأشجار. ولكن بعد الفتح وعلى الرّغم من استمرارهم بالقيام بهذه المهام، كانوا يصبحون حراساً لقسم الحريم عند ذهاب السلاطين بأنفسهم إلى الحرب، وكانت المجموعة تقسم إلى فريقين، يبقى أحدهما متمركزاً عند السّراي القديم والآخر عند السّراي الجديد. وكان رئيس الخصيان⁽³⁾ يقود الفريق الأول يساعده بعض الأفراد الأقل شأنًا من إدارات المؤسسات الدّينية التابعة له. أما الفريق الثّاني فكان يقوده حامل السّيف⁽⁴⁾ رئيس الوصفاء، وكان أفرادهم يحملون اسماً غربياً هو زُلُفلى بالطّه جي لر *Zülüflü Baltacılar* لأنهم كانوا يدلّون خصلة طويلة رقيقة من الشّعر على جانبي وجوههم⁽⁵⁾. وكان رجال الفريقين كليهما مجتدين من العجمي أوغلان.

أما بقية هذه المجموعات المستقلة فلم تكن ذات أهمية، إذ كان أفرادها يهتمون بأمور تزويد القصر بالمياه وتهيئة الخراف للذّبح في عيد الأضحى⁽⁶⁾. وكانت مجموعات أخرى تتألّف من ذوي الحرف اليدوية كالخياطين وصانعي الحصر

(1) يدعون *Çaşni-gir Başı*، *'Alem Mehteri Başı*، *Ekmekci Başı*، *Kılâr Ağası*، *Aşçı Başı* و *Halvâcı Başı*؛ انظر الملحق الثّاني.

(2) من كلمة بالطه التركية وتعني الفأس.

(3) يدعى *Kızlar Ağası* قيزلر آغاسى (وهو من السّود) في الأيام المتأخّرة، بينما كان قبل ذلك من البيض ويدعى قابى آغاسى *Kapı Ağası*.

(4) السّلخدار آغا.

(5) من كلمة *Zolf* الفارسية وتعني خصلة الشّعر المتدلّية.

(6) انظر الملحق الثّاني.

والفرّاءين والإسكافيين⁽¹⁾. وتبقى الأوجاقات الأعلى رتبة لتضم أربع فرق من الحراس تدعى على الترتيب: صولاك *Solak*، بيك *Peyks*، چاؤش *Çavuşes* ومتفرقة *Muteferrikas*.

سبق أن ذكرنا حرس الصولاك *Solak* الذين يتألفون من أربع فرق هم أصلاً من رماة السهام⁽²⁾، وتتكون كل فرقة من مئة مجند قوي من أورطات الإنكشارية التي تحمل الاسم ذاته يقودها صولاك باشى *Solak Başı* ويساعده ضابطان، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أوجاق بيك *Peyks*⁽³⁾ الذي يقوده بيك باشى *Peyk Başı* لكنه أصغر حجماً يتألف من مئة وخمسين رجلاً. كانت هاتان الفرقتان هما الحرس الخاص للسلطان وبالتالي كان أفرادها يلبسون زياً موحداً فخماً. لكن مهمتهم كانت رسمية فقط فكان ستون من الصولاك *Solak* وثلاثون من البيك *Peyks* يحيطون بالسلطان في موكبه بينما يبقى أربعة من الصولاك *Solak* حاضرين دائماً في القصر⁽⁴⁾. كان الجاوشية *Çavuşes*⁽⁵⁾ يشاركون أيضاً في قيادة الموكب، وكان أوجاقهم كبيراً يضم خمسين فرقة تتألف كل واحدة من اثنين وأربعين رجلاً يقومون بحراسة القصر بالتناوب.

كان الجاوشية *Çavuşes* موظفين في القرون الأولى من الحكم العثماني كرسل ينقلون أوامر السلطان إلى حكام وقادة الأقاليم. أما في الأيام الأخيرة فقد قام بهذه المهمة موظفون آخرون وأصبحت الرسائل العادية تنقل من قبل تاتار (ططر) *Tatars* من شبه جزيرة القرم بواسطة قايجى باشى لر *Kapıcı Başis*⁽⁶⁾. وأصبح الجاوشية

(1) انظر الملحق الثاني.

(2) تعني كلمة *Solak* الأعسر من *Sol* أي اليسار بالتركية، ومن المحتمل أن الرماة كانوا يحملون القوس باليد اليسرى. قلت: هذا خطأ، فمصدر التسمية هو أنه يعلّق على عاتقه الأيسر جعبة المعدات العسكرية (طوريّه)، وما زالت لدينا في حيّ الصالحية بدمشق أسرة تُعرف محرفة بالشولقي. (أحمد)

(3) اللفظة الفارسية لكلمة رسول.

(4) انظر دوتون ج 7 ص 25-27، 33؛ وعطاج 1 ص 309؛ وأحمد راسم ج 1 ص 358، الحاشية.

(5) من أجل معنى كلمة چاؤش *Çavuş* انظر الملحق الثاني.

(6) انظر عطاج 1 ص 170 حيث يعدد أسماء الموظفين المعيّنين مؤخراً لنقل البريد: *Tatars*.

Çavuşes الآن موظفين من جهة كحراس وخدم ومن جهة أخرى وكحجاب في محاكم كبير الوزراء، وكانت مهمتهم ذات الطبيعة المزدوجة تعتمد على الوظيفة المزدوجة لقائدهم المرافق العام الجاوش باشى *Çavuş Başı* الذي أشرنا إليه من قبل، والذي بالإضافة إلى كونه مع رئيس حرس الأبواب رئيساً للمراسم، فقد كان أيضاً نائباً للرئيس في المحكمة. لذلك سنتحدث عنه بتفصيل أكبر أثناء كلامنا عن الإدارة المركزية.

تعني كلمة *Muteferrika* متفرقة أو منفصلة، ويبدو أن المقصود بها أفراد الحرس الموكلين بمهام خاصة أو متنوعة⁽¹⁾. كان عددهم في النصف الأول من القرن السادس عشر بين المئة والمئتين، لكن العدد تضاعف خلال النصف الثاني⁽²⁾. وكانت أجورهم مرتفعة ويملكون خيولاً وملابس فخمة، ولدى كل واحد منهم عدد من العبيد المسلحين على نمط السباهية النظاميين. يدعوهم الكتاب الأجانب بالحرس النبيل للسلطان ولم يكونوا يفارقونه أبداً أثناء الحملات ولا يقومون بمهام عسكرية سوى في هذه المناسبات. ولم يكن يُقبل في هذه الفرقة سوى الخاص أوضه لي أبناء القايى قول لرى البارزين، وبشكل استثنائي أقرباء الحكام التابعين للدولة كالهوسبودار *Hospodars*.

كانت فرقنا الجاوشية *Çavuşes* والمتفرقة *Muteferrika* تقسمان إلى طبقتين، تتلقى الأولى رواتب من خزانة الدولة بينما تعيش الثانية على الإقطاعات. في البداية

Kız-bekcis, Hâşşekîs, Muteferrikas, Za'îms, Sıltıhşûrs, Kapıcı Başıs, Baş Kapıcı Bostancı Başıs, Mir 'Alems, Kapıcılar Kâhyası, Mir Ahors من المحتمل أن الموظفين المهمين كالأربعة الآخرين كانوا يُرسلون في المهمات الخطيرة. والسلاحشور *Sıltıhşûr* هو اسم آخر للسباهي النظامي.

(1) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «متفرقة».

(2) انظر ليبير ص 129. وحسب تسنكايزن ج 3 ص 181-182 كان عددهم مئة أثناء الفترة الأولى من عهد السلطان سليمان؛ وبين 250 و300 أثناء الفترة الثانية؛ وبين 400 و500 في عهد السلطان سليم الثاني.

كانت الثانية أقل منزلة من الأولى، لكن بازدياد أهمية كبير الوزراء الذي كانت الفئة الثانية مرتبطة به، أصبح أفرادها متفوقين على رفاقهم ذوي الرّواتب. وكان لفرق «المتفرقة» الإقطاعية قائد مستقلّ هو متفرقة باشى *Muteferrika Başı*.

4. سلاح البحرية العثماني

لم ترث الدّولة العثمانية أيّة تقاليد بحرية من أسلافها، فقد قامت كل من دولة السّلاجقة العظمى وفرنسا في قونية بإرساء قواعد حكمهما عن طريق الحرب البريّة فقط؛ وعلى الرّغم من أن أراضيهم كانت تشمل بعض المناطق السّاحلية، فقد فتحوها بطريق التّقدّم من الدّاخل. وإن بعض السّلالات الحاكمة الصّغيرة التي قويت شوكتها في نفس الفترة كالعثمانيين، والتي تسكن المناطق السّاحلية في آسيا الصّغرى، قد انغمست في أعمال القرصنة والغارات على جزر وسواحل بحر إيجه. لكن العثمانيين لم يفعلوا ذلك إذ كانت أراضيهم الأصليّة واقعة في الدّاخل، مع ذلك فعندما نجحوا في شق طريقهم إلى البحر عبر المركز الأساسي لحكومتهم فقد اختاروا توسيع رقعتهم بالاستمرار بقتال مسيحيي أوروبا بدلاً من قتال أبناء دينهم في آسيا، وبذلك اضطروا إلى عبور المضائق بواسطة السفن التي استأجروها من اليونانيين. لم يبدأ العثمانيون في بناء سفنهم الخاصّة إلا بعد قرن من الزّمان، واستخدموها لدعم فتوحاتهم الواسعة التي قاموا بها في تلك الآونة.

كانت إمبراطورية الصّرب التي تمّت معظم الفتوحات في أراضيها تعتمد حصراً على جيوشها، ولهذا تمكن العثمانيون من الإطاحة بها دون اللّجوء إلى السّلاح البحري، وكذلك عندما هزموا فيما بعد ممالك فالاخيا (الافلاق) ومولدافيا وهنغاريا وغيرها من القوات التي تعتمد على الجيوش البرية. أما بالنسبة للبيزنطيين فالأمر مختلف إذ طالما امتلكوا أسطولاً بحرياً بسبب سيطرتهم على الكثير من الأراضي السّاحلية والجزر. وقد بقي هذا حالهم، وإن كان بشكل أقل، حتى بعد استعادة أباطرة أسرة بالايولوجوس البيزنطيّة *Palaeologi* للحكم بالرّغم من تضاؤل الأراضي

الواقعة تحت سيطرتهم في تلك الفترة. لم يكن العثمانيون ليتمكنوا من هزيمة قواتهم لولا السفن التي يملكونها، وكذلك لم يكونوا ليتمكنوا من طرد البنادقة والجنوئين من مناطق الشرق التي استولوا عليها منذ سمحت لهم الحملات الصليبية بممارسة تجارتهم في المنطقة، وبما أن قوتهم كلها كانت تكمن في أساطيلهم البحرية فلم تنشأ سياسة توسيع رقعة الدولة على الأراضي الإيطالية إلا في وقت متأخر من تاريخ البندقية. وبهذا كان لا بدّ للسلطين من امتلاك سفن حربية قوية من أجل فتح جزء كبير ممّا أصبح من ضمن إمبراطوريتهم، ومن أجل المحافظة على الأراضي التي فتحوها براً.

لقد لعبت البندقية وجنوة دوراً مهماً في الفترة الأخيرة من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وكان الجنويون في فترة الحملة الصليبية الرابعة حلفاء أباطرة أسرة كومنينوس Comneni البيزنطية الذين منحوهم المستوطنات والامتيازات مقابل الخدمات التي أدوها. أمّا منافسوهم البنادقة فقد وقفوا إلى جانب الصليبيين، وكانت سفن البندقية الحربية هي التي أتاحت تأسيس الإمبراطورية اللاتينية قصيرة الأجل (1204)، وأخذ البنادقة أكثر من ثلاثة أثمان أراضي أسرة كومنينوس، وبهذا فقط تمكنوا من الاستيلاء على مناطق من الشرق. وبعد ذلك شتوا سلسلة من الحروب على الجنوئين في الفترة التي كانوا يساعدون أسرة بالايولوجوس Palaeologi على إعادة تأسيس إمارة يونانية في القسطنطينية (1261) والتي انتهت بنصر البنادقة (1380). وفي الوقت الذي أصبح به العثمانيون مؤهلين لخوض حرب بحرية، لم يكن بمقدور الجنوئين ولا البيزنطيين الوقوف في وجههم. لقد وجدوا أن العقبة الرئيسية التي تعترض فتوحاتهم في الأراضي الأوروبية والجزر المحيطة بها تكمن في البندقية.

صحيح أن بعض هذه الجزر والأماكن على القارة كانت لا تزال بحوزة ما تبقى من الإمبراطوريتين اللاتينية واليونانية، لكنها لم تكن تملك الوسيلة للدفاع عن ممتلكاتها ضد الهجوم العثماني القادم من البحر. وبهذا لم يكن العثمانيون ليتمكنوا دون سلاحهم البحري من فتح تلك المناطق، وكان ضرورياً جداً للحفاظ على أمن

الدولة العثمانية والأقاليم التي فتحتها. لم يكن أحد قادراً على الوقوف في وجه مثل هذه الحركة سوى البندقية، ويمكن القول إن الأسطول العثماني قد أنشئ خصيصاً لهزيمة البنادقة. وفي النهاية تمت هزيمة البنادقة ولم تبقَ مقاطعة في البلقان وإيجة إلا ووقعت بيد العثمانيين. وإثر ذلك استُخدم الأسطول العثماني في مغامرات أخرى بعيداً في غرب البحر المتوسط وفي البحرين الأسود والأحمر، بل وفي المحيط الهندي والخليج العربي، لكن السلطان مُراد الثاني الذي بدأ بإنشاء السفن بهدف طرد البنادقة من المناطق الساحلية في شبه جزيرة البلقان، لم يكن ليتوقع أن تصل سفنه إلى مناطق أبعد بكثير.

ربما يعود السبب في عدم وجود نشاطات بحرية قبل عهد مُراد إلى أن الإمبراطورية لا تملك سوى القليل من المناطق الساحلية التي فتحتها براً بالرغم من اتساع رقعتها بشكل سريع. ولكن بعد أن سيطر العثمانيون على معظم شبه جزيرة البلقان، بدأوا بفتح المقاطعات التركية في آسيا الصغرى التي كانت قد قويت شوكتها في تلك الفترة، لكنها لم تلبث أن سقطت بأيديهم إِمّا بالحرب البرية أو بالمفاوضات. توقفت هذه العملية بسبب غارات تيمور، ثم تمكن العثمانيون في عهد مُراد الثاني من السيطرة على معظم أملاك بايزيد الأول واتجه السلطان إلى العناية بالمناطق البحرية ووضعها في الخدمة. كان في تلك المناطق حُبٌّ للمغامرة، لكنها لم تكن من القوة بمكان بحيث تستطيع المشاركة في حروب فعلية. وعلى العموم نستطيع القول إن الحكام أنفسهم لم تكن لديهم سياسة الحرب البحرية، وإنما يعود الأمر إلى بعض الرعايا الذين بحثوا عن الكسب بواسطة أسر التجار الأثرياء، وغالباً من الكفار، وبهذا أصبح لدى السلطان عدد من الرعايا الذين برعوا في الملاحة وكسبوا عيشهم من أعمال القرصنة.

لم تكن لديهم النية في قمع تلك القرصنة إلا إذا أثرت في تجارتهم الخاصة، بل على العكس كان لوجودها الفضل في بدء التفكير بالقيام بغزوات بحرية بالإضافة إلى الحرب البرية. بدأ مُراد ببناء السفن على نفقته الخاصة لكنها كانت مكتملة فقط لتلك السفن التي غنمها من الموانئ المفتوحة حديثاً، وفي الواقع كان هذا هو ما ألهم

العثمانيين ببناء أسطولهم البحري. ولهذا فلا نعجب عندما نجد في القرن التالي أن سفن القرصنة ظاهرة بوضوح في الحملات التي شُنت تبعاً لأوامر السلطان، وظلت خبرات القرصنة هي الأفضل من أجل القيام بالقيادة البحرية. لكن الأسطول العثماني بقي بلا تميّز لتخليه عن القسم الأكبر من النشاطات لسفن القرصنة تلك. كانت الأساطيل في العصور الوسطى تتألف من جهة من سفن الحكّام، ومن جهة أخرى من سفن التّجار التي تُصادَر لاستخدامها في أوقات الحرب، وكانت تلك السفن معرّضة في كل الدّول للانغماس في أعمال القرصنة. أما سبب انتشار القرصنة في البحر المتوسط أكثر من غيره من المناطق فذلك لأنّه بحر لا ينتمي لأمة معيّنة بل هو واقع بين البلاد المسيحية والإسلامية التي كانت بينها حروب دائمة، وإن الهجوم على التّجار الأعداء يمكن أن يُبرّر بأنه عمل مشروع.

إن كان السلاطين غير قادرين على شن حروب بحرية حتى يمتلكوا بعض المناطق الساحلية، وإن كانت تلك المناطق تحت سيطرة حكام مسلمين يتحدّثون التّركية، فيمكن أن نتوقع أنه عندما يتأسّس الأسطول العثماني فإنه سيكون ذا طبيعة تركية أو على الأقل إسلامية. لكن الأمر لم يكن كذلك، بل كان على العكس نسخة من الأساطيل الإيطالية لدرجة أن كل الكلمات المستخدمة لوصف موظفيه وأجهزته كانت محرّفة عن المصطلحات الإيطالية المقابلة⁽¹⁾، وربما يعود ذلك إلى سيطرة الإيطاليين مؤخراً في الشّرق، وإن العاملين في السفن التي يملكها السلاطين الآن كلهم من المسلمين أو اليونان الذين تدرّبوا في مدارس البنادقة والجنوئين. لكن سياسة السلطان محمّد الثاني قد عملت دون شك على تقوية الأسطول أثناء إصلاحاته في عام 1261، إذ كان الإمبراطور ميخائيل السابع بالايولوجوس قد سمح للجنوئين المستقرّين في غَلطة بإدارة المقاطعة كمستوطنة مستقلة⁽²⁾، وبعد الفتح استخدمهم محمّد الثاني لمساعدته في تطوير أسطوله الخاص⁽³⁾. لم تكن طريقة تأثير هؤلاء الجنوئين أو المدة التي دامت

(1) انظر دوشون ج 7 ص 420.

(2) الموسوعة الإسلامية مادة «القسطنطينية».

(3) جوشيروج 1 ص 100.

فيها واضحة تماماً، لكن بناء السفن وأساليب الملاحة هي بلا شك الآثار الملموسة لعملهم. وكما سنرى لاحقاً فإن معظم أطقم السفن كانت مكونة بشكل أساسي من المسلحين والمجدفين بينما كان عدد البحارة قليلاً ولم يكن الجنويون يعملون سوى كبحارة، وبهذا نرى أن التماذج الإيطالية برزت في النهاية وكأنها مكسوة بصبغة تركية.



خلال التاريخ العثماني ولغاية فترة بحثنا، كانت هناك ثلاث فترات نشط فيها الأسطول شكل متميز. تلت الفترة الأولى فتح إسطنبول واستمرت حتى نهاية القرن الخامس عشر، وكانت من أبرز سماتها تحويل البحر الأسود إلى بحيرة عثمانية. تم إنجاز ذلك أولاً بتدمير الإمارات البيزنطية التي أسسها أباطرة آل كومنينوس أساساً في طرابزون Trebizond بعد إخراج الصليبيين لهم من القسطنطينية وبقيت مستقلة عن أباطرة آل بالايولوجوس، وثانياً بإخضاع خانات القرم وأراضيها. لقد أثر هذا الإنجاز في سياسة السلاطين البحرية كثيراً، فقد تمكنوا لمدة قرن من تجاهل الدفاع عن البحر الأسود، وعندما يريدون ذلك كان يكفيهم أن يركّزوا كل سفنهم في بحر إيجه.

خلال ما تبقى من هذه الفترة الأولى، استهلكت قوة الأسطول بشكل رئيسي في إخضاع الأقاليم الساحلية والجزر الواقعة داخل وحول شبه جزيرة البلقان⁽¹⁾، وتلا ذلك فترة من الركود إذ كان السلطان سليم الأول منهمكاً في حملاته ضد الفرس والمماليك المصريين، وأراد تجنب توريط نفسه في منطقة أخرى، وبهذا منع ضباطه البحريين من عرقلة حركة السفن والإغارة على سواحل البلدان المسيحية. وفي الوقت نفسه نقل مقر القيادة البحرية من مركزها الأساسي في غاليلي إلى العاصمة حيث افتتح حوضاً لبناء السفن، وبدأت عملية إنشاء سفن أضخم من كل سابقتها⁽²⁾.

(1) كانت أهم شخصية في هذه الفترة الكابتن كمال رئيس. انظر الموسوعة الإسلامية v. s.، وقد احتل الأسطول الذي يقوده كبير الوزراء غديك أحمد باشا Gedik Ahmed Paşa جزيرتين في جنوب إيطاليا عام 1480. انظر المصدر السابق مادة «أحمد باشا».

(2) انظر جودت ج 1 ص 131.

أما الفترة الثانية والأكثر تميزاً في نشاط البحرية فكانت من ترتييه، وبدأت بشكل متزامن مع طرد فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودوس (1522) الذين كانت معيشتهم المعنوية والمادية معتمدة على غارات القرصنة على السفن المسلمة والمستوطنات الساحلية. استمرت الفترة طوال عهد سليمان العظيم وعهد ابنه سليم الثاني، وكان من أبرز أفرادها خير الدين الشهير لدى الأوروبيين باسم بارباروسا. لقد كان بالفعل بطل التاريخ العثماني البحري، وكان قد بدأ عمله كقاطع طريق، وفي إحدى سفراته القرصانية استولى على الجزائر⁽¹⁾، ولما طلب المساعدة من السلطان أرسلها إليه وعيّنه في منصب بكربك *Beylerbeyi* على المقاطعة التي أضيفت إلى أملاك الإمبراطورية. وهكذا تم التأسيس بالصدفة لولايات شمال أفريقيا، فقد استولى بارباروسا على تونس⁽²⁾ وتم إخضاع طرابلس للعثمانيين على يد أحد من خلفوه في منصب «قبطان پاشا»⁽³⁾، هذا اللقب الذي منحه السلطان سليمان لبارباروسا عام 1533 ثم استدعاه إلى إسطنبول حيث كرس معظم جهده ووقته في بناء السفن وتنظيم الأسطول. وفي فترة عمله كقبطان تم فتح آخر جزر بحر إيجه⁽⁴⁾ وقام السلطان سليمان بتوقيع أول عقد تحالف لأوروبا مع بني عثمان، وذلك بالاتفاق مع فرنسا ضد الإمبراطورية، وقاد بارباروسا الأسطول الذاهب لمساعدة أسطول فرانسوا الأول

(1) وكان ذلك عام 1516 بمعاونة أخيه عروج Aruc، ومنذ بداية القرن كانت الجزائر وما حولها وقعت في قبضة الإسبان الذين أخرجوا العرب من إسبانيا واستمروا في نشاطهم الصليبي في شمال أفريقيا، وما لبثوا أن استعادوا السيطرة على الجزائر، لكن بارباروسا استولى عليها نهائياً عام 1529 وقام خلفاؤه بحرمان الإسبان تدريجياً من السيطرة على أي أرض، ما عدا وهران Oran التي احتلوها لغاية القرن الثامن عشر. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «الجزائر».

(2) كان ذلك في عام 1534 ثم فقدتها في العام التالي، وتم استعادتها عام 1569 وفقدانها ثانية عام 1573 واستعادتها عام 1574، وأخيراً أخضعت للباب العالي عام 1587. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «تونس».

(3) هو قوجه سنان پاشا Koca Sinan Paşa بمساعدة القرصان الشهير طورغود Torğud عام 1551. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «طرابلس».

(4) ما عدا جزيرة خيوس Chios أي صاقر (Sakız) التي فتحت على يد پياله پاشا Piyale Paşa عام 1565-1566. انظر جودت ج 1 ص 146.

في حصار نيس عام 1543، وكترس معظم جهوده في السنوات الأخيرة من حياته (إذ توفي عام 1546) في نهب ممتلكات الإمبراطور في إسبانيا وإيطاليا عن طريق البحر. وفي الحقيقة كان لنفوذه الكبير لدى الباب العالي الفضل في إبرام هذا التحالف الذي أدى إلى ظهور اتفاقيات استسلام أخرى، ويمكننا القول إنه هو المسؤول بطريقة ما عن إنشاء هذه الوسائل الشهيرة التي تم من خلالها تنظيم العلاقات بين الإمبراطورية العثمانية ودول أوروبا لفترة طويلة الأمد⁽¹⁾.

بينما كان بارباروسا يهدّد القوى الأوروبية في البحر المتوسط، حتى بعد وفاته، كانت السفن العثمانية تُستخدم في بعثات متجهة إلى مناطق أخرى. فبعد اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح عام 1488 استغلّوا الوقت ليضعوه في خدمة الهدفين الرئيسيين لسياستهم ألا وهما ضمان هذا الطريق قدر المستطاع للتجارة مع الشرق الأوسط والأقصى التي كانوا قد استبعدوا عن القيام بها، ولمتابعة الهجوم على الإسلام (من جهة أخرى الآن) بحيث يتمكنون من التهوّض بمملكتهم. خلال بضعة سنين من ظهورهم الأول في المحيط الهندي، قاموا بتأسيس مراكز في الساحل الشرقي لأفريقيا والساحل الغربي للهند على نفقة التجّار العرب الذين احتفظوا لفترة طويلة بمستوطنات مزدهرة في المنطقتين كليهما. وبفضل استيلائهم على سُقطرى (1506) وهُرْمُز (1515) تمكنوا من قطع الطريق مروراً بالبحر الأحمر والخليج العربي، حيث كانت تجري مبادلة البضائع القادمة من الهند والشرق الأقصى ببضائع أوروبا والشرق⁽²⁾. كان مماليك مصر وسوريا أكثر الملوك المسلمين الذين عانوا من تحويل التجارة بهذا الشكل، إذ كانت أراضيهم معبراً لطريقي التجارة معاً، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصفويين الفرس الذين كانوا مسيطرين على العراق. بالرّغم من أن البرتغاليين قد دخلوا في صلات مع الصفويين (ويعلمون أنهم أعداء ألدّاء للعثمانيين) فقد أرسلوا بعثات تقف في وجههم في السويس والبصرة. وبعد استيلاء العثمانيين

(1) لمزيد من الروايات عن بارباروسا انظر جودت ج 1 والموسوعة الإسلامية مادة «خير الدين».

(2) ديبينغ Depping ج 2 ص 266 وما يليها.

على مصر جرت محاولات عدّة على يد سليمان العظيم. فشلت هذه المحاولات لكن النتيجة الجيدة الوحيدة كانت توسيع رقعة الإمبراطورية في معظم بلاد اليمن بما فيها عدن، وفي جزء من الساحل الغربي للبحر الأحمر حيث نشأت إيالة الحبشة في وقت ما من القرن السادس عشر وكانت تتضمّن سنجقين بحرين فقط هما مُصَوَّع 'Maşşawa' وسواكين Suwâkin. ومن المحتمل أن تكون هذه الحملات قد قامت بواسطة سفن مصرية يقودها قادة عثمانيون، لكنهم لم يتمكنوا لا هم ولا سفنهم من الوقوف في وجه البرتغاليين⁽¹⁾. لقد بدا واضحاً أن الباب العالي الذي اعتمد حتى وقت متأخر وبشكل كامل على جيوشه البرية قد تنبّه إلى أهمية السلاح البحري، ولقد أثبت هذا السلاح ضرورته للحفاظ على المناطق الساحلية في البحر الأحمر، والدليل أنه لما كان ضعيفاً في القرن السادس عشر فقدت الإمبراطورية سيطرتها على تلك الأماكن⁽²⁾.

أما آخر حدث مهم في هذه الفترة الثانية من النشاط البحري العثماني فهو الاستيلاء على قبرص من البنادقة في عهد السلطان سليم الثاني. لكن تلتها مباشرة معركة ليبانتو Lepanto الشهيرة (وتدعى بالتركية Ine Bahtı) التي دُمّر فيها نصف الأسطول تقريباً⁽³⁾. تمّ تعويض هذه الخسارة خلال عام⁽⁴⁾ لكن منذ ذلك الحين لم يعد الأسطول

(1) كانت الحملات الرئيسية هي: 1. حملة خادم سليمان باشا 1535-1538، وتم فيها فتح زبيد وعدن ولحج وحصار ديو؛ 2. حملة پيري رئيس 1547، وتم فيها استعادة عدن (التي كانت في حالة ثورة) ونهب مسقط وحصار هرمز؛ 3. حملة سيدي علي 1553 التي أرسلت لاستعادة السفن التي تركها پيري في البصرة، وقد هزم البرتغاليين في هرمز ومسقط لكن العاصف أبعدته إلى الشواطئ الهندية. انظر جودت ج 1 ص 132، 143-144؛ وعطاج 2 ص 20؛ والموسوعة الإسلامية مادة «عدن» و«علي» و«لحج» و«پيري رئيس» و«سليمان الأول» و«سليمان باشا خادم» و«زبيد».

(2) انظر جودت ج 1 ص 155.

(3) كان قسم كبير من الأسطول قد عاد إلى إسطنبول في فصل الشتاء. انظر جودت ج 1 ص 148. وتعرف معركة ليبانتو في التاريخ العثماني باسم حملة الأسطول الغريق.

(4) عُيّن أولوج علي قبطاناً على الفور بعد معركة ليبانتو التي كان حاضراً فيها، وتم بناء ثمانية أحواض قرب الأدميرالية وبناء 158 سفينة في الشتاء التالي، وبذلك تمكن في العام الذي تلاه من خوض البحر المتوسط بأسطول لا يقل عن ثمانى Mavnas و Kadirğas 234. وقد شهدت

العثماني يشكل تهديداً لأوروبا. والسبب الرئيسي في هذا الانحطاط، والهزيمة بحد ذاتها، كان تعيين عدد من الرجال غير المتمرسين في منصب القبطان، ولعل من الغريب أن هذه السياسة تعود إلى أيام بارباروسا. فعندما ظهر في العاصمة للمرة الأولى كبطل لمواجهات منتصرة عدة مع الكفار، قُبِلَ على الفور في مجلس مستشاري الدولة. ومنذ ذلك الوقت أصبح هو ومن خلفوه في منصب القبطان، وهي وظيفة متواضعة نسبياً، أصبحوا أعضاء في الديوان الإمبراطوري. أما الأعضاء الآخرون فقد كانوا أشخاصاً متمرسين في شؤون الدولة أو في أمور الشريعة. ومن جهة أخرى فقد كانت مؤهلات بارباروسا السياسية أمراً شخصياً وليس من المحتمل وجودها لدى قباطنة البحر الآخرين. وبعد موته أصبحت هناك عادة تعيين القبطان من القايى قول *Kapı Kulu* بينما كان يشغل هذه الوظيفة القراصنة أو الأشخاص الآخرون ذوو الخبرة بالبحار⁽¹⁾، وكان معظم الأشخاص المختارين للمنصب غير ضليعين في الشؤون البحرية. علاوة على ذلك فقد كان القباطنة يعملون تحت إمرة سردار *serdâr* يقود الحملات البحرية تماماً كما كان السردارات يُعيّنون لقيادة الجيوش عندما لا يخرج السلطان إلى المعركة بنفسه، لكن هذا الأمر لم يستمر⁽²⁾، فقد احتل القباطنة الجدد مكان السردارات وكانوا في البداية يخرجون برفقة ضابط خبير في شؤون البحار⁽³⁾. أما الآن فقد أصبحت

الستتان التاليتان زيادة أكبر. انظر جودت ج 1 ص 150-151.

(1) ما عد واحد من القايى قول *Kapı Kulu* في عهد محمد الثاني، وهو شهيد محمود باشا (وأصبح فيما بعد كبير الوزراء)، توفي عام 1468 وكان ثالث شخص يتقلد منصب القبطان. وبعد وفاة بارباروسا عُيّن مكانه صوقولى محمد باشا. انظر عطا ج 2 ص 189؛ وجودت ج 1 ص 141. كان كل القباطنة منذ وفاة بارباروسا إلى معركة ليبانتو من القايى قول لرى أي صوقولى باشا وسان باشا (1548) وبياله باشا (1554) ومؤذن زاده علي باشا (1568). انظر جودت ج 1 ص 141-143، 147؛ والموسوعة الإسلامية مادة «بياله باشا».

(2) سيد مصطفى ج 2 ص 114؛ والموسوعة الإسلامية مادة «قبطان». ويمكن ملاحظة أنه أثناء التخطيط للهجوم على مالطة عام 1564 تم تعيين سردار إلى جانب القبطان وحُدّر كلاهما من عدم تجاهل نصائح الضابط المعاون طورغود Torğud. ولقد قاما بتجاهلها بالفعل مما أدى إلى فشل الهجوم. انظر جودت ج 1 ص 146.

(3) كمثال على ذلك طورغود Torğud نفسه الذي قاد حملات خلفاء بارباروسا في القبطنة.

المسؤولية كاملة ملقاة على عاتق القبطان وليس السردار، وقد كان السبب الرئيسي في الكارثة التي وقعت في معركة ليبانتو هو إصرار القبطان، متجاهلاً نصيحة معاونه، على ضرورة مغادرة السفن العثمانية للميناء واختراق صفوف أسطول الحلفاء⁽¹⁾.

لم يتم تعديل النظام بشكل دائم بالرغم من البدء مباشرة بعد المعركة التي غرق فيها القبطان، وقد تم تعيين قرصان آخر خلفاً له. بقي هذا الرجل المعروف باسم أولوج علي⁽²⁾ 'Uluc Ali' في منصبه إلى حين وفاته بعد خمس عشرة سنة واشترك في عدد من الحملات في البحر المتوسط أسفرت إحداها عن إعادة فتح تونس وضمها إلى أراضي السلطان⁽³⁾. وبالرغم من أن السفن التي خسروها في معركة ليبانتو قد تم استبدالها بسرعة، فيبدو أن الروح القتالية التي طالما هددت نفوذ أوروبا قد اختفت تماماً من الأسطول العثماني⁽⁴⁾. وبعد وفاة أولوج علي غدا منصب القبطان منحة من البلاط، ولم تخض سفن السلطان معارك ذات نتائج مهمة سوى بعد منتصف القرن التالي⁽⁵⁾.

لقد قاد أيضاً حملات مستقلة وكان السلطان سليمان راغباً في تعيينه كقبطان، لكن كبير الوزراء رستم باشا أقنعه بالعدول عن ذلك. انظر جودت ج 1 ص 141-143، 145.

(1) انظر جودت ج 1 ص 149.

(2) يلفظ اسمه بالتركية: أولوج علي رئيس Uluç Ali Reis ثم سمي لاحقاً Uluç Ali Paşa وأخيراً باسم قليج علي باشا Kılıç Ali Paşa، أما اسمه الأصلي بالإيطالية فهو: جوفاني ديونيجي غاليني Giovanni Dionigi Galeni. (أحمد)

(3) كان أولوج علي إيطالي المولد، وقد أسر في إحدى الحملات وأُجبر على العمل في السفن. ولما اعتنق الإسلام ترقى ليصبح بكلربك Beylerbeyi طرابلس ثم الجزائر واشترك في معركة ليبانتو. ظهر اسمه في الكتب الإيطالية بصيغة أوكيالي Ochiaaly. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «أوكيالي».

(4) ضعف الأسطول بعد معركة ليبانتو بفقده للبحارة المتمرسين أكثر من فقده للسفن. ولذلك حرص القبطان في العام التالي على تجنب أي صدام مع العدو. انظر جودت ج 1 ص 150.

(5) في عهد السلطان أحمد الأول أحرز القبطان خليل باشا قيصرية لي نصراً صغيراً ضد المالطيين قرب قبرص عام 1609، وفي عام 1614 أعاد هيمنة الباب العالي على طرابلس. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «خليل باشا».

كانت المناسبة التي استعاد فيها الأسطول نشاطه هي الحملة الموجهة لتخليص جزيرة كريت من يد البنادقة، وهو مشروع اعتمد في نجاحه على تفوق الأسطول العثماني. تحقق هذا التفوق بصعوبة بعد عدة نكسات كانت إحداها في عام 1656 وكانت شدتها أقل بقليل من معركة ليبانتو⁽¹⁾. يعود السبب في استغراق الفتوحات مدة طويلة (دامت خمساً وعشرين سنة من عام 1644 حتى عام 1669)⁽²⁾ إلى كون سفن السلطان في حالة سيئة. كانت أهم العقبات التي توجبت مجابهتها هي بناء تلك السفن وبالأخص السفن الشراعية واستخدامها بشكل ملائم. كانت السفن ذات المجاذيف هي المستخدمة في حروب القرن السادس عشر في كل الأساطيل المتخصصة في البحر المتوسط، وهي سفن مزودة بأشرعة تستخدم عندما يكون العدو بعيداً، أما عندما تبدأ المعركة فكانت تسير بواسطة المجاذيف⁽³⁾. كانت السفن التي تسير بواسطة الشراع وحده قد استخدمت لمدة قرن من الزمان، لكنها كانت تُستخدم غالباً كوسيلة للنقل فقط. وفي الوقت نفسه كان البنادقة قد بدأوا بتقليد الأساطيل الكبرى التي تسير سفنها في المحيط الأطلسي والمحيطات الأخرى حيث لا تجدي المجاذيف.

(1) كان القبطان المسؤول حينها هو صارى كنعان پاشا Şarı Ken'ân Paşa الذي سُرح من الخدمة على الفور وُزج به في السجن. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «كنعان پاشا».

(2) انظر جودت ج 1 ص 152.

(3) كان هناك أكثر من عشرة أنواع من السفن ذات المجاذيف (وتسمى بالتركية *Çekdiri*) في الأسطول العثماني، وكانت تصنف حسب عدد الأماكن المخصصة للمجذفين في كل نوع. بدءاً بالأصغر حجماً هناك 1. *Kırlağıtç* (وتعني بالتركية طائر السنونو)، 2. *Fırkata* (من الإيطالية *fregatta*)، 3. *Pergende* (وتعني بالفارسية المتفرقة)، 4. *Kalite*، 5. *Kadırğa*. وتصنف هذه الأنواع كسفن خفيفة *Donanma Ince*. 6. *Mavna*، 7. *Başarda* (بالإيطالية *Bastarda* وبالفرنسية *Bâtardelle*)، 8. *Küke* أو *Küve*. يجمع هذا النوع بين هيكل *Mavna* وبنية *Kalyon* الشراعية. بنيت *Kükes* أولاً في الربع الأخير من لبقرون الخامس عشر وكانت ذات سطحين وتحمل مدفعين ضخمين في مقدمتها وكان عدد رجالها المسلحين والعاملين في التجذيف هو 2,000 رجل. انظر أحمد راسم ج 1 ص 247 وما يليها مع الحواشي؛ وجودت ج 1 ص 129-130؛ وهامر ص 282.

وبالإضافة إلى استمرارهم باستخدام السفن ذات المجاذيف⁽¹⁾، فقد أصبحوا يملكون الآن مجموعة رائعة من النوع الجديد من السفن الشراعية التي تمكنوا بواسطتها، في بداية الحملة على كريت من قطع طريق الدردنيل، وبذلك منعوا القوات في كريت من الاتصال المباشر بإسطنبول. ولمجابهة هذه السفن الشراعية أصدر الباب العالي أمراً ببناء سفن مشابهة⁽²⁾ وكان الحصار متناوباً بين القوتين إلى أن تحقق النجاح للحملة. مع ذلك فإن هذه السفن الجديدة لم تحقق الفائدة المرجوة منها تماماً وذلك بسبب نقص البحارة المتمرسين في قيادتها والمناورة بها، إذ كانت طريقة استخدامها مختلفة تماماً عن السفن ذات المجاذيف. وحتى خلال المراحل الأخيرة من الحرب قرّر الباب العالي تركيز قواه الرئيسية في بناء السفن التقليدية ذات المجاذيف. علاوة على ذلك فقد استبدع استخدام السفن الشراعية تنظيم إدارة مستقلة في الأدميرالية، وهو أمر لم يلق استحساناً لدى أصحاب الوظائف القديمة. على كل حال، لما استتب الأمن والسلام تضاءل بناء السفن في إسطنبول، لكنه ظل قائماً في المقاطعات البحرية وفي مصر⁽³⁾ ولم يُستأنف حتى بدأت الحرب مع البندقية مجدداً عام 1681 وعندها كان الأوان قد فات⁽⁴⁾.

بالرغم من حدوث الحرب الكبرى التي قصمت شوكة العثمانيين كقوة تهدد

(1) انظر جودت ج 1 ص 151.

(2) كانت أسماء السفن الشراعية العثمانية (*Kalyon*) هي كالتالي: *Karaka*, *Barca*, *Karavela*, *Polika*, *Burtun*. كان وزن *Karaka* من 1,500 إلى 2,000 طن وبنيت في عهد السلطان سليمان الأول لكنهم لم يعودوا يستخدمونها مؤخراً. أما السفن التي بنيت عام 1644 من أجل حملة كريت فكانت من نوع *Burtun* التي تحمل من 40 إلى 50 مدفعاً. وبُدئ ببناء الأنواع الأخرى منذ عام 1651. انظر أحمد راسم ج 1 ص 251-252، الحواشي؛ وجودت ج 1 ص 129، 151؛ وهامر، المصدر السابق.

(3) انظر جودت ج 1 ص 152-154.

(4) انظر سيد مصطفى ج 2 ص 97، ج 3 ص 91. بنيت سفن من نوع *Kapak* (وتعني بالتركية الغطاء أي يُقصد أنها ذات سطحين) وتحمل 80 مدفعاً ويقول سيد مصطفى ج 2 ص 97 إن السفن المبنية كانت بطول 45 إلى 50 ذراعاً، وبذلك يكون طولها حوالي 110 إلى 123 قدماً. أما في ج 3 ص 91 فيذكر أنه قد تم بناء ست سفن فقط ثم زاد العدد فيما بعد.

أوروبا، فقد قام الأسطول العثماني في مناسبات عدة بمحاولات لهزيمة البنادقة لكنه لم يتمكن من منعهم من استرجاع المورة *Morea* التي كانت قد دُمرت قبلاً. وفي الوقت نفسه كان الباب العالي قد شعر، بسبب خطر تقدّم روسيا نحو آزوف *Azov*، بضرورة تخصيص قسم من السلاح البحري في البحر الأسود⁽¹⁾، وإبقاء أسطول صغير في نهر الدانوب⁽²⁾. وبحلول عام 1700، أصبح عدد السفن أقل ممّا كان عليه قبل قرن من الزّمان، ولم يكن هناك سوى ربع العدد الأصلي لتنفيذ العمليات في البحر المتوسط وبحر إيجه. لكن عهد السلطان أحمد الثالث، الذي تلا صلح كارلوفيتش *Peace of Carlovitz* المشوّم، قد بدأ بجهود كبيرة لإصلاح الأقسام المختلفة في الدّولة العثمانية وإحياء ذكرى الأمجاد القديمة، وتمّ شنّ حملة على ساحل إسبانيا وهجوم على مالطا⁽³⁾. وفي الحرب الأخيرة للباب العالي مع البندقية شارك الأسطول في تحقيق النصر وإعادة المورة إلى الإمبراطورية⁽⁴⁾، ثم دخلت في فترة طويلة من السّلم استمرّت حتى زمن بحثنا، وكان عدد السفن أثناءها في زيادة. مع ذلك بقي الأسطول في حالة سلام لمدة أطول ممّا بقيها الجيش البري بإحدى وعشرين سنة⁽⁵⁾ إذ لم يلعب دوراً في الحرب مع النمسا التي انتهت بمعاهدة بلغراد عام 1738 لكن هذه الهدنة قد أدّت إلى إضعاف معنويات العاملين في السلاح البحري أكثر ممّا أثرت في القوات البرية. وكان قادة الأسطول خلال هذه الفترة يشكّون طاقاتهم في اضطهاد سكان الجزر التابعة لسلطتهم⁽⁶⁾، كما أنهم لم يتمكّنوا من الدّفاع عن السفن العثمانية ضد غارات القراصنة عليها، ممّا اضطر الباب العالي إلى طلب معونة خارجية للقيام

(1) انظر دوشون ج 7 ص 425.

(2) انظر جودت ج 1 ص 156. ومن أهم سفنه شايقة *Şayka* وأستو آچق *Üstü Açık*.

(3) انظر جودت، المصدر السابق. كانت السفن التي بنيت في عهد السلطان أحمد الثالث ذات ثلاثة سطوح وأشرفة. وقد درجت عادة تسمية هذه السفن بأسماء غريبة مثل «تحفة الملوك» و«فاتحي بحري» و«بريد الظفر».

(4) انظر سيّد مصطفى ج 3 ص 91.

(5) لم تحدث اشتباكات بين عامي 1717 و1768.

(6) انظر إيتون *Eton* ص 276-277.

بذلك. وأخيراً فقد أساءوا هم والضباط المسؤولون عن بناء السفن استخدام المبالغ المخصصة للتفقات البحرية، وهياً الضباط مفاجآت غير سارة للحكومة وموظفيها بسماحهم استخدام الأخشاب الضعيفة⁽¹⁾، وليس من الغريب إذن ألا يتمكن الأسطول من إثبات جدارته في الحرب مع روسيا التي أخلت بمعاهدة السلام، مما أدى إلى تدمير الأسطول بشكل كامل دون وجود أي مبرر.



عندما سقطت القسطنطينية بيد الصليبيين عام 1204 استولت البندقية، كمكافأة على خدماتها، على بعض موانئ وجزر الشرق وقام حكامها بإنشاء نظام إقطاعي مقلدين حلفاءهم بذلك. تمتعت تلك الإقطاعيات بالحقوق الممنوحة لها مقابل الحفاظ على النظام في تلك المقاطعات والبحار المحيطة بها، وذلك لمصلحة البندقية التجارية. من أجل ذلك كانت السفن ضرورية لدعم هذه المقاطعات، وكان هؤلاء البحارة يُعرفون في البندقية باسم ليفانتينو *Levantino* أي المشارقة. وفي هذه المنطقة أصبحت لفظة *Levantine* أو *Levantino* تعني البحار تحديداً، وقد تحولت في التركية إلى لاوند *Levand*. وبهذا أصبح طاقم الأسطول العثماني والبحارة يُعرفون باسم اللاوند ومعظمهم، كالبخارة البنادقة، من أصول يونانية ودلماسية وألبانية⁽²⁾.

من المحتمل أن يكون هؤلاء «اللاوند» يكسبون عيشهم من أعمال القرصنة والإغارة بواسطة سفن القرصنة والسفن الحكومية، التي ثبت أنها تفتقر إلى الانضباط وغالباً إلى ولائها للحكومة. لهذا سعى الباب العالي إلى استبدال طاقمها بآخر موثوق به، لكن هذه المشكلة بقيت دون حل طوال تاريخ الأسطول العثماني. كان اللاوند بخارة منذ نشأتهم على عكس الجنود بمختلف فئاتهم الذين كانوا يُختارون للخدمة بدلاً عنهم لكن لم يكن لديهم التدريب الكافي الذي من شأنه أن يسدّ الخلل الناجم عن خبراتهم القليلة. كان أول جنود اختارهم الباب العالي ليحلّوا محل اللاوند من فئة

(1) انظر جودت ج 1 ص 157-158.

(2) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «لاوند» *Lewend*.

«العُزبان»، وهم مشاة غير نظاميين ليسوا من الإقطاعيين ولا من ذوي الرواتب، يشبهون في ذلك الجيش الإنكشاري. أما أول انتساب نظامي إلى الأسطول فكان بشكل فرقة قوامها أربعمئة رجل في عهد السلطان بايزيد الثاني⁽¹⁾، لكن يبدو أن لهم أغلب نقائص اللاوند في اعتمادهم على سلب الغنائم، ممّا أدّى إلى عدم انضباطهم ناهيك عن عدم درايتهم بحياة البحار. وبالتالي، وبحلول نهاية القرن السادس عشر، بدأ الباب العالي بتوظيف إقطاعيين من المسلم واليوروک في الخدمة البحرية بدلاً عنهم، ويجب أن نتذكر أن هذه الفرق كانت قد استُخدمت كمجموعات مساعدة للجيش بحيث يخدم أفراد كل أوجاق منها بالتناوب. اتّبع النظام نفسه مع أولئك الذين خُصّصوا للخدمة في الأسطول، لكنهم أثبتوا عدم جدارتهم كبخارة وذلك لسبب مختلف تماماً عن السبب الذي حدا بالباب العالي إلى إقصاء سابقينهم، أي بما أنهم كانوا يعتاشون على مزارعهم المعفاة من الضرائب، فقد بقي اهتمامهم مشدوداً إليها أكثر من الواجبات التي طلب إليهم القيام بها. مع ذلك كانت هناك فائدة نفعيّة من الأمر، إذ لم يعد يُطلب من هؤلاء المسلم أو اليوروک الخدمة شخصياً بل تُلب من كل أوجاق أن يُسهم سنوياً بمبلغ يضعه في ميزانية الأدميرالية⁽²⁾. لكن هذا الإجراء حرمهم من مكانتهم المميّزة التي كانت تؤهلهم لخدمة السلاطين دون أن يدفعوا أية ضرائب؛ أما الآن فقد أصبحوا فعلياً، وإن لم يكن اسمياً، رعايا أكثر من كونهم عساكر. مع ذلك فقد أصبح للأدميرالية للمرة الأولى وسيلة لتوظيف أطقم ذوات أجور يمكن لها فرض نظامها عليها.

لكن لسوء الحظ أثبت الضباط عدم مقدرتهم على إدارة هذه الوسائل بشكل ناجح، ففي تلك الفترة كانت المؤسسات العثمانية ككل قد أصابها الانهيار وانتهى عهد النظام الذي اتسق وفقه الجيش النظامي فيما مضى. وبدلاً من أن تستخدم الأدميرالية الأموال المتوفرة للإنفاق على فرق نظامية من البحارة وتدريبهم تدريباً جيّداً، فقد عمدت إلى إجراءات عادت عليها بأقل الأرباح. جرت العادة، كما في أوروبا، حتى نهاية القرن

(1) المصدر السابق.

(2) انظر سيّد مصطفى ج 3 ص 92.

الثامن عشر أن تتوقف الجيوش عن القتال في فصل الشتاء، لذلك كان من الأفضل للأساطيل البحرية في البحر المتوسط والمحيطات أن تعود بسفنها إلى قواعدها في بداية الخريف، ثم تظهر من جديد في أواخر الربيع. وفي كل عام، عندما يحين موعد انطلاق الأسطول في رحلته الصيفية⁽¹⁾ كانت الأدميرالية ترسل إلى الجزر والمناطق الساحلية التي تشكل إيالة القبطان باشا، عدداً من الضباط المجتدين الذين يعرضون أجر ستة أشهر لأي رجل ينتسب إلى السلاح البحري. كانت النتيجة أن تألفت القوة المجمعة للانطلاق بسفن السلطان في تلك الفترة، من رجال ليست لهم وظائف نظامية وقد لا يملكون الخبرة أبداً في القتال أو الإبحار⁽²⁾. كانت هذه القوات تدعى بعساكر البيروق⁽³⁾ Standard Troops لأن كل ضابط كان يجند بعضهم تحت البيروق الخاص بفرقة، وفي الواقع لم يتعدوا كونهم حشداً من الرّاع لا يفيد وجودهم في أي اشتباك بحري سوى بضمان هزيمة مؤكدة. واستمرت طريقة التجنيد تلك إلى الفترة التي نجري بحثنا حولها⁽⁴⁾.

منذ العهود الماضية ولغاية القرن الثامن عشر كانت السفن ذات المجاذيف تتألف، فضلاً عن ضباطها، من طاقم من الرجال المسلحين والبحارة والمجدفين ولم تكن تزود سوى بأشعة قليلة تستخدم عندما لا يكون هناك اشتباك. كانت تلك السفن تقوم بالمناورة أثناء القتال بهدف صدم سفن العدو أو الصعود على متنها، وهي عمليات لم تكن لتتحقق إلا بوجود المجاذيف. وبالتالي كانت الحاجة إلى البحارة قليلة بينما

(1) أي يوم الخضر «روزي خضر» أو يوم القديس جورج في الثالث والعشرين من أبريل. أما يوم العودة فكان يدعى «روزي قاسم» أو يوم القديس ديمتريوس في السادس والعشرين من أكتوبر. كان هذان اليومان يقسمان فصلي الصيف والشتاء. انظر الفصل عن الدراوش في الكتاب للتمييز بين الأولياء المسلمين والقديسين المسيحيين.

(2) يذكر سيد مصطفى ج 3 ص 192 أن الأموال التي كان اليوروك والمسلم يقدمونها تكفي لتجهيز 8,000 إلى 10,000 رجل.

(3) باللغة التركية: *Bayrak Askeri*.

(4) سيد مصطفى ج 4 ص 11.

هي كبيرة بالنسبة للمجذفين والمسلّحين⁽¹⁾. يبدو أن اللاوند الأصليين كانوا يوظفون للقيام بالمهام الثلاث معاً، ولكن بحلول القرن السادس عشر أعفي من تلوهم من مهمّتي التجذيف والقتال، وبما أن التجذيف كان عملية شاقة ومرهقة، فقد أُجبر بعض الرّجال على القيام بها وكانوا بشكل رئيسي من أسرى الحرب الشّبان⁽²⁾ (الذين أصبحوا عبيداً بموجب الشريعة)، ومن المجرمين والمحكومين، كما في بعض الدّول المسيحية، بالعمل في السّفن كعقّاب لهم⁽³⁾. وبشكل مشابه فقد عُهد بالقتال على متن سفن العدو أو لدى التّزول إلى سواحل العدو، إلى فرق نظامية هي مجموعات من الجيش الإنكشاري أو السّباهية الإقطاعيين من السّناجق التي تُولف بإيالة القبطان

(1) كان طاقم السّفينة متوسطة الحجم من التّوع المسمى *Kadirğa* مكوناً كالتالي: من المجذفين وعددهم 196؛ والمسلّحين وعددهم 100؛ والبحارين وعددهم 30؛ والضباط وعددهم 3. وكان البحارة يشملون مديري الدّفة *Dümeni*، والملاحين *Yelkenci*، والتّجارين والسّباكين (القلّطجية) و20 عاملين في إصلاح الأجهزة *Alatcılar* يرأسهم أوضه باشى. أما السّفن الكبيرة من نوع *Mavna* فكانت تضم: 357 مجذفاً، و175 مقاتلاً، و55 بحاراً، و6 ضباط؛ بينما تضم سفينة *Başarda* 497 مجذفاً، و250 مقاتلاً، و76 بحاراً، و8 ضباط. انظر جودت ج 1 ص 130.

وكان الأسطول العثماني يتألّف عادة (في القرن السادس عشر) من: (أ) سفينة *Başarda* فيها 800 رجل؛ 6 سفن *Mavna* فيها 3,600 رجل (600 في كل منها)؛ 40 سفينة *Kadirğa* وفيها 12,000 رجل (300 في كل منها)؛ والمجموع هو 16,400 رجل منهم 10,500 مجذف و5,300 مقاتل و600 بحار. (ب) 20 سفينة خفيفة في كل منها 100 مقاتل. وفي أسطول يتألّف من 67 سفينة كهذا الأسطول كان هناك حوالي 7,000 مقاتل. انظر أحمد راسم ج 1 ص 249-250، الحواشي. كان أول أسطول يجهز لفتح قبرص مؤلفاً من 10 سفن *Mavna* و180 *Kadirğa* و170 *Barca* (سفينة شراعية قد تكون للثقل فقط)؛ أما الأسطول الثّاني فكان يضم 250 سفينة ذات مجاذيف (*Mavnas* و*Kadirğas*). انظر جودت ج 1 ص 148. وكان أسطول الحلفاء في ليبانتو مؤلفاً من 200 سفينة صغيرة و7 سفن كبيرة ذات مجاذيف بالإضافة إلى 20 سفينة صغيرة وسفيتين كبيرتين ذات أشرة.

(2) كان الأطفال الذين يؤسرون في الحرب يرسلون إلى القصور الإمبراطورية إعدادهم كوصفاء. أما السّلاط والقراصنة المسيحيون بشكل خاص فكانوا يؤخذون للخدمة في السّفن ذات المجاذيف. انظر سيد مصطفى ج 1 ص 146.

(3) انظر دوسون ج 7 ص 437.

باشا⁽¹⁾. ربما كان لاستخدام هذه الفرق في البحار أثر في حث الباب العالي على توظيف اليوروك والمسلّم في الأسطول. لكن هؤلاء لم يكونوا يشتركون سوى في بعض الأعمال كسحب المرساة وتلقيم المدافع وتطبيق أوامر ضباط البحرية. وبعد فترة من الزمن أُبطلت عادة توظيف الإنكشاريّة والسّباهية في السّلاح البحري من جهة لأن الفريقين كليهما قد تفلتا من النّظام، ومن جهة أخرى لأنهم أصبحوا لا فائدة منهم بعد تطوّر أجهزة المدفعية البحرية واستبدال السّفن ذات المجاذيف بالسّفن الشّراعية⁽²⁾. وبهذا أصبح استخدام السّفن ذات المجاذيف عقيماً بحلول القرن الثامن عشر، ولم يعد يشترك في الحملات البحرية سوى الضباط وبعض البحّارة المتمرسين (الذين ستكلم عنهم لاحقاً) وعساكر البيرق. ومنذ ذلك الحين أصبح يشار إليهم بأنهم بحّارة أو رجال السّفن الشّراعية⁽³⁾ *Kalyoncus*.

كان أول ضابط يُعيّن في منصب قبطان باشا هو بالطّه أوغلي سليمان Balta Oğlu Süleyman الذي كافأه السّلطان محمّد الفاتح بهذا المنصب لقاء خدماته في حصار القسطنطينية⁽⁴⁾. ترافق المنصب في زمان بارباروسا برتبة بكلربك *Beylerbeyi* (بطوغين). وبالإضافة إلى كون القبطان أدميرالاً فقد كان أيضاً حاكماً إقليماً لسنجق غاليلي الذي تتبع له قضاات غلطة وإزميت (نيقوميديا)⁽⁵⁾. كانت غلطة تحت سيادته ربما بسبب سكّانها الجنوبيين الذين كان الفاتح يستدعيهم للخدمة في البحرية؛ بينما

(1) انظر سيّد مصطفى ج 1 ص 146. كان هؤلاء الجنود من طبقة الزّعيم وأصحاب التّيمارات يُسجّلون بشكل مستقل في قسم البحرية.

(2) انظر سيّد مصطفى ج 3 ص 92.

(3) مع ذلك كانوا يتميّزون بأسماء أخرى حسب المهام الموكلة إليهم: منها *Kalyoncus* أي البحّارة؛ و *Levends* أي جنود البحرية؛ و *Topçus* أي المدفعيون؛ و *Aylakçis*. انظر دوشون ج 7 ص 426 حيث يذكر أن *Aylakçis* كانوا بحّارة أكثر خبرة أوكلت إليهم المناورات، لكن ردهاوس يطلق الكلمة على العمّال العاديين.

(4) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «قبطان باشا».

(5) المصدر السابق. لم تكن غلطة حتى بداية القرن السادس عشر متميّزة عن پيرا، بل كانت المنطقة برمتها تحمل الاسم الأول. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «القسطنطينية».

كانت إزميت تحوي أفضل مصادر للخشب المستعمل في صناعة السفن. ومنذ فترة قبول بارباروسا كعضو في الديوان الإمبراطوري أصبح للقباطنة رتبة الوزير (بثلاثة أطواغ)⁽¹⁾، وبما أن سلاح البحرية قد حقق تدريجياً ضمّ مقاطعات البندقية في الشرق إلى أراضي السلطان، فقد وضعت كل هذه الجزر تقريباً مع المقاطعات الساحلية تحت سلطة القبطان لتشكل في النهاية إيالة تدعى إيالة بحري سفيد *Eyâlet Bahrı Sefid* (أي إيالة البحر الأبيض، ويُقصد بذلك بحر إيجه والبحر المتوسط). كانت هذه الإيالة مقسمة كغيرها إلى سناجق لكل منها قائد يدعى بك البحر دريا بكلى *Deryâ Beyleri* وكان السباهية الإقطاعيون يخدمون في الأسطول تحت إمرتهم. وعندما ألغيت هذه الخدمة فيما بعد كان كل واحد منهم يكلف بتجهيز وحماية سفينة بحرية⁽²⁾.

كان القبطان باشا هو بكلىربك *Beylerbeyi* غاليلولي لكونها الحوض الرئيسي لبناء السفن، وحتى بعد انتقال مقر البحرية إلى إسطنبول عام 1516 فقد استمرّ بقيادة شؤون حوض السفن في الأدميرالية (الترسانة *Tersâne*) الواقعة في ضواحي غلطة على القرن الذهبي والتي تدعى قاسم باشا *Kâsim Paşa* وتُعرف بالتركية باسم مضيق الأدميرالية أو ترسانه بوغازى⁽³⁾ *Tersâne Boğazi*. وبهذا كان تحت إمرة القبطان عدد من الضباط الذين يقودون السفن وعدد من الموظفين المسؤولين عن شؤون الأدميرالية. لكن لم تكن هناك معلومات كثيرة عن هذه التنظيمات قبل استبدال السفن ذوات المجاذيف بالسفن الشراعية، وكان كل الأشخاص ذوي الرواتب في الأدميرالية، الذين بلغ عددهم 2,364 في عهد مُراد الثالث على سبيل المثال، يشكلون أوجاقاً يدعى ترسانه أوجاغى⁽⁴⁾ *Tersâne Ocağı* ويضم القباطنة ووكلاءهم وضباط البحرية والمدفعيين والحراس. وبإلغاء السفن ذات المجاذيف تدريجياً أصبح نظام

(1) انظر هامر ص 285-286. كان للقبطان أسبقية على كل الوزراء ويحتلّ الرتبة التالية مباشرة لكبير الوزراء وشيخ الإسلام. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «قبطان باشا».

(2) انظر دوستون ج 7 ص 424.

(3) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «القسطنطينية».

(4) انظر سيد مصطفى ج 1 ص 145-146.

أحقية قيادة السفن الشراعية حسب الأقدمية لكن بشكل غير رسمي، ثم تحول إلى نظام رسمي. كما أن استبدال السفن قد أثر في تنظيم مقر الأدميرالية⁽¹⁾، لذلك من الصعوبة بمكان تحديد إن كان ضباطها الموجودين في نهاية القرن الثامن عشر كانوا موجودين قبل التغيير أم بعده.

وكما أن كلمة لاوند *Levand* هي تحريف عن الكلمة البندقية ليفانتينو *Levantino* وكلمة قبطان *Kaptan* تحريف لكلمة كاپيتانو *capitano*، فكذلك كانت الأسماء التي أطلقت على السفن الشراعية الرئيسية في الأسطول العثماني مثل *Kapıdana*، *Patrona*، *Riyala* تحريفاً عن الكلمات الإيطالية المقابلة لها. وكان قادتها يدعون *Kapıdana Beyi*، *Patrona Beyi*، *Riyala Beyi* وكلهم تابعون لسفينة القبطان باشا من نوع باشتاردا *Baştanda* (ذات الأصل الإيطالي أيضاً) وعندما ألغي استخدام السفن القديمة بقيت هذه السفينة مخصصة للمراسم لغاية عام 1764⁽²⁾. كانت هذه السفن الثلاث التي يحمل قادتها لقب *Bey* تُعرف بسفن العلم *Flag-ships* (*Sancağ Gemileri*) أما بقية السفن فكانت تدعى بسفن الصف⁽³⁾ (*Alay Gemileri*) وكان للباشا مساعد لإدارة الأدميرالية وهو ضابط شرطة يُختار من بين خوجات الديوان

- (1) وقد أعيد تنظيمه عام 1682. انظر جودت ج 1 ص 155.
- (2) بعد البدء باستبدال السفن ذات المجاذيف بأخرى شراعية كسفن حربية استمر القبطان بالقيادة في سفينته *Baştanda* أما قبطان السفن الشراعية الذي يقول جودت إنه قد حل محل السردار فكان يبحر في سفينة *Kapıdana*. وبعد إلغاء السفن القديمة بشكل كامل أصبحت سفينة العلم تعرف باسم سفينة الباشا وتحتل بالطبع مرتبة أعلى من مرتبة *Kapıdana*. وأصبح *Kapıdana Beyi* قائداً تابعاً للمرتبة الأعلى. انظر جودت ج 1 ص 157.
- (3) انظر دوستون ج 7 ص 424 وما يليها. إن كلمات *Kapıdana* و *Patrona* و *Riyala* مشتقة من الكلمات الإيطالية *galea capitana* و *galea padrona* و *galea reale*. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «ريالا». كانت السفن العادية تحت قيادة قباطنة يُختارون من الرؤساء *Re'îses* أي قادة البولوك. انظر هامر ص 287. وكانوا يترقون إلى رتبة ورديان باشي *Vardıyan Başis* و *Imperial Re'îses*. اشتقت كلمة *Vardıyan* من *guardian* الإيطالية ويبدو أنها متعلقة باستخدام العبيد المجذفين في السفن. وربما يكون *Vardıyan Başis* و *Imperial Re'îses* هم قادة السفن الرئيسية قبل استبدالها بالسفن الشراعية.

ويدعى أمين الترسانه *Tersâne Emîni*. وكان هو الذي يقود عمليات بناء السفن وترميمها وأسلحتها، وكان مسؤولاً عن مخازن البحرية يساعده في ذلك ضابط شرطة آخر يدعى أمين العنابر عنبرلر أميني *Enbârlar Emîni* ومفتش أقل رتبة يدعى ناظر العنبر *Enbârlar Emîni*. وكان للأدميرالية أيضاً مشرف يدعى ترسانه كاخية سي *Tersâne Kâhyası* يقود الحراس، وكاتب يدعى قاليونلر كاتبي *Kalyonlar Kâtibi*، وأمين السجلات ترسانه رئيسي *Tersâne Re'îsi*، وموظف لدفع الأجور سرگي أميني *Sergi Emîni*. أما رئيس الميناء ليمن رئيسي *Liman Re'îsi* فكان يتمتع هو أيضاً بلقب بك *Bey* وبه تكتمل قائمة موظفي الأدميرالية⁽¹⁾.

كان للقبطان پاشا، ككل الحكام الإقليميين، ديوان في مسكنه في الأدميرالية⁽²⁾. وقد كان مسؤولاً أيضاً عن النظام العام في غلطة وقاسم پاشا تماماً مثلما يوكل إلى آغا الإنكشارية والبوستانجي باشي والجبه جي باشي والطوبجي باشي الإشراف على مقاطعات أخرى في العاصمة وما يجاورها. ولكي يعزز منصبه اتبع نظاماً شبيهاً بنظامهم، فأقام محارس تنطلق منها الدوريات إلى الشوارع والأسواق المجاورة. وكان أفراد الشرطة التابعين لمنطقة القبطان پاشا فقط يدعون بالبحارة، وهم بالفعل تابعون لقباطنة بحريين. لقد قرأنا على الأقل عن الدوريات الليلية في القرن السابع عشر التي يقودها ما لا يقل عن خمسة وثلاثين قبطاناً. وكان السجن الذي يُحجز فيه السجناء المحكومون بالخدمة في السفن يقع بالقرب من ديوان القبطان يديره مشرف الأدميرالية بشكل مباشر⁽³⁾.

كان هناك في جدول رواتب الأدميرالية في القرن الثامن عشر، بالإضافة إلى

(1) انظر دوستون ج 7 ص 435. يذكر هامر ص 286-287 الكاخية برتبة أعلى من ترسانه كاخية سي، كما يذكر ترسانه كاتبي وترسانه روزنامه جي ومخزن كاتبي (ربما بشكل مرادف لقاليونلر كاتبي وترسانه رئيسي وسرگي أميني، وليمان كاتبي (كمرادف لليمان رئيسي)، وزندان كاتبي، وأمين الأحواض *Sekretär des Bagno* ومن المحتمل أنه المسؤول عن تسجيل عبيد السفن.

(2) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «قبطان پاشا».

(3) انظر عثمان نوري، بلدية ج 1 ص 915-916.

الضباط والموظفين، كل التابعين والقادة ورؤساء البحارة ورؤساء المدفعيين وچاوش الباشا *Paşa's Çavuş* ورئيس الأغوات وعدد من الجاوشية التابعين له، أي يبلغ العدد الإجمالي حوالي ألف شخص⁽¹⁾. لغاية عهد محمود الأول (1730-1754) كان النقص في البحارة المتمرسين يُعوّض جزئياً بالاتفاق مع ربانة بعض السفن التجارية التي تبخر في الموانئ العثمانية في الشرق. كان ربانتها وأطقمها يعملون في خدمة الأسطول أثناء فترة الحرب مقابل إعفائهم من دفع الرسوم في أوقات السلم. بهذا الاتفاق ضمنت الأدميرالية خدمات حوالي ألفين من البحارة المتمرسين، على الرغم من أن روايات المراقبين الأوروبيين عن الطريقة التي كانت السفن التجارية تبخر بها في أواخر ذلك القرن تشير إلى أن أولئك البحارة أنفسهم لم يكونوا على درجة عالية من المهارة والخبرة. وفي عهد محمود الأول خلت الأدميرالية حتى من هؤلاء. ولكي تزداد عائدات السلطان من الرسوم المستحقة أصر أمين الجمرük *Gümriük Emîni* على دفع أصحاب السفن لها حسب الحمولة التي ينقلونها⁽²⁾. ومنذ ذلك الوقت كان على الأدميرالية أن تعتمد على ضباطها وبحارتها الخاصين، وقد أسهم هذا العجز دون شك في نقص كفاءة السلاح البحري أثناء الحرب ضد روسيا.

لقد بحث السلطان سليمان في أمر تزويد السلاح البحري بإيرادات أخرى نتيجة لإلحاق عدد من الجزر والمناطق الساحلية بإيالة القبطان⁽³⁾. في القرن الثامن عشر كانت هذه السناجق لا تزال تزود الأدميرالية ببعض المساهمات⁽⁴⁾ لكنها لم تكن كافية

(1) انظر سيّد مصطفى ج 3 ص 91. كان الأفراد ذوو الرواتب يدعون گديكلي قليونجي لر *Ge-dikli Kalyoncular* أي البحارة المتميزون، وذلك لأنهم ذوو رواتب. يذكر هامر ص 288 أن عدد العُزبان في القرن السابع عشر كان 1,364، وعدد القلطيحية المجتدين من العجمي أو غلان 500 أو 600، وعدد المدفعيين 40 أو 50 (بينما كان عددهم في السابق 500 أو 600).

(2) انظر سيّد مصطفى ج 3 ص 92-93.

(3) انظر جوشيرو *Juchereau* ج 1 ص 101. في عهد بايزيد الثاني فُرِضت ضريبة في إسطنبول ومدن أخرى للإنفاق على بناء السفن. انظر سيّد مصطفى ج 1 ص 65.

(4) مع أن تمويل الأدميرالية قد تم ضبطه في عام 1682 من قبل كبير الوزراء قره مصطفى باشا. انظر جودت ج 1 ص 155.

لتلبية كل احتياجاتها، وكانت لا بد من تأمين الباقي عن طريق الميري⁽¹⁾ *Miri* لكنها أيضاً لم تكن تكفي لتلبية حاجات القباطنة، لذلك عمدوا، كأتي ضباط في الدولة، إلى زيادتها عن طريق بيع المناصب، ونقصد هنا منصب القبطان، للمتدّدين على البلاط. ثم قام القباطنة ببيع مناصب أقل شأناً وهكذا⁽²⁾، إلى أن أتيحت الفرصة لضباط الرتب المختلفة بالإبحار في الرحلة الصيفية السنوية، ممّا جعل سكان الجزر والموانئ يخشونهم كوباء الجراد، لكنهم لم يكونوا يعدّون أنفسهم سوى مجرد مسافرين. لقد تركوا أمر الإبحار للقباطنة اليونان الذين عملوا في أسوأ الظروف إذ لم يجدوا أنفسهم مضطرين فحسب للعمل مع مساعدين معدومي الخبرة تم التقاطهم من شوارع العاصمة قبل الرحيل بساعات، بحيث يعدّون أنفسهم محظوظين للتخلّص من خدمات العبيد المسيحيين والسجناء المالطيين، وإنما كان خطر الموت يتهدّدهم في كل مغامرة يقومون بها⁽³⁾ وكانت المغامرات سيئة الحظ عديدة. لم يكن هؤلاء القباطنة مؤهلين لقيادة السفن الحربية بل وكان بعضهم يعرف بالكاد كيف يستعمل البوصلة أو أخذ الملاحظات بالنظر إلى السماء⁽⁴⁾. وإن تلك الصعوبات لم يذللها البناء الجيد للسفن التي كانوا يبحرون عليها، إذ كان شائعاً بين الأوروبيين أن للعثمانيين قدرة هائلة في بناء السفن أكثر من إدارتها⁽⁵⁾. كان هناك نوعان من السفن المستخدمة هي السفن الشراعية الخفيفة *caravellas* والبارجات الحربية الكبيرة⁽⁶⁾ *frigates* لكن يقال إن سطوحها عالية وقصيرة جداً وسيئة التجهيز. وبالرغم من أنها سفن سريعة⁽⁷⁾ فإن مدافعها كانت موضوعة في أمكنة منخفضة تعرضها للانغمار بالماء لدى حدوث

(1) انظر ثورنتون ج 1 ص 42-44.

(2) جوشيروج 1 ص 102.

(3) انظر جوشيروج 1 ص 102-103؛ وإيتون ص 77-78.

(4) انظر إيتون ص 208-209.

(5) انظر ثورنتون ج 1 ص 292-293؛ وإيتون ص 77-78.

(6) انظر جوشيروج 1 ص 101؛ وإيتون ص 75. كانت السفينتان تدعيان بالتركية *Karavella* و

Firkata

(7) انظر إيتون ص 77-78.

أبسط عاصفة⁽¹⁾. أما معداتها الحربية فلم تكن جيّدة إذ كان فيها مدافع ذات قياسات مختلفة، وكانت الذخيرة لا تلائم في كثير من الأحيان أياً من تلك المدافع المتنوعة⁽²⁾.

أنها صورة قاتمة حقاً، وعلى الرغم من أنها وصف الأوروبيين الذين تشرب معظمهم التحيز ضد السلطان وأتباع دينه، فقد دعمتها روايات الكتاب العثمانيين أنفسهم. من بين تلك الروايات تبرز نقطة واحدة على الأقل بوضوح، وهي أن الأوروبيين المعاصرين المدعويين بالأتراك، أي المسلمين الناطقين بالتركية، لم يتميّزوا أبداً كبجارة⁽³⁾ وإن السلاح البحري كان يعتمد في شؤونه الملاحية بعكس الحرية منها، على اليونانيين من جزر وسواحل بحر إيجه والمسلمين الناطقين بالعربية من مقاطعات شمال إفريقيا. وتعكس هذه الحقيقة بوضوح أن السلاح البحري العثماني لم يكن يديره أبناء البلد إن صح التعبير. لا شك أنه كان هناك القليل جداً من القوات الملاحية في أصولها كالبندقية وجنوة، ولكن حتى البرتغاليين يقال عنهم إنهم في فترة بنائهم لإمبراطوريتهم كانوا كالأسماك التي لا تستطيع العيش خارج المياه ومع ذلك فقد أسسوا مملكتهم بعد انتصارهم على العرب في معارك برية. لم تكن حالة العثمانيين مشابهة لحالة البرتغاليين فحسب، بل كانوا فضلاً عن ذلك محكومين بشكل كبير بالتقاليد التي ورثوها عن أسلافهم الذين لم تكن لديهم أنظمة بحرية على الإطلاق. وبهذا ظلّ الأسطول السلطاني في حالة دائمة من الاضطراب، فكون الأدميرال حاكماً إقليمياً في الوقت نفسه كان غريباً نوعاً ما، لكن يمكن اعتباره مناسباً في تلك الظروف. أما عمله في الديوان فقد كانت له نتائج المأساوية. مع ذلك فقد كانت التقاليد السابقة تقضي ببقاء الأسطول خارج نطاق عمل المؤسسة الحاكمة، الأمر الذي أثبت في النهاية إيجابيته ليس للأسطول نفسه فحسب بل للمؤسسات الحكومية على حدّ سواء. لقد لا حظ مراقب أوروبي في القرن الثامن عشر نقطة صحيحة، وهي أن الأسطول كان مقتبساً عن بلاد الكفار، لذلك لم يكن هناك تحيز نحو إصلاحه وتعديله كغيره من

(1) انظر توت Tott ج 3 ص 20؛ والمصدر السابق ج 2 ص 250 وإيتون ص 83.

(2) انظر توت ج 3 ص 21؛ وجوشير ج 1 ص 102-103.

(3) انظر ثورنتون ج 1 ص 77-78، والأمر صحيح إذا قارنا الأتراك باليونان في الملاحة.

المرافق⁽¹⁾. وبالتالي فقد جرت إصلاحات مذهلة على الأسطول على أيدي قباطته أنفسهم.

5. الإدارة المركزية

كانت الإدارة المركزية للإمبراطورية محاكاة لإدارات الدول الإسلامية السابقة، وكانت تتبع نمط إدارة الخلافة العباسية التي كانت هي نفسها قد تأثرت بتقاليد الدولة الساسانية وكما عدلها الغزنويون والسلاجقة بدورهم. ضمن هذه التنظيمات كلها يوجد ثلاثة أقسام رئيسية بالرغم من التقسيمات الفرعية، تخفي أحياناً مخطط ترتيبها مثلثي الشكل. عند ذروة المثلث نجد النائب العام للحاكم الذي يدعى على الأغلب بالوزير *Vezîr*. وفي رأسي المثلث الآخرين نجد الموظفين الرئيسيين اللذين يقوم أحدهما بإدارة شؤون المراسلات وتسجيل الوثائق وإصدار الأوامر والأحكام، بينما يتولّى الآخر كل ما يتعلق بالعائدات والتنفقات⁽²⁾. وفي كل الحالات يخضع موظفا القسمين الآخرين للوزير، ولذلك سنبدأ كلامنا عنه.

لقد وُجد منصب الوزير منذ الأيام الأولى للإسلام، ويعتقد بأنه تقليد مأخوذ عن الإمبراطورية الساسانية⁽³⁾. ومنذ أن شاع اللقب في بداية الخلافة العباسية أصبح

(1) انظر إيتون ص 79.

(2) يشرح ابن خلدون في مقدمته الشهيرة في التاريخ أن شؤون الدولة وإدارتها لا تتجاوز أربعة أنواع هي: 1. الدفاع (عن الدولة من الهجوم الخارجي، وعن الناس من الاضطرابات الداخلية بما فيها الجريمة)، وهي مهمة الوزير. 2. المراسلات وإصدار الأوامر، وهي مهمة السكرتير (الكتاب). 3. الأمور المالية، وهي مهمة صاحب المال والجباية. 4. حماية الحاكم من إزعاجات ذوي المطالب، وهي مهمة الحاجب. يقول ابن خلدون إن الأقسام الثلاثة الأولى كانت تابعة للوزير في العهد العباسي، أما الرابعة فهي خارج اختصاصه. انظر كتاب العبرج 1 ص 197-199. وتمثل الوظيفة الرابعة في العهد العثماني بالعاملين في القصر السلطاني.

(3) تشتق الكلمة من المفردة البهلوية *vezîr* وتعني القاضي، وليس من الجذر العربي «وَزَرَ» أي حمل عبئاً. وقد استخدمت الكلمة في اللغة العربية قبل الإسلام إذ أطلقت في القرآن (سورة 20، آية 29-30) على النبي هارون.

لكل حاكم مسلم مستقل فعلياً أو حتى نظرياً، وزيره الخاص⁽¹⁾؛ وكقاعدة عامة كلما كانت منزلة الحاكم كبيرة زادت أهمية الوزير ليس لمجرد زيادة قوة الدولة المعنية بل بسبب صلات الوزير بالحاكم. وتأثير التفوذ، تبعاً للتقاليد الفارسية، كلما ازدادت عظمة الحكام أصبحوا أكثر ابتعاداً عن الرعية وأخذوا يعتمدون في إدارة شؤونهم على وزرائهم الذين كانت سلطتهم متنوعة بين ما تفرضه بعض الأنظمة الإسلامية على الحكومة بإيجاد ما يسمى «وزارة التنفيذ» و«وزارة التفويض»⁽²⁾. كانت مهمة وزير التنفيذ مجرد تطبيق أوامر الحاكم، أما وزير التفويض فكان يعمل بمبادراته الشخصية بالرغم من أنه لا يزال مسؤولاً عن أعماله أمام الحاكم. لكن هذا التقسيم لم يكن رسمياً فقد بدا أن أعمال الوزراء تحت الحكم العثماني كانت تتفاوت حسب نشاط أسيادهم إلا عندما تشغلهم أمور الحرب ولا يتبقى لديهم الوقت الكافي للتفكير بالشؤون الأخرى.

في عهد السلاطين الأوائل لم يكن الوزراء يحملون هذا اللقب بل كان الوزير يدعى پروانه *pervâne* أو پروانه جی⁽³⁾ *pervâneci* وهو لقب موروث من سلاجقة قونية⁽⁴⁾. أما لقب الوزير فقد منح أول مرة للقائد العسكري⁽⁵⁾، ثم أصبح يقصد به المنصب الأعلى في المؤسسة الحاكمة، وهي رتبة قد يحتلها عدة أشخاص في آن

(1) كان أسلافهم من الخلفاء الأمويين يوظفون كاتبين. وقد أشار ابن خلدون إلى توظيف بني أمية للوزراء لكن يبدو أنه كان مخطئاً.

(2) انظر الماوردي «الأحكام السلطانية»، ومقدمة ابن خلدون.

(3) العبارة *Pervâne* كلمة فارسية تحمل معاني عدة منها «القائد أو المفتش» و«الوثيقة الملكية». وبهذا إذا استعملت الكلمة دون اللاحقة التركية *ci* فهي تدل على المعنى الأول، وإذا استعملت بإضافة اللاحقة يصبح لها المعنى الثاني وتدل على الوزير (الذي يصدر الوثائق).

(4) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «وزير»؛ وكتاب كوبرلي زاده *Selcukliler Zamanında Anadolu'da Türk Medeniyeti*.

(5) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «وزير»، ويقال إن تيمورطاش *Timurtaş* هو أول من حمل لقب الوزير الأول العثماني، لكن ليس بالمعنى المفهوم لاحقاً إذ لم يعد پروانه جی السلطان بل مجرد پاشا أول بثلاثة أطواغ ورئيس بكربك *Beylerbeyi*.

معاً بمن فيهم رئيس الوزراء. مع ذلك فإن كلمة پروانه جى لا تعني أن صاحبها خاضع لأوامر السلطان بل كان وزراء العهود الأولى مستقلين تماماً في إدارة شؤونهم، وكان السلاطين مشغولين دائماً بحروب لا تنتهي. وبالتالي فقد جمعت القوانين في عهد محمد الفاتح⁽¹⁾ للتعريف بمكانة ومهام كل موظفي الدولة، وكان يشار إلى الوزير على أنه الوكيل المطلق للسلطان *Vekîli Muflak*. وبسبب التميز الخاص المرتبط بالوزارة كرتبة فلم يعد الوزير يدعى پروانه جى بل الوزير الأول أو الأكبر أو الأعظم (*Ulu Vezîri* أو *Vezîri A'zîm*). وبهذا عاد العثمانيون إلى التقليد الإسلامي القديم لتسمية الوزير لكنهم اضطروا إلى تعديل اللقب بوضع صفة «أعظم» لأنهم كانوا قد منحوا اللقب أصلاً لعدد من الأشخاص أقل رتبة من رئيس الوزراء.

كانت هذه الوظيفة حتى فتح القسطنطينية يشغلها مسلمون أحرار، ففي عهد أورخان تسلمها أخوه الشهير علاء الدين⁽²⁾، وبالأخص كانت هناك عائلة چندارلى *Çanndârli* التي استلمت هذا المنصب في عهد خلفاء أورخان لمدة دامت لأربعة أجيال، وكان رابعهم في المنصب عندما تم الفتح⁽³⁾. وفي الوقت نفسه أشرنا سابقاً إلى أن السلاطين اعتمدوا بعد توسع رقعة البلاد شكلاً جديداً للحكم فأوجدوا نظاماً للعاملين في القصر السلطاني والجيش النظامي يضم عبيداً خاصين بهم ثم مجتدين من قوات الدوشيرمه. وبهذا أصبح تسلم المركز الأول في المؤسسة الحاكمة من قبل مسلم حراً شاذاً، ويقال إن السلطان محمد كان ينظر إلى المزية التي حصلت عليها

(1) بالرغم من أنه تم وضع قانون ناميه في عهد السلطان محمد الثاني، فقد كان السلاطين الذين سبقوه يصدرون قوانين فردية.

(2) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «علاء الدين پاشا».

(3) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «چندارلى»، وكان الوزراء الأربعة هم 1. قره خليل في عهد مراد الأول؛ 2. ابنه علي في عهد بايزيد الأول؛ 3. ابنه إبراهيم في عهد محمد الأول ومراد الثاني؛ 4. ابنه خليل في عهد مراد الثاني ومحمد الثاني. وكان اسم العائلة يُكتب بعدة أشكال منها *Çandârli*، *Çenderli*، *Çendereli*، *Çendereli* وهو الذي استعملناه لأنه المفضل لدى المؤرخين الأتراك.

عائلة چندارلى بشيء من الغيرة⁽¹⁾ وبدأ ينقم على وزيره خليل پاشا ويرتاب بأنه على صلات خيانة مع البلاط البيزنطي⁽²⁾. لذلك قام بعزله ثم إعدامه في نفس عام الفتح واختار بدلاً عنه رجلاً من القايى قول لرى هو محمود پاشا عدني⁽³⁾.

ورغم أن واحداً من عائلة چندارلى قد تسلّم منصب رئيس الوزراء لفترة قصيرة⁽⁴⁾ في عهد خليفة السلطان محمد، فقد أخذت المؤسسة الحاكمة القائمة على نظام الرّق بتعيين العبيد في هذا المنصب. ومنذ الفتح إلى آخر أيام سليمان العظيم، أي ما يقرب من مئة عام، كان الوزراء أقرب ما يكونون من الوظيفة النموذجية لوزير التنفيذ إذ كان السلاطين محمد الثاني وسليم الأول وسليمان حكماً ذوي نشاط كبير وحيوية فائقة. ولكن باستسلام السلطان سليمان في أواخر عهده إلى العزلة وانصراف خلفائه إلى حياة الترف أصبح للوزراء، الذين صاروا يُعرفون باسم الصدر الأعظم⁽⁵⁾، سلطة ومكانة عالية رغم أنهم من القايى قول لرى. وباستثناء داماد صوقولى محمد پاشا الذي حكم الإمبراطورية مدة ثلاثة عشر عاماً بعد وفاة سليمان⁽⁶⁾، وكذلك الأفراد الأربعة لعائلة

(1) انظر سيّد مصطفى ج 1 ص 56-57.

(2) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «چندارلى».

(3) انظر عطا ج 2 ص 4. ويذكر دوشون ج 7 ص 152 أن السلطان محمد بعد تخلصه من خليل چندارلى أراد الاستغناء عن منصب الوزير بشكل كامل، ولم يعين محمود پاشا إلا بعد ثمانية أشهر.

(4) هو إبراهيم بن خليل الذي خدم السلطان بايزيد الثاني من 1497 حتى 1499. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «چندارلى».

(5) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «الصدر الأعظم».

(6) وكان وزيراً أعظم منذ عام 1565 (أي قبل عام من تولي سليم الثاني العرش) إلى حين مقتله عام 1579 (أي بعد تولي مراد الثالث العرش بخمسة أعوام). كان بوسني المولد وكلمة صوقولى هي اللفظة التركية لاسمه الأصلي سوكونليفتش. وكان «داماد» أي الصهر لزواجه من السلطانة أسمهان ابنة سليم الثاني. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «صوقولى». لكن يبدو أن سنة ترقيته لمنصب الوزير الأعظم خاطئة في هذا المقال (أي 1568) التي كانت بعد وفاة سليمان بعامين، وقد ذكر أنه خدم في عهده لمدة خمسة عشر شهراً.

كوبرلي الذين أنقذوا الإمبراطورية من الانهيار في نهاية القرن السابع عشر⁽¹⁾، فإن كبار الوزراء لم يعودوا قادرين على القيام بما قام به السلاطين في الأيام العظام. يكمن السبب الأول في أن فترة تولي الوزير للمنصب كانت معتمدة على عطف السلاطين، لكنها اضطربت بعد ذلك خصوصاً إثر تفضيل السلاطين للعزلة ووقوعهم تحت تأثير الحريم والخصيان ومؤامراتهم التي هددت مهمة الوزير، بالرغم ما أشرنا إليه سابقاً من محاولة الوزير چورلولي علي باشا للحد من نفوذ الخصيان. أما السبب الثاني فهو عدم وجود بديلين متميزين في الحكومة عدا عن اثنين من عائلة كوبرلي، ومع أن أولهما كان قابي قولي⁽²⁾، فإن وضعه لم يعد ملائماً بعد تدهور نظام التدريب والترقي حسب الكفاءة.

ومع أن الصدر الأعظم هو الوكيل المطلق للسلطان، فلم يكن يملك السلطة المباشرة على مؤسستين مهمتين في الدولة، هما القصر السلطاني وهيئة علماء الدين⁽³⁾، وماعدا ذلك فقد كان صاحب النفوذ الأكبر ويده كل التعيينات سواء في

(1) 1. محمد باشا، الصدر الأعظم منذ عام 1656 حتى وفاته عام 1661. 2. ابنه فاضل أحمد باشا، الصدر الأعظم الذي خلف والده مباشرة منذ عام 1661 حتى وفاته عام 1676. 3. فاضل مصطفى باشا ابن محمد باشا، الصدر الأعظم منذ عام 1689 حتى مقتله في الحرب عام 1691. 4. حسين باشا ابن أخي محمد باشا، الصدر الأعظم منذ عام 1697 حتى تقاعده عام 1702. كانت العائلة من أصول ألبانية، وكان محمد باشا يتميز بشكل خاص بنشاطه الذي أعاد النظام إلى الإمبراطورية، كما تميز فاضل باشا بقيادته العسكرية، وفاضل مصطفى وحسين بإصلاحاتهما الاقتصادية. وفي عهد حسين تم توقيع صلح كارلوفيتش مع روسيا والنمسا وپولونيا والبندقية. هناك فرد خامس في العائلة هو نعمان باشا ابن مصطفى الذي خدم كصدر أعظم من عام 1702 إلى عام 1710 لكنه لم يثبت جدارته وتم عزله ثم أصبح «داماد» بزواجه من السلطانة عائشة أخت مصطفى الثاني. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «كوبرلي».

(2) كان مسلماً بالولادة وتوظف أول مرة في الحلوى خانة في الخدمة الخارجية للقصر بفضل لقائه مع صديق له يعمل في المطابخ السلطانية. انظر عطا ج 2 ص 68.

(3) كانت هيئة علماء الدين خاضعة لشيخ الإسلام وقاضي العسكر (انظر الفصل التاسع من الكتاب).

الجيش أو في الإدارتين المركزية والإقليمية⁽¹⁾. كان يُطلب إليه إدارة شؤون الجيش بالإضافة إلى قيادته في الحرب إن لزم الأمر، وكان كقادة فرق المشاة المختلفة مسؤولاً عن مراقبة الالتزام بالقانون والنظام في العاصمة، بل أكثر من ذلك فقد كان يمثل السلطان في رئاسة مجلس العدل بوصفه إمام الأمة. في البداية كان السلاطين يحاكمون الحكام المسلمين السابقين فيجلسون للقضاء بين الناس بأنفسهم⁽²⁾ لكنهم كانوا يقومون بذلك بمساعدة قضاة الشريعة، إذ يتوجب عليهم مطابقة الشريعة في كل حكم أو قرار يتخذونه. ولما حلّ الصدر الأعظم مكان السلطان وتسلم السلطة العليا للقضاء، كان يقوم بمهمته أيضاً بمساعدة قضاة الشريعة فيوكل إليهم القضايا الخاصة بالقوانين الشرعية ويحتكم إليهم ويطلب مشورتهم في كل الأمور⁽³⁾. لكن سلطة كل من الوزير والقاضي الشرعي لم تكونا مقتصرتين على بعضهما بشكل متبادل، بل على العكس كانت سلطة كل منهما تشمل قضايا المحكمة كلّها، إذ كان الوزير نائباً عن السلطان - الإمام والقاضي الشرعي مطبقاً للشريعة حسب الأعراف والعادات. ومع أن منصب الوزير أعلى من منصب القاضي، فلا شك أنه لم يكن قادراً على البت في القضايا بمفرده. وكما سنرى فإن هذا التقسيم غير المحدّد أو التداخل بين السلطات كان سائداً في الأقاليم أيضاً حيث كان الحكام المحليون يمثلون السلطان. وبما أن الصدر الأعظم كان الحامي الأول للقانون والنظام في العاصمة، فقد كان يذهب في جولات أسبوعية إلى الأسواق ليتأكد من الرقابة السليمة للحرف وقواعد التجارة وليقبض على المجرمين ويعاقبهم، يرافقه في ذلك قاضي إسطنبول⁽⁴⁾.

(1) انظر دوسون ج 7 ص 156؛ وهامر ص 82-83.

(2) لغاية عهد محمد الفاتح (انظر سيد مصطفى ج 1 ص 59)، كسلاطين السلاجقة في قونية (انظر كوبرلي زاده ج 2 ص 199 وما يليها).

(3) كان القضاة هم (أ) قضاة عسكر الروملي والأناضول وذلك يوم الجمعة في الديوان السلطاني (الذي كان يُعقد حتى منتصف القرن السابع عشر أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، ثم أصبح يُعقد أيام الأحد والثلاثاء فقط)؛ (ب) قضاة إسطنبول وأيوب وغلطة وأسكدار أيام الأربعاء في الديوان.

(4) كان الصدر الأعظم يقوم بجولاته يوم الأربعاء بعد جلسة الديوان. وفي أيام دوسون لم يعد

كان السلطان يشير إلى منح الصدر الأعظم التفوذ والسلطة بتسليمه خاتم المهر السلطاني⁽¹⁾ الذي يُختم به الكثير من المرافق المهمة. وعندما كان السلطان يطلب من الوزير إعادته إليه كان ذلك دلالة على عزله من منصبه. كان الوزراء في الأيام الأولى للإمبراطورية يضعون الخاتم في أصابعهم، وأصبحوا فيما بعد يضعونه في جيوبهم داخل محفظة من القماش الذهبي⁽²⁾. بعد ذلك كرم السلطان الصدر الأعظم بجعل بعض من خدم القصر يقومون بخدمته، وكان آغا الركاب يقوم بذلك مرة في الأسبوع، وكان الصدر الأعظم يذهب من مسكنه إلى القصر يرافقه الجاوش باشى *Çavuş Başı* وعدد من رجاله⁽³⁾. كما كان للصدور العظماء حقوق متميزة، وهم وحدهم الذين يتواصلون مع الحاكم، وهم وحدهم يملكون الحق بحمل راية النبي في الحروب. وفي الأيام اللاحقة لما ازداد نفوذهم أصبح منصبهم مهياً جليلاً. وبهذا صار واجباً على كل الموظفين، ما عدا شيخ الإسلام، أن يقبلوا هُذب ثوب الصدر الأعظم عند

قاضي إسطنبول يرافقه. انظر ج 7 ص 157، وهامر ص 85.

(1) كان المؤرخون يشيرون إلى ارتفاع مرتبة الصدر الأعظم بقولهم: لقد حصل على شرف الاحتفاظ بخاتم مهر سيد العالم. انظر عطا ج 2 ص 137.

(2) سيد مصطفى ج 1 ص 59؛ دوتون ج 7 ص 153-154؛ هامر ص 94-95؛ ليبير ص 166.

كانت المرافق التي تمهر بختم السلطان هي: مخزن السجل المالي *Mâliye Defter-hânesi*، وخزينة السراي الخارجية *Dış Hazine*، ومكتب الأرشيف العام *Defter-hâne*، كما كان الكيس اليومي *Rüznâme Kisesi* يختم به أيضاً، وهو يحتوي على سجلات الأحكام التي يصدرها الوزير في المحكمة. في البداية كان الخاتم يسلّم إلى الصدر الأعظم في منزله من قبل موظف محكمة، ولكن منذ عهد أحمد الأول أصبح يقدّم إليه بحضور السلطان نفسه. وعندما كان السلطان يرغب في عزل الوزير كان يرسل إليه موظف المحكمة لاسترجاع الخاتم (ويكون عادة قاييحي لركاخية سى *Kapıcılar Kâhyası*). وكان الصدر الأعظم الذي يُعزل يُجبر على مغادرة العاصمة في الحال.

(3) انظر ليبير نقلاً عن علي بما يخص بدء التطبيق في عهد محمد الثاني. ويدل قانون نامه أنه بحلول القرن السابع عشر كان آغا الركاب يحضر الدواوين كلها، لكنهم أصبحوا يخرجون (مع قادة البولوك) مع الصدر الأعظم في صباح أيام الخميس حيث لا يوجد ديوان، وربما من أجل إظهار التميز.

الدّخول إلى مجلسه⁽¹⁾، وفي حين كان هؤلاء الموظفون يستقبلون عامة الناس في مكاتبهم فلم يكن الصّدر الأعظم يلتقي إلا بالأشخاص البارزين بعد طلبهم الزيارة إلا عندما يجلس في المحكمة أو يعقد لقاء عاماً مرة في الشهر⁽²⁾. ولكن الدليل الواضح لانتقال القيادة والسلطة من السلطان إلى الصّدر الأعظم في العصور الأخيرة إنما هو تأسيس الباب العالي. لغاية ذلك الوقت كانت كل الشؤون المهمة للدولة تدار في قصر السلطان وكان للصّدر الأعظم منزل خاص يتعامل فيه مع الشؤون الأقل أهمية، ولكن في عام 1654 زوّد السلطان محمّد الرابع وزيره درويش محمّد باشا بمسكن رسمي أصبح يُعرف باسم باب الباشا *Paşa Kapısı* والباب العالي⁽³⁾ *Bâbi 'Âlî* يقيم فيه الوزير ومن يخلفه. لم يكن هذا البناء الفخم مسكناً للصّدر الأعظم وعائلته وخدمه وحرّاسه فحسب، بل كان مكتباً عاماً تدار فيه المهام من قبل الموظفين الرئيسيين في الإدارة، باستثناء أولئك الذين يديرون القضايا المالية⁽⁴⁾.

وكما أشرنا سابقاً، فإن لقب الوزير كان قد أطلق بحلول القرن الخامس عشر على عدد من الأشخاص في الوقت ذاته، وهم الحكام الإقليميون ذوو المكانة الرّفيعّة الذين يمنحهم اللقب سلطات واسعة بحيث يصدرّون أوامر سلطانية تُعرف بالفرمانات⁽⁵⁾ وفي بعض الحالات قد يسكّون التّقود باسم السلطان. وفي عهد السلطان محمّد الفاتح تمّ منح هذه الرتبة للضباط المقيمين في العاصمة، وكان ذلك بسبب أن السلطان والصّدر الأعظم كانا غائبين في كثير من الأحيان، إما معاً أو بشكل فردي، في الحملات والحروب، ومن جهة ثانية للتزود بالمستشارين الذين يُضفون

(1) يذكر دوتسون ج 7 ص 154 أن الصّدر الأعظم كان يمنعهم من فعل ذلك، من قبيل اللباقة، ويقدم لهم يده بدلاً عن ذلك.

(2) المصدر السابق ص 176-177.

(3) يقول هامر في كتابه ص 95 إنه من المحتمل أن يكون تعبير الباب العالي قد أُطلق قبل ذلك على قصر السلطان، ثم انتقل إلى مقر الصّدر الأعظم بانتقال السلطة الفعلية إليه.

(4) انظر دوتسون ج 7 ص 158، 174 وما يليها؛ الموسوعة الإسلامية مادة «القسطنطينية».

(5) انظر سيّد مصطفى ج 1 ص 91. كان من حقهم أيضاً ختم الوثائق بعلامة السلطان التي تسمى «الطغرة».

لمسة من المهابة والاحترام. وعندما كان الصدر الأعظم يتولّى قيادة الجيش كان لا بدّ لأحدهم بأن يحلّ محله، وعندما كان السلطان يقود الحملة بنفسه كان الصدر الأعظم يرافقه، وأيضاً كان لا بدّ من ترك أحد يعتني بشؤون العاصمة. أخيراً، أثناء الحروب في أوروبا، كان لا بدّ من تعيين ضابط مهم للحفاظ على الأمن في آسيا، وأثناء الحروب في آسيا، كان لا بدّ ممّن يحفظ الأمن في أوروبا. وبهذا تم تعيين وزيرين في البداية، ثم أصبح عددهم تسعة في القرن السادس عشر، وكانوا يعيّنون في أماكن مختلفة عندما تقتضي الحاجة. وبسبب أن المجالس التي كانوا يسهمون بالعمل فيها كانت تُعقد في غرفة ذات قبة في القصر فقد صاروا يُعرفون بوزراء القبة *Kubbe Vesîrs*، وكانوا يمنحون لقب: الوزير الأول، الوزير الثاني، وهكذا. كانوا يمنحون في بعض الأحيان قيادة القوات في الحملات الصّغيرة فيلقب أحدهم عندا بالسردار. كان لكل واحد منهم رجال يعملون في خدمته بحيث يضع بعضاً منهم في منزله في العاصمة والبعض الآخر في المقاطعات المجاورة، حيث يقيمون في الخيام لحراسة قطعان المواشي والمعدّات الحربية، كما يستخدمونهم كحراس خاصين في الحملات فينطلقون مع عدد من أورطات الجيش الإنكشاري وبعض تقسيمات الخيالة النظاميين يرافقهم إلى وجهتهم الحكام الإقليميون ورجالهم والقوات الإقطاعية⁽¹⁾. كان الوزير الذي يحلّ محل الصدر الأعظم لدى خروجه إلى الحرب يدعى بالقائمقام⁽²⁾ *Kâ'im-makâm*، وكان يُعهد في الأغلب بهذه المهمة للوزير الثاني. كان يتمتّع في هذه الفترة بكل سلطات الصدر الأعظم باستثناء المنطقة التي تدور فيها الحرب. ولما كان معظم كبار القادة وضباط الإدارة يرافقون الصدر الأعظم في الحملة، فقد كان الضباط والموظفون الأدنى رتبة هم من يبقون مع الوزير الثاني ليساعدوه في أداء مهامه. كان هذا النظام الغريب سائداً في الأزمنة التي كان السلاطين يقودون فيها جيوشهم بأنفسهم، يرافقهم كبار وزرائهم مخلفين وراءهم من يعتني بشؤون العاصمة. واستمرّ النظام حتى في الأيام اللاحقة، حيث كان السلاطين يبقون في العاصمة ويقوم وزراؤهم بقيادة

(1) انظر سيّد مصطفى ج 1 ص 59؛ دوشون ج 7 ص 212؛ الموسوعة الإسلامية مادة «وزير».

(2) وتعني الكلمة حرفياً «من يحلّ مكان آخر».

الجيوش. وبما أن الحروب كانت كثيرة وكان الوزراء يضطرون للخروج المتكرر، فقد شاع تعيين القائمقام، وبهذا نجد في سيرة حياة الصدر الأعظم أنه قبل ترقيته إلى منصبه كان يشغل رتبة القائمقام. كما كان القائمقام يُعين أيضاً في فترات تغيير الحكومة عندما كان حاكم إقليم يترقى ليصبح صدراً أعظم⁽¹⁾.

بالإضافة إلى وزراء القبة، كانت رتبة الوزير تمنح أيضاً في أواخر القرن الخامس عشر بعض رجال الدولة ذوي المقامات الرفيعة⁽²⁾، وأخذ عدد من يملكون اللقب يتزايد تدريجياً، وخاصة بعد أن أخذت المؤسسات العثمانية بالانحدار إلى أن تجردت هذه الرتبة من مزاياها السابقة. ومنذ منتصف القرن السابع عشر تراجع عدد وزراء القبة ثم ألغيت الرتبة تماماً في بداية القرن الثامن عشر. ومنذ ذلك الحين لم يعد يحمل لقب الوزير في العاصمة سوى أربعة أو خمسة أشخاص بمن فيهم رئيس الوزراء نفسه؛ وكان اثنان منهم على الأقل من أفراد القصر السلطاني (وأحدهم قيزلر آغاسى *Kızlar Ağası*) يتعاملان بالشؤون العامة بشكل غير رسمي. أما باقي الوزراء فكانوا من حكام الأقاليم⁽³⁾.

يمكننا الآن الانتقال للحديث عن بنية الإدارة المركزية ذاتها. فكما سبق وأشرنا، كان العمل الحكومي في الدول الإسلامية السابقة مقسماً بين فئتين رئيسيتين من موظفي الدولة، تقوم الأولى بأعمال المراسلات وإصدار الأوامر بينما تهتم الثانية بالشؤون المالية. وبهذا كان للدولتين العباسية والسلجوقية العظمى مكتب للرسائل ومكتب لإصدار الأوامر من جهة، ومن جهة أخرى كان هناك مكتب مالي⁽⁴⁾؛ وقد قام

(1) انظر دوتون ج 7 ص 158؛ هامر ص 96، 136-137.

(2) على سبيل المثال النشأنجى *Nişancı* والذفتردار *Defterdâr*.

(3) انظر أحمد راسم ج 2 ص 309؛ سيد مصطفى ج 2 ص 91؛ دوتون ج 7 ص 212؛ هامر ص 81.

(4) كان مكتب المراسلات يدعى ديوان الرسائل (لدى العباسيين) وديوان الإنشاء (لدى السلجوقية). وكان مكتب إصدار الأوامر يدعى ديوان التوقيع (لدى العباسيين) وديوان الطغرة (لدى السلجوقية). أما المكتب المالي فكان يدعى ديوان الخراج وديوان التفقات (لدى

العثمانيون بمحاكاة هذا النظام بحذافيره. كان كل من هذه المكاتب يستقى في الدولة العباسية بالديوان⁽¹⁾، ولكن في بداية القرن العاشر عندما أصبح الخلفاء واقعين تحت سيطرة الحكام المتمردين ولم يعودوا يحكمون إلا منطقة صغيرة نسبياً، اسماً فقط، لم يعد هناك حاجة إلى آلة إدارية موسعة. لذلك تم ضم الدواوين كلها إلى بعضها⁽²⁾ ومن يومها أضحي لكلمة «ديوان» المطلقة على المكتب الحكومي معنى جديد هو الإدارة بشكل عام لتمييزها عن بلاط الحاكم ورجال قصره. ومن هنا برز اسم جديد للوزير، ففي عهد السلاجقة العظام أصبح يدعى بصاحب الديوان *Şâhib Dîvân*. وفي عهد السلالة الحاكمة في قونية يبدو أن الكلمة أصبحت تطبق بشكل مختلف، فبالإضافة إلى صاحب الديوان (الذي كان موظفاً أكثر من كونه پروانه جي) كان لدى الحكام السلاجقة موظف لتسجيل الأمور المالية (أموال دفتر جي سي) *Emvâl Deftercisi* وسكرتير خاص⁽³⁾ *Münşi 'l Hâşş*، وبذلك أصبح الديوان خلال حكمهم أشبه بقسم من مكتب الصدر الأعظم لدى العثمانيين؛ أي مكتب المحفوظات أو السكرتارية⁽⁴⁾. لكن الكلمة لم تعد تعني ذلك ولا أي قسم غيره ولا حتى الإدارة ككل في العهد العثماني، بل أصبحت تدلّ على مجموعة الموظفين لاسيّما الذين يعملون في القصر تحت رئاسة الصدر الأعظم. ويمكننا هنا أن نستطرد حول هذا المعنى بشيء من التفصيل، بما أن وضع الكثير من موظفي الإدارة كان منوطاً بشكل واسع بقبولهم في الدواوين أو استبعادهم منها.

العباسيين) وديوان الاستيفاء (لدى السلاجقة).

(1) أصل الكلمة ذو اشتقاق فارسي بمعنى «رَقْم» أو «سَجَل».

(2) انظر بوين «حياة وزمان علي بن عيسى» ص 393.

(3) انظر كوبرلي زاده *Selçukliler Zamanında Anadolu'da Tür, Medeniyeti* ص 204. في

عهد السلاجقة كان رئيس مكتب المراسلات يدعى أيضاً المنشئ *Münşi*. للعودة إلى بعض المصادر عن الحكومة انظر نظام الملك «سياسة نامه» والبنداري «زبدة النصرة».

(4) كان هذا المكتب يُعرف باسم ديواني هُمَايُونِي قَلَمِي (أي قسم السكرتارية للديوان السلطاني)

وقد استخدمت الكلمة العربية «قلم» مجازاً لهذا القسم، لكن الديوان المشار إليه هنا هو مجلس وبلاط الصدر الأعظم.

بهذا المعنى الجديد أصبحت كلمة الديوان تطلق على المجالس العامة للسلطين، وقد كانوا يعقدونها في البداية للاستماع إلى المظالم وإحقاق العدل، بالإضافة إلى استلام البيعة من وزرائهم ومقابلة السفراء وترؤس دفع أجور قواتهم النظامية. لغاية عهد السلطان محمد الفاتح استمر السلطين بالظهور أمام العامة للأمرين الأول والثالث وغيرهما، ولكن يقال إنه بسبب عدم احترام أحد المتظلمين له في إحدى المناسبات، قرر السلطان إبطال هذا النظام وأوكل بمهامه القضائية إلى الصدر الأعظم. ولكن من أجل المحافظة على سيطرته على سلوكه داخل المحكمة، أمر بفتح نافذة في جدار غرفة المحكمة بحيث يختبئ وراء قضبانها ويراقب سير العمل دون أن يلحظه أحد⁽¹⁾. كانت هذه الغرفة ذات القبة واقعة في وسط الباحة الثانية للقصر ضمن نطاق الخدمة الخارجية. ومنذ انسحاب السلطان محمد وخلفاؤه من رئاسة المحكمة، لم يعودوا يظهرون فيها أبداً. وسواء أقام بفعل ذلك من قبل أم لا فقد أخذوا يعقدون المجلس في غرفة أخرى⁽²⁾ داخل بوابة السعادة التي تطل على البلاط الداخلي. مع ذلك فقد كانت هذه المجالس تُسبق بعقد اجتماعات في غرفة القبة يرأسها الصدر الأعظم، وقد أطلق على هذه الأماكن اسم الديوان مع أنها تشمل غرف الاستقبال الذي يقام في غرفة المجلس بعد انتهاء الاجتماع. ولكن بما أن هذه الإجراءات كانت تتم بالبحث في أمر المظالم من قبل رئيس الوزراء وعلماء الدين الذين يساعدونه، فقد أصبحت كلمة الديوان تدل على مجلسه القضائي فحسب⁽³⁾. وبشكل عام من جهة أخرى كانت

(1) انظر سيد مصطفى ج 1 ص 59.

(2) تدعى *Arq Odası* أي غرفة عرض المظالم. لقد حدث انسحاب السلطان محمد من رئاسة المحكمة العامة بعد أن أقام في القصر بفترة قصيرة، وبهذا فإن الترتيبات الموصوفة هنا كانت موجودة نظرياً منذ بداية تاريخ السراي. لكننا لم نستطع التثبت من كون المحكمة عقدت فعلياً في غرفة القبة الشهيرة أم لا، لكن اتخاذ وسيلة النافذة ذات القضبان تعود دون شك إلى زمن تغيير السلطان لعاداته. يذكر عطا في كتابه ج 1 ص 59 غرفة القبة في فصل الكلام عن محمد الثاني لكنه لم يحدد تاريخاً لبنائها.

(3) لمزيد من المعلومات عن المراسم المقامة في دواوين المجالس ودفع أجور الفرق العسكرية واستقبال السفراء انظر كتاب «قانون نامه».

تطلق على اجتماعات أي مجموعة من الموظفين، وبهذا أصبحت مجالس الشورى للإدارة العامة للجيش الإنكشارية تحمل اسم الديوان.

كان مكتب المراسلات في العهد العباسي يمثل في العهد العثماني بسكرتارية الصدر الأعظم المذكورة سابقاً، وكلاهما مستقل عن قسم إصدار الأوامر لكن يعمل بالتنسيق معه. وكان قسم إصدار الأوامر في العهد العباسي يقوم بتفحص أو تصحيح الوثائق الصادرة عن المكتب الأول ووضع إشارات تدل على أنها صدرت وفقاً لسلطة الحاكم. كان هناك مكتب مشابه في إدارة العصر السلجوقي ويدعى رئيس موظفيه بالطغرائي *Tuğrā'i* لأن علامة الحاكم كانت تسمى الطغرة. كانت علامة الحاكم العثماني تدعى الطغرة كذلك وكانت تداخلاً معقداً لاسم السلطان وتستخدم على الوثائق وقطع النقد معاً. كان أحد الموظفين الرئيسيين اللذين يليان الصدر الأعظم (باستثناء وزراء القبة) هو النشانجي أو صاحب الختم، وبالرغم من كونه يحتل مرتبة أدنى من موظف مكتب المراسلات في العهدين العباسي والسلجوقي، فقد اختلف الأمر في العهد العثماني. كان مكتب السكرتارية أهم من وظيفة النشانجي ولكن بسبب خضوعه للرقابة المباشرة من قبل الصدر الأعظم فقد كان رئيس الموظفين الذي يدعى رئيس الكتاب⁽¹⁾ ذا مرتبة متواضعة نسبياً في بداية العهد العثماني ولم يحصل على مركز مرموق يعادل تقريباً نظيره في العهدين العباسي والسلجوقي إلا في عصر الانحطاط. وبسبب المحافظة التي تمسك بها السلاطين لم يُعترف رسمياً بمساواة وظيفة الرئيس بوظيفة النشانجي على الرغم من أنها أصبحت تفوقها أهمية.

كان رئيس الكتاب إذن مساعداً للصدر الأعظم في إدارة قسم السكرتارية، لكن كان للصدر الأعظم مساعد عام آخر تعلو رتبته على رتبة الرئيس بالرغم من أنه أقل شأناً منه لدى الناس؛ إنه الكاخية بك *Kāhya Bey*. وبفضل تولي الصدر الأعظم لمهام السلطان القضائية فإن الجاوش باشي الذي كانت مهمته الرئيسية تقضي بمتابعة مجريات جلسات المحكمة أصبح يحضر مجالس الوزير أكثر من حضوره لمجالس السلطان، وبهذا غدا

(1) كلمة كتاب عربية وهي صيغة الجمع لكلمة كاتب. انظر الموسوعة الإسلامية.

مساعداً له أيضاً. ولهذا السبب لا يظهر الجاوش باشى كضابط من رجال السلطان فحسب بل كموظف في الإدارة. ومن خلال وصف دوسون D'Ohsson يتبين أن الكاخية بك ورئيس الكتاب والجاوش باشى كانوا جميعهم وزراء يعملون تحت إمرة الصدر الأعظم، بينما كان النشانجى ورئيس القسم المالي مجرد مستشاري دولة. لم يكن هذا التمييز موجوداً في العهد العثماني، لكن يبدو أن دوسون قد استخدمه ليقدم لقرائه فكرة عن أهميتهم الفعلية في الحكومة بمقارنتهم بوزراء الدول الأوروبية. لقد اكتسبوا هذه الأهمية فقط عندما ارتفعت مكانة الصدر الأعظم كونهم مساعدين له. لم يتم إقرار الأمر رسمياً وكذلك لم يحصل الكاخية بك ولا رئيس الكتاب على مقعد في الديوان، بينما حصل النشانجى ورئيس القسم المالي على ذلك منذ زمن بعيد. مع ذلك يمكننا بدء وصفنا للإدارة بالتفصيل من هؤلاء المساعدين الثلاثة بفضل المزايا التي حصلوا عليها باحتكاكهم المباشر بالصدر الأعظم. يضع دوسون الكاخية أولاً يليه الرئيس ثم الجاوش باشى، أما رسمياً فالجاوش باشى أعلى مرتبة من الرئيس بينما لم يكن للكاخية رتبة على الإطلاق لأسباب سيرد ذكرها لاحقاً. ولهذا نقترح الكلام عن الجاوش باشى أولاً وترك الكلام عن الرئيس حتى النهاية بسبب صلته الوثيقة بالموظفين الآخرين.

في الأيام المتأخرة كان الجاوش باشى يقوم بمهام متنوعة نشأت أساساً عن قيادته للجاوشية. كان الجاوشية يحضرون مجالس السلطان في المحكمة ليقوموا بتنفيذ الأحكام المعلنة فيها، واستمروا بحضور المجالس حتى بعد انتقال الرئاسة فيها إلى الصدر الأعظم. كان الجاوش باشى يعطيهم الأوامر اللازمة ويلعب دوراً مهماً في سير عمل المحكمة. وبحلول القرن الثامن عشر كان قد وصل إلى مرتبة يُعَدّ وفقها نائباً لرئيس المحكمة، وكان يعقد جلسات أولية يوقر من خلالها الوقت على الوزير، وطرح مقتطفات من القضايا التي يجب أن ينظر فيها وتقرير إحالة بعضها إلى محاكم أدنى. يصفه دوسون أيضاً بأنه وزير الشرطة، لكنه وصف مزلل إذ سبق أن ذكرنا أن مهمة المحافظة على النظام ومنع الجريمة في العاصمة والمناطق المحيطة بها هي مسؤولية الضباط ذوي الرتب المتنوعة. أما المهمة البوليسية الملقاة على عاتق الجاوش باشى فهي تختص بتنفيذ الأحكام الصادرة عن الصدر

الأعظم ورجال الدين الموكلين بنشر العدل وتطبيق القضاء. صحيح أنه كان مسؤولاً عن ضباط من الجيش الإنكشاري يدعون مُحضِر آغا *Muḥdir Ağa* وعَسَّاس آغا *Assâs* *Başı* وُصوباشي ⁽¹⁾ *Şubaşı* الذين كانوا يقومون بمهام پوليسية عامة؛ لكن الجاؤش باشي لم يكن مسؤولاً بأي حال عن حفظ النظام بل عن معاقبة مخالفتي القانون. كانت مهمة الجاؤشية العاملين بإمرته تنظيم أصحاب المظالم والخصوم والمتهمين في المحكمة، وحمل الرسائل، وتنفيذ بعض الأحكام. وكان فيلقهم مؤلفاً من خمس عشرة مجموعة، تضم كل واحدة منها اثنين وأربعين رجلاً يقودهم ضابط متصل بهيئة الصدر الأعظم ⁽²⁾، وكان يدير الفيلق بأكمله ضابط وسكرتير ⁽³⁾ مهمتهما إبقاء الأشخاص ذوي الرتب العالية، وخصوصاً رجال الدين، في أماكن عملهم. كان الجاؤش باشي يصدر أوامره من خلال الضابط، ويقوم السكرتير بتسجيل القضايا التي يحيلها الصدر الأعظم للمحاكم الدنيا، وأسماء الجاؤشية المسؤولين عن نقلها ⁽⁴⁾.

وبما أن الجاؤش باشي كان مسؤولاً عن مراقبة سير العمل في مجلس الصدر الأعظم فقد وقعت على عاتقه نوعاً ما مهمة ضبط عمل موظفين يدعيان التذكرجية ⁽⁵⁾ *Tezkercis* والموكلين بقراءة المظالم الخاضعة لحكم الوزير وتسجيل قراراته. لقد حظياً بدرجة عالية من الأهمية ويصنفهما دوسون ضمن سكرتاري الدولة الستة ⁽⁶⁾ بالرغم من تدني رتبتهما رسمياً. وفي قانون نامه في عهد السلطان محمد الفاتح يبدو أنهما امتازا على موظفي الرئيس فحسب، لكنهما بقيا اقل من مرتبة الضابط نفسه بفارق كبير. بالإضافة إلى مهامهما في مجلس الوزير فقد كانا مسؤولين عن تحضير

(1) انظر الملحق الأول.

(2) انظر الملحق الثالث.

(3) يدعيان جاؤش لر أميني *Çavuşlar Emîni* و جاؤش لر كاتبي *Çavuşlar Kâtibi*.

(4) انظر دوسون ج 7 ص 166-167، 174؛ سيد مصطفى ج 1 ص 60؛ هامر ص 119.

(5) إن التذاكر المعنية هنا هي المظالم التي تقدم للبحث، وكان التذكريان يسميان التذكري الكبير والتذكري الصغير، ويدعوها دوسون برئيسي المظالم «*Maîtres des Requêtes*».

(6) والآخرون هم المكتوبجي *Mektûbçu* والتشريفاتجي *Teşrifâtçı* والبيلكجي *Beylikçi* والكاخية كاتبي *Kâhya Kâtibi*. انظر هامر ص 127.

الأوامر التي يرسلها إلى الدوائر الحكومية المختلفة⁽¹⁾.

كان كاخية الصدر الأعظم في البداية واحداً من الخدم الخصوصيين وليست له علاقة بالأمور الإدارية، ولكن مع ازدياد عظمة الوزارة ومسؤولياتها أصبح للكاخية مزايا أكثر ونفوذ أوسع، إلى أن صار ضباط الدولة ذوو الرتب العالية هم من يستلمون المنصب في النهاية⁽²⁾. كان الكاخية بك، كما كان يدعى آنذاك⁽³⁾، يسمى «آغا أفنديز»⁽⁴⁾ (أفندينا الآغا)، وكان نائباً للوزير في المنزل والشؤون العسكرية بشكل خاص⁽⁵⁾. وعندما كان موظفو الباب العالي يذهبون في إجازة أيام الأعياد، وبينما يقوم الصدر الأعظم بزياراته الرسمية، كان الكاخية بك يضطر للبقاء في عمله لينوب عنه في الأزمات المفاجئة⁽⁶⁾. وبالإضافة إلى وجود سكرتيرين يعملان تحت إمرته يتولّى أحدهما المراسلات العامة وجمع المستحقات له وللوزير، ويدعى كاخية كاتب⁽⁷⁾ *Kâhya Kâtibi*، ويتولى الآخر نقل الرسائل بينه وبين الوزير، ويدعى قره قولاك⁽⁸⁾ *Kara Kulak*، فقد كان يشرف على سكرتير الوزير المدعو بالمكتوبجي⁽⁹⁾ *Mektûbçu*، والتشريفاتجي⁽¹⁰⁾.

(1) انظر دوشون ج 7 ص 169؛ سيد مصطفى ج 1 ص 60؛ هامر ص 128.

(2) انظر أحمد راسم ج 2 ص 313، حاشية.

(3) لتمييزه عن ضباط الإنكشارية الذي يحمل اللقب نفسه صار يدعى وزير كاخية بك.

(4) انظر أحمد راسم، المصدر السابق. إن لقب آغا أفندي تركية غريبة إذ كانت كلمة أفندي تطلق بشكل عام على رجال القلم من العلماء وموظفي الحكومة، بينما تطلق كلمة آغا على رجال السيف. يذكر هامر ص 135 أن الكاخية بك والجاوش باشي كانا يعدّان من الأغوات بينما يعدّ رئيس الكتاب من الأفندية.

(5) انظر دوشون ج 7 ص 159؛ هامر ص 103 وما يليها.

(6) انظر دوشون ج 7 ص 175-176؛ هامر ص 136.

(7) أي سكرتير الكاخية. انظر دوشون ج 7 ص 170؛ هامر ص 132-133.

(8) انظر دوشون ج 7 ص 175، حاشية؛ هامر ص 107. ومن أجل معنى كلمة قره قولاك انظر الملحق الثالث.

(9) انظر دوشون ج 7 ص 169. مكتوبجي من الكلمة العربية «مكتوب» وتعني بالتركية كاتب الرسائل. قارن بكلمة كاتب المشتقة من الجذر العربي ذاته، وتعني «الذي يكتب». ويختلف هامر ص 131 عن دوشون في وضع المكتوبجي في مرتبة أدنى من مرتبة رئيس الكتاب.

(10) من الفعل العربي «شرف» أي أظهر احتراماً، ومنها كلمة التشريفات مع اللاحقة التركية جى.

Teşrifâtçı أو مدير المراسم الذي لديه عدد من المساعدين، ويقوم بتنظيم مراسم المحكمة والامتيازات التي يتمتع بها موظفو الدولة على اختلاف مناصبهم⁽¹⁾.

تظهر التبعية الواضحة للكاخية والمكتوبجي والتشريفاتجي للصدر الأعظم بأنهم كانوا يتعشّون وحدهم يومياً، بينما يتعشى رئيس الكتاب والچاؤش باشى على مائدة الوزير، حتى في أواخر القرن الثامن عشر⁽²⁾. مع ذلك فقد كانوا كلهم في ذلك الوقت على جانب كبير من الأهمية، ورأينا كيف وصف دوسون الكاخية بكونه الوزير الأول، وعدّ المكتوبجي والتشريفاتجي والكاخية كاتبي ثلاثة من الستة العاملين في سكرتارية الدولة. وكان الكاخية ومن هم أدنى منه مرتبة والكثير من الموظفين التابعين لقسمه يعتاشون بشكل رئيسي على الحصاص التي يتلقونها من الهدايا المقدمة للصدر الأعظم من قبل الأشخاص المعيّنين حديثاً في الوظائف الحكومية، كما كانوا ينالون نصيباً من مطابخ الوزير⁽³⁾، وبهذا كانت وظيفة الكاخية مربحة حقاً في الأيام الأخيرة وتمكن العديد من أصحابها من جمع ثروة من خلال وظائفهم⁽⁴⁾.

كان رئيس الكتاب، كما يوحي اسمه، السكرتير الأول في قسم السكرتارية، لكن يبدو أن سلطته قد اتسعت منذ الأيام الأولى لتشمل السيطرة على مكاتب السكرتارية الرئيسية لخزينة الدولة وغيرها⁽⁵⁾ على الرغم من كون مركزه متواضعاً آنذاك كما أشرنا سابقاً. كان العمل في مكتب السكرتارية يتضمن حفظ القوانين وبتهيئة الأوامر السلطانية أكثر من الاهتمام بالشؤون المالية وأمور الإقطاعات، كما يتعلق بإصدار الترقية في السلطة التي تحمل أسماء مختلفة تبعاً لطبيعتها، إلى الحكام الإقليميين وأصحاب

(1) انظر دوسون ج 7 ص 170؛ هامر ص 131-132 الذي يذكر أنه لغاية عهد أحمد الثالث كان مكتب التشريفات جزءاً من القسم المالي، ثم نقل إلى الباب العالي.

(2) دوسون ص 176.

(3) أحمد راسم ج 2 ص 357، حاشية.

(4) المصدر السابق ص 312، حاشية.

(5) يذكر دوسون ج 7 ص 166 أن الحال كان كذلك في زمانه.

الإقطاعيات العسكريين وشاغلي الوظائف الدينية بمختلف طبقاتهم⁽¹⁾ والقاييحي باشية *Kapıcı Başıs* وسكرتاري الإدارة والمستفيدين من الرواتب التقاعدية الصادرة كمنح دينية. كان القسم المسؤول عن حفظ القوانين وتحضير الأوامر السلطانية يدعى بيلك *Beylik* وهي كلمة يُعتقد أنها محرفة عن كلمة بيتيك⁽²⁾ *Bitik* بمعنى وثيقة؛ وربما يدل ذلك على أن البيلك كان في الأساس مرادفاً للسكرتارية ككل وإشراف من الرئيس من خلال موظف آخر يدعى بيلكجي *Beylikçi*. أما إصدار الترقيات فكان في الأيام اللاحقة مهمة قسمين آخرين غير البيلك يدعى أحدهما تحويل⁽³⁾ *Tahvîl* والآخر رؤوس *Rü'ûs* لأن الترقيات الصادرة للطبقتين الأوليين من موظفي رجال الدين كانت تحمل الاسم الأول بينما كانت الترقيات الممنوحة للطبقات الأدنى من رجال الدين والقاييحي باشية *Kapıcı Başıs* وسائر سكرتاري الإدارة تحمل الاسم الثاني. كانت الترقيات الممنوحة للحكام الإقليميين تدعى براءة *berât* بينما تدعى الصادرة منها لأصحاب الإقطاعيات العسكريين ضبط فرماني *dabı fermânı* وكانت مرتبطة أيضاً بمكتب التحويل. وكانت الأذون بمنح الرواتب التقاعدية من الأوقاف الدينية تدعى براءة أيضاً لكنها تصدر عن مكتب الرؤوس. في القرن الثامن عشر بلغ عدد موظفي السكرتارية حوالي مئة وخمسين موظفاً من ثلاث درجات⁽⁴⁾ يرأسهم ستة موظفين يتبعون للبيلكجي⁽⁵⁾.

(1) أي الملالي والقضاة والمدرسين والأئمة والمتولين (انظر الفصل التاسع من الكتاب).

(2) في التركية بيتيك هو الشيء المكتوب، من فعل الكتابة بيتمك.

(3) كلمة عربية من فعل حوّل أي نقل، ومنه تحويل، أو نقل.

(4) هم الكاتبون *Kâtibs* والصاغرد *Şâgirds* (أي التلميذ)، والشرحلى *Scharhlus*. (يكتبها دوسون هكذا، أما هامر فيكتبها *Scharhli* أو *Şârihlis* أو *Şârhlis* لكننا لم نستطع التأكد من معنى هذه الكلمة. قلت: هي من عبارة: شرح العربية.

(5) هم: 1. القانونجي *Kânûncu* ويهتم بالقوانين المتعلقة بأي مشكلة طارئة. 2. الإعلامجي *İ'lâmcı* (من العربية «إعلام» من فعل «أعلم» أي أخبر) ويهتم بكتابة تقارير عن هذه المشكلات. 3. المميز *Mümeyyiz* (من العربية «ميز» أي فرّق) ويقوم بتفحص وتصحيح الوثائق التي يُعدها الموظفون. 4. 5. 6. ثلاثة كيسه دار *Kisedârs* (أي حملة الكيس) واحد لكل قسم. وكان لرئيس الكتاب كيسه دار خاص به.

كان لرئيس الكتاب، إضافة إلى مسؤوليته عن قسم السكرتارية، مهمتان أخريان، الأولى هي صياغة المعلومات الصادرة عن الوزير الأول، والمسماة بالتلخيص *telhis*، إلى السلطان. وللقيام بهذه المهمة كان للرئيس مساعد آخر يدعى أمدجي *Amedci* نظراً لمهمته في توقيع إيصالات المستحقات التي يدفعها أصحاب الإقطاعات العسكريون الجدد والمرتبطة بأمد *amed* محدد. أما المهمة الثانية للرئيس، عدا عن إدارة السكرتارية، فهي التعامل بالشؤون الخارجية ولذلك كان يحتاج إلى تعيين مترجم له⁽¹⁾. في منتصف فترة التاريخ العثماني أي منذ الفتح إلى بداية الانحطاط، كانت العلاقات بين الباب العالي والقوى الأجنبية بسيطة نسبياً، أي أن السلطان كان يملئ رغباته ويعلن الحرب في حال عدم احترام هذه الرغبات، وبهذا لم يكن للرئيس مشاغل كثيرة في هذا الجانب. حتى عندما وُقعت المعاهدة مع فرنسا، وعندما أقام أول سفراء أوروبيين عند بوابة السعادة، فقد تولى كبار الوزراء المفاوضات بأنفسهم وبقي دور رؤساء الكتاب مقتصرًا على تدوين المقابلات التي تجري بينهم كما يفعلون في العادة أثناء قيام الوزراء بأعمالهم الأخرى. ولكن بانسحاب السلطان تدريجياً من إدارة الأمور شخصياً ازدادت أعباء الوزراء، وبما أن الصلات مع أوروبا قد نمت وتعمّدت وتطلبت اهتماماً مستمراً وبراعة في العمل، فقد أصبح الوزراء يستعينون بالرؤساء بشكل أكبر. وبما أن الرؤساء لم يكونوا على اطلاع كافٍ على السياسات الأوروبية أو الوضع الراهن، أو حتى مكان وجود الدول الأوروبية في بعض الأحيان، فقد أخذوا يعتمدون أكثر فأكثر على مشورة المترجمين. ولغاية منتصف القرن السابع عشر كان هؤلاء المترجمون عادة من الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام، ولكن في هذا الوقت كانت هناك عائلات كبيرة من اليونان الأرثوذكس القاطنة في حي الفنار في العاصمة والتي مالت إلى النمط الأوروبي نوعاً ما، وأصبح بإمكان أفرادها تقديم الخدمات المطلوبة. ومنذ ذلك الوقت أصبح هؤلاء يحتلون منصب المترجم، وفي بداية القرن الثامن عشر بدأ الباب العالي بتعيين الفناريين في منصب الهوسبودار في المقاطعات

(1) بالتركية: *Tercümân* أو *tarcumân* وهي كلمة عربية ذات أصول آرامية، تحرفت لتصبح *Dragoman* باللفظ اليوناني. كان مترجم الرئيس يدعى «مترجم الديوان» *Dîvân Tercümânı*.

الرومانية، وبهذا كان المترجم يُختار عادة لإحدى الوظيفتين الشاغرتين. كانت مهمة المترجم ترجمة المذكرات الأجنبية التي يرسلها المبعوثون إلى الباب العالي والعكس بالعكس، والقيام بالترجمة للرئيس أثناء المفاوضات مع هؤلاء المبعوثين، وللصدر الأعظم والسلطان عند استقبالهم لهم في مجالسهم⁽¹⁾. في الأيام الأخيرة أصبحوا يجرون المفاوضات بأنفسهم وبذلك احتلوا مكانة أعظم في أعين الجهات الأجنبية.

لم يتضح تماماً متى أنشئت الوظائف المختلفة التابعة لرئيس الكتاب، ومن المحتمل أنها قد ظهرت تدريجياً حسب الحاجة إليها لدى ازدياد حجم العمل⁽²⁾. ومن غير المرجح أن تكون قد وجدت كلها في عهد محمد الثاني ولكن وجودها أسهم دون شك في علو مكانة الرئيس. يعود ذلك في المقام الأول إلى ارتباط الرئيس بالوزير، وهو رسمياً يعدّ خادماً له، وبذلك غدا شخصية بارزة لدى الناس. والسبب الثاني الأقوى يعود إلى الأهمية المتزايدة للشؤون الخارجية في مجالس الإمبراطورية. كان المراقبون الأجانب في الأيام الأخيرة يصفون الكثير من الأهمية على شخصية الرئيس أفندي بشكل أكبر ممّا كان مواطنوه ينظرون إليه، إذ كان يلفت انتباههم بعد شخصية الصدر الأعظم، بينما لم يهتم معظم العثمانيين المعاصرين ولم يعرفوا سوى القليل عن «دار الحرب». أمّا الرئيس فقد كان بلا شك ذا نفوذ أكبر من رفيقيه الوزيرين في إدارة الأمور.

لقد تحدّثنا عن كل الموظفين الذين يقفون بقيادة الوزير الأعظم عند رأس المثلث الحكومي، ولاحظنا أن معظم العمل في الإدارات الإسلامية يقوم به عادة الموظفون الذين يحتلون رأس المثلث عند قاعدته - أعني أولئك المختصين بأمور المراسلات وتسجيل الوثائق وإصدار الأوامر والأحكام - أما في المخطط العثماني فيندرج

(1) انظر دوسون ج 7 ص 159-166؛ هامر ص 110 وما يليها، 131؛ ليبير ص 184-185؛ الموسوعة الإسلامية مادة «ترجمان».

(2) يذكر سيد مصطفى ج 1 ص 91 أن عدد أهل القلم قد ازداد مع الوقت؛ ويقارن أحمد راسم ج 2 ص 358-359 بين الوظائف كالأمدي والمكتوبجي اللذين لم يمنحا الإقطاعات، مع غيرهما ممن منحوا الإقطاعات.

هؤلاء ضمن النطاق المباشر للوزير الأول. ويمكننا الآن إذن الانتقال لوصف الأقسام المتعلقة بهذه النقطة في الإدارات العثمانية والتي يُعد النشأنجي (حامل الختم) من أبرز موظفيها.

لقد ورث العثمانيون استخدام التوقيع الملكي عن العباسيين، وورثوا استخدام الطُغرة - وهي شارة خاصة بالأتراك - عن السلاجقة، والتي بدأ استعمالها في الإمبراطورية العثمانية في وقت مبكر منذ أيام السلطان أورخان في القرن الرابع عشر⁽¹⁾. أما وظيفة النشأنجي، أو التوقيعي⁽²⁾ كما كان يدعى أيضاً، فلم توجد إلا بعد الفتح في عهد محمد الثاني. يبدو أن صاحب هذا المنصب كان يملك بعض السلطة على مكتب السكرتارية ورئيسه رئيس الكتاب، وعلى قسم إداري آخر هو الدفتر خانه الذي تحفظ فيه كل الوثائق المتعلقة بالإقطاعات، ورئيسه الدفتر أميني، أو موظف السجل⁽³⁾. كانت الدائرة الثانية مستقلة دائماً عن الصدر الأعظم بينما لم تكن السكرتارية كذلك⁽⁴⁾، وقد نشأت السلطة المذكورة أعلاه من طبيعة مهام النشأنجي، إذ بالرغم من كون عمله الرئيسي هو وضع الطُغرة على الوثائق الرسمية المتنوعة، فقد كان مكلفاً في البداية بتفحص هذه الوثائق وتصحيحها ومقارنتها بالقوانين المتعلقة بمواضيعها، ومن جهة أخرى كان مسؤولاً في حالات خاصة عن تعديل القوانين

(1) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «الطُغرة»، وكتاب فيتك Wittek «ملاحظات عن الطُغرة العثمانية» *Notes sur la Tughra ottomane* (1948) ص 311-334 ويحتوي قائمة بانتقال طُغرة السلاطين من أورخان على محمود الثاني.

(2) نشأنجي من كلمة نيشان الفارسية أي «العلامة» بإضافة التَّهْيَاة التركية إليها. وكلمة توقيعي من التوقيع، وإن عبد الرحمن التوقيعي الذي نقبتس كثيراً من القانون نأيه الخاص به إنما كان «نشأنجي».

(3) انظر سيد مصطفى ج 1 ص 58. وإن كلمة دفتر هي تحريف للكلمة اليونانية *diphtheria* أي الوثيقة أو السجل أو الكتاب. ومنه الدفتر دار هو حافظ السجلات والدفتر خانه هي مكان حفظ السجلات.

(4) انظر أحمد راسم ج 2 ص 358 حيث تعد الدفتر خانه واحدة من الدوائر الأساسية في الدولة إلى جانب الديوان (أي سكرتارية الوزير) والمكتب المالي (أي الخزينة).

لتتلاءم مع الأحكام الحديثة. لكن النشأنجى كان مضطراً في عمله لمراجعة السجلات التي يُحتفظ ببعضها لدى البيلكجى والبعض الآخر لدى الدفتر أمينى.

بما أن النشأنجى كان يملك سلطة في تعديل الوثائق لتتلاءم مع القوانين الموجودة، فقد كانت وظيفته في الأيام الأولى شبيهة بوظيفة رجل الدين (المفتى) ⁽¹⁾ الذي كان من مهامه ذكر أي تعارض بين القرارات الصادرة والشرعية؛ وبذلك كان النشأنجى يُعدّ مفتي القانون لكنه كان يختلف عن المفتي الديني بكونه مخولاً في بعض الحالات بتغيير النصوص التي يجب الرجوع إليها. وهو لا يفعل ذلك إلا بأوامر من الصدر الأعظم تدعى تصحيح فرمانى *taşhîh fermânı* (أي أمر التصحيح) ⁽²⁾ ويختتمه الوزير الأعظم بالطُغرة بنفسه (حتى لا يتصرف النشأنجى بهذه الأوامر بمفرده). وبعد إجراء التعديل المطلوب وإعادة القانون إلى السجلات يقوم النشأنجى بحفظ فرمان التصحيح لإثبات صحة عمله.

إن القيام بهذه المهام يتطلب معرفة واسعة من قبل النشأنجى، لذلك يتم اختياره إما من فئة معينة من علماء الدين أو بترقيته من مكتب الرئيس أو من رئاسة القسم المالي. ومع ذلك فإن الأخير، أي الدفتردار، يعادل النشأنجى في الرتبة ما لم يتم ترقية النشأنجى لرتبة الوزير أو التي تليها مباشرة ⁽³⁾. وفي هذه الحالة يتم الاعتراف رسمياً بعلو مرتبته على مرتبة الدفتردار، وفي كل الأحوال يكون وضعه في الديوان، الذي يملك كلاهما

(1) انظر الفصل العاشر من الكتاب.

(2) العبارة *taşhîh* أصلها كلمة عربية من فعل «صحح». وفي الموسوعة الإسلامية مادة «الطُغرة» تقع مهمة التصحيح على عاتق النشأنجى وتظهر بشكل تأكيد وتثبيت أكثر منها تصحيح للقوانين، وبعبارة أخرى تخول هذه الأوامر النشأنجى بمقارنتها بالقوانين الموجودة للتأكد من التوافق بينها. لكننا نعلم أن بعض التعديلات كانت تلحق بهذه القوانين بين الحين والآخر وبهذا كان النشأنجى يكلف بتنقيح مجموعة القوانين المسماة قانون نامه. ومن المحتمل إذن أن تكون هذه التعديلات هي من مهام النشأنجى أيضاً، وتخضع إجراءات التعديل لمجلس رسمي بينما لا يُسمح أبداً باتخاذ أي تعديلات غير موافق عليها.

(3) أي رتبة *Beylerbeyi* في الزوملي.

مقعداً فيه، في مركز متقدّم على مركز الدفتردار⁽¹⁾. وبحلول منتصف القرن السابع عشر يبدو أن علو مرتبته قد استمرّ في الازدياد، وفي قوانين تلك الفترة نجده يحتل مكاناً في الدّيوان عن يمين الصّدر الأعظم بينما يجلس الدفتردار عن يساره.

لكن أهمية النّشانجي قد بدأت بالتضاؤل بمرور الوقت، فمهمته كانت تقضي كما رأينا تفحصاً للإجراءات التي يتخذها الصّدر الأعظم ويصدرها بعلم السّلطان؛ وبحلول منتصف القرن السابع عشر كان السلاطين قد تراجعوا عن إدارة الأمور بأنفسهم تاركين المسؤولية على عاتق كبار الوزراء. وأخذت الوظائف الإدارية تُمنح منذ ذلك الحين بطريق المحاباة ولأشخاص غير مناسبين في كثير من الأحيان. ولا نعلم إن كان الوزراء يريدون إضعاف سلطة النّشانجي أم لا فقد صاروا يمنحون المنصب للخاص أوده لي أو أغوات الرّكاب ونشأ تنافر واضطراب في هذا المنصب لا يقل عما حدث في الأدميرالية⁽²⁾، لكن التّيشانجية احتفظوا بحقهم في ضبط الوثائق الخاضعة لدائرتهم ومهرها بالطُغرة، وفي عهد السّلطان أحمد الثالث ألغي هذا الحق رسمياً⁽³⁾. من جهة أخرى فإن النّشانجي يملك الآن خاصية ختم الوثائق بالطُغرة لوحده بينما كان، إلى عهد إبراهيم، يشترك بهذا الحق مع وزراء القبة، وفي البداية عندما لم يكن لدى التّيشانجية الكثير من الواجبات الرّوتينية كانوا يريحون الوزراء من القيام بهذه المهمة⁽⁴⁾. وبعبارة أخرى أصبحت الوظيفة اسمية فقط كالعديد من الوظائف الأخرى التي سنذكرها لاحقاً، والتي لم يتبق منها إلا التّميّز التقليدي فحسب. في الوقت نفسه تضاءلت أهمية منصب الدفتر أمين، لأسباب أخرى، بنفس الدّرجة. وفي القرن الثامن

(1) انظر سيّد مصطفى ج 1 ص 58؛ أحمد راسم ج 1 ص 156، حاشية.

(2) انظر سيّد مصطفى ج 2 ص 90؛ أحمد راسم ج 2 ص 312، حاشية.

(3) انظر دوسون ج 7 ص 192.

(4) سيّد مصطفى ج 1 ص 91؛ الموسوعة الإسلامية مادة «الطُغرة». كان وزير القبة المخول باستخدام الطُغرة يدعى طغرة - كش *Tuğra-keş* (من الفارسية كشیدن أي صاحب الختم). ويذكر هامر ص 133 أنه في زمانه كان للنّشانجي مساعد يدعى طُغرة - كش يقوم بمهر الوثائق بالختم.

عشر صارت الوظائفان تمنحان مدى الحياة بعكس باقي الوظائف التي كانت تسلم لموظفين يتناوبان عليها سنة بعد سنة⁽¹⁾.

كانت الدفتر خانه التي يديرها الدفتر أمينة مقسمة إلى ثلاثة أقسام يدعى أولها إجمال⁽²⁾ *Icmâl* (أي تلخيص)، ويعنى بالوثائق التي تصف حدود كل المقاطعات وتقسيماتها وجميع الإقطاعيات. ويدعى الثاني مفصل⁽³⁾ *Mufaṣṣal* ويعنى بوثائق مشابهة لكنها تتعلق بالأملاك الخاصة؛ أما الثالث ويدعى روزنامه⁽⁴⁾ *Rüznâme* فيعنى بتغير أصحاب الإقطاعيات. كان في هذه الدائرة في أواخر القرن الثامن عشر حوالي مئة موظف⁽⁵⁾ لكن أهميتها بدأت أيضاً بالانحدار بسبب الفساد الذي وقع فيه النظام الإقطاعي العثماني. إن وجود الدفتر خانه جنباً إلى جنب، ولكن بشكل مستقل، مع القسم المالي أسهم بالطبع في إعالة بعض موظفي الدولة، بمن فيهم أفراد الفرق العسكرية بواسطة نظام الإقطاعيات، بينما يتقاضى الآخرون رواتبهم لقاء خدماتهم. لكن هذا النظام الإقطاعي الذي سمح لأصحابه بجمع المستحقات والضرائب من سكان الأراضي التابعة لهم لم يكن يتطلب من العناية ما يتطلبه القسم المالي وحده، بالرغم من أن عدد الأشخاص الذين يعتاشون على الإقطاعيات كان في البداية أضخم من عدد من يتلقون رواتب ومنح. إذن كان الدفتر أميني أدنى رتبة من الدفتردار، ولم تكن وظيفته سوى مركز يترقى منه إلى القسم المالي. وفي الأولوية يبدو أنه يحتل المرتبة التي تلي منصب الجبّ جية والطوبجى باشية وفوق منصب الشهر أميني مباشرة. وباستثناء الشّانجى والدفتردار كان من أرفع موظفي السّكرتارية مكانة

(1) انظر أحمد راسم ج 2 ص 314-315، حاشية.

(2) كلمة عربية.

(3) أي السجل المفصل وفيه قائمة لكل مقاطعة على حدة، كما تطلق الكلمة أيضاً على مكان حفظ السجلات المفصلة.

(4) كلمة فارسية: روز أي «يوم» ونامة أي «كتاب» أو «وثيقة» أو «رسالة». وتعني السجل اليومي. وهي بشكل عام لتسجيل الإيرادات والتفقات، أما هنا فهي لتسجيل انتقال الإقطاعيات يوماً بيوماً.

(5) انظر دوشون ج 7 ص 193؛ لبيير ص 172.

(مقابل أغوات الجيش والعاملين في القصر)، ويعلو بمرتبتين فوق منصب رئيس الكتاب. مع ذلك فقد كان ينظر إليه بشكل عام وكأنه أدنى رتبة من الرئيس، إذ ليس له مقعد في الديوان ولا يظهر في الديوان أساساً. وبهذا فإن البنية الإدارية التركية تضم ستة موظفين (هم رجال القلم *Kalem Ricâli* أو رؤساء الأقسام)⁽¹⁾ يحتلون المناصب الرئيسية الستة فيها؛ ومن بينها يحتل الرئيس المركز الثالث (بعد الشانجي ورئيس الدفتردارية) ويأتي الدفتر أميني بالمركز الرابع بينما يحتل المركزين الخامس والسادس دفترداريان أقل شأنًا⁽²⁾. يظهر هؤلاء الموظفون الستة جميعهم في روايات دوشون لكن بترتيب مختلف، إذ يضع الرئيس في مصاف الوزراء بينما يدعو الخمسة الآخرين بمستشاري الدولة، ويرتبهم بإعطاء المراكز الثلاثة الأولى للدفتردارية (مع أن وظيفة الثاني والثالث منهم أصبحت اسمية فقط)، ويضع الشانجي في المركز الرابع والدفتر أميني في الخامس⁽³⁾. ويلاحظ أن الدفتر أميني كان له، كما للرئيس والچاوش باشي والشانجي، سكرتير ورسول يدعى بالكيسه دار.

إن كنا قد وضعنا الدفتر أميني عند الشانجي في رأس المثلث الإداري الذي افترضناه، فذلك لأنه يندرج نوعاً ما تحت سلطة هذه الوظيفة، بينما لم يكن متعلقاً كثيراً بوظيفة الدفتردار. وفي الواقع فهو يحتل مكاناً بين الاثنين غداً أن الأمور التي يتولى تسجيلها اقتصادية فحسب. وبتصورنا لقسمه نتخيل أنفسنا نتقل إلى النقطة الثالثة للمثلث.

كما يدل اسم الدفتر أميني والدفتردار فإنهما يعيان بحفظ السجلات، لكن الدفتردار يهتم بتسجيل كل العائدات المالية للخزينة المركزية والتفقات اللازمة، وتخزين الفائض منها وتوظيف المصادر الأخرى للاستخدام عند حدوث العجز المالي. وبهذا

(1) قلم كلمة عربية، وإن تعبير أهل القلم يدل على الموظفين في الدوائر الحكومية. وكلمة رجال عربية أيضاً مفردتها رجل وتستخدم بالتركية لتدل على الأشخاص المهمين كرجال الدولة *Ricâli Devlet*.

(2) انظر سيّد مصطفى ج 2 ص 90؛ أحمد راسم ج 1 ص 381، حاشية.

(3) انظر دوشون ج 7 ص 192-193.

كانت دائرته تشرف على عدد كبير من الموظفين يفوق عدد موظفي الأقسام الإدارية الأخرى مجتمعة، لذلك كان القسم المالي يضم بالإضافة إلى عدد ضخم من مكاتب المحاسبة، مكتب سكرتارية خاص به يدعى قلم المالية⁽¹⁾ *Mâliye Kalemi* ومحكمة يفصل فيها في النزاعات المالية الناشئة بين الحكومة والأفراد. لم يكن مكتب المالية واقعاً في منطقة الباب العالي بل في بناء خاص، وبما أن الباب العالي يدعى أيضاً باب الباشا *Paşa Kapısı* فقد دعي هذا البناء بباب الدفتردار⁽²⁾ *Defterdâr Kapısı*.

كان الدفتردار منذ أيام الفتح موظفاً من الدرجة الأولى، وكما رأينا فإن منزلته ومنزلة الشانجي تأتي مباشرة بعد الصدر الأعظم (باستثناء وزراء القبة ورئيس علماء الدين). وإن كان الشانجي متميزاً على البقية فذلك لأن سلطته تخوله استخدام الختم الملكي، أما الدفتردار فكان يتميز بكونه الموظف الوحيد في الإدارة الذي يملك الحق برفع المظالم إلى السلطان شخصياً⁽³⁾. في ذلك الوقت كانت الإمبراطورية مؤلفة من الروملي والأناضول فقط، لكن كان للدفتردار مساعد يتولى الأمور المالية في الأناضول، بينما تبقى الروملي مقاطعة خاصة بالدفتردار⁽⁴⁾. وفي عهد السلطان بايزيد الثاني كان للمساعد لقب دفتردار أيضاً - لكن من الدرجة الثانية⁽⁵⁾ - وعندما أضيفت

(1) المالية من العربية «مال» والصفتان «مالي» و«مالية» مستحدثتان. ولقد استخدمت الثانية في اللغة التركية لتدل على الشؤون المالية، وبذلك يعني تعبير مالية قلمي مكتب شؤون المال، وكانت جميع الأقسام التابعة للدفتردار تدعى بخزينة الدولة *Hazînei 'Âmire* (خزينة عامرة).

(2) لغاية عام 1708 كان المكتب المالي يقع في منزل خاص ثم تحدد كسكن للسلطان؛ وانتقل من عام 1708 حتى عام 1755 إلى يربطان سراي *Yere-batan Serây* (المشيد فوق الحوض البيزنطي المقنطر ولا يزال يحمل اسم «القصر الغائص تحت الأرض»؛ ونقل بعدها إلى بناء يقع في الفسحة الخارجية من القصر السلطاني، ثم حفظت سجلاته بالقرب من مسجد السلطان أحمد ومكتب الشانجي. هامر «القسطنطينية والبوسفور» ص 329-330.

(3) كان هناك آخرون ممن يملكون هذا الحق هم قضاة العسكر والخصيان البيض.

(4) أحمد راسم ج 1 ص 154، حاشية؛ والموسوعة الإسلامية مادة «دفتردار».

(5) دوشون ج 7 ص 261. من الدرجة الثانية بالتركية «شقي ثاني» *Şakki Sâni*، شق تعني قسم. ووفقاً لهامر فإن الدفتردار شقي ثاني عُين في عهد مُراد الثالث عام 1576 وكان يعرف باسم مقاطعة دفترداري. لكن رواية هامر غير واضحة تماماً إذ سبق أن ذكر إنشاء دفتردارية في حلب

أراض واسعة للإمبراطورية في القرن السادس عشر عُين دفتردارية آخرون لإدارة الشؤون المالية في المناطق المفتوحة⁽¹⁾، وكانوا جميعاً خاضعين لدفتردار الروملي. وعندما خسرت الإمبراطورية هنغاريا في نهاية القرن السابع عشر ألغيت الدفتردارية التي كانت قد أُسست في عهد سليمان العظيم للإشراف على كافة المقاطعات الواقعة على نهر الدانوب، وتسلم دفتردار الروملي أو الباش دفتردار، كما كان يدعى، مسؤولية إدارة الشؤون المالية في الإمبراطورية بأكملها. بقي هناك مقران آخران للدفتردار، لكنهما أصبحا اسميين فقط، كوظيفتي الشانجي والدفترا أميني، وأصبحتا تُمنحان مدى الحياة⁽²⁾.

في عهد السلطان محمد الفاتح كانت وظيفة الباش دفتردارلك *Baş Defterdârlık* مفتوحة للأشخاص الذين يحتلون وظائف الدفترا أميني والبشهر أميني والقاضي (برتبة معينة) ورئيس الكتاب. وكالشانجي قد يترقى الدفتردار ليصبح وزيراً. في بداية قانون ناميه في عهد الفاتح ذكر مباشرة بعد الصدر الأعظم كنائب للسلطان (وكيل) في الشؤون المالية، ويكون الصدر الأعظم مراقباً له (ناظر). وفيما يخص الأمور المالية يؤخذ دائماً بقرارات الدفتردار وهو، كالصدر الأعظم وقضاة العسكر، مخول بإصدار الأوامر الممهورة بالطغرة السلطانية (بما يتعلق بالأمور المالية بالطبع).

ثم أغفل ذكرها وصنف الدفترداري شقي ثاني بعد دفترداري الأناضول.

(1) يقال إنه في القرن السادس عشر كانت هناك أربعة دفتردارية، الأول لشؤون الروملي والثاني للأناضول والثالث لسوريا ومصر وديار بكر (عينه السلطان سليم الأول) والرابع لهنغاريا ومنطقة الدانوب (عينه السلطان سليمان الأول). انظر دوتون ص 261؛ ليبير ص 168؛ الموسوعة الإسلامية مادة «دفترا». ويذكر عطا ج 1 ص 96 أن السلطان سليم الأول لم ينشئ الدفتردارية لدمشق فقط بل لحلب والبوسنة وأرضروم، ويذكر هامر ص 144 أنه (بالإضافة إلى الروملي والأناضول وحلب والدانوب ودمشق وديار بكر وأرضروم) كان هناك أخرى لطرابلس وسوريا وسيواس وقرمان. ويضيف دوتون أنه في عهد سليم الثاني ومُراد الثالث كان لكل مقاطعة دفتردار خاص بها، ولكن يبدو أن هؤلاء (وبعض ممن ذكرهم هامر) كانوا دفتردارية محليين لا يقيمون في العاصمة.

(2) انظر دوتون ج 7 ص 261-262؛ وأحمد راسم ج 2 ص 315.

يقدم لنا دوسون في «جدوله» وصفاً كاملاً للمكتب المالي في أيامه. لكن يتضح من أسماء المكاتب المتعددة التي تؤلف الدائرة المالية أنها كانت تنشأ بين الحين والآخر كأنواع جديدة من الأعمال التي يجب التعامل معها، لكننا لم نتمكن من اكتشاف فيما لو كان بعض هذه المكاتب خاضعاً لسيطرة أحد الدفترداريين، أو إن كان هناك مكاتب أخرى سابقة لها ألغيت بعد انتهاء الحاجة لخدماتها. ومن الواضح على كل حال أنها لم تُنظم تنظيمًا عميقاً، وبذلك نجد الأعمال موزعة بينها بشكل عشوائي.

يبدو أنه كان هناك في الأصل أربعة أنواع من المكاتب، إذا استثنينا مكتب السكرتارية المذكور أعلاه ومكتباً خاصاً هو مكتب التاريخ جى *Ta'rihi* الذي تؤرخ فيه كل الوثائق الصادرة عن المكاتب الأخرى. كانت هذه الأنواع الأربعة تدعى بالترتيب روزنامه *Rūznāme* (السجل اليومي)، المحاسبة *Muḥāsebe*، المقابلة⁽¹⁾ *Mukābele* (التدقيق)، الموقوفات⁽²⁾ *Mevkûfât* (المساهمات العينية). كانت أقسام المحاسبة تحتفظ بسجلات الإيرادات وتوزيع الأموال بشكل مفصل، وكانت أقسام المقابلة أو التدقيق تحتفظ بقوائم الخيالة النظامية والمشاة والوصفاء وحجّاب القصر (القابجية *Kapicis*) والعاملين في الإصطبلات السلطانية، وسمّيت بمكاتب المقابلة لأن هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون قبض رواتبهم إلا بعد الحصول على توقيع مقابل لشهاداتهم صادر من هذه المكاتب. أما مكاتب الموقوفات فكانت تسجل جمع المساهمات العينية من المقاطعات في أيام الحرب وتوزيعها؛ وكان جزء منها يخزن في مستودعات في العاصمة وفي الحصون الواقعة على الحدود، بينما يوزع الجزء الآخر مباشرة لقادة القوات المقاتلة. وكما يوحي اسم مكتب السجل اليومي فهو يتلقى الإيرادات والتنفقات يومياً من كافة أقسام المكتب المالي، ويقوم بإصدار كشف

(1) من العربية «قابل» أي قارن، كان يقارن مخطوطة بأخرى.

(2) من «موقوف» بالعربية أي ثابت لا يتحرك وتطلق الكلمة على تلك المساهمات لأنها موقوفة على من تُمنح لهم دون أن يكون لهم حق التصرف أو المتاجرة بها، تماماً مثلاً الأوقاف الدينية أو المؤسسات الخيرية. وبشكل مشابه فإن موظف الدفتر خانه الذي يمنح الإقطاعات الشاغرة كان يدعى الموقوفات جى *Mevkûfâtçı*.

حساب أو خلاصة إجمال *hulâşai icmâl* مرة أو مرتين في العام ليطلع عليه السلطان ورئيس الوزراء.

من بين هذه الأنواع الأربعة، سنتحدث بالتفصيل عن قسم المحاسبة فقط لأنه لم يكن هناك سوى مكتب واحد للمساهمات وفي أيام السلطان الفاتح كان هناك مكتباً مقابلة واحد للمشاة والآخر للخيالة والفئات المختلفة من العاملين في القصر، كما كان هناك مكتبان للسجل اليومي يدعى أولهما «الكبير» وثانيهما «الصغير» (ويبدو أنه قد أنشئ في أيام لاحقة، وفي أيام دوشون كان يتولى مهمات لا تتلاءم وتسميته)⁽¹⁾.

وأخيراً، كانت هناك خمس دوائر للمحاسبة تدعى باش *Baş* (الرئيسية)، الأناضول *Anadolu*، الحرمين⁽²⁾ *Harameyn*، الجزية *Cizye*، الأوقاف الصغيرة *Küçük Evkâf*. وتقسم إلى ثلاث مجموعات: الدائرتان الأوليان معاً ودائرة الجزية وحدها ثم دائرتا الحرمين والأوقاف الصغيرة معاً. ولم تكن محاسبة الحرمين تدعى كذلك قبل عهد السلطان سليم الأول عندما ضُمَّ الحجاز إلى أراضي الإمبراطورية. يبدو أنه كان هناك مكتب واحد للأوقاف في البداية وكان يعنى بحفظ سجلات المؤسسات السلطانية والرواتب التي تقدمها لتذهب إلى رجال الدين القائمين عليها ولإصدار شهادات تعيينهم. لكن فيما بعد أصبح هناك ثلاثة أقسام تعنى بتلك الأمور، الاثنان اللذان ذكرناهما، وثالث يدعى الحرمين مقاطعة سى *Harameyn Mukâta'ası* (مقاطعة تعني إقطاع الأراضي ذات الضريبة)⁽³⁾. في أوقات لاحقة لم يكن جمع الضرائب والمستحقات إلى خزينة الدولة موكلاً إلى موظفي الحكومة المأجورين، بل عُهد به إلى المتعهدين، وأصبحت حوالي تسعة أقسام من المكتب المالي في أيام

(1) صار يقوم بحفظ قوائم القاييجى باشية *Kapıcı Başis* حسبما يذكر دوشون. أما هامر فقد أضاف قوائم قباطنة البحرية الجاشينغير لـ *Çâşnî-girs* والكديكلي زعيم لـ *Gedikli Za'ims*.
(2) أي مكة والمدينة.

(3) «قاطع» بالعربية وتعني أبرم اتفاقاً مع شخص على أجر سنوي. و«أقطع» أي وهب أرضاً كإقطاعية. كان أصحاب تلك الإقطاعيات يلتزمون بجمع الضرائب والمستحقات وتلقى الخزينة مبلغاً ثابتاً من هبة تلك الإقطاعيات بدلاً من نسبة من الضرائب.

دوسون تُعرف باسم المقاطعة. تم إنشاء واحد منها ليتولّى إقطاع عقود الزراعة وجمع الأعشار والمستحقات العائدة للأوقاف السلطانية في مكة والمدينة، وهو حرمين مقاطعة سى. وكائناً ما كان مجاله في البداية، فقد أصبح في النهاية يعنى بإقطاعات من هذا النوع في آسيا فقط، بينما كان يتولّى شؤون الأملاك في أوروبا والأوقاف السلطانية الأخرى قسم آخر نعتقد أنه كان يدعى أولاً محاسبة الأوقاف، ثم أصبح يدعى محاسبة الحرمين لصلته بأوقاف المدينتين المكرمتين. علاوة على ذلك فقد أصبح إصدار شهادات التعيين للوظائف الدينية يقسم بين هذين القسمين: أصبحت محاسبة الحرمين تصدر التعيينات في أوروبا، بينما تصدر مقاطعة الحرمين تلك المتعلقة بآسيا. أما قسم الأوقاف الصغيرة فقد كان عمله يقتصر على حفظ سجلات رواتب الأشخاص المرتبطين بخدمة المؤسسات الخيرية، كالمشافي ومطابخ الفقراء والمصحات العقلية.

أما مكتب محاسبة الجزية، فكان يحفظ قوائم الضرائب المفروضة على الذمّيين *Zimmis*، أو غير المسلمين، وتهيئة الطلبات قبل إرسالها سنوياً إلى المقاطعات بوقت قصير قبل استحقاق تاريخ الجباية. كان هذا هو المكتب الوحيد الذي لم يحمل أعباء مهام إضافية أو غريبة. ومن جهة ثانية فقد كان قسم المحاسبة الرئيسية، الذي هو أساس المكتب المالي⁽¹⁾، وفرعه (محاسبة الأناضول) يعمل بين الأقسام الأخرى ويتداول كل الأعمال تقريباً ما عدا عقود الأراضي الزراعية المذكورة آنفاً.

وهكذا فإن المحاسبة الرئيسية تحتفظ بسجلات، أولاً، الأموال الواردة والصادرة لكل الأمناء وبالتحديد أولئك العاملين في القصر السلطاني، أي الشهر أميني والضرب خانة أميني والآرپه أميني والمطبخ أميني⁽²⁾، وأولئك المرتبطين بفيلق الطوبجية، أي الطوب خانة ناظري أميني والبارود خانة ناظري أميني⁽³⁾ وضابط البحرية (ترسانه

(1) بالتركية: *Üssî esâsî*. انظر أحمد راسم ج 2 ص 378، حاشية.

(2) أي أمناء المدينة وسك النقود ومؤن العلف والمطبخ.

(3) يصنف هامر ص 147 الأمناء بشكل مختلف فيذكر أن أمناء المدينة والبحرية والمطبخ والتزود بالعلف كانوا يدعون بالأمناء الأربعة.

أميني). وثانياً، أموال المساهمات المحصلة من المقاطعات؛ وثالثاً، رواتب حاميات الحدود؛ ورابعاً، الذخائر الحربية. كما كانت من ناحية أخرى مستودعاً لعقود مؤن الدولة، ومن المحتمل أنها تتلقى حسابات تُدفع من الخزينة، وتحضر شهادات تدعى تذاكر الميري⁽¹⁾ *Mirî Tezkeresi* تسمح بصرف المال. يقول دوستون إن هذه هي المهام الأساسية لهذا القسم، لكن فيما بعد تحمّل أعباء أخرى على الرغم من تعيين مجموعات من الموظفين في أقسام فرعية للتعامل مع تلك المهام. كان أول هذه الأقسام يدعى مالكانه قالفه سى *Mâlikâne Kalfası* وكان يسجّل عقود الإقطاعيات الإلزامية مقابل دفعة أولية للمتعاقدين مدى الحياة. أما الثاني فكان يدعى ذِمّت *Zimmet* لأنه كان يعنى بحسابات ديون الدولة؛ ويدعى الثالث *Muhallefât* لأنه كان يسجل العائدات المستحقة للسلطان، والتي لم تكن تدفع علناً بل في الخزينة الداخلية من التركات والأملك المصادرة من القابى قول لرى.

كانت محاسبة الأناضول القسم الذي يديره الدفتردار الثاني، وفي القرن الثامن عشر كان يعنى بشكل خاص بشؤون الأناضول إذ كان يحتفظ بحسابات أراضي الضرائب والأراضي السلطانية (*Havâşşı Hümayun*) وقائم أجور الجنود والفرق المعسكرة في الأرخبيل.

أما باقي الأقسام فكانت تتألف أولاً من ثماني دوائر أخرى لتسجيل العقود تدعى اثنتان منها القلعة الكبيرة *Büyük Kal'a* والقلعة الصغيرة *Küçük Kal'a* وتدعى اثنتان سپاه قلمي *Sipâh Kâlemi* وسلخدار قلمي *Sılıhdâr Kâlemi*. وكانت ثلاثة من مكاتب العقود تسمى بأسماء مناطقها كبورصة وأولونية *Avlonya* وكفة *Keffe*، والتي تعنى فقط بعقود مزارع الضرائب في تلك الأقاليم، لكن عمل الأقسام الأخرى كان أكثر تعقيداً. كان هناك أولاً قسم باش مقاطعة يهتم بخمس فئات من العقود، وكانت الإقطاعيات الضخمة تدعى نظارة *Nezâret* وعقودها تعود لمناطق واقعة

(1) صفة الميري مأخوذة من كلمة الأمير العربية وهي تعني أميرى وتطلق على الخزينة التي أصبحت تسمى الميري.

على الجهة اليمنى من نهر الدانوب، وهي تشكل الفئة الرئيسية. وكانت الأخرى عقود مزارع تجبى منها المستحقات على محاصيل الأرز (في الروملي)، واستخراج الملح، وصيد الأسماك (في البحر الأسود وبحر إيجه)، وأخيراً، قطع الأشجار⁽¹⁾. كان ثاني أكثر هذه الأقسام أهمية على الأرجح هو معدن مقاطعة سى *Ma'den Mukâta'ası* الذي كان يسجل بشكل رئيسي عقود مناجم الذهب والفضة، لكنه مع الوقت حمل مهمات أخرى غير مرتبطة بالمناجم نهائياً. كان يحتفظ بحسابات الجزية الواردة من الهوسبودار ومن العجر (كفتين من الذميين)، ومن جهة أخرى كان يحفظ إيرادات حصيلة المستحقات على الزراعة ونقل التبغ وعلى الضريبة المفروضة على البضائع الداخلة إلى المدن الرئيسية في الروملي بما فيها العاصمة. وهناك قسم آخر هو إسطنبول مقاطعة سى *Istanbul Mukâta'ası* الذي يعنى أيضاً بمهام متنوعة، وعلى الرغم من أنه يعنى بعقود المزارع في المناطق المحيطة بالعاصمة فقد كان يتولّى مهمات أخرى في غرب تراقيا *Thrace* ويسجل الواردات من مستحقات الأسواق في إسطنبول وأدرنه، ومن مستحقات الحرير والسلع المصنوعة من الذهب والفضة. يبقى هناك قسمان آخرين للعقود يدعيان خاص لرمقاطعة سى *Hâşşlar Mukâta'ası* وساليان مقاطعة سى *Sâliyâne Mukâta'ası* ويعنى الأول بالعقود الممنوحة لجمع الأعشار والمستحقات في إقطاعات الفئة العليا، والثاني ينظم دفعات الرواتب السنوية (كلمة ساليان *Sâliyâne* تعني سنوياً)⁽²⁾ لقباطنة الأسطول، والتفقات السنوية لخانات القرم، وبعض الضباط الآخرين. أما لماذا سمي هذا القسم بالمقاطعة فهو أمر غير واضح. ربما يعود السبب إلى أن تلك الإيرادات الخاصة كانت توضع جانباً لتتوافق مع نفقات الرواتب، وأن المتعاقدين (الملتزمين *mültezims*) كان لديهم عقود تخولهم جمع الضرائب.

أما ما يخص مكتبي القلعة والخيالة، فقسم القلعة الكبيرة يحتفظ بقوائم الحاميات

(1) حسب دوسون. أما هامر فيضيف عقود الجمر في كل موانئ البحر الأسود.

(2) عبارة *Sâl* بالفارسية تعني سنة.

والقوات المجتدة في القلاع الواقعة على الحدود بشكل عام، وتلك المنتشرة على نهر الدانوب بشكل خاص، بينما يقوم قسم القلعة الصغيرة بنفس الأمر، لكن للقوات المحلية المتواجدة لدعم الحاميات في ألبانيا والمورة. ويوجد مكتبا السباهية والسِّلْخُدار لإصدار شهادات رواتب رجال هذين البولوكين، والتي يجب أن تقابل بتوقيع قسم الخيالة قبل الحصول على الرواتب. لم يكن للبولوكات الأربعة مكاتب مماثلة في القسم المالي، بل كانت شهاداتهم تُحضر بتوجيه من قادتهم ثم مقابلتها بتوقيع قسم تدقيق الخيالة.

هذه هي كل أقسام المكتب المالي ما عدا مكتب السَّكرتارية الذي يُعدّ واحداً منها، وقبل البدء بالكلام عنه هناك ملاحظة لا بدّ من ذكرها لعلاقتها بقسم المساهمات العينية، إذ عُهد إليه في وقت مبكر نسبياً تسجيل العائدات المحصلة من الضرائب المفروضة على سكان المدن وتدعى عوارض⁽¹⁾ *Avârid'* وبدلي نزول⁽²⁾ *Bedeli Nüzûl*. وفيما بعد أصبح له، كالمحاسبة الرئيسية، أقسام فرعية لتسجيل الإيرادات المحصلة من الضرائب الأخرى وكانت إحداها عشرة بالمئة عمولة على الأجور المدفوعة سلفاً لعقود التملك مدى الحياة (مالكانه *mâlikâne*)، وأخرى مستحقات عن نظام البريد وثالثة ضريبة على الأغنام.

إن ما ندعوه بسكرتارية القسم المالي أو مائيّة قلمي *Mâliye Kâlemi* له مهمة رئيسية هي إصدار المراسيم المتعلقة بالأمور المالية، وكانت توقع من قبل الدفتردار ثم تُمهر بالطغرة. لكن كان للمكتب مهمة أخرى هي إصدار شهادات علماء الدين والمتقاعدين الذين تسلموا شهادات من الأقسام الثلاثة المختصة بتسجيل أموال الأوقاف. وفي الأيام المتأخرة أصبح لمكتب السَّكرتارية قسم فرعي مرتبط به يُعرف باسم يسقوپوس قالفه سى *Piskopos Kalfası* ويعنى بالشؤون المالية للكنائس والأديرة المسيحية.

(1) عوارض كلمة عربية مفردها عارض أي الحادثة أو الحدث غير المتوقع. وكانت هذه الضريبة مفروضة أصلاً لسدّ التفقات غير المتوقعة.

(2) وهو دفعة بدل عن السكن.

إذن كان هناك في أيام دوشون خمسة وعشرون قلماً (أو قسماً) أساسياً، وسبعة فرعية يدير كل واحد منها سكرتير⁽¹⁾ (خوجه *Hoca*) يساعده كيسه دار وبضعة قالفه *Kalfas* (مساعدين) وعدد من الموظفين ذوي رتبين مختلفتين. في قانون ناميه السلطان الفاتح كانت مرتبة الخواجهات الرئيسيين الذين يديرون أقسام السجل اليومي والمقابلة والعقود تأتي مباشرة بعد رئيس الكتاب وسكرتير الإنكشارية، وفوق مرتبة التذكرجية وسكرتيري الرئيس⁽²⁾. ولا يندرج خواجهات المحاسبة في هذه القائمة، لكن يُظن بأن يكون الباش مُحاسبه جى هو أهم سكرتير في القسم المالي. أما في الأيام اللاحقة فقد نال أعلى مرتبة يليه رئيس السجل اليومي⁽³⁾. كانت كل هذه المناصب تُشغل سنوياً، وكان منصب رئيس المحاسبين يعطى لأشخاص بارزين، مثل كاخية سابق أو دفتر دار سابق أو رئيس كتاب سابق، وكان صاحبه يُرقى غالباً إلى قسم الدفتردارية⁽⁴⁾. في أيام دوشون كان في القسم المالي أكثر من سبعة سكرتير وموظف منهم أربعمئة وخمسون موزعون بالتساوي في الأقسام الرئيسية - أي المحاسبة الرئيسية والقسم الرئيسي للسجل اليومي ومحاسبة الأناضول.

كانت كل هذه الدوائر خاضعة بالطبع للباش دفتر دار، لكنه كان له أيضاً مكتب خاص للمراسلات يدعى أوضه⁽⁵⁾ *Oda* يديره موظف يحمل نفس لقب سكرتير الوزير الأكبر،

(1) بالفارسية *hwāca* وتعني الرجل المتميز، وبالأخص المدرّس. وفي العهد السلجوقي أصبحت تطلق على موظفي الديوان كما أصبح الوزير يُعرف باسم خوجايى بُزُرگ *Hwāca-yi Buzurg* أي الخواجه العظيم. وفي العهد العثماني أصبحت الكلمة تطلق على العلماء الذين يعملون كمدرّسين، وعلى الموظفين الموكلين بأعمال السكرتارية.

(2) كتاب *Kâtibs* وشاغردية *Şagirds* (تلاميذ أو متدربين). انظر قائمة الرواتب في عهد مُراد الثالث في كتاب سيّد مصطفى ج 1 ص 138، ويظهر فيه وجود 16 *‘Âmire Kâtibânî Hazînei* و 133 *Şagirdânî Hazînei ‘Âmire*. يعود هذا العدد القليل إلى أن موظفي القلم القديم كانوا يعيشون على الإقطاعات ولم يكن لهم رواتب، ولا يظهر في القائمة سوى من يتقاضون الرواتب.

(3) يشير قانون ناميه إلى المحاسبية في نص آخر يقول إن موظفي الرئيس مؤهلون للترقية في قسم الخزينة كمقاطعية ومحاسبية.

(4) انظر دوشون ج 7 ص 194؛ أحمد راسم ج 2 ص 315. يحتل محاسبى الأناضول المرتبة الثالثة، لكن هامر ص 145 يضع رئيس السجل اليومي أولاً والباش محاسب ثانياً.

(5) انظر أحمد راسم ج 2 ص 316، 318.

أي «مكتوبجي». وبالإضافة إلى العمل العام الذي يقوم به موظفو الأوضه ويتضمن إصدار التقارير الحكومية، فقد أصبحوا لاحقاً يُعدّون عقود التملك للمزارع التي أشرنا إليها. وأصبح الباش دفتردار مسؤولاً عن خزينة الدولة، وبالتالي يعمل تحت إمرته عدد من الموظفين غير أولئك الموجودين في أقسام المكتب المالي وذلك ليساعده في عمله. وبهذا كان استلام وتوزيع الأموال النقدية مهمة رئيس الوزّانين (وزندار باشى) *Veznedâr Başı* وأربعين مساعداً يسجل عملياتهم المالية مفتش يدعى سرّگی ناظري⁽¹⁾ *Sergi Nâziri* ومساعد له. أما استرداد الديون العادية للدولة فكان وظيفة الباش باقي قُولي⁽²⁾ *Baş Bâkî Kulu* الذي يوجد تحت إمرته ستون رجلاً ويعمل بتكليف من القاضي الذي يدعى ميري كاتبي *Mirî Kâtibi* يرأس المحكمة المرتبطة بالقسم المالي. أما المبالغ المستحقة من المزارعين فكانت تجمع بواسطة موظف خاص له الوظيفة ذاتها يدعى جزية باش باقي قُولي *Cizye Baş Bâkî Kulu*. وأخيراً هناك موظفان يدعيان⁽³⁾ كاغدي اندرون أميني *Kâgidi Enderûn Emîni* وكاغدي بيرون أميني *Kâgidi Bîrûn Emîni* يعملان بإمرة الدفتردار. كان الأول مسؤولاً عن القرطاسية وتوزيع الورق والأقلام للمكاتب الحكومية حسب الحاجة، ويقوم الثاني بجمع المستحقات المفروضة على أصحاب الإقطاعيات العسكريين الجدد⁽⁴⁾.

(1) سرّگی *Sergi* كلمة تركية تعني المنصة أو الكشك الذي تعرض فيه السلع للبيع، وربما لأن التقود كانت تجهز في أكوام في الخزينة، أصبحت الكلمة تطلق على مكتب المدفوعات العام وعلى البطاقة التي تصرف في هذا المكتب. كما أصبحت تعني المعرض أيضاً. يذكر هامر ص 146 أن الوزندار باشى ومساعد السرّگی ناظري (ويدعى سرّگی قالفه سى) هما موظفان في مكتب السجل اليومي الرئيسي وأن الأخير يستلم الدفوعات الصغيرة التي يمكن عدّها، بينما يستلم الأول الدفوعات الكبيرة التي يجب وزنها.

(2) حسب دوسّون ج 7 ص 263، 371 اسمه *Basch-Baki-Coulis*، وهامر ص 164 واسمه *Baskbaki Kuli*. ولم نعثّر على مصادر أخرى لهذا الموظف أو مساعديه *Baki-Coulis* ومعنى اللقب غير واضح، ربما يكون الباقي من الدّين.

(3) مفوض الورق الداخلي ومفوض الورق الخارجي.

(4) من أجل رواية دوسّون عن المكتب المالي انظر ج 7 ص 261-273. لبيير ص 167-172. وإن رواية هامر لا تختلف أساساً عن رواية دوسّون لكن قد تعزى هذه الاختلافات البسيطة إلى

6. حكومة الأقاليم

باتساع رقعة المنطقة الواقعة تحت حكم العثمانيين تدريجياً بسبب الفتوحات، كان لا بدّ لهم من تقسيمها إلى عدة مقاطعات إدارية. وبهدف السيطرة على كل واحدة منها قاموا بتعيين ضبّاط يمثلونهم ويتمتعون بامتيازات تدلّ على نيابتهم عن السلطان، وتخوّلهم سلطات محلية مشابهة لتلك التي يتمتع بها الصدر الأعظم في الإمبراطورية ككل.

لقد ميّز سلاطين السلالة الحاكمة من السلاجقة مُلكهم باستخدام الرايات والطبول، كشارة من بين الشارات الأخرى. بل كانوا يهبون إذن استخدام الرايات والطبول لحكام الأقاليم التابعة لهم الذين يقرّون بسيادتهم عليهم⁽¹⁾. وقد ورث هذه العادة سلاطين قونية وسلاطين آل عثمان. لم تكن سلطنة قونية تشكّل سوى مقاطعة من الإمبراطورية السلجوقية العظمى، وكان حكامها يستخدمون الرايات والطبول كممثلين عن السلاطين العظام. وكذلك كان الإقليم الذي حكمه عثمان الأول والذي قال عنه المؤرخون العثمانيون الأوائل إنه مقاطعة من سلطنة قونية، وإن عثمان قد مُنح حقاً مشابهاً كونه حاكماً لها⁽²⁾. على كل حال من المؤكد أن الضبّاط المعيّنين في عهد خلفاء عثمان ليحكموا الأقاليم المكونة للإمبراطورية قد مُنحوا أيضاً هذه المزية كدلالة على سلطتهم في المنطقة⁽³⁾.

وبهذا، ولغاية الفترة المتعلقة ببحثنا، كان لكل من أولئك الضبّاط فرقة موسيقية تعزف المزامير والأبواق والطبول والتقاريات والصّنجات مرتين يومياً عند مقر إقامتهم، وذلك في ساعات بعد الظهر وصلاة العشاء. كان استخدام هذه الفرق التي

التعديلات الجارية بين الزّمنين اللذين ألف فيهما الكتابان. يورد هامر 26 مكتباً تعنى بأسهم المزارع ذات الضريبة، أدخلت في فترة متأخرة عن تلك التي نجري بحثنا عنها.

(1) انظر على سبيل المثال كتاب «The Last Buwayhids» 1931 ص 245. وكانت الرّاية تسمى حينذاك بالعربية «علم» والطبل «كوس».

(2) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «سنجق»، وتيشندورف ص 36.

(3) تِسْكَايِرْ ج 3 ص 127.

كان لهذه الرايات معنى عسكري بالإضافة إلى المعنى الملكي بالرغم من أن الأتراك، والحكام المسلمين الأوائل، كانوا أساساً قادة لشعوبهم في الحرب، وكانت الصفة الملكية متضمنة في الصفة العسكرية. وسوف نرى فيما بعد أن القوات الإقليمية وبالذات الإقطاعية منها، كانت تتجمع في بداية الحملات تحت هذه الرايات وتلتف حولها أثناء القتال. وبما أن البكوات *Beyis* كانوا يقومون في أوقات السلم بأعمال مدنية كحكام لأقاليمهم، فقد اكتسبت راياتهم معنى مدنياً أيضاً، واجتمع المعنيان المدني والعسكري ليدعما صفة الثيابة عن السلطان. وبما أنهم كانوا يُعرفون بأمراء اللّواء فقد توسّع المعنى الأصلي للقب وأصبحت كلمتا سنجق أو لواء تطلقان على الأقاليم التي يحكمونها. ولغاية زمن فتح القسطنطينية كان السنجق أو اللّواء هو التقسيم الإداري الأساسي للأراضي الواقعة تحت حكم السلاطين. وقد كانت هذه التقسيمات موزعة في مجموعتين أوروبية وآسيوية: أي سناجق الروملي وسناجق الأناضول؛ وكان أمراء كل مجموعة خاضعين لأمير الأمراء (بالتركية بـ *Beylerbeyi* وبالعربية المحولة للتركية: مير ميران *Mirmirân*)⁽²⁾.

(1) انظر أحمد راسم ج 2 ص 117، حاشية. وكانت الآلات تدعى: زورنا *zornā*، وبورو *boru*، وطبل *ṭabel*، ونقارة *naḳāra*، وزل *zel*. انظر دوسون ج 7 ص 284. وكان الهاشوات ذوو الأطواغ الثلاثة يستخدمون فرقة مؤلفة من تسعة عازفين لكل آلة وكانت فرقهم تدعى طقوز قاط *dokuz kaṭ*. وكان لدى الهاشوات الطوغين ستة عازفين بينما كان الهاشوات الطوغ الواحد ثلاثة عازفين لكل آلة. انظر مادة «طبل خانه» في الموسوعة الإسلامية.

215

(1389)، وكان مخططاً لها أن يحكمها أمير ملكي، إذ كان السلاطين العثمانيون الأوائل، ككل السلالات الحاكمة التركية التي سبقتهم، يميلون إلى منح حكومات الأقاليم لأبنائهم وإخوانهم وكانوا معتادين على إطلاق لقب بكلكريك *Beylerbeyi* على وراثتهم⁽¹⁾. لكن وريث السلطان مُراد، وهو بايزيد الصّاعقة، كان لا يزال طفلاً فمنحت حكومة الروملي واللقب لمدرسه الجنرال لالا شاهين⁽²⁾ *Lala Şâhîn* لكن اللقب لم يعد منذ ذلك الحين يطلق على الأمراء بل على حكام الأقاليم. استمرّ الأمراء في تولي الحكومات الإقليمية لغاية القرن السادس عشر، ثم أُبطلت هذه العادة بسبب كثرة ميلهم للتّمرد. ولدى وصفنا لنظام الإدارة المحليّة ستجاهل مشاركتهم فيها لأنها كانت ثانوية، باستثناء ملاحظة أن إدارة مقر هؤلاء الحكام كانت شبيهة بتلك التي يتخذها أيّ بكلكريك *Beylerbeyi* مع إضافة مدرّس كانت مهمّته بمثابة مستشار للأمير (أو الصّدر الأعظم)، وإضافة نشانجي أيضاً. ولا شك أن وضع الأمراء كان أكثر فخامة من باقي الحكام بسبب نبل مولدهم.

وهنا لا بدّ لنا من العودة للكلام عن الرّاية كشارة تدل على السّلطة الملكية. وبالرّغم من كون كلمة سنجق (أو لواء) المستعملة للإشارة إلى الحكام الإقليميين، وبالرّغم من أن المقصود بهذه الكلمة يبدو مجرد راية عادية، وبالرّغم من استخدامهم بالفعل للرّيات العادية، فإن علم الأمير كان شيئاً غير مألوف يدعى الطّوغ *tuğ* أو ذيل الفرس المدلّى من سارية وتعلوه كرة ذهبية. لقد كان شعاراً تركياً وقد يكون له أصل وثني، إذ كانت الأطواغ تصنع بداية من ذيول الثّيران وليس الخيول. كان للسنجق بكية طوغ واحد وللبكلكريكية طوغان. وفيما بعد أصبح لوزراء القبة ووزراء الأقاليم ثلاثة أطواغ، بينما يحق للصّدر الأعظم خمسة أطواغ. أما السلطان فكان يخرج إلى الحرب بتسعة أطواغ⁽³⁾.

(1) كان اللقب قد استخدم لأول مرة في بداية القرن العاشر في البلاط العباسي وأطلق على القادة العامين الذي سيطروا فيما بعد على أمور الخليفة. احتفظ السّلاجقة باللقب وانتقل منهم إلى العثمانيين.

(2) قد يكون لالا شاهين يدعى كذلك لحمله منصب اللالا، وهو يقابل منصب الأتابك لدى السّلاجقة.

(3) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «طوغ».

وبهذا كان الطوغ شارة مميزة للأسرة الملكية ومن ينوب عنها، وبذلك كان الصدر الأعظم والبيكرلية يلقبون بالباشا. يقال إن هذه الكلمة هي اختصار للكلمة الفارسية بادشاه⁽¹⁾ *pâdişâh*. وإن كان هذا الاشتقاق صحيحاً يمكننا ملاحظة أن اللفظة الكاملة كانت تستخدم للسلطين العثمانيين واللفظة المختصرة لنوابهم الإقليميين.

استمر تصنيف الحكام الإقليميين في ثلاث رتب إلى الفترة المتعلقة ببحثنا. لكن رتبة الوزير لم تكن لها الطيعة ذاتها التي للبيكرية والسنجق بك، إذ لم تكن تدل على أن صاحبها يحكم جزءاً من أقاليم الإمبراطورية. كان لقب الوزير مجرد لقب تشريفي بينما كانت البيكرلية والسنجق بكية منصبتين حقيقيين. يمكن بالطبع للبيكرية أو السنجق بك أن يصبح وزيرين، وبذلك يجمعان مرتبتين معاً. وكان من يُمنح لقب الوزير يصبح بشكل تلقائي باشا ذا ثلاثة أطواغ بغض النظر عن المنصب الذي يشغله.

لقد أدى الاتساع في رقعة الإمبراطورية في نهاية القرن الخامس عشر وفي القرن السادس عشر إلى مواجهة الحكام لمشاكل جديدة. كانت المناطق التي تُضم حديثاً تقسم إلى سناجق، إلا إذا كانت ذات وضع خاص كالإمارات الرومانية. لكن لكثرة هذه السناجق كان من الصعب جمعها في بيكريةيتين بحسب وجودها في أوروبا أو آسيا، ولقد كان لفتح مصر والأراضي الواقعة إلى الجنوب منها، وكذلك مقاطعات شمال أفريقيا دور كبير في توسع الإمبراطورية بشكل كبير. أدى هذا إلى نشوء بيكريةيات

(1) انظر غيزه *«Das Problem der Entstehung des Osmanischen Reiches»* وهناك اشتقاق آخر من الكلمة التركية باش آغا *baş ağa* وتعني الأخ الأكبر. يبدو أن اللقب قد أطلق أولاً، في القرن الثالث عشر، على الدراويش المحاربين (انظر الفصل الثالث عشر من الكتاب)، ثم على زعماء القبائل التركية في آسيا الصغرى الذين يحملون الصفتين الدينية والعسكرية. وإن استخدامه للموظفين والقادة في عهد السلطين الأوائل لهو دليل على الصبغة الدينية للحركة العثمانية. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «الأتراك». يقول عبد الرحمن شرف إنه أطلق أولاً على الهروانه جى چندارلي قره خليل باشا ثم على البيكريةين لالا شاهين وتيمورطاش، إذ كانت هناك عادة تركية بمنادة الابن الأكبر باسم باشا، وبهذا أطلق اللقب تلقائياً على أسلاف الضابطيين علاء الدين وسليمان، وهما على الترتيب الأخ الأكبر والابن الأكبر لأورخان (1360-1326). انظر الموسوعة الإسلامية مادة «باشا».

جديدة تتألف كل واحدة منها من عدد من السناجق، وتم إطلاق مصطلح جديد على هذه التقسيمات هو كلمة إيالة *eyâlet* وتعني الحكم⁽¹⁾.

فيما بعد، أصبح حكام الإيالات يتخذون لقب الوزير بشكل مستمر⁽²⁾ ولم يعد هناك باشا ذو طوغين، بل مجرد وزراء ذوي ثلاثة أطواغ وسناجق بكية ذوي طوغ واحد إن لم يحدث تطورات قادمة. لكن كما لاحظنا، فإن البكلربكية كانت منصباً لكنها أصبحت، كالوزارة، رتبة تمنح للسناجق المؤهلين لها⁽³⁾. ومنذ عهد السلطان الفاتح نجد أنه على الرغم من وجود إيالتين فقط فقد كان هناك الكثير ممن يحملون لقب البكلربك شملهم القانون حسب أسبقيتهم دون الإشارة إلى المقاطعات التي يحكمونها. وبعبارة أخرى لم يكن أولئك هم الحكام الفعليين للروملي أو الأناضول إنما نالوا رتبة البكلربكية كرتبة شرف، بل إن بكلربكية الروملي بالذات أصبحت تُمنح كرتبة شرف لضباط لم تكن لهم علاقة بتلك المقاطعة⁽⁴⁾. إذن كان هناك وزير يحكم إيالة الروملي، وضابط أو أكثر يحملون رتبة بكلربك الروملي.

وفي سلم رتب الضباط والموظفين كما جاء في قانون ناميه في عهد السلطان الفاتح، فإن البكلربك يحتل المرتبة التالية مباشرة لرتبة الوزير، وكان أصحاب هاتين الرتبتين يُمنحون مقعداً في ديوان العاصمة ويُعدّون بنفس مستوى الشانجي والدفتردار. أما السنجق بكية فكانوا يجبرون عند حضور الديوان على الوقوف في الممر خارج الغرفة. وكانت أسبقيتهم تعتمد على حجم الإيرادات التي كانوا يُمنحونها. فإن قلت

(1) يذكر دوسون ج 7 ص 277 أن الإمبراطورية لم تقسم إلى إيالات إلا في عهد مُراد الثالث (1574-1579)، لكن المؤرخين المعاصرين لم يشيروا إلى ذلك. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «سنجق». وكلمة إيالة مشتقة من العربية من فعل «آل» أي صار إلى تولية سلطة.

(2) دوسون، المصدر السابق.

(3) وكانت النتيجة كما يبدو أنه لم يبق في النهاية حكام ذوو طوغ واحد (دوسون، المصدر السابق). وقد ورد في الموسوعة الإسلامية مادة «باشا» أن هذا التمييز وجد في العصور المتأخرة بين البكلربكية والميرميرية، وأن لقب الميرميران هو الذي كان يُمنح للسنجق بكية.

(4) انظر قانون ناميه لعبد الرحمن التوقيعي (قانون التهئة بالعيد) الذي يذكر أن بكلربكية الروملي هي مجرد رتبة بديلة عن الوزارة وأنها يمكن أن تمنح للدفتردار.

عن رقم معين كان السنجق بك يحتل مرتبة بعد فئة معينة من علماء الدين⁽¹⁾، وإلا فإنه يحتل المرتبة التالية لضباط القصر وقادة الفرق العسكرية وموظفي الإدارة باستثناء الحالة التي يترقى بها ليصبح وزيراً.

مع أن معظم الإيالات المتشكلة في القرن السادس عشر كانت مؤلفة من أراضٍ فُتحت حديثاً وأنها عندما تنشأ تبقى حدودها دون تغيير، فقد نشأت بعض الإيالات من إعادة تقسيم الإيالات القديمة⁽²⁾ وهي عملية تَكَرَّرت أكثر من مرة في القرون اللاحقة⁽³⁾ وكان السنجق يُنقلون أحياناً من إيالة إلى أخرى⁽⁴⁾ وبذلك لم يكن عدد الإيالات متناسباً دائماً مع حجم الإمبراطورية. وبالرغم من أن الإمبراطورية قد بلغت أكبر اتساع لها بين عامي 1590 و1612⁽⁵⁾، فقد كان عدد الإيالات خمساً وثلاثين أو

-
- (1) هم قضاة التخت (انظر الفصل العاشر القسم الثاني).
 - (2) وبهذا نجد في القرن السادس عشر البوسنة وسنجق غاليليوي المشمولتين ضمن الروملي قد فصلتا عنها لتشكلا إياليتين مستقلتين بينما كانت بودا Buda وتمشوار Temesvar منفصلتين مع أنهما تابعتان لبكربكيات الأولى. انظر تسنكايزن ج 3 ص 131-132.
 - (3) فصلت سناجق أخرى عن الروملي في القرن السابع عشر لتشكّل جزءاً من إيالة سيلستريا Silistria والمورة Morea.
 - (4) على سبيل المثال إن سناجق إيج إيا وإيلي Ili و سيس Sis وألايا Alâya وطرسوس Tarsûs التي يظهر عيني علي أنها إيالات تابعة لقبرص، قد فصلت عنها فيما بعد لتشكّل إيالة أضنة (التي كانت سنجقاً لحلب في الماضي)، أما قبرص نفسها بالإضافة إلى جزر صغيرة أخرى كپافوس Paphos وكيرينا Kerina قد ضُمّتا من جديد إلى إيالة الأرخبيل (جزائري بحري سفيد). انظر دوسون ج 7 ص 301 وما يليها. وفي قائمة أوليا چلبی Evliyâ Çelebi تظهر حلب وأضنة وقبرص كـثلاث إيالات منفصلة ويظهر سنجقان هما سيس وطرسوس، تابعين لقبرص وأضنة، ولثانيهما سنجقان إضافيان هما قره طاش Karaman وسلفكه Selefke.
 - (5) بين هذين التاريخين ضمت أقاليم محدّدة تم فتحها من الأراضي الفارسية في الحرب وبالأخص داغستان وشروان وقره داغ (أران سابقاً) وإرقان وجزء من أذربيجان ولورستان. والتواريخ المعطاة هنا هي تواريخ المعاهدات التي تم وفقها التنازل عن المقاطعات واسترجاعها؛ لكن هناك جزء من المنطقة تم فتحه قبل التاريخ الأول، فقد احتلت داغستان وشروان عام (1578) وتبريز عام (1585)، ثم فقد قسم كبير منها قبل التاريخ الثاني (انظر الموسوعة الإسلامية). ومع أن جورجيا لا تعد من الأقاليم التي غنمت ثم فقدت في التواريخ المذكورة وأنها تظهر في قائمة

ستاً وثلاثين⁽¹⁾ وهو أقل من عددها في الربع الثالث من القرن السابع عشر، إذ بلغ تسعاً وثلاثين⁽²⁾. صحيح أن الإمبراطورية عانت خسارة في الأراضي في نهاية الفترة الأولى لكنها كانت تعوض بشكل جزئي في الفترة التالية⁽³⁾ - إذ لم يكن أي سلطان ليحكم المنطقة المشمولة بالإمبراطورية بشكل كامل، كما أن زيادة عدد الإيالات بين الفترتين يعود إلى أن الأراضي المفقودة لم تكن كلها تُحكم مركزياً⁽⁴⁾ بينما كانت الأراضي المكتسبة تُحكم كذلك. ولعل أحد أسباب هذه الزيادة هو إعادة تقسيم الإيالات، الذي

چلبی علی أنها إيالة، فإن العثمانيين لم يحتفظوا بالمناطق المجاورة للبحر الأسود سوى لفترة قصيرة عابرة، وفقدوا بذلك تفليس نفسها لكنهم استرجعوها عام 1723 واعترف بسيادتهم على جورجيا بأكملها وفق المعاهدة مع روسيا عام 1724 لكنه الأمر عاد إلى حاله بجيتيا نادر شاه للبلاد وضم تفليس إلى ملكه عام 1734. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «تفليس».

(1) انظر تسنكايزن ج 3 ص 133 إذ يذكر أن عددها أربعون بما فيها الإمارات الأفريقية الثلاث ومكة، لكنها لم تحكم فعلياً، كما كانت تضم صيدا مع أنها لم تكن قد فصلت عن دمشق حتى وقت متأخر. وفي هذه القائمة نجد صنعاء وزيد تُولفان مع اليمن ثلاث إيالات مستقلة، ولهذا السبب قد ينقص العدد بمقدار اثنين.

(2) وهي: 1. البوسنة (بوسنيا) 2. تمشوار 3. بودين (بوداپست) 4. واراد (واراسدين) 5. أغري (إرلاو) 6. قانيزا 7. أوجوار Ujvar (نويهاوزل) 8. يانوثا 9. قامنيست 10. سيلستره أو أوزو 11. كفة (في القرم) 12. جرجستان (جورجيا) 13. الزوملي 14. مورة (الموريا) 15. الجزائر (الأرخيل وبعض الأراضي الساحلية) 16. الأناضول (أناتوليا) 17. سيواس 18. أرضروم 19. طرابزون (تريبزون) 20. چيلدير 21. كرمان 22. ديار بكر 23. وان 24. مرعش (ذو القدرية) 25. الموصل 26. شهرزور 27. أضنة 28. حلب 29. قندية (كريت) 30. قبرص 31. الشام (دمشق) 32. طرابلس 33. الرقة 34. بغداد 35. البصرة 36. مصر 37. الحبشة (وهي جزء من أريتريا الحالية) 38. اليمن 39. الإحساء. انظر قوائم سيد مصطفى وأوليا چلبی Evliya Çelebi وتيشندورف ص 61 ويذكر دوتون ج 7 ص 277 أن الإمبراطورية في أقصى اتساع لها كانت تضم أربعاً وأربعين إيالة، لكن كيفية حصوله على هذا الرقم غير واضحة، وربما يكون قد ضم بعض الإمارات والمقاطعات والقرم التي لم تكن إيالات أبداً.

(3) إن استيلاء فارس على الأقاليم الستة المذكورة قد تم تعويضه بفتح كريت وپودوليا وبعض أجزاء من هنغاريا الواقعة خارج السيطرة العثمانية في عهد محمد الرابع.

(4) لم يكن من بين الأقاليم الستة التي فقدت في عهد محمد الأول إيالات سوى داغستان وشروان. انظر قائمة تسنكايزن.

رافقه نشوء إيالات جديدة في القرن السادس عشر مع زيادة أكبر في عدد السناجق التي تأثرت بتقسيم الإيالات إلى مقاطعات إدارية أصغر حجماً⁽¹⁾.

لقد أدت خسارة هغاريا وبودوليا في نهاية القرن السابع عشر إلى نقصان عدد الإيالات من جديد، وفي الفترة المتعلقة ببحثنا وصل عددها إلى اثنتين وثلاثين إيالة⁽²⁾. علاوة على ذلك ففي القرن السابع عشر نفسه لم يعد الحكم العثماني للعديد من هذه الإيالات سوى اسمي فقط⁽³⁾، وكما سنرى لاحقاً فإن المنطقة التي كانت تُحكم فعلياً قد استمرت في التقلص خلال القرن الثامن عشر. وإن إطلاق تعبير سنجق بك وبكلربك على حكام الأقاليم لم يعد شائعاً كثيراً، ربما بسبب المعنى غير الواضح المتعلق بكلمة البكلربك. أصبح الحكام الإقليميون يُعرفون بالكلمة العربية «والي» التي تلفظ «فالي» بالتركية وتعني الحاكم، بينما أطلق على السناجق لقب «المتصرف» وتعني بالعربية من يملك حق التصرف بالأمور⁽⁴⁾. علاوة على ذلك فقد بدأت إدارة بعض السناجق تتم بواسطة نواب أدنى رتبة من رتبة الباشا، وستحدث عنهم لدى كلامنا عن تدهور المؤسسة الحاكمة ككل.

كان حكام الأقاليم في الأيام الأولى، بالرغم من مهامهم المدنية، ضباطاً إقطاعيين يتولون جمع السباهية للحرب فيقاتلون بقيادتهم، وكانوا هم أيضاً يعيشون على الإقطاعيات وعليهم أن يجهزوا المقاتلين والخيام وغير ذلك بما يتناسب مع العائدات التي يجمعونها من إقطاعياتهم⁽⁵⁾ التي تنتمي كلها إلى فئة «الخاص». ومن المسلم به

(1) بالتركية: *Şubaşılık* التي قُسمت إلى عدة سناجق. انظر تسنكايزن ج 3 ص 131-133.

(2) هي الإيالات المذكورة باستثناء الإيالات من 3 إلى 9 (التي تم التنازل عنها وفق معاهدة كارلوفيتش عام 1699) وباستثناء قبرص لكن بإضافة صيدا المنفصلة عن دمشق والمؤلفة من سناجق صيدا وصفد (في فلسطين الآن). انظر قائمة دوشون.

(3) على سبيل المثال في الجبشة واليمن والإحساء.

(4) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «سنجق». انظر الفصل الخامس من الكتاب عن الفلاحين وإدارة المتصرف لأراضيهم التي كانت تدعى «تصرف». لم تطلق كلمة المتصرف على حكام السناجق إلا في القرن السابع عشر.

(5) تبعاً لقانون نامه علي عثمان، كان على كل سنجق بك تجهيز مقاتل لكل 5,000 آقچه من

أن إيرادات إقطاعيات الخاص للسَنَاق بكية يجب ألا تقل عن مئتي ألف آقَجه⁽¹⁾، وألا تقل إيرادات إقطاعيات البكلربكية عن مليون آقَجه. وتتعلق نسبة العائدات بالفترة التي أمضوها في الخدمة، وكانت خاصاتهم تزداد تدريجياً بضم التيمارات إليها والتي كانت تُعرف، في حالات السَپاهية العاديين، باسم «التُرقي» وبذلك فإن الخاص الممنوح للسَنَاق بك لدى تعيينه الأول يتوافق مع قليج السَپاهية. وبناء على هذا إن كان سلف البك المعين حديثاً قد أتى بعائدات أكبر فإن الباب العالي يحرم البك الجديد من الفرق عن طريق اقتطاع مساحة من الأرض من خاصه ليؤمن التخفيض اللازم وليحوّل الأرض إلى تيمارات عادية إلى أن يصبح مؤهلاً لاستعادتها تدريجياً. وكان الأشخاص⁽²⁾ الذين يُمنحون هذه التيمارات يُكافأون بغيرها عندما تتم إعادتها للسَنَاق بك⁽³⁾. وبشكل مشابه فإن وُجد أن أحد البكلربكية يستمد من خاصه عائدات أكبر ممّا ينبغي له، إما بسبب حسن الحظ أو الإدارة الجيدة، فإن هذه الأراضي المزدهرة تؤخذ وتستبدل بغيرها، بينما تعود أرباحها لفائدة أملاك الإمبراطورية.

يبدو أنه كان يتم اختيار حكام الأقاليم من الطبقة الإقطاعية، وبقي الأمر نفسه بالنسبة إلى ضباطهم التابعين لهم في الأزمنة اللاحقة، كما يبدو أن كل واحد منهم كان يعين لقيادة الإقليم الذي له إقطاعية فيه، وكان المنصب في بعض الحالات وراثياً

العائدات ودرع لكل 50,000 آقَجه بالإضافة إلى سائقين للجمال وثلاث خيام (واحدة له وأخرى لأغراضه الوظيفية والثالثة لأمواله) وغرفة للمؤن ومطبخ ومخزن لإسراج الخيول. وفي الموسوعة الإسلامية مادة «تيمار» يُذكر أنه على السَنَاق بك تجهيز مقاتل لكل 1,000 آقَجه لكن رقم 5,000 قد أقره Evliyâ Çelebi ج 1 ص 101، وعيني علي (لدى تيشندورف ص 87)، وسيد مصطفى ج 1 ص 120. وينطبق الأمر أيضاً على البكلربك.

(1) أوليا چلبی Evliyâ Çelebi ج 1 ص 97؛ وتيشندورف ج 1 ص 87؛ والموسوعة الإسلامية مادة «تيمار». وإن قائمة عائدات السَنَاق بكية التي أوردها عيني علي (وسيد مصطفى ج 1 ص 125) تظهر خمس إيلات تقل إيراداتها عن الرّقم القانوني وهي البوسنة وكرمان وأرضروم والّرقة وديار بكر.

(2) وهم عادة إما من الإنكشارية أو من الخيالة النظاميين الذين لديهم الحق بالحصول على مثل هذه الإقطاعيات الصغيرة.

(3) الموسوعة الإسلامية مادة «تيمار».

أيضاً⁽¹⁾. وبعد إنشاء نظام الدوشيرمه، الذي نشأ عن اتساع الفجوة بين آراء وأهداف البلاط من جهة ومسلمي الأقاليم من جهة أخرى، ولكي يدعم السلاطين من سلطتهم في الشؤون الإقليمية، وبسبب الغيرة من المكانة التي نالتها بعض العائلات ذوات المناصب العليا⁽²⁾، فقد عمدوا إلى تعيين أفراد من القاهي قُول لرى لينوبوا عنه في حكم السناجق. ولكن لغاية الربع الأخير من القرن السادس عشر كان المعينون في هذه المناصب يبقون فيها لفترات طويلة⁽³⁾ حتى تتم ترقيةهم أو فيضطرون إلى التقاعد إما بسبب تقدّمهم في السن أو بسبب الوفاة. أما في عهد السلطان مُراد الثالث (1574-1595) فقد أُبطل هذا النظام. ولأسباب ستُوضح لاحقاً أصبحت الحكومة المركزية تتبع مخططاً لإجراء أكبر قدر من التغييرات الوظيفية. أولاً أصبح التواب يصرفون من الخدمة بعد ثلاث سنوات، ثم عُدت هذه المدة طويلة نوعاً ما فأصبحت القاعدة هي التعيين لمدة سنة واحدة فقط، مع أنها كانت تجدد في كثير من الأحيان⁽⁴⁾.

في الفترة الأولى من الحكم العثماني كان السنجق بكية يسيطرون على النظام الإقطاعي بأكمله، ولكن عندما وُجد نظام حكومة الأقاليم انتقلت السيطرة إلى البكربكية الذين امتلكوا الحق لغاية عام 1530 بمنح الزعامات والتيمارات، وإذا حدث أن فشل المالكون بتأدية واجباتهم يحقّ لهم حرمانهم منها. يبدو أن السنجق بكية لم تعد لهم سوى سلطة الإشراف فقط، بالإضافة إلى قيادة الفرق العسكرية ومهامهم المدنية. فإن كان أحد السباهية مريضاً مثلاً عند قيام الحرب ويرغب في إرسال مقاتل بدلاً عنه، كان القرار يعود إلى السنجق بك في ذلك، أما إن فشل أحد السباهية في

(1) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «الأترك». وإن افترض كون السنجق بك من أفراد الطبقة الذين يملكون الإقطاعيات يدعمه حقيقة أن وظيفته مماثلة لوظيفة الألاي بك الإقطاعية، وأن أبناء السنجق بك والبكربك كانوا في العصور اللاحقة يُمنحون إقطاعيات إثر وفاة والدهم (انظر تسنكايزن ج 3 ص 160؛ تيشندورف ص 48).

(2) أي غير السلاطين من عائلة الجندارلي التي سبق الحديث عنها.

(3) في العادة بين عشرين إلى ثلاثين سنة.

(4) دوسون ج 7 ص 277؛ بيلين «La Propriété foncière» ص 204؛ الموسوعة الإسلامية مادة «تيمار».

تجهيز العدد اللازم من المقاتلين فإن عقابه يقع على عاتق البكربك. وبما أن السنجق بكية اللاحقين كانوا من القايى قول لرى فإن المزاي والسلطة التي تمتعوا بها كانت أقل مما تمتع به أسلافهم الإقطاعيون (وهذا هو المقصود فعلاً من تعيينهم)⁽¹⁾. علاوة على ذلك فإن وجودهم لم يلقَ قبلاً في الإقطاعيات التي عُيّنوا فيها، وعُهد ببعض مهامهم، التي كان السنجق بكية يقومون بها سابقاً، إلى ضباط سبق وأشرنا إليهم يدعون ألاي بكية، وهم لم يكونوا من القايى قول لرى بل زعماء أي يملكون الرعامت، يختارهم أصحابهم⁽²⁾ وهم من الطبقة الإقطاعية. لم يتبين تماماً متى بدأ تعيينهم لكنهم كانوا موجودين في عهد محمد الفاتح⁽³⁾، وكان تعيينهم في السناجق⁽⁴⁾ من قبيل إعفاء سلفهم من الخدمة (وهو من القايى قول لرى)⁽⁵⁾، وكانوا يتمتعون بمزايا وسلطات السنجق بكية ومنها استخدام الراية والطلب، كشارات ملكية، ولكن دون أن تكون لهم صلاحية استخدام الطوغ⁽⁶⁾. كان لكل ألاي بك حامل للراية (بيرقدار Bayrak-dâr) وچاوش، وكان كباقي الإقطاعيين العسكريين ملزماً بتجهيز مجموعة من المقاتلين المسلحين. وبالرغم من كونه أصلاً ضابطاً عسكرياً، ربما بدرجة أكبر من السنجق بك، فقد كان ملزماً أيضاً بتأدية واجبات أخرى في السنجق عندما يأمره الپاشا بذلك، وفي الأزمنة اللاحقة أصبح مشرفاً على الصوباشية في المقاطعات الصغيرة التابعة له. كانت مهمة ألاي بكية الرئيسية هي تجميع القوات الإقطاعية في بداية كل حملة والتأكد من أن المرشحين للإقطاعيات العسكرية مؤهلون لها⁽⁷⁾. وبما أن السنجق بكية كانوا من

(1) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «الأترك».

(2) انظر Belin «Régime des Fiefs Militaires» ص 231.

(3) ورد ذكرهم مرة واحدة في قانون نامہ الفاتح حيث صنفوا في مرتبة مع الدفتر كاخية سى أدنى من فئة معينة من القضاة.

(4) انظر سيد مصطفى ج 1 ص 121.

(5) انظر Belin المصدر السابق ص 231، حاشية.

(6) المصدر السابق ص 232، حاشية.

(7) لمهام ألاي بك انظر نظام نامہ لعام 1777 (في عهد السلطان عبد الحميد الأول) المنشور في كتاب «التاريخ» لجودت ج 1 ص 317 وما يليها.

الطبقة الإقطاعية فقد كانوا دون شك يقومون بهذه المهام بأنفسهم، أما القابى قول لرى فلم يكونوا معتادين على الوضع الزاهن في بداية تعيينهم، وكان لا بدّ لهم من طلب المساعدة من السّكان المحليين للسّنجق. يبدو أن عمل الألاي بكية لم يكن رسمياً في البداية، إذ لم يرد ذكرهم إلا قليلاً في قانون نامِه، واستمرّوا في تطبيق مهامهم في الإقطاعيات، بينما كان السّنجق بكية يمثلون الحكومة المركزية. في السّنجق الذي كان يرأسه أحد البكلربكية لم يكن هناك سنجق بك بل ألاي بك فقط، ويقوم البكلربك بحكم المقاطعة مباشرة وكذلك الإشراف على الإيالة بأكملها⁽¹⁾.

لم يكن الألاي بكية يجمعون القوات الإقطاعية للحرب فقط، بل كانوا يقودونها تحت إمرة السّنجق بكية. ولم يُذكر أنهم قادوا القوات بشكل مستقل أبداً، ويقوم السّنجق بك أحياناً بتنفيذ عمليات صغيرة بقواته الخاصّة فقط⁽²⁾. ومن جهة أخرى يمكن لأيّ حاكم أن يملك سلطة قيادة قواته الخاصّة بالإضافة إلى قوات أخرى، وفي هذه الحالة يضطر الحكام المعنيون إلى إطاعة أوامر القائد شريطة ألا تكون رتبته أعلى من رتبته. بشكل مشابه كان الباشوات ذوو الأطواغ الثلاثة يفرضون سلطتهم خارج مقاطعاتهم في أوقات السّلم، وعندما كانوا يتنقلون بين أقاليمهم والعاصمة كانوا يمارسون هذه السّلطة في كل الإيالات التي يمرّون بها في طريقهم باستثناء تلك التي يحكمها ضباط يماثلونهم في الرّتبة؛ أمّا الحكام الأصغر فلم يكن يحقّ لهم فرض سيطرتهم إلا على المناطق التي يحكمونها، ويفقدون سلطتهم حالما تنتهي خدمتهم. كانت معظم القواعد التي تحكم الإدارة في المقاطعات منظمة أصلاً لبكلربكيات الرّوملي والأناضول، لكنها طبّقت في معظم المقاطعات المنشأة بعد ذلك ولكن ليس فيها كلها. ففي إيالات معيّنة، ومن أبرزها بغداد ومصر، لم يكن هناك سوى القليل

(1) انظر دوسون ج 7 ص 278؛ أوليا چلبى Evliyâ Çelebi ج 1 ص 90 حيث يظهر الألاي بك،

وليس السّنجق بك، رئيساً لمعظم الإيالات.

(2) تيشندورف ص 48.

من التّنظيمات الإقطاعية⁽¹⁾، وبعض الإيالات لم تكن حتى مقسّمة إلى سناجق⁽²⁾، وبالتالي كان على الباشوات الذين يحكمونها إيجاد مصدر للعيش غير الإقطاعيات. في هذه الإيالات وفي سناجق لا إقطاعية معيّنة كانت العائدات المتجمّعة لأصحاب الإقطاعيات ذوي الرّتب المختلفة تُجبى من قبل موظفين وتذهب للخزينة العامة ثم تدفع منها رواتب سنوية ثابتة للحكام، وبعد دفع التّفقات المحليّة يذهب الفائض، إن بقي من المال شيء، إلى العاصمة. ولهذا السّبب كانت تلك الإيالات والسّناجق تدعى بالسّنوية⁽³⁾ *Sâlyâneli*. كانت المبالغ التي تُجمع للخزينة المركزيّة تسمى بالإرسالية *irsâliye* وفي هذه الإيالات يحقّ للبكربكية تعيين السّنجق بكية (حيث يتواجد هؤلاء الضبّاط)⁽⁴⁾. أما في المناطق الأخرى فقد كان تعيينهم يتمّ من قبل الحكومة المركزيّة وتتمّ ترقيتهم من مناصب مختلفة تتدرج من الرّعامت إلى آغوية الرّكاب والمناصب الإدارية العليا كالنّشانجي والدّفتردار⁽⁵⁾. وكانت كمية العائدات

(1) صحيح أنه كان لبغداد إقطاعيات في سبعة سناجق من سناجقها الثمانية عشرة، لكنها كانت سنوية ساليانه لي *sâliyâneli*.

(2) مثل جورجيا والبصرة والإحساء واليمن والحبشة. انظر Evliya Çelebi ج 1 ص 88، 95-96. مع ذلك كان للإيالات الثلاث الأخيرة سناجق في القرن السّابق.

(3) من كلمة سال *sâl* الفارسية بمعنى سنة، وساليانه *sâleyâne* تعني سنوي. وفي التّركية ساليانه لي *sâliyâneli* تعني شيء سنوي (يتكرر سنوياً).

(4) كانت الإيالات الأخرى التي تسمى «سنوي» هي البصرة واليمن والإحساء، كما كانت هناك سناجق الإيالات الإقطاعية في حلب والأرخييل. كان هناك لفظ آخر يطلق على هذه المقاطعات هو مقطوعة مربوط *maklû'a merbûl* (أي مجبرة على دفع الجزية)، وميري لي *Mirîli* من الميري أو الخزينة. كما أن كريت وقبرص وواراد وكفة والمورة ليس فيها تيمارات. انظر أوليا چلبى Evliyâ Çelebi ج 1 ص 88؛ سيد مصطفى ج 1 ص 132؛ هامر ص 244؛ أحمد راسم ج 1 ص 347، حاشية، ص 380، حاشية؛ تيشندورف ص 83-85؛ الموسوعة الإسلامية مادتي «سنجق»، «تيمار».

(5) يقول عيني علي (تيشندورف ص 86-87) إن أصحاب المناصب المؤهلين للسّناجق هم: 1. الرّعيم الذي يتمتّع بعائدات تصل إلى 50,000 آقچه، والبايا بك، وتيمار دفتردار، ودفتردار كاخية سى، وسكمن باشى، وآغا العلوفة جى، ويحتلون المرتبة الدّنيا. 2. سلّخدار آغا، ويبدأ بالخاص الذي يدر 280,000 آقچه. 3. آغا السّباهية النّظاميين، ويبدأ بالخاص الذي يدر 300,000 آقچه.

التي يجهّزون بها كسنجق بكية من إقطاعات من نوع «الخاص» وتعتمد على أهمية مناصبهم السابقة. لم يكن أصحاب الرّعامت المترفعين إلى السّنجق مؤهلين لأكثر من مئتي ألف آقچه (وكما لاحظنا كانوا في بعض الأحيان يحصلون على أقل من ذلك). ومن جهة أخرى إن تمّت ترقية أحد أغوات الإنكشاريّة كان يُمنح منذ البداية مبلغ خمسمئة ألف آقچه.

لم تكن سلطة الحكام واسعة نظرياً، مع أنهم كانوا ممثلين عن السلطان. من ناحية أولى لم يختصّهم قانون الشريعة بالسلطة وإنما اختصّ قضاء أقاليمهم، ومن ناحية ثانية فإنّ كل الشؤون المالية بما فيها المتعلقة بنظام الإقطاع كانت موكلة إلى موظفين يعيّنون في كل إقليم⁽¹⁾. وفي الحقيقة فإن سلطة كل من القضاة وعلماء الدين لم تكن واضحة تماماً في تلك الأقاليم كما هي في العاصمة: فكما أن الصّدر الأعظم له مجلس محكمة ينظر فيه ببعض القضايا ويترك الأخرى لأهل الشريعة، فإن حكام الإيالات أو السّناجق يقومون بالأمر ذاته. ومن المحتمل أن تكون سلطتهم على الموظفين الماليين المحليين، حتى في الأيام الأولى، كبيرة إلى درجة لتلغي أية استقلالية منحها لهم القوانين⁽²⁾.

4. ضباط الخدمة الخارجية: مير آخور وچاقرجى باشى وچاشنيگير باشى وقايجى باشى ومير علم. ويبدؤون بالخاص الذي يدر بين 300,000 للأول و450,000 للآخر. 5. الشّانجى والدّفتردار، ويبدآن بالخاص الذي يدرّ 450,000. 6. ينيچري آغاسى، ويبدأ بـ 500,000. لا تتوافق أرقام أوليا چليبي Evliyâ Çelebi مع هذه الأرقام لكن المقطع المترجم من كتابه ج 1 ص 98 يحتاج إلى بعض التّصحيح.

(1) سيّد مصطفى ج 2 ص 91.

(2) منذ القرن السادس عشر كان دفترداریة الأقاليم يساعدون الباشوات على ارتكاب المخالفات القانونية بدلاً من التفتيش على أعمالهم. انظر تسنكايزن ج 3 ص 162. وهناك دلائل تشير إلى عدم تدقيق الدّفتردارية في عملهم من جهة وضغط الباشوات عليهم من جهة أخرى وذلك في وثيقتين تعودان لعهد السلطان سليمان العظيم، الأولى «قانون» يحث الدّفتردارية على الاستقامة في العمل، والثانية «فرمان» لبيكربكية الرّوملي يمنعهم من إنقاص الإقطاعات التي يملكها سكرتيرو السّباهية. تيشندورف ص 46-47.

مع أن هؤلاء الموظفين لم يكونوا موجودين سوى في عدد قليل من الإيالات في منتصف القرن السابع عشر، فقد كان عددهم يصل في مقر الإيالة إلى ثمانية أشخاص عدا عن الباباشا نفسه⁽¹⁾. ومن بين هؤلاء كان هناك اثنان من القوات الإقطاعية يدعيان ألاي بك سنجق الباباشا والصوباشي أو الجري باشي ويكون هناك واحد في كل قسم من أقسام السنجق بما فيها مقر إقامة الباباشا (وسنشرح ذلك بالتفصيل لاحقاً). من بين الستة الباقين هناك ثلاثة يدعون بكتاب السباهية *Sipâhî Yazıcıları* مهمتهم هي تسجيل الإقطاعيات، وهم على وجه التحديد: دفتر أميني⁽²⁾ الإيالة ومساعداه دفتر كاخية سي⁽³⁾ لإقطاعيات الزعامت وتيمار دفترداري لإقطاعيات التيمار⁽⁴⁾. أما الرابع الذي تعلو مرتبته على الجميع، فهو مال دفترداري⁽⁵⁾ *Mâl Defterdârî* أي الخازن الذي يتولى الشؤون المالية، واستلام أموال التفتقات وتنظيم الأموال الإقطاعية متميزاً

(1) انظر قائمة أوليا چلبى Evliyâ Çelebi (ج 1 ص 90، ج 1 ص 178) ويذكر أن كل واحد من سناجق بودا كان له موظفو ديوان. ويذكر أربع إيالات أخرى فيها نفس الموظفين هي كرمان ووان وشهرزور وقبرص. على سبيل المثال هناك إيالتان من إيالات الروملي والأناضول لا يوجد في الأولى منهما جاوش لُر كاخية سي ولا يوجد في الثانية مال دفترداري (إلا إذا كان يمثل في الأناضول بالدفتر محاسبي. وبالمقابل تضم هاتان المقاطعتان عدداً من الموظفين الإضافيين: في الروملي هناك فوينوق آغاسى وسبعة يوروك بكية، وفي الأناضول أربعة مسلم بكية وأحد عشر يابا بكية.

(2) أو دفتر مفتشي (في إيالة الروملي).

(3) أو زعامت كاخية سي. انظر سيّد مصطفى ج 1 ص 121.

(4) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «تيمار». لم يُذكر دفتر أميني الإقليم في قانون نامه الفاتح ولا من قبل عيني علي. لكن أوليا چلبى Evliyâ Çelebi يظهره في معظم الإيالات جنباً إلى جنب مع الدفتر كاخية سي والتيمار دفترداري، كما يذكر فريدون *Feridun* أن كتاب السباهية *Sipâhî Yazıcıları* هم الدفتر أميني والتيمار دفترداري مع مساعدتهم، دون أن يذكر الدفتر كاخية سي. أما هامر فيذكر ص 245 الدفتر كاخية سي فقط وزعامت دفترداري، قائلاً إن الأول هو الممثل المحلي للميري، بينما يتولى الثاني إدارة العمل الإقطاعي. ثم يعود فيذكر ص 350 أن من مهام الدفتر كاخية سي أن يأخذ الدفاتر الإقليمية إلى العاصمة لتفحصها؛ ومن المحتمل أن هذه الدفاتر هي تلك التي تسجل فيها الأراضي الإقطاعية.

(5) «مال» كلمة عربية. ويدعوه أوليا چلبى Evliyâ أيضاً بخزينة دفترداري.

بذلك عن الموظفين الذين سبق ذكرهم. وسنرى أن المال داري والدَفتر أميني في الإيالة يقابلهما موظفان في الحكومة المركزية، كما أن هذه المطابقة موجودة في الوظيفتين الآخرين أي أميني وكاخية الجاوشية المحليّة، وهذان الموظفان هما عاملان حكوميان مهمّتهما تنفيذ الأحكام الصادرة عنه أو علماء الشريعة في مجالس القضاء تماماً كما الجاوشية في العاصمة العاملين بامرة الصّدر الأعظم. لم يُذكر الدَفتر أميني المحلي في قانون نامة السلطان الفاتح، لكن ورد فيه أن التّيمار دفتردارية يجتدّون من بين «المتفرّقة» المأجورين ثم يترقّون إلى رتبة الدَفتر كاخية سى ثم إلى مال دفترداري. يعيش التّيمار دفتردارية والرّعامت كاخية سية، كالآلاي بكية، على عائدات إقطاعيات الرّعامت، بينما يعيش الجاوشية وموظفو السكرتارية الآخرون على إقطاعيات التّيمار التي تُعرف باسم قليج يري *kılıç yeri* وهم يعملون بامرة الدفتردارية إذ يمنع القانون الهاشوات من التّدخل بأموالهم. قد يُعدّ الموقوفاتي أو الموقوفاتجي (*Mevkûfâtî or Mevkûfâtıcı*) من بين موظفي الديوان الإقليميين، ومهمّته تحصيل الضرائب المفروضة على الفلاحين وعقاراتهم الثابتة، وبالأخصّ إدارة الإقطاعيات الشّاغرة لصالح الخزينة المحليّة. يقال إنه يوجد موقوفاتجي واحد في كل مقاطعة، أي في كل إيالة⁽¹⁾. ربما يكون تابعاً للمال دفترداري لكن لا يبدو أن هناك «ديرلك» مخصّصاً له، ومن المحتمل إذن أنه يتقاضى راتباً أو يعيش على نسبة من العائدات التي يقوم بتحصيلها.

لا يوجد في العديد من الإيالات العدد الكامل من هؤلاء الموظفين، وربما يعود ذلك إلى اختلافات تنظيماتها. وإن الإيالات السنوية (أي التي يتقاضى واليها راتباً سنوياً) لا تحوي إقطاعيات ولا تحتاج إلى موظفين يديرون شؤونها. ويبدو أنه عندما تقتطع بعض الإيالات من إيالات أخرى، كما في سيليستره *Silistre*، فإن شؤونها الإقطاعية والمالية تبقى بإدارة المقر الرّئيسي في المقاطعة الأم، ولذلك لا يوجد

(1) انظر بيلين Belin: «*Régime des Fiefs Militaires*» ص 235.

فيها موظفو ديوان مستقلون⁽¹⁾. أما الأُغرب من ذلك فهو أنه في عدّة إِيالات لم يكن هناك مال دفترداري⁽²⁾ أما في إِيالات أخرى فبالرّغم من عدم وجود موظفين لإدارة الإقطاعيات فقد كان هناك أَلَاي بكية وچري باشية. ومن المحتمل أن المهام المفقودة في هذه الأماكن كانت تؤدّى من قبل موظفي المقاطعات المجاورة.

كما أنّ لكل من الدّفتردار والدّفتّر أمني في الحكومة المركزية ما يقابلهما في حكومة كل إِيالة، فقد كان الأمر مشابهاً بالنّسبة إلى موظفي مكتب الصّدر الأعظم وبيته، وكذلك موظفي كل باشا. في البداية كان الحُكّام الإقليميون يعيشون بحالة متواضعة ويخصّصون معظم وارداتهم للأعمال العامة كبناء المساجد والجامعات والتكايا والمعدّات الحربية. أما في القرن السادس عشر وما بعده فقد أصبح من الشائع منح الوزراء إِيالات وسناجق، وبالتالي أصبح من الشائع امتلاكهم لمنازل فخمة؛ لذلك فإن الوصف التّالي ينطبق على باشوات العصور المتأخّرة أكثر ممّن أسلافهم المتواضعين. وبما أنه لم يكن هناك تمييز رسمي بين رتب الوزراء، باستثناء وزراء القبة، فقد أمكن للوزير متوسّط الرّتبة الحصول على كاخية خاص به، كمثيل لكاخية بك الصّدر الأعظم، وأفندي ديوان، يماثل الرّئيس أفندي، والإيج أغوات يرأسهم السّلحدار الذي يحمل سيف الباشا أمامه في المناسبات العامة⁽³⁾. وكان من بين الإيج أغوات سلام آغاسي *Selâm Ağası* (ويماثل رئيس التّشريفات أو التّشريفاتجي)، ورئيس الخيل، ورئيس الحجاب، والخازن، وكبير الخدم، وهم من العبيد المدربين على الخدمة. وكما سبق وذكرنا كان لكل حاكم فرقته العسكرية التي يتراوح حجمها بحسب عدد أطواغه، كما كان يحصل على مزايا أخرى بحسب رتبته. فالباشا ذو الثلاثة أطواغ لديه تسعة أحصنة تمشي أمامه، ويرافقه ستة مشاة يدعون الشّاطر⁽⁴⁾ *Şâtir*، والباشا ذو الطّوغين لديه ستة أحصنة وأربعة شطّار، أما السّنجق بك فلديه ثلاثة أحصنة

(1) كما في أضنة والزّقة.

(2) كما في سيواس والأرخييل وطرابزون.

(3) دوتون ج 7 ص 285؛ أحمد راسم ج 1 ص 455، حاشية.

(4) يبدو أن هذه الكلمة تركية مع أن هناك ما يماثلها بالعربية وتعني «الدّكي أو العيّار». أما هامر

فيذكر أن عدد الأحصنة والآلات الموسيقية للباشا ذي الثلاثة أطواغ هو سبعة.

وشاطران⁽¹⁾. أما ما عدا ذلك فكانوا يوظفون عدداً من الخدم من أصناف مختلفة، يماثلون العاملين في الخدمة الخارجية للقصر السلطاني. وفي البداية كان هناك عدد قليل من القواصين⁽²⁾ *kavvas* يُعدّون المرافقين الخاصين للباشا؛ أما فيما بعد فقد أصبحوا مجرد رسل بعد ازدياد عددهم. وأخيراً كان للباشا، كما للصدر الأعظم، مجموعات من السعاة والجنود المسلحين والخيالة، ولكل منهم ضابط يعملون بأمره⁽³⁾.

كان بعض البكربكية يتمتعون بمزايا خاصّة، ونذكر على سبيل المثال أولئك المتواجدين في العواصم الملكية بغداد والقاهرة وبودا، الذين يسمح لهم باستخدام القوارب كالتي يستخدمها السلطان⁽⁴⁾، وكذلك استخدام حراس الصّولاقي والبيك، وتعيين عدد من الموظفين دون الرجوع إلى الباب العالي. أما بكربك الروملي فيحق له الجلوس على الكرسي السلطاني في الديوان متقدماً على قاضي العسكر، ومخاطباً بشكل رسمي بلقب الباشا وبعبارة «دامت معاليه» بعد لفظ اسمه.

كان السنجق أصغر مقاطعة إدارية، وهو في الوقت نفسه أرض إقطاعية. وكما سبق وذكرنا هناك عدة إيالات لا توجد فيها إقطاعيات، وحتى في الإيالة العادية لم تكن الأراضي كلها مقسمة إلى إقطاعيات. وإذا توجب تقسيم السنجق لأسباب إدارية فلا بد أن يحدث ذلك وفق أساس غير إقطاعي. كان هذا التقسيم في الواقع قضائياً: أي يقسم السنجق إلى عدد من المقاطعات يقيم في كل واحدة منها قاض مسلم يطبق الشريعة، ولهذا دُعيت كل مقاطعة باسم قضاء⁽⁵⁾ *kadâ* وكان بعضها حضرياً، كما في

(1) يذكر هامر أنه كان للسنجق بك شاطر واحد.

(2) من العربية قواس من كلمة قوس. وتعني الكلمة على الأرجح صانع الأقواس وليس الرامي.

(3) انظر الملحق الثالث. أحمد راسم ج 1 ص 456-457. ويذكر هامر ص 246-247 من بين أفراد إدارة الباشا وجود ألاي بك يعمل كالچاوش باشي.

(4) وتدعى *koçulu kayık*. وكلمة قوچی *Koçu* تعني «العربة المغلقة». ومن المحتمل أنها تعني هنا الزورق ذا القمرة المغطاة.

(5) وتلفظ بالتركية *kaza* أما بالعربية فهي من فعل «قضى» أي أصدر حكماً. ويمكن للكلمة أن تعني القضاء أو مقر القاضي أي المنطقة التي يمارس القاضي مهامه فيها.

المدن الكبرى أما الأخرى فكانت ريفية تتمركز في القرى. وكانت الأقضية تقسم من جديد إلى مناطق أصغر فيها نائب عن القاضي وتدعى الناحية⁽¹⁾ *nâhiye*. كان القضاة بالطبع من رجال الدين ويتميزون بالتالي بأنهم ليسوا أفراداً في المؤسسة الحاكمة. ولكن بالرغم من اعتماد الأقضية والنواحي على رجال الدين أكثر من اعتمادها على المؤسسة الحاكمة، فقد كان في كل منها ضابط يدعى بالصوباشي *Şubaşı*. وقد سبق أن أشرنا إلى هؤلاء الضباط في معرض كلامنا عن النظام الإقطاعي ويحتلون المكان التالي للألای بكية، لكن صوباشية هذه الفئة لا يتواجدون سوى في الأقاليم التي تحوي على إقطاعيات، ويدعون هنا بصوباشية التيمار الأهلي *Ehli Timar Şubaşıları*، بينما يدعى الذين يتواجدون في الأقاليم الأخرى بصوباشية الميري (أو الخزينة) *Mirî Şubaşıları*. وتدل هذه الأسماء أيضاً على أن صوباشية الإقطاع يعيشون على عائدات إقطاعياتهم وهم مجبرون على تجهيز الجنود تبعاً لوارداتهم⁽²⁾، أما الآخرون فيتقاضون رواتب من الخزينة، مع ذلك فالجميع مكلفون بتحصيل المستحقات المفروضة على المخالفين. كان كل من الميري صوباشي والصوباشي الإقطاعي من رجال الشرطة ينفذان أحكام القضاة الذين يعملون في مقاطعاتيهما، وهما مسؤولان بشكل أساسي عن حفظ النظام والقوانين. وفي المناطق التي يوجد فيها جنود الإنكشارية كان هناك دوريات شرطة يعملون بإمرة الصوباشي المحلي، تماماً كما في العاصمة حيث تقع هذه المهام على عاتق الصوباشي. لكننا لم ننتبه إن كان الميري صوباشي في هذه الأماكن هو من الإنكشارية أم لا.

كان المنصب عسكرياً في البداية، وكان ذا أهمية كبرى في الدولة التركية الأولى.

(1) من العربية بمعنى «منطقة أو جوار».

(2) كان يُطلب من الصوباشية تجهيز جندي عن كل 4,000 آقچه من الواردات، ودرع لكل 30,000 آقچه، وخيتمين إن كانوا يغنون أكثر من هذا المبلغ. وتبعاً لأحمد رفيق يملك الصوباشية الزعامات الموجودة في أقضيتهم أي أنها لم تكن متوارثة بل تعامل معاملة الخاص كبقشيش على الوظيفة. ويمكن إسناد هذا الافتراض إلى كون التيمارات تُمنح لأبناء الصوباشي المتوفى، كما تُمنح لأبناء البكلربكية والسنجق بكية. انظر تسنكايزن ج 3 ص 157.

كانت الكلمة (التي تعني رئيس الجيش) تطلق في الدولة الغزنوية على الجنرال. أما في دولة سلاجقة قونية فكانت تحمل معنى نصف مدني، أي أن الصوباشية السلاجقة كانوا حكاماً عسكريين للمدن. وكان هؤلاء الحكام العسكريون مجبرين بالطبع، تبعاً للأعراف الإسلامية، بالعمل مع القضاة الشرعيين، وسواءً قام السلاجقة بتعيين صوباشية ريفيين أو إقطاعيين أو لا، فإن تقسيم الأراضي العثمانية إلى أقضية أدى بشكل طبيعي إلى تعيين صوباشي، حضرياً كان أم ريفياً، يعمل بأمر القاضي في المنطقة الخاضعة لسلطته⁽¹⁾. كذلك كان من الطبيعي أن تكون مرتبة هؤلاء الصوباشية أعلى من مرتبة السباهية ويحصلون على الإقطاعات مثلهم. لكن نقطة الاختلاف هي أن هؤلاء الضباط مجبرون على المشاركة في الحملات العسكرية مع أن غيابهم، إن لم يعين أحد في مكانهم، يعني بقاء القاضي المحلي دون أحد ينقذ أحكامه⁽²⁾.

سنناقش الظروف السائدة في المناطق الريفية في فصل آخر، وفي فصول أخرى ستحدث عن الظروف التي عمل في ظلها التجار والحرفيون في المدن؛ والتقييدات والعقوبات المفروضة على الفلاحين وأبناء المدن غير المسلمين؛ ووضع القضاة أنفسهم في سلم علماء الدين. وهنا لن نحتاج إلا إلى ذكر الحقائق، ومنها أنه كان للقاضي في المدن والبلدات معاون آخر غير الصوباشي يدعى المحتسب *Muhtesib* أو احتساب آغاسي *İhtisâb Ağası* (أي المراقب) يتولى الشؤون المتعلقة بالتجارة والصناعة، وأن المجتمعات غير الإسلامية كانت تمثل لدى تعاملها مع السلطات المحلية بموظفين يتم اختيارهم من بينهم ويدعون القوجه باشية *Koca Başıs* أو كبار السن *Chief Elders*.

(1) في الواقع كان الصوباشية المديتوني يعينون في كثير من الحالات كقادة للحاميات المتواجدة في المدن المفتوحة حديثاً وبهذا كان وضعهم مشابهاً جداً لوضع صوباشية السلاجقة. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «الأثر».

(2) أثناء حملة السلطان الأول في سوريا بقي بعض صوباشية الروملي في منازلهم ويروي تيشندورف ص 43 أن السلطان أمرهم بجباية العائدات المتأخرة نيابة عن السباهية الذين خرجوا إلى الحرب.

كان الحكام يسيطون نفوذهم بشكل عام بواسطة القوات الإقطاعية التابعة لهم، ولكن في بعض المدن الكبرى، ومنها بعض عواصم الإيالات⁽¹⁾، كان لديهم أيضاً عدة أورطات من الإنكشارية كما أصبح لهم فيما بعد فرق من الخيالة النظاميين⁽²⁾. كان لتلك القوات قاداتها الخاصون⁽³⁾ المسؤولون عنها والمستقلون نوعاً ما عن الحكام المحليين، وقد يقومون بالتفتيش عليهم. مع ذلك كانوا جاهزين دائماً للعمل بأوامر الحكام كما كانوا حرساً للحصون⁽⁴⁾ في الإيالات الحدودية التي كان فيها أيضاً فرق من أوجاقات الجيوش النظامية. كان الحفاظ على الأمن والنظام قائماً في أوقات السلم مع أن كيفية تحقيق ذلك لم تكن واضحة، ففي المدن التي تضم أورطات الإنكشارية كانت هناك دوريات شرطة دائمة، كما في إسطنبول، وكان ذلك الأمر موجوداً أيضاً حتى في المدن التي لا تضم مثل تلك الأورطات. ربما كان هناك مراقبون يحلّون

(1) كانت المدن التي تُعدّ مقراً للإيالة هي (في قائمة سيّد مصطفى ج 1 ص 91) بغداد والقاهرة ودمشق وحلب وأرضروم وقونية (في كرمان) وكوتاهية (في الأناضول) وقبرص (والعاصمة هي نيقوسيا) وأدرنه (في الرّوملي) وبوسنة (سراييفو) وتمشوار وبودا. أما الأخرى فكانت عواصم سناجق وهي بورصة Brusa في إيالة الأناضول وإزمير في إيالة الأرخبيل وسالونيك في إيالة الرّوملي، بالإضافة إلى العواصم الثلاث في إمارات شمال أفريقيا. والغريب في الأمر أنه في القوائم الثلاث التي تظهر توزيع أورطات الإنكشارية التي قدمها أحمد جواد ص 164، والتي تعود إلى تواريخ غير محدّدة في هد السلطان محمّد الرابع (1648-1687) وإلى عامي 1723 و1750، أكثر من عشرة أماكن من التي ذكرت قبل قليل لا تظهر فيها (كالقاهرة وعواصم الإمارات الأفريقية). أما الأماكن التي تظهر في القوائم الأربع فهي بغداد ودمشق وسراييفو، بينما تظهر سالونيك في قائمتي القرن الثامن عشر وقائمة سيّد مصطفى. يبدو أن معظم الأورطات قد تركزت في المناطق الحدودية في مختلف الأزمنة، وبهذا تظهر في قائمة القرن السابع عشر تسعة أماكن في هنغاريا بما فيها بودا؛ بينما تظهر في قائمتي القرن الثامن عشر أماكن عدة في القوقاز وما يجاور القرم، وكان معظم الأماكن الأخرى على طول نهر الدّانوب وقرب الحدود الروسية أو في اليونان والجزر.

(2) انظر دوتون ج 7 ص 283. في البداية يبدو أن كل أفواج الخيالة النظامية كانت تتمركز في أوقات السلم في العاصمة أو بجوارها. انظر تيشندورف ص 41.

(3) يدعى قائد الجيوش الإنكشارية المحليّة (اليرلية): سردار *Serdâr*.

(4) كان هؤلاء الحرس يدعون الدّردار *Dizdâr* (dez تعني الحصن بالفارسية).

محلّهم كأولئك الذين يعتاشون على التقابات الحرفية التّجارية والصّناعية، أو غيرهم ممّن يعملون في خدمة الصّوباشية والمحتسبين. وكان لذلك أثره في الحفاظ على أمن تلك المدن لدى غياب القوات عنها أثناء الحروب. وعندما يخرج الحاكم نفسه إلى الحرب تخلو المناطق المجاورة مؤقتاً من السّباهية وضباطهم. وفي وقت الحصاد، إن لم تكن الحرب قد انتهت بعد، يعود بعض السّباهية لجمع الأعشار المستحقة لهم ولرفاقهم ممّا يدلّ على أن وجود أفراد العائلات الإقطاعية الباقية هناك لم يكن كافياً لتحصيل ذلك. مع ذلك فإن كل سباهي يعيّن قبل مغادرته من ينوب عنه، إن لم يكن في إقطاعيته بأكملها فعلى الأقل في الجزء الذي يقوم بإدارته بنفسه. ويمكننا أن نفترض هنا أنه كما يقوم الموظفون الرّئيسيون في الإدارة المركزية بتعيين من يحلّ محلّهم لدى خروجهم مع السّلطان أو الصّدر الأعظم للحرب، فإن الأمر نفسه يتم بالنّسبة للحكام وضباط الدّيوان في الأقاليم.

كانت الحروب تتكرّر باستمرار، لذلك لم تكن هذه التّقلبات أمراً غير عادي. ومن الملاحظ أن تاريخ الإمبراطورية العثمانية لغاية القرن الثامن عشر كان يتسم بالقليل من الاضطرابات المدنية خاصّة وأن كل أقاليمها، باستثناء الأناضول، كانت مأهولة بسكان أغلبهم مختلفون عن الحكام العثمانيين بالدين أو العرق، وكان رعايا السّلطان غير المسلمين بشكل خاص يُحكمون بشكل استبدادي فظيع. وفي الواقع لم تكن هذه القلائل هي وحدها التي أخلّت بسلام الإمبراطورية خلال تلك القرون، بل ساهم سوء الإدارة في ذلك. في الأيام الأولى كان الدّافع المسيطر على انطلاق الثّورات المختلفة دافعاً دينياً: أي كان قادتها متمسكين بالأفكار ذاتها التي ألهمت حماسة الفاتحين العثمانيين الأوائل، لكن السّلاطين والحكومة تخلّوا عنها فيما بعد ليتبنوا آراء أقل تطرفاً. وقامت آخر الانتفاضات بسبب هذه الاختلافات في أواخر القرن السادس عشر⁽¹⁾. وهناك أسباب رئيسية للاضطرابات هي مطامح الأمراء وأولياء

(1) انتفاضات قره يازجي Kara Yazıcı في أورفة (Edessa) عام 1599 وقلندر أوغلي Kalender Oğlu في ساروخان عام 1606. انظر الموسوعة الإسلامية مادتي «الأترك» و«قره يازجي».

العرش في الأيام المبكرة، كالأمير جم Cem في عهد بايزيد الثاني والأمير مصطفى في عهد سليمان الأول، وفيما بعد الحكام الإقليميين أنفسهم، ونزعة التُركمان والبدو الآخرين للقيام بغزوات السلب والتَّهب. كانت آخر ثورة شبه دينية قد حفزتها قسوة أحد قادة الجنود، ممَّا أدى إلى انشقاق جنوده عنه وانضمامهم للتُّوار⁽¹⁾؛ وإن اضطهاد قائد آخر للدروز في سوريا أدى إلى قيام ثورة مماثلة⁽²⁾؛ لكن هذين المثالين لم يكونا نوعاً من سوء الحكم بالمعنى الشائع. أما الرعايا في أوروبا وجزء من آسيا الذين كان حكم المسلمين لهم حديثاً، فقد وجدوا في البداية أن حكم العثمانيين أقل إزعاجاً من أسلافهم⁽³⁾ ولم يتلقوا لفترات طويلة أي تشجيع خارجي للقيام بالثورة. ولقد تداعت الإمبراطورية ليس بسبب أن الشعوب المسلمة وغير المسلمة قد ثارت ضدها، بل لأن مؤسساتها قد بدأت بالانهيار من داخلها كما سنرى لاحقاً.

قد يكون الضعف كامناً في الحكومة العثمانية في الخط الفاصل بين الحكام والمحكومين (الذي كان واضحاً جداً دينياً وعرقياً). نجد في قوانين الحكومة قواعد تحدّد من هم العساكر *askerîs* أي حكام من جهة ورعايا (فلاحون) أو شهرليّة (أبناء المدن) من جهة أخرى⁽⁴⁾ وهؤلاء كان عملهم الوحيد في نظر الدولة هو دفع الضرائب وكان محظوراً عليهم تماماً أن يدعوا لأنفسهم مزايا الفئة الأولى كأن يمتطوا حصاناً أو يتقلدوا سيفاً. يبدو أن الهدف الأول لهذه القاعدة هو الحفاظ على نقاء الطبقة الإقطاعية كطبقة مقاتلة. ولم يكن يُخشى أن يقترن السِّباهية بزوجات من خارج طبقتهم، إذ بالرغم من كون العديد منهم من أصول تركية، فإن الفلاحين التابعين لسيطرتهم هم أيضاً من

(1) چغالا سنان پاشا Çiğala Sinân Paşa في الحملة الهنغارية عام 1596. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «محمّد الثالث».

(2) اضطهاد إبراهيم پاشا للدروز عام 1585 وتلته ثورة فخر الدين التي استمرت لعدة سنوات. انظر الموسوعة الإسلامية مادتي «مُراد الثالث» و«فخر الدين».

(3) انظر غيونز «نشأة الإمبراطورية العثمانية».

(4) وبهذا يُعد السِّباهية وعبيد السلطان المعقون وأصحاب المناصب الدنيّة في المحكمة وأبناء العسكر (إن لم يكونوا قد أصبحوا رعايا سابقاً) وكل النساء المتزوجات من العسكر، يُعدون كلهم من فئة العسكر.

الأثر. لم يكن ذلك ذا أهمية كبرى في تلك الأيام؛ وعلى كل حال فإن السباهية لم يكونوا مقيدين أبداً في اختيارهم لزوجاتهم أو جواريتهم. أما ما كان يُخشى حقاً هو إن ركب الفلاحون الخيول أو حملوا السلاح فلن تكون السيطرة عليهم سهلة، ومن جهة أخرى سوف يتغلغلون في طبقة السباهية فيتسببون في إضعاف روح القتال فيها. وفي عهد السلطان سليمان العظيم كان الكثير من الإقطاعيات بيد السباهية ذوي الأصول الفلاحية؛ وأصدر السلطان أمراً بعدم حرمانهم منها لأنهم في النهاية من رعاياه⁽¹⁾. لكن مع أن تلك النظرة كانت جديدة وعارضة فهي لم تتوافق مع المبدأ الأساسي، بما أن السباهية المعنيين قد حصلوا على إقطاعياتهم بالتطوع في الحرب وتميزهم في القتال. وبمرور الوقت أخذ القايى قول لرى (ذوو الأصول العسكرية) يمتلكون الأراضي الإقطاعية المتميزة بالأهمية إن لم يكن بكثرة العدد، وبذلك أصبح التعارض بين الحكام والمحكومين أقل حدة من ذي قبل. أما النتيجة فكانت مزدوجة: أولاً، الاعتماد على نزاهة الحكام، وثانياً، مساعدة الرعايا غير المؤهلين على تغيير وضعهم. وعندما فسدت نزاهة الحكام، لأسباب سيتم ذكرها، وبدأ احتلال المحكومين لمناصب سلطوية صارت النتيجة مأساوية.

بالرغم من أن انقسام الحكام والمحكومين إلى طبقتين اجتماعيتين منفصلتين كان مصطنعاً فقد أدى إلى ممارسة المحكومين أعمالهم بأمان أكثر مما لو لم يوجد هذا التقسيم. وكان هذا هو التبرير المنطقي لطبقة الحكام في أوج مجدهم: إذ أبقوا أدوات القوة في أيديهم، وعززوا في نفوس المحكومين بحرمانهم من إغراء الحصول على حقوقهم بالقوة، تقاليد السلوك المسالم الموجود أصلاً في تعاليم دينهم والمندخل في بنيتهم الاجتماعية. وبفضل سيطرة تلك التقاليد كان الحكام ينسحبون من المنطقة دون تعريض أمنها الداخلي للخطر؛ وبفضل هذه التقاليد أيضاً تماسكت الإمبراطورية قدر الإمكان حتى بعد انهيار مؤسساتها الحاكمة، وبالرغم من الحروب والمؤامرات

(1) انظر تيشندورف ص 44-45. صدر هذا الأمر ضمن قانون عام 1530.

التي شتتها عليها الدّول المعادية⁽¹⁾. من ناحية أخرى، فقد سار نمط الحياة العثماني بشكل طبيعي بين الرعايا من السّكان، إذ كانت الطّبقة الحاكمة صغيرة العدد بالرّغم من قوة نفوذها، وبهذا عُزلت نوعاً ما عن الحياة العامة. وبحلول القرن السادس عشر كان المسلمون والمسيحيون في الإمبراطورية العثمانية قد انعزلوا عن أبناء دينهم في الدّول المجاورة، ممّا أدّى إلى نشوء ثقافة جديدة شملت الطّائفتين معاً⁽²⁾. لكن الأعراق المختلفة التي تألفت منها المجموعة السّكانية لم تكن لتلتحم في أمة واحدة، ولعل السّبب الأساسي يكمن في إقرار الطّبقة الحاكمة للمبادئ السياسية الإسلامية، مع أن معظم موظفيها من المسيحيين، وفي كونها معزولة بتكوينها عن الرعايا مهما كانت عقيدتهم.

في الوقت نفسه، كانت الطّبقة الحاكمة إحدى الفئات التي قسم وفقها رعايا السّلطان. وكان المحكومون بدورهم منظمين في مجموعات كالنّقابات الحرفية (التي ينتمي إليها المسلمون والمسيحيون على حدّ سواء)؛ وكانوا يدينون بالولاء لهذه الجماعات، أكثر من ارتباطهم بالدّولة أو حتى بالسّلطان. كانت هذه النّقابات مدنيّة بالطّبع، مع أنه كانت هناك نقابات فلاحية في الأرياف ممثلة بمجلس القرية، أو بالقبائل لدى البدو، لكنها كانت جميعها تتمتع بالاستقلالية مع أنها خاضعة لإشراف الحكام المحليين؛ وممّا عزّز هذه الاستقلالية الاكتفاء الاقتصادي في المدن والقرى، وقد أدّى ذلك إلى انقسام السّكان إلى وحدات شبه مستقلة تأثر استقرارها ببعض الشّيء بالتقلّبات السياسية للإمبراطورية ككل. وكان الولاء الذي يتمتع به أفراد هذه الوحدات دينياً أكثر منه سياسياً؛ وإذا كان المسلمون المتعصبون يرون في السّلطان إماماً لهم⁽³⁾، تبقى عاطفتهم تجاهه أضعف من مشاعرهم نحو الوحدة التي ينتمون إليها.

لهذه الأسباب كان الانهيار الذي لحق بالمؤسّسات الحاكمة والدينية بطيء التأثير

(1) انظر تسنكايزن ج 3 ص 135.

(2) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «الأتراك».

(3) حتى لدى طوائف الأرثوذكس المسيحية كانوا يلقبون السّلطان بالبازيلوس *Basileus* (الملك). انظر الموسوعة الإسلامية مادة «الأتراك».

على الفئة المحكومة. ومن المسلّم به أن حالة اليأس التي نشأت في ظل النظام الحديث قد منعتهم من التمرّد على الحكومة السيئة. ولولا الاستقلال الجزئي للجماعات التي ينتظمون فيها لتسبّب سلب الفئة الحاكمة لهم في زوالهم السريع. وفي النهاية فإن هذا الانهيار قد أدّى إلى تدمير نموّهم وازدهارهم وجعل العديد من المقاطعات، وخاصة في أوروبا، في حالة من الفوضى العارمة. لكن عملية الانحلال كانت تدريجية، لذلك تلقاها العثمانيون بكافة طبقاتهم بشكل هادئ.



كانت سطحيّة الحكم العثماني، إن كان هذا الوصف صحيحاً، أكثر وضوحاً في الأقاليم الآسيوية المفتوحة بعد القرن الخامس عشر منها في باقي أجزاء الإمبراطورية، ويعود ذلك بشكل رئيسي إلى أن هذه الأقاليم كانت خاضعة لقرون عدّة للحكم الإسلامي. لقد بقيت المؤسسات الموجودة سلفاً في هذه الأقاليم قائمة مع بعض التعديلات التي اقتضاها توطيد الحكم العثماني فيها، وقد تطلعت الشعوب المسلمة التي تشكّل أغلبية السكان هناك إلى الحكومة من حيث الحفاظ على تقاليدها أقل ممّا فعلت شعوب الأناضول وأوروبا. كانت مؤسسات الإمبراطورية ذات الأصول الإسلامية مستمدّة مباشرة من بلاد فارس أكثر من البلاد التي فتحها السلطان سليم الأول. لكن الارتباط بفارس ما لبث أن انفصمت عُراه بسبب نشوء الأسرة الحاكمة الصفوية هناك. ومن هنا إن كان لا بدّ للدولة العثمانية من الاستلهام من المراكز الإسلامية القديمة، فيجب أن يتجهوا إلى العالم العربي الذي كان سكانه يتحدثون اللغة المقدّسة ومعظمهم يتبعون المذهب السنيّ القويم، وبهذا نظرت إليه الفئة الحاكمة العثمانية باحترام كبير، على الأقل في البدايات، بينما لم تتمتع باقي أملاك السلطان بمثل هذا الاحترام. ولهذا السبب سنفرد فصلاً خاصاً للكلام عن حكومة الأقاليم الناطقة بالعربية. من جهة أخرى كانت غالبية أنحاء الإمبراطورية تُدار بالنظام الذي وصفناه، ونكتفي بما ذكرناه عنها، مع ذلك سنتناول في فصول أخرى مظاهر خاصّة من الحياة الإقليمية وذلك لإظهار الصورة العامة للإدارة. وبالتالي يبقى لنا فقط

الكلام الموجز عن تلك الأجزاء من الإمبراطورية التي يسكنها غير الناطقين بالعربية ويحكمها النظام الذي أشرنا إليه.

كانت هذه المناطق واقعة على حدود الإمبراطورية في فترة من الفترات، ولهذا السبب أو ربما بسبب تكوينها الأساسي كان لها وضعها الخاص. كان بعضها يشكل دولاً مستقلة نوعاً ما عن الباب العالي تبعاً للشروط التي خضع حكامها أو سكانها وفقها للسلطان، وللطريقة التي أداروا بها بلادهم فيما بعد. أما الأقاليم الأخرى فكانت في الواقع تُعدّ إيالات عادية.

وفي بعض الإيالات الواقعة إلى الشرق من آسيا الصغرى وعلى طول المنطقة التي أصبحت الحدود الفارسية، كانت هناك مناطق يحكمها زعماء من الأكراد. وكانت كل أجزاء هذه المنطقة، عدا الجنوبية منها، تشكل يوماً ما مملكة أرمينيا، ولكن منذ تفويض أركان المملكة من قبل السلاجقة في القرن الحادي عشر أصبحت تلك الأراضي تحت حكم الجيوش والقبائل التركية. وحتى قبل الفتح العثماني كان هناك عدد لا بأس به من السكان الأتراك في المنطقة التي كانت تُعرف بأرمينيا. علاوة على ذلك فإن سيطرة الحكام المسلمين من مختلف السلالات والأعراق عليها وظروف الفوضى التي سببتها الصراعات المشتركة وهجرة الأتراك إليها، كل ذلك شجع قيام القبائل الكردية بالتحرك نحوها من الجنوب والشرق، إلى أن حكمتها السلالات الكردية العديد من مقاطعاتها في نهاية القرن الخامس عشر. وفي تلك الأثناء كان من الصعب تحديد أين بدأت أرمينيا وأين انتهت كردستان.

حدث الفتح العثماني على عدة مراحل، فقد بدأ (إذا تجاهلنا السيطرة المؤقتة لبازيد الأول في المنطقة)⁽¹⁾ في عهد السلطان محمد الفاتح واستمر في عهد سليم الأول وانتهى (باستثناء التوسع اللاحق السريع في عهد مُراد الثالث) في عهد سليمان العظيم. ويستقي النظام الذي حكمت تلك البلاد وفقه أصوله من الظروف الراهنة في عهد السلطان سليم، إذ أنه اكتسب تلك المناطق بعد هزيمته للشاه إسماعيل الصفوي

(1) والتي خسرها السلطان بايزيد بعد هزيمته على يد تيمورلنك.

الذي كان ييسر سلطته على المنطقة آنذاك. ولقد وجد سليم أن الأكراد متعارضين مع إسماعيل في الأرضية الدينية، إذ كانوا من السنة بينما كانت الحركة الصفوية شيعية، وأيضاً بسبب إخضاع إسماعيل لهم لحكومة يديرها ضباط من الفرس. وبدلاً من أن يفرض السلطان سليم حكماً يعينهم الباب العالي كما في معظم السناجق، وضع في العديد من تلك الأنحاء نظام حكم لا مباشر من خلال القادة الأكراد أنفسهم؛ واستمر هذا النظام حتى في المناطق التي لم تعد واقعة على الحدود الفارسية بسبب الفتوحات العثمانية، كما أنه طبق في أنحاء أخرى من كردستان ضُمت إلى الإمبراطورية في أزمته لاحقة. وبحلول منتصف القرن السادس عشر كان هناك ثلاثون حكومة كردية متوارثة متمركزة في مناطق مختلفة من أرمينيا وكردستان⁽¹⁾. مع ذلك فقد تم تقسيم البلاد آنذاك إلى إيالات⁽²⁾ عُيِّن فيها باشوات بالطريقة الاعتيادية؛ وأصبح من سياسة الباب العالي زيادة رقعة الأراضي التابعة للعثمانيين على حساب الحكام نصف المستقلين. وقد أسهم في تدعيم تلك السياسة دون شك الفتوحات التي تمت في عهد السلطان مُراد الثالث لأراضي الصفويين⁽³⁾، وكانت المناطق سهلة الفتح البعيدة عن الحدود تُحوّل إلى سناجق عادية. ومن جهة أخرى فقد أصبح الحكام الأكراد أكثر تحرراً من ربة السيطرة العثمانية من ذي قبل⁽⁴⁾. وبحلول منتصف القرن السابع عشر، عندما رُسمت الحدود العثمانية - الفارسية بشكل دائم، ثبتت أمور تقسيم كردستان وأرمينيا

(1) انظر الموسوعة الإسلامية مادتي «ديار بكر» و«الأكراد»، وهذه المعلومات تعتمد بشكل كبير على بيانات شرفنامه لشرف خان البدليسي Şeref Han Bidlîsi. انظر سيد مصطفى ج 1 ص 125. وقد حصل الاتفاق مع الأكراد بمشورة ووساطة مولانا إدريس حاكم بدليس، وهو رجل كردي كان يعمل في خدمة أسرة آق قويونلي (ذو الحمل الأبيض) ثم في خدمة بايزيد الثاني وسليم الأول. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «بدليسي».

(2) أو بالأحرى بـكلربيكيات beylerbeyiliks إذ لم تستخدم كلمة «إيالة» حتى وقت متأخر كما يقول دوتون.

(3) جعلت هذه الفتوحات إيالة وان مثلاً بعيدة عن الحدود العثمانية.

(4) كما في حالة الزعماء السليمانيين الذين استقروا في قولب Kulp وميافارقين Mayyâfarîkîn (ثم حُرِف الاسم ليصبح سلوان Silvân) في إيالة ديار بكر. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «Maiyafarîkîn».

العثمانيّتين إلى مقاطعات تُحكم إما بشكل مباشر أو غير مباشر. وبهذا فقد قسمت الإيالات الست الرّئيسية وهي أرضروم وقارص وچيلدير Cildir وديار بكر ووان وشهرزور إلى سناجق، وكان هذا طبيعياً بالنسبة إلى الإيالتين الأوليين أما الأربع المتبقية فقد ضمت مناطق تحكم طبيعياً أو بشكل غير نظامي. نذكر ديار بكر على سبيل المثال التي فيها بالإضافة إلى أحد عشر سنجقاً عادياً، ثمانية سناجق أخرى يحكمها أكراد يتوارثون المنصب فيما بينهم. كانت هذه السّناجق تحوي إقطاعيات يقود مالكيها الضباط الإقطاعيون المعتادون ويجبرون على الخدمة بالطريقة المعتادة تحت حكم ولاتهم الذين قد يقيلمهم الپاشا من مناصبهم إذا قصّروا في أداء مهامهم بشكل مُرضٍ، وفي هذه الحالة يقوم الپاشا بتنصيب أحد أفراد العائلة نفسها مكان الوالي المنزوع. لم يكن لهؤلاء السّنجق بكية الأكراد سوى استقلال بسيط، إلا إذا تمكنوا من الوقوف في وجه الپاشا. ولكن كان في الإيالة خمس حكومات حكامها الأكراد مستقلّون فعلياً باستثناء اضطرارهم إلى تجهيز القوات في الحرب. لم يكن هناك إقطاعيات في هذه المناطق وكانت كل حصيلة الضرائب تذهب للحاكم الذي يُخاطب بلفظة «جناب»⁽¹⁾. وهناك أربع حكومات مشابهة في إيالة وان، وأخرى في شهرزور؛ بينما كان هناك في المقاطعات الثلاث معاً نحو من أربعمئة زعيم قبيلة يتوارثون إقطاعيات «الزّعامت» ويُجبرون على تجهيز القوات لحاكم سنجقهم⁽²⁾. لم يكن الوضع في چيلدير Cildir واضحاً تماماً وهناك رواية في القرن السابع عشر تظهر أن هذه الإيالة لا تضم سوى أربعة سناجق متوارثة⁽³⁾، بينما تظهر رواية أخرى في القرن الثامن عشر أن عدد السّنجق بكية فيها لا يقل عن التسعة عشر⁽⁴⁾. ومع أن جورجيا تظهر

(1) تعني كلمة «جناب» العربية بالمعنى الحرفي «العتبة»، لكنها تستخدم هنا للتشريف والتعظيم، لذلك تعني «جنابك» «سعادتك» أو «حضرتك».

(2) أوليا چلبی Evliyâ ج 1 ص 94؛ سيّد مصطفى ج 1 ص 130؛ هامر ص 259-260، 263-264، 266؛ الموسوعة الإسلامية مادة «أكراد»؛ إسماعيل خسرو ص 165-166. يستمي سيّد مصطفى هؤلاء الزّعماء الأكراد اليورتلوك yurtluk والأوجاقلق ocaqlık.

(3) أوليا چلبی Evliyâ ج 1 ص 95.

(4) دوسون ج 7 ص 298.

في القرن السابع عشر كإيالة مستقلة⁽¹⁾ وهناك في القرن الثامن عشر حاميات متمركزة في كوتاييس Kutais وبغدادجق Bağdadçık،⁽²⁾ فيبدو أنها كانت تابعة لچيلدير. وكان بكوات مينغريليا Mingrelia على سبيل المثال يقدمون هداياهم السنوية لپاشا جلدِر والتي تعني خضوعهم لحكم السلطان⁽³⁾. وبعد أن استعاد الشاه عباس الأقاليم التي أخذت من الصفويين في عهد مُراد الثالث أصبحت الأجزاء من جورجيا التابعة فعلياً للإمبراطورية العثمانية هي تلك الواقعة على حدود البحر الأسود⁽⁴⁾، ولم تجرِ محاولات جدية لإعادة فتحها إلى أن تنبّه الباب العالي في القرن الثامن عشر إلى خطر التوسّع الروسي في تلك المناطق، وإلى ضرورة إعادة سيطرة السلطان عليها. وستحدّث لاحقاً عن الجهود التي بُذلت لتلافي هذا الإهمال.

لنعد الآن إلى الأكراد. فبالإضافة إلى الأسباب التي ذكرناها من عداوتهم للصفويين وصعوبة السيطرة عليهم في بلادهم الجبلية التي يسكنونها (كالصعوبة تجاه سكان جورجيا)، فإن تنظيماتهم تعود في أصلها إلى كون أغلبهم من البدو الرّحل. ولهذا لا نستغرب إن وجدنا تلك التّنظيمات نفسها تطبق في مناطق جبلية أخرى يسكنها التّركمان وبدو آخرون. في إيالة سيواس مثلاً كان هناك ستّ مقاطعات يحكمها آغا تركماني⁽⁵⁾، وفي إيالة أضنة التي نشأت في نهاية القرن السادس عشر هناك سبع إيالات

(1) أوليا چليبي Evliyâ، المصدر السابق.

(2) في عامي 1723 و1750. انظر قوائم أحمد جواد ص 167 وما يليها وص 170 وما يليها. ولا تظهر أي واحدة منهما في قائمته الأولى.

(3) أوليا چليبي Evliyâ، المصدر السابق. ونلاحظ أنه كلّما أظهر أوليا شوشاد Şuşad كمقاطعة تابعة لجورجيا، يلحقها عيني علي (في كتاب سيّد مصطفى ج 1 ص 130) بإيالة جلدِر.

(4) كان إهمال عيني علي لمقاطعتي جورجيا وشوشاد بسبب أنه كتب قائمته قبل أن يستعيد مُراد الرابع بعض الأراضي التي سلبها الشاه عباس، وكانت نتيجة ذلك أن استقرّت الحدود الفارسية العثمانية عام 1639 في خط ضمّ الدولتين اللتين لم تكونا من أراضي السلطان قبل فتوحات مُراد الثالث.

(5) دوسون ج 7 ص 298. لكنه لا يظهر الفترة التي دام فيها هذا النّظام.

يُعرف حكامها القبليون باسم بوي بكية⁽¹⁾ *Boy Beyis*. كان البلد الذي هو جزء من كيليكيا Cilicia القديمة، والبلد الذي يحده من جهة الشمال الشرقي حتى نهر الفرات، قد تُركا في بداية انضمامهما إلى الإمبراطورية العثمانية تحت حكم ملوك مسلمين محليين من أصول تركية، بحيث حكم الأول أسرة رمضان أوغول لرى *Ramadan Oğulları* خلال معظم القرن السادس عشر، وحكم الآخر أسرة ذو القدر (دلغادر) أوغول لرى *Zu'l-Kadr Oğulları* منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى عهد سليمان عندما تحول إلى إيالة تدعى ذو القدرية *Zu'l-Kadriye* نسبة إليهم، أو مرعش *Mer'aş* نسبة إلى عاصمتها. نشأت هاتان الأسرتان الحاكمتان بعد نشوء العثمانيين⁽²⁾ وصارتا قوتين لا يستهان بهما يخشاهما الأتراك أكثر مما يخشون السلالات التركية الأضعف التي قامت آنذاك. وتم ضم هاتين الدولتين إلى الإمبراطورية وفق المبادئ نفسها التي طبقت مع الأكراد والتي تسمح لهم بسيطرة محدودة على الأراضي التي يسكنها أفراد قبائلهم، وكما سنرى فقد طبقت المبادئ ذاتها في خانات القرم. لغاية نهاية القرن السادس عشر تقريباً كان الباب العالي أقلّ غيراً على سلطته في الأقاليم من الأوقات المتأخرة، وكما لاحظنا كان الثواب يبقون في مناصبهم لسنوات عديدة ويُمنح أبناء الأسرة الحاكمة حكومات إقليمية، وعلى هذا الأساس احتفظت عائلتا ذو القدر ورمضان أوغول لرى بحكُمهما. ولكن لأسباب سنشرحها فيما بعد نشأ شعور من الكراهية تجاههما وأصبح أمراؤهما يحتجزون في العاصمة ويُعيّن الهاشوات

(1) أوليا *Evliya* ج 1 ص 94. بوي بالتركية لها عدة معانٍ منها «عشيرة». وقد استخدم لفظ بوي بكية لقادة القبائل في عهد سلاجقة الروم (انظر كوبريلي زاده *Selçukliler Zamânında* ص 206).

(2) لم يكن يُعرف سوى القليل عن أسرة رمضان أوغول لرى قبل النصف الثاني من القرن الخامس عشر. وقد قامت أسرة ذو القدر قبلها بحوالي مئة عام. وكانت أملاك الأسرة الأولى تضم مقاطعات أضنة وبيس وأياس وطرشوس وأراضي تُركمان الوُزُسَق *Varsak*؛ أما أملاك الأسرة الثانية فكانت سناجق مرعش وملاطية وعينتاب وقارص وشميساط (ساموساتا). وبعد إقالة أفراد الأسرتين عُيّنوا كحكام إقليميين. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «ذو القدر» و«رمضان أوغول لرى».

مكانهم، وكان من الطبيعي عندها أن يتناقص عدد الأسر الحاكمة المحلية. ولقد تمت تنحية هؤلاء بالفعل، وكانت رغبة الباب العالي لو يتمكن من فرض حكم مركزي موحد في كل بقعة من أرمينيا وكردستان وغيرها من الأقاليم التي تحوي قيادات زعامية متوارثة، لكن ما منع قيام ذلك كان الطبع العنيد لرجال القبائل المعنّية والتكوين الجبلي الوعر للبلاد التي يسكنونها. وبعد فترة ليست بطويلة أدى تدهور المؤسسة الحاكمة إلى إضعاف الحكومة المركزية أثناء محاولتها فرض سيطرتها على الأقاليم، وبذلك واجهت ثورات عديدة وفقدت نفوذها حتى في المناطق التي كانت تحكمها بشكل طبيعي. لا يمكننا تفسير الانحلال في المؤسسة إلى الحاكمة بهذه الحركة تجاه السيطرة المركزية الكبرى، لكن كان من نتيجتها اطمئنان المقاطعات للاعتماد أكثر من ذي قبل على حسن إدارة الأمور في إسطنبول، وإثقال كاهل الباب العالي بحمل أثبت أنه غير قادر على التهوّض به.

كان هناك استقلال فعلي لدى قبائل ألبانيا وسكان الجبل الأسود (مونتينغرو) يشبه ذلك الذي تمتعت به أجزاء من أرمينيا وكردستان. كانت ألبانيا تابعة لإيالة الروملي وعاصمتها أدرنه؛ ولم تكن سناجقها متوارثة بشكل رسمي كتلك التابعة للأكراد، لكن لم يكن لها حكومات معترف بها. مع ذلك كان التنظيم الاجتماعي قبلياً باستثناء سكان المدن، وكان رجال القبائل، خاصة الغيك Ghëgs في الشمال، ذوي طبيعة محاربة بحيث عجزت الحكومة العثمانية عن إخضاعهم لإدارة نظامية. كانت كل قبيلة من الغيك، أو الجبل، تُقسم إلى عدد من العشائر تحت إمرة بَيَرَقْدَار يتوارث المنصب فيشبه بذلك السنجق بك الكردي⁽¹⁾. وكان في كل عشيرة كذلك عدد من كبار السن الذين يتوارثون المنصب، وكانت مجالس القبيلة تُعقد بزعامتهم للفصل في الأمور القانونية. لم يكن الألبان يعترفون سوى بقانونهم العرفي بالرغم من أنه كان متضمناً جزئياً في قانون غير مدوّن وضع قديماً⁽²⁾. كانت العشائر مقسمة إلى فروع

(1) تعني كلمتا بيرق و سنجق «العلم».

(2) يدعى قانون ليكه دوكاجيني Leke Dukagini الذي يُفترض أنه عاش في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر.

ويقود كل فرع ضابط على عاتقه مهمة تنفيذ القضاء ويكون على صلة مباشرة بممثل القبيلة الذي يدعى بولوك باشى ويقيم في إشقودرا (Iskōdra (سكوتاري). كانت الحكومة تحصل على العائدات من القبيلة فقط عندما تكون من القوة بحيث تستطيع إجبارها على الدفع. وكانت صعوبة جمعها والسيطرة على الجبال الشمالية قد أدت إلى تخلي الحكومة عن فعل ذلك في منتصف القرن السادس عشر. وبمقابل إعفاء تلك المناطق من الضرائب وتدخل الحكومة في شؤونها، كان رجال القبائل يشاركون في تزويد الجيوش العثمانية بفرق من المقاتلين الذين يجتمعون تحت رايات القادة من الباشوات. وفي حالات أخرى كانوا ينضمون إلى المتطوعين للغزو الذين يدعون الأقنجي⁽¹⁾ Akıncı. كانت مونتينغرو (قره داغ Karadağ) تابعة لسنجق إشقودرا ويحكمها أمراء (سنذكرهم لاحقاً) وكانت أقل ارتباطاً بالباب العالي من ألبانيا نفسها. كانت حياة قبائل التوسك Tosks الجنوبية أقل تنظيماً وكان هناك عدد من كبار أصحاب الأراضي الذين يفرضون سيطرتهم بصفة إقطاعية. وفي هذا الجزء من البلاد كانت القبائل الجبلية كالتوليوت Suliots مستقلة تماماً عن الحكومة كالمناطق التي تُعدّ جزءاً من الروملي والمورة وسكان ماينا Maina الذين تمكنوا من انتزاع اعتراف الباب العالي باستقلالهم مقابل دفع الجزية⁽²⁾.

لقد أدرجت كل المناطق التي تحدّثنا عنها حتى الآن، على الأقل في النهاية إن لم يكن منذ البداية، في إيلات نظامية، لكن قد يكون الحكم فيها غير نظامي فعلياً. أما التي نحن بصدد ذكرها الآن فكان لها وضع مختلف. على سبيل المثال كانت خانات القرم دولة شبه مستقلة، وكان ارتباطها بالباب العالي مشابهاً لارتباط الدول التي تحكمها أسرتا ذو القدر ورمضان، لكنها تختلف عنها بأن السلطان قد سمح لها، بسبب موقعها دون شك، بالاندماج في أراضي الدول الأجنبية المعادية. بالرغم من أن شمال ووسط شبه الجزيرة كانتا قد سقطتا بأيدي التتار في بدايات القرن الثالث عشر، فإن الخانات

(1) سيّد مصطفى ج 1 ص 63.

(2) انظر الموسوعة الإسلامية مادتي أرناؤوط «Arnautes» و«المورة»؛ والموسوعة البريطانية مادة ألبانيا «Albania».

لم تتأسس إلا قبل خمسين عاماً من فتح القرم على يد محمد الثاني على حساب الجنوبيين⁽¹⁾. لقد تكون جزء من البلاد في الفتح العثماني بشكل إيالة عادية تضم ثلاثة سناجق عاصمتها الميناء الرئيسي Keffe «كفة» (ثيودوسيا). أما الباقي فقد ترك تحت حكم خانات گیرای Girey Hāns الذين استقروا في بغچه سراي⁽²⁾ Bağçe Serâyı. ربما كان الهدف من هذا الترتيب هو تأمين سيطرة معينة للباب على دولة التتار مع تركها لتكون حاجزاً لصد الهجمات الآتية من جهة الشمال. لكن الصلات بين الخان وپاشا كفة Keffe كانت غير واضحة ولم يعترف الخانات رسمياً بسيادة السلطان إلا في نهاية القرن السادس عشر وذلك بذكر اسمه في الخطبة مع أنهم مُنحوا بعد الفتح مباشرة حق استخدام الرايات والأطواغ والبراءات المكتوبة من إسطنبول. امتدت سيادة الخانات إلى ما وراء حدود شبه الجزيرة حتى وصلت إلى بيسارابيا Bessarabia في الغرب حتى بلاد الجركس Circassia التي كانت تابعة فعلياً للخانات في الشرق. علاوة على ذلك فقد نُصب أفراد من عائلة گیرای في مناسبات عدة كخانات لقازان Kāzan على نهر الفولغا بينما استمرّ خانات القرم بتلقي الجزية من قياصرة موسكو لغاية القرن السابع عشر ويقومون بالتشديد على المطالبة بها بواسطة شن الغارات بين الحين والآخر. وقد لعبت فرق التتار دوراً مهماً في حروب الباب مع النمسا وپولندا إذ حلوا بالتدريج محل المتطوعين من الأقنچي الذين كانوا يتقدمون الجيش العثماني في الحملات الأولى ويقومون بالتخريب في الأرياف. من جهة أخرى كان تتار النوگای Nogay Tatars في بيسارابيا يميلون إلى معاملة الرومانيين في مولداڤيا كأهل دار الحرب بالرغم من أن بلادهم كانت جزءاً من الإمبراطورية. لقد أصرّ السلطان مراد الثالث في إحدى المناسبات على إعادة كل الأملاك والمواشي التي تم سلبها؛ ولكن عندما ضعفت

(1) تأسست على يد حاجي گیرای Hāccı Girey الذي كان جده أميراً في القبيلة الذمّية Gol-den Horde وبمساعدة الذوق الأكبر في ليتوانيا. وتم طرد الجنوبيين عام 1434، وحدث الفتح العثماني عام 1475. انظر الموسوعة الإسلامية مادتي «Hāddjı-Girāi» و«كفة».

(2) أي «قصر الحدائق»، وكان قد بني أصلاً في ضاحية من المدينة ثم سُمّي Kırk Yer (القصور الأربعون) ثم أصبحت الضاحية مركزاً للمدينة ولم يعد الاسم الأول مستخدماً. الموسوعة الإسلامية مادة «Bağçe Sarāi».

سطوة الباب في الأزمنة اللاحقة عانت المقاطعات بشدة من ضراوة وقسوة التّار. منذ عهد سليمان كان للخانات قوة لا بأس بها من الرّماة السّگمن *seğmens* ورجال المدفعية والمسلحين وأصناف أخرى من الجنود القادمين من العاصمة ويتلقون مبلغاً من المال سنوياً يسمى سگمن آقچه سى *seğmen akçesi* كنفقات يدفعونها لهم. أما الإعانة المالية للخانات، والتي كانت تبلغ ألف آقچه يومياً، فكانت تدعم بما يحصلونه من عائدات الكفة⁽¹⁾. كانت الخانات على مدى تاريخها مثاراً للخصومات بين الأفراد المتنافسين من أسرة گیراي الذين نجحوا في الوصول إلى الحكم ليس بواسطة الوراثة ولكن بالأسبقية كالسلاطين المتأخرين أنفسهم، وكانت الخلافات تحسم في هذه الحالات بتدخل من الباب العالي. ومع ذلك كانت الخانات تُحكم بشكل مستقل على أساس قبلي عسكري. وكان اثنان من الأسرة الحاكمة بالإضافة إلى الخان يعقدون مجالس في أماكن أخرى غير العاصمة ويزودون بعائدات من أجل ذلك. كان هذان هما الوريثان الأول والثاني للخان ويدعيان قلگاي *Kalagay* ونور الدّين⁽²⁾ *Nûru'd-Dîn*. كان لزعماء القبائل المعروفين باسم الميرزا *Mîrzâs* قائدان يدعيان شیرين بك *Şîrîn Beyi* ومأسور بك *Ma'sûr Beyi* يعين كل واحد منهما من عائلة محدّدة⁽³⁾. أما احتياجات البلاد الدّينية والقانونية فكان يقوم بها علماء الدّين المعتادون والمنظمون بشكل مستقل عن أولئك المعيّنين في الأماكن الأخرى من الإمبراطورية ويرأسهم قاضي عسكري. وأخيراً هناك موظف مهم هو الخان آغاسى الذي تماثل وظيفته وظيفة المحتسب⁽⁴⁾.

أما المقاطعات الأربع الباقية الخاضعة للإمبراطورية والتي سوف نذكرها فكانت تشبه خانات القرم من حيث أنها تُحكم ذاتياً، وتختلف عنها بأن حكوماتها مسيحية.

-
- (1) سيّد مصطفى ج 1 ص 130.
 - (2) اتبع هذا النّظام في الرّبع الأخير من القرن السادس عشر.
 - (3) انظر: أوليا چلبى *Evliyâ Çelebi* ج 1 ص 93.
 - (4) أحمد راسم ج 1 ص 289 وما يليها، الحواشي؛ جودت ج 1 ص 258 وما يليها؛ الموسوعة الإسلامية مادتي گیراي «*Girây*» والقرم «*Krım*».

كما سبق وشرحنا، فقد سمح قانون الشريعة بانضمام الدول التي يحكمها أهل الكتاب إلى الأراضي المسلمة شرط دفعها الجزية للإمام. وبالتالي كانت هذه الدول الأربع تدفع الجزية للسلطين العثمانيين. وكانت إحداها تختلف عن الأخرى بالسلطة التي يمارسها الباب العالي عليها.

ترتبط إمارتا فالاخيا (الافلاق) ومولدافيا⁽¹⁾ ببعضهما البعض ليس لأنهما تضمّان سكاناً من نفس العرق فحسب، بل لأنهما تُحكمان بطريقة متشابهة ولهما صلات متشابهة مع الباب العالي. أما تاريخياً، فقد خضعت فالاخيا (الافلاق) للجزية قبل مولدافيا بمئة عام؛ وبينما تقرّر مصير فالاخيا (الافلاق) بالبطلان النهائي لاستقلال صربيا في القرن الخامس عشر، فإن العثمانيين لم يحكموا قبضتهم على مولدافيا إلا بعد أن تمّ للسلطان سليمان فتح القسم الأكبر من هنغاريا. وعلى ما يبدو فإن الشروط الأساسية التي تمّ الاتفاق عليها بشأن دفع الجزية والاعتراف بسيادة السلطان كانت متشابهة نوعاً ما. كان الأمراء المحليون المدعوون بالهوسبودار *Hospodar* أو الفويفودا *Voyvoda* يتمتعون باستقلالية تامة، وكان البويار ⁽²⁾ *Boyars* أو مُلاك الأراضي من النبلاء في كل إمارة ينتخبونهم من بين أفراد العائلة الملكية، ولم يكن بالإمكان بناء أي مسجد أو حصن داخل أراضيهم، كما لم يكن بإمكان المسلمين الإقامة عندهم أو شراء شيء من أرضهم. وحتى قبل إرغام مولدافيا على دفع الجزية كان السلطان محمّد الثاني متحمساً لغزو فالاخيا (الافلاق) والتدخل بشؤون وراثته الحكم فيها؛ وبعد اجتياح السلطان سليمان لهنغاريا بدأ المسلمون بالاستقرار وبناء المساجد في الإماراتين معاً. وبالتالي توجب على الهوسبودار تجهيز فرق تقاثل مع الجيوش العثمانية، وبمرور الزمان طالب السلطين بمبالغ أكبر للجزية. لقد أحكموا قبضتهم على الإماراتين ببناء الحصون على الدانوب و، مخالفين لشروط الاتفاق، داخل أراضي

(1) وتدعيان بالتركية افلاق *Iflak* وبوغدان (أو بُغدان) *Boğdan*.

(2) من الملاحظ أن هوسبودار وفويفودا وبويار كلها كلمات سلافية. وكما سنرى لاحقاً كانت كلمة فويفودا تستخدم بالتركية للدلالة على نوع معين من العاملين لدى الحكومة.

مولدافيا، في بيسارابيا⁽¹⁾، الجزء الجنوبي الذي استولى السلطان سليمان عليه بعد غزوه للإمارة عام 1538، وفي النهاية أقر أمير الهوسبودار بالإسلام واستقبل حرساً من الإنكشارية في عاصمته، وقبل انتهاء القرن السادس عشر تم تزويد هوسبودار فالاخيا (الافلاق) بحرس مماثل. وقد حدثت مجزرة لهؤلاء الإنكشارية والمسلمين المقيمين في تيرغوفيشتا⁽²⁾ Tirgovișta عندما قام الهوسبودار ميخائيل الجسور Michael the Brave عام 1594 بثورة انتهت بتوحيده للإمارتين الدانوبيتين وضم ترانسلفانيا إليهما في مملكة مؤقتة مستقلة فعلياً عن السلطان بعد هزيمة جيوشه في أكثر من مناسبة والاستيلاء على عدة مدن جنوب الدانوب في الروملي. اغتيل ميخائيل عام 1601 ورجعت الإماراتان إلى حالتهما السابقة⁽³⁾. وأثناء القرن السابع عشر كان عائلة بسارابا Bassaraba التي ينتخب منها معظم الهوسبودار قد انقرضت. ومنذ ذلك الحين صار المرشحون يقومون برشوة وزراء السلطان ليتم اختيارهم؛ وكنتيجة لهذا الأمر أصبح الباب العالي مهتماً بإحداث تغيير في امتلاك الأراضي قدر المستطاع. كان العديد من الهوسبودارية المعيتين من أصول غير رومانية⁽⁴⁾، لهذا لم يكن انقلاباً مفاجئاً أن تتبع في القرن الثامن عشر سياسة اختيارهم حصراً من بين الأرستقراطيين اليونان في الفنار. أما السبب المباشر لتبني هذه السياسة فهو اكتشاف أن هوسبودارية الإماراتين كانوا على صلة سرية بالقيصر بطرس الأكبر الذي كان في حالة حرب مع السلطان آنذاك. وكان من الواضح في تلك الأيام التي شهدت انحداراً جليلاً للإمبراطورية، أن يُنصح السلطان

(1) وتدعى بالتركية بوجاق Bucak.

(2) كانت عاصمة فالاخيا حتى عام 1698 عندما نقل الهوسبودار مقره إلى بوخارست Bucarest لأن تيرغوفيشتا كانت واقعة بالقرب من الحدود مع ترانسلفانيا التي ضُمت إلى النمسا.

(3) بدأ ميشيل ثورته بالتنسيق مع آرون Aaron أمير مولدافيا وسيغيسموند Sigismund أمير ترانسلفانيا، وقد تسبب آرون Aaron في مجزرة ضد الإنكشارية ومسلمي ياسي Yassi. وعندها قرّر محمد الثالث تحويل مولدافيا إلى إيالة لكن لم يتحقق له ذلك بسبب هزيمة جيوشه على يد الثوار. وفي النهاية أجبر على الاعتراف بانتصارات ميخائيل.

(4) عُين في مولدافيا هوسبودارية من أعراق مختلفة أحدهم ساكسوني (1580) والثاني كرواتي (1618) والثالث بولوني (1626) والرابع يوناني (1630).

بتعيين هوسبودارية يملك بعض السلطة عليهم. ولقد شكلت عائلة الفنار نماذج جاهزة لذلك الأمر، وبفضل صلتها الوثيقة ببطركية إسطنبول التي بسطت نفوذها بتشجيع من الحكومة العثمانية على كل المجتمعات الأرثوذكسية في الإمبراطورية والتي كانت مستقلة قبل ذلك، وتعرضت لكرهية تلك المجتمعات بتنصيب أشخاص يونانيين يقومون على تلبية حاجاتهم الروحية، واستطاعوا نوعاً ما تحقيق ما يشبه الإدارة المركزية، والتي كانوا قد تسلموا بعض الوظائف فيها فعلاً. منذ عام 1716 ولغاية فترة بحثنا كانت الإماراتان تُحكمان من قبل أفراد عائلات الفنار الذين نالوا ثقة الباب العالي بفضل ولائهم له. كانت فالاخيا (الافلاق) أغنى الإماراتين وأكثرهما إغراء للحكام؛ وبهذا كان استبدال الهوسبودار فيها بهوسبودار مولدافيا يُعد ترقية للأخير. ولغاية الآن لا تزال وظيفة مترجم الديوان من نصيب هذه العائلة، وكان من الطبيعي في القرن الثامن عشر أن تشغل مناصب الهوسبودارية من قبل أشخاص تمتعوا سابقاً بمعرفة كيفية تدبير شؤون الإماراتين. كانوا يحصلون على هذه الوظائف بخليط من التآمر والرشوة مما جعل فترة الحكم مؤقتة وعابرة⁽¹⁾. كان كل هوسبودار يبقى على اطلاع على مجريات الأحداث في العاصمة ويعين ممثلاً له يدير مصالحه يدعى قاى كاخية سي⁽²⁾ *Kapı Kâhyası* الذي كان اهتمامه الأساسي منصباً على إحباط مكائد خصوم سيده. وكان هدفهم لفت انتباه بعض الوزراء، ويسعون للحصول على منصب الوزير أيضاً، وذلك بتقديم الأموال والعطايا. وبهذا كان الهوسبودارية ينفقون مبالغ طائلة أولاً للحصول على المنصب ثم المحافظة عليه وأخيراً للظهور بحالة من الترف والأبهة⁽³⁾. كان المصدر الأساسي الوحيد الذي يعتمدون عليه لتغطية هذه التفتقات هو ثروات الإماراتين. وبما أنهم من جهة لا يتطلعون للبقاء في وظيفتهم لفترة طويلة

(1) يقال إن المدة الوسطية لحكم الهوسبودار كانت ستين ونصف.

(2) أي «ناظر الباب». وكان كل الحكام الإقليميون وأصحاب المزارع الضريبية (الملتزمين *mültezims*) واليونان الأرثوذكس والأرمن يحتفظون بمثل هؤلاء القايى كاخية سية ليعتنوا بمصالحهم لدى الباب العالي.

(3) كانوا متظاهرين بالفخامة والعظمة أكثر من الوزراء أنفسهم.

مما يدفعهم إلى عدم المجازفة باستنفاد هذه الثروات، ومن جهة ثانية كانوا يتمتعون فعلاً بنفوذ لا محدود ضمن المناطق التابعة لهم، فكانوا يستخلصون ما يقدرون عليه من رعاياهم المؤقتين الذين عانوا بشدة جراء طمعهم وظلمهم. وبما أن الهوسبودارية كانوا قد حصلوا على مناصبهم بموافقة الباب العالي فلم تكن لدى البويار حيلة في السيطرة عليهم، بل أصبحوا أتباعاً لهم وانضموا إليهم في الضغط على الفلاحين واضطهادهم. كان الدستور المولدافي القديم يقضي بتقسيم السلطة بين الهوسبودارية والكنيسة والبويار، وكان أبرز أفرادهم يشكلون مجلساً لهم بحيث يجلس الثلاثة في محكمة عدل عليا فيعلن المطران القوانين ويقرّر البويار المذنب من البريء، بينما يقوم الهوسبودار بإطلاق الحكم. ولكن عندما لم يعد الهوسبودارية قادرين على القيام بالمهمة فقد المجلس أهميته. كان أصحاب المناصب العليا في الدولة هو الوزير الذي يحمل اللقب البيزنطي «لوغوثير» Logothete، وأمين الخزانة، والقائد العام الذي يدعى هتمان Hetman؛ أما في المحكمة فكان هناك الحاجب وحامل السيف وحامل الكأس. وأثناء حكم عائلة الفنار كانت هناك وظائف مخصصة للبويار، لكن كانت أفضلها تمنح لأتباع الهوسبودار من اليونان الذين وصلوا إلى مرتبة البوير عن طريق المصاهرة، مما أدى إلى إضفاء الصبغة اليونانية على أفراد الطبقة الرومانية العليا، وابتعادها تماماً عن طبقة الفلاحين⁽¹⁾.

وكانت ثالث المقاطعات المسيحية في الإمبراطورية هي مملكة ترانسلفانيا⁽²⁾ Transylvania. في الهجوم الأول للسلطان سليمان العظيم على هنغاريا عام 1526 خضعت كل أجزائها التي فتحت لحكم يانوش الترانسلفاني Yanoş of Transylvania كتابع للسلطان متخذاً من مدينة بودا مقراً له. ولكن عندما حاولت النمسا استرداد ما فقدته اضطر السلطان سليمان إلى شن حملة أخرى عام 1541 وجعل بودا مركزاً لإيالة

(1) انظر الموسوعة الإسلامية مادتي «افلاق» و«بوغدان»؛ والموسوعة البريطانية مادة «Ruma-nia»؛ وسيتون - واتسون «تاريخ رومانيا» ص 34، 50 وما يليها، 85، 126 وما يليها؛ وأحمد راسم ج 1 ص 290، الحاشية؛ ج 3 ص 1341 وما بعدها، الحواشي.

(2) وتدعى أردل Erdel باللغة التركية.

تاركاً ترانسلفانيا لابن يانوش ووريثه. ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية القرن السابع عشر بقيت ترانسلفانيا مملكة خاضعة للجزية، وبالرغم من أن ميخائيل الجسور كان قد ضمّها إلى أراضيه لعدّة سنوات في نهاية القرن السادس عشر، فقد عادت إلى حالتها الأولى إثر وفاته. وكان الحدث المهم الوحيد الذي شهدته أثناء انضوائها تحت جناح الإمبراطورية العثمانية هو اجتياح جيوش السلطان محمد الثاني لها بقيادة كوبرلي محمد پاشا عام 1657 وذلك بسبب عصيان ملكها، وكان من نتيجة ذلك زيادة قيمة الجزية المدفوعة سنوياً⁽¹⁾. ولما ضُمَّت ترانسلفانيا إلى الأراضي العثمانية كان ملوكها يُعدون أعلى مرتبة من هوسبودارية الإماراتين بمنحهم التيجان بدلاً من القبعات التي تدعى القوقا koka، بالإضافة إلى أن الحصون في ترانسلفانيا كانت مزوّدة برجال محلّين بدلاً من القوات العثمانية⁽²⁾. لم تعد ترانسلفانيا عثمانية بالطبع أثناء الفترة المتعلقة ببحثنا بعد أن أعيدت إلى النمسا بمعاهدة كارلوفيتش عام 1699.

أما رابع المقاطعات المسيحية فهي جمهورية دوبروفنيك Dubrovnik أو راغوسا⁽³⁾ Ragusa التي بقيت تدفع الجزية للسلطان إلى أن انتهى وجودها على يد نابليون عام 1804. أما ما يتعلّق بصلاتها بالباب العالي فقد كانت ذات أهمية وشأن كبير أكثر من ترانسلفانيا أو حتى من الإماراتين السابقتين. تأسست دوبروفنيك كدولة حرّة بعد أن كانت تابعة للبندقية ثم لهنغاريا في القرن الرابع عشر؛ وبعد ذلك بفترة قصيرة أدركت مزايا اتحاد شبه جزيرة البلقان تحت الحكم العثماني ستفيد التجارة التي تعيش الجمهورية على وارداتها، فاتفق حكامها مع السلاطين من أجل هذه الغاية إلى أن نالت عام 1399 من السلطان بايزيد الأول حق متاجرة الرعايا الراغوسيين في كل أنحاء الإمبراطورية دون أن يمنعهم أحد عن ذلك. ومن ثم أنشئت معامل راغوسية

(1) عندما يذكر أوليا چلبی Evliyâ Çelebi ج 1 ص 92 أن ترانسلفانيا قد فتحت في عهد السلطان محمد الرابع فهو يعني هذا الاجتياح. انظر ستون واتسون ص 119؛ والموسوعة البريطانية مادة «Austria-Hungary».

(2) أحمد راسم ج 1 ص 290، 291، الحواشي.

(3) كان الاسم المستخدم رسمياً في ظل الحكم العثماني هو دوبروفنيك.

في العديد من مدن شبه الجزيرة وتمتّع الرّاغوسيون بما يشبه الاحتكار للتجارة فيها. وعندما فتحت الجيوش العثمانية صربيا وتوغّلت داخل أراضيهم أسرعوا إلى دفع جزية سنوية للسّلطان، وبفعلهم لذلك أصبحوا يُعدّون من الرّعايا غير المسلمين للإمبراطورية وحصلوا على حماية الجيوش العثمانية. وقد أثبت هذا النّظام ملاءمته للرّاغوسيين فتمسكوا به على الرّغم من معاتبة الباب العالي لهم في البداية على صداقتهم المشينة «للكفار»؛ وعندما أدّت حروب الباب إلى كارثة في نهاية القرن السّابع عشر وبداية القرن الثّامن عشر قام البنادقة باحتلال الأراضي البعيدة من دوبروفنيك، وبذل الرّاغوسيون جهدهم بإعادة تلك الأراضي إلى أملاك العثمانيين، مع أنّهم كانوا يميلون إلى التّوقف عن دفع الجزية عندما لم يعد الباب العالي يقوى على فرضها عليهم، وكان الوزراء من جانبهم يصرّون بين الحين والآخر على زيادة كمّيّتها. ولكن لم يتعرّض الرّاغوسيون إلى دفع مبالغ غير اعتيادية إلا في مناسبتين اثنتين، فمنذ صلح كارلوفيتش كانت الجزية تؤخذ إلى إسطنبول كل ثلاث سنوات بواسطة مبعوثين من الجمهورية. وكان هؤلاء المبعوثون ومبعوثو ترانسلفانيا أيضاً يستقبلون، على الأقلّ حتى نهاية القرن السّابع عشر، كممثلين لدول أجنبية في مجالس الدّيوان التي تعقد إما لجلوس السّلطان للقضاء أو لتوزيع رواتب الجنود. وذات مرّة حدث أن مبعوث دوبروفنيك لم يعامل بالاحترام الذي تلقاه مبعوث ترانسلفانيا، بل واستثني من الوجبة التي كانت تقدّم بعد انتهاء الإجراءات للسّفراء الآخرين الذين يدعون للجلوس وتناول الطّعام مع الصّدر الأعظم. مع ذلك بقيت صلات دوبروفنيك بالباب العالي مرضية، ولا شك أن الموقع الجغرافي للجمهورية وصغر حجمها كانا سبباً جزئياً في ذلك، أولاً لأنّها كانت محاطة بالأراضي العثمانية ولم تكن لتشكل عائقاً للفتوحات، وثانياً لأنّها كانت مجبرة على الاعتماد على قوة عظمى، وبهذا لم تكن تتوق للاستقلال التّام. لقد كانت مثلاً يوضح أن المحن التي كانت الإماراتان مثلاً تعانيها إنّما هي بسبب سعي حكامها للتملّص من السّيطرة العثمانية. أما الرّاغوسيون الذين لم يحاولوا أبداً القيام بذلك بل تمسكوا بموقعهم كتابعين للعثمانيين، فلم يكن لديهم سبب للشكوى من المعاملة التي يتلقونها من الباب العالي؛ وليس هناك سبب

يجعلنا نفترض أنه لو بقي الهوسبودارية على وفائهم لما دقق العثمانيون كثيراً في أمورهم. لقد تدهور ازدهار دوبروفنيك خلال فترة تبعيتها للباب العالي، لكن ذلك ترافق بتدهور كل منافساتها في التجارة كالبندقية وجنوة لأسباب لا تتعلق بالحكم العثماني، وكان في النهاية أن خربها زلزال مدمر عام 1667⁽¹⁾.

7. تدهور المؤسسة الحاكمة

لقد تحدثنا عن بعض التغيرات التي لحقت بالمؤسسة الحاكمة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر؛ وستظهر الآن بعض الأسباب التي أدت إلى تدهورها ككل. لا يبقى لنا هنا إلا أن نمحّص في تلك الأسباب بشكل دقيق ولنكمل مخططنا حول الظروف التي أدت إلى انحلال المؤسسة الحاكمة، وبالأخصّ القوات المسلحة في الفترة المتعلقة ببحثنا.

هناك عوامل عدّة سنذكرها سريعاً اجتمعت في القرن السادس عشر لتجعل الحالة التي اتخذتها السلطنة في العهد المضطرب للسلطان سليمان العظيم حالة لا يمكن احتمالها. قد يبدو للوهلة الأولى أنّ الإمبراطورية، كقوة في البحر المتوسط، قد أصابها الانهيار كما أصاب الدّول الإيطالية البحرية بشكل أساسي بسبب اكتشاف طريقي أميركا ورأس الرّجاء الصّالح وتحوّل التجارة بين أوروبا والشرق تدريجياً من البرّ إلى البحر. أولاً، لا تمرّ الطّرق البرّية الرّئيسية في المقاطعات الأصلية للإمبراطورية، بل تمرّ عبر سوريا ومصر اللتين انضمتا إلى أملاك الإمبراطورية قبل نصف قرن تقريباً من بدء انهيارها. وبالرّغم من معاناة هذين البلدين من تحول طريق التجارة وتدهور ازدهارهما، فلم يمنع ذلك من بقاء المقاطعات الأصلية أكثر ازدهاراً ونموّاً من الفترة التي سبقت فتوحات السلطان سليم، باستثناء ما لحق باقتصادها المعتمد على التجارة مع سوريا ومصر. وفي الواقع فإن هذه التجارة الخارجية لم تكن ذات أهمية كبيرة

(1) فوريس وتويني ومتراني وهوغارث «بلاد البلقان» ص 103، 107؛ والموسوعة الإسلامية مادة «راغوسا».

للاقتصاد بشكل عام. ثانياً، لم يحدث الانهيار في البندقية وجنوة بسبب تحول طريق التجارة الشرقية عن الطريق البري فحسب، بل إلى منافسة شركات الشرق التي أقامتها القوى الغربية والتي بدأت منذ نهاية القرن السادس عشر بتبادل صناعات بلادها مع منتجات الإمبراطورية والشرق التي كانت لا تزال تنقل برأ، وهو تطور أفاد الإمبراطورية كثيراً بغض النظر عن أثره بالنسبة إلى الدول الإيطالية. وبمرور الوقت أدى استيراد البضائع الغرب أوروبية إلى تقويض الصناعة المحلية وإلى تصدير الذهب من أجل شراء تلك البضائع، لكن هذه العملية لم تشكل كارثة للإمبراطورية إلا في عصر الثورة الصناعية، أي بعد قرنين على الأقل من بدء التدهور والانهيار.

وبهذا لا يمكننا النظر إلى اكتشافات كولومبوس ودا غاما على أنهما السبب الوحيد للانهيار، إن كانت تشكل سبباً مهماً فعلاً. على أية حال، فهي من وجهة نظر العثمانيين عامل قسري وكأنها قضاء من الله لا يمكنهم دفعه. وهم بذلك يتناقضون مع السبب الرئيسي، ألا وهو استجابة السلاطين الدائمة لمطامحهم المتنافرة.

كان أول هذه المطامح قيادة الحركة الشعبية الدينية للفتوحات التي وسعت رقعة الإمبراطورية بشكل كبير في البداية. لكن نجاحهم الباهر في هذا المشروع وعظمة المركز الذي احتلوه آنذاك قد أغراهم بمطمح ثانٍ هو إحاطة أنفسهم بالأنظمة التقليدية للملوك. وإن تحقيقهم لهذا الهدف قد أدى إلى انقطاعهم عن أنصارهم السابقين بطريقتين. إن المشروع العثماني لم يصبح وراثياً فحسب بل إن السلاطين اتبعوا نهج الأسر الحاكمة التركية الأولى في التمسك بالتعصب الديني مما تعارض مع بعض المعتقدات الدينية التي كان لها أثرها الكبير في قيام إمبراطوريتهم، والتي ما يزال عدد كبير من رعاياهم المسلمين يتمسكون بها. واضطر العثمانيون نتيجة لذلك إلى قمع العديد من الثورات الشعبية الدينية، وكان أثر هذه السياسة هو ترسيخ الشخصية العسكرية لقوة السلاطين. وبامتلاكهم لهذه الأداة العسكرية القوية لم يستطيعوا التورع عن استخدامها، إلى أن توسعت رقعة أملاكهم وبلغت أبعد بكثير من الحدود الثابتة للروملي والأناضول.

لم يكن دافعهم مجرد الرغبة في التوسع، فلم يفتح السلطان سليم أرمينيا وكردستان فقط بل قام بفتح سوريا ومصر ليحول دون استيلاء الصفويين عليها؛ وكذلك غزا السلطان سليمان هنغاريا ليحمي أملاكه الأوروبية من الإمبراطور. لكن بلاد فارس والنمسا تقاربتا من بعضهما بسبب اتساع رقعة الإمبراطورية العثمانية، وبحلول القرن السادس عشر لم يعد العالمين الشيعي والكاثوليكي متباعدين بل أصبح اجتماعهما معاً أمراً سهلاً⁽¹⁾. صحيح أنه لو كَفَّ السلاطين عن توسيع أراضيهم بهذه الطريقة لَبقي هذان الخصمان محصورين داخل الحدود الضيقة وأن وضعهما، وبالأخص فارس، كان سيبقى أضعف مما أصبح عليه. لكن الحدود بين فارس والنمسا لم تكن لتنفصل كثيراً بامتداد كبير للأراضي التي يقطعها البحر وتتخللها الجبال ولا تتمكن القوات العثمانية من التقدّم عبرها بسرعة. وبصغر الرقعة التي يتوجب على السلاطين الدفاع عنها، كان من الممكن لهم أن يؤمنوا حياة أكثر استقراراً وأمناً مما يتلاءم مع الطبيعة الملكية التقليدية التي يطمحون إليها، لكنها للأسف تتنافر مع قيادة الجيوش، أي التخلي عن الإدارة الفعلية للأمور إلى حياة الدعة والعزلة. لقد تبوّأ هذه الحياة فعلاً في الوضع الخطر الذي فرضته التوسّعات، وهو على ما يبدو السبب الرئيسي في انهيار قوتهم⁽²⁾.

كان ممّا خفف نتائج هذا الانهيار هو بعض الحوادث التاريخية، ففي الجزء

(1) على سبيل المثال أرسل الشاه عباس عام 1599 بعثة إلى أوروبا وفوضها بدخول بلاط الإمبراطورية النمساوية والفاثيكان والبندقية وغيرها؛ وفي عام 1613-1614 أرسل ملك إسبانيا سفراء بصحبة عدد من القسيسين إلى أصفهان. انظر كتاب غي لسترانج *Guyle Strange Juan of Persia* (لندن 1926).

(2) يذكر قوچی بك Koçu Bey في «الرسالة» أسباب ومسار تدهور القوة العثمانية أثناء الربع الأخير من القرن السادس عشر والربع الأول من القرن السابع عشر ويضع تخلف السلاطين بعد سليمان عن تولي شؤون الحكم بأنفسهم في مقدمة الأسباب. انظر برناور Behrnauer ص 275، 320. ويقال إن سبب الانهيار هو الصعوبة التي لاقاها السلاطين في تحويل الدولة من النظام العسكري إلى النظام المدني. لكن الإدارة العثمانية كانت مدنية أكثر منها عسكرية. والصعوبة الحقيقية في نظرنا هي ما تحدثنا عنه هنا.

الأول من القرن السابع عشر أنهكت حرب الثلاثين عاماً معظم قوى أوروبا الوسطى وتدهورت قوة الصفويين بسرعة تفوق سرعة تدهور العثمانيين أنفسهم. مع ذلك فإن النتائج قد أظهرت بجلاء الآثار المدمرة التي قد يجلبها اختيار حياة العزلة. وبالفعل فإن الانسحاب من الضغوط الخارجية مجتمعاً مع محاولات بعض السلاطين وكبار الوزراء للرجوع عنه (التي تشكل انقلاباً مؤقتاً لتلك السياسة المميتة) هو الذي أنقذ الإمبراطورية من التدهور السريع المفاجئ.

وبسبب تلاحم بنية المجتمع العثماني، فإن معظم رعايا السلاطين قد تأثروا بشكل بطيء بالتقلبات التي مرت بها المؤسسة الحاكمة، كما لم يؤثر السلوك الفردي للسلاطين على مسار حياتهم. من جهة أخرى كانت المؤسسة الحاكمة نفسها تعتمد على السلطان بشكل كامل، وهو أساس ومحور التلاحم الذي تكونه، ومن الطبيعي إذن أن يؤدي غيابه عن الإدارة المباشرة إلى خلل في التنظيم، إلا إذا ناب عنه رئيس وزرائه. لقد تمت هذه التغطية بالفعل وغدت وظيفة السلاطين في الدولة محصورة في الموافقة على أفعال نوابهم أو الاعتراض عليها، وحضور المناسبات الرسمية أمام العامة (وذلك باستثناء السلطان الشاب عثمان الثاني وأخيه الزهيب مراد الرابع اللذين برزا في استرجاع القيادة المتروكة)⁽¹⁾. ولكن كما سبق أن شرحنا، وبسبب أن سلطة الوزارة لم تعد سوى سلطة انتداب وتفويض وأنهم قد يفقدونها في أي لحظة، فقد كان رؤساء الوزراء أضعف من أن يديروا المؤسسة الحاكمة بكفاءة عالية. علاوة على ذلك فإن عزلة السلاطين قد قادت إلى نتائج غير سارة، إذ طالما أنهم يحتلون دوراً فاعلاً في إدارة الشؤون فإن التفوذ المطبق عليهم من أفراد قسم الحريم والخدمة الداخلية كان يخضع لخبرتهم بالعالم القائم خارج أسوار القصر. أما فيما

(1) عثمان الثاني المعروف باسم عثمان الشاب تمييزاً له عن مؤسس الدولة من جهة، ومن جهة ثانية لأنه تولى العرش في عمر مبكر جداً، وقد حكم منذ عام 1618 حتى عام 1622 عندما خلع وقتل أثناء ثورة الجيش الإنكشاري. خلفه أخوه مراد الرابع بعد إعادة أخيهما المعتوه مصطفى الأول للحكم ثم خلعه مرة أخرى، وكان في الحقيقة أصغر سناً إذ كان لا يزال في الثالثة عشرة من العمر، لكنه تمكن من استرجاع معظم الثروات الإمبراطورية واستعادة بغداد على سبيل المثال. ودامت فترة حكمه بين عامي 1623 و1640.

بعد فلم يعد ذلك ممكناً وأدى في المقام الأول إلى خضوعهم لمشورة أشخاص ليسوا مؤهلين لتقديمها، كما أنهم قاموا بترقية أشخاص غير جديرين لوظائف عليا في الدولة. وبهذا أصبح شاغل منصب الصدر الأعظم، وهو الوحيد القادر على سدّ عجز السلطان، لا يخشى العزل فقط بل غير مؤهل لاحتلال المنصب أصلاً⁽¹⁾. من جهة أخرى فقد أثبت العديد من كبار الوزراء في عصر الانحدار مقدرة كاملة على الثيابة عن سلاطينهم في إدارة شؤون البلاد، وإن نجاح جهودهم الإصلاحية، كالتي تمت في العهد المميّز للسلطان مراد الرابع، فهو دليل على مدى اعتماد المؤسسة الحاكمة على السلطان أو الصدر الأعظم في تقدّمها وازدهارها.

إن نتائج اعتماد المؤسسة الحاكمة على شخص السلطان قد ظهرت عند التدهور النهائي، وكان من الحظ الحسن للدولة أن كان السلاطين لغاية عهد سليمان مؤهلين لمناصبهم، وليس هناك من سبب كافٍ يجعلنا نفترض نجاح سليم الثاني كحاكم كما نجح أسلافه، حتى ولو لم يتخذ سليمان ظاهرة التراجع عن إدارة الأمور. بالإضافة إلى ذلك فقد كان من المحتمل أن يبدأ التدهور في وقت متأخر عما هو عليه، بغض النظر عن الاعتماد على شخص السلطان، وذلك لأمرين نتجا عن فتوحات القرن السادس عشر.

حدث الأمران كلاهما بسبب الاستفادة من الحروب، إذ أن حصول أفراد الفئة الحاكمة برئاسة السلطان على الغنائم التّفيسة قد شجعهم على نهج أسلوب العظمة والأبهة التي لم يكن بالإمكان المحافظة عليها إلا باستمرار الحروب بشكل دائم⁽²⁾.

(1) يعدّ قوچي بك Koçu Bey (انظر Behrmauer ص 276، 320 وجودت ج 1 ص 95) تدخل الأشخاص المفضلين لدى السلطان في الشؤون العامة أحد الأسباب الرئيسية للانحطاط، ويعود بتاريخ ذلك إلى عهد سليمان وترقية إبراهيم ثم رستم من الخدمة الداخلية إلى رئاسة الوزراء. وكان من عادة الحكام الفرس المسلمين أن يكون السلطان على صلة وثيقة بحاشيته التي لا تملك نفوذاً كبيراً؛ انظر نظام الملوك «سياسة ناميه» (طبعة شيفر Schefer) ص 82.

(2) هذه نقطة أخرى من التّقاط التي أكد عليها قوچي بك Koçu Bey، انظر برناور Behrmauer ص 278، 321.

لكن الحروب لم تستمر، وحتى في عهد سليمان لم تكن مستمرة؛ وكانت حملات نهاية القرن تتم للحفاظ على الحدود التي وصلوا إليها أساساً ولم تعد هناك أسلاب من أراضي العدو، بل على العكس فبنمو سوء التنظيم في المؤسسة الحاكمة اتجهت الحروب إلى الهزيمة بدلاً من النصر. وكانت النتيجة أن سعت الطبقة الحاكمة إلى التعويض عن طريق قبول الرشاوى مقابل الامتيازات التي تخولهم مناصبهم بمنحها⁽¹⁾، وبما أن الحكومة كانت تعتمد على غنائم الحرب لدفع رواتب القوات النظامية فقد بدأت تبحث عن مصادر بديلة وواجهت مشكلة لا حل لها أجبرت على التعامل معها تحت تهديد التمرد والعصيان.

بدأت عملية الانهيار من الأعلى. وكانت قد نشأت عادة تركز إلى حق السلطان في نيل حصة محددة من غنائم الحرب، فعندما كان القادة يعودون من حملاتهم كانوا يقدمون لملكهم أفضل الغنائم التي حصلوا عليها، وترافق ذلك بعادة أخرى هي تقديم الهاشوات الهدايا للسلطان حتى ولو لم تكن هناك حرب تعود عليهم بالمغانم⁽²⁾. من هذه المرحلة بدأت خطوة تقود إلى أخرى، ونشأت عادة تقديم الهدايا لقاء خدمة مقابلة، وعندما استسلم السلطان والصدر الأعظم لإغراء قبول هدايا كهذه سرت العدوى بسرعة إلى تابعيهم بمختلف رتبهم. وأضحى قبول هذا النوع من الهدايا منسقاً وفق نظام معين حتى في عهد سليمان، وصار كل مرشح لوظيفة ما يدفع مبلغاً من المال لمنحه المنصب، وكانت هذه الدفوعات مماثلة لما يدفعه الفلاحون عند الحصول على عقد استئجار أرض زراعية. لم يكن من شأن هذا النظام أن يؤدي إلى الفساد فحسب بل كان سبباً للفساد. وعلى الرغم من أن الكفاءة هي التي كانت تميز مرشحاً عن آخر لنيل الوظيفة أكثر قدرته على شرائها في عهد السلطان سليمان، فقد فسدت الأمور فيما بعد مما أدى إلى نتائج مأساوية، وأصبح موضوع الرشوة هو القاعدة للقبول في

(1) إسماعيل خُشرو «Türkiye köy İktisâdiyatı»، 171، ويذكر هذا التطور بارتباطه بمضاربة الأراضي.

(2) سيد مصطفى ج 1 ص 115-116. ويذكر أمثلة عن تقديم بارباروسا الهدايا للسلطان سليمان، وتقديم مليون ليرة من قبل إبراهيم باشا والي مصر.

الخدمة الحكومية أو التّرقّي في مناصبها. كان قبولها يعني فساد المؤسسة الحاكمة من ناحيتين: أولاً، ستتغير شخصية الموظفين، وثانياً، ستُنسخ قاعدة التّرقية بحسب الجدارة⁽¹⁾.

أما ما يتعلق بمشاكل القوات العسكرية فقد كان من الممكن أن تكون أقل حدة عما أصبحت عليه لو أن الجيش الإنكشاري، إن لم تكن باقي فئات الجيش النظامي، قد أظهرت ميلاً شديداً للتمرد. كان الجيش النظامي قد نشأ على يد السلاطين ليخلصهم من الاعتماد على دعم عامة الناس. وبالرغم من أن حالة العبيد وأفراد الجيش قد أثبتت أنهم أسهل انقياداً من المسلمين الأحرار الذين كانوا يشكلون الجيوش العثمانية الأولى، ففي نهاية القرن الخامس عشر كان الجيش الإنكشاري قد أدرك مدى قوّته كدعم رئيسي للسلطان، واستغلّ ذلك في خلع السلطان بايزيد الثاني وتنصيب السلطان سليم الأول بدلاً عنه. وبالمقابل فإن سليم الأول قد أجبر على الانسحاب من حربه مع فارس بعد الانتصار في موقعة چالديران Çaldiran بسبب إصرار الجيش على ذلك. ومع هذا فقد تمكن من وضع أنظمة جديدة اعتمدت على سمعته بالقوة والشدة واستطاع الحصول على طاعتهم التامة حتى نهاية عهده ومعظم عهد سليمان الذي حاولوا في البداية التمرد عليه، واستخدموا بعد وفاته الأسلوب نفسه في إرغام خليفته سليم الثاني على دفع مبلغ من المال أكبر ممّا يستطيع تحمله كهبة تقليدية عند تولي العرش. لكنهم لم يتسبّبوا في مشاكل أخرى بفضل كفاءة الصدر الأعظم صوqولّى⁽²⁾ Soqollu. أما في العهد التالي حيث تحولت هذه الاضطرابات إلى أزمة حقيقية، فقد بدأوا يرهبون الحكومة بشكل جدي ممّا جعل بقية الجيوش النظامية تحذو حذوهم.

بدأ انحدار الإمبراطورية العثمانية عند بلوغ عام ألف للهجرة، ولا ندرى إن كان ذلك

(1) سيّد مصطفى ج 1 ص 117-118. ويروي طرفة اقتبسها من كتاب «كُنه الأخبار» للمؤرخ علي حول شمسي پاشا من عائلة إسفنديار أوغلي، الذي هنا نفسه على قبول السلطان مُراد الثالث رشوة ضخمة إذ كان يقول إن انغماس السلاطين في الفساد سيؤدّي إلى انهيار سطوتهم التي تغلبوا بها على أجداده.

(2) سيّد مصطفى ج 1 ص 143.

مجرّد مصادفة أم قدراً محتوماً، وهو تاريخ طالما انتظره المسلمون بخشية وترقب، إذ هناك نبوءات معيّنة تقول إنه إشارة إلى انهيار الإسلام على يد المسيحيين. وكانت الإطاحة بإمارة غرناطة وما تلاها من هجرة المغاربة إلى إسطنبول، وهزيمة الجيوش العثمانية في مالطة وليپانتو، كل ذلك كان دلالة على اقتراب القدر المشؤوم. وانتشرت حالة الخوف من الانتفاضات المسيحية في كثير من المدن، لدرجة أن أغلقت البوابات أثناء صلوات أيام الجمعة خوفاً من إلحاق الأذى بالمسلمين⁽¹⁾.

ولّت سنة (1591-1592) دون كوارث تذكر، لكن عهد السلطان مُراد الثالث شهد ضربة قاصمة لحقت بالمؤسسة الحاكمة. كان العاملان الرئيسيان في هذه العملية هما فساد نظام الدوشِرمه وتزايد امتلاك الإقطاعيات بشكل غير نظامي. أما الأول فقد حدث بسبب ضراوة ووحشية الجيش الإنكشاري، بينما جاء الأمر الثاني كنتيجة للفساد.

صحيح أن نفاء نظام تجنيد الدوشِرمه كان قد تلطخ بوسائل عدة، فقد كان يُسمح أحياناً للآباء المسيحيين بدفع مبالغ لإعفاء أبنائهم من الخدمة، وبالتالي كان يتم استبدالهم بالمسلمين أو اليهود أو الشّبان الغجر. لكن الحكومة كانت تعاقب بشدة أي عمل كهذا عندما يتم اكتشافه، ولم تكن تلك الانتهاكات لتؤثر في انضباط الجيش وقدرته القتالية⁽²⁾.

وعلى ما يبدو فإن السلطان مُراد الثالث قد تنبّه إلى أن الإنكشاريّة قد أصبحوا الأسياد الأقوياء في الدولة، فأراد أن يوجه إليهم ضربة تفسد تنظيماتهم⁽³⁾. ففي عام 1582، وبتأييد من رجال حاشيته ومقاومة آغا الإنكشاريّة، سمح بقبول عدد كبير من

(1) انظر هاسلُك Hasluck «المسيحية والإسلام تحت حكم السلاطين» ص 721 وما يليها، 751، 753. يذكر دوسون ج 1 ص 245 أن أول صلوات للتوبة كانت بأمر من السلطان مُراد الثالث في سبتمبر عام 1592 عندما أربهه اجتماع الحروب والاضطرابات المدنية ووباء الطاعون. وقد أقيمت في أوق ميداني Ok Meydâni.

(2) انظر الموسوعة الإسلامية مادة «دوشِرمه». وكان المولودون مسلمين الوحيدون الذين يُسمح لهم قانونياً بدخول الأوجاق هم أبناء الإنكشاريّة المتقاعدين. جودت ج 1 ص 90.

(3) جوشيرو ج 1 ص 40.

المجتدين غير المدربين في أورطات القوات العسكرية⁽¹⁾، وفي الحملة على فارس التي حدثت في عهده، سمح أيضاً بالتحاق عدد أكبر منهم لدرجة أن تعداد أفراد الجيش الإنكشاري قد تضاعف في نهاية الحرب⁽²⁾.

كان لهذه العملية أثران مزدوجان، فقد أضعف نظام الدوشيرمه - وخصوصاً لو تركزت العملية نفسها - وألحق العجز بالخزينة كما لم يسبق له مثيل إذ أن المبالغ الموجودة فيها لم تكن لتكفي إعالة التنظيمات الأساسية. علاوة على ذلك فقد أدى الأثر الثاني في النهاية إلى اشتداد حدة الأثر الأول، وسارت العملية على النحو التالي: أعادت الحكومة تخفيض قيمة العملة بغية الإنفاق على الجيش الضخم، مما أدى إلى نشوء الثورات من جهة الإنكشارية أولاً وبعد سنوات قليلة في صفوف تنسيقات الخيالة في العاصمة⁽³⁾. أصبح الجنود يشعرون بقوتهم ونفوذهم أكثر من ذي قبل، وعمدوا إلى نيل كل ما يرغبون به بالقوة. صحيح أن الثورة الثانية للخيالة عام 1603 قد قُمت بواسطة الإنكشارية⁽⁴⁾، لكن ذلك أدى إلى صعوبة التعامل مع الإنكشارية أنفسهم في المستقبل. لقد بذل السلطان عثمان الثاني جهوداً كبيرة ليُقضي على الثورات عام 1622 لكن الإنكشارية كانوا أقوى منه بكثير وانتهى الصراع بعزله ثم قتله⁽⁵⁾، وتولى أخوه وخليفته مُراد الرابع مهمة كبح جماحهم لكن ذلك كان على حساب تقويض دعائم المؤسسة الحاكمة التي قامت عليها في البداية. لقد عمد مُراد إلى تعطيل نظام الدوشيرمه بهدف التقليل من تجنيد المشاة⁽⁶⁾، وبمرور الوقت قلّ تطبيق النظام إلى أن اضمحل تماماً بحلول منتصف القرن السابع عشر⁽⁷⁾.

(1) قوچی بك Koçu Bey (Behrner ص 299-300)؛ جودت ج 1 ص 95؛ سيد مصطفى ج 1 ص 140-141.

(2) سيد مصطفى، المصدر السابق؛ قوچی بك (Behrner ص 298).

(3) الموسوعة الإسلامية مادة «مُراد الثالث».

(4) الموسوعة الإسلامية مادة «محمد الثالث».

(5) انظر إيتون ص 152-158.

(6) الموسوعة الإسلامية مادة «مُراد الرابع».

(7) الموسوعة الإسلامية مادة «دوشيرمه».

عل العموم، لم يكن غياب نظام الدوشِرمه بالأمر الذي يؤسف له، لكنه قوض أركان القوة العثمانية لأنه شمل انهيار النظامين العسكري والإداري المنظمين. كان من الممكن تخفيف آثار ذلك لو أن تم إلغاء فرقة الجنود الأساسية واستبدالها بأخرى أكثر تدريباً ونظاماً. وبالرغم من أن السلطان مُراد الرابع والصّدر الأعظم كوبريلي فاضل أحمد باشا قد شكلا فرقاً عسكرية جديدة⁽¹⁾، فإنها لم تكن تملك القوة الكافية للقضاء على فرق الإنكشارية التي استمر وجودها وشغبها ونفقاتها العالية وقلة تدريبها، وعدم كفاءتها الحربية وفسادها القاتل الذي يعجز منافسوها عن ترميم الخلل فيها.

بعد إبطال نظام الدوشِرمه، أصبح التجنيد في أوجاق الإنكشارية يتم بين صفوف المسلمين الأحرار الذين يُعدّون الوحيدين المؤهلين للخدمة في الجيش العقائدي، واعتمدت عملية استبدال الدُمّيين على دخولهم في الجندية⁽²⁾. لكن هؤلاء المسلمين

(1) قام السلطان مُراد الرابع بإنشاء تشكيلات جديدة من بين العَجَبية والبوستانجية وبالأخص الشّگمن *Seğmens*، كما قام كوبريلي أحمد باشا بتأسيس فرق جديدة تحت اسم بشلي *beşli* وگوکلی (تلفظ: گونللی) *gönüllü*. انظر الموسوعة الإسلامية مادتي «مُراد الرابع» و«محمّد الرابع»؛ و«Jorga «Geschichte des Osmanischen Reichs» ج 4 ص 161. أما المقصود تماماً بالشّگمن هنا فهو غير واضح. يذكر Jorga ص 158 أن الشّگمن كانوا منفصلين عن باقي الإنكشارية (وبذلك انخفض عدد أورطاتهم إلى 176). لكنهم اتحدوا فيما بعد. وفي مواضع أخرى جاءت كلمة سغمان للدلالة بشكل غير واضح على المشاة النظاميين. وقد ذكر هامر استخدامها في كتابه «*Staatsverwaltung*» ص 192 مقارنة بكلمة الرّامي «*chas-seur*» الفرنسية.

أما جودت ج 1 ص 92، فيستشهد بمونتيكوكولي Montecucculi ويصف البشلي بأنهم حراس خيالة (محافظه لي لر *muhâfazalılar*) مضيفاً أن هو صار *hussars* هنغاريا كانوا من النوع نفسه. وتعني كلمة بشلي «خمسية» ربما لأن تلك الفرق كانت تتقاضى خمس أفعاجات في اليوم. تعني كلمة گوکلی (تلفظ: گونللی) «المتطوّع» وهي ليست اسماً جديداً للفرق. يذكر Jorga ج 4 ص 161 أن وظيفة الگوکلی هي الرّكوب في مقدمة الجيش مع الأفنجية *Akıncıs*.

(2) انظر: يورغا Jorga ج 4 ص 158. ويؤكد دي توت Tott «مذكرات *Memoirs*» ج 2 ص 70-71 على حقيقة أن كل تلك التطورات قد حدثت بسبب غيرة الأتراك (أي المسلمين) من المزايا التي تتمتع بها الإنكشارية ويقول إن تلك الامتيازات هي التي كانت تدفع الأتراك للإلحاق بأنائهم بالجيش.

كانوا أقلّ استجابة للانضباط من أسلافهم، وسرعان ما فرضوا التّخلي عن مبدأين أساسيين في تنظيم الإنكشاريّة، وهما منع الزّواج قبل بلوغ سن التّقاعد، ومنع أفراد الجيش من ممارسة الحرف أو التّجارة. كان المجنّدون الجدد يُجلّبون من طبقات الحرفيين في المدن حيث تتمركز الأورطاط التي تسود فيها قاعدة الزّواج المبكر، كما هو الحال بين المسلمين بشكل عام. وبالتالي فقد بدت إقامتهم في الثكنات أمراً غير مألوف، وأصبح من الصّعب فرض النظام والتدريب عليهم، كما صار من الشائع بينهم ملء أوقات فراغهم وزيادة دخلهم عن طريق ممارسة الأعمال الصّناعية أو التّجارية⁽¹⁾. علاوة على ذلك فقد لاحظ أصحاب التّفوذ الإهمال الذي وصلت إليه مستويات الفرق العسكرية، فاستغلّوا الأمر لإلحاق خدمتهم وأتباعهم بالجيش وإثقال كاهل الدّولة بإعالتهم. أخيراً، وبهدف إيجاد مكان لهؤلاء، كان الرّجال الأكفيا يوضعون على قائمة التّقاعد⁽²⁾.

وهكذا دُفعت مبالغ طائلة على الجيش الإنكشاري دون فائدة تُرجى وقامت الحكومة بمحاولات متكرّرة لتخفيض عدد الرّجال الملتحقين بالخدمة. في الوقت نفسه، وأثناء النّصف الثّاني من القرن السّابع عشر والأربعين سنة الأولى من القرن الثّامن عشر، لم تنعم الإمبراطورية بالسلام إلا نادراً. ومن هنا نشأت الحاجة إلى وجود

(1) ثورنتون ص 236؛ جوشبروج 1 ص 44-45؛ سيّد مصطفى ج 2 ص 95، ج 3 ص 85. وقد أصبح اتساع التّجارة لاحقاً أمراً عاماً بين الإنكشاريّة ويظهر من خلال كتاب توت Tott ج 4 ص 148 ويذكر فيه: «كانت العائدة السائدة لدى الأتراك هي إبقاء حاميات دائمة مما يمنح الفرق، إضافة إلى نقص النّظام بينها، حق تملك المكان الذي تتواجد فيه... ووفق هذا المبدأ احتكر القاليون جية تجارة بيع الأغنام في القسطنطينية وأجبروا النّاس على شرائها. وكان الجنود الأتراك في كل مدينة يتمتّعون بالمزايا نفسها...» لقد زادت صعوبة المحافظة على انضباط الإنكشاريّة بانخفاض قيمة العملة، مما ألغى أيضاً رفع الأجور بعد أداء الخدمة الجيّدة. انظر جوشبروج 1 ص 49-50.

(2) سيّد مصطفى ج 2 ص 93؛ جودت ج 1 ص 96. كتب قوچي بك (Koçu Bey) Behrmauer ص 301) عام 1630 يشكو أنه مع الإهمال في التّنظيمات كان هناك 10,000 جندي إنكشاري قادرين على الخدمة تماماً. انظر: يورغا Jorga ج 4 ص 158.

تعزيزات مناسبة، ويبدو أن الحكومة قد طوّرت عملية أخرى لتسهيل ذلك ممّا كان له عواقبه الوخيمة. كانت تلك العملية هي إلحاق أعداد كبيرة من الرجال غير المأجورين بالأورطاط في وقت السلم، على أن يتم طلبهم رسمياً من قبل ضباط متجولين عندما تستدعي الضرورة⁽¹⁾. كان هذا النظام ممتعاً للإنكشاريّة وأيضاً للمجندين الجدد الذين صاروا يحملون مزايا عدّة، منها وشم شعار أورططهم على أذرعهم وسيقانهم، بالإضافة إلى نيلهم لمراكز مهمّة، وأصبحوا محصّنين ضد العقوبات من السلطات المدنية⁽²⁾، كما أصبح بإمكانهم استخدام نفوذ الأوجاق الذي ينتمون إليه لأهدافهم الشخصية. ومن ناحية الإنكشاريّة فقد حصلوا على قوة احتياطية ضخمة مكّنتهم من فرض إرادتهم أكثر فأكثر على باقي فئات المجتمع⁽³⁾.

بعد انحدار فرق مشاة السلطان النظامية إلى هذه الحالة الخطرة، وكما سنرى فإن الفرق الأخرى لم تكن أفضل حالاً، يلاحظ أن الإمبراطورية قد عانت من الويلات أكثر ممّا عانت من قبل، وذلك لغاية عام 1739 عندما انتهت الحروب مع أوروبا. يبدو التفسير المنطقي أنه بالرغم من سلسلة الحملات المدمّرة التي شتتها، فقد نالوا مزية دعم الجيش بتدريب عالٍ وإن كان غير منهجي⁽⁴⁾. لكن شاءت الظروف أن توصله إلى حالة من العجز التام، وذلك بحدوث فترة طويلة نسيباً من الركود اضمحلت معها التقاليد الفاعلة. وكان ذلك في الثلاثين عاماً من السلام التي تلت معاهدة بلغراد.

تفشى سوء التنظيم في النظام العسكري للجيش الإنكشاريّة على نحو لم يسبق له

(1) وكانت عملية إلحاقهم بالخدمة عند اندلاع الحرب تسمى تصحيح بدرگاه -*taşhîh bi-der-gâh*. انظر سيّد مصطفى ج 2 ص 95.

(2) انظر جوشيروج 1 ص 11.

(3) سيّد مصطفى ج 2 ص 94-95، ج 3 ص 86؛ جوشيروج 1 ص 43. كانت الأورطاط المهمة تحوي عشرة آلاف مجنّد، بينما تحوي الأورطاط الصّغيرة مئتين فقط.

(4) سيّد مصطفى ج 3 ص 85. Jorga ج 4 ص 160. كانت الطّبيعة المنظمة لفرق الجيش التي نسقها كوبريلي فاضل أحمد باشا تعود إلى الخدمة الطويلة التي شهدتها في هنغاريا وكريت وبولونيا.

مثيل، ولكن حتى نهاية فترة السلم تلك حاولت الحكومة على الأقل الحصول على أكبر قدر ممكن من الفائدة لقاء المبالغ الطائلة التي كانت تنفقها سنوياً على الجيش. لكنها ابتدعت أمراً جديداً بعد ذلك مباشرة أدى إلى هدر معظم تلك المبالغ من وجهة النظر العسكرية. كان ذلك عن طريق بيع الشهادات لمن يرغب بشرائها والتي تظهر حق كل جندي يحصل عليها بقبض راتبه⁽¹⁾. يبدو أن هذه الطريقة السيئة كانت قد أصبحت مستعصية على التصحيح قبل أن تنتبه إليها الحكومة⁽²⁾، وقد تغاضى عنها ضباط الأوجاق والآغا نفسه لأنها كانت تصب في مصلحتهم الشخصية، إذ كانوا لا يخبرون أمناء السجل بالشواغر التي في صفوفهم، وكانوا بالتالي يصدرون شهادات جديدة يبيعونها أو يسحبون الراتب بأنفسهم من خلالها. على أي حال، لقد نتج عن كل هذه المناورات الانتقال التدريجي للشهادات إلى أشخاص مخصوصين، وغدا الفيلق الإنكشاري الرئيسي مؤلفاً بأكمله من الضباط الذين كانوا، مع فرقة صغيرة من مراقبين يقومون بالمهام البوليسية، بمثابة السكان الوحيدين للثكنات الكبيرة المتواجدة في إسطنبول. مع ذلك ظلوا يزودون بالملابس الموحدة الرسمية التي كانت توزع عليهم في المناسبات المهمة، وخصوصاً في الموكب التي تقام في باحة القصر أثناء دفع الأجور⁽³⁾.

قد يُتوقع من السلطان في هذه الظروف إلغاء الأوجاق وإعادة تنظيم الجيش وفق قاعدة جديدة، وبالرغم من بقاء القليل من الإنكشارية الأصليين فإن عدد المجندين الجدد في كل أورطة لم يتناقص على الإطلاق. وبالرغم من كون هؤلاء المجندين

(1) كانت هذه الشهادة تدعى «أسامي» *esâme* أي جمع «اسم» بالعربية وتعني بالتركية وثيقة عسكرية.

(2) قامت الحكومة بمحاولات عدة لقمع هذا الأسلوب وكانت ناجحة بعض الشيء وبشكل مؤقت. وقد تكتشف كوبرلي فاضل مصطفى باشا 20,000 وثيقة مزيفة للدخول في صفوف الجيش. انظر بيلين Belin «التاريخ الاقتصادي»، وفي عام 1703 أيضاً اكتشفت 2,400 وثيقة أخرى وتم إبطالها.

(3) سيد مصطفى ج 3 ص 86، 89؛ جودت ج 1 ص 96؛ جوشيرج 1 ص 44-45.

عديمي الفائدة عسكرياً، فقد كانوا منظمين بشكل ممتاز ليقفوا في وجه أدنى محاولة لإنقاص عددهم أو إلغاء امتيازاتهم⁽¹⁾. لقد كانوا كلهم من أصحاب الحرف وأعضاء في النقابات التجارية ولم تكن لدى الحكومة القوة الكافية لمجابهتهم وبثكناتهم التي صارت منطقة تجمع لهم، وبضباطهم الذين يقودونهم ويوجهونهم، أصبحوا سادة الموقف⁽²⁾.

أصبح سوء التنظيم بين صفوف الخيالة النظاميين أشد مما هو عليه بين الإنكشارية. وكان قد بدأ في وقت مبكر بالدرجة الأولى، وكان السلطان سليمان العظيم معتاداً على اختيار ثلاثمئة رجل من فريق الخيالة ليعملوا كحرس له، وكان يكافئهم بالسماح لهم بالقيام ببعض المهام المدنية مثل جمع الضرائب والجزية. كانت المزايا التي يكسبونها كبيرة، وكان رجال الخيالة يسعون للحصول على المزيد منها في وقت كان الفساد والضعف قد دبّا في أوصال الحكومة⁽³⁾. لكن المهام التي كانوا يؤدونها قد أجبرتهم على الإقامة في المقاطعات الموكلة إليهم⁽⁴⁾ وكان بعضهم يذهب إلى إسطنبول فقط عندما يحين أجل دفع الرواتب⁽⁵⁾، وفيما بعد مُنعوا حتى من فعل ذلك لما يسبّبونه من

(1) كانت صيحة تجمّعهم هي: *Yoldaş yokmu?* أما من رفاق؟ «Have we no fellows?». انظر جودت ج 1 ص 97. وفي أوقات السلم كانوا يُمنعون من حمل الأسلحة النارية بسبب ميلهم للشغب. انظر جوشيروج 1 ص 45.

(2) جودت ج 1 ص 96-97. كتب جوشيروج بعد الإطاحة بالسلطان سليم الثالث (وذلك بعد الفترة المتعلقة ببحثنا)، ورأى كيف أدّت قوة الإنكشارية إلى نتائج مأساوية، وأكد في أكثر من موضع أن أوجاق الإنكشارية قد صار يضم فعلياً كل المسلمين الذكور في المدن أي أنه كان عظيم النفوذ. (نصوص لكتاب مختلفين) ص 184 حاشية 3.

(3) سيّد مصطفى ج 1 ص 145. ولقد بُذلت بعض الجهود عام 1654 لمنع مثل هذه التوظيفات. انظر بيلين Belin ص 329.

(4) يشكو قوچی بك Koçu Bey (Behrner ص 299) أن السباهية النظاميين كانوا، بدلاً من العيش بالقرب من العاصمة، يذهبون إلى أماكن بعيدة كهنغاريا والبوسنة والمورة وجورجيا وفارس حيث يصبحون خارج سلطة البكوات المحليين والقضاة وجامعي الضرائب.

(5) سيّد مصطفى ج 2 ص 92.

اضطرابات في تلك المناسبات⁽¹⁾، وعُهد إلى ضباطهم القيام بالمهمة⁽²⁾. ومن الجهة الثانية فقد تدنّت مستويات الانضباط بين صفوفهم بسبب التخلي تدريجياً عن نظام الدوشيرمه وقبول مجنّدين غير مدربين؛ وأصبحت شهاداتهم هم أيضاً تباع للعامة⁽³⁾. كما أن العملية قد تطوّرت بسبب وجود رواتبهم بأيدي ضباطهم الذين كانوا لا يوفّرون حيلة للتلاعب بها. وفي هذه الحالة لم تكن الحكومة تبذل أيّ جهد للتحقيق في الأمر.

كان العمل الذي قامت به الحكومة أنها قمعت عام 1603 ثورة للخيانة بتوجيه الإنكشارية ضدهم، تلتها عدة مناسبات خصوصاً في عهد السلطان مُراد الرابع والوزير كوبرلي محمد پاشا⁽⁴⁾. عمد السلطان إلى إعادة قوتهم إلى وضعها الأول، كما أعاد تنظيم الفرق الست بوضع نصف العلوفه جية والغُربا تحت قيادة السباهية والتّصف الآخر تحت قيادة السِّلْخُدارية⁽⁵⁾. أما الوزير فقد سعى إلى إضعاف قوتهم، إذ لم يكن لديهم مجنّدون كما للإنكشارية يهتّون للقتال عند أول تهديد لكيانهم. وبالفعل فإن أفراد فرقة الخيالة المقيمين في إسطنبول - تمييزاً لهم عن المسجلين في السجلات⁽⁶⁾ - في الفترة المتعلقة ببحثنا كان صغيراً جداً، بحيث أن قوّادهم كانوا بالكاد يجدون

(1) يذكر جوشيروج 1 ص 87 أنهم كانوا يجبرون على التفرق في أنحاء آسيا الصغرى.

(2) جودت ج 1 ص 99.

(3) المصدر السابق؛ سيّد مصطفى ج 3 ص 90. حدث تنظيم جزئي لشهادات الخيالة من قبل چورلولي أحمد پاشا Çorlulu Ahmed Paşa. انظر Belin ص 371-372.

(4) سيّد مصطفى ج 2 ص 93؛ جوشيروج 1 ص 87؛ Belin ص 320.

(5) كان علوفه جية وغُربا اليمين يوضعون تحت إمرة السباهي لر آغاسى، وعلوفه جية وغربا اليسار يضعون تحت إمرة السِّلْخُدار لر آغاسى. انظر دوسون ج 7 ص 172، 366.

(6) كان تنظيم الخيالة يتقلب كثيراً في القرن السابع عشر. يقول جودت ج 1 ص 100 إن عددهم قد ارتفع في عهد أحمد الأول (1603-1617) من 7,000 إلى 21,000، بينما يذكر سيّد مصطفى أنه انخفض في عهد مُراد الرابع (1623-1640) من حوالي 30,000 إلى 5,000 أو 6,000 وفي خلافة سليمان الثاني (1687) توقف عند 15,000. يقدر هامر عددهم في وقت مبكر بـ 15,178، بينما يذكر دوسون ج 7 ص 367 أنه ارتفع في عهد محمد الرابع (1648-1687) من حوالي 26,000 إلى أكثر من 55,000، وأنه انخفض في عهد أحمد الثالث (1703) إلى 26,000.

رجالاً يخرجون في الموكب لدى توزيع الرواتب⁽¹⁾. وبالتالي لم تكن الحكومة تخشاهم وكان بمقدورها التخلص منهم لو أرادت فعل ذلك، لكنها لم تفعل لسبب آخر هو أن جزءاً من شهادات الخيالة والإنكشارية معاً كان بأيدي موظفي الحكومة أنفسهم⁽²⁾ والجزء الآخر بيد العامة، ولم يكن أي من الفريقين يخضع دون احتجاج لحرمانه من الدّخل الذي يؤمنه لهم شراء هذه الشّهادات⁽³⁾.

كان تاريخ فرق المدفعية العثمانية وفرق نقل العتاد والسّلاح أشدّ كآبة. لقد أصابها الفساد الشّامل في القرن الثّامن عشر وكانت المدفعية السّلطانية لغاية معاهدة كارلوفيتش (1699) تعدّ متفوقة نوعاً ما على مدفعية الخصوم، وكانت التّرسانات لا تزال قادرة على تزويد القوات الضخمة بالسّلاح⁽⁴⁾. ومن بعد ذلك، وخصوصاً في فترة السّلام الطّويلة، فسدت الفرق الثّلاث بأساليب مشابهة لتلك التي أصابت فرق الإنكشارية والخيالة، وأصبحت شهاداتهم تباع وتشتري علناً كما انخفضت أعدادهم بشكل كبير. لم يكن بينهم الكثير من الحرفيين، وكان المجنّدون الجدد بينهم عديمي الفائدة ربما أكثر من الفرق غير الفنية⁽⁵⁾.

(1) يذكر سيّد مصطفى أنه في بعض الأحيان كان الرّجال أنفسهم يظهرون مرتين، إلا إذا كان الرّقباء المسؤولون قادرين على تقديم أعذار مقنعة عن المتغيّبين. انظر Jorga ج 4 ص 158. وربما يكون دوسون ج 7 ص 368 الذي قدر عدد السّباهية المتمركزين في العاصمة بـ 1,500، قد خُذع إلى حدّ ما بهذه الحيل.

(2) يذكر جودت ج 1 ص 96 أن معظم تلك «الأسامي» قد وقعت بأيدي كبار رجال الخدمة الدّاخلية والخارجية والعلماء وخدم القصر. وفي هذه الحالة كانت تدعى بشهادات البلاط *Kapılı esâmeler*.

(3) تمت مناقشة فكرة إبطال هذه الشّهادات كثيراً في خضم إصلاحات الجيش المقترحة في عهد سليم الثّالث، لكنها كانت تجابه دائماً بالرّفص كونها خطة غير عملية.

(4) انظر: بورغا Jorga ج 4 ص 160-161.

(5) انظر جودت ج 1 ص 98 الذي يذكر أن الضباط عند اندلاع الحرب كانوا يجمعون حشداً من المتشردين ويستأجرون عربات التّقل الضرورية من أصحاب الدّكاكين وغيرهم، والنتيجة هي عدم وصول أكثر من نصف الذخائر إلى وجهتها، بينما تترك البقية على قارعة الطّريق، ولدى سماع أول طلقة مدفع كان أولئك المشردون يقطعون سروج حيوانات التّقل ويركبونها تاركين

أما فرق اللغامين وقاذفي القنابل فلا تزال تحتفظ بالأمثلة الأولى لتدريب الفرق العثمانية على أيدي الأجانب، وكان اللغامون مدرّبين بشكل جيّد في الحملة على كريت (1644 - 1669) بأيدي مدرّبين بريطانيين وهولنديين، وقد أبلوا بلاء حسناً تحت توجيهاتهم⁽¹⁾. أما «تغريب» فرق قاذفي القنابل فقد كانت له أهميته الفائقة في ذلك الوقت، وكان على يد الكونت دي بونفال *Compte de Bonneval* وهو ضابط فرنسي خدم سابقاً في جيش لويس الرابع عشر ثم في جيش الإمبراطور، وكان ذا رتبة عالية وخبرة متميّزة، وقد خرج من صفوف الأمير أوجين *Prince Eugène* وبحث عن وظيفة لدى السلطان أملاً في الانتقام من الإهانات التي واجهها في فيينا، وذلك عن طريق إعادة تنظيم الجيش العثماني بأكمله. وعندما تم الاتفاق أبرز دي بونفال أنه بالإضافة إلى معرفته الواسعة بالفنون العسكرية فهو يملك مهارة عالية في صبّ المدافع والقنابل وتنظيم المدفوعات فضلاً عن حفر الملاجئ وزرع الألغام. كان من الممكن له أن ينجح في تحقيق أهدافه لولا التغيرات المتكررة في رئاسة الوزراء (وبنيله لثقة أحد الوزراء كان الآخر يشك به بشكل تلقائي)، وكذلك معارضة الضباط الذين بدأوا يعانون من أعماله التي حُصرت فقط في إعادة تنظيم فرقة قاذفي القنابل. كان

المدافع والعربات والذخائر للعدو. انظر جوشيروج 1 ص 62-63 وثورنتون ص 270. ويذكر توت *Tott* ج 3 ص 9 أيضاً أنه باندلاع الحرب عام 1768 غادر الجيش العاصمة مع قطار ضخّم من المدفعية، لكنها كانت تتألف من قطع مركبة بشكل سيئ ومخدمة أيضاً بشكل سيئ. كما يذكر ص 132-133 أنه كان لدى الأتراك قوات معيّنة لخدمة المدفعية يبلغ عدد رجالها أكثر من أربعين ألفاً كلهم يتقاضون رواتبهم باسم الطوبجية، وهم مجموعة ضخمة لكن تكاليفهم أكبر بكثير من فائدتهم. ويصف قلة الانضباط وبيع الشهادات. أما سيّد مصطفى فقد رسم صورة أكثر إشراقاً بقوله إن هؤلاء مقارنة مع الإنكشارية كانوا أكثر نظاماً وإن شهاداتهم لم تكن تباع، مما يعكس الحال في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر.

ويمكن ملاحظة أن الجبّة جية، كمعظم الفرق الأخرى، كانوا يعانون التأخر في دفع رواتبهم، وفي عام 1703 ظلوا دون رواتب مدة ثلاثة فصول فترّلوا في جورجيا حيث قاموا بثورة أدت إلى خلع السلطان مصطفى الثاني. انظر بيلين *Belin* «التاريخ الاقتصادي» مجموعة 6 مجلد 4 ص 363. وبعد فترة قصيرة ثار البوستانجية للسبب نفسه.

(1) انظر: يورغا *Jorga* ج 4 ص 163.

دى بونفال قد أجبر على اعتناق الإسلام قبل أن يقبل السلطان محمود الأول خدماته، وأصبح يُعرف باسم أحمد پاشا بما أنه قد رقي إلى رتبة بكربك. كانت إصلاحاته في فريق قاذفي القنابل تشمل تجنيد وتدريب ثلاثمئة بوسني مضافين إلى التشكيلة الأساسية. لقد نال هو نفسه رتبة الخُمبرجى باشى *Humbaracı Baş* واحتفظ بها إلى حين وفاته عام 1747⁽¹⁾، باستثناء فترة قصيرة كان قد نفي فيها إلى قسطنطيني *Kastamonu*، انتكس بعدها فريق قاذفي القنابل إلى درجة من قلة الكفاءة تعادل ما وصلت إليه بقية القوات المسلحة⁽²⁾.

بما أننا قد شرحنّا أثر أحد العاملين الأساسيين في عملية الانهيار التي حدثت في عهد السلطان مُراد الثالث، وهو تهديد نظام الدوشيرمه ثم إبطاله نهائياً والنتائج المدمرة على الجيش النظامي للقاهى قول لرى، يمكننا الآن الانتقال إلى العامل الآخر وهو تزايد الفوضى في امتلاك الإقطاعيات.

كما هو الحال في الجيوش النظامية، فقد بدأ ظهور هذه الفوضى في عهد السلطان سليمان العظيم حيث أخذ أحد البكربكية⁽³⁾ بقبول الرشاوى مقابل تملك الإقطاعيات الشاغرة، لكنه لم يمنحها إلا للأشخاص المناسبين لها، ولوحظت هذه الممارسات أيضاً في بعض الحالات التي عُدّت غير نظامية في عهد السلطان مُراد الثالث⁽⁴⁾. أما الهبات الأخرى في ذلك الوقت فقد كانت ذات طبيعة أكثر تخريباً وفتحت باب الفساد في النظام بأكمله، ونذكر على وجه الخصوص تحويل الإقطاعيات العسكرية

(1) جوشيروج 1 ص 71؛ O.T.E.M. 1913 أرقام 18، 19، 20؛ محمّد عارف بك «*Humbaracı Baş Ahmed Paşa*»؛ أمير *Ligne* «مذكرات عن الكونت دى بونفال»؛ فاندال «الپاشا بونفال». دُفن بونفال بجانب تكية الدراويش المولوية في غلطة والتي بقيت لفترة طويلة مكاناً يؤمه السياح الأوروبيون. انظر هامر ص 407.

(2) جوشيروج 1 ص 472.

(3) هو خسرو پاشا الذي يعده المؤرخون مثلاً سيئاً على ترقية أحد العاملين في خدمة القصر مباشرة إلى حاكم إقليمي. انظر سيّد مصطفی ج 1 ص 123؛ جودت ج 1 ص 94.

(4) وبالذات الإقطاعيات التي منحها أزدмир عثمان پاشا لأتباعه بسبب خدمتهم الجيدة في الحرب مع الفرس. انظر قوچى بك *Koçu Bey* (Behrner) ص 294).

إلى إقطاعيات مدنية⁽¹⁾ أو أملاك خاصة⁽²⁾ (وعلى أي حال فقد أسهمت فئة من هذه الإقطاعيات في إعالة موظفين مدنيين). طبقت هذه التحويلات من قبل رجال الحاشية ذوي التفوذ الذين كان مُراد خاضعاً لهم، وسرعان ما اعتمدها بكثرة الوزراء وكبار الموظفين بمن فيهم الحكام الإقليميون الذين استغلوا سلطتهم بشكل سيئ. وقد تم نقل الكثير من هذه الإقطاعيات، اسماً على الأقل، إلى أتباع هؤلاء الموظفين حتى يكتسبوا مدى اتساع أملاكهم. بينما عمد آخرون، حتى لا تُصادر أملاكهم، إلى تحويلها بشكل غير قانوني إلى أوقاف دينية⁽³⁾.

كانت تلك إحدى الطرق التي تحوّلت وفقها العائدات المخصصة للقيام بنفقات الجيش الإقطاعي، أما الطريقة الثانية فكانت الخزينة العامة التي لاحظنا أنها واجهت منذ نهاية القرن السادس عشر انهياراً في العائدات وزيادة في النفقات بسبب تضخم حجم الجيش النظامي. كان من بين الحلول التي اقترحت لهذه المشكلة هو تخفيض قيمة العملة، وبالرغم من أن النتيجة كانت أعمال شغب من قبل الجنود، وأن مكاسبها انعدمت بسبب الاضطراب إلى رفع معدل رواتبهم، فقد كان يُلجأ إليها مراراً وتكراراً. وفي هذه الظروف كان إداريو الأقسام المالية يواجهون إغراءات تحويل جزء من العائدات الكبيرة المخصصة لإعالة الفرق الإقطاعية لحسابهم الخاص. كان الجنود الذين يقبضون رواتبهم نقداً في مركز قوي بحيث يفرضون إرادتهم على الحكومة، أما الفرق الإقطاعية فلم تكن تملك تلك القوة، وبذلك كانت الحكومة تعتمد إلى ترك

(1) أي من إقطاعيات القليج *Kıtlıç* إلى إقطاعيات الأربّه لق *arpatıks* والبشمق *başmaklıks*؛ تعني كلمتا آربّه *Arpa* «الشعير» وبشمق *başmak* «الحُف» باللغة التركية. وكانت هذه الإقطاعيات تدعى كذلك، لأنه من المفترض أن تدفع إيراداتها ثمناً للشعير المستهلك في إصطبلات الضباط والموظفين، ولشراء نعال لسيدات قسم الحريم.

(2) تملك *temlik* أو مُلك *mulk*.

(3) سيد مصطفى ج 2 ص 96، ج 3 ص 76، 94-95؛ قوچی بك (Behnauer ص 295)؛ جوشيروج 1 ص 125-126؛ ويذكر إسماعيل خسرو ص 161 أن السباهية أنفسهم اعتادوا في الأيام الأخيرة على تحويل إقطاعياتهم، التي كانت أملاكاً للدولة، إلى أملاك خاصة. انظر الفصل الثاني عشر من الكتاب.

نظام تملك الإقطاعيات يموت موتاً طبيعياً. وكانت الإقطاعيات المتوارثة تبقى على حالها إلى أن يموت الورثة، وعندها تصبح شاغرة فتُضمّ إلى أملاك الإمبراطورية فتقوم الخزينة بتحويلها إلى مزارع ضريبية⁽¹⁾.

تم هذا التطور بسهولة عندما أبطل السلطان سليمان عادة منح الإقطاعيات الشاغرة كهدايا للبكربكية. وقد تولّت الحكومة المركزية هذه المهمة لأن البكربكية كانوا ميالين إلى إهداء هذه الإقطاعيات بدورهم مقابل الرشوة. ولكن بتزايد الفساد في الحكومة المركزية نفسها، وجد الأشخاص الجديرون بالهبات أنفسهم يُخدعون من جديد، وغدت محتتهم أسوأ من ذي قبل إذ كانوا يستطيعون سابقاً الاستغاثة بإسطنبول ضد البكربكية⁽²⁾.

من جهة أخرى لقد أعيق هذا التطور إلى حدّ ما بسبب انتشار الفساد، وكان منح الإقطاعيات هو المجال الواضح لممارسته بحيث تُمنح سندات ملكية الإقطاعية عند وفاة صاحبها لأشخاص غير جديرين بها. علاوة على ذلك فقد تمسّكت عائلات السّباهية بالاحتفاظ بعدد ضخم من الإقطاعيات، وفي القرن الثامن عشر كانوا لا يزالون يمتلكون جزءاً واسعاً من الأراضي الزراعية في الإمبراطورية. أما قيمتهم العسكرية فقد كانت أقل من أن تُذكر.

كان ذلك يعود إلى عوامل عدّة، أولها منح الإقطاعيات لأناس غير مؤهلين كسكان المدن والمزارعين من الطبقات المتدنية، حتى ولو لم يؤدوا الخدمة الإقطاعية أو أتباعهم يفكرون أصلاً في أدائها. أما ثاني العوامل فكان تراجع مستوى الضباط المترقّين إلى رتبة الألاي بكية، وبما أن البكربكية أصبحوا يقبضون الرشاوى لتعيين الألاي بكية، فكان من الطبيعي لهؤلاء أن يقبضوا الرشاوى بدورهم من السّباهية،

(1) سيّد مصطفى ج 2 ص 94.

(2) يذكر دوشون ج 7 ص 376 أن نظام إعادة منح الحكومة المركزية للإقطاعيات الشاغرة قد تجدد في عهد السلطان مصطفى الثاني (1695-1703)، لكن سوء استخدامه كان قد بدأ قبل ذلك أي في عهد مُراد الرابع (1622-1640). ويكتب سيّد مصطفى أن الحكام الإقليميين كانت لديهم فرص كثيرة لقبض الرشاوى مقابل الهبات.

وكان الهدف الشائع لهذا الفساد هو التهرب من أداء الخدمة العسكرية. أدى هذا الأسلوب إلى ظهور أصحاب الإقطاعيات الأقل شأنًا فقط في الحرب الذين لن يكونوا يملكون التفقات الكافية للمشاركة فيها، إذ كان يتوجب عليهم على الأغلب تجهيز مقاتل مسلح⁽¹⁾. كان العامل الثالث أيضاً نتيجة للفساد، إذ لم يتردد موظفو العاصمة المسؤولون عن منح الإقطاعيات في خداع المتقدمين لنيلها بتخصيصها لشخصين في آن معاً، وأحياناً لعدة أشخاص. وكثيراً ما كانت المنازعات تحدث حول ملكية هذه الإقطاعيات⁽²⁾ مما أدى إلى تخلي السباهية عن الخروج إلى الحرب بسبب خوفهم من ترك إقطاعياتهم دون حراسة ومن ثم وقوعها بيد منافس مسلح ذي رتبة عالية يغل محصلوها وضرائبها لفائدته الشخصية⁽³⁾.

من الصعب تحديد عدد أفراد الفرق الرّاكبة التي ينتجها نظام الإقطاع العثماني. في عهد السلطان سليمان كان العدد يفوق المئتي ألف، إذا أخذنا بعين الاعتبار الأتباع المسلحين للسباهية، ولكن بحلول القرن الثامن عشر لم يبقَ منها إذا جُمعت معاً أكثر من خمسة وعشرين ألفاً، بل ربما أقل⁽⁴⁾. ولقلة تدريبهم وعدم اعتيادهم على الانضمام لبعضهم، كانوا عديمي الفائدة في الحرب⁽⁵⁾. ولهذا السبب بالإضافة إلى سبب آخر هو عدم وجود فرق أخرى تقوم بذلك، فقد عُهد إليهم بمهام غير لائقة كحفر الخنادق وجزّ المدافع، وهي مهام كانت توكل في السابق لليوروك والمسلم⁽⁶⁾.

-
- (1) سيّد مصطفى ج 2 ص 96، ج 3 ص 95؛ جودت ج 1 ص 103؛ إسماعيل خسرو ص 168.
 - (2) يذكر إسماعيل خسرو ص 169 نقلاً عن ساكازوف Sakazov هبة الإقطاعية نفسها لثمانية عشر أو عشرين شخصاً.
 - (3) جودت ص 103؛ دوستون ج 7 ص 375-376.
 - (4) لتقدير عددهم في أزمنة مختلفة انظر ليبير ص 104؛ سيّد مصطفى ج 3 ص 94؛ قوچي بك (Behnauer ص 296)؛ جودت ج 1 ص 103؛ جوشيرو ج 1 ص 90؛ Jorga ج 4 ص 159؛ إسماعيل خسرو نقلاً عن ساكازوف.
 - (5) جودت، المصدر السابق؛ سيّد مصطفى ج 3 ص 95.
 - (6) انظر أحمد رفيق «Anadoluda Türk Aşiretleri» ج 6، ج 8؛ وهامر «Staatsverwaltung» ص 235.

كان بعض هؤلاء قد انضموا إلى الأسطول البحري⁽¹⁾ وأثناء القرن السابع عشر كانوا قد فقدوا بطريقة أو بأخرى وظائفهم الأساسية التي عُيّنوا فيها كعسكريين. عمل المسلم واليايا في الأناضول في الأراضي المعفية من الضرائب وامتزجوا إما بطبقة الفلاحين العاديين أو بطبقة السباهية؛ أما اليوروك الذين استقروا في المقاطعات فقد أعيد تنظيمهم كالمسلم الأصليين (وتحولوا بالتالي إلى رعايا *re'âyâ*)⁽²⁾، بينما تحول أولئك الذين احتفظوا بحياتهم البدوية إلى قطاع طرق ولم تفلح الحكومة في قمعهم⁽³⁾. وهناك فرقة أخرى (إن كان اسم فرقة مناسباً لها) اختفت خلال القرن السابع

(1) المصدر السابق ج 8؛ انظر دوسون ج 7 ص 308-309. كان اسم مسلم لا يزال يطلق على بعض الفرق في وقت متأخر، بينما يذكر جوشيرو المسلم مع الشكمن كفرق أولية مهمتها صيانة الطرقات والأعمال الحربية، وربما تكون تسمية هؤلاء ناتجة عن تشابه مهامهم مع مهام المسلم الأصليين.

(2) أصبح هؤلاء اليوروك يدعون أولادى فاتحان *Evlâdı Fâtihân* (أي أبناء الفاتحين) ووضعوا تحت إمرة وزير يدعى أولادى فاتحان ضابطي *Evlâdı Fâtihân Dâbiği*، ونُظموا في ستة أوجاقات كما كانوا مطالبين بتجهيز رجال يدعون الإشكنجية *Eşkincis* وكانوا معفين من كل الاستحقاقات. ولكن في حالة السلم كانت المساهمات التي تُدفع لتجهيز الإشكنجية تذهب لنفقات الحصون الحدودية، وكان يقودهم الجري باشية الخاصون بهم. انظر أحمد رفيق ج 8، ج 9.

(3) لقد جرت محاولة لإسكان بعض يوروك الأناضول في سنجق الإيچ إيلي *İç İli* لكنهم لم يستطيعوا منعهم من غزو سكان المنطقة، وفي عام 1712 تقرّر طردهم بالقوة إلى قبرص. لكن معظمهم فرّوا في الطريق وتفرقوا في أقاليم مختلفة في غرب الأناضول حيث، بعد معاناتهم الطويلة، صدر العفو عنهم عام 1714 بشرط امتحان أعمال شريفة. وفي الواقع انتهى المطاف بمعظمهم في الاستقرار إما كفلاحين عاديين أو مربّي أغنام أو حطابين. وفي أوقات لاحقة أصبحت كلمة يوروك لا تدلّ بالضرورة على البدو الرحّل بل على رجال قبيلة ذوي معتقدات غريبة، إذ أنهم بالرغم من اعتمادهم الأسلوب المتمدّن نسبياً، وبسبب مقاومتهم المستمرة للدخول في الإسلام، فقد ظلوا متمسكين بمذهب غير قويم يختلف عن مذهب باقي الرعايا. انظر هاسلك «المسيحية والإسلام تحت حكم السلاطين». كان هناك مصير مشابه من نصيب القبائل التركمانية (جماعات *cemâ'ats*) في جنوب وغرب الأناضول الذين يختلفون عن اليوروك بأن مخيماتهم كانت واقعة خارج حدود الإمبراطورية عندما كان لليوروك تنظيم قبلي محدّد. وفي القرن السابع عشر، لما أرادت الحكومة الحدّ من أعمال السلب والنهب، اختارت

عشر هي الأقنجة أو الخيالة غير النظاميين والتي كانت تسير في الأيام الأولى في مقدّمة الجيوش العثمانية داخل أرض العدو لنيل الأسلاب، أما الآن فقد حلّ محلهم خيالة التتار من بيسارابيا والقرم⁽¹⁾.

ولم يكد منتصف القرن الثامن عشر يحلّ حتى كان الانهيار قد أصاب جميع الجيوش السلطانية النظامية وغير النظامية والإقطاعية وأدى ذلك إلى زوالها باستثناء فرقة من السباهية الإقطاعيين. وكان على السلطان إذا أراد خوض حرب جديدة أن يعتمد على تأسيس جيوش جديدة من مصادر أخرى. كانت هناك في الحقيقة، باستثناء تار القرم، أربعة مصادر متاحة هي: جنود حاميات الحصون الحدودية، وجيوش باشوات الأقاليم، وجيوش ذوي التفوذ من المحلّيين والذين يدعون دَرَه بكية -Dere beyis أي أمراء السهل، والمجنّدون الذين يتمكن ضبّاط الإنكشاريّة من جمعهم لدى تجولهم في القرى والأرياف عند بدء قيام الحروب.

كان جنود حاميات الحصون الحدودية يدعون سَرُخْد قُول لرى أي عبيد الحدود تمييزاً لهم عن القايى قُول لرى أو عبيد الباب. وكما سبق أن ذكرنا، فقد كانت هذه الحاميات مؤلفة أساساً من جنود الإنكشاريّة ذوي الرّواتب، وكان الضبّاط والرّجال يُرسلون من العاصمة ليتواجدوا في هذه الحصون يساعدهم في مهامهم حرفيو المدينة الذين يدعون يَماق أي المعاون، أو بعض السَرُخْد قُول لرى الذين يُجمعون من السّكان المحلّيين ويتقاضون رواتبهم من العائدات المحليّة التي تدعى يورتلک أو أوجالک. يقول بعض المؤرخين إنهم مكونون من ثلاث فئات من المشاة هي العُزبان والسّگمن

الرّقة على نهر الفرات كمركز ملائم لهم، لكن بالرّغم من إظهارهم ميلاً للاستقرار، فقد استغرق إخضاعهم للنظام فترة طويلة والكثير من القوة. وفرّ العديد منهم نحو الشّمال مجدّداً وانضموا إلى القبائل التركمانية الأخرى في الأناضول، واضطرت الحكومة إلى أخذ كفالة مالية لقاء حسن سلوكهم. واستمرّ العديد من هذه القبائل في ممارسة الحياة الرّعوية والتنازع حول أرض التّخيم فيما بينهم وسلب الفلاحين المقيمين في الجوار، عندما تكون السلطات أضعف من أن تمنعهم من ذلك. أحمد رفيق ج 9، ج 10.

(1) قوچى بك (Behrmauer ص 297)؛ جوشىرو ج 1 ص 99؛ دوسون، المصدر السابق.

والمسلّم، وثلاث فئات من الخيالة هي المتطوّعون والبشلي والدّلي. وكان السّكّمن والمسلّم يقومون بمهام فئة المسلّم القديمة أي صيانة الطّرق والحصون، أما الفئة المتميّزة وهم العُزبان فقد كانوا مشاة بالمعنى الحرفي للكلمة. وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت الفئة الوحيدة المرضي عنها من السّرحد قول لرى مؤلفة من القادمين من البوسنة وألبانيا ومقدونيا، وهي المناطق التي قدّمت عشرة آلاف من الخيالة وأربعين ألفاً من المشاة للدّفاع عن الدّانوب. أما السّرحد قول لرى الأناضوليون فهم من أسوأ فئات الجنود في الجيش العثماني.

كانت جيوش باشوات الأقاليم مؤلفة أساساً من السّباهية الإقطاعيين القاطنين في المنطقة التابعة لحكم الباشا، بالإضافة إلى جنود الإنكشاريّة المحليين (اليرلية) والطوبجيّة وسواهم، فضلاً عن فرق الخيالة النظامية ومعاونهم. وعندما استشرى الفساد في الجيش الإمبراطوري، أصدرت الحكومة المركزية أمراً للباشوات بتأسيس جيوش محلية من الخيالة والمشاة، وكان جزء من رواتبهم يُدفع من المستحقّات التي ازدادت كثيراً في الآونة الأخيرة، بينما يُدفع الجزء الآخر عن طريق إرغام الأثرياء على المشاركة في تأمينها، وقد تؤخذ من الأموال المخصّصة للمساجد. وفي القرن الثامن عشر أصبح جنود الخيالة الذين يجمعهم الباشا يعرفون باسم الدّلي أي الكشاف أو المتطوّع، بينما يدعى المشاة باسم التّفنكجية⁽¹⁾ أي حملة البنادق، وكانوا يُجمعون إما

(1) كان من عادة الحاكم الإقليمي أن يحتفظ بعدد من الدّلي يتراوح بين 100 و150 يرأسهم الدّلي باشا، والعدد نفسه من حملة البنادق بقيادة التّفنكجي باشا، كما قد يحتفظ الباشوات في الإيالات الشّرقية بأربعة أو خمسة أضعاف العدد من كل فئة تحت إمرة قائد يدعى سرّچشمه Serçeşme. قلت: وقد يُسمّى أيضاً: ألابي بك *Alaybeyi*. (أحمد)

بدأ هذا النّظام في القرن الثامن عشر، وقبل ذلك كان الباشوات يستخدمون فئات أخرى كاللاوند والسّكّمن والضاريجه (تعني كلمة صارى «أصفر» وربما سمّوا كذلك بسبب لون رايّتهم، وتعني كلمة لاوند البحارة في الأسطول العثماني) ولكن بعد دخول فئات أخرى من العسكر في الأسطول ترك اللاوند العمل فيه وتحولوا إلى الخدمة العسكرية في البرّ إن سُمح لهم بذلك، وإلا شكلوا عصابات للسلب والنهب في الأرياف. صدر عام 1695 قرار بإلغاء وجودهم، لصعوبة إخضاعهم للنّظام، والسّماح لهم بالتطوع في الجيش، لكن لم تكن هناك

للمشاركة في الحروب أو لقمع حركات تمرد الباشوات الآخرين.

كان من نتيجة كل تلك الطرق أن عمّت الفوضى في الأقاليم، فبمجرد تجميع الباشا لمثل هذه القوة يصبح غير راغب في التخلي عنها، وقد استخدمها في تمردته وثورته. وفي الواقع فإن الدّره بكية كانوا من الباشوات الذين حاولوا مجابهة الحكومة وخصوصهم لفترة طويلة وأسّسوا أسرهم الحاكمة الخاصة، وهم بذلك لم يظهروا علناً قبل القرن الثامن عشر وإنما بعد أن ضعفت الحكومة بشكل كافٍ لينهضوا للوجود. وفي الفترة المتعلقة ببحثنا كان هناك على الأقل أربع عائلات كبرى من الدّره بكية في آسيا (الأناضول)⁽¹⁾ حتى لو استثنينا الجميع عدا الحكام الذاتيين في العراق وسوريا الذين لا يندرجون تحت التسمية (التركية) نفسها، وستكلم عنهم بشكل مستقل أثناء حديثنا عن الأقاليم العربية. وفيما بعد ذلك ظهر الدّره بكية في الروملي ليحظوا بأهمية سياسية ويتفوقوا على نظرائهم الأناضوليين. وكان من ضعف السلطان أن اضطر للاعتماد على القوات المؤلفة من هذه الأسر المتمردة في الحربين اللتين قامتا في أواخر القرن الثامن عشر. كانت هذه القوات شبيهة بتلك التي استخدمها الباشوات تحت رعاية الباب العالي، وكانت تعيش على العائدات التي تجبى في المنطقة الواقعة تحت سطوة كل درّه بك وفقاً لمصالحه الشخصية.

ولغرض ما، أعيد تجنيد المتطوّعين للحرب في مناسبات عدّة في الجزء الأخير من القرن السابع عشر، وذلك من أجل زيادة التعزيزات للجيش النظامي⁽²⁾، لكن هذه الطريقة

نتيجة فعلية للأمر وبقي اللاوند يعيشون الفوضى، لا سيما في المناطق الآسيوية (الأناضول)، بالإضافة إلى الفوضى التي عمّت أرجاء الإمبراطورية.

(1) هي: 1. the Karaman Oğulları of Aydın, Manise, and Bergama. 2. the Çapar Oğulları of Bozüyük, 3. عائلة جاتقلی Canıklı علي باشا في طرابزون، 4. the Elyas Oğulları of Kuş Adası. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «درّه بك».

(2) كما في عام 1689-1690 عندما جند الكويريلي الثالث فاضل مصطفى باشا المتطوّعين في الروملي والأناضول. انظر بيلين Belin «التاريخ الاقتصادي» مجموعة 6 مجلد 4 ص 346، ومرة ثانية عام 1695 عند استيلاء البنادقة على جزيرة خيوس Chios. انظر المصدر السابق ص 350.

لم تصبح أساسية في القوات العثمانية إلا لغاية فترة السلام الطويلة في بحثنا⁽¹⁾. كان الضباط المجندون يدعون سوريجي *sürücü* أي الرعاة (drovers)، وكان المتطوعون الذين يجندونهم طوال فترة الحروب يُدفع لهم أجرهم يوماً، بالإضافة إلى إعانة عند الالتحاق بالخدمة⁽²⁾، وكان علماء الدين يذكرون حماسهم ويذكرونهم بأن كل حرب يخوضها السلطان هي حرب جهاد بطبيعة الحال. ولكن بما أنهم كانوا قليلي التدريب ومجهزين بشكل سيئ فقد صعبت السيطرة عليهم، وكان الكثير منهم يندمون على حماسهم السريع فيفرون من الجيش إما قبل الوصول إلى جبهة القتال أو بعده، وفي طريق عودتهم كانوا يرتكبون في القرى كل أصناف الأعمال الشائنة، خصوصاً عندما يمرّون بتلك التي يسكنها المسيحيون⁽³⁾. لم يكونوا يتورّعون عن التمرّد أو الفرار في ساحة الوغى، وبالرغم من تهوّرهم في القتال فقد كانوا يُهزمون بسهولة عندما يؤخذون على حين غرة⁽⁴⁾. كان هؤلاء المتطوعون غير المدربين بالإضافة إلى الأتباع غير المدربين للإنكشارية الذين تم إلحاقهم بالجيش في ظروف مشابهة، يشكلون أغلب قوات السلاطين وهم الذين أكسبوا الجيوش العثمانية تلك السمعة السيئة في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر⁽⁵⁾، وقد

(1) تم تجنيد المتطوعين ببدء عام للقتال (نفيري عام *nefiri 'amm*) عند إعلان الحرب ضد روسيا عام 1769 من قبل السلطان مصطفى الثالث، وذلك بسبب عدم رغبته في الاعتماد على جيش الإنكشارية الذين، بالإضافة إلى عدم كفاءتهم التدريبية، سيطلبون بزيادة أجورهم باستمرار. انظر دي توت de Tott ج 3 ص 4-5.

(2) في المثال السابق دُفع لكل مجند 7 أقباج يومياً، بالإضافة إلى 10 قروش كبخشيش. اثناء حرب عام 1769، عندما تأسس سبعة وتسعون فوجاً من قوات الخزينة *Miri 'Askeris*، كان كل جندي من المشاة يتقاضى قرشين ونصف، وكل خيال خمسة قروش شهرياً بالإضافة إلى 25 قرشاً كبخشيش لدى التطوع، ومؤن وعلف وحصّة في الخيمة. وكان شرط الالتحاق آنذاك هو حيازة بندقية أو سيف أو رمح أو مسدسات، لإضافتها إلى الأسلحة التي تقدمها الحكومة. كان كل فوج تحت إمرة البيكباشي (تلفظ بينباشي) *Bin-başı* «رئيس الألف» وكان راتبه 1,000 قرش شهرياً و10 بالمئة من رواتب الفرق. انظر دوسون ج 7 ص 381-382.

(3) إيتون ص 25.

(4) المصدر السابق ص 67-68.

(5) انظر ثورنتون ص 254، 260 حيث يقارن عدم انضباط القوات التركية في أيامه مع انضباطهم الشديد في السابق الذي أشار إليه كل من Rycaut و Busbecq.

قيل إن مرورهم في الأقاليم كان يخيف رعايا البلد أكثر ممّا يخيف العدو، ولكن لا بدّ من القول إن أعمال السلب التي يمارسونها إنما كانت بسبب إهمال السلطات لتزويدهم بالتفقات الكافية. أما معاملتهم للفلاحين المسيحيين، والتي هي أسوأ في الواقع من معاملتهم لأبناء دينهم، فيمكن تفسيرها، إن لم يمكن تبريرها، بأمرين اثنين: الأول الرّوح الصليبية التي استخدمها الرّوس في شن الحروب التي شارك فيها هؤلاء المتطوّعون، والثاني هو الرّوح المقابلة للتعصّب الإسلامي الذي غرسته السلطات الدّينية للإمبراطورية في نفوسهم⁽¹⁾.

مقارنة مع هؤلاء المتطوّعين، كان عبيد الحدود وقوات الدّره بكية وحتى قوات الباشا، مع قلة أعدادهم، أكثر انضباطاً وأفضل تجهيزاً، لكنها لم تكن بحال قادرة على مواجهة الجيوش المدربة التي قاتلوها، مع أنها كانت أقل كفاءة من مستوى الجيوش الأوروبية الغربية المعاصرة. بعد فترة قصيرة من اندلاع الحرب التي تنتهي عندها فترة بحثنا، كان المسؤولون في إسطنبول يدركون أن ما تحتاجه الإمبراطورية للمحافظة على بقائها هو إعادة تنظيم القوات السلطانية المسلحة. ولكن لسوء الحظ، فإن الجيش النّظامي القديم، وإن لم يعد له وجود في الحقيقة، كان موجوداً نظرياً ليعيق جهود من أدركوا تماماً ضرورة تلك الحاجة.

يكفي ما عرضناه عن الجيش، وعن تطور السّلاح البحري العثماني، وعن وصفنا للعاملين في القصر السلطاني في القرن الثامن عشر. ولكي نكمل صورة الفساد الذي أصاب المؤسسة الحاكمة، يبقى لنا الكلام عن بعض التّغييرات اللاحقة في تنظيم وإدارة الحكومتين المركزية والإقليمية.

تأثرت الحكومتان كلتاهما بإبطال نظام الدّوشيرمه، واستمرّ تجنيد الإيچ أوغلان /

(1) انظر دي توت de Tott ج 3 ص 8، حواشي يذكر فيها أن المتطوّعين لم يكونوا يجتدون كلهم دفعة واحدة، ولكن كانت قوات الجيش تدعم دائماً بوصول المسلمين المتعصّبين الجدد. لم يكن المجندون الآسيويون (الأناضوليتون) من التّعصب بحيث يهملون اهتماماتهم الشّخصية، ولدى مرورهم بالعاصمة في طريقهم إلى الجبهة كانوا يتراجعون عن القتال قبل الاتفاق مع الحكومة. انظر المصدر السابق ص 12.

Oğlans لملء الوظائف الشاغرة أولاً في القصر السلطاني، ولاحقاً في صفوف الجيش والإدارة؛ لكن تم سحب هؤلاء المجتدين فيما بعد نظرياً من المجتمع المسلم (مع أنهم لا يزالون يعدّون من عبيد السلطان)، وعملياً من بين أقاربهم وأصدقائهم وأتباعهم لتأمين وظائف لهم. كانت النتيجة الأساسية السيئة لهذا الأسلوب الجديد تضاعف عدد المرشحين بشكل كبير ويهدف إرضائهم، ولو جزئياً، تأسس نظام تعيين دوري قصير المدة في الوظائف الشاغرة، أي أن التعيينات كانت لمدة عام واحد فقط يترك الموظف بعدها منصبه ويتنظر دوره القادم في التعيين. وفي القرن الثامن عشر أصبحت كل الوظائف الرئيسية، ليس فقط في الإدارتين المركزية والإقليمية بل في الجيش وخدم القصر السلطاني، تشغل لمدة عام واحد⁽¹⁾ وكما سنرى لاحقاً فقد طبق هذا النظام على الوظائف الدينية أيضاً. أضف إلى ذلك أن هذه الوظائف نفسها أصبحت تُمنح مقابل الرشاوى، وغدا الهدف الأساسي لنجاح المرشحين استرجاع ما دفعوه لنيل الوظيفة، ثم كسب ما يكفيهم للسنوات العجاف التي تنتظرهم، ويمكن تخيل فوضى الدسائس للوصول إلى الوظيفة من جهة، ثم عدم كفاءة شاغلي الوظائف والرشاوى التي يتقاضونها من جهة ثانية. ولحسن الحظ، يبدو أن هذا النظام قد طُبّق في المناصب العليا فقط، أما الموظفون والسكرتاريون الأدنى رتبة فلم يتأثروا بتلك الوظائف السنوية وحافظوا على ترقيةهم بالطريق المنطقي، وفقاً لخدمتهم الجيدة وأسبقيتهم⁽²⁾.

كما سبق وأشرنا، لقد تغيّرت أهمية العديد من الوظائف الأساسية في الإدارة المركزية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. في القرن السادس عشر كان الصدر الأعظم هو الذي يدير شؤون الدولة، إذ يجلس في الديوان السلطاني مع وزراء القبة

(1) انظر دوتون ج 7 ص 191 وما يليها.

كان هناك خمسة وثمانون من هذه المناصب الدورية (*menâşibi devriye*) في إسطنبول، وتقسّم إلى ست فئات لا تشمل الوزراء الثلاثة والسكرتاريين الستة والدفتردارية الثلاثة والنشأنجي والدفتر أميني ورؤساء الأقسام المالية فحسب، بل تضم رجال شرطة القصر السلطاني وقادة فرق المشاة وفيلق الخيالة.

(2) هامر ص 163.

وقضاة العسكر والقبطان پاشا والنشأنجى والدفتردارية. وفي القرن الثامن عشر كان منصب وزراء القبة قد ألغي وأصبح النشأنجى لا يؤدي أي عمل، أما الكاخية بك والرئيس أفندي اللذان كانا مجرد موظفين أساسيين في منزل الصدر الأعظم، فقد أصبحا وزيرين مهمين يضاهيان الدفتردار، وبالمقابل ظل الديوان السلطاني قائماً، لكن انعقاده بدأ يقل شيئاً فشيئاً، وأصبح مظهراً فقط وأصبحت شؤون الدولة تدار من خلال الاجتماعات اليومية للباب العالي.

ترافق هذا التطور بتزايد نفوذ الصدر الأعظم، على الأقل في بداية الفترة التي حدث خلالها، لكنه ترافق أيضاً بتزايد ما يمكن أن نسميه التقلبات الحكومية. في ظل النظام القديم كانت المبادرة الحكومية تمارس وفق إطار شديد من القوانين التي تركز على أساس نصف ديني. وبتخلي السلاطين عن دورهم الفاعل وزيادة استقلالية الصدر الأعظم، أصبح من الشائع سنّ مراسيم جديدة تحت اسم المراسيم السلطانية (خطى هُمَايُون *Haṭṭı Hümâyûn* أو خطى شريف *Haṭṭı Şerif*)⁽¹⁾، وهي تتضمن حق السلطان في العمل بالعرف السائد. لم يكن هناك تصريح بالتقليل من شأن القانون بل كانت الإصلاحات تظهر بشكل إحياء الأوضاع التي صورتها قوانين الماضي المجيد. لكن هذه المراسيم كانت تُعدّ أمراً مهيباً بما أنها تعكس إرادة السلطان الموقرة. وبهذا بدأت هيئة الفرمانات العادية القديمة تتناقص، وهي الأوامر التي تعتمد على الرجوع إلى النصوص العامة للقانون. كان من المفترض للمراسيم الجديدة، شأنها شأن القوانين القديمة، أن توافق الشريعة، لكنها ما لبثت أن أصبحت أداة للتعتسف (بما في هذه الكلمة من معنى)، ويمكننا ملاحظة أن الحكومة العثمانية قد غدت خلال فترة التغيير أقل اعتماداً على الدستور من ذي قبل⁽²⁾.

كان لإبطال نظام الدوشيرمه، بغض النظر عن آثاره في تنظيم الجيش، أثره على حكومة الأقاليم كما كان له أثره على الإدارة المركزية، وبشكل رئيسي عن طريق

(1) من كلمة «خط» العربية وتعني هنا «التوقيع الشخصي».

(2) هامر ص 73-74. وقد اعتمدت الخطوط السلطانية في عهد مُراد الثالث (1574-1595).

تضاعف عدد المرشحين للمناصب العليا وتولّى هذه المناصب من قبل أشخاص لم يسبق لهم الحصول على التدريب الصّارم للفترة الأولى، وإنما شقوا طريقهم في سلم التوظيف الحكومي عن طريق التملق والفساد. ومن هنا نشأت نتيجتان لاحقتان، أولاًهما أن الحكام الإقليميين كانوا يعيشون في حالة توجّس دائم حيال دسائس خصومهم، وكانوا كلّما سنحت لهم الفرصة لتجميع قوات خاصّة بهم، كان ذلك يغريهم بالتمسك بوظائفهم متحدّين أوامر الباب العالي بطردهم من الخدمة لدى انتهاء مدّتهم لصالح طامحين آخرين على القائمة⁽¹⁾، وعلى هذا الأساس قام الدّره بكية بتعزيز نفوذهم. والنتيجة الثانية هي أن لقب الوزير قد صار بسبب تضاعف عدد الموظفين يُمنح بسخاء كبير، ولعدم وجود إيالات كافية لضمهم فقد كان بعضهم يكتفي بحكم الألوية *livâs* بل حتى الأقضية *kadâs* خاضعين لسلطة الباشوات الذين يحكمون مناطق قد تكون بعيدة عنهم ولا تكفي إيراداتها لحاجاتهم الشخصية. وبهذا أصبح من عادة الباشوات تعيين عملاء لهم لإدارة تلك المناطق البعيدة تحت اسم متسلّم *mütesellim* في السّناجق، وثويقودا *voyvoda* في الأقضية ومقاسمتهم عائدات المزارع الضريبية التي أصبح الباشوات يمتلكونها مدى الحياة⁽²⁾. كان الهم الوحيد لهؤلاء العملاء هو جمع ما يقدرّون عليه من الأموال طالما أن الفرصة متاحة لهم.

هناك تطوّر آخر في القرنين السابع عشر والثامن عشر، هو بروز سلطة طبقة من وجهاء الأقاليم يدعون الأعيان⁽³⁾ *A'yâns*. لسنا متأكدين تماماً من تاريخ ظهورها (لم تكن نشاطاتها موجودة في مخطط المؤسّسة الحاكمة إبان أوجها) وكان هؤلاء الأعيان يُنتخبون من قبل سكّان كل منطقة⁽⁴⁾ ليمثلوهم غالباً لدى السّلطات الحكومية، وربما

(1) جوشيروج 1 ص 178، 180-181.

(2) أي مالكانه *mâlikâne*. وكانت تباع في المزادات في العاصمة. انظر جوشيروج 1 ص 178.

(3) أعيان باللغة العربية جمع عين أي الشخصية البارزة، وباللغة التركية تستخدم كلمة أعيان بصيغة الجمع والمفرد معاً.

(4) إسماعيل خسرو ص 170.

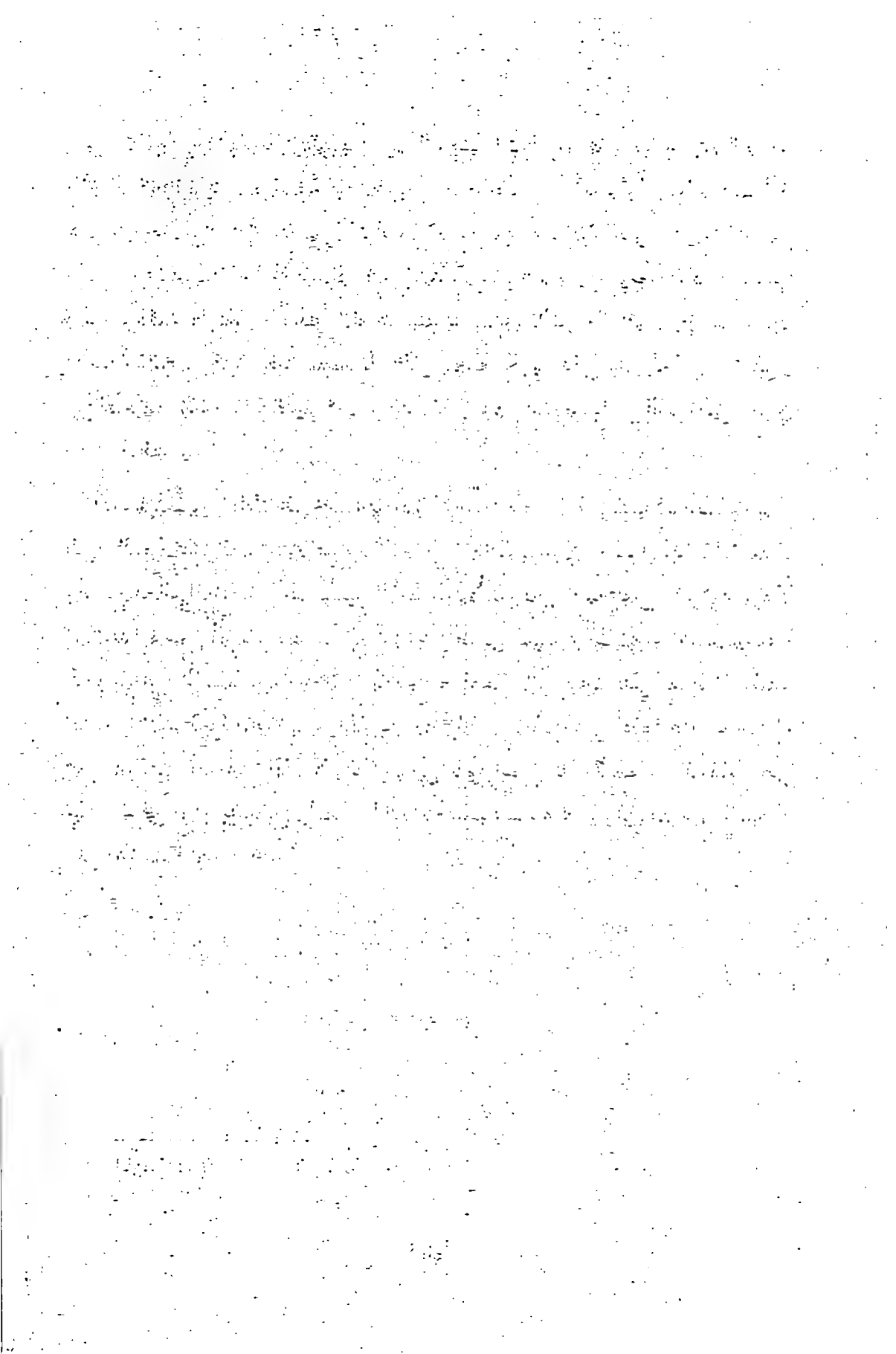
على مثال القوَجَه باشية الذين يرأسون المجتمعات المسيحية. حالما يتم انتخاب الأعيان كانوا يعيّنون بواسطة فرمان ويدعون «وجهاء الولاية وأولي الأمر فيها»⁽¹⁾. على أيّ حال كان الأعيان في الفترات الأخيرة من مَلَاك الأراضي وهو ما أكسبهم الكثير من التفوذ. وكان الأعيان في القرن الثامن عشر هم الذين يتولّون الإدارة المدنية والمالية للمدن بينما يتخصّص القاضي بتطبيق شؤون الشريعة. يقول جوشيرو⁽²⁾ إن الأعيان كانوا يملكون أيضاً سلطة على القوات العسكرية، لكن يبدو أنه لم يتبته للفرق بين الأعيان والدَّرَه بكية الذين كان عددهم في زمانهم أكبر بكثير من الفترة التي تجري بحثنا حولها.

أكملنا بذلك مخططنا عن حالة الفساد والتدهور، وكانت المؤسسة الحاكمة بحلول القرن الثامن عشر قد مرّت بانقلاب كامل مع محافظتها على معظم أشكالها الأصلية، وأصبح معظم أفرادها من المسلمين الأحرار بدلاً من العبيد المعتقدن للإسلام، وبدلاً من استشارة همم أفرادها لكسب الجدارة عن طريق الموهبة والفضيلة، علّمتهم كيف يتجهون إلى الفساد بغية تحقيق تقدّمهم مع إهمال الواجبات التي يفرضها عليهم اكتساب تلك المزايا. وأخيراً، بدلاً من حصول السلاطين على أداة فاعلة للمحافظة على نفوذهم، أصبحوا الآن لا يملكون من القوة سوى ما يمكنهم من الحفاظ على سلطتهم في قصورهم، بل وأصبحوا آلة للتعسف مسلطة على رعاياهم غير القادرين على الاتحاد لمواجهتها.



(1) بالتركية: *'Ayâni vilâyet ve iş erleri*.

(2) ج 1 ص 180.



الفصل الرابع

الحكومة والإدارة في الأقاليم العربية

1. النظام العثماني

كان هدف السلطانين سليم الأول وسليمان في تنظيم الأقاليم العربية إبقاء الحالة التي كانت عليها عند فتحها، والمحافظة على سيادة السلطنة العثمانية فيها. وقد بقي هذان الهدفان المتواضعان للسلطان الفاتح والسلطان القانوني يشكلان مثلاً علياً لخلفائهما الأضعف شأنًا. كان أهم ما يميز الإدارة العثمانية المحافظة، وكانت كل مؤسسات الحكومة موجهة للحفاظ على الوضع الراهن. وبما أن قوانين السلطانين كانت تُعدّ تجسيداً للحصافة السياسية في أعلى درجاتها، فلم يكن هناك داعٍ للتحسين، باستثناء القضاء على بعض المفاصل اللاحقة. وبهذا لم يكن تطبيق المصلحة العامة وروح المبادرة لدى الحكام أو الموظفين الأصغر شأنًا أمراً منهيًا عنه، مما أدى إلى نشوء شبكة واسعة من المصالح العامة نتيجة الفتوحات، لكنها شكلت عقبة لا يمكن لمن أراد الإصلاح تجاوزها.

وإذا لم نسلط الضوء على تعاليم القرن الثامن عشر للالتزام الاجتماعي وحقوق الإنسان أو تعاليم الخلفاء اللاحقين، بل على الاعتبارات التي وجهت السلاطين العثمانيين، فإننا سنجد أن نظامهم كان عملياً بشكل بارز، ولم يكن قاسياً ولا متعسفًا. لقد اتخذوا منهج التقسيم التقليدي المعروف للسكان وفق ترتيب اجتماعي محدد، فهناك «رجال السيف» و«رجال القلم» والتجار والحرفيون والمزارعون والذميون والعبيد.

وكان لكل طبقة وظائفها الخاصة، كما وُضعت القوانين لضمان التنفيذ الصحيح لهذه الوظائف ولئلا يتدخل أحد في حقوق الآخرين أو ينتهك حرمانهم. وكان من البديهي أن تدفع كل طبقة وكل مقاطعة ما تستطيعه لصيانة إدارتها، وتساهم كذلك بمبلغ معقول للخزينة السلطانية. وكى لا يثقل السلاطين على رعاياهم، فقد فرضوا ضرائب خفيفة وأشكالاً بسيطة من الإدارة المباشرة مما يخدم مصلحة الخزينة والسكان معاً. قبل الفتح العثماني كانت الأراضي الواقعة غرب آسيا مقسمة إلى عدّة دول مستقلة، وكانت المستحقات التي تؤخذ من الفلاحين مرتفعة جداً، كما كان التّجار مثقلين بدفع المبالغ الكبيرة لصالح الجيوش الضخمة والإنفاق على القصور المهيبة. وبما أن مقاطعات الإمبراطورية الواسعة كانت منتشرة على الحدود البعيدة ويعمّ السلام فيما بينها، فقد اقتضت منشأتها العسكرية على حاميات صغيرة تكفي للحفاظ على النظام الداخلي، وتؤمن بعض الأفواج التي قد يحتاجها الجيش الإمبراطوري. وأخيراً إن الدولة العثمانية قد سعت إلى توفير الحياة الدّينية لكل رعاياها وتأمين مستوى عالٍ من العدل في مبادئ حكمها، وذلك من خلال تمسّكها بتطبيق قوانين ومبادئ الشريعة ورعايتها للمذاهب السّنية والتعاليم الصّوفيّة وتنظيمها لمؤسّساتها القضائية.

بينما تعكس هذه الوسائل المظاهر الإيجابية الواعدة للنظام العثماني، فإنّ وسائل أخرى تعكس الفلسفة السياسية القديمة الفارسية - التركية وما يعزّزها من خبرات الإمبراطورية بحدّ ذاتها. كانت الفكرة السائدة في الحكم هي عدم الثقة - خوفاً من الخيانة أو الطّموحات الجموحة لبعض موظفي الإمبراطورية - كما كانت طرقها تتجه نحو مركزة وتوازن القوى. لقد سبق وذكرنا تقسيم الأقاليم إلى إيالات تتساوى نظرياً في حكمها الذاتي تحت إمرة الپاشا أو الوالي الذي بالرّغم من أنه كان يجمع بين السلّطين العسكرية والمدنية ومسؤولاً عن النّظام والأمن العام وجمع الضرائب⁽¹⁾ وإيصال الجزية أو التبرعات المحددة سنوياً إلى إسطنبول، وموكلاً بالإدارة العامة

(1) كان هناك في حلب ضابط خاص يدعى المحضّل *muhaşşil* وهو معيّن من إسطنبول مباشرة للقيام بهذه المهمة (انظر فولني Volney ج 2 ص 41). وفي بعض الأحيان كان التحصيل والپاشوية يجتمعان معاً، ولكن ليس قبل عام 1766؛ انظر الغزّي Ğazzi ج 3 ص 305.

ككل، فإن منصبه في القرن الثامن عشر كان مؤقتاً يُجَدَّد عاماً بعد عام. وحتى داخل مقاطعته فقد ضعفت سلطته بعدة وسائل يبدو أنها تهدف إلى حرمانه من ممارسة أي شكل من الإدارة المباشرة. كانت حسابات الباشوية تحفظ لدى الدفتردار الذي يحتلّ وظيفته بشكل مستقل عن طريق فرمان يأتي من إسطنبول⁽¹⁾، أما الفروع الإدارية الأخرى فكانت بيد كتخدا الباشا *Paşa's ketḥudâ* (أي وكيل أعماله الذي يعرف بين العامة بالكاخية *kâhyâ* أو الكيخيا *kihyâ*)، وهو يعيّن سنوياً أيضاً. ومع أن الباشا يملك، وفقاً للنظام الإسلامي التقليدي، سلطات قضائية واسعة فقد كان القاضي ورجال الدين الآخرون يملكون حق إرسال الاحتجاجات والمذكرات مباشرة إلى إسطنبول، وكانت فعالة بشكل عام.

لكن هذه القيود كانت صغيرة مقارنة بصلاات الباشا بالقوات المسلحة في كل إيالة، وبين الأقسام التي تؤلف القوات المسلحة نفسها. كانت هناك مجموعة من الإنكشارية والفرق الأخرى تقيم بشكل دائم في كل مقر، وكان أبناءهم يتوارثون وظائفهم. كانت تلك الفرق موزعة عادة في أوجاقين أو ثلاثة، غالباً من المشاة ونادراً من الخيالة، يقود كل واحد منها آغا وكاخية ودفتردار وضباط آخرون، لا يعيّنهم الباشا في مناصبهم لكنه يدعمهم فيها. وكانت سلطته عليهم محدودة بطرق عدة، بالقوانين التي تلزم ضباطاً معينين بمهام وحقوق خاصة⁽²⁾، وبتقييد استخدامهم في عملياتهم المحلية⁽³⁾، وأيضاً بوجوب تشكيل قوات إمبراطورية في حاميات حصون معينة (كتلك التي في

(1) نذكر على سبيل المثال سيد علي بن حسن الذي شغل منصب الدفتردار في دمشق لمدة ثماني عشرة سنة (1717-1735)، الثراي ج 3 ص 211، ومحمد بن فروخ الذي شغل المنصب ذاته لمدة ثلاثين سنة منذ عام 1746 دون انقطاع (المصدر السابق ج 4 ص 38).

(2) في مصر على سبيل المثال كان لأوجاق الجاوشية مهمة جمع الضرائب، بينما كان أوجاق الإنكشارية موكلاً بالحفاظ على أمن المدن. وبالإضافة إلى امتياز آغا الإنكشارية بقيادة القوات الحربية المرسلة من مصر للالتحاق بجيش السلطان عند الحاجة، فقد أصبح يتمتع بنفس امتيازات رئيس الشرطة.

(3) انظر حيدر أحمد الشهابي ج 1 ص 45.

حلب ودمشق) يقودها ضباط يعيّنهم الباب العالي⁽¹⁾. أما مصر، على عكس الأقاليم الآسيوية، فهي تشكل إيالة واحدة فُرض عليها تأسيس ديوان أو مجلس يتألف من ضباط البابا والضبّاط العسكريين الرئيسيين وكبار رجال الدّين يجتمعون أربع مرات أو أكثر أسبوعياً ويتخذون القرارات المتعلقة بكل شؤون الإدارة. وبالرغم من أن السلطة التنفيذية الأخيرة هي بيد البابا، فلم يكن يُسمح له بحضور المجلس شخصياً بل كان يرأسه الكاخية التابع له⁽²⁾.

لم تكن الفرق الإنكشارية والأوجاقات الأخرى تشكّل القوات العسكرية بأكملها في كل مقاطعة. وكما رأينا سابقاً، فإن المظهر المميّز للنظام العثماني هو تخصيص القسم الأكبر من الأراضي الزراعيّة للسّباهية الإقطاعيين، وامتدّ هذا النظام ليشمل الأقاليم العربيّة باستثناء جزيرة العرب تحديداً. لكن كانت هناك ثلاث إيالات لا تحوي على الزّعامات ولا التّيمارات المعروفة، وهي مصر وبغداد والبصرة. كان في بغداد عدد من السّباهية يعملون كمزارعين في أراضي السّلطان ضمن أقسام أو سناجق متعدّدة؛ أما في مقاطعة البصرة الصّغيرة فكان الإقليم كله بيد البابا على شكل التّزام *iltizâm* أو مزرعة. وستحدث بالتفصيل عن تنظيم مصر في هذا المجلد.

كان لنظام التّيمار مزايا منها تأمين وصيانة عدد كافٍ من القوات الشّعبية، وضمان بقاء عنصر قوي في كل إيالة، وهو حصراً من أصل تركي، تتوافق مصالحه مع مصالح الإمبراطورية ويمكن أن يخدم في حالات الطّوارئ كسلطة معادلة للإنكشاريّة

-
- (1) انظر فولني ج 2 ص 49. وبشكل مشابه كان قبطان السويس قائداً لأسطول البحر الأحمر، ولكن لم يكن قبطانا الإسكندرية ودمياط كذلك (كومب Combe ص 65). وقد منع قانون ناميه السّلطان سليمان البابا والبكوات من منح قيادة الموانئ البحريّة أو إدارة الأموال إلى أشخاص ممّن يعملون في خدمتهم الخاصّة (Digeon ج 2 ص 253).
- (2) للاطلاع على تفاصيل أوسع تتعلق بالديوان الكبير والديوان الصّغير انظر مارسيل Marcel «تاريخ مصر» ص 194، وكومب ص 58-59. على عكس باقي الحكام لم يكن بابا مصر يستطيع مغادرة القاهرة بل كان محجوزاً في القلعة بنصّ من القانون ناميه (Digeon ج 2 ص 253).

المحلّين. كان لكل مجموعة إقليمية من السّباهية تنظيمها الإداري الخاص ودفتردار مستقل مع بك أو أمير معترف به⁽³⁾. ومع أن أغلبية السّباهية الإقطاعيين لم يكونوا مسلّحين بشكل دائم فقد كانت مجموعة منهم تقوم بتنفيذ مهمات معيّنة في دمشق⁽⁴⁾.

وهناك قوة ثالثة في معظم الأقاليم يشكّلها الأتباع الخاصون للباشا والبكوات والدّفتردار. كان كل باشا أو بك يستولي بشكل تلقائي لدى تعيينه في وظيفته على أرض «الخاص» المخصّصة لمنصبه مع التزامه بتأمين عدد كافٍ من الرّجال للخدمة العسكرية. كان «الخاص» المتوسط للبكرك كافياً لتأمين 150 إلى 200 خيّال، بينما يؤمن «خاص» السّنجق بك من 30 إلى 80 خيّالاً، أما «خاص» الدّفتردار فيؤمن من 20 إلى 25 خيّالاً. ولم يكن لدى باشا مصر «خاص» ولا أتباع.

لقد واجه السّلاطين العثمانيون صعوبة خاصّة بوجود القبائل البدوية ونصف البدوية في الأراضي الواقعة داخل أو على حدود الأقاليم، وبالأخصّ الأقاليم العربية. في شمال سوريا هناك التّركمان، والأكراد في العراق وديار بكر، والبدو الأعراب في مصر وسوريا والعراق بشكل عام، وكلّهم يشكّلون عناصر متمرّدة معادية علناً لسلطة الباشوات والبكوات الأتراك. جرت محاولة ضعيفة في الأقاليم الشماليّة لضمتهم إلى الإمبراطورية عن طريق إنشاء سناجق متوارثة وحكومات شبه مستقلة لا تدفع أيّة عائدات للحكومة المركزيّة ومعفية من الخدمة العسكريّة. وفي مصر يبدو أن السّلاطين قد اعتمدوا على السّيطرة المملوكيّة القديمة القائمة⁽⁵⁾. أما في العراق فلم يواجهوا المشكلة بشكل صريح بل عهدوا إلى الباشوات باستخدام الأساليب المناسبة للسيطرة على الأمور، واستعمال المقاومة والعنف إذا دعت الضرورة. وقد يكون خطر في ذهن السّلاطين أنّ وجود البدو من شأنه أن يعرقل مخططات الباشوات الطّموحين

(3) انظر المُرادي ج 1 ص 275.

(4) المُرادي ج 4 ص 16، ومن جهة أخرى فقد كان السّباهية في بغداد قوات نظامية (Longrigg ص 87).

(5) انظر Digeon ج 2 ص 204-208 من أجل الاطلاع على قوانين قيادة الشيوخ العرب في قانون ناميه.

أو المتمردين. لكن غياب السياسة المحددة نحو الأكراد والبدو الأعراب، أو استبدال سياسة القمع بعدم التدخل في شؤونهم⁽¹⁾ لهو أحد نقاط الضعف الأساسية للحكم العثماني في آسيا العربية.

كان هذا النظام المتوازن معتمداً في بقائه على نوعية الرقابة الإمبراطورية وعلى شخصية الباشوات والدفتردارية. كان من المتوقع حدوث بعض الخلافات والتعديلات، وإن تاريخ الأقاليم العثمانية في آسيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر لهو مليء بالتجاوزات وانتهاك الجماعات المختلفة لحقوق الآخرين أو الحكومة المركزية، بالإضافة إلى بعض الجهود الناجحة مؤقتاً للإصلاح وإعادة التوازن. وإن الأحداث الرتيبة لهذه الفترة تمتلئ بمشاهد العنف، والتعصب بين الفرق المحلية، والتمرد ضد الحكام المحليين مما لم يفسح مجالاً واسعاً لتحقيق تغيير فعلي سريع. وكان كل فريق يبذل جهده بما لديه من أسلحة ليسيطر سيطرته عبر صراعات متواصلة من أجل الحصول على امتياز هنا أو اغتصاب حق هناك، وأصبحت هذه الأحداث السطحية أكثر أهمية من الحروب المثيرة. صحيح أن الفساد كان قد استشرى في مركز الإمبراطورية في نهاية القرن السادس عشر، لكن الأشخاص الجيدين كانوا لا يزالون متواجدين، أما الحكام الضعاف الفاسدون فكانوا كثيرين لكن سجلات الأقاليم تحمل بشكل عام شهادات جيدة لصالح نصف عدد الباشوات⁽²⁾ وتظهر، باستثناء بعض الحوادث الصغيرة المتوقعة، أن الإدارة العامة والمالية كانت شريفة إلى حد مقبول، وأن اضطهاد الفلاحين كان أقل مما هو عليه في النظامين السابق واللاحق. لم تكن الحكومة المركزية قد غفلت بعد عن التزاماتها نحو الرعية، وكانت الشكاوى ضد الحكام المخالفين تؤدي إلى إيقافهم عن العمل فوراً⁽³⁾ كما كان كل من يمارس تخريباً

(1) انظر الغزي Gazzi ج 3 ص 288-290.

(2) انظر كومب ص 21-39 (مصر)؛ Longrigg ص 31-50 و 81-95 (العراق)؛ الغزي Gazzi ج 3 ص 251-292 (حلب).

(3) انظر الغزي Gazzi ج 3 ص 281؛ Longrigg ص 49.

يخلّ باقتصاد الأقاليم يعاقب بصرامة بالغة⁽¹⁾. لكن الظروف الزّاهنة للإمبراطورية حالت دون تحقيق سيطرة مباشرة شديدة على موظفيها، وحتى الهاشوات لم يتمكنوا في المقاطعات الخاصّة بهم (ناهيك عن باشا القاهرة المقيّد) من مراقبة كل ما يقوم به مرؤوسوهم.

لا بدّ لنا هنا من الانتباه إلى عدم تضمين المعايير الأوروبية الغربيّة للقرن التاسع عشر في حكمنا، ومن الممكن التأكيد على نقطة لها أثر كبير في تطور المؤسسات الإدارية في آسيا العربيّة لجزء كبير من الفترة المتعلقة ببحثنا. إن مفهوم السّلطة يوحى في أذهان الرّعايا أنفسهم فكرة ارتباط القوة بالعنف والقسوة. (يقول المؤرخ المسيحي ميخائيل الدّمشقي)⁽²⁾ إن عبد الرّؤوف باشا كان رجلاً معتدلاً محبّاً للسلام، لكن عدله الزائد قد جرّأ أهالي دمشق على القيام ضده. وكان المؤرخ المصري الجبرتي أشد تأكيداً للأمر، إذ قال متحدّثاً عن الفلاحين⁽³⁾:

«وإذا التزم بهم ذو رحمة ازدروه في أعينهم، واستهانوا به وبخدمه ومطلوه في الخراج، وسمّوه بأسماء النساء وتمنّوا زوال التزامه بهم وولاية غيره من الجبارين الذين لا يخافون ربهم ولا يرحمونهم، لينالوا بذلك أغراضهم بوصول الأذى لبعضهم، وكذلك أشياخهم إذا لم يكن الملتزم ظالماً يتمكّنون هم أيضاً من ظلم فلاحهم، لأنهم لا يحصل لهم رواج إلا بطلب الملتزم الزيادة والمغارم، فيأخذون لأنفسهم في ضمنها ما أحبّوا».

قد يُعزى سبب سيادة مفهوم السّلطة هذا للوهلة الأولى إلى القرون الطويلة من سوء الحكم والاضطهاد، مضافاً إليها التقاليد الدّينية التي تدعو إلى الاستسلام

-
- (1) تم إعدام الهاشوات الذين اتهموا بتزييف العملة، انظر الغزّي Gazzî ج 3 ص 287 (أعدم باشا في حلب عام 1660)؛ كومب ص 32 (أعدم باشا في مصر عام 1635).
- (2) «تاريخ حوادث الشّام ولبنان»، نشرة المعلوف (بيروت 1912) ص 49.
- (3) ج 4 ص 208، ج 9 ص 10-15. وقد وردت الملاحظة نفسها في كتاب إستيف «وصف مصر، الدّولة الحديثة» ج 1 القسم الأول (باريس 1809) ص 321.

والرّزانة والإيمان بالقضاء والقدر. لكن هذا التفسير لا يغطي الحقائق بأكملها، إذ يبدو أنه تطوّر للفكرة الأساسية بأن السّلطة تمنح الامتيازات⁽⁴⁾ وهناك ثلاثة عناصر يمكن أن تبين المفهوم العام لهذه الفكرة. العنصر الأول هو الطّموح الماديّ الشائع بين رجال الطبقات المختلفة في المجتمع، والذي يصوّره الجبرّتي لدى ذكره لأشياخ القرية، وما من أحد لا يطمح عندما تسنح له الفرصة باكتساب مركز سلطوي والحصول على نصيبه من المنافع. والعامل الثاني مشتقّ من الطّبيعة المؤقتة غير المستقرّة لمعظم أشكال السّلطة، وإن من يتسم له الحظ فيحصل على سلطة قد تكون قصيرة الأمد لا بدّ وأن يسعى لاكتساب أقصى ما يستطيع منها، وإن ضحايا ظلمه هم أول من يسخرون من حماقته إن أهمل فعل ذلك، ثم تعلق صيحات المطالبة بالعدالة عندما يستدعي الظالم المعزول للمحاسبة وحرمانه من ثروته، بل أحياناً يحرمه خلفاؤه أو أسياده حياته نفسها. مع ذلك فإن الرّأي العام يقرّ بحدود معيّنة للظلم والاستغلال، وقد يتحدّث أحدهم عن «السلب المسموح به» أو «الإساءات المعترف بها» وكأنها أصبحت ممارسات تقليدية. بل إن الرّأي العام طالب التعسف السلطوي بأن ينطلق من صفات أخرى كالسخاء والشجاعة والصّراحة وشيء من الشّهامة ورحابة الصدر، وعندما تختفي تلك الصّفات أو عندما يُنتهك الاستبداد القانون غير المدوّن الذي يحكم تطبيق السّلطة، فإن حدود الاستسلام تصل إلى أقصاها وتبدأ المطالبة بالانتقام⁽⁵⁾.

ومن الملاحظ أن المقطع الذي أوردناه للمؤرخ الجبرّتي يركّز على سبب ثالث لتحمل إساءات السّلطة، وهو عنف روح التعصب. من الصّعب حقاً المبالغة في تقدير الدور الذي لعبته في كل مظاهر الحياة الاجتماعية الأقاليم العربية على مستوى الأسرة والجماعة والخلافات القبلية، ممّا حرّك أعماق المشاعر الروحية، ولم يعد للطّموحات الشخصية ولا المثل الأخلاقية والدينية مكان بينها، ولم تتمكّن كل تعاليم الدين

(4) حتى في القبائل البدوية العربية كان الشّيخ يتمتّع بامتيازات خاصّة بما فيها حق أخذ ريع غنائم الغزوات أو الحروب.

(5) هناك مثلاً حالات عديدة اغتيل فيها أحد الأسياد بيد عبيده أو أتباعه، وثورات القرى ضد جامعي الضرائب وتحدي الحكومة، وكذلك طرد الباشوات من المدن بطريقة مخزية.

والإنسانية ولا حتى التفكير بالتأثير الاقتصادي والسياسية من كبح النزاع المستمر السخيف بين الفئات المتعصبة مع ما يرافقه من العنف تجاه الأشخاص والأملاك. ومن خلال بحثنا ستتكرر المناسبات التي تظهر تلك الخاصة المتأصلة في التنظيم الاجتماعي في الأقاليم العربية. ومع أن هذا العنصر هو الأقوى في الحياة الاجتماعية في الفترة المتعلقة ببحثنا، فهو بطبيعته من أصعب العناصر فهماً وأكثرها استعصاء على التحليل ودقة التحديد. وإنّ مصادرنا الموثقة لا تزودنا، بالرغم من تفصيلاتها الموسعة، إلا بقدر يسير من فهم الفئات التي كانت تقسم القوات المحلية وتحدث أعمال شغب عنيفة بين الإنكشارية وسادة حلب، وبين الإنكشارية والقبائلي في دمشق، وبين أوجاق وآخر (ثم بين فرق المماليك المختلفة) في مصر. وليس لدينا سوى بعض المصادر المتفرقة وملاحظات الرحالين عن العداء بين قبائل قيس *keys* واليمن *Yemen* الذي مزق المناطق الريفية في سوريا. أما الباقي فنضطر إلى تجميعه بواسطة القياس والافتراض.

بعد أن اتضح لنا مفهوم السلطة وما تقدّمه من امتيازات لصاحبها، يمكننا القول إنّ حكم الباشا والبيك التركيين المتشددّين كان بشكل عام أكثر قبولاً لدى الرعايا وأقرب إلى مزاجهم ممّا هو متوقع، بالرغم من ما يتّصف به من الرجعية والافتقار إلى المثاليات، وإجبار الناس على الرضوخ لمختلف أشكال الإساءات. لقد كانا يملكان من الصفات الشخصية ما يكتسبان بواسطتها احترام الرعية، وكانا يحرصان على بناء أو ترميم المشاريع العامة كالقنوات والسدود والموانئ والخانات والصروح الدينية ومنح الأوقاف؛ وكذلك اتخاذ الموقف الحيادي من الإقطاعيين المحليين الصارمين والخصومات الشخصية، ممّا أرسى قواعد الأمان في المقاطعات والأملاك الخاصة، بينما لم يعرف الآخرون كيف ينهون منازعات الأحزاب لمصلحتهم الخاصة.

ومن جهة أخرى، فقد كانت نقطة الضعف الأساسية في الإدارة العثمانية تكمن في الصفات ذاتها، إذ لم يعد الإداريون يأخذون مصالح الرعايا بعين الاعتبار، وبدأوا يفقدون مثلهم الأخلاقية شيئاً فشيئاً ممّا أدى إلى إهمالهم لواجباتهم ومسؤولياتهم،

وانقسم عالمهم إلى فئتي «الحكام» و«الرعايا» الذين لم يكن وجودهم إلا لتلبية حاجات الفئة الأولى. وكانت النتيجة العملية لهذه التزعة هي وضع المقاييس المادية مكان المقاييس القديمة للكفاءة. وأصبح الباشا الجيد هو من يرسل المبالغ المطلوبة منه إلى الخزينة السلطانية من غير إبطاء. من هنا بدأ الفساد الذي وصفناه في الفصل السابق، وغدا من المألوف في بداية القرن الثامن عشر تقديم الترقيات بالرشوة والمحابة وعرض الوظائف بالمزاد العلني (ليس الإدارية منها فقط بل القضائية والدينية أيضاً)، بالإضافة إلى الأراضي والامتيازات بكافة أنواعها. لقد تأصلت جذور الإهمال، حتى لم يعد أمراً لا أخلاقياً بل أصبح من الطبيعة البشرية، ومن ثم غدا الحفاظ على الانضباط بين صفوف الجنود الأتراك مهمة مستحيلة بعد فقدان أسسه الطبيعية تجاه ذوي الرتب العليا. وقد أدى عجز الباشوات عن منع الإساءات وإمكانية رشوتهم بالمال إلى تشجيع الخارجين عن القانون والمتمردين الذين أصبحوا أكثر عنفاً وانتشاراً. مع ذلك كانت مواهب الطبقات الحاكمة التركية هي التي غرست في النفوس فكرة تفوقهم ليس فيما بينهم فحسب بل لدى الرعايا أيضاً، لدرجة أن تهديد النظام بأكمله لم يظهر بشكل جدي وبأعراض الانهيار الخطيرة (باستثناء الاضطرابات التي لحقت بصفوف الجيش الانكشاري) إلا في منتصف القرن. وقبل استمرارنا في الحديث عن ذلك، نجد أنه من الأفضل التفصيل في العلاقات التقليدية بين الحكومة والتنظيم الاجتماعي، بسبب الأهمية الكبرى التي تفرضها على دراستنا.

2. الحكومة والبنية الاجتماعية

لن نجد المراقب الغربي نظاماً يشبه نظام الإمبراطورية العثمانية بعد ما اعتاد عليه من المراتب الاجتماعية المنظمة والاستقرار داخل نظام يعتني بالحقوق المتبادلة بين الطبقات المختلفة والفئات الاجتماعية، وما يحيط به من إجراءات الحماية والضوابط القانونية، وقبول مشاركته في المؤسسات القضائية والإدارية. وبهذا يصل إلى نتيجة مفادها أن الحكم العثماني ما هو إلا نظام مستغل مؤذٍ لمصالح الرعايا الاجتماعية والاقتصادية ولا يفتقد إلى ضمان الأرواح والأموال ضد العنف والجشع ونزوات

الجنود فحسب، بل تقع ضحيته أيضاً كل أنظمة الزراعة والصناعة والتجارة. ولم يكن اللجوء إلى المحاكم القانونية ممكناً، إذ كان موظفوها مثلاً للرشوة والفساد كما كانت الأحكام الصادرة بحقهم مخادعة، بما أنها تعتمد على الدّعم من إرادة الإدارة والجيش أمام من تُوجه ضدهم. كان هذا هو الانطباع الذي تصوّره معظم الرّحالين والكتاب في القرن الثامن عشر⁽¹⁾ الذين كانوا يتعجبون لتحمل الناس لحكم مجموعة كالممالك، الذين تجمعت لديهم كل مساوئ الإدارة العثمانية بوضاعة أصلهم وعنف شخصيات حكمهم وعدم استقرار سلطتهم⁽²⁾.

وإن قراءة الوثائق الشّرقية المعاصرة والأوصاف والتحليلات الدّقيقة التي وضعها الموظفون الفرنسيون خلال فترة إدارتهم في مصر⁽³⁾ لتوضح تماماً أن الإدارة التّركية المملوكية لم تكن تلك الإدارة المتقلّبة المستبدّة كما كانت تُصوّر في كثير من الأحيان. من الصّحيح نظرياً أنه ما من نظام حكم يمكن أن يكون أسوأ منه ويؤدّي بهذه السّرعة إلى الاضطراب الاقتصادي والفوضى السياسيّة من ذلك النّظام الذي تمثله الفئة العسكرية من العبيد الأغراب الطّغاة المستبدّين الذين لا تربطهم أي صلة بالبلاد والنّاس الخاضعين لاستغلالهم، والذين لا يملكون من الطّموح سوى الوصول إلى التّفوذ والثّراء. لكن في الواقع، وبحلول منتصف القرن الثامن عشر كانت مصر قد

(1) لكن يجب أن نتذكّر أن أحكامهم ترتبط بشكل كامل تقريباً بالّتّصف الثّاني من القرن الثامن عشر، عندما كانت البنية القديمة آخذة بالانهيار لأسباب ذكرناها آنفاً.

(2) من بين الأوصاف اللطيفة العديدة للبكوات المصريين نذكر كمثال وصف جورج بولدوين George Baldwin إذ قال: «إن الممالك قطيع من الخنازير المتشرّدين الذين اختطفوا من جبال منغوليا Mingrelia والجرّكس وجورجيا، وأحضروا في عمر الشّباب إلى مصر، حيث تم بيعهم وختانهم وتدريبهم ليشقوا طريقهم إلى المجد والشّرف عن طريق الارتداد؛ وليحصلوا على القوة عن طريق الاغتيال والاستخفاف بالموت؛ ولم يكن يسود بينهم استقرار ولا نظام ولا أخلاق بل التّعطش الدائم للنّزاع والغيرة من القيادة» (*Political Recollections relative to Egypt*، لندن 1801، المقدمة ص 50-51. انظر فولني ج 1 ص 157-158؛ ولوكروي Lockroy «أحمد الجزار» ص 4-6 الذي تعدّ روايته خاطئة بكل تفاصيلها.

(3) بالرّغم من أنهم يشتركون أيضاً بالرّأي العام عن الإدارة التّركية - المملوكية.

عاشت أكثر من خمسمئة عام تحت الحكم المملوكي دون أن يصيبها الانحطاط والفوضى⁽¹⁾. لقد تدهور مستواها الاقتصادي دون شك خلال تلك الفترة (بدرجة كبيرة لأسباب خارجة عن مصر نفسها)⁽²⁾، وبقيت مساحات واسعة من الأراضي دون زراعة، ومن المحتمل أن عدد السكان قد تضاعف أيضاً بشكل ملحوظ⁽³⁾. ولولا الفتح العثماني لربما كان الانهيار قد حدث قبل أوانه، لكن من المنطقي أن نعتقد أنه بتخفيض الضرائب الثقيلة وترسيخ نظام إداري منتظم بشكل مقبول، فإن السلطة العثمانية قد هيأت (على الأقل إلى بداية القرن الثامن عشر) لسكان الأقاليم العربية فترة من الهدوء النسبي، بعد الكوارث التي لحقت بالحكومات المملوكية والتمورية والتركمانية.

مع ذلك يبقى التناقض قائماً بين حكومة لا مبالية رجعية لا تهتم بمصالح رعاياها، بل إنها مستبدة وعنيفة في التعامل معهم، وبين مجتمع ليس لتلك الحكومة أثر كبير في مؤسساته ونشاطاته. ويكمن تفسير ذلك في الافتقار إلى التنظيم السياسي المعقد والشامل. وكما سبق لنا القول يمكننا تصور المجتمع المسلم أنه مؤلف من مجموعتين متعايشتين معاً تربط بينهما صلات رسمية سطحية غالباً. إحدى المجموعتين تمثل الطبقة الحاكمة من الجنود والموظفين، أما الأخرى فهي طبقة التجار والحرفيين والفلاحين⁽⁴⁾. كان التنظيم الداخلي لكل مجموعة مستقلاً، ولم تكن إحداها تتدخل

(1) أدخل نظام الإقطاعيات إلى مصر عن طريق صلاح الدين (1171-1193) مع تعديلات لاحقة (عام 1315 ومرة ثانية بعد الفتح العثماني في عامي 1517 و1526) ثم بقي دون تغيير لغاية عهد محمد علي. انظر بيكر «*Steuerpacht und Lehnswesen*» في *Islamstudien* ج 1 ص 234 وما يليها، وفي دراسات پولياك Poliak.

(2) كانت أكبر مصيبة هي افتتاح طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند عام 1497 وما تلاه من تراجع التجارة الهندية مروراً بالبحر الأحمر.

(3) من غير الممكن الحصول على فكرة دقيقة عن عدد سكان مصر في العصور الوسطى، لكن من غير المحتمل أن يكون قد بلغ في القرن الرابع عشر أكثر من أربعة ملايين. وفي عام 1800 قُدِّر العدد بعد إحصاء دقيق بما يزيد قليلاً على 2,400,000 (Chabrol، ص 8)، لكن هناك أسباب ستقدم لاحقاً تدعو إلى اعتبار هذا الرقم أقل من الحقيقة.

(4) أما المكان الذي يحتله «رجال الدين» فسناقشه في الفصل الثامن من الكتاب.

في شؤون الأخرى في الظروف الطبيعية. منذ وقت طويل والطبقة الحاكمة تعيش على نسبة مئوية من نتاج الأرض، بالإضافة إلى ضرائب مختلفة على البضائع، وتكيفت البنية الاجتماعية للطبقة الأخرى مع هذه الحالة. وبالرغم من الثورات السياسية والمتعلقة بالأسر الحاكمة، فإن الاستقرار كان حاصلًا بسبب بقاء البيروقراطية مع كل تغيرات السلطة العليا، وبقيت الأعمال تجري كما هي دون تغيير يذكر. لقد حلّ أسيا د جدد مكان خلفائهم، وأعيد توزيع الأراضي لمالكين جدد لكن العلاقات بين المالك والفلاح، الضابط والحرفي، بقيت كما هي عليه بشكل عام⁽¹⁾. يمكن ملاحظة الحفاظ التام على البيروقراطية بأوضح صورته في مصر، إذ نجد أن وظائف المحاسبين المسلمين وبائعي الذهب والصيارفة اليهود ومخمنّي وجامعي الضرائب القبطيين في القرن الثامن عشر، لا تزال على حالها منذ القرن العاشر. يبدو ظاهرياً أن الهاشا أو البك يفعل ما يحلو له، لكن الحقيقة هي أنه ممنوع من إساءة استخدام سلطته بسبب احترامه وخضوعه للتقاليد من جهة⁽²⁾، والضغط الدائم للبيروقراطية من جهة أخرى، خصوصاً أنه قد علم بالتجربة أن المستوى المتقدم في الزراعة والصناعة إنما يصبّ في مصلحته الشخصية. وحتى التغيرات في الأسر الحاكمة كان له بعض الفائدة، ففي أثناء الفترة الطويلة من حكم أسرة مالكة كان الظلم يتأصل فيها ويتكاثر حتى يصل في بعض الأحيان إلى حدّ يهدّد استقرار المجتمع. وإن قدوم أسرة جديدة من شأنه أن يزيل هذه المساوئ ويحيي النظام القديم، كما أن نشاط وبعث نظر الحاكم الجديد يقودان إلى إحداث بعض الإصلاحات الصغيرة. تلكم هي حالة الفتح العثماني، وإن الخلل الحقيقي ليكمن في الفترة الطويلة جداً للحكم العثماني.

(1) لقد لاحظ معظم الرحّالين اللامبالاة التي أظهرها سكان مصر نحو التغيرات السياسية والتزاعات بين البكوات، نذكر علي سبيل المثال سونيني Sonnini الذي قال: «لم يكن التاجر يترك مكانه أو يغلقه، وكان الميكانيكي يعمل ببرود عند باب محله دون أن يبدي أدنى اهتمام بالأطراف المتنازعة (ترجمة إنكليزية ص 428). لكن الأحقاد الطائفية بين فرق الإنكشارية في دمشق وغيرها كانت مسألة مختلفة.

(2) قد يُظن أن هذا الأمر لا ينطبق على المماليك، لكنهم كانوا على العكس شديدي التمسك بالتقاليد كما تُظهر عدة مقاطع في تاريخ الجبرتي.

أما الأثر الآخر لهذه الأوضاع، فهي أن الفتح العثماني لم يتمكن من «عثمنة» الأراضي العربية. لم تكن الأرستقراطية العسكرية التركية ظاهرة جديدة في مصر أو آسيا العربية، وحتى البيروقراطية نفسها لم «تترك» تماماً، بل على العكس فإننا نجد أن أفراد الحاميات التركية (أو البوسنية بالأحرى) قد تزوجوا جيلاً بعد جيل مع السكان العرب وذاوبوا في الشعوب المحلية، لدرجة أنهم كانوا في كثير من الأحيان ينسون لغتهم التركية الأم. واستمر الهيكل الإداري بالحفاظ على الوظائف القديمة واصطلاحاتها العربية، وإن من يتمعن في تاريخ الجبّرتي سيدهش لبقاء المصطلحات الإدارية الاختصاصية منذ عهد السلطنة المملوكية، ونشك كثيراً في كون اللغة التركية قد تجاوزت نطاق الموظفين الكبار. ومما وقف في وجه أي ميل نحو «العثمنة» تزايد هيمنة قوات المماليك⁽¹⁾ الذين سعوا عمداً إلى ترسيخ تقاليد الفترات التي سبقت حكم العثمانيين⁽²⁾. أما في سوريا فقد كان التأثير العثماني أكبر، لكنه لم يتسرّب خارج حدود الطبقة الحاكمة، باستثناء حلب والمناطق الشمالية⁽³⁾. حتى العائلات الأرستقراطية لعلماء الدين في دمشق، بالرغم من صلاتهم الوثيقة بالعلماء الأتراك وزواجهم من العائلات التركية، فقد كانوا يبدون استياءهم ضد دخول العادات التركية في مجتمعاتهم⁽⁴⁾، ولم يكن على علم باللغة التركية إلا أولئك الذين درسوا في القسطنطينية⁽⁵⁾.

(1) ومن الجدير بالذكر أنهم كانوا لا يزالون يُعرفون في سوريا حتى القرن الثامن عشر بالاسم الذي كان يُطلق عليهم في القرون الوسطى أي «الغُر» *Guzz*. انظر حيدر ج 1 ص 93؛ الجبّرتي، مواضع متفرقة؛ لاين Lane «مصر الحديثة» الفصل الرابع العبارة الأولى.

(2) وأبرز صورة لذلك هي الكتابات الموجودة على قبر علي بك في مدفن الإمام الشافعي في القاهرة، وكان يلقب بألقاب كثيرة منها عزيز مصر ... المتوكل على الله ... الحاكم بأمر الله. (انظر G. Wiet مجلة الجمعية المصرية ج 15 ص 182-183).

(3) كان المؤرخ التركي الشهير نعيما (المتوفى عام 1716) من أهل حلب، كما يذكر المرادي عدة شعراء أتراك في حلب ونواحيها. ولغاية العصور الوسطى كان هناك عنصر تركي بارز ضمن سكان سوريا الشمالية.

(4) المرادي ج 2 ص 98.

(5) المرادي ج 2 ص 187.

وبهذا حمى توسط البيروقراطية عامة الشعب - أي الفلاحون والحرفيون والتجار - من التدخل الفعال للقوة العسكرية في تنظيماتهم ونشاطاتهم، وخلال فترة طويلة امتدت لقرون تمكنوا من إنشاء نظام مستقل صلب ومرن في آن معاً بحيث لم يكن ثباته مهدداً بالخطر. لقد تم تشكيل بنية المجتمع الإسلامي وفق تلك الأسس الاجتماعية والاقتصادية، بينما شكّل العبيد الأغراب والحكام والإداريون والتجار الأجنب البنية الفوقية التي كانت مؤمنة ضد الانهيار طالما إن الأساسات سليمة لم يصيبها أذى.

لكن وصف بنية هذا المجتمع بالتفصيل ستكون غير ناضجة، فمن الواضح عبر الدراسة الدقيقة أننا لن نتعامل هنا مع بنية متلاحمة، حتى داخل مقاطعة محدّدة، بل مع عدد كبير من فئات اجتماعية أصغر يمكن القول إنها تتمتع بالحكم الذاتي. لقد عرف أحد الباحثين الجدد هذا المجتمع بأنه «يتألف بشكل رئيسي من مجموعات إقليمية عائلية تستقرّ جذورها في آلاف المناطق المتباعدة، معظمها قرى تشكّل وحدات فيها حكم ذاتي واكتفاء ديني وحياة اجتماعية وسياسية واقتصادية»⁽¹⁾. وسيكون من مهمتنا القيام بتحليل كامل في الفصول القادمة للصلات الثلاثية المتضمنة في هذا النظام - تلك التي تربط بين الفرد والجماعة وبين الجماعات نفسها وبين الجماعات المختلفة والإدارة، مع الإشارة إلى بعض السمات المشتركة هنا.

أولاً، لا تحمل الجماعات أيّاً من الخصوصيات الاجتماعية أو الدينية للطوائف الهندية ولا يمكن أن ينظر إليها بأنها مشابهة لها أبداً. هناك ميل أكيد لاعتبار القوات العسكرية طائفة عليا لكن صلاتهم الاجتماعية الطبيعية تلغي هذا الاعتقاد تماماً؛ وتبدو الاعتقادات المشابهة بين الفئات الاجتماعية نفسها غريباً للفكر الآسيوي الغربي.

(1) انظر: A. D. A. de Kat Angelino «السياسة الاستعمارية» (ترجمة G. J. Renier, The Hague, 1931)، ج 1 ص 67-68. وتتم المقطع المقتبس هي التالية (باختصار): «لقد صبغت الأديان العظيمة كالإسلام حياة الناس بصبغة من الحضارة الدينية دون أن تجعلهم يفقدون الظلال السحرية لحياتهم الخاصة. إن التقاليد والحالة الاجتماعية ومصالح الجماعة تحدّد مكان ووظيفة الفرد وتنتقل إليهم وراثته. أما الكفاءة والميول فلم تكن تؤخذ بعين الاعتبار مما أدى إلى ندرة الكشف عن المواهب.

ينعكس هذا الأمر مجدداً من خلال مفهوم المساواة الدينية التي يعتمدها الإسلام والتي أسهمت بدورها في دعم مقاومة الأفكار الطائفية إن أم تكن قد حدثت تماماً من تقسيم المجتمع إلى طبقات. لقد كان لغياب الطائفية المتشددة دوراً في إضفاء صفة المرونة الكافية على النظام ليفسح المجال أمام المواهب والشخصيات الفذة لتشق طريقها نحو الأعلى؛ وهناك أمثلة كثيرة في مادة بحثنا عن أشخاص ولدوا في مجموعة معينة، ثم نالوا منصباً في مجموعة أخرى مما يمنحنا التأكيد بأن هناك حركة دائبة بين المجموعات وداخل كل مجموعة.

لكن الحقيقة هي أن مكان الولادة هو الذي يحدد لمعظم الناس موقعهم في الحياة ووظيفتهم ومركزهم الاقتصادي، ومن الطبيعي للابن أن يتبع والده والفتاة تتزوج عادة في القرية نفسها أو ضمن الجماعة المهنية ذاتها. وبالتالي عندما تعيش هذه الجماعات فترة طويلة (وهناك بعض منها ليس كذلك) فإن رابطة المهنة المشتركة تقوى برابطة الدم، ونجد أن المجتمع المهني أو القروي - إن لم يكن كبيراً - يتألف من أفراد عائلة واحدة متفرعة بشكل واسع. وقد ساعد مثل هذا التكوين نظام الإرث القانوني الإسلامي على تجزئة الأملاك إلى أقسام صغيرة، ثم إعادة تجميعها مما يؤدي إلى تلاحم المجتمع وتجانسه. ومن جهة أخرى فإن السيطرة القوية للتقاليد على سلوك الفرد في جماعته كان يدعم أكثر فأكثر بالصلات العائلية التي تربطه بباقي الأفراد، وبنظام العقوبات الذي كانت العائلة تمارسه. تخبو المبادرة الفردية في ظل تلك الظروف، بما أن كل الاعتبارات قد اجتمعت لتقنع كل فرد بأن مصلحته تكمن في الحفاظ على النظام داخل مجتمعه، وأنه ما من شيء يمكن أن يغريه باعتقاد وجود نظام أفضل.

أما الصلات التي تفصل الجماعات بعضها عن بعض فهي أقل انتظاماً، فالمجتمعات ذات الوظائف الاقتصادية المختلفة - كالفلاحين والحرفيين، أو الحرفيين والتجار - كانت ترتبط بالاقتصاد الطبيعي أو التقليدي لمقاطعاتها التي تكون عادة من النوع البسيط المباشر. كان التبادل الطبيعي للخدمات يقوم في المدن على أساس النقد، أما في المقاطعات الريفية فكان يقوم على أساس تبادل السلع. وباستثناء هذه الحالات

ومشاركة الجماعات في المناسبات المحلية والدينية أو ارتباط بعض الجماعات ببعضها على أساس الأخوة الدينية، يبدو الاتصال بين الجماعات المختلفة ضئيلاً نوعاً ما، وكانت كل واحدة تسكن حيّها الخاص في المدينة أو القرية أو ناحية من القرية في الرّيف، وفي بعض المقاطعات كان وجود الضغائن الطائفية يُعدّ حاجزاً مؤكداً في وجه العلاقات الاجتماعية.

كان لكل مجموعة من النّاحية الإدارية رئيس هو «الشيخ» المنتخب أو المعين، ويتم من خلاله التّواصل مع السّلطات الحاكمة. وكان مالكو الأراضي يتعاملون مع شيخ أو شيوخ القرية الذين يتولّون مهمّة حفظ النّظام وجمع الضرائب. وبالقابل فإن لكل جماعة صناعية أو تجارية شيخها الخاص بها، ويملك نفس المهمات من إدارة الأمور وجمع الضرائب، ويتعامل مع الضبّاط الحكوميين إما مباشرة أو عن طريق شيخ أكبر تمتدّ سلطته إلى عدد من الجماعات. وفي كل الحالات كانت هذه الصّلات مرتبطة بالتقاليد ارتباطاً وثيقاً، وكانت مرونة هذا التّنظيم إحدى وسائل الأمان الرّئيسية في البنية الاجتماعية. وكان العنف الذي يديه ضابط عسكري أو موظف حكومي أو عصابة من قطاع الطّرق يؤثّر بطبيعته على الجماعات الفردية، وعندما يزول تسترجع الجماعات عافيتها بسرعة. وفي الحالات الجديّة عندما تتلاشى المجموعة الأصلية، تنشأ مجموعة جديدة تعمل على إعادة بناء النّسيج الاقتصادي المهلهل - هذا إذا لم يتجدّد العدوان عليها. وعندما تحدث تلك الأمور (كما في الفترة الوسطى الأخيرة)، فهي تسبّب تقلصاً في القوة العددية والقدرة الاقتصادية للبنية الاجتماعية ككل لكنها لا تدمرها. وبشكل عام فإن سلوك الحكومة لا يمسّ إلا النّاحية السّطحية من حياتها، وقد يحدث اضطراب مؤقت هنا وهناك ويمكن للسياسة الجشعة قصيرة النّظر إحداث تدهور اقتصادي محليّ بإبقائها الأراضي دون زراعة أو فرض توقف أو تحويل فرع من فروع الصّناعة. ولكن طالما أن الجماعات نفسها، بأعضائها الإداريين القدماء بقيت سالمة، وطالما أن تدخل وظلم الحكام العسكريين محدود بالأرباح مع تجنب المساس برأس المال وأسلوب الحياة، فقد أظهر النّظام الاجتماعي قدرة رائعة على استعادة عافيته.

لقد تحدّثنا بشكل كافٍ عن الدور المهيمن الذي لعبته العادات والتقاليد في كل تلك العلاقات الدّاخلية والخارجية التي تتغيّر شخصيتها من مجموعة لأخرى ومن مكان لآخر حتى داخل المقاطعة نفسها. ومن الممكن أحياناً أن تعود هذه التقاليد في جذورها إلى ما قبل العهد الإسلامي؛ ففي مصر العليا تتصل أصولها بالحضارة الفرعونية. وبين الجماعات الصّناعية من جهة أخرى نجد أن التقاليد بأكملها مستقاة من العصور الوسطى، مع أن بعض العادات قد تعود إلى فترة مبكرة. وفي الواقع لم يكن قدم هذه التقاليد هو ما يجعلها عُرفاً مطلقاً؛ وإنما يكفي ترسيخ العادة، وإن كانت حديثة، لتتخذ الطّبيعة نفسها. وهنا تكمن قوتها في ارتباطها بالأفكار الدّينية للحكام والمحكومين، ولا يعني هذا أن السّلطة الدّينية للإسلام تفرض التزاماً دينياً أو شبه ديني بكل عادة على حدة⁽¹⁾، لكن احترام التقاليد هو دستور تؤكد عليه التعاليم الإسلامية بقوة. سنقوم باستطلاع العلاقة الوثيقة بين البنيّتين الدّينية والاجتماعية لاحقاً، ويكفي هنا القول إنه بالرّغم من الضعف الظّاهري للتقاليد، فلا يمكن لحاكم تركي أو مملوكي التفكير بالمساس بها.

ليس من المستغرب إذن أن تفوت الرّحالة الأوروبيين ملاحظة الارتباط الوثيق المقيد بقوانين غير مدونة، وخصوصاً أن احتكاكهم بالمجتمع الإسلامي كان سطحياً في أغلبه⁽²⁾. أما بالنسبة لنا فمن المهمّ جداً إعطاؤه حقه بما أنه نموذج لمؤسّسات المجتمع الإسلامي والحكومة الإسلامية على العموم. ليست هناك قوانين مكتوبة، سواء أكانت جزائية أم متعلقة بأمور أخرى، وإنما يوجد بدلاً عنها شبكة من الرّوابط التقليديّة تحافظ عليها الإرادة المشتركة، وقد دامت مدة ثمانية قرون من تقلبات الحكم

(1) وقد نتساءل إن كانوا أقروا أصلاً كمّ كبيراً من العادات والتقاليد في القرية والمدينة، لكننا نستطيع القول بالتأكيد إن رجال الدّين، العلماء منهم أو المتصوفون أو كلاهما، قد وقفوا إلى جانب التقاليد وتغاضوا عنها رسمياً، حتى ولو كانت تعود إلى فترة ما قبل الإسلام أو روحية في أصلها.

(2) من ذلك تعميم قولني عندما قال: «لا توجد قوانين ثابتة، وهذه الحالة الشّائعة في آسيا بأكملها هي السّبب الجوهرية لكل الاضطرابات في حكوماتها» (ج 1 ص 455). لا تخلو العبارة من الصّحة لكنها تسلط الضوء على النّاحية السّلبية فقط دون ذكر التّواحي الإيجابية لتلك الصّلة.

وجيوش الفتح، ولا تزال توجه المجتمع والحكومة معاً. وبشكل مشابه في الميادين الأخرى حيث يبدو للوهلة الأولى وجود مقدار كبير من الفوضى والاضطراب، وللعين الأوروبية، تجاهل تام للقانون والعدل، لكننا سنجد تقاليد تضع حدوداً للسلطات المتضاربة وتملي ما يمكن فعله وما لا يجب فعله، حتى ولو كان من الناحية العملية يخالف القانون المدون. وأخيراً لا يحدث سوء الفهم إلا بتعارض التقاليد مع مفهوم القانون ووظيفة القانون الإداري بشكل خاص⁽¹⁾.

ومن جهة أخرى، فإن نظاماً كهذا يملك عقبات خطيرة لا يمكن تفاديها، بالإضافة إلى المعاناة الشخصية والخسارة الاقتصادية التاجمة عن الانتهاكات المتكررة للقانون من قبل أفراد الطبقات الحاكمة والعسكرية. لقد وسّع الفجوة التي تفصل الناس عن الحكومة⁽²⁾ وخلق لديهم رضوخاً فاتراً تجاهها كشرّاً لا بُدّ منه، وهو يوطّد أيضاً عناصر التعارض الاجتماعي. كانت علاقاتهم المتبادلة مع الحكومة محدودة بنطاق جمع الضرائب المقترن غالباً بالعنف والقسوة⁽³⁾. لقد رأينا نتائجها من جهة الحكومة بشكل مشابه من اللامبالاة نحو مصالح الرعية وغياب محفزات التقدم أو الإصلاح. لكن بما أنه لا يمكن بقاء الحالة ثابتة، فقد ظل التوازن يبتعد عن مصلحة الشعب بواسطة التجاوزات الصغيرة المستمرة. لم يبقَ هناك سوى مؤسسة واحدة ذات صلات إيجابية بالناس سعت إلى إعادة التوازن، ألا وهي المؤسسة الدينية، وسنذكر في الوقت المناسب مدى نجاحها في تنفيذ تلك المهام⁽⁴⁾.

أما الانتقاد الثاني الموجه إلى النظام، فهو بُغضه للتغيير وبعده بالتالي عن التجديد

(1) انظر الفصل العاشر من الكتاب.

(2) لكنه لم يتسبّب بهذه الفجوة التي تُعد إرثاً للحضارة الإسلامية المستقاة من أسلافها في غرب آسيا والتي تعمقت بوجود السيطرة التركية العسكرية منذ القرن الحادي عشر.

(3) لقد أصبحت تلك الطريقة تقليدية جداً لدرجة أن المراقبين يؤكدون بأن الفلاح المصري كان يرفض دفع الضرائب إلى أن تُنتزع منه بالقوة، وكان أصحابه ينظرون إليه بازدراء إن لم يفعل ذلك.

(4) انظر الفصلين الثامن والتاسع من الكتاب.

والإبداع. إن كان لنا أن نحكم على ذلك من خلال الحياة الفكرية، نجد أن التجديد موجود لكنه مقموع بزعم أنه يتعارض مع مصالح الجماعة، وفي حال عدم التمكن من قمعه يتم تجاهله تماماً وتختفي كل منجزاته⁽¹⁾. لن نعرف أبداً إن كان هناك «جاكار» عربي صمم نولاً متطوراً أو «واط» تركي اكتشف طاقة البخار، لكننا نؤكد أنه في حال وجود مثل هذه الاختراعات فلن يكون لها نتائج فاعلة. في الواقع كانت البنية الاجتماعية ككل تتصف بحضارة ثابتة أو رجعية، وهنا تكمن نقطة ضعفها. ولا نبالغ إذا قلنا إن عمليات الزراعة والصناعة والتجارة والتعليم قد أصبحت بعد قرون عديدة من الجمود عمليات آلية نتج عنها أنواع من الضمور، جعلت القائمين عليها غير قادرين على تغيير طرقهم أو التطلع إلى المستقبل ولو بأقل درجة.

لقد اتسم المجتمع الإسلامي الآسيوي في القرنين السابع عشر والثامن عشر بعدم القدرة على التعلم، وليس عدم الرغبة فيه⁽²⁾. ولم تعد العقول المجذبة قادرة على تصوّر أية فكرة تخرج عن الأفق الضيق لخبرتها وتقاليدها، كما لم تعد قادرة على مواجهة أيّ وضع يتجاوز الطريقة الروتينية المألوفة. وطالما أن الأقاليم العثمانية تعيش ضمن نظام فكري واقتصادي واجتماعي مغلق، بقي هذا النظام يخدم أهدافه بالرغم من تضائل المردود بشكل مستمر. ولكن أثناء القرن الثامن عشر اجتمعت عوامل عدة لتخلّ بالتوازن القائم، وبالأخصّ في المجالين الاقتصادي والعسكري، وخلقت مشاكل جديدة لم يتمكن التنظيم القديم من التعامل معها. وكانت النتيجة أن تحول النظام الاجتماعي إلى ضحية يائسة للحلول العنيفة التي مزّقت الغطاء الواقعي

(1) يمكننا ذكر مثال نموذجي على ذلك هو الطبيب ابن النفيس (المتوفى عام 1288 م) الذي اكتشف مبدأ الدورة الرئوية لكن تم تجاهل الأمر من قبل أطباء الأجيال اللاحقة ونسي اسمه كما نسي عمله. انظر ملحق الموسوعة الإسلامية.

(2) لكن ذلك شجع على عدم الرغبة بالتعلم، ويقدم لنا المؤرخ الجبرتي مثلاً مذهلاً إذ يؤكد (كتفسير للتقدم الميكانيكي في أوروبا) أنه في عام 1746 جاء عدد من الفرنجة ليدرسوا الرياضيات على يد والده، ولدى عودتهم إلى أوروبا قاموا بتعليم ما تعلموه وترجموه من النظرية إلى التطبيق، مخترعين بواسطته أجهزة رائعة كطواحين الهواء وآلات جزّ الأجسام الثقيلة، وآلات لرفع المياه من الآبار... إلخ. (ج 1 ص 397، ج 3 ص 191).

من التقاليد وعرضت مؤسساته للانهايار⁽¹⁾. سنقوم بتفصيل طبيعة وآثار هذه العملية في الفصول القادمة بعد أن تحدثنا عن أسبابها بشكل مختصر من خلال التطور السياسي والعسكري والاقتصادي أثناء القرن الثامن عشر.

3. الأقاليم العربية في القرن الثامن عشر

إن من أهم أسباب الاضطرابات التي ابتليت بها الرعية والإدارة معاً في كل أنحاء الإمبراطورية تقريباً، الصراع بين السلطة المركزية المتمثلة بالباشا، وطموحات القوات المحلية والأحقاد التي بينها، مضافاً إليها فوضوية القبائل البدوية في كل الأقاليم العربية، وعناد الأكراد في شمال العراق. ولقد فشلت القوانين التي أمل السلطان سليمان في إرساء قواعدها، وهو أمر بالغ الصعوبة، بسبب فشل الباشوات في مواجهة تجاوزات أفراد الجيش الانكشاري⁽²⁾ الذين كرهوا السيطرة الانضباطية الصارمة والسلطة المالية اللتين خضعوا لهما وسعوا إلى زيادة نفوذهم ونصيبهم في الإدارة المحلية. في السنين الأولى من القرن الثامن عشر أصبح الصراع أكثر حدة، وقاد في كثير من الأحيان إلى اشتباكات مسلحة بين الأحزاب المختلفة. لقد تنبه الباب العالي إلى العنف والفوضى المتزايدين، لكنه تردد بين المحافظة على سياسته التقليدية بإحداث تغييرات مستمرة، وبين إبقاء القيادة بيد باشا أظهر قدرته على قمع روح الثورة والتمرد بالقوة والعنف. لقد أثبت حسن باشا في العراق مقدرة عالية (وكان قد عُيّن في بغداد عام 1704) في إخضاع ومعاقبة القبائل العربية مما جعل استبداله أمراً بعيداً، بالإضافة إلى أنه كان يرسل الجزية المحصلة من مقاطعاته بانتظام إلى العاصمة⁽³⁾.

(1) قارن في تاريخ الجبّرتي بين شكواه ضد علي بك ج 1 ص 258 / ج 2 ص 235) ثم تأسفه على زمانه (ج 1 ص 383 / ج 3 ص 162-163).

(2) تستخدم كلمة الإنكشارية من قبل الكتاب الأوروبيين والآسيويين على حد سواء في القرن الثامن عشر للدلالة على الفرق المحلية أو مجموع الأوجاقات، بالرغم من أن الإنكشارية لا تشكل سوى أوجاق واحد بين الأوجاقات الأخرى.

(3) كان ومعظم خلفائه يملكون حكومات البصرة وماردين. من أجل هذه الفترة من التاريخ العراقي انظر لونغريغ Longrigg ص 123 وما يليها.

وإن انتقال القيادة إلى ابنه أحمد في أزمة الحرب مع فارس (1724) كان بداية لتأسيس أسرة حاكمة. قام الأب وابنه بتنظيم قوة مملوكية خاصة على نمط السراي العثماني، وقد قام أحد المماليك، سليمان آغا، وهو كاخية أحمد باشا وصهره، بأعمال بطولية في الحروب العربية ونال ترقية إلى رتبة باشا. وبعد وفاة أحمد عام 1747 حاول الباب العالي فرض سلطته على بغداد، لكن الجيش الإنكشاري هناك قاوموا الأشخاص المعيّنين من قبل الباب العالي، وفي عام 1749 دخل سليمان المدينة، وكان حينها باشا البصرة، وأصبح أول باشا مملوكي تلتها سلسلة من بعده دام حكمها المستقل حتى عام 1831⁽¹⁾. أما الموصل التي كانت تنجذب إلى مدار جارتها الكبرى، فقد استمرت باستقبال الباشوات بشكل رسمي سنوياً من إسطنبول لكنها بقيت مدة قرن من الزمان في قبضة عائلة الجليلي⁽²⁾ Calîlî.

كانت حكومة العراق أقل تنويراً من الحكومة العثمانية لكنها كانت، حتى نهاية القرن على الأقل، أكثر ثباتاً وشدة وأقل تأثراً بالأحداث الخارجية بسبب بعدها عنها، أما سوريا فقد اختبرت كل تأثيرات الحكم الضعيف المرتشي في إسطنبول⁽³⁾. ومن جهة أخرى فقد انتفعت سوريا مادياً أكثر من أية مقاطعة آسيوية بانضمامها إلى الإمبراطورية العثمانية، وذلك نتيجة للصلات التجارية التي نشأت بينها وتمتعت بحياة اجتماعية واقتصادية مزدهرة. وبالرغم من أحداث الشغب العسكرية وطمع الباشوات وجامعي الضرائب والأعراب والأوبئة والمجاعات التي ملأت الزمان في حلب ودمشق، فما من شيء يدعو

(1) مع أن المماليك كانوا خاضعين شكلياً لدفع المعونات المنتظمة من واردات مقاطعاتهم، فقد كانوا في أغلبهم من الأتباع الذين لا يدفعون الجزية (انظر Longrigg ص 199). وكان انتقال السلطة في النظام المملوكي متوارثاً لكن ذلك لا يعني انتقالها من الأب إلى الابن بل من السيد إلى العبد المعتقد (الذي كان صهراً لسيدته في أغلب الأحيان).

(2) انظر أوليفيه Olivier ج 2 ص 361-363، وإعجابه الواضح بمحمد باشا الجليلي (1789-1807).

(3) أو كما تدعى في الكتابات الشامية المعاصرة باسم إسلامبول أي «مدينة الإسلام» أو بالتركية «ذخر الإسلام». وقد ظهر التعبير أول مرة على التقود في عهد السلطان أحمد الثالث (1703-1730). انظر لايين پول «العملات المعدنية ص ٤٧».

للقول بأن البنية الداخلية للبلاد قد واجهت كوارث خطيرة لغاية عام 1750. لقد قسمت القوات النظامية في المدينتين إلى مخيمين، ففي حلب كانت فرق الإنكشارية في حالة عداء مع الفرق المحلية التي تفخر بأنها من سلالة النبي، وكان أفرادها يُعرفون بالسادة أو الأشراف. وفي دمشق كانت الطوائف المتعارضة هي فرق الإنكشارية الإمبراطورية أو القايي قول⁽¹⁾ *Kapıkul* والإنكشارية المحلية أو اليرلية *Yerliya*. ومن أجل الحفاظ على النظام كان باشوات مجبرين على الاحتفاظ بجيش خاص يُجنّد خياله (الذين يدعون دلي *Delis* أو لاوند *Levends*) من بين التُركمان أو أكراد الشمال، بينما يجنّد مشاته من المهاجرين الجزائريين والتونسيين الذين يعرفون باسم البربر *Barbaresques* أو المغاربة⁽²⁾ *Mağâriba*. لم تكن هذه الوسيلة ناجحة تماماً إذ أنها أضافت، تحت ظل الحكام الواهنين، طائفة ثالثة إلى الطائفتين المتواجدين وغدت أرضاً خصبة للاضطراب والفوضى⁽³⁾. وعلى الرغم من القمع المستمر، فإن عنف الأشراف والإنكشارية ازداد سنة بعد سنة وخصوصاً في حلب، مما سبب فشل التنظيم الإداري، وأدى بترافقه مع غارات الأعراب (التي سنذكرها في نهاية هذا الفصل) إلى خلوّ الأرياف من سكانها. يؤكد قولني عام 1785 (ربما بشيء من المبالغة) أنه من بين 3,200 قرية في مقاطعة حلب المدرجة في قائمة الضرائب لم يبق سوى أربعمئة، وأن الجزء الأكبر من هجرة السكان قد حدث في العشرين سنة السابقة⁽⁴⁾.

(1) يعرف المُرادِي (ج 2 ص 61) القايي قول بأنهم القوات والمستخدمون الحكوميون في الوظائف الحكومية في دمشق. وكانوا في الغالب ينضمّون إلى أفراد حاميات القلعة، لكننا لا نعلم إن كان هؤلاء يُعدّون من القايي قول أم لا.

(2) انظر قولني ج 2 ص 46؛ حيدر ج 1 ص 40-45؛ المُرادِي ج 1 ص 107؛ لوكروي ص 38. يذكر حيدر ج 1 ص 104 مثلاً عندما استأجر أحد زعماء الدروز قوات من المغاربة من الحكومة في دمشق.

(3) انظر الغزّي *Gazzi* ص 306-307. لقد مُنح باشوات حلب من الدخول عدة مرات مما اضطرهم إلى محاصرة المدينة، المصدر السابق. وهناك إعدام لعدد كبير من الإنكشارية في حلب، المصدر السابق ص 299. ومذبحة الأشراف: أوليفيه ج 2 ص 309-312.

(4) قولني ج 2 ص 46-47؛ رسل ص 15-16، أوليفيه ج 2 ص 312. حول سلب ونهب العرب انظر الغزّي *Gazzi* ص 295-298 وأوليفيه ج 2 ص 301؛ وحول ثورة الأشراف عام 1770 انظر

صحيحٌ أن دمشق شاركت حلب في معظم محنها، لكنها تجنبت أسوأ آثارها بظهور عائلة مرموقة انفرد أفرادها وتابعوها بالپاشوية في جنوب سوريا لستين عاماً. لقد وطدت دعائم حكمها، كما عائلة حسن پاشا، بفضل الخدمات التي قدّمها مؤسسها في أوقات الشّدة، فأثناء حكومة عثمان پاشا، المعروف بأبي طوق (1721-1724)، Abû Tawk وصلت الاضطرابات بين القاهي قُول والانكشاريّة اليرليّة حدّاً لم يسبق له مثيل، لكن الباب العالي لم يتمكّن من النّظر إلى الأمور في دمشق بنفس اللامبالاة التي كان ينظر بها إلى غيرها. لقد كانت هيبة السّلطان كزعيم للإسلام الشّنة مرتبطة بالحج إلى مكة، وكانت دمشق مكان التّقاء وانطلاق قوافل الحجاج الضخمة من كل الأقاليم الشّمالية، وكان پاشا دمشق يتمتّع بلقب أمير الحج ويوكل إليه القيام بالترتيبات اللازمة لمرافقة القوافل وتزويدها بالمؤن⁽¹⁾، وقيادتها بنفسه مع فرقة من القوات تكفي لحمايتها من غارات بدو جزيرة العرب.

وبهذا كان اندلاع اضطرابات مستمرة في دمشق من شأنه أن يهدّد أمن الحج، وفي عام 1724 استبدل عثمان پاشا بشخص يدعى إسماعيل يعرف باسم العظم⁽²⁾، وهو ابن جندي سابق في الحامية وپاشا صيدا آنذاك. قام إسماعيل پاشا بقمع القلاقل وأعدم المذنبين الرئيسيين وأرسى قواعد النّظام في المدينة بمساعدة مجموعته من ممالك البوسنة والمغاربة إلى حين عزله عام 1730⁽³⁾. وبعد فترة قصيرة عُيّن أخوه سليمان في الپاشوية، وبسط سلطته بنفي عدد كبير من الانكشاريّة الذين لجؤوا إلى لبنان واعتاشوا على السّلب والنّهب، حتى سُمح لهم بالعودة فقط ليلقى القبض عليهم ويُقتلوا.

شارل رو Charles Roux «Écheltes» ص 213-215.

- (1) كان الجزء الأكبر من عائدات الإيالة مخصصاً لهذا الغرض. انظر الفصل السابع من الكتاب.
- (2) إن اللفظة السّورية المحليّة للكلمة هي «العضم»؛ وأيضاً ظاهر تلفظ «ضاهر».
- (3) انظر التّراخي ج 2 ص 84؛ كرد علي ج 2 ص 289. لا يُعرف تماماً أصل عائلة العظم، لكن يُعتقد أنهم من التّركمان الذين سكنوا المعزة حيث وُلد إسماعيل عام 1660. يقول بوكوك ج 2 ص 124 إن القوات البوسنية للپاشا كانت تتغير بشكل مستمرّ لمنعهم من تشكيل صلات مع المدينة.

تصادف أن كانت حكومة سليمان متزامنة مع ظهور الشيخ ضاهر العُمر في شمال فلسطين وتوفي عام 1742 أثناء حصاره لظاهر في طبريا⁽¹⁾. خلفه ابن أخيه أسعد باشا العظم، باشا صيدا سابقاً، الذي تضاعفت صعوبة مهمته مع التيرلية بظهور العداء ضد الدروز في لبنان⁽²⁾. كان التيرلية تحت حماية الدفتردار سيد فتح الله⁽³⁾ وهو زعيم عائلة ثرية ذات جذور متأصلة في الخدمة الرسمية في دمشق. اضطر أسعد باشا أخيراً إلى طلب الدعم من إسطنبول والسماح له باستخدام أقصى الأساليب، وفي عام 1746 أعدم فتح الله ودُبح عدد كبير من التيرلية الإنكشارية مما أثلج صدر سكان المنطقة⁽⁴⁾. تم إرسال دفتردار جديد من إسطنبول، وخلال فترة توليه الباشوية لعشر سنين استتب الأمن والنظام وسارت شؤون الحكومة بهدوء واستقرار. يمتدح فولني أسعد باشا فيقول: «لقد قام بعدد لا محدود من الأمور الجيدة، وأرسى قواعد النظام والانضباط بين قواته لحماية الفلاحين ممن عاثوا الفساد والدمار»⁽⁵⁾. لكن الخدمات التي قدمها باشوات عائلة العظم لمقاطعة دمشق وللباب العالي لم تنج من الشكوك التي ألقاها الديوان بشأن ميولهم وأهدافهم. أثناء الحكم الطويل لأسعد باشا في دمشق مُنحت باشوية صيدا وطرابلس إلى أشخاص من أقربائه وأتباعه بحجة كبح طموحات ضاهر العُمر، وفي عام 1755 حصل أيضاً على باشوية حلب. في الوقت نفسه تمت ترقية حسين آغا، نائبه في القدس والمعروف باسم ابن مكّي، إلى رتبة باشا واستقل عن

(1) حيدر ج 1 ص 34؛ فولني ج 2 ص 3. يروي المُراد ج 3 ص 184 أنه تم تسميته من قبل أحد رجال حاشيته بتحريض من ضاهر العُمر (تظهر في النص كلمة عكا خطأ بدلاً من طبريا).

(2) حيدر ج 1 ص 34.

(3) أي فتح الله الفلاقنسي الدفترلي. (أحمد)

(4) يذكر المُراد ج 3 ص 286-287؛ ج 4 ص 38 أن أسعد باشا قد دفع ألف كيس من التقود للباب العالي من أجل الفرمان الذي يسمح بالمذبحة ومصادرة أملاك فتح الله.

(5) فولني ج 2 ص 137. انظر أيضاً ملاحظة المُراد بشأن درويش، آغا التيرلية بعد عام 1746، مادحاً سيطرته الحازمة على قواته. المُراد ج 2 ص 108. (وكان درويش خال المُراد).

دمشق، وفي عام 1756 استقرّ حسين في دمشق⁽¹⁾ بينما فرّ أسعد إلى الصّحراء⁽²⁾. لكن هذه المحاولة للقضاء على عائلة العظم أتت بويلات كبيرة، فقد دخل ابن مكّي إلى دمشق قبل زمن قصير من اندلاع الاضطرابات والعداوات العسكرية وتجدد أعمال العنف؛ وما زاد الطّين بلة أن قوافل الحجّ العائدة من مكّة في أواخر صيف عام 1757 قد هاجمها الأعراب وحاصروها في تبوك ثم قاموا بنهبها⁽³⁾. فرّ البابا إلى غزة⁽⁴⁾ تاركاً دمشق للاضطراب والفوضى، وشارك الدّروز بمساعدة التّيرلية ضدّ القايي قول. وفي نهاية عام 1758⁽⁵⁾ أو بداية عام 1759 أرسل الباب العالي عبد الله باشا الجتّه جى 'Abdallâh Paşa Çatacî' من حلب إلى دمشق مصطحباً قوة كبيرة قامت بمساندة القايي قول، وبعد قتال مرير (لم تكن له الغلبة فيه دائماً) نجح في استعادة التّظام⁽⁶⁾. وبعد وفاته عام 1761⁽⁷⁾ استعادت عائلة العظم مركزها، ولمدة عشر سنوات استلم الحكم عثمان باشا الملقب بالصّادق، وهو مملوك جورجي سابق من ممالك أسعد

(1) كان جد حسين تاجراً ثرياً من تجار غزة، وقد التحق ابنه محمّد بخدمة باشا دمشق ونال رتبة كاخية أسعد باشا، وحصل على ملكية غزة. بدأ عمل حسين مع حكومة هذه المنطقة ومن ثم عُين في القدس وكان في عام 1756 باشا صيدا (المُرادي ج 2 ص 60-61). ويذكر فولني رواية عن الدّسائس التي سبقت تعيينه في دمشق.

(2) وآتهم فيما بعد بالتحالف مع الأعراب وقُتل في أنقرة، وصادر الباب العالي ثروته المقدرة بثلاثة ملايين قرش. المُرادي ج 4 ص 210؛ حيدر ج 1 ص 55؛ فولني ج 2 ص 242. وقد صودرت أيضاً ثروة خليفته سليمان بعد وفاته. المُرادي ج 3 ص 285.

(3) المُرادي ج 2 ص 61-62؛ فولني ج 2 ص 140.

(4) ثم أعيد إلى السّلطة وتولى باشوية مرعش، لكنه رجع في التّنهاية إلى غزة حيث احتفظ بجيش خاص ثم قُتل في اشتباك مع قوة من بني صخر عام 1783، وصودرت أملاكه كالعادة (المُرادي ج 2 ص 62).

(5) هناك وصف معاصر لسنة الفوضى تلك لكرد علي «خطط الشّام» ج 2 ص 296-297 (لكنها أرخت عام 1161 خطأ).

(6) المُرادي ج 1 ص 98، ج 3 ص 207؛ الغزّي Gazzî ج 3 ص 301؛ حيدر ج 1 ص 45. يمتدح فولني في كتابه ج 2 ص 146-147 عبد الله باشا، لكن القصة الرّومانسية التي رواها (ص 143-145) عن أصله وبداياته تبدو خاطئة.

(7) يقول فولني (ج 2 ص 147) إنه قد سُمّم من قبل ابن أخيه.

پاشا. لقد أرغم تزايد نفوذ ضاهر العُمر الباب العالي على الإقرار بتعيين أفراد آخرين من عائلة العظم وأتباعها (بمن فيهم أبناء عثمان نفسه) لتسلم پاشوية صيدا وطرابلس، وربما حلب أيضاً؛ تم دعم طريق الحج من جديد واستقرّ النظام⁽¹⁾، باستثناء الغزو والقتال المستمرّ في وادي البقاع بين قوات پاشا وأمراء الدروز⁽²⁾. ولقد فوجئ كل من عثمان والحكومة العثمانية باجتياح سوريا من قبل مماليك علي بك في مصر، يقودهم محمود بك أبو الذهب بالاتفاق مع ضاهر العمر، واستسلمت دمشق بعد مقاومة قصيرة جداً عام 1771. لكن أبا الذهب استقال من منصبه بشكل غير متوقع وتمّ تعيين عثمان آخر يعرف باسم المصري في دمشق، وأوكلت إليه مهمة تسوية الأمور مع ضاهر العُمر⁽³⁾، لكنه فشل في ذلك وعُيّن بدلاً منه محمّد پاشا، وهو من سلالة العظم من جهة الأم، عام 1773 الذي تمكن من المحافظة على النظام الداخلي والخارجي مدة عشر سنين، إلى أن توفي عام 1783 مخلفاً سمعة طيبة بأنه كان أفضل حكام دمشق خلال القرن⁽⁴⁾.

لقد كانت وفاة محمّد پاشا العظم نهاية المناعة النسبية لدمشق، إذ تجددت الاضطرابات المعتادة، وبعد صراع طويل مع المواطنين طُرد إبراهيم دلي پاشا (1786-1790) من دمشق ولم يتمكن من استعادة السيطرة عليها إلا بالاستعانة بقوات من حمص وحماة⁽⁵⁾. وخلفه أحمد الجزّار Aḥmad Cezzâr پاشا صيدا الذي فُتحت

(1) مع أن حكومتهم في الأقاليم لم تخلُ من المفاسد. انظر كرد علي ج 2 ص 291.
(2) المُرادى ج 3 ص 161؛ حيدر ج 1 ص 35، 66-67، 90، 92؛ فولني ج 2 ص 13.
(3) حيدر ج 1 ص 92-104. انظر لوكروي ص 52-65 الذي لم يميز البابشتين صاحبي الاسم ذاته.

(4) المُرادى ج 4 ص 97-102.
(5) ميخائيل الدمشقي ص 5-6؛ وحول إدارة نابه الجيدة في بعلبك انظر حيدر ج 1 ص 149. منذ عام 1730 ارتبطت حماة وحمص بدمشق كإقطاعيات ملكية للپاشوات وحازتا على مزية حمايتهن لهما. لكن المدينتين كلتيهما، وبالأخص حماة - التي وجدها بوكوك (ج 2 ص 144) عام 1730 في حالة جيدة من الازدهار - قد عانتا من سلب الأعراب لهما. انظر المُرادى ج 3 ص 161، وج 3 ص 12 أن 15؛ فولني ج 2 ص 173.

بتسلّمه الهاشوية لمُدّة خمس سنوات صفحّة جديدة من المآسي والأحزان.

اقتصَر التنظيم العثماني الأول لسوريا على ثلاث إيالات هي: حلب والشّام (دمشق) وطرابلس. وفي عام 1660 بعد التّصفية التّهاية لأمرّاء المعنّيين الدّروز في لبنان⁽¹⁾، تشكّلت إيالة رابعة في المناطق السّاحلية لإيالة الشّام ومقرّها صيدا. كانت مهمّة الإيالة الجديدة إبقاء الدّروز والموارنة في جبل لبنان تحت المراقبة، ومنع، بالتعاون مع مقاطعة طرابلس، قيام اضطرابات جديدة. ولكي يكون الأمر أكثر فاعلية تمّ التعاون مع دمشق في الأوقات العصيبة حيث أصبحت باشوية المنطقة السّاحلية تابعة عملياً لپاشوات الشّام. وفي النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر تضافرت المشاكل المتجدّدة للدّروز وزعماء المرتفعات الجبلية الأخرى مع الصّلات الوثيقة مع مصر والانفتاح على التّعامل مع التّجار الأوروبيين⁽²⁾، لتضفي على باشوية صيدا أهمية غير متوقّعة كمركز للأهداف الجديدة التي بدأت تتكشف منذ ذلك الحين في المقاطعات الآسيوية، وكان أول من استغلّها الشّيخ ظاهر العُمر.

كانت بداية مسيرة الشّيخ ظاهر مرتبطة بعداوات قيس واليمن، التي أقصّت مضجع لبنان وسوريا الجنوبيّة. وفي عام 1698 ظهر الشّيعَة المتاولَة بقيادة شيخ يمني وكانوا يقطنون المنطقة الجبلية الواقعة بين بحر الجليل وصيدا. قام الأمير الدّرزي بشير الأول وبالتّحالف مع پاشوات صيدا وطرابلس بقمع هذه الثّورة وتنصيب ظاهر كشيخ على صفد، وهو ينحدر من عائلة قيسيّة سنيّة ذات نفوذ في المنطقة⁽³⁾. وفي عام 1705 عُيّن حاكماً على صفد وعكا⁽⁴⁾، وعمل طوال ثلاثين عاماً على تقوية مركزه عن طريق

(1) من أجل ثورة فخر الدّين الثّاني بن معن (1585-1635) انظر H. Lammens «سوريا» (بيروت 1921)، ج 2 ص 66-90؛ F. Wüstenfeld «Drusenfürst der Din-ed Fachr» (1886، Göttingen).

(2) بالرّغم من وجود قنصليات ومنشآت أوروبية في حلب، فقد كان من المستحيل وجود مثلها في دمشق. انظر فولني ج 2 ص 152.

(3) كانت العائلة تُعرف ببني زيدان. انظر المُرادِي ج 3 ص 184؛ حيدر ج 1 ص 6.

(4) حيدر ج 1 ص 8. (لا يمكن الوثوق دائماً بتاريخ وحقائق حيدر).

إخماد العداوات المحليّة قدر المستطاع ودفع الجزية بانتظام والانتصار على المتأولة. وبحلول عام 1742 كانت قوّته قد بلغت قدراً كافياً ليحتل طبريا ويقاوم سليمان باشا والي دمشق، وفي عام 1750 قام بتحسين عكا ضد هجمات أسباده السابقين من أمراء الدروز⁽¹⁾. وهنا عمل على اجتذاب التجّار الأوروبيين بتوجيه من خادمه المسيحي السوري إبراهيم الصّباغ⁽²⁾ وبدأ بممارسة احتكار البضائع الرئيسيّة في منطقته لإعالة جيشه الكبير⁽³⁾. وبهذا تصعدت شكوك وعداوة الباب العالي، ونتيجة لصراعه مع عثمان باشا الصّادق تحالف ظاهر مع علي بك في مصر وساهم في نجاح الاجتياح المملوكي عام 1770-1771. ولقد اعترف به رسمياً عند احتلاله لصيدا عام 1772 كحاكم للباشوية⁽⁴⁾، وفي العام التالي تحالف مع أمير الدروز يوسف وسدّد ضربة موجعة لجيوش دمشق، وتعاون مع الخيّالة الرّوس على طرد جزار باشا من بيروت⁽⁵⁾. وفي عام 1774 تلقى فرماناً رسمياً بالعمفو⁽⁶⁾، وفي عام 1775 قام اجتياح مملوكي آخر بالقضاء على قوته وجاءته الضربة القاصمة على يد القبطان باشا العثماني حسن الذي

(1) حيدر ج 1 ص 43. انظر لوكروي «أحمد الجزار» ص 33 وما يليها.

(2) كان ملكياً يونانياً بابوياً. انظر حيدر ج 1 ص 113؛ لمان ج 2 ص 105. وهناك صورة له في كتاب فولني ج 2 ص 36: «لم يكن يرتدي سوى الملابس القذرة الممزقة. لدى النظر إلى هذا الرّجل التحيل الأعور نظنه شحاذاً وليس وزيراً ذا مكانة مرموقة». بينما يدعو لوكروي ص 43 خطأ باليهودي.

(3) فولني ج 2 ص 29؛ شارل رو «*Les Échelles de Syrie*» ص 68. يقدر فولني عدد قواته عام 1770 بـ 1,500 خيّال من صفد، و1,200 خيّال من المتأولة، و1,000 من المشاة المغاربة (ج 1 ص 110)، ولكن في عام 1772 قدر العدد بـ 5,000 إلى 6,000 خيّال و1,000 من المغاربة (ج 2 ص 22). وكان محاربوه المتقنون من المتأولة يدعون الفداوية *fidāwīs* - وهو مصطلح غريب يعود إلى السفاحين الإسماعيليين أيام الحروب الصليبية. انظر المرادي ج 1 ص 57؛ حيدر ج 1 ص 79.

(4) وفقاً لرواية حيدر ج 1 ص 100، ويضيف أنه تعهد بدفع مبلغ قدره 450 كيس سنوياً بالإضافة إلى 1,000 كيس عن المستحققات المتأخرة.

(5) حيدر ج 1 ص 98-99، 103-104؛ لوكروي ص 86-97.

(6) ورد كاملاً في كتاب حيدر ج 1 ص 107-108.

حاصر عكا واستولى عليها في العام نفسه⁽¹⁾. اغتيل ضاهر من قبل متمرّدين من فريق المغاربة الخاص به واعتقل إبراهيم الصّباغ وتمت مصادرة كل أملاكه⁽²⁾.

قام أحمد الجزار بلملمة الإرث المادي والإداري لضاهر العُمر وحصل بعد مسيرة محفوفة بالمخاطر على باشوية صيدا لدى استردادها⁽³⁾، وعمل دون إبطاء على استئناف وتطوير منهج الشّيخ ضاهر، فأعاد بناء حصون عكا بأقوى ممّا كانت عليه، وأسس جيشاً خاصاً قومه أربعة آلاف من البُشناق (البوسنيين) والأرناؤوط والمغاربة والبدو⁽⁴⁾، واحتكر المنتجات بأكملها⁽⁵⁾ وأقام صلات تجارية مع التّجار الأوروبيين كما شرع ببناء أسطول، وقام بتضمين المقاطعات وجمركة إيالة بأسعار مدمرة⁽⁶⁾. ولم يكتفِ بالأرباح الضخمة المحصّلة بل امتلك باشوية دمشق عام 1790 (مع الاحتفاظ بصيدا وطرابلس)، وأعاد هناك ممارسة أعماله الابتزازية.

يقول المؤرخ الدمشقي: «في الحقيقة، لم ينعم الشعب بشهر واحد من الرّاحة أثناء

(1) حيدر ج 1 ص 112-113، ويرجع ذلك لعام 1775؛ المُراد ج 3 ص 184، ويرجعه لعام 1776. انظر لوكروي ص 120.

(2) وتقدر بـ 20 مليون فرنك فرنسي (= 8,000,000 قرش). انظر ثولني ج 2 ص 36.

(3) وهو من أصل بوسني، التّحق أولاً بخدمة علي بك في مصر حيث حصل على لقب الجزار بسبب تعامله مع بدو الدلتا. وبالتالي التّحق بالأمير الدّرزي يوسف الذي عيّنه قائداً لبيروت (حيدر ج 1 ص 97؛ أوليفيه ج 2 ص 257) لكنه حاول الاستقلال بنفسه هناك، فطرده ضاهر العُمر بمساعدة روسية. وبعد أن مكث فترة قصيرة مع ضاهر في عكا فرّ إلى دمشق واستعاد الخطوة لدى الباب، وقبل الاستيلاء على عكا بقليل رُقي إلى رتبة بكربك. انظر حيدر ج 1 ص 97-99؛ لمان ج 2 ص 112 وما يليها. لوكروي «أحمد الجزار» (پاریس 1888) الذي كتب رواية دقيقة عن الجزار استقاها بشكل رئيسي من مصادر فرنسية.

(4) شارل رو ص 136. يقدر ثولني عدد جيشه عام 1784 بحوالي 900 من الخيّالة البوسنيين والأرناؤوط و1,000 من المشاة المغاربة (ج 2 ص 76). يذكر حيدر (ج 1 ص 118) أنه ألحق بخدمته حوالي 600 من خيالة اللاوند الذين كانوا قد سُرّحوا من الجيش العثماني، بينما ألحق محمّد باشا العظم 300 منهم بخدمته. انظر حيدر ج 1 ص 162؛ لوكروي ص 146 وما يليها.

(5) شارل رو ص 134، 140.

(6) انظر الفصل السابع من الكتاب.

حكم الجزّار في دمشق الذي دام حوالي خمس سنوات - أولاً بسبب المطالبة غير العادلة بجمع المال، وثانياً بالتخفيض المتكرّر للعملة الذي نجم عنه خسارة باهظة، ثم بفرض البيع الإلزامي لكل أنواع البضائع المسلوّبة من أماكن مختلفة والملقاة في الأسواق بأثمان بخسة، بالإضافة إلى الكم الكبير من المصائب والمحن بكافة أنواعها»⁽¹⁾.

كان أصحاب المصارف اليهود الذين يحتفظون بالحسابات الحكومية هم موضع الابتزاز لديه، وعندما كان أحدهم يفرّ من قبضته كان الحيّ اليهودي يتعرض للنهب والسّرقَة⁽²⁾. أضف إلى كل ذلك قسوته الجائرة واستخفافه بالحياة، حتى حياة ممالكه الخاصين⁽³⁾. ولا عجب إن كانت شوارع دمشق قد زُيّنت ومحلاتها قد أُضيئت عند إقصائه عام 1795⁽⁴⁾. لكن جزّار پاشا عُيّن مرتين ثانيّتين والياً على دمشق، مرة عام 1799، ومرة في السّنة التي سبقت وفاته (1803-1804)، وقد دفع ابتزازه وقسوته معظم أولئك الذين ليس لديهم ما يخسرونه إلى اللجوء إلى حلب أو لبنان⁽⁵⁾.

تطوّرت الأمور في مصر بخطوط متوازية وإن كانت مختلفة⁽⁶⁾، وكما نذكر فإن السلطان سليم كان قد أنشأ في مصر ست مجموعات أو أوجاقات من القوات التّركية (أو بالأحرى البوسنيّة) بعد الفتح، لكنه هو وخلفه السلطان سليمان قد عملا في الوقت نفسه على ترسيخ النّظام المملوكي، حيث قام الأمراء المماليك (وفيما بعد ضبّاط الأوجاقات)

(1) ميخائيل الدمشقي ص 6-7.

(2) المصدر السابق ص 8.

(3) انظر التّصوير والوصف الذي قدمه (وفقاً لما سمعه) أوليفيه (ج 2 ص 264-270) الذي يؤكّد أن كل سكان سوريا كانوا ينظرون إلى الجزار على أنه ساحر أو مشعوذ؛ انظر ميخائيل مشاقة ص 47 وما يليها.

(4) ميخائيل الدمشقي ص 9.

(5) المصدر السابق ص 13-14.

(6) حول التّاريخ الخارجي لمصر في عهد الباباوات العثمانيين انظر J.J. Marcel «مصر الحديثة» (پاريس 1848)، وكذلك الرّواية الأحدث والأكثر قبولاً لكومب «مصر العثمانية» (القاهرة 1933).

بشراء العبيد الجراكسة وغيرهم من العبيد البيض الذين شكلوا قوة الخيالة النظامية، وعملوا كعنصر موازن في وجه الهاشوات والجيش وفرق الإنكشارية. لكن التمييز بين أفراد الأوجاقات النظامية وبين المماليك أصبح أكثر وضوحاً عندما قامت أعداد كبيرة من الفرق الأولى بالتزاوج مع الشعب المصري والانضمام إلى الثقبات الحرفية والاندماج بالسكان المحليين وفقدان شخصيتهم العسكرية (مع محافظتهم على امتيازات الفرق التي يتبعون لها). وبالرغم من أن القوات العسكرية لم تكن مؤلفة من المصريين المحليين، فقد كان أفرادها مختلفين تماماً عن أفراد الفرق التركية في الأناضول والروملي، كما ساهم انقضاء قرنين من الزمان بجعلهم أكثر وعياً لاستقلاليتهم⁽¹⁾. تكيّفت البنية الاجتماعية في مصر مع تلك الحالة بشيء من الصعوبة، وإن بُعد القسطنطينية وقلة الظلم التركي نسبياً قد جعلوا السكان يميلون إلى قبول الطائفة التركية دون اعتراض أو ندم وتقديم ولائهم الفاتر للسلطان كممثل للسلطة الدنيوية⁽²⁾.

كان المهاجرون الأتراك، الذين أصبحوا مواطنين، يشكلون عنصراً ثابتاً نسبياً، بينما يمكن النظر إلى المماليك بثقة أقل وهم أقل انصياعاً لتأثير تعاليم التقاليد والدين⁽³⁾. وعلى الرغم من أن النظام المملوكي يعود إلى أكثر من ثلاثة قرون قبل الفتح العثماني، فإن طبيعته تتصف بأن المماليك لم تكن لديهم القدرة على الاستقرار في الأرض، وكان كل جيل يستورد من الخارج ثم يُطلب منه اعتناق الإسلام⁽⁴⁾. وإن قوة النظام

(1) كانوا يدعون بالمجمل «مصرية» أي المصريون، ويظهر الجبرتي في عدة مقاطع أنهم كانوا متميزين جداً عن العثمانيين والأتراك والغرباء من سوريا وحلب (ج 3 ص 260، ج 7 ص 212).
(2) لكن ذلك لم يمنع الجبرتي من ذكر أوامر الباب العالي بشيء من التهكم. ج 2 ص 156، ج 5 ص 18.

(3) لماذا لم يفلح المماليك أبداً بإبقاء أصولهم أكثر من الجيل الثاني، أو الثالث كحد أقصى، بينما كان للأوجاقات التركية ستة أو سبعة أجيال في منتصف القرن الثامن عشر؟ يكمن السبب بالتأكيد في ظروف ونمط حياتهم، ولعل من بين العوامل أنهم لم يتخذوا زوجات مصريات وشيوخ النقائص الشاذة فيما بينهم (انظر فولني ج 1 ص 158؛ أوليفيه ج 2 ص 145-146)، وكذلك طريقة حياة النساء الجركسيات.

(4) لكن ذلك لم يسلبهم بالضرورة حماسهم الديني (وهو أمر معروف تماماً)، لكنه أبعدهم

تكمن في التدريب الصّارم الذي كان المماليك الشّبان يخضعون له قبل الالتحاق بالخدمة العسكرية. ليس لدينا معلومات مباشرة عن ذلك، لكن هناك مقطعين للجبرتي يلقيان ضوءاً كافياً يمكننا من إعادة تشكيل سماته الأساسية. «وكان من الشّسن السّابقة في آداب المماليك أن لا يركبوا من بيوت أسيادهم منفردين أبداً، فترك ذلك في جملة المتروكات (أي في عام 1787)، وتزوّج المماليك وصار لهم بيوت وخدم ويركبون ويغدون ويروحون ويشربون الدّخان وهم راكبون في الشّارع الأعظم وفي أيديهم شُبكات الدّخان من غير إنكار، وهم في الرّق»⁽¹⁾. يمكننا من خلال هذا المقطع تصوّر الانضباط المفروض عليهم لغاية القرن الثامن عشر (بما أن الجبرتي يلمح إلى أن التّغيير قد حدث في سن الشّباب ثم الكهولة)؛ ويمكننا من المقطع الآخر أخذ فكرة عن تربيتهم الأدبية والدينية. عندما جلب إسماعيل بك القوات من البلقان وجددهم المصريون عديمي الدّين والمبادئ، وفوجئوا بأنّه «استعملهم من أوّل وهلة في الفروسية، ولم يدرّبهم في آداب ولا معرفة دين ولا كتاب»⁽²⁾. ولهذا فليس من العدل النّظر إلى المماليك على أنّهم جماعة جاهلة همجية⁽³⁾، ويدعم هذه التّيجة عدّة حقائق وآراء سجلتها صفحات المؤرّخ المهمة⁽⁴⁾، مع أنّه كان هناك دون شك تدهور

بالتأكيد عن الاستيعاب العميق لتعاليم الإسلام.

(1) الجبرتي ج 2 ص 145، ج 4 ص 284.

(2) المصدر السّابق ج 2 ص 180، ج 5 ص 72. انظر أيضاً ج 2 ص 214، ج 5 ص 136؛ ج 4 ص 25-26، ج 8 ص 55-56، 58.

(3) انظر على سبيل المثال رواية فولني عن تدريباتهم المنتظمة ج 1 ص 151.

(4) منها ج 1 ص 179، ج 2 ص 87-88: «عثمان بك ذو الفقار، شيخ البلد من عام 1729 إلى عام 1743، كان عدلاً مستقيماً؛ لم يكن يأخذ الرّشوة ولا يسمح لأتباعه بقبولها، وهو لم يغتصب مالاً أبداً؛ ج 2 ص 5-8، ج 3 ص 239-244: «عبد الرحمن كاخية (متوفى 1776) كان أحد البناة المرموقين في تاريخ القاهرة، ويقال إنه بنى ورمّم ثمانية عشر مسجداً كبيراً وعدداً كبيراً من المساجد الصّغيرة والمدارس؛ وحتى مُراد بك الشّهير فقد أعاد بناء جامع عمرو بالقاهرة القديمة - يبرز مارسيل (مصر الحديثة ص 248) الأمر وكأنّه قنص للثروة لكنه روايته يدحضها قول الجبرتي (ج 3 ص 170، ج 6 ص 318) بأنّه أعاد بناء الجامع بأبهة كبيرة وأن الفرنسيين دمّروه في العام الذي تلا بناءه. هناك أمثلة أخرى عن الأعمال العامة التي قام بها المماليك: ج 3 ص

في المستوى في منتصف القرن الثامن عشر⁽¹⁾.

كانت حكومة عدد معين من الأقاليم وبعض الوظائف الأخرى تُمنح للمماليك وفقاً للمبدأ السنوي، وبهذا ضمنوا ثبات نفوذهم في إدارة البلاد. وعندما تراجعت سلطة الباباشوات وقادة الأوجاقات ازدادت قوة المماليك. تقلّد رئيس البكوات منصب حاكم القاهرة ونال لقب «شيخ البلد»، وفي بداية القرن الثامن عشر كانت سلطته قد نافست سلطة الباباشا. ولقد شكّل المماليك المدرجون في الأوجاقات المنافسة فرقتين متعارضتين كان من الشائع حدوث نزاعات مسلحة بينهما⁽²⁾، وكان قائد الفئة المنتصرة يصبح تلقائياً شيخ البلد للوقت الزّاهن، وسواءً أحكم بشكل جيّد أم سيء، وسواءً بقي

173، 176، 219، ج 6 ص 322، 327؛ ج 7 ص 103-104. أما عن تفوقهم في الأدب فلا يمكن ذكر إلا القليل، ومن الواضح أن الأتراك كانوا أكثر اهتماماً بالتعلّم من المماليك والمصريين. ولكن حتى هنا توجد بعض الاستثناءات، ولعل ما يذكرنا بعظمة وأبهة بغداد هو حادثة شراء محمّد بك أبي الذهب للنسخة الأصلية من الشّرح الشهير للشيخ مرتضى لكتاب «القاموس» من الكاتب نفسه بمبلغ 100,000 درهم فضي (الجبرتي ج 2 ص 199، ج 5 ص 108). ويذكر الجبرتي آخر المماليك إبراهيم بك، رفيق مُراد، بأنه كان «موصوفاً بالشّجاعة والفروسيّة وبأشرف عذّة حروب، وكان ساكن الجأش صبوراً ذا توّدة وحلم، قريباً للانقياد للحق، متجنباً للهزل إلا نادراً مع الكمال والحشمة، لا يحب سفك الدّماء» (ج 4 ص 263، ج 9 ص 210). وأخيراً قارن لهجة روايته لمجزرة المماليك عام 1811 وتكراره لعبارة «العائلات الرّاسخة» والمطابقة التامة تقريباً بين المماليك والعائلات التركية القديمة وبين الشعب المصري (ج 4 ص 127-132، ج 8 ص 286-298).

(1) هناك عدة عوامل أسهمت دون شك في هذا التدهور لكن من أبرزها ظهور «السّادة» غير العسكريين آنذاك. نذكر مصريين ذوي أصل وضيع هما الفلاح صالح والحمّال أحمد الجلفي اللذين أصبحا من الرّأسمالين الأثرياء ويعملان في إقراض المال، وقد ابتاعا ممالك وأدخلاهم في الأوجاقات وأنشأ مجموعات من المماليك تملك قوة ونفوذاً. ويحمّل الجبرتي الأول ذنب تدمير عدة عائلات كبيرة عن طريق الرّبا (الجبرتي ج 1 ص 203، ج 2 ص 141؛ مارسيل ص 225).

(2) كانت معاركهم المصغرة تحدث خارج أسوار المدينة وبهذا لم تكن تؤثر على الحياة اليومية للمواطنين. وبين تلك العمليات الفوضوية كان لديهم أدب خلقي يدعى فيما بينهم «أديغا خابزه» *adigua kabza*.

في الحكم فترة طويلة أو قُتل أو نُفي من قبل الفئة الأخرى، فإنّ الباشوات، ما عدا بعض الاستثناءات، كانوا ينظرون إلى ما يجري حولهم بعجز تام. وكانت أوامر الباب العالي بإعدام بعض البكوات لا تقود إلا إلى الإقالة العاجلة للحاكم المقدم الذي يحاول تنفيذها⁽¹⁾. مع ذلك بقيت الإدارة بشكل عام منهجية وعادلة في تعاملها مع الرعية، وباستثناء بعض الزيادة في الضرائب وتنامي قوة البدو، فلم تكن هناك تغييرات تذكر في البنية التقليدية للحكومة والمجتمع لغاية نهاية السنوات السبع لحكم إبراهيم بك ورضوان بك (1747-1754). لكن تركّز السلطة بأيدي شيخ البلد لم تؤدّ إلا إلى المزيد من الخطط الطموحة التي بدأت تتحقق عندما تسلم علي بك، خليفة إبراهيم والآخر، المنصب للمرة الثانية عام 1767.

لم يكن المماليك سكان مصر الوحيدين الذين استفادوا من انهيار السلطة العثمانية. كانت القبائل العربية للبدو شبه الرّحل قد شكّلت منذ زمن بعيد عنصراً مقلّماً للاقتصاد الزراعي في الدلتا ومصر العليا، وبسبب أعدادهم وتنقلهم وطبيعتهم القتالية لطالما تحدّوا جهود الحكام للسيطرة على أعمال السلب التي كانوا يمارسونها. حتى في أيام إمبراطورية المماليك السابقة شكّلت ثورات البدو، الفعلية والتهديدية، إحدى الأمور التي شغلت بال السلاطين⁽²⁾، وفي القرون الحديثة تزايد عددهم بسبب هجرة جماعات جديدة قادمة من الغرب. في مناطق عدة استغلّ شيوخ البدو ضعف السلطة المركزية وعداوات المماليك ليسيطروا نفوذهم على الأقاليم كلها. وبحلول منتصف القرن وجد البكوات أن طموحاتهم مهدّدة من جبهتين. في مصر العليا كانت المناطق الواقعة جنوبي أسيوط بأكملها بيد همّام Humām شيخ قبيلة الهوارة⁽³⁾ Hawwāra، وفي

(1) كان من غرائب الحكومة المصرية أن كان البكوات يملكون الحق القانوني بإقالة الباشوات دون الرجوع إلى الباب العالي، لكن الباشوات كانوا يعاملون بأدب حتى بعد خلعهم، ولا توجد سوى أمثلة قليلة عن استخدام العنف تجاههم.

(2) انظر أ. ن. بولياك «مجلة الدراسات الإسلامية»، 1934، ص 257-165.

(3) تتفق المصادر بأن حكمه كان عادلاً؛ لقد بعث ازدهاراً مفاجئاً في مقاطعاته وكوّن لنفسه شهرة واسعة بسياسته مع الأعراب وسيطرته عليهم، وصيانتهم لقنوات المياه وحكومته المعتدلة

الدلتا كانت أقاليم البحيرة Buḥayra والشرقية Şarkîya وحتى القليوبية Kalyûbîya إلى شمال القاهرة تُحكم بواسطة قبائل مستقلة تماماً ما عدا اسماً.

من المحتمل جداً أن يكون ظهور دولة المماليك المفاجئ مرتبطاً بتجدد الخطر البدوي، وعلى العموم كانت أول أعمال علي بك موجهة نحو قمع القبائل البدوية. وفي عام 1769 تمكنت بعثة يقودها محمد بك أبو الذهب من كسر شوكة هَمَام وتفتيت وحدة الهوارة، وفي الوقت نفسه قام أحد مماليك علي بك، وهو من عُرف لاحقاً بأحمد باشا الجزار، بقمع بدو البحيرة. تطلبت هذه العمليات زيادة كبيرة في القوات العسكرية، وزيادة أكبر للقيام بالحملة التي تلت ذلك في الحجاز واليمن عام 1770 وفي سوريا عام 1771. ولا بد من تذكر أن الأفواج العثمانية في مصر قد تأسست أولاً من أجل الدفاع، وبالرغم من إمكانية استدعاء بعض فرقها للخدمة في الجيش الإمبراطوري، فهي لم تكن بحد ذاتها قوة هجومية أبداً⁽¹⁾. وكانوا يعيشون، بالاتفاق مع النظام العثماني، على الأراضي المخصصة لهم، إذ لم تكن العائدات التي ترسلها الخزينة الإقليمية المركزية تكفي لإعالة وصيانة جيش نظامي. ولكي ينفذ علي بك مشاريعه الطموحة في التوسع والاستقلال، اضطر إلى مواجهة مشكلة مضاعفة. كان عليه قبل كل شيء تأسيس جيش قادر على القيام بالهجوم، ومن جهة أخرى إيجاد المصادر المالية الكافية للإنفاق عليه.

لقد كان حلّ هاتين المشكلتين يتجاوز طاقة الإدارة الروتينية في مصر، وبخاصة في ظل الصعوبات الاقتصادية التي ستحدث عنها بعد قليل. لذلك ما كان من علي بك إلا أن لجأ إلى الحلول الفظة العنيفة التي غدت مثلاً لكل خلفائه من بعده، وقاد البلاد إلى انهيار اقتصادي وتفسخ اجتماعي سريعين، كانا من سمات العقد الأخير للقرن الثامن عشر. لم يخطر أبداً في بال أي تركي أو مملوكي استخدام المصريين

المسامحة. انظر جيرار ص 510-512، 560؛ لانكريه ص 246؛ إستيف ص 323.

(1) يقال إن قسماً كبيراً من الأوجاقات لم يعد بتلك القوة العسكرية الفعالة. انظر استيلاء القبطان-

باشا حسن بسبب عدم جدواهم، الجبّرتي ج 2 ص 135، ج 4 ص 260.

كجنود، لكن علي بك، بالإضافة إلى شرائه لأعداد كبيرة من المماليك، بدأ بإلحاق مجموعات من المرتزقة في جيشه وأضاف إليهم التوبيين وعرب شبه الجزيرة⁽¹⁾، كما قام أيضاً بتنظيم فيلق من الرّماة (على الأغلب من اليونانيين) أسهم بشكل كبير في نجاح حملته في سوريا⁽²⁾. ضمّ أبو الذهب إلى القوات جنوداً وبحارة من الأتراك واليونان⁽³⁾ ووضع فرقة الرّماة تحت قيادة ضابط إنكليزي، لكن ذلك لم يجلب نجاحاً كبيراً⁽⁴⁾. وقد تسرّعت هذه التطورات بإعادة استيلاء الأتراك على مصر بقيادة القبطان-

(1) يتحدث الجبّرتي في عام 1769 عن الدّلي والدّروز والمتاوله والشّوام (ج 1 ص 335؛ وفي الترجمة (ج 3 ص 55) يُذكر الرّوس والألبان والمتاوله والمسيحيون السوريون⁽¹⁾). وكان الجيش المُرسَل إلى جزيرة العرب عام 1770 مؤلفاً من الأتراك والمغاربة والسّوريين والمتاوله والدّروز والحضرميين واليمنيين والسّودان والأحباش والدّلي (المصدر السابق ج 1 ص 350، ج 3 ص 91)، بينما يتألف الجيش المُرسَل إلى سوريا عام 1771 من المغاربة والأتراك والهمود واليمنيين والمتاوله (ج 1 ص 364، ج 3 ص 115). (ويُذكر أن أحد البكوات الأوائل واسمه قطامش كان قد كوّن فيلقاً من المماليك السّود، ج 1 ص 174، ج 2 ص 77).

يقدر فولني (ج 1 ص 109) عدد أفراد الجيش المرسَل إلى سوريا بحوالي 40,000 رجل (ويعطي المُرادى الرّقم نفسه ج 1 ص 54)، من بينهم حوالي 20,000 رجل مقاتل (يتضمنون 5,000 خيّال مملوكي وحوالي 1,500 من المشاة المغاربة). كان أغلب الدّلي في مصر من سكان الجبال السّوريين. انظر الجبّرتي ج 4 ص 226، ج 9 ص 132. انظر أيضاً حيدر ج 1 ص 76 حول النّظام العسكري والاقتصادي لعلّي بك.

(2) المُرادى ج 1 ص 54-56؛ حيدر ج 1 ص 85؛ لقد استسلمت حامية دمشق على الفور، لكن على عكس الاعتقاد السائد كانت المدفعية معروفة في مصر وسوريا حتى قبل ذلك الوقت. كانت قلاع حلب وغيرها من المدن مجهزة بمدافع (الغزّي ج 3 ص 267 (عام 1600) وص 299)؛ ويشير فولني إلى أنها كانت عديمة الجدوى وتستعمل بشكل سيئ (ج 1 ص 147؛ ج 2 ص 48؛ عن الإسكندرية ج 1 ص 7). يستشهد فولني بشاهد عيان لاستخدام سليمان باشا المدافع في طبريا عام 1742 (ج 2 ص 2)، وكثيراً ما كانت المدفعية تُذكر في الحصار والاشتباكات القتالية بعد عام 1771 (حيدر ج 1 ص 92، 93، 98). وفي عام 1783 يذكر فولني مصنّعاً للبارود في مصر (ج 1 ص 174)، وأنه وجد السّويس بحراسة ستة مدافع برونزية يديرها رجالان من الرّماة اليونانيين (ج 1 ص 185).

(3) الجبّرتي ج 2 ص 107، ج 4 ص 186. يقدر حيدر عدد أفراد الجيش عام 1775 بأكثر من 60,000 رجل.

(4) فولني ج 1 ص 126، 128؛ المُرادى ج 1 ص 57.

باشا حسن عام 1786 و 1787. وإن خطوطه المحصنة جنوبي مصر وأساطيله الصغيرة في النيل ووسائله في جمع المال قد زوّدت منافسيه إسماعيل بك ومُراد بك بأفكار جديدة عملاً على تنفيذها باستمرار بعد إقالته. قام إسماعيل بجلب المجتدين من البلقان وألبانيا (من البوسنيين والأرناؤوط) لكن سلوكهم اللاديني والمتعجرف جعل سكان المنطقة ييغضونهم⁽¹⁾؛ أما مُراد فقد جلب رجالاً من اليونان وكريت⁽²⁾ استطاع بمساعدتهم إنشاء مسابك لصّب المعادن ومصانع للبارود وأسس أسطولاً جديداً⁽³⁾ وضع على رأسه أحد أتباع القبطان- باشا السابق نيكولا دي جيسم⁽⁴⁾ Nicolas of Chesmé الذي لم يكن ضابطاً طيّعاً⁽⁵⁾ لكنه جعل من قواته مجموعة رائعة لم يتمكن حتى الفرنسيون من القضاء عليها أثناء العمليات الأخيرة في مصر العليا⁽⁶⁾. ومن الجلي أيضاً أن عدد المماليك قد أخذ بالتزايد تدريجياً⁽⁷⁾.

(1) الجبّرتي ج 2 ص 180، ج 5 ص 72؛ الفرحة في القاهرة عندما أمروا بمغادرة البلد بعد وفاة إسماعيل. المصدر السابق ج 2 ص 195، ج 5 ص 100.

(2) الجبّرتي ج 3 ص 41، ج 6 ص 87.

(3) الجبّرتي ج 3 ص 168، ج 6 ص 315؛ براون «رحلات» ص 81؛ أوليفيه ج 2 ص 69؛ أوريان «أحمد آغا le Zantiote» في *Aventuriers et originaux*؛ بوليتي «هيلينية مصر الحديثة» ج 1 ص 89-95. استورد التاجر الإيطالي روسيتي Rossetti الأسلحة من إيطاليا لصالح مُراد، الذي يقال إنه قد وظف ميكانيكيين ومدفعيين إيطاليين في ترساته الجديدة في الجيزة وبعض الضباط والضيافة الإيطاليين في جيشه (بالونني ج 1 ص 206، 215). وقبل ذلك كان الأسطول المصري مؤلفاً من ثمانية وعشرين زورقاً صغيراً تم بناؤها في السويس وزُود كل واحد منها بأربعة مدافع دوارة صدئة (قولني ج 1 ص 222).

(4) أ. بوب «الكولونيل نيكولا باشا أوغلي وكتيبة مطاردي الشرق» باريس 1900.

(5) الجبّرتي ج 3 ص 168، ج 6 ص 316.

(6) دونون «رحلات» (ترجمة إنكليزية) ج 3 ص 102 (مع أن نيكولا كان قد انضم إلى حينها إلى القوات الفرنسية (بوليتي، المصدر السابق)).

(7) في عام 1783 قدر قولني العدد الكلي للقوات المملوكية، بمن فيهم الشّبان، بـ 8,500 وكانوا مسلحين ببنادق قصيرة إنكليزية ذات فوهة واسعة، ومسدسين وكانوا يتدربون دائماً على استخدامها، بالإضافة إلى فأس حربية وسيف (ج 1 ص 143، 149-151). وكانت نفقات كل مملوك تتراوح بين ألف إلى ألفي قرش سنوياً (ج 1 ص 156). وفي عام 1798 قُدّر عدد

ومن أجل إيجاد وسيلة لإعالة هذه القوات المأجورة والقوات العسكرية، لجأ البكوات بشكل رئيسي إلى أسلوب الابتزاز وفرض ضرائب جديدة. بدأ علي بك بتقويض نظام الأراضي القديم وذلك بالاستيلاء على عقارات خصومه⁽¹⁾، كما فرض رسوماً باهظة على القرويين، وابتز المال من التجار ومن غير المسلمين⁽²⁾، واحتكر البضائع لصالح التجار الأثرياء⁽³⁾. ومن العدل إذن أن يتهم المؤرخ المصري (الذي يشيد بأمجاد الماضي *laudatory temporis acti semper*) علي بك بأنه «انتهك التقاليد الراسخة وخرق القوانين وهدم المنازل العتيقة وأبطل الأساليب القديمة الناجعة»⁽⁴⁾، بالرغم من أنه يتحسر على أيامه لدى مقارنتها بالأحداث اللاحقة⁽⁵⁾. لقد تابع خلفاؤه أعمال الابتزاز بدرجة أكبر⁽⁶⁾، لكن محافظة المماليك والبيروقراطية في مصر صانت الأشكال القديمة من التغيير حتى نهاية القرن، على عكس التغييرات الجذرية التي أحدثها الجزار باشا في جنوب سوريا. ومن المحتمل أن تكون الأسباب الاقتصادية، وليس مجرد الطموح، هي التي دفعت علي بك لمحاولة بسط نفوذه على الساحل العربي للبحر الأحمر، وعلى الرغم من أن البكوات اللاحقين لم يغامروا بتكرار التحدي الصريح لحكم السلطان، فمن الجدير بالذكر أن مُراداً كان يهتئ الأمر لإرسال بعثة إلى بلاد الذهب في الجنوب عندما فوجئ بوصول الفرنسيين⁽⁷⁾.

المماليك وأفراد الأوجاقات في القاهرة بحوالي 10,400 (جومار «وصف مدينة القاهرة» ج 2 ص 2، 694).

(1) حيدر ج 1 ص 76. كان علي بك نفسه ملتحقاً بأوجاق الإنكشارية.
(2) الجبرتي ج 1 ص 309، 351، ج 3 ص 15-16، 93؛ ومن أجل نفقات الحملة السورية تم فرض 103 دولارات (حوالي 220 قرشاً) على كل قرية، و100,000 دولار من القبط و40,000 من اليهود. يقول فولني (ج 1 ص 122) إن تكاليف حملة مكة وصلت إلى أحد عشر مليون قرش.

(3) فولني ج 1 ص 122.

(4) ج 1 ص 258، ج 2 ص 235.

(5) ج 1 ص 383، ج 3 ص 162-163.

(6) انظر الفصل السابع من الكتاب.

(7) أوريان «أحمد آغا Zantiote» في *Aventuriers et originaux*.

من خلال هذا البحث الموجز تبرز نقطتان أساسيتان، الأولى هي أن النظام القديم لم يتدهور من داخله أو بدافع ذاتي، وبغض النظر عن السيطرة الضعيفة للباب العالي، لم يكن هناك ما يشير إلى حدوث أزمة وشيكة لغاية عام 1760. وإن من أهم أسباب الكارثة التي حصلت في مصر وسوريا معاً كان الاستبدال التدريجي للأوجاقات القديمة بجيش جديد من المرتزقة، وكانت نفقات هذه التشكيلات العسكرية الجديدة - وليس طمع أورفاهية المماليك والباشوات أنفسهم - من وراء كل تلك المظالم التي ملأت صفحات التاريخ في تلك الفترة والتي جمعناها مع العوامل الاقتصادية لנناقشها في فصل آخر، وهي التي قوّضت أسس الاستقرار في النظام الاجتماعي. أما النقطة الثانية فهي الأهداف والعوامل التي لعبت دوراً كبيراً في إدارة محمد علي في مصر - أي الاستغلال الاقتصادي وإعادة تنظيم الجيش وظهور الخبراء التقنيين الأوروبيين ومحاولة التخلص من الحكم العثماني ويسط النفوذ المصري على الأقاليم المجاورة - وكانت كلها واضحة في مصر وسوريا خلال العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر.

قبل أن نختم هذا الفصل، يبقى أن نذكر باختصار علاقات مصر وسوريا بالباب العالي خلال هذه الفترة. بالرغم من التسيّب في تطبيق السلطة العثمانية وبالرغم مما يبدو من انفصال الأقاليم العربية عن القسطنطينية، فإن المصادر المعاصرة لا تقدّم ما يدعونا للتفكير بأن السلطات العثمانية أو الرّعية كانوا يتجهون نحو حلّ هذه الصّلة، ولم يكن من عادة السلاطين العثمانيين أن يتشدّدوا في فرض الطّاعة على حكامهم ما داموا يؤدّون المراسم اللازمة وبالأخصّ إرسال العائدات إلى العاصمة في الوقت المحدّد، وكانوا إذن ينتظرون الفرصة المواتية التي تتطلب تدخلاً من جانبهم. لقد لخصّ قولني بدقته المعهودة الوضع في بضع عبارات إذ قال:

«لم تكن سياسة الأتراك هي قيادة أتباعهم إلى الطّاعة المتشدّدة؛ بل إنهم أدركوا منذ وقت طويل أنهم لو أرادوا قمع كل الثّورات فسيكون عملاً دون طائل وهدراً للأرواح والأموال، هذا بغضّ النظر عن احتمال الفشل أحياناً وبالتالي ازدياد الجرأة على التمرّد. ولهذا اتخذوا جانب الصّبر والتّسوية وتحريض الجيران والآباء والأبناء؛

وآجلاً أم عاجلاً سيرضخ الثائرون لسير الأمور وسيلاقون المصير نفسه، وهو زيادة ثروة السلطان على أكتافهم»⁽¹⁾.

لم تغيّر تجربة القرن الثامن عشر من إيمان السلطات العثمانية بقدرتها على فرض سيطرتها حتى النهاية، وباستثناء الحالة الخاصة لمماليك العراق، فقد كان قولني على حق في كل ما قاله. كان الحاكمان الوحيدان اللذان أعلننا الثورة هما علي بك وضاهر العمر؛ وقد أقدم كلاهما على هذه الخطوة الجريئة لأن أيدي الباب العالي كانت مكبّلة بالحرب في أوروبا؛ وفي الحالتين كليهما فرض الباب سيطرته دون تأخير وبتكاليف بسيطة، كما أن غطرسة المماليك المصريين قد كبحت باحتلال القبطان-باشا للقاهرة عام 1785 و⁽²⁾ 1786، ومع أن مُراد وإبراهيم لم يرسلا مبالغ كبيرة لخزينة إسطنبول، فقد كانا دائماً حريصين على تبرير الخسارة⁽³⁾ وتقديم الخدمات الخاصة عندما يُطلب منهما ذلك⁽⁴⁾. علاوة على ذلك فقد أحكم الباب قبضته على المماليك وأخضعهم لسلطته من أجل إيقاف عملية تصدير العبيد البيض إلى مصر. كان باشوات عائلة العظم مثلاً عن الأتباع الذين يؤدّون واجباتهم بدقة، وقد عالج الباب موضوع طموحهم لإنشاء أسرة حاكمة بمصادرة ثرواتهم. والأمر نفسه هو الذي دعا إلى غضّ النظر عن التّفاوت الكبير بين عائدات الجزّار والجزية السنوية التي كان يرسلها إلى إسطنبول، وصمّ الأذنين عن الاستماع إلى شكاوى رعاياه. وإن كان ذلك يدل على الإفلاس الخُلقي فيمكن الرّد بأن الباب العالي يبقى أفضل من باشواته ومماليكه. وفي الحقيقة فإن من أبرز الدلائل على انهيار الأخلاق السياسية ونبوغ الحكم في الطبقة الحاكمة العثمانية هو أن كل حكام القرن قد بسطوا نفوذهم بالقوّة، ولم يتعامل واحد منهم مع رعيّته بإخلاص ومحبة بحيث يأسفون لرحيله. نتيجة لذلك لم يستطع أحد

(1) قولني ج 2 ص 5.

(2) من الجدير بالذكر أن حسن باشا وصل الإسكندرية بزورق واحد فقط وبضع مئات من جنود البحرية.

(3) انظر الفصل السابع من الكتاب.

(4) الجبّرتي ج 2 ص 351، ج 5 ص 198-199.

الوقوف في وجه السُلطة المطلقة للدولة، وبالنسبة للباشوات والرعية معاً كانت الملاذ الأخير للجزاء وإصلاح المفاسد. أخيراً، كان للمؤسسة الدينية، على الأقل في أوج قوتها، نفوذ على السيادة العثمانية، فبالرغم من أن المذهب التقليدي للخلافة ما زال معلقاً⁽¹⁾ فإن القاعدة النفسية للوحدة الإسلامية كانت حاضرة من خلال الاحترام التام للسلطان كممثل ومدافع عن مذهب السُنّة ضد الكفار في أوروبا والمارقين في فارس.

مع ذلك، هناك مظهران للحياة السياسية في القرن لا يشكلان حجماً كبيراً في بحثنا، لكنهما زلزلوا ثقة الباب العالي وأثارا بعض الشكوك حول المستقبل. كان الأول هو المفاوضات التي جرت بين علي بك والقيادة الروسية وتلاها التحالف بين ضاهر العمر والأسطول الروسي⁽²⁾. الواقع هو أن ذلك لم يؤدِّ إلى شيء وأن السلطات العثمانية، من خلال إيمانها العميق بقوتها، لم تكن قد أدركت بعد المدى الذي تفوقت فيه القوى الأوروبية عليها من حيث المصادر والعلوم الحربية. لكن الحقيقة هي أن الإمبراطورية العثمانية لم تعد منغلقة على نفسها ومعزولة عن العالم الخارجي، وعاجلاً أو آجلاً ستعقد مشكلة الوحدة الإمبراطورية بدخول عناصر غريبة عنها من خارج حدودها.

أما المظهر الثاني فكان الضغط والتنظيم المتزايد للقبائل البدوية العربية، التي كانت دائماً معادية للسيادة العثمانية ومحتقرة لحججها وذرائعها. وبالتزامن مع الصّحوة المحليّة لبدو مصر، وإن لم يكن ذلك مرتبطاً تماماً بها، نشأت فترة من الارتفاع بين قبائل الصّحراء السورية. في القرنين السادس عشر والسابع عشر كان الأمن مستتباً في المناطق الشماليّة من الصّحراء على يد الموالي Mawâlî، وكان زعيمهم الذي يحمل اللقب المتوارث «أبو ريشة»، يحكم المنطقة بأسرها من عاصمته في عانة على نهر الفرات وينعم بدخل ثابت من الرّسوم التي فرضها على القوافل ومن الأجور

(1) انظر الفصل الثاني من الكتاب.

(2) انظر مقالة أوريان «كاترين الثانية والشرق» 1770-1774 في الأكروليس، ج 5 ص 188-220 (باريس 1930)؛ لوكروي ص 73 وما يليها.

العثمانية السنوية. حتى ذلك الوقت كانت صلاتهم بالسلطات التركية طيبة وقد لعبوا دوراً بارزاً، إلى جانب الأتراك، في تاريخ العراق⁽¹⁾. لكن فقدان أهمية طريق الصحراء ووحشية الهاشوات قادا إلى عملهم كقطاع طرق، عندما اختل النظام القبلي السوري بأكمله بسبب الهجرة البطيئة المستمرة لقبائل غنزة نحو الشمال. وفي بداية القرن الثامن عشر كانت تلك القبيلة الكبيرة من قبائل الجزيرة الشمالية قد غادرت مرابعها لسلسلة من الأسباب الغامضة، وبحلول منتصف القرن كانت قد عزلت الموالي عن الفرات وأجبرتهم على الاتجاه غرباً نحو حلب وحماة⁽²⁾ مما أدى إلى سلب وتدمير المناطق المحتلة. وجدت الحكومة العثمانية أنه من الحكمة الاعتراف بالوضع الراهن والاستفادة منه، فمنحت زعيم تلك القبائل لقب البك وأوكلت إليه مهمة حراسة حدود الصحراء بين حلب ودمشق. وبالمقابل كان يُسمح لهم بأخذ الرسوم من القوافل وفرض المعونات على حماة والمدن الأخرى⁽³⁾. أما في المناطق الجنوبية فكانت القبيلة الرئيسية هي قبيلة بني صخر Sahr التي تمتد فوق أراضي فلسطين والأردن. أثناء الحروب مع ضاهر العمر تحالفت قبيلة بني صخر معه وجعلها بالسلاح⁽⁴⁾. وفي الوقت ذاته، في صحراء الجزيرة العربية وخارج نطاق السلطة العثمانية المباشرة، كان الوهابيون يؤسسون إمبراطوريتهم الأولى بزعامة آل سعود. ولغاية نهاية القرن كانوا مجرد أسماء في سوريا ومصر⁽⁵⁾ ولم تكن السلطات العثمانية تنظر إليهم سوى أنهم

(1) لونغريغ ص 39، 67-71؛ أوبنهايم «البدو» ج 1 (لايبسيغ 1939)، ص 305 وما يليها، ص 312 وما يليها.

(2) أوبنهايم، المصدر السابق ص 68 وما يليها.

(3) أ. دي بوشمان في «مجلة الدراسات الإسلامية» 1934، ص 23-24؛ فولني ج 2 ص 173، ويقال إنه كان لدى الشيخ محمد الخرفان 30,000 خيلاً. انظر روسو ص 94 حول إعفائهم من الضريبة في بلاد الرافدين شريطة تزويد القوافل بفرق الحراسة.

(4) فولني ج 2 ص 8.

(5) لم يذكرهم الجبّرتي حتى عام 1802 بأنهم أصحاب حركة جديدة نشأت في نجد منذ حوالي ثلاث سنوات؛ ولم يذكرهم المرادي إلا بشكل غير مباشر (ج 4 ص 31-32).

يشيرون بعض المشاكل الحدودية التي يمكن لپاشا بغداد معالجتها⁽¹⁾. ولم يكن أحد يتنبأ، مهما بلغ بُعد نظره، أن الحركة الوهابية⁽²⁾ ستؤثر في العشرين سنة التالية، ربما بسقوطها أكثر من ظهورها، على بنية وتلاحم الإمبراطورية.



(1) لونغريغ ص 212-216.

(2) يستخدم الكتاب الغربيون هذه التسمية المغلوطة، وصوابها: حركة الإصلاح السلفي.

الفصل الخامس

الفلاحون وتملك الأراضي والزراعة

من خلال وصفنا للفلاحين في الإمبراطورية العثمانية - ومختلف سكان الأرياف الذين لا يشملهم هذا التعبير بدقة - قمنا بتقسيم حديثنا إلى قسمين، يتناولان على الترتيب الشعوب غير الناطقة باللغة العربية وتلك الناطقة بالعربية بشكل رئيسي. إن الفرق الشاسع الذي يجعل تلك المناطق مختلفة عن بعضها لا يكمن فقط في الأحوال المادية التي عاشها الفلاحون ومورست الزراعة في المناطق المعنية من خلالها، بل لأن تلك الأماكن لم تتحد في تاريخ الإمبراطورية إلا في وقت متأخر، وبذلك لم يعد من الممكن تطبيق المبادئ التي حدّتها تلك الأحوال بدقة على الأقاليم الملحقة في القرن السادس عشر، وبالأدات لأن معظم سكانها كانوا من المسلمين الذين ضمّتهم ديار الإسلام منذ قرون عديدة.

علاوة على ذلك فإن المعلومات المتعلقة بالمنطقتين ليست متوازنة، فلدينا على سبيل المثال روايات مفصلة عن حالة الفلاحين في مصر وبعض الأقاليم العربية الأخرى في القرن الثامن عشر أكثر ممّا لدينا حول أقاليم البلد الأم. ومن جهة أخرى فإن القوانين الصادرة في القرن السادس عشر والتي تنظّم امتلاك الأراضي تعكس الأحوال التي كانت سائدة آنذاك في أقاليم البلد الأم، ويمكن من خلال الروايات التي تتضمنها، مع إضافة روايات أخرى عن حياة الفلاحين اليومية، تكوين فكرة عن حالة الرّيف في منتصف القرن الثامن عشر. أخيراً، بما أن بعض القوانين قد وُضعت أصلاً لأقاليم البلد الأم - وبالأخصّ قوانين تملك الأراضي - ثم طبقت إلى حدّ ما على

الأقاليم العربية، فإننا سنخصّص القسم الأول من الفصل للأقاليم الأولى، والقسم الآخر للأقاليم الثانية.

1. الرّوملي والأناضول

كانت الأحوال التي مورست فيها الزراعة في هذه الأقاليم مرتبطة بجغرافية المنطقة ومناخها. وقد كانت مساحات واسعة من الإقليمين جبليّة، وبهذا كانت الاتصالات غير متطوّرة بشكل كافٍ باستثناء المنطقة السّاحلية. وبما أن نقل المحاصيل إلى البلدة الأقرب كان صعباً، فكانت تُزرع للاستهلاك المحليّ فقط. وبما أن الكمية المخصّصة للبيع قليلة جداً فإن قدرة الفلاحين على ابتياع الملابس والأدوات والطّعام كانت محدودة، وكانوا يضطرون إلى صنع كل ما يحتاجونه تقريباً بأنفسهم. وبهذا أصبح الاعتناء بتربية المواشي من أجل جلودها وأصوافها والاستفادة منها في فلاحه الأرض يلعب دوراً أكبر في الاقتصاد الزراعي للبلاد من مجرد زراعة المحاصيل⁽¹⁾.

يبدو أنّ هذا الأمر ينطبق على المنطقة كلها، لكن أهميّة توليد الماشية والزراعة بحدّ ذاتها تختلف من جهة إلى أخرى. ففي المناطق ذات الطّبيعة الجبلية الوعرة كانت تربية المواشي تستجلب اهتمام السّكان كله ولم يكونوا يزرعون سوى المحاصيل الضرورية؛ أما في المناطق الأخرى الأكثر خصوبة والأقرب إلى طرق المواصلات - إما القرية من الموانئ أو الواقعة على الطّرق المهمّة التي تسلكها القوافل - فإن الزراعة تسير جنباً إلى جنب مع تربية المواشي. وفي المناطق الأخرى كان الاهتمام متنوعاً بين الأمرين.

وبالنظر إلى المقاطعتين ككل، فإن السّلطات العثمانية تعدّهما منقسمتين إلى مجموعات مختلفة من الأراضي، ثلاثة منها لا تتعلق بوصفنا الحالي وهي: أولاً، الأرض القاحلة أو المستنقعات التي لا يمكن أن تقوم فيها أية أعمال زراعية، أو الأجزاء النّائية من السّلاسل الجبلية. ثانياً، الحقول المحتوية على المعادن. ثالثاً،

(1) إسماعيل خسرو Türkiye Köy İktisâdiyatı ص 20 وما يليها، 32، 45 وما يليها.

المناطق المأهولة بالسكان. تبقى الغابات، والمراعي، والأراضي الصالحة للزراعة، وكروم العنب والبساتين المشجرة، وأراضي التبن، ومواقع القرى بما فيها مزارع الخضار. هذه الأنواع الستة هي التي تهمنا حالياً.

أشرنا سابقاً إلى أن كل الأراضي الزراعية للإقليمين في القرن السادس عشر كانت بيد الدولة إلا إذا كانت مخصصة للوقف الديني⁽¹⁾. وكانت تلك الأراضي تسمى، بالمصطلح العثماني، «ميري» *mîrî* أو «وقف» *wakf* لكن ما كان يقصد به عبارة الأراضي الزراعية هو النوعان الثاني والثالث من الأصناف الستة، أي المراعي والأراضي الصالحة للزراعة، ومن بين الأربعة المتبقية تُعد الغابات أراضي ميري أو وقف أما البقية فلم تكن كذلك. وكانت مواقع السكن في القرى أملاًكاً خاصة - «مُلك» *mulk*، وكان لكل منزل نصف دُنة من الأرض وهو مُلك أيضاً. وكان لكل قرية حقل يُجمع منه التبن وكان ملكاً مشتركاً لأهالي القرية. أما حالة الصنف المتبقي، أي الكروم والبساتين المشجرة، ففيها بعض الشك. كانت، كما قلنا، في الأساس وقفاً، بمعنى أن الأشجار كانت ملكاً خاصاً، وما لم تكن مشمولة بموقع القرية فكانت تُعرف باسم «تتمّي سُكنى»⁽²⁾ *Tetimmei Suknâ*، أما الأرض التي زُرعت فيها فهي ميري أو وقف⁽³⁾. في حالات عدة بالطبع لم يكن هذا التمييز مهماً جداً، فإن كان محصول الكرم هو العنب فقط وكان مُلكاً، فإن الكرم نفسه يُعد مُلكاً نظرياً، ولكن إذا قرّر الفلاح زراعة الأرض تصبح ميري بطبيعة الحال (ما لم تكن وقفاً) مهما كان وضعها سابقاً. وكانت المباني التي تنشأ على أرض الميري تُعدّ مُلكاً أيضاً في معظم الحالات، وكما سيتضح لاحقاً فإن هذه الفروقات يعتمدها الاضطراب.

نتنقل الآن للكلام عن الفلاحين أنفسهم. كان المصطلح الذي يُطلق عادة على الفلاح هو «رعِيّة» وجمعه «رعايا»، وهي كلمة عربية تعني بالأصل «القطيع في

(1) انظر: *M.T.M.* ج 1 ص 51، 56-57.

(2) انظر *M.T.M.* ج 1 ص 105.

(3) المصدر السابق ج 1 ص 84.

المرعى». وعندما تطلق على الإنسان فإنها تشمل كل رعية الحاكم، أي أنه الراعي وهم الرعية. وبالتعبير العثماني كانت تعني فقط المزارعين الأحرار المقيمين وعائلاتهم، سواءً أكانوا مسلمين أم ذميين. وبهذا يختلف الرعايا عن كل رجال القلم ورجال السيف (بمن فيهم بدو اليوروك الذين كانوا يؤدون الخدمة للدولة ويُعدّون من الجنود)، وعن الحرفيين والتجار في المدن.

كان وضع الرعايا مرتبطاً بالأراضي التي يقيمون فيها، والتي سبق أن ذكرناها. وبما أنها كانت مُلكاً من جهة وميري أو وقفاً من جهة أخرى، فقد كان الفلاحون مالكيين للفئة الأولى ومستأجرين للفئة الثانية، وهو الأغلب. وبغض النظر عن هذا التصنيف، كانت الأرض مقسمة بطريقة أخرى. سبق أن أشرنا إلى أن الجزء الكبير من الميري كان مقسماً إلى إقطاعيات تخصّص للسلطان وأفراد عائلته وخدمه والموظفين المدنيين والقائمين على الحصون الحدودية، أو للسباهية الإقطاعية وضباطهم ذوي الرتب العليا (الذين كان أغلبهم حكاماً إقليميين في الوقت نفسه)⁽¹⁾. وبنفس الطريقة كانت أراضي الوقف مقسمة إلى ملكيات تخصّص عائداً لبناء مسجد أو مدرسة. وكان أصحاب الإقطاعيات كلهم يجمعون الضرائب إما بأنفسهم أو بتفويض من ينوب عنهم، أي كانوا يقبضون الضرائب بدلاً من الرواتب، وكانوا إذن متولّي *mütevellis* الأوقاف. أما عائداً الأراضي الأخرى، التي لا تشكل إقطاعيات بالإضافة إلى أراضي السلطان، فكانت تُجمع وتُرسل إلى الخزينة العامة والخزينة الخاصة بالسلطان على الترتيب. وإن الوظيفة الأساسية، وربما الوحيدة، للرعايا من وجهة نظر الحكومة هي تزويد هؤلاء الجامعين بمستحققاتهم. ومن هنا كان كل فلاح مكلفاً كراع إما لإقطاعية أو لوقف أو لميري. أما إيجار الأرض التي لا تُعد مُلكاً فكان يُطلق عليه اسم تصرف⁽²⁾ *taşarruf*. لم يكن تملك صاحب الإقطاعية أو المتولّي هو فقط ما يخولهم تقاضي الضرائب من الرعايا، إذ كانت الأملاك الخاصة خاضعة أيضاً للضرائب، وكان يحق

(1) إسماعيل خسرو ص 158.

(2) انظر *M.T.M.* ج 1 ص 51-52.

لهم أخذ نسبة من محاصيلها من الرعايا تماماً كأراضي التصرف. ويرجع سبب ذلك إلى أن الحكومة بتشكيلها للإقطاعيات والأوقاف تخلت عن حقوقها بجمع ضرائب أية أملاك خاصة داخل حدودها.

وبالرغم من أن أصحاب الإقطاعيات لم يكونوا سوى مستأجرين للأراضي، فقد كانوا يُعرفون بـ«أملاك لها»⁽¹⁾، وكان المتولون يقومون بجمع الضرائب نيابة عن الأوقاف والمُلتزمين، وفي منتصف القرن السادس عشر أخذوا يجمعونها لصالح الخزينة أيضاً، وهم بذلك يملكون حقوقاً على الفلاحين تماماً كتلك التي يتمتع بها مالكو الأراضي أنفسهم. وهنا يكفي أن نلاحظ بعض الفروق بين سلطة المتولين والمُلتزمين وسلطة أصحاب الإقطاعيات، ولن نحتاج لتفصيل الفئات المختلفة لدى وصفنا للعلاقة التي تربط الفلاحين بأسيادهم (وكما سيتضح لاحقاً فإن جامعي الضرائب هؤلاء كانت لهم حقوق أخرى على الفلاحين غير الحقوق المالية). الفرق الأول هو أن امتلاك السباهية للإقطاعيات العسكرية كالتيمار والرعامت كان وراثياً، أي ينتقل إلى أبنائهم القادرين على أداء الخدمة العسكرية. وهذا الأمر لا ينطبق على الإقطاعيات الأخرى - حتى إقطاعيات «الخاص» العسكرية - بل كانت دخلاً إضافياً على وظيفتهم. والفرق الثاني هو أنه في كل إقطاعية مزرعة خاصة تدعى «خاصه چفتلك» *Hâşsa Çiftlik* يستثمرها الملتزم أو بواسطة وكيله لحسابه الخاص. أخيراً، كانت الإقطاعيات بكافة أنواعها تتميز عن الأملاك التي يديرها المتولون أو الأراضي التي يزرعها الملتزمون تسمى «المعيشة» *Dirlik* وهي تسمية تؤكد على أن عائدات كل منها كانت مخصصة ليكسب صاحبها العيش منها، بينما يذهب الجزء الأكبر الذي يجمعه المتولون إلى منشآت الوقف والتي يجمعها الملتزمون إلى الخزينة مقابل تخمين الأرض والتزامها⁽²⁾.

وكما أن امتلاك السباهية لأراضي المعيشة كان وراثياً نوعاً ما، فقد كان الفلاحون يتمتعون بوراثة أراضي التصرف والمراعي. وبالفعل لعل السبب الرئيسي لإعلان

(1) «صاحب الأرض» بالعربية. انظر إسماعيل خسرو ص 159.

(2) المصدر السابق ص 158-159، 161.

السلطات بعدم تملك الأراضي الزراعية كملك خاص كانت رغبة منها بالسماح للفلاحين بوراثة الإقطاعيات، شريطة عدم مخالفة الشريعة التي تقضي قوانينها بأن يُقسم ثلثا الأملاك الخاصة، على الأقل بنسب ثابتة بين ورثة صاحبها بعد وفاته لتصبح قطعاً صغيرة تصعب إدارتها. لا يوجد في قوانين الشريعة ما ينصّ على وراثة أراضي التصرف، لذلك كان السلاطين يتصرفون بها كما يشاءون⁽¹⁾.

أما بالنسبة لفلاحي التصرف فكانوا يتبعون النظم التالية: إذا استمرّ الفلاح بالقيام بواجباته بشكل منتظم (وسنذكرها بعد قليل)، تنتقل أرضه بعد وفاته إلى أبنائه دون دفع مستحقات خاصة. وإذا لم يكن لديه أولاد فإن الوضع يختلف، إذ يستطيع فرد آخر من العائلة وراثة الأرض شريطة أن يدفع سلفة⁽²⁾ (طاپو *tapu*) يقدرها مسلمون ثقات في بعض الحالات، وتعادل مستحقات سنة واحدة في الحالات الأخرى، وتعتمد أولوية المطالبة على درجة قرابة وريث الشخص المتوفى وفق الترتيب التالي: ابنته، أخوه، أخته، أبوه، أمه. وإذا ما دفع الوريث الطاپو الجديد لا يتم إقصاؤه. ولا يملك الأقرباء الأبعد حق المطالبة بالأرض، باستثناء الأحفاد في حالات خاصة، ولا يمكنهم منع خروج التصرف إلى غير أفراد العائلة. أما وراثة أراضي التصرف من النساء فكان مقيداً بالأبناء، وكانوا يجبرون في هذه الحالة على دفع الطاپو. ويمكن أيضاً أن يملك أرض التصرف فلاح واحد أو اثنان على أساس الشراكة، وفي هذه الحالات تنتقل حصّة كل واحد منهما إلى ورثته حسب العادة، ولكن بإهمال الورثة لدفع المستحقات يملك الشريك الآخر الحق بوضع يده على الجزء الشاغر من الأرض بدفع الطاپو⁽³⁾. أخيراً، يمكن للمالك التنازل عن التصرف لشخص من قرية أخرى بعد وهبها لفلاحي القرية التي ترتبط الأرض بها⁽⁴⁾.

بهذه القوانين كانت السلطات راغبة بمنع تقسيم أراضي التصرف والتأكيد على

(1) انظر: 1 M.T.M. ص 57-58.

(2) المصدر السابق ج 1 ص 54.

(3) المصدر السابق ج 1 ص 76-77.

(4) المصدر السابق ج 1 ص 78-79.

استمرار عائلات الفلاحين باستخدامها. كان أساس النظام هو المسكن والعائلة، فإذا كان لرجل عدة أبناء ورثوا التصرف بعد وفاته وأراد أحدهم التنازل عن حصته لشخص يسكن قرية أخرى، فمن حق إخوته منعه من ذلك. وإذا لم يترك الرجل أبناء وانتقل التصرف إلى ابنته كان زوجها هو الذي يتولى إدارته، وفي حالة الأخوات والأحفاد لا بدّ لهم من أجل المطالبة بالأرض من أن يكونوا من سكان المنزل نفسه⁽¹⁾.

وبهذا كان الفلاحون يأمنون على أنفسهم من طرد صاحب الأرض لهم، ولكن في حال قيامهم بواجباتهم طبعاً وهي الزراعة الجيدة للأرض الصالحة لذلك ودفع ضرائب ومستحقات عدة⁽²⁾، بالإضافة إلى أنهم مجبرون على إعلام صاحب الأرض بأي إجراءات يرغبون بالقيام بها في الأرض وأخذ موافقته على ذلك، كبيع أراضي التصرف مثلاً. وكانت الإجراءات التي تتم دون موافقة صاحب الأرض تُعدّ باطلة⁽³⁾.

يمكننا تصنيف المستحقات والضرائب المدفوعة إلى فئتين، تُفرض الأولى على الأرض أو محصولها، وتُفرض الثانية على الفلاحين بشكل شخصي. يمكن تقسيم الفئة الأولى إلى نوعين من الضرائب، تلك التي تدفع لتربية المواشي، والأخرى لزراعة الأرض. كانت المستحقات الرئيسية المفروضة على تربية المواشي هي رسوم الأغنام *âdeti ağnâm* ورسم زريبة الأغنام *agil resmi* وبعض رسوم المراعي. كانت رسوم الأغنام في الإقطاعيات تفرض أثناء موسم التكاثر (عادة بمعدل آقچه لكل رأسين من الغنم)؛ أما ضريبة الزريبة فكانت تدفع عندما توضع الأغنام في الحظائر لتوليدها، لكنها لم تكن شائعة في كل الإقطاعيات وكانت أقل من رسوم الأغنام، إذ تؤخذ خمس أفجات فقط عن كل 300 خروف⁽⁴⁾. أما المراعي، فكان يُسمح لصاحب الأرض بفرض مستحقات على الفلاحين الذين يستفيدون من مناطق الإقطاعية المعدة للرعي الصيفي والشتوي، وكانوا يدفعونها حسب عدد الأغنام التي يرعونها لكن لم يتضح لنا

(1) المصدر السابق ج 1 ص 58، 59، 63، 71.

(2) المصدر السابق ج 1 ص 55.

(3) المصدر السابق ج 1 ص 52. *Sipâhîden izinsiz olan mu'âmelât külliyyen bâîldir*.

(4) المصدر السابق ج 1 ص 107-108، 542.

إن كانوا يسدّدونها نقداً أو عيناً⁽¹⁾.

كانت الضريبة الأساسية على الزراعة هي العُشر، التي كانت تسمى مقاسمة الخراج *Harâcı mukâsama*. وكان هذا العشر يُجمع عيناً من قبل الجُباة في فترة الحصاد قبل جني المحصول. لكن الفلاحين كانوا مجبرين على إحضار محاصيلهم كلها إلى صاحب الأرض لدرسها، ونقل الجزء المخصّص للعشر إلى أقرب سوق أسبوعي أو إلى مخزن الحبوب في القرية. كانت نسبة الضريبة على المحصول تتراوح من مقاطعة إلى أخرى، من العُشر إلى النصف. ويتطوّر الإمبراطورية أنشئت سجلات للمستحقات والضرائب المفروضة على كل مقاطعة وهي تعتمد دون شك على أحوال كل منطقة. كانت تلك السجلات تراجع وتحدّث بشكل دوري، ولم تجر أية محاولة لتغيير أسس الضرائب الإقليمية بهدف توحيدها⁽²⁾.

كان صاحب الأرض موكلاً أيضاً بجباية العشر على القمح والشعير والتبن (وتُعرف باسم سلارية *salâriye*)⁽³⁾؛ وكذلك الفواكه والخضار التي يزرعها الفلاحون على تربة الميري (أي في أي مكان عدا المنطقة الصّغيرة المسموح بها لكل أسرة كأملاك خاصّة) وحتى على المحاصيل المزروعة على الأملاك الخاصّة التي قد يعرضها الفلاحون للبيع، شريطة ألا تكون الكروم وحقول الفاكهة وبساتين الخضروات مسجلة لدفع مستحقات ثابتة⁽⁴⁾. وتخضع المناحل لرسوم سنوية ثابتة إذا كانت في أرض الميري، أو تخضع للعشر بالنسبة للعسل المنتج؛ وبهذا إذا كان السجل المحلي يحتوي على شروط من هذا النوع فإن منتجات العنب تُعرف باسمي⁽⁵⁾ الدّبس (پكمز) *pekmez* وعصير الرّفاق (كوفتر) *kufter*.

(1) المصدر السابق ج 1 ص 97. تذكر هذه الرّسوم في القانون بأسماء *yaylakı, kışlakı, otlakı*

resmi أو *hakki* أي المرعى الصّيفي والمرعى الشّتوي ورسوم المرعى.

(2) المصدر السابق ج 1 ص 51، 103، 104.

(3) المصدر السابق ج 1 ص 102.

(4) المصدر السابق ج 1 ص 104.

(5) المصدر السابق ج 1 ص 101، 106-107. انظر إسماعيل خسرو ص 163.

يكفيها الكلام عن الأعشار، ولنتحدث عن المستحقات الثابتة (أو الرّسم، وجمعها رسوم). كما ذكرنا قبل قليل، كانت كروم العنب وحقول الفاكهة وبساتين الخضروات (على الميري أو الوقف) تسجّل لدفعات سنوية ثابتة؛ وهناك رسوم غيرها تُفرض على الطّواحين (بحسب عدد أشهر الاستخدام)، وعلى أسطح المنازل (إذ بالرّغم من أن بيوت وأكواخ الفلاحين كانت أملاكاً خاصّة، فقد كانت خاضعة لضريبة يدفعونها لصاحب الأرض)⁽¹⁾. ولا يستطيع الفلاحون الحصول على موافقة صاحب الأرض بالعمل في أراضي التّصرف إلا إذا دفعوا رسماً (يدعى معرفة آقچه سى *ma'rifet akçesi*)⁽²⁾، ونأتي هنا إلى الضرائب الشّخصية.

وهنا نصادف التّمييز الدّيني، فكما أشرنا سابقاً كان الدّميّون خاضعين للجزية، ولم يكن لأصحاب الأراضي دخل بها، بل كانت تُجبي لصالح الحكومة. لكن التّمييز الدّيني فيما يتعلق بالضرائب لم يقف عند هذا الحد، ولنبداً بمال المزرعة «چفت آقچه سى» *çift akçesi*. كانت تلك إحدى المسمّيات الشّائعة التي تطلق على الخراجي موظف *arâci muwazzafı*، وهي رسوم ثابتة تؤخذ سنوياً من الفلاحين الذين يملكون أراضي التّصرف، وذلك بحسب المساحة ونوعية الأرض الممنوحة لهم⁽³⁾. مع ذلك، لم يكن جميع الفلاحين يحصلون على الأراضي، بل كان العديد منهم يعملون في أراضي أقربائهم. وكان الفلاحون الذين لم يحصلوا على أرض التّصرف خاضعين لضرائب ثابتة أيضاً لكنها أصغر، وكانت لدى المسلمين منهم على نوعين بحسب الوضع العائلي (متزوج أو أعزب). كانت الضريبة المفروضة على المسلمين المتزوجين تدعى بناك *benâk* وتلك المفروضة على العُزبان تدعى مُجرّد *mucerrred*. وفي القرن السادس عشر كانت المبالغ التي تؤخذ من كل رجل هي 12 آقچه للمتزوجين و6 أقجات للعُزبان. والآن تُفرض رسوم چفت آقچه سى وبناك ومُجرّد على المسلمين فقط، أما الدّميّون فيخضعون لرسوم مشابهة بمقادير

(1) انظر: *M.T.M.* ج 1 ص 83، 104، 108.

(2) المصدر السابق ج 1 ص 84.

(3) المصدر السابق ج 1 ص 51.

أكبر وتحمل الاسم نفسه وهو إسپنجه *ispence*، وكان يُفرض بالطبع في حالة الذميين الحاصلين على أراضي التصرف وفقاً لاتساع ونوعية أرضهم. أما لذكور الذميين الذين لا يملكون الأراضي فكانت الرسوم موحدة (في الفترة نفسها) وهي 25 آقجه سنوياً سواء أكانوا متزوجين أم لا. ومن جهة أخرى كان الذميون يعاملون في حالة واحد بشكل أخف مما يعامل به المسلمون، وهي حالة رسوم الزواج (*urûs resmi*). وعندما كان الفلاح يتزوج كان يتوجب عليه دفع رسم لصاحب الأرض؛ وهنا يدفع المسلمون ضعفي ما يدفعه الذميون⁽¹⁾.

بعد أن اطلعنا على التزامات الفلاح تجاه صاحب الأرض المخول بجمع الضريبة منه، يمكننا مناقشة مسألتين هما ما الذي يكون العمل في أرض التصرف، وماذا يحدث إذا قصر الفلاح في أداء واجباته.

تتكون الزراعة الجيدة بشكل رئيسي ببذر ما لا يقل عن كمية معينة من البذور، وعدم ترك فلاحة أي جزء من الأرض لأكثر من سنتين. وضع الشرط الثاني لتأكيد عادة ترك الإقطاعات لتراتح سنتين من كل ثلاث، وإذا تجاوز الفلاح هذه المدة يفقد حقوقه بأرض التصرف إلا إذا سدد رسوم الإهمال (جفت بوظان *çift bozan* أو بوظ حقى *boz hakkı*). وإذا فقد الفلاح حقه في الأرض يحق للمالك إعطاء الطابو لشخص آخر. ولكن في الوقت نفسه يمكن للفلاح الأول المطالبة بالاستئجار الجديد، شريطة أن يدفع رسم الإهمال ورسم الطابو. وإذا لم يفعل ذلك يمكن للفلاحين من نفس القرية المطالبة باستئجار الأرض قبل غيرهم من خارج القرية، إذ تأتي القرية بعد الأسرة مباشرة في سلم ترتيب الحياة الزراعية⁽²⁾.

وهكذا تتوازن حقوق الفلاحين وواجباتهم، لكننا سنناقش الآن فقدان الحقوق عند الإخفاق في أداء الواجبات. قد ترغب بعض الأسر الفلاحية بترك أراضيها والهجرة إلى إقطاعات أو أملاك أخرى ترحب بهم، لأنهم سيدفعون الطابو قبل الحصول على

(1) المصدر السابق ج 1 ص 109-111.

(2) المصدر السابق ج 1 ص 55، 111-112.

أرض التصرف أو اعتماد طرق أخرى للعيش. لم تكن تلك التقلبات تروق للحكومة، فقد كان هدفها إبقاء الخيالة الإقطاعيين وغيرهم من المستفيدين من النظام الإقطاعي مزودين دائماً بالعائدات، وبهذا نصّت القوانين على ارتباط الفلاح بالأرض إلا إذا أقرّ مُلاك الأرض بالهجرة. يمكن للمالك إرغام الفلاحين المهاجرين على العودة إلى الأراضي الأصلية التي تركوها خلال عشر سنوات من تاريخ مغادرتهم، وبهذا يُجبر الفلاحون على العمل وتأمين الواردات لأصحاب الأراضي إلا إذا أرادوا الموت جوعاً، وفي الحقيقة لقد كانوا عبيداً للأرض. وبالرغم من أنهم قد يُخضعون النزاعات التي تنشأ بينهم وبين أصحاب الأراضي (الذين لا يملكون في الواقع سلطة قضائية عليهم) إلى قرار القاضي المحلي، فإن صاحب الأرض قد قيّد حريتهم بالتصرف إلى حدّ كبير. وإن الدافع الوحيد لصاحب الأرض ليسمح بالتغيرات هو الرسوم التي سيتلقاها مقابل إقرار التغيير وإعادة منحهم أراضي التصرف. وبشكل متناقض يُعدّ هذا الأمر في مصلحة الفلاح، ولا يمكن لأصحاب الأراضي إجبار الفلاحين على الحصول على الأراضي الشاغرة، لكن ثبات النظام الزراعي كان مؤمناً بواسطة القوانين⁽¹⁾.

وبالفعل هناك مظهر بارز في تلك القوانين، هو أنها تؤكد على ضرورة اتباع العادات الراسخة - أي أن ما تمّ فعله يجب أن يتم فعله الآن ودائماً. ولعل أقوى مثال على ذلك هو القانون الذي يمنع تحويل المرعى إلى أرض زراعية والعكس بالعكس⁽²⁾. لا يوجد سوى استثناء وحيد يُسمح به في هذه الحالة هو إن كانت الأرض الزراعية، بالرغم من تركها لفترة استراحة تجاوزت العامين، مروية بشكل جيّد بحيث أنها تصلح لتصبح مرجاً للرعي، فيطلب من مستأجرها تركها كذلك، مع دفع الرسوم المناسبة. من جهة أخرى عندما تكون الأرض الزراعية في قرية ما واقعة في الوادي، كان الفلاحون يندفعون لتوسيع المنطقة المزروعة بإعادة استخدام الحقول المهجورة على سفح الجبل.

(1) المصدر السابق ج 1 ص 305-306. انظر إسماعيل خسرو ص 160-161.

(2) انظر: M.T.M. ج 1 ص 55-56.

من المحتمل أن تكون هذه القواعد قد صيغت بهدف منع ميل الفلاحين في الأجزاء الأقل تطوراً من الأناضول إلى إهمال خصوبة أراضيهم وتحفيزهم على زيادة الانتباه إليها والمحافظة عليها بدل العمل في أراضٍ جديدة. وهنا يبرز السؤال عن مدى إمكانية الحكم على الماضي من الحاضر. لسوء الحظ ليس لدينا، باستثناء القانون نامه، سوى وثائق قليلة تتعلق بالأحوال الزراعية في الإمبراطورية العثمانية لغاية القرن التاسع عشر. وهناك رأي لكاتب معاصر يقول إنه بسبب عدم تساوي تطور وسائل الاتصال في الأناضول، فإن المناطق التي لا تزال غير مخدّمة تقدّم لنا صورة عن حياة الفلاحين كما كانت قبل إنشاء الشبكة الحديدية، ثم التّموا التالي للزراعة المعتمد على بيع المحاصيل بدلاً من استهلاكها من قبل المنتج⁽¹⁾. هذا صحيح إلى حدّ معين، لكن يجب ألا ننسى التدهور الذي أصاب النظام الإقطاعي، ومن جهة أخرى لغاية نهاية القرن الثامن عشر وما بعده حلّت طرق القوافل مكان السكك الحديدية، ثم وقعت قيد الإهمال بغض النظر عن إنشاء السكك الحديدية، وذلك بسبب انهيار الصناعات العثمانية ومنافسة الصناعة الأوروبية لها⁽²⁾. وفي تلك المناطق كان من الممكن نقل المنتجات الزراعية إلى السوق لأن الزراعة كانت قد تطورت إلى ما هو أبعد من مجرد كونها مصدراً للرزق، لكن تلك الحالات كانت قليلة جداً.

فلننظر إلى أحوال الحاضر لنبرز أحوال الماضي وفقاً لهذه التّحفظات، ومن ثم يمكننا أن نفترض بأن الرعايا لم يكونوا مندفعين نحو الرّيح، وبأنهم عملوا في الأرض دون بذل جهود كبيرة وبدراسة قليلة. وبهذا يبدو أنهم لم يقوموا بما يمكن أن يجلب الخصب لحقولهم كاستعمال الأسمدة، بل اكتفوا باتّباع أسلوب إراحة الأرض. وكان الفلاحون في المناطق التي لم تعد فيها الأرض مُنتجة بما فيه الكفاية، يلجأ أولئك ببساطة إلى فلاحه أراضٍ جديدة وقد تكون داخل الغابات إن لم يتوفر غيرها، أو يتبعون خطة أخرى بزراعة الحقل لعام واحد ثم تركه لمدة عامين - وقد يكون هذا هو

(1) إسماعيل خسرو ص 41.

(2) المصدر السابق ص 32، 114.

النظام المتبع في النظام الإقطاعي لكي يتلاءم مع شرط الإراحة لمدة عامين. أما في المناطق التي يتوفر فيها بيع المنتجات بشكل أفضل، فقد كان هناك نظام أكثر تطوراً يدعى «نداس» *nadas* وفيه تزرع الحقول بشكل متناوب وتُحراث الأراضي التي تُركت لترتاح مرتين متتاليتين للحفاظ على الرطوبة ومنع تكاثر الأعشاب الضارة. وأخيراً، في المناطق الأكثر تطوراً تزرع المحاصيل بشكل منتظم نوعاً ما بالرغم من عدم اتباع الأسس العلمية⁽¹⁾.

كانت المبادرة الفردية للأسر الفلاحية محدودة جداً بسبب تجاور أراضيهم؛ ومن هنا كان من الضروري قيامهم بالحرثة والبذار في الوقت نفسه، كما يتوجب عليهم أن يزرعوا المحاصيل نفسها أو على الأقل المحاصيل التي يمكن حصدها في الوقت ذاته، وذلك لتجنب المرور فوق محصول أرض معينة للوصول إلى الأرض المجاورة⁽²⁾. لم يتضح لنا مدى تمكن صاحب الأرض من ممارسة صلاحياته في ظل النظام القديم، وبما أنه كان يجمع جزءاً كبيراً من عائداته عيناً فقد ازداد اهتمامه بها. وفي بعض القرى اليوم تجد كبار القوم (*Köy Büyükləri*) يحدّدون المنتج الواجب زراعته وكما يبدو، فالقرويون كانوا قديماً يميلون للتعامل أجمعهم مع السّباهي الموكل بهم كأن يناقشوه في أمور دفع الأعشار، وقد يملك زعماءهم السلطة بواسطته.

في المناطق المكتفية ذاتياً كانت المحاصيل تزرع بالطّبع بما يتوافق مع النظام الغذائي وعادات الفلاحين، ويتألف هذا النظام اليوم بشكل رئيسي من المنتجات التّشوية كخبز الذرة أو الشّعير وحساء الحبوب والقمح المجروش *pilâv* الذي يدعى بُلغور⁽³⁾ *bulgur* (بُرْغُل) ونوع من سائل اللبن يدعونه آيران⁽⁴⁾ *ayran*، أما اللحم فيؤكل فقط في أيام الأعياد. كانت الحلوى تمزج إما بالعسل أو، كما في

(1) المصدر السابق ص 40 وما يليها.

(2) المصدر السابق ص 29.

(3) كذا بالتركية، وليس بُرْغُل كما نلفظه بالعربية مصحفاً، والاسم ليس عربياً ولا وجود له في لسان العرب. (أحمد)

(4) كذا بالتركية بألف ممدودة، وليس بعين (عيران) كما نلفظه مغلوطاً في بلاد الشام. (أحمد)

إحدى المناطق اليوم، بالسّكر المستخلص من الشّمندر. كان معظم ملابس الفلاحين منسوجاً بالصّوف أو الشّعر أو الجلد لكنهم يزرعون القطن الآن في بعض الأماكن للغزل والحياكة منزلياً؛ وهو ليس بالأمر الجديد.

وكذلك فإن كل معدات الزّراعة كالمحراث والمذراة والمسحاة تصنع يدوياً وغالباً من الخشب، وإن المحراث الخشبي كان لا يزال مستعملاً في كل المناطق التي لم تدخل إليها الآلات الزراعيّة الحديثة. كان المحراث يُجر بواسطة الثّيران، ولم تكن الخيول تستخدم إلا للركوب وكحيوانات للتحميل. ولم تكن العربات مستخدمة بسبب وعورة الطّرق، بل كانت الحمولات تنقل بواسطة الجمال والحمير والبغال. أخيراً، كانت الدّور التي تملكها كل أسرة فلاحيّة مؤلفة من بيت للسكن وإصطبل ومخزن للحبوب تبنى من الطّين والخشب.

كان الفلاح العادي في مناطق الاكتفاء الذاتي أكثر اعتماداً، كما رأينا، على الحيوانات التي يربّيها من المحاصيل التي يزرعها، وكان راعياً للغنم أو الماعز أكثر من كونه مزارعاً. في أشهر الشّتاء كانت القطعان ترعى قرب القرى في المراعي المنخفضة، وكان الأمر ملائماً لأنّه موسم العمل الجاد في الأرض. وفي الصّيف كان من الضروري أخذها إلى أمكنة أبعد حيث يضطر الرّعاة للعيش في الخيام، وهي مساكن تصنع يدوياً أيضاً. كان الفلاحون يعتمدون على قطعانهم، بالإضافة إلى حليبيها ومشتقاته، في صنع الثّياب، وكانت تمدهم بالجلود والصّوف أو الشّعر، فتقوم النّساء بغزله وحياكته وصبغه في المنزل (وقد كان كل منزل تقريباً يحتوي على نول)، ثم تصنع منه الملابس أو أقمشة الخيام أو السّجاد والبُسط. وبهذا كان اقتصادهم معتمداً على الذات بحيث أنهم يستطيعون الاستغناء عن النّقود لو لم تكن مستحقّاتهم، باستثناء ضريبة العُشر، تدفع نقداً. وللحصول على المال الكافي كانوا يبيعون جزءاً من منتجاتهم في أقرب سوق أسبوعي، وبما أن سكان المدن يعتمدون على الفلاحين في إمدادهم بالطّعام والمواد الخام الضروريّة للصّناعات المحليّة، فقد اطمأنّ الفلاحون إلى إمكانية الحصول على ما يلزمهم من المال. أما في المناطق القريبة فقد كان

الفلاحون يميلون لشراء منتجات المدن بدلاً من صنع كل شيء بأيديهم، وكانت هذه التبادلات تجري بواسطة المقايضة، وأحياناً وفق قاعدة التسليف أو الدين. ويتوجب على الفلاح الذي يرغب بشراء شيء من السوق التّعهد بتزويد التّجار بكم كبير من منتجاته الزراعيّة في موسم الحصاد⁽¹⁾.

يبدو من بعض شروط قانون ناميه أن الفلاحين يلاقون بعض الصّعوبات أحياناً بالحصول على المال الكافي لدفع مستحقّاتهم، وفي هذه الحالة صدر مرسوم بدفع العُشر بدلاً من ذلك - مع أن هذا التّبادل كان ممكناً فقط عندما كانت المستحقّات تُدفع نقداً وليس بالعُشر. من جهة ثانية، كانوا في بعض الحالات يتفقون على دفع مبلغ ثابت يُحدّد سنوياً بدلاً من العُشر، لكن هذه الطّريقة كانت مقتصرة على المناطق المعتمدة على السّوق في اقتصادها؛ وبالفعل كان أمراً معتاداً بالنّسبة لكروم العنب التي لعبت دوراً صغيراً في اقتصاد المناطق المكتفية ذاتياً. وهنا يمكن أن نلاحظ أنّ أراضي الميري، التي يتوجّب فيها على مالكي التّصرف دفع مستحقّات تتبع لنوعيتها ومساحتها، كانت تُمسح لتقدير قيمة الرّسوم المستحقّة، وهو أمر لم يكن متبعاً في أراضي المُلْك إلا عندما يتفق الفلاحون على دفع مبالغ ثابتة بدلاً من العُشر، عندها كانت أراضي المُلْك تُمسح لتحديد قيمة المبلغ المتوجب دفعه. وكما أشرنا سابقاً، فإن أراضي كروم العنب وبساتين الرّيتون وحقول الفاكهة كان نتاجها يعدّ مُلكاً. ويبدو من الذّكر المتكرّر لكروم العنب وغيرها في قانون ناميه - والتي تشير قليلاً إلى أراضي المُلْك، وهي مقتصرة على كونها تتمات للسّكن - أن حالتها كانت مثاراً للاضطراب يظهر أنها تخضع للعُشر، بينما تخضع الأراضي المختلطة، كأراضي الميري، إلى رسوم أخرى. ومن جهة أخرى فإن العُشر المفروض على الكروم وغيرها كان العُشر الحقيقي الذي فرضته الشّريعة، أي واحد من عشرة، وليس نسبة متغيرة مثل «خراجي مقسمة» التي تحمل نفس الاسم⁽²⁾.

(1) المصدر السابق ص 22 وما يليها.

(2) انظر: M.T.M. ج 1 ص 101.

كانت السُّلطات مصتمة على تجنّب بعض قوانين الشريعة بما يتعلق بالمواريث، ويظهر ذلك بطرق أخرى غير جعل كل الأراضي الزراعية أملاكاً للدولة، وبالرغم من أنها أقرت تملك الفلاحين للأنواع المختلفة من الأملاك الخاصة التي سبق الكلام عنها، فقد أصرت على عدم تقسيمها كإرث. يذكر في عدة نصوص من القانون أن البيوت والأشجار مُلك للفلاحين وينبغي أن تنتقل إلى ورثته بعد وفاته حسب قانون الشريعة، لكن لا بدّ من تجاوز هذا المبدأ وذلك لمنع تقليص حجم الأرض التي يملكها الوريث حول مسكنه⁽¹⁾، أي الوريث الذي يرث أرض التصرف. علاوة على ذلك، إن كان ورثة الفلاح الوحيدون ذوي قرابة أبعد ممّا يمنحهم حق وراثة التصرف، كان من الممكن لصاحب الأرض استبعادهم من وراثة المُلْك المنصوص عليه في الشريعة، إلا إذا كانوا يسكنون مسكن العائلة نفسه. أما ما يتعلق بمحصول العنب وغيره فكان كل وريث يحصل على نصيبه بعد جمع ضريبة العُشر من الورثة جميعاً كمجموعة واحدة. وهكذا يمكن للسُّلطات الاستخفاف بالشريعة عندما تهدّد قوانينها أمر المحافظة على المسكن وما حوله من الأراضي سليمة دون تقسيم. لكن ظروف عمل العائلة بأكملها في أرض التصرف قد جعلت من حالات استخدام القوانين غير الشرعية أمراً أندر ممّا لو كان الوضع غير ذلك⁽²⁾.

كان امتلاك الفلاحين لبعض الممتلكات الخاصة قد يمنحهم شيئاً من الاستقلالية عن صاحب الأرض، لو أن الرّسوم والضرائب كانت تجبى لأجل الخزينة، لكن الواقع كان أن صاحب الأرض يجمع الضرائب بالإضافة إلى المساهمات من أراضي التصرف. وإذا قصّر الفلاحون في القيام بواجباتهم المتعلقة بأراضي التصرف يحقّ لصاحب الأرض التدخل بأملاكهم الخاصة - مع أن هذه العبارة بمعناها السيئ لم يتضح تماماً⁽³⁾. وكقاعدة عامة، كان الفلاحون دون شك خاضعين لرحمة أصحاب

(1) بالتركية: *Yurt yerinde olan vârisin yerine nakş gelmemek için* المصدر السابق ص 74.

(2) المصدر السابق ج 1 ص 74.

(3) المصدر السابق ج 1 ص 85: *şâhibi arda hâkq vâşil olmadığı dahle hâkq dır*.

الأراضي بالرغم من القوانين المختلفة التي تهدف إلى الحد من سلطتهم⁽¹⁾. ويبدو أن أشد الفلاحين سروراً هم أولئك الذين تُجبي مساهماتهم عن طريق التعاقد مع الخزينة، إذ كان معظم هذه العقود قصير الأمد وبهذا كان جامعو الضرائب يميلون للتخفيف من حدة تعاملهم ناظرين إلى المستقبل. أما أقسى المالكين فيبدو أنهم من يخضعون لسلطات الأوقاف. كان المتولّون على سبيل المثال مجبرين على التأكيد من أن كل الأراضي خاضعة لرسوم الطأبو الزائدة عما كانت عليه في السابق وإلغاء الرسوم القديمة. أما السباهية فكانوا يُمنعون من تحصيل أجور أخرى من الفلاحين بعد تحرير عقد الطأبو وتسجيله لدى القاضي⁽²⁾.

من بين كل فئات المالكين كان السباهية أوثقهم صلة بالفلاحين، من جهة لأنهم أنفسهم لم يكونوا سوى فلاحين أعلى درجة - وهناك قوانين عديدة مسجلة تظهر أن بعض السباهية قد أصبحوا فلاحين فعلاً - وأن بعض الفلاحين قد أصبحوا سباهية - وذلك بإقطاعهم بعض الأراضي⁽³⁾. ومن جهة ثانية فإن وراثة عائلات السباهية للإقطاعيات، بالرغم من اقتصارها على الأبناء المؤهلين وفي حالات خاصة على الأحفاد، ووراثة الفلاحين لأراضي التصرف قد خلقت روابط قوية بين الطبقتين، وبالرغم من أن هذه الروابط هي خضوع الرعايا للسباهية، فقد أدت إلى وحدة الفئتين وتماسكهما. وفي المقام الثالث كان السباهية يشتركون مع الفلاحين في امتلاك الأرض فيزودونهم بالماشية والحبوب، وفي هذه الحالة يحصلون على نصف المحصول⁽⁴⁾.

أما القيود التي تحدّ من حرية السباهية فلا بدّ من ذكر الالتزامات المفروضة عليهم بعدم استغلال أراضي التصرف الشاغرة بأنفسهم⁽⁵⁾. كانت أعمالهم الزراعية مقتصرة

(1) إسماعيل خسرو ص 159-160.

(2) انظر: M.T.M، ج 1 ص 95.

(3) المصدر السابق ج 1 ص 310، 311.

(4) المصدر السابق ج 1 ص 103.

(5) المصدر السابق ج 1 ص 59، 78-79.

على مزارعهم الخاصة، وكانوا دون شك يشغلون فيها أيام الدوشيرمه⁽¹⁾ العجمي أو غلان المرسلين إليهم للتدريبات الأولية. وكان السباهية بالطبع مقيدين بكل النظم التي سبق ذكرها؛ فلا يمكنهم طرد الفلاحين من أراضيهم دون سبب، ولا استبعاد الورثة الشرعيين، ولا جمع أكثر مما كانوا مخولين بجمعه من العُشر والمستحقات الأخرى. كما كانوا مقيدين بالقوانين حتى في التفاصيل الأدق؛ إذ لا يحق لهم رعي مواشيهم في أراضي الفلاحين المُراحة، أو تأجير أي جزء من مراعي القرية الخاضعة للطابو⁽²⁾.

تقضي القاعدة في الإقطاعيات العسكرية بأن يسجل كل فلاح باسم واحد من السباهية مع وجود بعض الاستثناءات إذ كان على بعض الإقطاعيات شريكاً أو أكثر من السباهية يطبقان في هذه الحالة سلطة مشتركة على الفلاحين، ويكون قرار أحدهم ملزماً لبقية الشركاء. ومن جهة أخرى كان بعض الفلاحين مسجلين كرعايا لسباهيين مستقلين يتقاسمان المستحقات فيما بينهما⁽³⁾. وأخيراً لم يكن بعض الفلاحين مرتبطين بأي سباهية كونهم دون أراضٍ؛ وفي هذه الحالة تُجمع رسوم البناء المفروضة عليهم من قبل الموقوفجي، موظف الميري⁽⁴⁾.

وهكذا سعت السلطات إلى منح السباهية وأصحاب الإقطاعيات الآخرين نفوذاً كافياً لتأمين استمتاعهم بالعائدات التي يزودهم بها الرعايا ليس إلا. كان النظام الذي اتبعوه متوازناً حقاً فيما يتعلق بالحقوق الممنوحة والواجبات المفروضة على أصحاب الإقطاعيات والفلاحين معاً. لكن لا يمكن تحقيق هذا التوازن والمحافظة عليه إلا إذا أحكمت الحكومة المركزية سيطرتها على أصحاب الإقطاعيات. في الحقيقة، وكما رأينا سابقاً، فمنذ نهاية القرن السادس عشر بدأت هذه السيطرة تلين شيئاً فشيئاً إلى أن تلاشت في العديد من المناطق بحلول القرن الثامن عشر، بل إن نظام الإقطاع بأكمله

(1) تلفظ بالتركية: دُفِيرْمِه. (أحمد)

(2) المصدر السابق ج 1 ص 85.

(3) المصدر السابق ج 1 ص 93.

(4) المصدر السابق ج 1 ص 310. انظر Bélin «من نظام الإقطاعيات العسكرية»، ص 235.

أصيب بالفساد بسبب التغييرات التي قامت الحكومة بها أثناء الاضطراب المالي الذي لحق بها. وقبل النظر إلى آثار تلك التطورات على حياة الفلاحين، لا بدّ من النظر إلى مركز بعض العسكريين في الأرياف الذين سبق وذكرناهم كجزء من القوات المسلحة للإمبراطورية.

إن العسكريين الذين نتكلم عنهم هم المسلم واليايا والفوينوق والطوغانجية واليورك، وكما أشرنا لدى ذكرهم سابقاً، فإن وضعهم كان شبيهاً بوضع السباهية من عدة أوجه، وبالأخص أنهم يعدّون من الفرق العسكرية، إذ كان التقسيم الرئيسي بين سكان الأرياف هو العسكر والرعايا. تبدو الأنظمة التي تحكم حقوق وواجبات المسلم واليايا كمزارعين متشابهة، إذ طالما أنهم لا يعملون إلا في المزارع المخصصة لهم يُعفون من الرّسوم والأعشار، ما عدا اليايا المقيمون في بعض السناجق الذين يتوجب عليهم تجهيز السنجق بكية⁽¹⁾، بينما يجهز المقيمون في مناطق أخرى اليايا باشية بأربعين آقچه سنوياً للأوجاق بشكل «قمح وشعير»، كما يخضع الأولون لرّسوم الزّواج وبعض المساهمات العينية الأخرى⁽²⁾. ويبدو أن المسلم واليايا يعملون أحياناً على زراعة أراضي تصرّف الرعايا المجاورة لأراضيهم، وهنا يعتني القانون بالتمييز بين الاثنين من أجل الضرائب، إذ أنهم بتولّيهم أمور أراضٍ إضافية يتحمّلون مسؤولية الرعايا عنها⁽³⁾. وفي بعض الحالات كان المسلم يسمحون لأشخاص آخرين بزراعة أرضهم ويدفعون لهم الأعشار والرّسوم، فيحلّون بهذه الطريقة مكان السباهية. وبالفعل فإن الحكومة تشجع على هذا التّقريب بمنع المسلم من طرد أولئك المزارعين، ما لم يرتكبوا مخالفات بعد الوفاء بالتزاماتهم لّعشر سنوات متتالية⁽⁴⁾. ومن جهة أخرى لا

(1) كان هناك على الأرجح سناجق كان الفلاحون في معظمها، إن لم يكن فيها كلها، من اليايا. ومن جهة ثانية لم يكن اليايا جميعهم يقيمون فيها إذ قرأنا عن اليايا المعتمدين على اليايا باشية مقارنة لهم باليايا المعتمدين على السنجق بكية.

(2) كان بكوات سناجق اليايا ينعمون بجلود حيوانات الوشق والفهود التي يتبرع بها اليايا.

(3) انظر M.T.M. ج 1 ص 311.

(4) انظر: M.T.M. ج 1 ص 311. والغريب في هذه الحالة هو من اليورك.

يحق لليايا تأجير أراضي الطّابو أو *fortiori* أو بيعها، ويطبق هذا المنع على المسلم غالباً⁽¹⁾. قد يجبر السّنجق بكية اليايا الذين تركوا أراضيهم على العودة إليها، وتسلم أراضي اليايا الشّاغرة إلى فرد آخر من الأوجاق الذي ينتمي إليه صاحبها الأول⁽²⁾.

مُنح الفوينوق حقولاً في بلغاريا تناسب مهمتهم في تربية واستيلاء الخيول⁽³⁾. كانت هذه الأراضي معفية من الرّسوم⁽⁴⁾ ولا تُمنح إلا لهذه الفئة، لذلك كان أي نقل لمملكتها إما بالبيع أو الوراثة أمراً غير قانوني. قد يسمح الفوينوق للغرباء بالعمل المؤقت في أراضيهم، لكن لا يمكن للغرباء المطالبة بها مهما طالّت فترة عملهم فيها. كان رجال الفوينوق الاحتياطيون - ويعرفون بالفوينوق الرّائدين - خاضعين للجزية إن كانوا مسيحيين، وكان أقرباء الفوينوق العاملون في أراضي الفوينوق يخضعون للجزية بالإضافة إلى رسوم الإسبنجه التي يؤدونها للسّنجق بك كونهم غير مسجلين كرعايا لأحد من السّباهية. كان السّباهية يُمنعون بشدة من التّدخل بشؤون الفوينوق واحتياطهم وأقربائهم، إلا إذا تولى هؤلاء أراضي التّصرف في الإقطاعات المزروعة، وفي هذه الحالة كانوا يخضعون لكل الرّسوم المعتادة⁽⁵⁾. وإذا عملوا في زراعة أرض جديدة فتطبق عليهم شروط مشابهة لشروط الرّعايا⁽⁶⁾. أما الطّوغانجية فيبدو أن وضعهم مشابه ويمكن أن تنتقل امتيازاتهم إلى ورثتهم شريطة الاستمرار بالواجبات التي انتقلت إليهم. كان الرّعايا العاديون يسعون أحياناً للانضمام إلى فيلق الطّوغانجية (إذا صحت تسميته كذلك)، وذلك غالباً للتهرب من التزاماتهم، إذ ينص القانون أنهم بفعلهم هذا لا يفقدون وضعهم كرعايا⁽⁷⁾.

(1) بالفعل يذكر أحمد رفيق أنهم كانوا ممنوعين من تأجيرها أو بيعها.

(2) انظر *O.T.E.M.* 1912، العدد 17 ص 46 وما يليها.

(3) ينصّ القانون على أن السّهل فقط وليس السّبخات تمنح للفوينوق.

(4) وإن أرضهم - كأرض الملك - لم تكن حتى خاضعة للمسح.

(5) يذكر أحمد رفيق أنهم كانوا يدفعون نصف العشر بينما يذكر القانون نسبة العشر.

(6) انظر: *M.T.M.* ج 1 ص 101، 108، 308.

(7) انظر: *M.T.M.* ج 1 ص 312.

لم يكن اليوروك مستقرين في مكان معين، وهم بذلك غير خاضعين للسّنجق بك، بل يتولى أمورهم صُوباشى المنطقة التي يمرّون بها أو يختارونها لإقامتهم الصّيفية أو الشّتوية. وبهذا كان من واجب الصُوباشى منعهم من البقاء في مكان واحد أكثر من ثلاثة أيام وارتكاب أعمال السّلب في أراضي الوقف. وفي حال ارتكابهم للجرائم أو عصيانهم للأوامر تقع مهمّة عقابهم على الصُوباشى أيضاً بعد حصوله على كتاب خطي (حجّة) من القاضي المحلي⁽¹⁾.

كان رجال اليوروك القبليون يعيشون على تربية المواشي، وبذلك يتوجب عليهم دفع ضريبة المرعى (*otlak*) ورسوم الأغنام (*âdeti aġnâm* و *aġil resmi*) للسّنجق بك في المقاطعة التي اختاروها لإقامة مخيمهم الصّيفي، يؤدونها في شهر سبتمبر. علاوة على ذلك، هناك شرط ينصّ على التّحاق خمسة رجال من كل أوجاق يضم ثلاثين بالخدمة وقت الحرب، وذلك بدفع الخمسة والعشرين الآخرين 50 آقچه وتؤخذ أيضاً مساهمة أصغر - 600 آقچه - نقداً من الثلاثين رجلاً في سنوات السّلم. وكان الذين يذهبون للحرب يُعفون حينها من دفع رسم الأغنام. بشكل عام كان اليوروك معفيين من كل المساهمات الزراعيّة التي تؤخذ من الفلاحين، بما فيها رسوم الزّواج حتى في حال زواج امرأة من اليوروك برجل من الرّعايا⁽²⁾.

كان هناك ميل مؤكد في بدايات القرن السّادس عشر لهؤلاء البدو بالاستقرار، وإننا لنجد في القوانين أنظمة مختلفة تحكم هذا الاستقرار. إذا تولّى اليوروك أراضي الفلاحين، يصبحون تلقائياً من رعايا السّباهية (أو مالكين آخرين)، ويُفرض عليهم بعد عشر سنوات من الاستقرار تسجيل أنفسهم كذلك. وإذا زرعوا أرضاً إقطاعية لم تكن مزروعة من قبل يتوجب عليهم دفع نصف المبلغ الذي يدفعه الفلاحون في مثل تلك الحالة. ومن جهة أخرى، عندما يتخلّى اليوروك عن صفتهم العسكريّة، يُعفون فوراً من

(1) انظر: M.T.M. ج 1 ص 306، 307، 308.

(2) أحمد رفيق ج 7-8.

دفع رسوم المرعى التي لا تُفرض على الرعايا⁽¹⁾. يبدو من هذه الشروط أن السلطات راغبة في التشجيع على استقرار البدو، لكنها غير مستعدة للتضحية بأية عائدات.

لقد أشار الفارس دوتسون Chevalier D'Ohsson إلى تلك الفئات المختلفة من العسكر بأنها وجدت في عهد السلاطين العثمانيين الأوائل، ويحدّد أعداد بعض منها، فيقدر عدد المسلم بثلاثة آلاف واليايا بعشرين ألفاً، أما اليوروك فيخطئ في وصفهم كمشاة في الروملي لكنه لا يقدّم عدداً محدداً لهم، بينما يقدر عدد الفوينوق بستة آلاف⁽²⁾. من جهة ثانية، علمنا من مصادر تركية أن عدد اليوروك والمسلم معاً في الروملي بلغ أربعة آلاف، بينما بلغ عدد اليايا والمسلم في الأناضول ستة وعشرين ألفاً، مع حساب اليماق Yamaks التابعين لهم في الحاليتين. وبالنسبة إلى وضعهم بشكل عام فقد كانوا يكافأون على قيامهم بواجباتهم تماماً كما كان السباهية يكافأون، وكان المسلم واليايا والفوينوق والطوغانجية ينفقون أموالاً أقل ممّا ينفقه السباهية عند خروجهم للحرب من أجل السلطان. ومن أجل ذلك كانوا يتمتعون كالسباهية بالحصول على الأراضي الزراعية التي لا يتوجب عليهم دفع ضريبتها، لكنهم لا يتلقون مثلهم نصيباً من دافعي الضرائب الآخرين - باستثناء لدى خروجهم إلى الحرب. وفي الحقيقة إنهم يبذلون جهدهم لكسب العيش، بينما يكتفي اليوروك بمجرّد العناية بقطعانهم وحراستها. وبالتالي يتوجب على اليوروك مقابل الراحة التي ينالونها⁽³⁾ دفع الرسوم المذكورة سابقاً وفق النظام المتبع. ولا يبقى لنا الآن إلا أن ننظر في أحوال أهل الريف، من رعايا وعسكر، أيام الانحطاط.

سنبدأ بالحديث عن العسكر أولاً، بما أن معظمهم قد اختفوا من الساحة في وقت مبكر. في القرن السادس عشر، عندما ألحّت الضرورة على توظيف البحارة بأعداد كبيرة، استدعى المسلم أولاً للالتحاق بالخدمة وفق الشروط التي أدوا خدمتهم سابقاً

(1) انظر: M.T.M. ج 1 ص 306-307.

(2) دوتسون 7 ص 308-309، 378-379.

(3) إسماعيل خسرو ص 58.

على أساسها⁽¹⁾. ولكن بعد أن اكتُشف أنهم غير مناسبين للمهمة سُمح لهم بدفع رسم مقابل الإعفاء من الخدمة، وصار وضعهم يُعدّ أقرب إلى وضع الرعايا العاديين، حيث امتزجوا بهم بمرور الزمان وصارت أراضيهم «ميري مشاع» مع بقاء عائداتها لصالح الأدميرالية. أما اليايا فيبدو أنهم اختفوا - ولا ندري إن كان قد سُمح لهم بالبقاء في أراضيهم كرعايا، لكن أراضيهم تلك حُوّلت إلى إقطاعيات عادية وُجمعت في أربعة عشر قسماً وأصبحت، باسم «البيليك»، مخصصة لرواتب ضباط الإنكشارية المتقاعدين⁽²⁾. ويبدو أن الطوغانجية قد اضمحلوا واطمحلّت معهم رياضة الصيد بالصقور التي لم تعد متبعة بين السلاطين اللاحقين⁽³⁾. ومن جهة أخرى، فقد ظل الفوينوق متواجدين على الأقل لغاية القرن الثامن عشر⁽⁴⁾، لكنهم خلال الثلاثين سنة من السلام توقفوا لسبب ما عن تربية الخيول لصالح الجيش كما كانوا يفعلون في السابق. وعندما اندلعت الحرب مجدداً عام 1767 أصبح الحصول على هذه الخيول يتم عن طريق مصادرتها⁽⁵⁾.

أما بالنسبة لليوروك، فقد كفّوا أيضاً عن القيام بمهامهم الإضافية بحلول نهاية القرن السادس عشر، وبمرور الزمان استقر عدد كبير منهم تدريجياً ثم امتزجوا بسكان الأرياف. وكما سبق أن ذكرنا، شجعت الحكومة منذ البداية على استقرار البدو كونهم أصعب مراساً ومستعدين دائماً لإحداث المشاكل والاضطرابات. وفي القرون اللاحقة تابعت سياستها نفسها مع محاولات لم تفلح جميعها، لمنع هجرة القبائل إلى أماكن

(1) سيّد مصطفى ج 3 ص 92.

(2) دوشون ج 7 ص 308-309.

(3) دوشون.

(4) أحمد رفيق «Türk Idâresinde Bulğaristân»؛ دوشون ج 7 ص 378-379.

من الصعب التأكيد إن كان دوشون يتحدث عن أمر موجود في زمانه أم لا، لكن يدلّ هذا النص على أن الستمنة من الفوينوق الذين قدموا إلى القسطنطينية لرعي خيول السلطان كانوا موجودين في زمانه.

(5) سيّد مصطفى ج 3 ص 111.

محدّدة⁽¹⁾. وقد ظل السلاطين يمتقنون اليوروك بسبب شغبهم والبدع التي يتبعونها، إذ كانوا متمسكين بمعتقدات أجدادهم الفاتحين أكثر من أقربائهم المستقرّين، لدرجة أن كلمة يوروك أصبحت مرادفة لكلمة الضال أو قرل باش⁽²⁾ *Kızıl-baş*. وبالرغم من عدم قيامهم بالثورات بعد ثورة أسرة الجاللي في نهاية القرن السادس عشر، فقد ظلوا في نظر السلاطات مصدر قلق لها بين الحين والآخر. وقد بقيت المجموعة التي تدعى بالترُكمان تجهّز القوات في زمن الحرب، ويقدر دوشون عددهم بعشرة آلاف⁽³⁾.

وبحلول القرن الثامن عشر، كانت الأراضي الزراعيّة التي كان العسكر فيما مضى يقومون على زراعتها (تميّزاً لها عن التّيمارات التي كان يملكها السّباهية فقط) قد تحوّلت بطريقة أو بأخرى إلى أراضٍ تخصّ الفلاحين العاديين. وكلّ ما تبقى من العسكر في في الأرياف (باستثناء السّباهية أيضاً) هم بعض الثّوينوق المهمّلين لواجباتهم - وربما كان سبب اختفائهم بعد فترة قصيرة يعود لهذا السّبب - وعدد كبير من اليوروك المشاغبين غير الخاضعين لأي سلطة، وقد كانوا إما من البدو أو يعيشون مراحل مختلفة من الاستقرار.

إن العامل الرئيسي في اضطراب النظام فيما يتعلق بالزراعة والفلاحين إذن هو توسّع نظام الضرائب على مختلف أصناف الأراضي. في القرون الأولى للإمبراطورية لم تكن هناك ضرائب، حتى ضرائب ورسوم أراضي الخاص والأراضي الحكومية كان يجمعها موظفون رسميّون يدعون الأمناء *Emîns*. ولكن خلال عهد السلطان سليمان العظيم كانت أراضي الخاص الإمبراطورية تؤجر لمزارعي الضرائب، ثم توسّع النظام ليشمل الأراضي الحكومية والإقطاعيات وحتى أراضي الوقف. في هذه الظروف لم يكن يعني الفلاحين من هو صاحب الأرض التي يسكنونها ؛ ففي كل الحالات كان عليهم التعامل مع مزارعي الضرائب، أي الملتزمين، الذين كان جلّ

(1) انظر أحمد رفيق «*Anadoluda Türk Aşireteleri*».

(2) انظر هاسلّك «المسيحية والإسلام في عهد السلاطين».

(3) دوشون ج 7 ص 379.

اهتمامهم هو انتزاع أكبر قدر ممكن منهم من أجل تحقيق أرباح وفيرة للصفقات التي تعهدها.

وفي الوقت ذاته فقد تغير النظام الأصلي لامتلاك الأراضي بشكل كبير، مما أثر بدوره على الفلاحين. نبدأ القول بأن عدداً كبيراً من الأراضي قد تحوّل - إما قانونياً - إلى هبات ملكية - أو بشكل غير قانوني (أي بالاستيلاء) إلى أملاك خاصة؛ التي غير أصحابها الجدد بعضها إلى أملاك وقف⁽⁴⁾. علاوة على ذلك فقد استمرّ السلاطين بتحويل أملاك الدولة إلى أوقاف⁽⁵⁾ بينما لم يحوّل أي وقف لأغراض أخرى⁽⁶⁾. ومن هنا أصبحت نسبة أراضي الوقف أكبر ممّا كانت عليه في السابق.

لكن هذه التحويلات، وبخاصّة التي أجريت على أراضي الدولة، قد قلّصت العائدات المحصّلة للخزنتين اللتين أصابهما التدهور منذ نهاية القرن السادس عشر بسبب توقف الفتوحات، وبالتالي توقف الحصول على الغنائم، من جهة، ومن جهة أخرى بسبب ازدياد نفقات الإدارة والجيش. ومن هنا لجأ الميري إلى إلغاء الإقطاعيات، وعندما كان السباهي يتوفى دون أن يكون له وريث مناسب تصبح إقطاعيته شاغرة (*mahlûl*) بدلاً من منحها لشخص آخر كما ينصّ القانون، فتستولي الخزينة عليها وتبقيها للاستثمار. ولذا فقد ضعفت قوة خيالة السباهية حتى وصلت في القرن الثامن عشر إلى ربع ما كانت عليه من قبل⁽⁷⁾. لكن الخزينة لم تبالِ بالأمر بعد أن استولت على العائدات التي كان الإقطاعيون السابقون يقومون بجمعها. لم تكن إقطاعيات السباهية هي التي اضمحلت فقط، بل تحوّلت كذلك معظم الأراضي

(4) إسماعيل خسرو «Türkiye Köy İktisadiyatı» ص 169، 173؛ انظر جودت ج 1 ص 102.

(5) جودت، المصدر السابق.

(6) يذكر سيّد مصطفى ج 3 ص 176 أنه في بداية القرن الثامن عشر كانت إدارة الأوقاف المتعلقة بالماد الإمبراطورية للسلطان الفاتح والسلطان سليم والسليمانية قد مُنحت للمصدر الأعظم من أجل زيادة عائداته، لكنه كان مخولاً باستخدام الفائض فقط بعد دفع التّفقات الضرورية.

(7) سيّد مصطفى ج 3 ص 94. حدث نقص في أعداد السباهية منذ حملة عام 1593؛ المصدر السابق ج 1 ص 123؛ جودت ج 1 ص 103.

التي كانت مخصصة لإعالة موظفي الحكومتين المركزية والإقليمية⁽¹⁾، إلى أراضٍ حكومية. وفي القرن الثامن عشر أيضاً لم يعد هناك أراضي «خاص» من هذا النوع بل أصبحت ملكاً للصّدر الأعظم والقطان باشا والنّشانجي⁽²⁾. تمّت هذه العملية بسهولة بعد تعديل القانون الذي كان ينصّ على أن منح إقطاعيات السّباهية كان من شأن البكربكية⁽³⁾ الذين أصبحوا منذ نهاية القرن السّادس عشر يكافئون أتباعهم بمنحهم الإقطاعيات الشّاغرة وحتى قبض الرّشاوى منهم، فذهب الإقطاعية إلى من يدفع مبلغاً أكبر سواء أكان قادراً على القيام بمهام السّباهية أم لا⁽⁴⁾. ولهذا صدر فرمان بتزع حقوق المنح من الحكام الإقليميين وتركه لسلطات الباب العالي. لكن هذا العمل الإصلاحى أدى إلى نتائج سيئة؛ أولاً، لقد مكّن موظفي الباب من تحويل الإقطاعيات إلى أراضي الميري التي أشرنا إليها. ثانياً، حرم النّاس الذين يستحقون الإقطاعيات - وبالتحديد الجبّة لية *Cebelis* الذين يعدّ رئيسهم مخولاً ليترقى ويصبح من السّباهية عندما تصبح الإقطاعية شاغرة - من استرجاع الهبة الخاطئة كانت قد منحت لهم سابقاً بمطالبة من البكربكية للباب العالي⁽⁵⁾. وبالتالي فالنتيجة أنّ هذه التّغييرات لم تقتصر على تخفيض عدد الإقطاعيات فقط، بل وقوع عدد كبير منها في أيدي أشخاص غير مؤهلين لا للخدمة العسكرية ولا للتصرف الصّحيح في الأمور الزراعيّة.

لكن سبق وقلنا إن تملك الرّعايا للأراضي أصبح أمراً قليل الأهمية بين الفلاحين بسبب توسّع نظام الضرائب، وقد عمّ الأمر كل أراضي الدّولة وأراضي الإقطاعيات التي يملكها أشخاص ليسوا من السّباهية الأصليين والأراضي التي حوّلت، بطريقة قانونية

(1) كانت أراضي الخاص والزعامت تمنح للأعلى رتبة، والخدمة تيمار للأدنى رتبة.

(2) سيّد مصطفى ج 3 ص 76.

(3) المصدر السابق ج 1 ص 121.

(4) المصدر السابق ج 1 ص 123، ج 2 ص 96. بدأ تقاضي الرّشاوى منذ عهد السلطان سليمان نفسه. بل زاد الأمر سوءاً بتحويل الصّدر الأعظم سوكلو في عهد السلطان مراد الثالث لسبعة عشر تيمار عالية الإنتاج إلى أراضي خاص سلطانية، كما خالف السلطان القانون بمنح التيمارات لبعض الضباط المتقاعدين. انظر جودت ج 1 ص 101.

(5) جودت ج 1 ص 101؛ إسماعيل خسرو ص 168.

أو غير قانونية، إلى أملاك خاصة، كما أنه أصبح شائعاً في أراضي الوقف والتيمارات العادية⁽¹⁾. وبمجيء الوقت المتعلق ببحثنا، كان النظام الإقطاعي القديم قد اضمحل باستثناء إقطاعيات الشباهية الذين كانوا لا يزالون يجمعون إيراداتها بأنفسهم.

وفي كل المناطق الأخرى صار على الرعايا التعامل مع جامعي ضرائب المدعوين بالمحصّلين *Muhassils* في أراضي الخاص الإمبراطورية⁽²⁾، وبالملتزمين في الأراضي الأخرى والذين كان همهم الوحيد هو انتزاع ما يقدرّون عليه من الفلاحين. كان سلوك الملتزمين يعتمد إلى حدّ ما على مصادر عقودهم، فإن كانوا متعاقدين مع صاحب إقطاعية أو مالك للأرض يتوجب عليهم الحرص على مصالحهم وازدهار أراضيهم، فمع أنّ الملتزمين مخولون نظرياً بجمع الرسوم القانونية فقط من الفلاحين، فقد منحوا أنفسهم الحق في تطبيق جزء من السلطة التي كان أصحاب الإقطاعيات يتمتعون بها⁽³⁾، وصاروا يستخدمونها بحيث تعود عليهم صفقاتهم بالربح الوفير. وبما أن ازدياد نفوذهم قد ترافق مع سقوط الإدارة القضائية، المتمثلة بالعلماء والحكام العسكريين الإقليميين، بأيدي أشخاص غير قادرين على القيام بها كالتواب من جهة والملتزمين والثوينوق من جهة ثانية، فلم يعد لدى الرعايا الثقة بإمكانية اللجوء للقانون ليوقف في وجه الأعمال غير القانونية.

ولقد أصبحت الأمور المتعلقة بالملتزمين أسوأ في نهاية القرن السابع عشر منها في القرن الثامن عشر، فقد أدخلت الخزينة بعد صلح كارلوفيتش نظاماً جديداً في منحها لعقود ضرائب الأراضي مدى الحياة (مالكانة) *mâlikâne* ويبدو أن هذا الإجراء قد حقق الهدف منه بتحسين حالة الفلاحين، إذ كان جامعو ضرائب الأراضي ذوو العقود الدائمة يتطلعون للمستقبل، وبدلاً من انتزاع المال من الفلاحين حتى آخر آفقه كما كان يفعل أسلافهم ذوو العقود المؤقتة لسنة أو سنتين، أخذوا يحرصون في قضية

(1) سيّد مصطفى ج 2 ص 96.

(2) إسماعيل خسرو ص 170.

(3) إسماعيل خسرو ص 170. وأصبحوا يعدون أصحاباً للأرض كالتساهية.

جمع الضرائب، ويعتقدون أن مصلحتهم الخاصة وازدهارهم مرتبطان بمصلحة وازدهار الفلاحين⁽¹⁾. صحيح أن معظم تلك الأراضي هي من نصيب ضباط وموظفي القصر والباب والممثلين لهم في الإدارة، فإن نصيبهم من عائدات الأراضي قد دفعهم إلى الحدّ نوعاً ما من جشع ممثليهم هؤلاء، لكن نظام المالكة لم يكن بديلاً مُرضياً لنظام تملك السّباهية للأرض الذي وإن كان يقي الفلاحين في حالة من العبودية، فإن سلوك أسيادهم كان أبوياً، وكانوا يبادلونهم وجهات النظر حتى صار منصبهم مقدساً في أعينهم بعد مضي فترة طويلة عليه.

كان لانتشار ملتزمي الضرائب دورٌ كبير في اختلال النظام الذي كان سائداً في الأقاليم من قبل. لكن الأمر الذي جعل مزاولة الزراعة أمراً صعباً بل مستحيلاً في بعض الحالات هو الفوضى التي لحقت بتلك الأقاليم، بسبب ضعف الحكومة المركزية وما تبع ذلك من ظهور الحكام الواهين، وقد سبق لنا ذكر نشوء الدّره بكية، وبهذا تكفي ملاحظة أنهم في المناطق التي مارسوا فيها سلطتهم المترددة كانوا يميلون، لاعتمادهم على التأييد الشعبي، إلى الاهتمام بمصالح الفلاحين ككلّ بشكل أشدّ تعاطفاً ممّا كان عليه الحكام المحليون الذين يمثلون السلطان. ومن الواضح أن أحداً منهم لم يحاول إحداث ابتكارات إدارية، بل قنعوا بجمع عائدات المنطقة لصالحهم الخاص. لكن تداعي النظام في الأقاليم أدّى إلى نشوء طبقة أخرى من الأثرياء يدعون بالأعيان *A'yāns* الذين أسهموا بمرور الوقت بزيادة مصائب الفلاحين.

كان الأعيان أشخاصاً مهمّين في مقاطعاتهم، أي وجهاء الرّيف، ولم يكونوا موظفين حكوميين، لكن الطريقة التي اكتسبوا منزلتهم بها أول مرة لا تزال غير واضحة. ربما يعود ذلك للتحوّل القانوني وغير القانوني للإقطاعيات والأراضي الأخرى إلى أملاك خاصّة، إذ لم يكن في المخطط الأساسي لامتلاك الأراضي هناك مكان لأشخاص مثل هؤلاء. ظهر الأعيان أول مرة كممثلين للسكان المحليين في تعاملهم مع الحكومة، لكن لم يكن وجودهم ضرورياً أيضاً في المخطط الأساسي. وكما سبق ولاحظنا،

(1) جودت ج 4 ص 286.

فإن البكلربكية والسَّنَجق بكية - الذين يُدعون الآن بالولاة والمتمصرّفين على التّرتيب - كانوا مضطرين، بسبب سلطتهم في جمع عائدات مقاطعتين مستقلتين أو أكثر، إلى توظيف نائين عن الحكومة في المقاطعات التي لم يكونوا مقيمين فيها. وربما يكون هذا التطور وأن هؤلاء التّواب - المتسلمين في السَّنَجق والثويفودا في الأفضية - لم تكن لهم سوى سلطة الضبّاط الذين قاموا بتعيينهم، سبب في نشوء طبقة الأعيان كمالكين للأراضي الخاصّة وممثلين عن السّكان أمام الحكومة، وبالمقابل ممثلين عن الحكومة أمام السّكان. صحيح أن السّكان هم الذين كانوا يتخبون الأعيان، بطريقة غير واضحة، فقد كانوا يتمتّعون بمنصبهم هذا بصرف النّظر عن الانتخاب - ربما لأن أحفاد الأعيان كانوا يُعدّون من الأعيان أيضاً ولو لم يتم انتخابهم. وفي منتصف القرن الثامن عشر حاول بعض الحكام التّحكم بتعيينهم وفرض مبالغ يدفعونها لقاء ذلك⁽¹⁾. وفي الوقت نفسه لجأ أعيان مقاطعات معيّنة، بفضل مركزهم وتراخي سيطرة الحكومة، إلى وسائل يضمّنون بها إدارة الشّؤون المحليّة وبالأخصّ مسألة الضرائب، وانضمّوا بذلك إلى فئة الضبّاط القانونيين في نهب الفلاحين الذي باتوا غير قادرين على الدّفاع عن أنفسهم⁽²⁾. علاوة على ذلك، فإن التدهور العام لحالة القانون والنّظام قد أدّى إلى ظهر عملاء جدد كالمبايعجية *Mubâya'cis* وهم من يشترّون الحبوب ويملكون سلطة في بعض المناطق بشراء المؤن بسعر ثابت لتزويد العاصمة بالطعام. ولدى الفلاحين غير المسلمين، هناك الجزية دارية وهم من يجمعون الضريبة عن كل فرد ولهم أن يطبقوا الضغوطات على الفلاحين التّعساء⁽³⁾ ممّا أدّى إلى ازدياد حالات التّخلي عن الأراضي.

(1) جودت ج 4 ص 286.

(2) إسماعيل خسرو ص 170؛ جودت ج 4 ص 285-286، ج 6 ص 65. يشير سيّد مصطفى إلى الأعيان كوجهاء المدن والبلدات. ويذكر جودت أنهم كانوا يتعاونون مع القضاة والتّواب المرتشين في جمع رسوم الحرب من الفلاحين مما جعل الكثير منهم يتخلّون عن أراضيهم.

(3) جودت ج 4 ص 287، 290-291.

في منتصف القرن السابع عشر دوّن كاتبان شهيران⁽¹⁾ ملاحظات عن عدد من القرى المهجورة التي صادفوها في أسفارهم في المقاطعات، وبالرغم من أن عملية إخلاء السّكان قد توقفت مؤقتاً، أو أجلت على الأقل، بتأسيس نظام أراضي المالكانة (التي تُملك مدى الحياة) فإنّ سرعتها ازدادت خلال القرن الثامن عشر وبالأخصّ أثناء نصفه الثاني⁽²⁾. لم يشهد على إخلاء أراضي الرّوملي والأناضول الباحثون الأوروبيون في ذاك العصر فقط⁽³⁾ بل الفرمانات التي صدرت لمنع تدفق الفلاحين إلى إسطنبول؛ وكانت أسر الفلاحين تهاجر دون شك إلى مناطق أفضل حالاً بعد تركها لأراضيها. وإذا لم ينضمّوا إلى عصابات قطاع الطّرق الذين ظهروا في الإقليمين، فإن العديد منهم كانوا يتخلّون عن الحياة الرّيفية برمتها ويسعون وراء رزقهم في البلدات والمدن⁽⁴⁾. لا توجد إحصائيات سكانية بالطّبع تعود لتلك الفترة، ويبدو جلياً من تلك الدلائل أن الطّبقات التي عاشت في القرنين السابع عشر والثامن عشر على جمع الضرائب والرّسوم قد شاركت لفترات طويلة من الزّمان في خنق الإوزات المسكينة التي كانت تبيض بيضاً من ذهب.

2. الأقاليم العربية

يمكن للوصف الذي قدّم في القسم السّابق أن ينطبق في خطوطه العامة على الأقاليم الآسيوية. وفي الأقاليم كلها يعتمد الاقتصاد الرّاعي على القرية بأراضيها الرّاعية والرّعوية. كانت الأراضي أيضاً بأيدي ثلاثة أصناف من المالكيين الذين عرفناهم من قبل وهم المزارعون أنفسهم (وهنا يدعون بالفلاحين وليس بالرعايا)، والمستأجرون

(1) هما حاجي خليفة وقوچي بك *Koçu Bey*.

(2) إسماعيل خسرو ص 171-172. يذكر حاجي خليفة الفرق بين الرّيف المزدهر الذي شاهده على الجهة الفارسية من الحدود، وبين الرّيف في الجهة العثمانية.

(3) على سبيل المثال إيتون ص 259 وما يليها. وهنا مصادر تشير إلى قرى مضمحلة كانت موجودة في النصف الأول من القرن الثامن عشر على طول الطّريق من إسطنبول إلى أنقرة ومن إسطنبول إلى بلغراد.

(4) إيتون ص 248، 259.

الأساسيون الممثلون إما بأصحاب التّيمار أو الملتزمين، والمستفيدين من أراضي الوقف. وسنستني في الوقت الحاضر الفئة الثالثة التي تدخل في اقتصاد القرية بدرجات متفاوتة، ونوجّه اهتمامنا إلى الفئتين الأولى والثانية والعلاقات التي تربط بينهما.

إن مركز الفلاحين بالنسبة للمستأجرين الأساسيين مشابه لمركز الرّعايا في الأقاليم التّركية، وكانت الأغلبية في كل قرية من المالكين الذين يملكون حرية منح الأراضي للفلاحين ونقلها لغيرهم، لكن كانت كل قطعة أرض ممنوحة للفلاح خاضعة لضريبة تُدفع للمستأجر الذي حصل على الأرض كهبة من الدّولة⁽⁵⁾. من جهة أخرى، لا يمكن للمستأجر انتزاع الأرض من الفلاح إلا في حال عدم تسديده للضريبة.

وكما في الأقاليم التّركية، فإن الملتزمين (أو الضبّاط كما يُدعون في العراق) في الأراضي العامة والمالكانات قد اكتسبوا بسبب حقهم في جمع ضرائب الأراضي الزراعيّة، مركزاً يشابه مركز أصحاب التّيمارات إن لم يكن أعلى منه. كان الالتزام يتم في البداية على أساس سنوي، لكن يبدو أن هذا النّظام قد تغيّر تدريجياً في معظم المقاطعات، وفي عام 1692 صدر مرسوم بالنّظر إلى المالكانات على أنها ملك لصاحبها مدى الحياة وهو حرّ بيعها بعد موافقة الدّولة، وبعد وفاته تباع العقارات بالمزاد العلني ولأبنائه الأولوية في الحصول عليها⁽⁶⁾. وبحلول القرن الثامن عشر يمكننا افتراض أن معظم التزامات أراضي الدّولة في الأقاليم التّركية (تميزاً لها عن العقارات الخاصّة) كانت تُمنح مدى الحياة.

(5) يفترض رجال القانون أن الحقوق القديمة لتملك الأرض كانت قد سقطت في هذا الوقت لعدم وجود الورثة أو لأسباب أخرى، وأن الأرض التي استرجعتها الخزينة يمكن أن يمنحها السّلطان بأي طريقة يفضلها. انظر ابن نسيم «البحر الرّائق» ج 5 ص 118، وابن عابدين «منحة الخالق» ج 5 ص 114.

(6) الغزّي ج 3 ص 292، ويضيف أن التّغيير كان نعمة كبيرة للفلاحين (بالرغم من أنه فشل في التّخفيف من مساوئ نظام الضرائب). وفي الوقت نفسه كان يفرض على كل قرية مبلغ ثابت سنوياً يجمعه أصحاب الأراضي على ثلاثة أقساط. انظر المُراي ج 4 ص 130؛ وهوليك «نظام الإقطاع في مصر» ص 62.

وعندما تنتقل من التعميمات إلى التفاصيل تواجهنا مشكلة مربكة، فالحقوق والعادات في القرى مختلفة بشكل كبير، ليس من إقليم لآخر فحسب بل داخل المقاطعة نفسها، لدرجة أن التفاصيل بحاجة إلى تعديل كبير في كل منطقة. على سبيل المثال في أجزاء معينة من سوريا وفلسطين وفي مصر العليا كان من الشائع تملك الأراضي الريفية ودفع الضرائب عيناً⁽¹⁾، أما في العراق الأدنى فكان الفلاحون يزرعون أجزاء صغيرة من الأرض بينما تقوم باقي أعمال الزراعة على الرعاة شبه البدويين⁽²⁾. لكن أهمية التقاليد والأعراف كانت شائعة، ويمكن تمثيلها بشكل واضح في العادات الغربية المتبعة بالقوة في الجزء الأكبر من مصر العليا والوسطى⁽³⁾. ومن المهم لبحثنا في الوقت نفسه أن نلخص بعضها بالتفصيل على ضوء التغيرات التي أدخلها محمد علي.

بعد الفتح العثماني لمصر، قسّمت الأراضي الصالحة للزراعة (باستثناء أراضي الوقف) إلى قطع ووزعت بين أفراد الأوجاقات والأشخاص الآخرين كالملتزمين⁽⁴⁾. وأثناء القرن السابع عشر⁽⁵⁾ اكتسب هؤلاء الملتزمون حق توريث الأرض لمن بعدهم، وبحلول القرن الثامن عشر أصبح الملتزم مالكاً فعلياً وله السلطة في زيادة أو تخفيض الضرائب المفروضة، وكذلك بيع أو إعطاء الأرض لملتزمين آخرين، أو منحها لابنه أو

(1) من أجل فلسطين وسوريا انظر «*Revue des Etudes Islamiques*» ج 9 (1935) ص 240؛ ومن أجل مصر العليا انظر لانكريه ص 245-247.

(2) روسو ص 62-63.

(3) يمكن العثور على تفاصيل كاملة في مقالات رئيسية ثلاثة في كتاب وصف مصر «*Descript-tion*»: لانكريه «ضريبة الأرض»؛ وكونت إستيف «الموارد المالية في مصر»؛ وجيرار «الزراعة والصناعة والتجارة في مصر»

(4) كانت التوجيهات الأساسية الصادرة عن السلطان سليمان تنص على أن يقدر الدفتردار عائدات كل قرية وينظم الالتزام وفقها، ثم يخصصها للأغنياء وعلية القوم الذين يمكن لهم التزام أكثر من قرية في آن معاً (ديجون «قانون نامه» ص 210-211؛ دى ساكي ج 1 ص 105).

(5) يظهر ذلك في نص أورده دى ساكي ج 1 ص 139-140.

أبنته أو حتى جعلها وقفاً بعد الحصول على موافقة الدولة⁽¹⁾ في الحالات الثلاث. إذن كان منصبه مشابهاً لمنصب أصحاب التيمار، لكنه يشبه أيضاً منصب الملتزم العادي في أوروبا أو آسيا بأن مهمته الأساسية كانت جمع عائدات القرية أو القرى وإرسالها إلى الخزانة الإقليمية والمركزية. أما حقوق وواجبات الفلاحين المصريين فهي نفس حقوق وواجبات الرعايا.

وهكذا يبدو أنه بالرغم من أن الفلاح المصري لم يكن قادراً على التحكّم بأرضه، فقد كان بإمكانه منحها مؤقتاً⁽²⁾ كما كان له حرية اختيار المحاصيل التي يزرعها دون أي تدخل من الملتزم⁽³⁾ حتى وإن كان تناوب زراعة المحاصيل خاضعاً للأعراف المحلية. ومن جهة أخرى، لقد كان دون شك مرتبطاً بالأرض، بالرغم من أن أي نظام يجعل الفلاح نصف حرّ كان بغياً إلى السرايا طالما أن المزارعين المسلمين هم المعنيون. إن قانون ناميه السلطان سليمان واضح وصريح فيما يتعلق بهذه النقطة، إذ ينصّ على أنه إذا ما بقي الحقل دون زراعة بخطأ من المزارع، فإن الكاشفين⁽⁴⁾ سييذلون ما بوسعهم لإيجاده وإعادةه إلى قريته ومعاقبته، كما سيُجبرونه على زراعة حقله⁽⁵⁾. وقد قال المؤرخ الجبرتي: «وإن لم يفعل ذلك تكفل باستخلاص ذلك كاشف الناحية وعين على الناحية الأعوان بالطلب الحثيث»⁽⁶⁾. وبما أن الشواهد التاريخية تدلّ على أن مشكلة الهروب كانت إحدى الصعوبات التي وقفت في وجه الحكومة المصرية

(1) أي الباشا والقسم المالي في القاهرة، ويدفع مبلغ سلفاً ويدعى هنا «الحلوان».

(2) يؤكد إستيف ذلك (ص 304) وشابروول (ص 246) بينما ينكران معاً قول لانكريه (ص 235) بأنه كان حرّاً في بيع أرضه.

(3) لانكريه ص 236؛ انظر الجبرتي ج 4 ص 254، ج 9 ص 190.

(4) الكاشف هو حاكم المقاطعة وهو أدنى رتبة من اليك.

(5) ديجون ص 243-244، 246. ويذكر أن الفلاحين الذين غادروا قراهم بعد الفتح العثماني سيجبرون على العودة إليها مهما كانت ذرائعهم.

(6) الجبرتي ج 4 ص 109، ج 8 ص 244، ج 4 ص 207، ج 9 ص 88، وانظر الفصل السابع من الكتاب.

منذ القرن الأول للحكم الإسلامي⁽¹⁾، فيبدو أن نظام خضوع الفلاحين للإقطاع كان مرتكزاً إلى الأعراف القديمة واستمرّ العثمانيون عليه كما هو⁽²⁾. ولا يمكننا تحديد إن كان انتشاره إلى أجزاء من سوريا وفلسطين عائداً إلى عهد المماليك أم العثمانيين، لكن يعود الفضل إلى السلطات الدينية في الاحتجاج بقوة على الاستبداد والظلم⁽³⁾. وبالرغم من تحريم مغادرة القرى، فقد حدث ذلك مراراً وتكراراً في فترات سوء الإدارة الزراعية كما سلاحظ من خلال بحثنا.

في كل القرى تقريباً، كان جزء من الأراضي التي يملكها الفلاحون (ويقدر بالعشر) يُترك جانباً ويسمى أرض الوصية *ard al-waṣīya* حيث يقوم الملتزم أو الملتزمون بزراعتها. وإن الخطر الكامن بابتلاع أرض الوصية مع الزمن لأراضي الفلاحين تمكن تجنبه بطريقة بارعة، فقد كانت أراضي الفلاحين وأرض الوصية في كل قرية تقسم إلى أربعة وعشرين قيراطاً تعود بأكملها لملتزم واحد أو تقسم بين عدة ملتزمين. كان كل ملتزم يملك نفس العدد من القرايط (وأجزاء من القيراط) من أرض الوصية ومن أراضي الفلاحين ولم يكن يستطيع بيع أي حصّة من أرض الفلاح دون بيع حصّة مماثلة لها من أرض الوصية⁽⁴⁾. وبهذا تم الحفاظ على توازن المصالح، إذ بينما كانت

(1) انظر: H. I. Bell «إدارة مصر في عهد الخلفاء الأمويين».

(2) تزودنا بمعلومات من مصدر مصري موثوق تفيد بأن منح الأراضي قديماً كان متسماً بوجود عدد كبير من الفدادين ومن الأقباط المستفيدين من المنح، مما يدل على أن الفلاحين الأقباط كانوا الوحيدين المرتبطين بالأرض، وأن النظام قد امتد ليشمل الفلاحين المسلمين بأعراف غير قانونية ومستبدّة.

(3) يورد ابن نسيم ج 5 ص 118 أن أرض مصر لم تعد خاضعة للضريبة بل للإيجار، وبذلك لم يعد هناك حجة ضد الفلاح إن ترك أرضه دون زراعة إلا إذا كان مستأجراً، وأيضاً لا يمكن إكراهه على البقاء في الأرض، فإذا غادرها ذاهباً للسكن في القاهرة لم يعد بمقدور أحد إخضاعه بالقوة، وأي إجراء كهذا هو غير قانوني وبالأخص إن كان يرغب بدراسة القرآن أو الالتحاق بجامعة الأزهر. (كان ابن نسيم، المتوفى عام 1563، من أشهر الفقهاء الحنفية في مصر في العهد العثماني). لكن لم يكن هناك ما يدل على أن فلاحي الأرض التي يملكها الشيخ كانوا أكثر حرية من باقي الفلاحين.

(4) من جهة أخرى قد يعين جزءاً من أرض الوصية، أو كلها، كوقف، لكنه نادراً ما يخصص

أراضي الوصية تعود بربح أوفر للملتزم فقد كانت أشد إرهاقاً للفلاحين الذين كانوا يزرعون أجزاء عديدة منها بنظام الشُّخرة⁽¹⁾. ولم يكن ذلك ليبقي هذا النظام لولا الفائدة المتحصلة من إنهاء تعارض المصالح بين البائع والمشتري.

ليس من السهل في بضعة أسطر وصف النظام بأكمله الذي يُقسم وفقه المبلغ الإجمالي للضرائب بين سكان كل قرية⁽²⁾، وهي مهمة جماعة مكونة من صرّاف قبلي يمثل الملتزم، وشيخ البلد الذي يختاره الملتزم من بين الأسر الغنية للفلاحين التابعين له لكن المنصب متوارث في الحقيقة⁽³⁾، بالإضافة إلى الشاهد أو محامي القرية الذي يتولى شؤون الفلاحين. لدى تقسيم الضرائب القديمة⁽⁴⁾ كانت أراضي الوصية مشمولة تماماً كأراضي الفلاحين⁽⁵⁾، أما الضرائب الإضافية فلم تشمل إلا أراضي الفلاحين.

أراضي الفلاحين للهدف ذاته. (لانكريه ص 239).

(1) لم يكن ذلك في كل المناطق بل يختلف الأمر من مقاطعة لأخرى (وبالتالي لا يمكن تعميم الصورة القائمة التي رسمها الجبّرتي ج 4 ص 207، ج 9 ص 88). في بعض المناطق كان الملتزم يعهد بأرضه إلى شيخ البلد أو يجعل الفلاحين يزرعونها مقابل أجر نقدية وعينية. كان يُطلب من الفلاحين أيضاً تنظيف القنوات الخاصة لكنهم يتقاضون أروهم بنسب ثابتة (لانكريه ص 243)، كما أن قانون السلطان سليمان يخوّل الكاشفين بفرض ضريبة على القرى لصيانة وإصلاح الخنادق (ديجون ص 200-201).

(2) يمكن الحصول على رواية مفصلة مع نماذج عن الضرائب في كتاب إستيف ص 312 وما يليها.

(3) كان كل ملتزم يعيّن شيخ بلد لجمع الضرائب، وإذا كان الملتزم يملك أراضي واسعة كان يعيّن أكثر من شيخ بلد في أجزاء عدة، وبالتالي كان هناك عدة شيوخ بلد في كل قرية. انظر لانكريه ص 241.

(4) كما سيتضح في الفصل السابع من الكتاب، كان مجموع الضرائب المفروضة على القرى المصرية في نهاية القرن الثامن عشر يشمل:

أ. ضرائب وضعها النظام العثماني عام 1526 وتسمى «المال الحر» وتتضمن الميري أو الضريبة التي تؤدّى للسلطان، وبعض المبالغ الثابتة التي تؤدّى للسلطات المحلية.

ب. ضرائب إضافية تجبى منذ بداية القرن الثامن عشر وتعرف باسم «البراني».

(5) يوضح الجدول الذي وضعه إستيف (ص 314-317) أن أراضي الوصية كانت تقدر بقيمة أقل بينما تقدر أراضي الفلاحين بقيمة أعلى لأجل الضرائب وكان الفدان يقدر بـ 5,353 متراً

كان المزارعون يدفعون الضرائب فردياً ونقداً وبالتقسيط. نظرياً كانت الأرض المروية فقط هي التي تستوجب الضريبة، ولكن عند انخفاض مياه النيل أو ارتفاعها كانت المنطقة غير المزروعة تقاس ثم يستقطع جزء من حصة الرسوم الكاملة للقرية (مع بقاء الميري دون تغيير)⁽¹⁾. وفعلياً، كان الملتزمون يفرحون بانخفاض الواردات المؤقتة في السنة المجدة، لكن النقص كان يضاف غالباً إلى المبلغ المحصل في السنة التي تليها⁽²⁾. ومن أشد الدلائل على استحكام العادات هو أنه بالرغم من الزراعة الواسعة لأشجار النخيل فلم تُفرض ضريبة على محاصيلها⁽³⁾.

وبهذا، كانت كل قرية وحدة مستقلة بذاتها يحكم حياتها اليومية مجموعة من الأعراف التقليدية، ولا تتأثر كثيراً بالأحداث الخارجية. أما صلاتها بالحكومة فمقتصرة تقريباً على دفع الضرائب المفروضة، وبصرف النظر عن تدخل الملتزمين والضباط العسكريين الآخرين فقد كانت ذاتية الحكم. كان أهم شخص في المجتمع القروي هو شيخ البلد، وكان كل شيخ يرأس الفلاحين الذين يزرعون الأراضي تحت إمرته، وكان الشيخ الرئيسي يتصرف كقاض وحكم، وله سلطة ليس على الفلاحين فحسب بل على سكان القرية جميعهم⁽⁴⁾. وبالرغم من كونه على الأغلب فظاً مستبدًا،

مربعاً بدلاً من 5، 929 متراً مربعاً (جيرار ص 505-506). ويذكر جيرار الحالات الجائرة في تقدير الفدان بأقل من أربعة وعشرين قيراط في الدلتا.

(1) لانكريه ص 242. ويذكر الجبّرتي مثلاً واحداً فقط عن تقليص أراضي الميري بسبب الجفاف في عام 1694-1695 (ج 1 ص 25، ج 1 ص 60). هناك أنظمة موسعة في قانون نامة السلطان سليمان عن قياس الأراضي المروية (ديجون ص 234-241).

(2) إستيف ص 331؛ لانكريه ص 250.

(3) جيرار ص 551 وهو حاسم بشأن هذه النقطة، أما لانكريه ص 243 فيذكر أن زراعة النخيل كانت تستوجب خدمة تؤدى للملتزمين.

(4) لانكريه ص 241، 244. وكان يتمتع أيضاً بمزايا مالية معينة بما فيها إعفاؤه من الضريبة على حصصه في الأرض كتعويض له على استضافة الموظفين، وهي إحدى مهامه الرئيسية (انظر الجبّرتي ج 4 ص 61، ج 8 ص 132). لكنه كان يمنع من أن يصبح غنياً وذا نفوذ بسبب أملاكه الشخصية وفي بعض القرى كانت سلطته خاضعة لرقابة فريق منافس يرأسه أحد الفلاحين الأغنياء (لانكريه ص 244).

فقد كان يعمل على توحيد القرية، وكان أهل القرى والملتزمون أيضاً يحترمون مركزه. كان استقرار القرية مضموناً بالميل لجعل وظيفة الشيخ والشاهد والوظائف الأخرى⁽¹⁾ محدودة بأسر معينة، وباتحاد وتناسق سكان القرية. داخل القرى كان أصحاب الأراضي يتغيرون باستمرار، وقد يتحول المالكون إلى عمال مأجورين، وقد يصبح العمال مالكين لكن كان من النادر منح الأرض للغرباء⁽²⁾. كانت الحاجات الضرورية للقرية مؤمنة بواسطة واحد أو اثنين من أصحاب الدكاكين، وصانعي الفخار، والحرفيين الآخرين⁽³⁾، كما كان لكل قرية مواردها الخاصة وإمام يتولى أمور المسجد المحلي (ومدرسة القرآن إن وجدت)، وحلاق، ونجار، ودوريات الحراسة (خفراء) لحماية المحاصيل ومخازن الحبوب والتحذير من اقتراب البدو للسلب والنهب، وحراسة الخنادق ومنع الفوضى والاضطراب بشكل عام⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من أن الضرائب المفروضة في مصر من قبل المشرعين العثمانيين لم تكن باهظة، كما سيتضح لاحقاً، فإن الفلاحين المصريين كانوا يعانون باستمرار، كإخوانهم في مقاطعات الإمبراطورية، من المتطلبات الثقيلة المستبدة التي فرضها عليهم جشع وفساد القائمين على إدارتهم. كانت تلك الحال أشد انتشاراً في القرن الثامن عشر، وبالأخص العقود الأخيرة منه عندما أشرفت بنية الحكومة والحياة الاقتصادية على الانهيار. لكن، وعلى الرغم من عدم إمكانية التقليل من أهمية هذه العوامل الخارجية، فليس من العدل إلقاء اللوم في تدهور الزراعة على ابتزاز الأتراك والمماليك للفلاحين دون شروط. قبل دخول الأتراك العثمانيين والمماليك مصر

(1) كوظيفة الخولي الذي كان يشرف على قياس أراضي القرية وزراعة أراضي الملتزمين (لانكريه ص 242).

(2) إذا كان الفلاح غير قادر على زراعة أرضه، بإمكانه رهن جزء منها مقابل مبلغ من المال يكفي لزراعة الجزء الباقي، ويسترجع أرضه بعد تسديد هذا المبلغ (لانكريه ص 236). وإذا لم يتمكن من سداد الدين قد تحجز أرضه (بما فيها من ماشية ومعدات زراعية) وتعرض للبيع.

(3) لانكريه ص 244. يبدو أنه ليس هناك معلومات إن كان أصحاب الدكاكين في القرية في تلك الفترة من المسلمين أم اليهود أم القبط، وما هي صلاتهم بالمجتمع القروي ككل.

(4) إستيف ص 311-312.

بقرون عدة، كان الفلاح قد ناضل للتخلص من مستغليه لكن دون جدوى⁽¹⁾، وقد قاد هذا الفشل إلى مشاعر الدونية ومرارة السعي وراء الانتقام، وذلك بخفض الإنتاج إلى حدوده الدنيا في معارضة صلبة لكل أنواع التغيير وتعتمد التّقصّف في كل ظروف الحياة. لم تخدم خصوبة التربة سوى في ظهور المستغلّين هنا وهناك، وبما أن تجربة الفلاح قد علّمت أنه لا سبيل إلى الحصول على أي شيء إلا بالقوة، فقد تحوّل برّدة فعل طبيعية إلى مستبدّ على طريقته الخاصّة. إن الصّفة البدائية لمعدّاته وأساليبه الزراعيّة⁽²⁾ لهي دون شك دليل على فقره، مع ذلك نسمع كثيراً عن مزارعين أغنياء وثروات قام شيوخ البلد بجمعها. أما الأسباب الحقيقية الكامنة وراء نقص الدّافع للتّحديث فهي الرّفص القاطع للتّخلي عن الأعراف التّقليدية طالما أن المعدّات البدائية تؤدّي دورها بشكل جيّد⁽³⁾. وإن التّجارب التي قام بها محمّد علي تظهر أنه لما أحضر الآلات والوسائل الحديثة وجعلها في متناول الفلاحين لم يعيروها أدنى اهتمام، بل نظروا إليها بشك كوسيلة لاستدراار المزيد منهم واستغلالهم. وأخيراً فإن ضعف البنية الجسدية وسوء التّغذية كانتا من أهمّ العوامل التي أدّت إلى جمود الحضارة الإسلامية وأودت بطاقة

(1) إن النّظر إلى فلاحي الدّلتا وجزء كبير من مصر الوسطى بأنهم من أحفاد المصريين القدماء وأنهم معتادون على الاستبداد لهو خطأ تاريخي. لقد كان سكان تلك المقاطعات قد أعيد تركيبهم بالاستيطان المستمرّ للعرب في المنطقة منذ منتصف القرن السابع، ومنذ ذلك الوقت حتى الفتح العثماني كانت هناك ثورات زراعية عديدة. انظر پولياك في 1934، R.E.I.، ص 273-251.

(2) جبرار ص 501-502؛ فولني ج 2 ص 266-267.

(3) إن استخدام المحراث العميق مثلاً كان يضرّ بالزّراعة في حوض النيل والهضاب السّورية. كما أن انخفاض أجور العمل قد أسهم في عدم أدخال الآلات الحديثة بالإضافة إلى أن المواد المحليّة ووسائل البناء كانت محدودة جداً، خصوصاً في مصر، مع وجود القليل من عمّال استخراج الأملاح والمعادن. وإن السّاقية البدائية التي ترفع حوالي سبعمئة كيلوغرام من الماء في الدّقيقة كانت سيئة بالنّسبة لنظام الرّي الذي تعوزه التّريبات اللازمة للتّصريف. ومن هنا يتضح لنا أن سبب تدهور الزّراعة في حوضي دجلة والفرات لم يكن بسبب سوء الإدارة أو التّخريب المغولي (مع أنهما سببان مهمّان)، ولكن بسبب زيادة المخلفات المعدنية في التربة العائدة لنظام الرّي غير الاقتصادي الذي لم يعتن بالتّصريف أو التّسميد.

الفلاح إلى درجة عالية من الإجهاد والتعب⁽¹⁾. يمكن استيعاب مستوى معيشة الفلاح المصري من عبارات وإحصائيات جيرار⁽²⁾ Girard. كان العامل في مصر العليا يتلقى يومياً 5-8 پارات *paras* (أي خمس إلى ربع فرنك تقريباً)، وفي الفيوم والدلتا 8-19 پارة (أي ربع إلى ثلثي الفرنك). وكانت قيمة الطعام اليومي للعامل الواحد في مصر العليا تبلغ 3 پارات. أما رداؤه الوحيد فكان العجة *ciba* التي تكلف 300-350 پارة (حوالي 11-12 فرنكاً) وتدوم معه سنة أو أكثر بالإضافة إلى شال صوفي ثمنه حوالي 180 پارة وغطاء للرأس بثمن 100 پارة. وبهذا كانت نفقاته السنوية تصل وسطياً إلى 540 پارة للثياب و1,095 پارة للطعام، ويضيف جيرار إليها حوالي 360 پارة للتفقات المتفرقة (كالقهوة واللحم وغيرهما)، فيبلغ الإجمالي ما يقرب من 2,000 پارة أو ما يزيد بقليل عن 70 فرنكاً سنوياً. وفي الدلتا يكلف الطعام والتفقات الأخرى أكثر من ذلك لكن القرويين كانوا نادراً ما يتناولون اللحوم إلا في المناسبات والأعياد.

ومن بين المؤسسات المختلفة التي أسهمت في استغلال الفلاح، اختلفت الآراء حول مسؤولية الصرافين الأقباط. بينما يقرّ الكونت إستيف The Comte d'Estève بأن الصراف يجني ربحاً جيداً من صفقاته⁽³⁾، فقد أعلن أنّ إدارته كانت أرقى من إدارة شيوخ البلد المحليين، لأنهم كانوا منصفين بالرغم من تعصبهم وولائهم لدينهم، أما الشيوخ

(1) انظر إحصائيات جيرار ص 501 ويذكر فيها: أن الفلاح الذي يعمل في حمل دلاء الماء (الشادوف *şadıf*) كان يرفع 143 كيلوغراماً في المتر بالدقيقة؛ وعند استخدام الشادوف في فرنسا كان متوسط الكمية التي يحملها العامل هي 220 كيلوغراماً في المتر بالدقيقة. وكان الرّجل الذي يعمل بمحراث يجزّه ثوران يحرث القدان في يومين أو يومين ونصف (المصدر السابق ص 508).

(2) جيرار ص 507-508. لكن لا بدّ من أن نضع في أذهاننا أن هذه الأرقام مرتبطة بفترة كان لخفض قيمة البارة أثره في غلاء المعيشة إلى حد ما.

(3) إستيف ص 319-320: هناك رسوم مفروضة على كل فلاح على وصل المطالبة وعلى كل قسط وعلى الوصل الأخير؛ وهناك العمولة التي يتحملها الفلاحون لدى التحويل للدولار (أو *pataque* = أبو طاقة) بسعر أعلى مما يحولون للملتزمين، وتحدّد فيه كل الرسوم التي ينبغي دفعها مع الفوائد العالية. انظر الجبرتي ج 4 ص 109، ج 8 ص 244.

فكانوا يميلون لتأييد النزاعات المحلية⁽¹⁾. ومن جهة أخرى يعلن جيران بصراحة أن تراجع الزراعة وهجرة الناس من الأرياف يعودان بشكل رئيسي إلى «الأعمال المخادعة لتلك الطبقة من الرأسماليين»⁽²⁾. ومن المفاجئ ألا نجد مصادر تذكر الديون التي أثقلت كاهل الفلاح المصري إلا بإشارة عابرة، بينما يشهد ثولني⁽³⁾ من تجربة المجتمعات المشابهة بأن «الرّبا كان يصل إلى حدود فظيعة» وهو يُعدّ «من أعظم الكوارث التي ألّمت بالرّيف السوري» ويدعوننا ذلك لافتراض حالة مشابهة في الرّيف المصري. يمكننا افتراض أنه بينما كان الصّراف القبطي قادراً على كسب ربح جيّد من القروض، فإن إثقال الأرض بالديون لم يكن بالأمر المربح له لمحدودية الدّخل المرتبط بها والدّائرة الضيقة التي يمكن التّخلي عن أراضي الرّيف ضمنها. وكان آخر ما يرغب به مقرض المال هو الاستيلاء على الأملاك أو زراعتها بنفسه، وكذلك لم يكن من مصلحة الملتزم إعاقه الاقتصاد في القرية بالتغيّرات المتكرّرة في امتلاك الأراضي.

أما العامل الأوضح، لتأثيره التراكمي، والكارثة المهلكة في كل الأقاليم العربية

(1) إستيف ص 313.

(2) جيران ص 589، ويقول: «لقد سبق أن أشرنا إلى وجود واحد من هؤلاء في كل قرية، وقد يصل عددهم في بعض المناطق إلى ثلاثة أو أربعة وجميعهم لديهم عائلة يقومون على شؤونها وخدم يساعدهم في أعمالهم. ولست أبتعد عن الحقيقة إن قلت بوجود ثلاثين ألفاً من الأفراد الذين يعيشون في مصر على تلك المعاملات المالية، وإن تأثير اضطهاد البكوات لهو أقل من تأثير تلك الفئة المخادعة على تدهور الزراعة وهجرة سكان الأرياف». يتهم الجبرتي أيضاً بلهجة ساخطة (ج 4 ص 207، ج 9 ص 88) الشيوخ والشاهدين والصّرافين باضطهاد واستغلال الفلاحين.

(3) ثولني ج 2 ص 265: «عندما يحتاج الفلاحون إلى سلفة لشراء البذور أو المواشي وغيرها فإنهم لا يجدون مالا سوى بيع محصولهم المستقبلي، أو جزء منه، بضمن بخس... والفائدة بأدنى حدودها هي اثنا عشر بالمئة؛ والعادية عشرون بالمئة وقد تصل إلى الثلاثين بالمئة». لكن هذا القول يشير بشكل أساسي إلى لبنان وشمال فلسطين (أي مناطق الموارنة والدروز والمتاوله الذين لا يخضعون للنظام الإسلامي)؛ أما أوليفيه (ج 2 ص 306) فيذكر أن يهود حلب كانوا يقرضون المال بالرّبا للفلاحين القاطنين في الجوار، وكانوا يسترجعون ديونهم عينا. وفي مصر كان الفلاحون يقترضون المال من الملتزمين لشراء البذور والحبوب. انظر بولياك «النظام الإقطاعي» ص 68-69.

فهو نهب البدو وتخريبهم الأراضي الزراعية واستغلالهم الجائر للفلاحين. كانت أكثر المناطق خصوبة في سوريا مع السهول الساحلية لفلسطين وحواران معرّضة لغزوات الصحراء المجاورة. وكانت سهول حوران تنعم ببعض الحماية لقربها من دمشق، إذ كانت المصدر الرئيسي للحبوب ليس للمدينة فحسب بل لقوافل الحجيج السنوية أيضاً. وبما أن القبائل البدوية في المناطق الجنوبية كان لها مصالح اقتصادية في الحج (إذ كانوا يزودون القوافل بالجمال والمرافقين مقابل المعونات المالية)، فقد كان مركز الباشوات يخولهم الضغط عليهم برفق مع الاستنجاد بالقوات العسكرية إن لزم الأمر بالرغم من أنه ما من وسيلة تستطيع منع غاراتهم بين الفينة والأخرى. أما فلسطين فكانت أبعد وأفقر من أن تتلقى حماية مشابهة، وهي بالتالي توصف «كواحدة من أكثر المناطق المخربة في سوريا»⁽¹⁾. ومع انهيار السلطة المركزية كثرت غزوات البدو وغدت أشدّ جرأة، وأصبح هناك مدن كثيرة غير حماة وحلب مجبرة على دفع مبالغ حماية للقبائل المجاورة لها كضمان لمحاصيلهم ومواشيهم⁽²⁾. يرسم قولني صورة حيّة للفلاحين في المناطق المهذّدة بقوله إنهم «كانوا مُجبرين على بذر البذار والبندقية في أيديهم»، ثم كانوا يحصدون المحصول المصفرّ بعجلة ليخبئوه في مخازن تحت الأرض⁽³⁾. وقد عانت القرى المصرية، وبالأخصّ قرى الدلتا، بالطريقة ذاتها من القبائل البدوية في الصحاري المحيطة بها واتفق كل الباحثين بأن أعمال السلب والتخريب التي كانت مجموعات الأعراب ترتكبها في كل مكان كانت واسعة مستمرة⁽⁴⁾. ولكن من المحتمل أن يكون الفلاحون المصريون المستقرون قد عانوا بشكل أكبر وأشد من البدو شبه المستقرّين، ويصف جيرار استبداد الأعراب

(1) قولني ج 2 ص 199؛ المُرادى 2 ص 62. لكن موندل Maundrell وجد عام 1697 السهل

الواقع شرقي عكا غاية في الخصوبة. قلت: راجع كتابه «رحلة من حلب إلى القدس في عام 1697»، سلسلة رواد المشرق العربي، أبوظبي 2012. (أحمد)

(2) قولني ج 2 ص 173؛ أوليفيه ج 2 ص 301.

(3) قولني ج 2 ص 267.

(4) لانكريه ص 250-251؛ جيرار ص 512-513 (وكان عدد البدو على حدود مصر يقدر بأربعين ألفاً).

المستقرّين في المناطق الواقعة جنوبي القاهرة بقوله إنهم كانوا يستولون بالقوة على أفضل الأراضي ويحوّلون مجاري المياه أثناء الفيضانات، ويخزّبون السدود ويرفضون دفع الضرائب التي يتوجب عندها على جيرانهم من الفلاحين التعساء تحمّلها، وحتى إنهم يستولون على حصاد القرى الأخرى إن لم تكفهم محاصيلهم⁽¹⁾.

ومن جهة أخرى، يجب ألا نهمل الدور الأساسي الذي لعبه البدو في الحياة الاقتصادية للأقاليم العربية، فقد أمّنوا بتربيتهم للجمال الوسيلة الوحيدة لنقل قوافل المسافرين والبضائع⁽²⁾؛ وقد قاموا بحراسة طرق التجارة بالإضافة إلى قيامهم بنهبها، كما زوّدوا المدن بالعديد من مواد التجارة والصناعة (كالقصب والقلّي alkali والصوف ووبر الجمال) بالإضافة إلى المواد الغذائية (كلحم الضأن والزبدة والجبن)⁽³⁾، حتى إن زراعتهم أسهمت بجزء لا بأس به من الإنتاج الكلي. في العراق الأدنى بشكل خاص كان رجال القبائل البدوية هم المزارعون الرئيسيون - على سبيل المثال كانت قبيلة الخزاعل في منطقة الأهوار (السبخات) تزود إقليم بغداد بالأرز⁽⁴⁾ - كما أن العديد من القبائل العربية والتُرْكمانية كانت تعمل في تربية الأغنام⁽⁵⁾. أما مصر بالذات فمن المحتمل جداً أنه خلال القسم الأكبر من العهد العثماني كان البدو - ما عدا القبائل البدوية الخالصة على الحدود - قد أصبحوا جزءاً مستقرّاً منتجاً من سكان المنطقة، وأن الاضطهاد الكبير الذي مارسه المماليك هو المسؤول عن الأحوال التي وصفها الكتاب الفرنسيون في نهاية القرن⁽⁶⁾.

(1) جيرار ص 512-513. لكن سبق أن ذكرنا الإدارة الجيدة للشيخ هَمَام زعيم قبيلة الهوارة.

(2) كانت الجمال تباع في السوق المصرية بسعر 30-60 دولاراً (جيرار ص 555). وكان البدو يربون معظم الخيول في مصر (حيث يبيعون الواحد بأربعين إلى ستين دولاراً) وفي الأقاليم العربية.

(3) رَسَل ص 18، 53.

(4) روسو ص 59، كما يذكر ص 80 بني لام على ضفاف دجلة.

(5) فولني ج 1 ص 360. يذكر جيرار (ص 556) أن أغراب مصر كانوا يزودون السوق أيضاً بالماشية التي ربوها بأنفسهم أو نهبوها من القرى الأخرى.

(6) فولني ج 1 ص 67-68. انظر أيضاً التنظيمات المطبقة على شيوخ العرب في قانون ناميه

بغض النظر عن البكوات والممالك والملتزمين والصّرافين والبدو، فقد أسهم القرويون أنفسهم إلى حدّ ليس بالقليل في حظهم العاثر، كما أن خصوماتهم هي التي أوقعتهم في أيدي مستغليهم. كانت الصّفة البارزة في القرية وفي الحياة المدنية إلى حدّ ما في جنوب سوريا ومصر الدّنيا هي انقسام السّكان إلى طائفتين تشبهان الطّوائف الموجودة بين البدو⁽¹⁾. في سوريا هناك حزبا «قيس» و«اليمن»⁽²⁾، وتعرفان بين الدّروز باسمي «الأحمر» و«الأبيض». كانت المدن المتجاورة التي تنتمي إلى طوائف متخاصمة مشغولة بنزاعات مستمرة مع بعضها ومع القرى المحيطة بها⁽³⁾، وكانت الحملات العسكرية للباشوات والحكام تصاب بالفشل في كثير من الأحيان، لأن الجنود المحليين لا يقاتلون ضد المتمردين المنتمين إلى نفس طائفتهم⁽⁴⁾، وكانت النتيجة، حسب قول فولني، قيام «حرب أهلية لا تنتهي»⁽⁵⁾. لقد أصبح تدمير

(ديجون ص 204-208)؛ دي ساكي ج 1 ص 96-103.

(1) لقد وضعت نظريات عديدة في محاولة لتفسير وجود هذه الطّوائف التي ظهرت في أنحاء الشرق الأدنى وأفريقيا الشّمالية بين البربر والعرب، وهي على الأغلب إرث من الحياة البدوية استمرت عبر الحياة نصف البدوية ومنها إلى السّكان المستقرّين. من أجل المزيد من المعلومات عن *leffs* و *soffs* البربرية في Kabilia والمغرب انظر E. Masqueray «تشكل المدن لدى القبائل المقيمة في الجزائر» (باريس 1886)، و R. Montagne «البربر والمخزن *le Makhzen*» (باريس 1930)؛ ومن أجل طوائف الهناوي Hinâwî والغفاري Gîfârî في جزيرة العرب انظر ب. توماس «بلاد العرب السّعيدة» (لندن 1932) ص 111؛ وانظر الدّراسة الحديثة المتعلقة بشمال سوريا أ. دي بوشمان «ملاحظة حول تنافس قبيلتين رعويتين في سوريا» في مجلة الدّراسات الإسلامية 1934، ص 11-58.

(2) من أجل عداوات القيس واليمن التي كانت قائمة بين الأعراب في القرن السابع وأدّت إلى سقوط الخلافة الأموية في دمشق، انظر ج. فلهاوسن «*Das arabische Reich und sein Sturz*» (برلين 1902).

(3) علي سبيل المثال بيت لحم (يمتية) والخليل (قيسية)؛ انظر فولني ج 2 ص 194-195، 197.

(4) مثلاً هجوم عثمان باشا الصّادق على نابلس عام 1764؛ فولني ج 2 ص 177.

(5) فولني ج 2 ص 197: «كان التّنافر الذي ساد البلاد منذ أول أيام العرب قد سبّب حرباً أهلية مستمرة. وفي كل لحظة كان البدو يشنون غارات على أراضي بعضهم ويخربون محاصيل القمح والذرة وأشجار الزّيتون، ويستولون على الأغنام والماعز والجمال. ولم يستطع الأتراك قمع

محاصيل القرية المعادية والإضرار بأشجار الفاكهة عملاً مشرفاً، بالإضافة إلى توجيه ودعم وأحياناً حماية غزوات الفرق البدوية المنتمية إلى الطائفة ذاتها انتقاماً من الطائفة الأخرى. وقد شهد جيران حالة مشابهة في الدلتا المصرية، حيث كانت القبائل العربية المتخاصمة تعرف باسمي «سعد» و«حرام»⁽¹⁾، وكان شيوخ القرى المتنازعة يسلحون فلاحهم ضد بعضهم البعض لأتفه الأسباب بالإضافة إلى مساندة القبائل العربية الحليفة في غارات السلب والنهب في القرى الأخرى⁽²⁾. وقد زاد الصراع على مياه الري في موسم الفيضان من مرارة الخصام وأعطى الفرصة لبروز الطوائف داخل القرى، مما أدى إلى حدوث نزاعات دموية دون وجود رجال شرطة يتدخلون في حلّها⁽³⁾.

بالرغم من أنه من المستحيل رسم صورة مشرقة للحياة في القرية في أي من الأقاليم العثمانية، وبالرغم من أن الرّحّالين الأوروبيين والكتاب الشرقيين يُجمعون على

هذه الاضطرابات إذ كانت سلطتهم محدودة في المنطقة؛ وكان البدو الذين تحتل مخيماتهم الأراضي السهلية يشكلون أحزاب معارضة ضدهم ويدعمون بعضهم لمقاومتهم، بما يمليه عليهم تعصّبهم الأعمى ومصالحهم الشخصية. ومن هنا ظهر استبداد وظلم ساد في كل مكان». انظر أيضاً ج 2 ص 203 حول تخريب أشجار الزيتون في الرملة من قبل الفلاحين المتممين إلى طوائف متنازعة.

(1) لا يذكر الجبّرتي هذه الطوائف في الدلتا، لكنه يشير في أحد المقاطع (ج 1 ص 31، ج 2 ص 157) إلى أن جماعات الحرفيين في القاهرة كانت مقسمة إلى طائفتين هما «سعد» و«حرام» في عهد الفتح العثماني، وفي مقطع آخر (ج 1 ص 209، ج 2 ص 157) يقول إنه أثناء خصومات المماليك المتأخرين حتى العلماء انقسموا إلى فرق مع أو ضد هاتين الطائفتين. لكن الاسمين اختفيا تدريجياً من الذاكرة ولم يذكرهما الكتاب اللاحقون إلا نادراً، مثال رفاعة بك الرافعي وأنور توفيق الجليل ج 1 ص 482 (بولاق 1285).

(2) جيران ص 514، 556: كانت الخيول أثمن من أن تستخدم في الزراعة لكنها كانت ذات قيمة كبيرة لأن الفوز في التزاعات القروية كان عادة من نصيب القرية التي تملك عدداً أكبر من الخيول. انظر أيضاً قولني ج 1 ص 172. ويروي شابروول أن التزاعات قد أخمدها علي بك وأصبحت أقل عنفاً من بعده.

(3) جيران ص 498.

إظهار القرويين كطبقة بائسة مضطهدة⁽¹⁾، فمن الواضح أيضاً أنّ حالتهم لم تكن بهذا السوء ومجردة من ضمانات الحياة وحق التملك كما يؤكد البعض⁽²⁾. لم يكن هناك ما يخفف التأثيرات السيئة لنظام الضرائب والالتزام⁽³⁾، لكن عندما كان أصحاب التّيمار أو الملتزمون يتولّون ملكية الأراضي مع انتقالها وراثياً بشكل مقبول، فإن العلاقة بين الفلاح والمستأجر الرئيسي كانت تلطف بفعل مصالحهم المشتركة. إن تملك الأرض يستلزم واجبات اجتماعية يقرّها العُرف والتعاليم الدينية، وهناك دليل كافٍ على أن سوء حظ الفلاحين كان يخفف نوعاً ما بفضل بمراعاة ملاك الأراضي لأحوالهم ضمن حدود نفوذهم ومعتقداتهم. كان حظهم، على عكس حظوظ الباشوات والمماليك والبكوات، مرتبطاً بالقدرة الإنتاجية لقطعة الأرض الممنوحة لهم والمتوارثة من الآباء إلى الأبناء والتي لم يكن لديهم أدنى رغبة في تضاولها بأي حال من الأحوال⁽⁴⁾. كان

(1) مثال الجبّرتي ج 4 ص 208، ج 9 ص 88-89 حيث يتحدث عن اضطهاد الملتزمين وشيوخ القرى وغيرهم قائلاً: «وغير ذلك من أحكام وأمر غير معقولة المعنى قد ربّوا عليها واعتادوها لا يرون فيها بأساً ولا عيباً، وقد سلط الله على هؤلاء الفلاحين بسوء أفعالهم وعدم ديانتهم وخيانتهم وإضرارهم لبعضهم البعض من لا يرحمهم ولا يعفو عنهم».

(2) إن قول شابرول الغاضب لا يعد وصفاً بل هو بيان بلاغي إذ يقول: «في تلك المنطقة البائسة لم يكن الفلاح مالكاً للأرض وليس بإمكانه أن يصبح كذلك أبداً؛ إنه ليس بمزارع بل ولد عبداً للفئة التي تضطهد بلده: إنه عبد للإسبرطين Spartiates القدماء؛ عبد تعيس الحظ أميركا».

(3) انظر على سبيل المثال اتهام روسو للنظام في العراق بأنه قد ألحق الأذى بالفلاح والملتزم والزراعة.

(4) هناك مقطع طريف للجبّرتي عن هذا الموضوع (ج 4 ص 109، ج 8 ص 243-244) يقول فيه: «فإن الملتزم إذا بلغه تقرير فرصة تدارك أمره وذهب إلى ديوان الكتبة وأخذ علم القدر المقرّر على حصّته وتكفل بها، وأخذ منهم مهلة بأجل معلوم، وكتب على نفسه وثيقة وأبقاها عندهم، ثم يجتهد في تحصيل المبلغ من فلاحيه، وإن لم يسعفه في الدّفع وحولوا عليه الطّلب دفعه من عنده، إن كان ذا مقدرة أو استدانه ولو بالربا، ثم يستوفيه بعد ذلك من الفلاحين شيئاً فشيئاً. كل ذلك حرصاً على راحة فلاحيه حصّته وتأمين استقرارهم في وطنهم، ليحصل منهم المطلوب من المال الميري وبعض ما يقتاتون به هم وعيالهم. وإن لم يفعل ذلك تكفل باستخلاص ذلك كاشف النّاحية وعين على النّاحية الأعوان بالطلب الحثيث وما يضاف إلى ذلك من حق طرق المعيتين وكلفهم، وإن تأخر الدّفع تكرر الإرسال والطلب على التّسق

الملتزم ضحية لعملية النهب خلال العقود الأخيرة من حكم المماليك وكذلك كان الفلاحون، وإذا لم يكن قادراً على تلبية الحاجات المطلوبة منه - على حساب فلاحيه بالطبع - كان يُطرد هو الآخر من أرضه⁽¹⁾.

ومن هنا، يبدو أن التهم الرئيسية الموجهة ضد الإدارة الزراعية للأتراك سلبية أكثر منها إيجابية، فكون الحكومة أرادت خيراً بشكل عام أمرٌ واضح من خلال التوصيات التي نجدها بأطراد في الأعمال المتعلقة بالإدارة العامة، لكن النوايا الحسنة تلاشت أمام الضعف والانحطاط والفشل في منع اختلاس الأموال والاضطهاد الذي مارسه موظفوها، كما فشلت في الحفاظ على النظام والأمن (وخصوصاً تجاه البدو الأعراب)، بالإضافة إلى إهمال المرافق والأشغال العامة الضرورية لمصلحة الزراعة. ولكن بفضل النفوذ الثابت للأعراف المتأصلة بقي النظام متماسكاً دون مشقة كبيرة للفلاحين، طالما أن الحكومة المركزية تحافظ على نفوذ أصحاب الإقطاعيات، وطالما أن الهاشوات والسلطات المحلية يمسكون بزمام الأمور. وبحلول منتصف القرن الثامن عشر كانت قدرتها على فعل ذلك قد تلاشت تماماً في مصر والعراق وضعفت بشكل كبير في سوريا، وكانت الاضطرابات الناجمة عن ذلك إنما هي بسبب أعمال الهاشوات والبكوات الذين سعوا لاستغلال ضعف الباب العالي وتأسيس قوة عسكرية تفوق الإمكانات والموارد الاقتصادية في مقاطعاتهم. وكما هو الحال في النظام الإقطاعي في الأقاليم التي تدار بشكل مباشر، فقد عانت البنية العامة للزراعة في مناطق حكم الهاشوات شبه المستقلة من فوضى كبيرة بسبب تغيير ملكيات الأراضي

المشروح فيتضاعف الهم، وربما ضاع في ذلك قدر الأصل المطلوب وزيادة عنه مرة ومرتين، والذي يقبضونه يحسبونه... فيتكشف حال الفلاح ويبيع ما عنده من الغلة والبهيمة، ثم يفر من بلده إلى غيرها، فيطلبه الملتزم ويبيع إليه الميعتين من كاشف التاحية بحق طريق أيضاً، وربما أذاه الحال أن كان خفيف العيال والحركة إلى الفرار والخروج من الإقليم بالكلية. وقد وقع ذلك حتى امتلأت البلاد الشامية والرومية من فلاحين قري مصر الذين جلوا عنها وخرجوا منها وتغربوا عن أوطانهم من عظيم هول الجور». انظر أيضاً الجبّرتي ج 1 ص 305، ج 2 ص 308.

(1) على سبيل المثال الجبّرتي ج 2 ص 74، 152-153، ج 4 ص 107، 109، ج 5 ص 8، ج 8 ص 244-245.

من أجل الحصول على عائدات متزايدة. وفي السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر أصبح نظام الابتزاز والظلم نظاماً شاملاً تقريباً⁽¹⁾، ولعلّ تزايد عدد الفلاحين الذين يهجرون أراضيهم لدليل واضح على الحدّ الذي انحدر إليه الاقتصاد المتهالك⁽²⁾.

إن المحاصيل الأساسية التي كانت تُزرع في مصر وسوريا هي كالتالي: للاستهلاك الداخلي هناك الدُّخن والعدس والفول والذُّرة والبصل والخضروات الجذرية الأخرى؛ وللإستهلاك والتصدير هناك القمح والأرز؛ وللعلف (بشكل خاص في مصر) هناك الشعير والبرسيم والحلبة والبيقّة؛ ومن أجل الاستنبات الاقتصادي هناك اللفت والخسّ والسمسم (من أجل الزيوت) والكتّان والقطن والزّعفران والتبلة وقصب السكر والتبغ والورد⁽³⁾. لا يوجد لدينا أرقام معيّنة عن المساحات المخصّصة لكل نوع، لكن نذكر أن الجزء الأكبر من الأرض المروية في مصر كان يُزرع فيه محصولان سنوياً، وقسم صغير (من 15 إلى 25 بالمئة) يُزرع فيه ثلاثة محاصيل⁽⁴⁾. كانت معظم المستنبات الاقتصادية متميّزة في مناطق ومراكز محدّدة، فالتبلة كانت تزرع على سبيل المثال في مصر العليا ومقاطعة بيسان في فلسطين، ولم تُعرف في العراق الأدنى إلا في أواخر القرن⁽⁵⁾، أما زراعة الورود من أجل صناعة العطور فكانت

(1) مع ذلك كان هناك حدود لإهمال الأعمال العامة، بما أن الملتزمين والبكوات كانوا يعانون في النهاية كما يعاني الفلاحون. حتى مُراد وإبراهيم، بعد أن تنبّها للتدهور الزراعي المتزايد شرقي الدلتا وبالتالي انخفاض العائدات، فقد قاما بإصلاح بعض القنوات وإعادة تهيئة للخدمة (أوليقييه ج 2 ص 63).

(2) يقول الجبّرتي (ج 4 ص 109، ج 8 ص 244) إن أراضي سوريا والروملي قد ملئت بفلاحين من قرى مصر، ويؤيده قولني ج 1 ص 164 بشأن عام المجاعة 1784-1785؛ انظر لانكريه ص 247 (هجر القرى في الفيوم)، ص 250.

(3) جبرار ص 515-550؛ قولني ج 1 ص 315-317؛ رسل ص 16-17. في بلاد الرافدين والعراق تزرع المحاصيل ذاتها (القمح والأرز والشعير والدُّخن والذُّرة) (روسو ص 8، 56، 61) بالإضافة إلى القطن والتبغ والسمسم والقوة (المصدر السابق؛ أوليقييه ج 2 ص 444). وفي خارج مصر كانت هناك المراعي الطّبيعية بدلاً عن محاصيل العلف.

(4) جبرار ص 499 وما يليها، ص 558-565.

(5) أوليقييه ج 2 ص 444. كانت نباتات التبلة في مصر العليا تدوم من ستين إلى خمس سنوات.

مقتصرة على منطقة الفيوم⁽¹⁾. ومن جهة أخرى كان القطن يزرع في كل مكان تقريباً، فتجده في مصر العليا على شكل شجرة القطن (*gossypium arborescens*)، بينما يزرع كنبات حولي في المناطق الأخرى (*gossypium herbaceum*)⁽²⁾، أما الكتّان فكان يزرع في معظم مناطق مصر لكنه قليلاً ما يزرع خارجها.

كانت العادات الصّارمة هي التي تنظّم اختيار ودورة المحاصيل، لكن ذلك لا يستبعد احتمال إحداث بعض التّغيرات في السوق. كانت زراعة الكتّان على سبيل المثال تزداد أو تنقص تبعاً لفتح أو إغلاق سوق التّصدير إذ كان الأمر مربحاً بشكل أكبر عندما يصدّر قسم من الإنتاج⁽³⁾. لعل أبرز مثال على التّغير في الزراعة في العهد العثماني هو إدخال زراعة التّبغ إلى سوريا في القرن السابع عشر. وعلى الرّغم من أن المؤسسات الدّينية والإدارية عارضت زراعته⁽⁴⁾، فقد نما بسرعة كمحصول رئيسي في منطقة اللاذقية وكمحصول ثانوي (بإنتاج ضئيل) في معظم أنحاء آسيا العربية ومصر. وبشكل عام، كان فقر الفلاحين يحدّد اختيارهم لتلك المحاصيل التي تتطلّب أقلّ التكاليف للبذار والعمل الزراعي⁽⁵⁾ بينما تدرّ أكبر نسبة من الأرباح. قام جيران بوضع

(1) جيران ص 549-550. كانت الشّجيرات تجدد كل خمس سنوات، وتنتج حوالي ثمانية قناطير من أوراق الورد في الفدان الواحد.

(2) كانت الأولى تجدد كل ثماني أو عشر سنوات، ومعدّل إنتاجها الكامل (في السّنة الثالثة) هو 300 پاوند للفدان، بينما كان محصول القطن السنوي يصل إلى 240 پاونداً للفدان (انظر أوليفيه ج 2 ص 283 من أجل زراعة القطن في اللاذقية). هناك كميات قليلة من القطن الخام تصدّر من مصر وكميات كبيرة من سوريا؛ لكن انظر بلومناو ص 134 حيث يتحدث عن القطن المصري كمادة رابحة للتجارة.

(3) جيران ص 563.

(4) أصدر فرمان سلطاني عام 1630 يمنع تدخين التّبغ بشكل رسمي وقد أعدم السلطان مراد الرابع عام 1638 عشرين شخصاً في حلب يشتبه بأنهم يدخنون في الخفاء، الغزي ج 3 ص 280-281. من أجل زراعة التّبغ في اللاذقية انظر أوليفيه ج 2 ص 281-283؛ رسل ص 17.

(5) يتم دفع أجور العمل في الحصاد ودراسة القمح عيناً في العادة، وكان بذلك أقلّ إجهاداً للفلاح.

حسابات دقيقة لتكاليف الزراعة وأرباح كل محصول يزرع في مصر⁽¹⁾ موضحاً هذه الفكرة تماماً، وتدل أرقامه على أن المحاصيل التالية هي التي كانت تدرّ أكبر نسبة من الأرباح مقارنة مع تكاليفها: البرسيم 612 بالميّة⁽²⁾، اللفت 500 بالميّة، الفول 353 بالميّة، العدس 350 بالميّة، التبغ 318 بالميّة، الحلبة 304 بالميّة، القمح 285 بالميّة، البصل 247 بالميّة، الخس 208 بالميّة، الشعير 203 بالميّة، الترمس والبيقية 193 بالميّة. ومن جهة أخرى لم يكن أحد هذه المحاصيل، باستثناء التبغ والبصل⁽³⁾، يدرّ ربحاً صافياً أكثر من خمسة عشر دولاراً للفدان، ويدرّ الشعير والعدس والترمس من خمسة إلى ستة دولارات فقط. يمكننا هنا رؤية مدى ضآلة الدخل الفردي للفلاح حتى في ظل أفضل الظروف في مصر، ومدى ضيق العيش الذي كان الملتزمون والصّرافون والمماليك يعتمدون عليه.

مع ذلك، من المهم ملاحظة أن الزراعات الاقتصادية الثلاث الأوفر ربحاً التي تتطلب نظاماً معيناً من رأس المال، وهي السكر والنيلة والأرز، كانت في الوقت نفسه موجودة في مقاطعات عدّة وزراعتها مزدهرة في مصر⁽⁴⁾. وهناك كميات قليلة من

(1) جيران ص 566-584، 701-711.

(2) يغلّ محصولين أو ثلاثة، وكان يستهلك كعلف بشكل واسع (جيران ص 532-533) ومن هنا تأتي الأرباح الوفيرة. وإن النسبة المعطاة في النص للبرسيم والفول والعدس والقمح والشعير تنطبق على المحاصيل المروية بشكل طبيعي فقط في فصل الشتاء (بياضي *bayâdi*)؛ وكان العمل بالسقاية الاصطناعية يتطلب في أحوال أخرى أكثر من ضعف نفقات الزراعة.

(3) البصل والتبغ من أقل المحاصيل زراعة بسبب تكلفتها العالية، مما جعلهما بعيدين عن متناول الفلاح العادي.

(4) تبعاً للأرقام التي قدمها جيران نورد في الجدول التالي نفقات وإنتاج وأرباح هذه الزراعات في مساحة عشرة فدان:

السكر:	839 دولاراً؛ 2,010 دولاراً؛ الربح 1.171 دولاراً.
النيلة (المتوسط السنوي):	961 دولاراً؛ 1,504 دولاراً؛ الربح 543 دولاراً.
الرز (مع البرسيم):	1,054 دولاراً؛ 1,417 دولاراً؛ الربح 363 دولاراً.
الرز (مع القمح):	1,043 دولاراً؛ 1,393 دولاراً؛ الربح 319 دولاراً.

قصب السكر تزرع في كل مكان، لكن للبيع كحلولى فقط⁽¹⁾. وكانت زراعته للاستثمار الاقتصادي مقتصرة على منطقة صغيرة من مصر العليا، حيث كانت بإدارة مشتركة لمجموعة من الممالك والمصنعين⁽²⁾. أما التيلة، التي كانت كلفتها الأولية أكبر، فكان الملاك الأغنياء يزرعونها بالتعاون مع جماعات من الفلاحين⁽³⁾. ولكن لسوء الحظ لم نستطع الحصول على معلومات أوفر حول هذا المثال المثير وغير المتوقع للتعاون الزراعي. كانت زراعة الأرز تتم على نطاق أوسع من زراعة المحصولين السابقين، وتحتل مساحة كبيرة من منطقتي رشيد ودمياط، وفي العراق الأدنى مع كميات أقل في سوريا (الحولة). في دلتا النيل كانت عمليات الري والزراعة ودراسة القمح والقصارة تتطلب نفقات كبيرة على الثيران والآلات والعمال، كما أنها تقوم على أساس الأجور السنوية للعمال وليس اليومية. وكانت زراعة الأرز أقرب إلى الأساليب الأوروبية من الزراعات الأخرى، وازداد التشابه بأن نفقات صيانة الآلات وتوفير اليد العاملة والحيوانات اعتمدت على القروض ذات الفائدة بنسبة 10 بالمئة⁽⁴⁾. وفي العراق كانت القبائل المقيمة في مناطق الأهوار (السبخات) على ضفاف النهرين وبحيرة كارون هي التي تتولى الزراعة بنفقات قليلة، ولم يكن هناك ما يدل على وجود آلات قشر الحبوب.

(1) جيرار ص 547؛ ويضيف أوليفيه ج 2 ص 172 صناعة عصير الفاكهة. بدأ بعض الفلاحين زراعة قصب السكر لاستخراج العصير منه في سبخة قرب بينى Yabnâ (جنوبي فلسطين) حوالي عام 1780، وتوقفت في السنة التالية بسبب الضرائب الباهظة (فولني ج 2 ص 206).

(2) جيرار ص 586.

(3) جيرار ص 545. وفي ملخص التقرير عن الإجراءات في الجمعية المصرية هناك إشارة إلى رجل فرنسي يدعى پورت Porte اشترك في زراعة وتصنيع التيلة قبل البعثة الفرنسية (Memoirs relative to Egypt, لندن 1800 ص 15). كانت التيلة المصرية ذات نوعية ممتازة لكنها تعاني من الطرق الصعبة المتبعة في صناعتها (انظر جيرار وأوليفيه ج 2 ص 170-171).

(4) جيرار ص 521-525، 577 وما يليها. كانت الأجرة الوسطية للعمال عام 1798 خمسة إلى ستة پاتاك pataques سنوياً بالإضافة إلى الطعام. من أجل وصف آلات القشر والتبييض انظر المصدر السابق؛ و M. Jollois «Notice sur la Ville de Rosette» في كتاب وصف مصر Description ج 2 ص 342؛ وأطلس «الفنون والحرف» اللوحة 9؛ ومعظم أعمال الرّحالين.

كانت زراعة الأشجار المثمرة والفاكهة بشكل عام ذات أهمية ثانوية في مصر، باستثناء التمر وبعض الفواكه كالبطيخ، ولم تكن هناك زراعات واسعة إلا في الفيوم⁽¹⁾. أما في سوريا، فكانت زراعة أشجار الفاكهة إحدى الزراعات الأساسية، مثل الزيتون في المناطق الساحلية وحول نابلس⁽²⁾، والليمون والبرتقال حول يافا وطرابلس⁽³⁾، والعنب (والتوت الأبيض لتربية دود الحرير) في منطقة الدروز، والفسق في حلب، والفاكهة بكل أنواعها في دمشق⁽⁴⁾ وخصوصاً المشمش الذي يصنع بشكل عجينة مجففة ويفضله المسافرون، كما تستهلك كميات كبيرة منه في الحج والتصدير⁽⁵⁾. ولطالما اشتهرت أشجار التخليل بتمورها الجيدة في العراق الأدنى، وكانت تحتل الصدارة بين المنتجات الطبيعية للبلد وتصدر بكميات كبيرة، بالإضافة إلى أن مقاطعة بغداد كانت تحوي زراعات واسعة لأشجار الحمضيات⁽⁶⁾.

بصرف النظر عن تربية الجمال والخيول؛ والأغنام من قبل البدو، فإن تربية المواشي لم تلعب ذلك الدور المهم في دعم الزراعة مقارنة مع أوروبا، وكان السكان يستهلكون كميات قليلة من اللحوم، وخصوصاً في المدن⁽⁷⁾. ومن ناحية أخرى فإن

-
- (1) جبرار ص 552-553؛ سافاري 1 ص 424-425. وكانت كروم العنب أهم تلك الزراعات وكان العنب يصدر إلى القاهرة.
 - (2) يظهر أوليفيه (الذي كان ملماً شخصياً بشمال سوريا فقط) زراعة الزيتون في سوريا كعمل مضمن، ج 2 ص 284-285.
 - (3) انظر رسل ص 29. لقد تم تخريب بساتين الفاكهة في يافا بأكملها من قبل مماليك مصر وبالأخص في اجتياحهم الثاني عام 1775 عندما قاموا بقطع أشجار البساتين كلها، فولني 2 ص 201؛ لكن بحلول عام 1799 كانت «غابات البرتقال» (أي البساتين) في يافا قد اتسعت من جديد لتغطي حاجة القوات الفرنسية، *Agenda de Matus* (پاریس 1892) ص 131.
 - (4) فولني ج 1 ص 316-317. يتحدث فولني أيضاً بإعجاب خاص عن بساتين الأشجار في وادي نهر العاصي حيث كان الشجر يزرع كل خمس سنوات (ج 2 ص 54)، لكن أشجار الزيتون في تلك المنطقة كانت عرضة للدمار بسبب الصقيع القاسي (أوليفيه ج 2 ص 295).
 - (5) يدعى قمر الدين أو جلد الفرس، انظر برتون ج 1 ص 191.
 - (6) أوليفيه ج 2 ص 443.
 - (7) كان المصدر الرئيسي للحوم في القاهرة هو قطعان الجواميس نصف البرية التي تعيش

فقر الفلاحين قد ساهم في الحد من عدد الحيوانات المستخدمة في الزراعة⁽¹⁾، حيث كانت العمليات الزراعية تجري بشكل رئيسي بواسطة الثيران (وبواسطة الجواميس في الجزء الأدنى من مصر والعراق⁽²⁾)؛ أما لنقل المحاصيل فقد كان المزارعون يستأجرون الجمال من البدو بمعدل (في مصر) خمس وعشرين إلى ثلاثين پارة يومياً⁽³⁾. ومن أجل نقل الأشخاص والأحمال الخفيفة كان لدى كل فلاح حمار أو حماران، يتفاوت سعر الواحد بين عشرة إلى اثني عشر دولاراً⁽⁴⁾. لكن هذا النقص في المواشي تسبب في عجز بالتزويد بالسّماد، وخصوصاً في المناطق التي يستعمل روث الحيوانات فيها كالوقود، ممّا أدى إلى تضاؤل خصوبة التربة. لم ينبُج من هذه العواقب سوى مصر بفضل الطبيعة الخصبة لطمي نهر النيل، وبفضل استخدام التّرات المستخرجة من الأنقاض وركام التّفايات⁽⁵⁾. كان الماعز يُربى في مصر العليا من أجل حليبه ولصنع قِرب الماء، كما كانت أعداد كبيرة من الأغنام تُربى في الفيوم وكان هناك بمعدل 800 نعجة في القرية التي تبلغ مساحتها ألفي فدان. وفي هذه المقاطعة كانت الأغنام تجزّ مرتين سنوياً من أجل صناعات حياكة الصّوف في القرية، وكان صوف النّعجة الجيدة يزن حوالي أربعة أو خمسة پاوندات. وفي المناطق الأخرى من مصر كانت الأغنام تجزّ مرة واحدة ويزن صوف النّعجة الواحدة من پاوندين إلى أربعة، ويباع الپاوند في

في السّبخة الواسعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من بحيرة البرّس (جيرار ص 554). وفي المناطق الأخرى كان المصدر الرئيسي للحوم هو القطعان التي تملكها البدو.

- (1) جيرار ص 556.
- (2) كانت أسعار الجواميس ترتفع لتصل من ستين دولاراً في أقصى جنوب مصر إلى حوالي ضعف المبلغ في الدلتا، وكان متوسط كلفة العلف (من البرسيم والبرسيم الجاف والقش المقطع والفول) لكل حيوان حوالي عشر پارات يومياً: جيرار ص 553-554.
- (3) جيرار ص 555. لم تكن العربات ذات العجلات معروفة في مصر والعراق، ونادراً ما تشاهد في سوريا (انظر رسل ص 56).
- (4) جيرار، المصدر السابق.
- (5) من أجل تسميد المحاصيل الاعتيادية (الصيفية) في مصر انظر سافاري ج 1 ص 74؛ أوليشيه ج 2 ص 164.

السوق العام بسعر أربعين إلى خمسين پارة⁽¹⁾. وفي كل المقاطعات كان الحمام يلعب دوراً مهماً في اقتصاد القرية كغذاء، ومن أجل السماد أيضاً الذي يباع بسعر يتراوح بين تسعين ومئة پارة للأردب الواحد⁽²⁾، ويستعمل بشكل رئيسي لأشجار النخيل والبطيخ والعنب⁽³⁾. أما التحل فيرتب من أجل العسل والشمع⁽⁴⁾، ويرتب الدجاج بشكل رئيسي في مصر من أجل مزارع الحضانة⁽⁵⁾.



-
- (1) جيران ص 555-556.
- (2) يختلف الأردب قليلاً بين مقاطعة وأخرى والأردب النظامي في القاهرة يزن 184 لتراً أو حوالي نصف بوشل bushel (جيران ص 506).
- (3) جيران ص 552.
- (4) تبعاً لأوليقييه (ج 2 ص 178-179) يملك القبط وحدهم التحل في مصر، وقد بدأت تربيته في الصعيد في فصل الخريف ثم انتقلت تدريجياً إلى الدلتا، لكن هذه الصناعة تراجعت إلى حد كبير بسبب الضرائب الثقيلة التي فرضها المماليك مؤخراً.
- (5) جيران ص 556-557؛ وكان الدجاج في المناطق الأخرى يربى كطعام فقط. وكان قاضي حلب، وفقاً لعادة قديمة، يأخذ من قرويي جبل سمعان طيور الدجاج كل ثلاثة أشهر إلى أن ألغيت هذه الضريبة بمبادرة من القاضي عام 1699: الغزي 3 ص 293.



الفصل السادس

المدينة: الصناعة والتجارة

1. بنية المدينة

لم يكن التباين بين المجتمعين الريفي والمدني أكثر بروزاً منه في العالم الإسلامي في القرون الوسطى. لم يكن مجرد تباين بين العزلة والتجمع، بين الاقتصاد المتشتت في القرية والاقتصاد المكثف في المدينة، بين الفقر المدقع والحرية والثراء النسبيين، بين المنتج والمستهلك، بل كان تبايناً بين حضارات. لقد كانت الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى حضارة مدنيّة، إذ بينما لم يهتم الإسلام كثيراً بالتواحي الدنيوية من الحياة في الأرياف، فقد أعاد بناء وتصميم المدن من أساسها وصبغها بصبغة خاصّة استمرّت إلى اليوم الحالي. لم يكن هناك رابط بين المدينة المصرية أو السورية والريف المحيط بها سوى الرّابط الاقتصادي⁽¹⁾ - وبالفعل فإن احتمال وجود روابط أقوى كان مقيداً بنظرة الازدراء التي كان سكان المدن ينظرون بها إلى الفلاحين - أما مدن البلدان الثّانية فقد اشتركت بحضارة واحدة ونظام حياة واحد وطريقة تفكير واحدة وإحساس بالوحدة عزّزته الملكيات والتقاليد المشتركة، حتى وإن كانت الصّلات المادية بينها محدودة نسبياً. هناك تغيّر ملحوظ في الجو الروحي للمدن؛ وبالرّغم من أنها عانت

(1) ينعكس هذا الانفصال شبه الكامل بوضوح في الأدب الإسلامي الذي هو أدب مدني من أوله إلى آخره. وحتى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم يكن بالإمكان الحصول على فكرة عن حياة المجتمعات الزراعيّة إلا من خلال الكتاب الأوروبيين.

من نفس الانهيار العام في القرن الثامن عشر، فقد كان هناك نوع من الاستقلالية في سلوك أبناء المدن وثقة واعتزاز بأنهم مواطنون مسلمون واستعداد لفرض حقوقهم، حتى ولو كان ذلك مجرد أعمال شغب ومظاهرات حاشدة. لقد أدهش التغير في المزاج والسلوك الرّحالين الأوروبيين في القرن الثامن عشر مع أنهم لا يستطيعون تفسير مصدره⁽¹⁾.

بالرغم من وجود الإحساس بالوحدة، لم تكن المدينة الإسلامية بأيّ حال وحدة عضوية. وإن البنية الاجتماعية، التي تشكّلت تحت الضغوط السياسية والاقتصادية ثم بّثت فيها المؤثرات الدينية روح النشاط، كانت مؤلفة من جماعات متخلخلة مستقلة تتمتع بحكم ذاتي ولا تخضع إلا للسلطة المؤقتة للقوى الدنيوية والروحية المتمثلة بالحكام ورجال الشرطة والقضاة. أما ملامحها المميزة فهي الطائفية ذات الأهمية الاجتماعية الكبيرة. إن كان الدين هو إسمت البنية الإسلامية، فإن الطوائف هي اللبنة التي بُنيت منها. لم يكن الحرفيون والتجار فقط هم من ينتمون إلى طائفة معيّنة، بل كان كل أصحاب المهن أفراداً في طوائف ذات قوانين نظامية ورؤساء وتخمين للضريبة المفروضة⁽²⁾. لقد كان هناك على سبيل المثال طوائف للطلاب والمدرسين والخدم

(1) انظر روسو Rousseau إذ يقول: «إن سكان بغداد بشكل عام، وهم بعيدون تماماً عن كونهم عبيداً، معتزون بأنفسهم وطموحون ونشيطون ولديهم ميل للتمرد. مع ذلك نجد في الحياة اليومية متمدنين وعقلانيين وكرماء ولطيفين مع الغرباء» (بغداد ص 9). أما قولني فيعزو ذلك إلى سوء الإدارة إذ يقول: «إن الحرفيين والتجار، المتشابهين في المدينة، يتهربون بسهولة من جشع من يقودونهم. وهذا واحد من الأسباب الرئيسية لكيفية توزع السكان في سوريا وحتى في تركيا: فبينما يقصد سكان المدينة الأرياف في البلدان الأخرى نجد الريف مهجوراً هنا، إذ يلجأ القرويون المطرودون من قراهم إلى المدن حيث يجدون الطمأنينة وسهولة العيش» (ج 2 ص 268). لكنه لا يفسر كيفية حدوث هذه المعجزة الاقتصادية، بل يثبت في ملاحظاته اللاحقة اعتناء pašas والإدارة بوفرة المؤن في المدن ورخص الأسعار.

(2) تختلف طرق فرض الضرائب على الطوائف بشكل كبير، وسوف نبحت هذا الأمر فيما بعد. كان القليل منها يختم مباشرة للميري (مثلاً شيخ السماصرة في رشيد، إستيف، ص 361)؛ وعلى الأغلب كانوا يدفعون تبرعات سنوية ثابتة لضباط الإدارة المسؤولين عنهم. وبهذا قام البائعون المتجولون وبائعو الأدوات الحديدية في مصر، بالمشاركة مع العازفين المتجولين

والسّقا - وحتى للشّحاذين⁽¹⁾ واللصوص والبغايا.

كانت الطائفة تخدم أهدافاً عدّة، فقد مُنحت الوسيلة التي يستطيع أضعف المواطنين من خلالها التعبير عن مواهبه الاجتماعية وتأمين مكانه في النّظام الاجتماعي. كان ذلك هو حقل ممارسته للمواطنة، وإن طُلب إليه القيام بدور في الحياة السّياسية الخارجية فإنّ حكامه السّياسيين لم يكونوا ليتدخلوا بشؤونهم بسبب احترامهم العام لاستقلاليتهم والأعراف التّقليدية لطائفتهم. كانت الوظيفة الاجتماعية للطوائف (ليست جميعها بل معظمها وبالأخصّ الطوائف الحرفية) تتعرّز بالانتماء الدّيني إلى إحدى الطّرق الدّينية المهمّة⁽²⁾. وإن الأثر الأخلاقي لهذه الشّخصية الدّينية كبير جداً، فقد شجّع على صفات الصّدق والرّصانة التي أجمع المراقبون كلهم على وجودها لدى الحرفي المسلم، وربما إليها يعود الفضل في التماسك المذهل للطوائف عبر قرون عديدة. لقد دعمت الأساس الأخلاقي والدّيني بالانضباط الذي كانت المنظمات الحرفية تفرضه على أفرادها؛ وبالرّغم من الاختلافات في الثروة وأحياناً في الأحوال المعيشية بين الأفراد، فقد دعمت الوحدة الاجتماعية وأكّدت على الواجبات الاجتماعية.

من وجهة نظر الأفراد، حافظت الطوائف على المستوى المهني ومنعت المنافسة الملتوية وخدمت أهداف المجتمع الأمن الودّي. ومن جهة أخرى لا يمكن إنكار ميلها إلى قبولية العمليات الصّناعية وحجز العمال في أفق ضيق من الرّتابة والرّوتين. لكن ذلك يعدّ سلبية ثانوية في الحضارة الثابتة، كما أنها حققت التّوازن بالحماية التي

(*muḥabbezîn*) وحواة الأفاعي (*uwâh*) والقرداتية (*kirdâtîya*) والمغاني (*mağânî*) والمشعوذين (*melâîb*) والبهلوانات (*pahâlewîn*) والراقصين (*rakkâsîn*) والممثلين (*cink*)، طائفة الخردة *Hurda* التي تدفع ضريبة تحمل الاسم ذاته إلى المشرف على أوجاق العزب *azeb-ocak* (إستيف ص 360؛ الجبّرتي ج 3 ص 229، ج 7 ص 132).

(1) في عام 1718 قدمت طائفة الشّحاذين في القاهرة لإبراهيم بك حصاناً وسرجاً بقيمة 22,000 بارة (الجبّرتي ج 1 ص 105، ج 1 ص 243).

(2) انظر القسم التّالي. ويشملهم الجبّرتي تحت مصطلح عام هو «العشيرة» أي محفل الدّراويش، لكن آلية هذا الارتباط لم تتضح؛ وقد يشغل الشّيخ مكاناً محدداً في سلّم ترتيب الطريقة.

منحتها للسكان بشكل عام⁽¹⁾ ضد الظلم والاضطهاد والقمع الحكومي والعسكري.

من وجهة نظر الحكام، حافظت الطوائف على النظام والانضباط بين الحرفيين والأفراد الآخرين في المجتمع السكاني، وأمنت وسائل ملائمة لإدارتهم وتطبيق بعض الضغوط عليهم من خلال الشيوخ الذين كانوا (أو الكواخي التابعون لهم) يمثلون الطوائف في صلاتها مع الحكومة، ولم يكونوا مكلفين بتوزيع نسب الضريبة على الأفراد فحسب، بل هم مسؤولون شخصياً عن جبايتها⁽²⁾. كان شيخ كل طائفة مديراً وحكماً لشؤونها الداخلية وحلّ النزاعات بين الأفراد والحفاظ على النظام ومعاقبة المخالفين⁽³⁾. كانت الشكاوى الموجهة إلى أفراد الطائفة تُعرض على الشيخ الذي كان نادراً ما يفشل في الحصول على رضا المدعى عليه، حتى في الطوائف الإجرامية⁽⁴⁾. لكنه كان بعيداً عن السلطة المستبدة، وإذا تجاوزت أحكامه الحدود المعقولة أو إن كان أفراد طائفته غير راضين عن إدارته لسبب من الأسباب، كان يُعزل من وظيفته ويُستبدل بشيخ آخر يختارونه بأنفسهم⁽⁵⁾. كانت الطوائف حرة ومستقلة نسبياً ضمن الحدود التي فرضها الدين والتقاليد والأعراف، وهي حقيقة تفسر الاستقرار والتكيف مع الظروف السياسية التي تبرزها الصناعة في كل البلاد الإسلامية، بالرغم من تأثرها الأكيد بالأحوال الاقتصادية والأنظمة المحلية.

إن التقسيم المادي للمدينة يعكس هذه البنية الاجتماعية⁽⁶⁾، ففي داخل تحصينات

(1) أما العامل المنفرد فلم يكن آمناً أبداً تجاه ظلم رجال الشرطة والوقوع ضحية لهم، ولم يكن ليعتمد على حدوث تغييرات وإصلاحات.

(2) إن كان الأفراد غير مسلمين كان الشيخ يجمع الجزية أيضاً (خراج *harâc*) من كل واحد منهم.

(3) شابرول ص 322؛ الجبّرتي ج 3 ص 119، ج 7 ص 64.

(4) لاين Lane (مصر الحديثة، الفصل الرابع) حول طائفة اللصوص، وباورينغ Bowring ص 117.

(5) شابرول ص 323. وبشكل عام كان منصب الشيخ وراثياً في عائلة محدّدة.

(6) من أجل وصف حديث شامل للقاهرة في العهد العثماني انظر م. كليرجييه M. Clerget «القاهرة» 1 ص 178-187.

الوحدة الخارجية المتمثلة بأسوار المدينة، ووحدة العمل المتمثلة بالأسواق، كانت المدينة مقسمة إلى عدد كبير من الأحياء المنفصلة وتدعى الحارات، وهي مستقلة ذاتياً لها أبنيتها المتميزة (المسجد والحمام والسوق) وبواباتها الخاصة التي تؤمن لها وجودها المستقل⁽¹⁾. كانت كل حارة تشكل وحدة إدارية يرأسها شيخ وتسكنها عائلات، تقوم بينها روابط طبيعية إما بحسب الأصل أو المهنة أو الدين وتشكل بذلك مجموعة متناغمة فيما بينها⁽²⁾. وبما أن عدد الحارات كان أقل من عدد الطوائف المستقلة، فيبدو أن نظام الحارات كان قد بُني على أساس النظام الطوائفي لكنه لم يتعارض معه، وكان لشيخ الحارة وظائف پوليسية (وعسكرية لدى الضرورة). في القاهرة كان هناك شيخ عام للحارات يحتل مركز الزعيم أو المتحدث باسم سكان المدينة⁽³⁾. وفي دمشق حلّ محله الرئيس الذي كان أحد الشخصيات الدينية المحترمة ويفرض سلطته على الطوائف كلها⁽⁴⁾. وكانت المسؤولية العامة للحفاظ على النظام من نصيب مشرف السوق (المحتسب *muhtasib* أو أمين احتساب *emîn ihtisâb*،

(1) كان للقاهرة ثلاث وخمسون حارة في القرن الثامن عشر، جومار Jomard «وصف القاهرة» ص 661 حيث يقدم وصفاً موجزاً. أما عن حارات دمشق فانظر جان سوفاجيه J. Sauvaget في لمحة عن الدراسات الإسلامية 1934 ص 450 وما يليها، مع صورة لها. ويستخدم آجلينو De Kat Angelino في «السياسة الاستعمارية» ج 1 ص 78 عبارات «تكتل القرى والأحياء والشوارع» مما يبرز الترتيب العكسي لمدن آسيا الغربية.

(2) «يسكن هذه الأماكن المحصورة إما عمال المهنة الواحدة أو الغرباء من بلد واحد أو من دين واحد، لكنهم جميعاً يشتركون في الظروف نفسها ولهم الحقوق والامتيازات نفسها ومصالحهم واحدة»: جومار Jomard، المصدر السابق؛ سوفاجيه ص 453.

(3) هو شيخ مشايخ الحارات؛ انظر الجبّرتي ج 3 ص 53، 240؛ ج 4 ص 174، ج 6 ص 106؛ ج 7 ص 162؛ ج 9 ص 16؛ باورينغ ص 121. يتضح من تعابير الجبّرتي أن كل سوق له شيخ (على الأرجح شيخ الطائفة المعنية). وكانت الجماعات غير المسلمة منظمة في خطوط *huffs* بزعامة كبير أو رئيس لكن يبدو أن كلمة *huff* مرادفة لكلمة حارة (انظر لايين «مصر الحديثة» الفصل 25). لا توجد إشارة إلى شيخ الطوائف في مصر قبل عهد محمد علي.

(4) المرادي ج 1 ص 62؛ ج 2 ص 71 (المفتي الحنفي). وفي أوائل القرن الثامن عشر كان منصب شيخ المشايخ أو الرئيس وراثياً في عائلة نقيب الأشراف (قدسي ص 10). من أجل الرئيس في القدس انظر المرادي ج 3 ص 132؛ وفي نابلس ج 1 ص 11.

وهي وظيفة دينية أصلاً لكن يبدو أن من يقوم بها الآن هو موظف مدني أو عسكري) وآغا أو كاخية الإنكشارية المحليين (اليرلية)، ويعرف بالصوباشي أو الوالي⁽¹⁾.

على الرغم من انقسام سكان المدينة إلى مجتمعات متقاربة مهنيًا وسكنيًا، ووجود الطوائف المتنافسة بينها⁽²⁾، فإنه من الخطأ أن نفترض عدم وجود تنظيم للعمل المشترك. كانت مؤسسات البلدية بمعناها الدقيق مفقودة وأي ارتباط بين سكان المدينة تنظر إليه السلطات بعين الشك، إن لم يكن أكثر من ذلك. في الأعياد الدينية والمناسبات العامة كتولي سلطان ما العرش⁽³⁾ كانت الطوائف تسير في الموكب، وكان المواطنون عرضة للاستدعاء في جماعات للدفاع عن المدينة في حالات الطوارئ⁽⁴⁾. وبما أنهم كانوا مسلحين⁽⁵⁾، كان الحكام يخشون دائماً قيام انتفاضة شعبية، وكانت مهمة رجال الشرطة السيطرة عليهم حفاظاً على النظام العام⁽⁶⁾. مع ذلك كان السلوك المستبد المضطهد للحكام أو تابعيهم يحرض على أعمال ثارية إلى أن تأخذ العدالة مجراها⁽⁷⁾. يقدم تاريخ سوريا بشكل خاص أمثلة على هذه الأعمال المدبرة من قبل

(1) الجبّرتي ج 1 ص 102؛ ج 2 ص 107، ج 1 ص 237؛ ج 4 ص 186؛ قانون ناه (ديجون) ص 249، 260؛ دني Deny ص 39-40.

(2) في نابلس على سبيل المثال، انظر: جوليف Joliffe 1 ص 48.

(3) مثال ميخائيل الدمشقي ص 21، وعيد المحمل في القاهرة.

(4) استدعى إسماعيل بك كل سكان القاهرة - «القاضي والسيوخ والتجار والحرفين والمغاربة وناس الحارات والعصابات» - للدفاع عن المدينة ضد مُراد وإبراهيم، لكنه لم يحتفظ سوى بالمغاربة وأفراد الأوجاقات. الجبّرتي ج 2 ص 13، ج 3 ص 258؛ وكان هناك استدعاء آخر لدى اقتراب الفرنسيين (ج 3 ص 6-7، ج 6 ص 13-14).

(5) الجبّرتي ج 3 ص 240، ج 4 ص 223، ج 7 ص 162، ج 9 ص 126. ولا بدّ من تذكر أن عدداً كبيراً من الحرفيين يتمون إلى الأوجاقات. وكانت الطبقات الدنيا لا تملك سلاحاً سوى الهراوات.

(6) من هنا برز العنف الذي يظهره رجال الشرطة وعلق عليه الرّحالون والمقيمون في البلاد؛ انظر جومار Jomard ص 725.

(7) في الإسكندرية على سبيل المثال (الجبّرتي ج 2 ص 93، ج 4 ص 150)؛ وفي القاهرة ج 2 ص 189، ج 5 ص 85-86؛ وفي حلب (الغزي ج 3 ص 293)؛ وحرركات تمرد كثيرة ضدّ الحكام في سوريا، المرادي ج 2 ص 32؛ حيدر ج 1 ص 204، 205؛ فولني ج 2 ص 16، 68؛

المواطنين، وبالرغم من كونها أندر في مصر، فقد قُدِّر لها أن تلعب دوراً حاسماً في اللحظات الحرجة في الفترة المستقبلية من التاريخ المصري. بالإضافة إلى تلك الطريقة العنيفة، كان هناك شكل شائع للاعتراض هو المقاومة السلبية البسيطة. كان الباشوات والحكام يصدرون أمراً، لكنهم إن رغبوا بالحصول على الطاعة لا بدّ لهم من القيام بأعمال قوية وعقوبات رادعة⁽¹⁾. وإن معظم السلبية والجمود الواضحين لدى السّكان كان مرده في الواقع إلى الفطرة الطّبيعية في الحفاظ على النفس ضد أي حكم مستبدّ.

أما ما يتعلق بتعداد سكان المدن، فيمكن قبول التّقديرات كلها بحذر لأنها متناقضة فعلاً. في عام 1798 قُدِّر عدد سكان القاهرة بـ 263,000 نسمة⁽²⁾، لكنها عانت كثيراً من آثار المجاعات والأوبئة في السّنوات الخمس عشرة الفائتة. خَمَّن أوليفيه عدد سكان حلب بـ 150,000⁽³⁾ ودمشق وبغداد بـ 100,000⁽⁴⁾ لكل منهما، والمدن السّاحلية في سوريا بـ 5,000 إلى 15,000⁽⁵⁾. أما أورفة التي تحوي 30,000 إلى 40,000 نسمة،

أوليفيه ج 2 ص 335 (أورفه). وكان من الشائع اللجوء إلى القادة الدينيين للتدخل من أجلهم لدى السلطات.

(1) الجبّرتي ج 1 ص 102-104؛ ج 2 ص 178، ج 1 ص 238-240؛ ج 5 ص 67، والفصل العاشر من الكتاب.

(2) جومار Jomard ص 694 (انظر شابرول ص 8-10) أكثر من 24,000 في بولاق (Jomard ص 748).

(3) أوليفيه ج 2 ص 301؛ فولني ج 2 ص 50، يقدر العدد بـ 100,000 لكنه أرقامه تأتي بشكل عام أخفض من أرقام الآخرين. ومن جهة أخرى يذكر الغزي ج 1 ص 331 رقماً مستحيلاً هو 400,000 ويؤكد (ج 3 ص 301-302) أن 87,000 قضوا نحبهم في مجاعة عام 1759. ويقدر رسل عام 1753 عدد السّكان بحوالي 235,000.

(4) فولني ج 2 ص 151: 80,000 في دمشق؛ روستو ص 9؛ أوليفيه ج 2 ص 388.

(5) الإسكندرية، 20,000؛ أوليفيه ج 2 ص 7؛ رشيد، سابقاً 25,000؛ أوليفيه ج 2 ص 51. أما البصرة فيقدر روستو العدد فيها (ص 32) بـ 45,000 إلى 50,000، وطرابلس عام 1715 بـ 80,000.

والموصل ذات 65,000 نسمة⁽¹⁾، فكانتا المدينتين الكبيرتين الوحيدتين من مدن الدّاخل بينما لم تعدْ الأخرى كونها قرى كبيرة⁽²⁾.

2. الصّناعة

من بين كل المؤسسات الاجتماعية في الشّرق الإسلامي، بقيت الصّناعة لغاية القرن التاسع عشر الأوفى لنظامها وأعرافها التقليديّة. بالرّغم من الفقر والانحطاط الذي لحق بأسلوب معيشة الحرفيين ومنتجاتهم، فإن حرفيي القرن الثّامن عشر، بالمقارنة مع النّهضة الصّناعية الكبرى في الشّرق بين القرنين العاشر والثّالث عشر، قد حافظوا دون تغيير يذكر على جماعاتهم الحرفيّة⁽³⁾ وأعمالهم الصّناعية كما كانت في العصور الوسطى. قد لا نذكر هنا الصّناعات القروية البسيطة، حيث كان حرفي أو اثنان يلبّيان الحاجات المحليّة من الأواني الفخارية والأدوات الخشبيّة والآجر المشوي أو غير المشوي والمنسوجات الخشنة⁽⁴⁾، وذلك لأنّها جزء من بنية الحياة في القرية ويعتمد نظامها على نظام القرية وليس على نظام الحرفة. وبالمقابل فإن صناعات الحياكة التي تقوم بها النّسوة في القبائل هي على الرّغم من أهميّتها كمنتجات تجارية⁽⁵⁾ تنتمي إلى التّنظيم القبلي.

(1) أوليفيه ج 2 ص 328، 357.

(2) فولني 2 ص 172، 173، يقدر العدد بما لا يزيد عن 2,000 في حمص و4,000 في حماة - ومن المحتمل أن يكون الرّقمان أقل من الحقيقة - و12,000 إلى 14,000 في القدس (ج 2 ص 179).

(3) الاسم العربي هو «صنف» أو «حرفة» وفي المصادر المعاصرة «طائفة» أو «كار». وإن كلمة «guild» غير مناسبة تماماً لترجمة هذه المصطلحات بما أن قوة طوائف العصور الوسطى في أوروبا في السيطرة على الصّناعة كانت أوسع من قوة الطّوائف المسلمة. لم تتطور دراسة الطّوائف الحرفيّة أكثر من مراحلها الأولى؛ انظر مقالة «صنف» في الموسوعة الإسلاميّة (ماسينيون)؛ جيرار ص 598 وما يليها؛ باورينغ ص 117؛ كلوت بك ج 2 ص 300-302.

(4) انظر جيرار «مذكّرة حول الزراعة» ص 591، 593، 594-595؛ وأسفار دُنون (ترجمة إنكليزية ج 1 ص 210) حيث يوصف حرفيو القرية بأنهم «أكثر الطّبقات شقاء وبؤساً».

(5) خصوصاً السّجاد الذي تحيكه النّساء التّركمانيات في شمال سوريا - فولني ج 1 ص 360.

كانت أصناف حرف المواطنين تختلف من مكان إلى آخر، لكنها تتبع كلها النظام العام نفسه، فهي تتألف من رؤساء وصُنّاع ومتدربين عاديين يدعون على الترتيب باللغة التركية أسطة *usta* وقالفه *kalfa* وچراق *çirak*، ويتنظمون ضمن ترتيب متين برئاسة الشيخ أو الرئيس. كان كل متدرب مجبراً منذ البداية على ملازمة رئيسه الذي يعلمه أسرار الحرفة وتقاليد الطائفة، والذي يكفله عندما يصل إلى المهارة المطلوبة ويصبح أهلاً للترقية. كان الرؤساء فقط هم المسموح لهم بفتح الدكاكين، وكان عدد الدكاكين المخصص لكل حرفة محدوداً بشدة.

إن مزية امتلاك الدكان أو السماح بممارسة أية حرفة صناعية أو تجارية تدعى بالتركية *gedik*⁽¹⁾، ولم تكن ملكية الدكان لصاحب الدكان بل كان يستأجرها بعقد إيجار سنوي. وكان *gedik* نفسه نوعاً من الملكية يمكن رهنها أو بيعها (لمشتر مناسب)، وتنتقل بعد وفاة الرئيس إلى ورثته. يمكن للابن أن يحل محل أبيه إن كان مؤهلاً لذلك - أي إن كان وصل إلى رتبة صانع في الحرفة ذاتها، وإلا فإن *gedik* يباع من قبل الورثة لفرد مؤهل آخر. لا يمكن الحصول على *gediks* جديدة إلا بعد دفع سلفة للخزينة، وعلى المتقدم بالطلب أن يثبت حيازته على الأدوات اللازمة للحرفة. وكانت *gediks* على نوعين، الأول يسمح لصاحبها ممارسة الحرفة حيث يشاء، بينما يلزمه الآخر بممارسة الحرفة في مكان محدد⁽²⁾. كان النوع القابل للانتقال نادراً، وزادت ندرته بمرور الزمان، وذلك دون شك تبعاً لرغبة الحكومة في إحكام السيطرة على عدد الحرفيين الذين يعملون في أي حي من الأحياء⁽³⁾.

(1) وتعني حرفياً «ثغرة أو فجوة» ويقال إنها المقابل التركي لكلمة «فرج» العربية. ظهر استخدام هذه الكلمة أول مرة حوالي عام 1140هـ (1728-1727) عندما حلت محل «أسطة لك *rustalik*» (أي الرئيس). وأصبحت كلمة *gedik* تطلق على عادة تسليم أدوات المهنة دون ثمن للمشتريين أو ورثة حقوق الأسطة لك. بلدية ج 1 ص 652-653، 659-658. انظر Belin «الملكية الأساسية» ص 264 الذي أخبره المؤرخ جودت باشا (حوالي عام 1850) أن كلمة *gedik* بمعناها الجديد وجدت منذ 150 إلى 200 سنة.

(2) تسميان على الترتيب: «هوائي *Havai*» و«مستقر *Mustakarr*».

(3) بلدية ج 1 ص 659؛ Belin ص 266، 269. بقي نوع هوائي موجوداً في القرن التاسع عشر.

كانت الحقوق الممنوحة لأفراد الطوائف صغيرة للغاية، لأن تعاملاتهم التجارية محدودة بطرق أخرى. بالدرجة الأولى لم يكن هناك سلع قابلة للبيع بأعلى من السعر الثابت الذي تحدده الحكومة سنوياً. ثانياً، لم يكن بمقدور حرفي أو تاجر صنع أو بيع أي شيء آخر عدا الأشياء المسموح بها لطائفته⁽¹⁾. ثالثاً، لم يكن يُسمح بأي تغيير في الأزياء - وكانت الأوامر الصارمة قد صدرت بعد بداية فترة بحثنا بقليل لصانعي وبائعي الأحذية في إسطنبول بعدم صنع أو بيع أحذية وخفاف ذات رأس مستدق⁽²⁾، مخالفة للزّي القديم⁽³⁾.

وفيما يخص مسألة تثبيت الأسعار - *nerh*⁽⁴⁾، أو تسعير *tes'ir* في الأقاليم العربية - فقد كان هدف الحكومة حماية المستهلك إذ لم يكن يُسمح ببيع السلع بأعلى من التسعيرة المحددة بينما يملك البائعون حرية بيعها بأقل من ذلك إن أرادوا؛ لكن ذلك لم يكن بالأمر الشائع. لم يكن هناك الكثير من التنافس بين أفراد الطائفة الواحدة الذين كانت دكاكينهم متجاورة في نفس الشارع أو الحي. وكان فرض التسعيرة موجهاً بشكل خاص ضد الإساءة في حقوق الاحتكار للطائفة ككل أكثر من كونه موجهاً ضد رفع الأسعار بشكل فردي.

وُجدت الطوائف الحرفية في الإسلام قبل تأسيس الإمبراطورية العثمانية بمدة طويلة⁽⁵⁾ لكن الطوائف تطوّرت بشكل أساسي من مجتمع الفتوة أو الفضيلة⁽⁶⁾ التي تمثلها الأخية في الأناضول، والتي سبق وأشرنا إليها لدى حديثنا عن الجيش. كان

(1) بلدية 1 ص 646. مع الاستشهاد بوثائق 1039 (1629-1630) و 1074 (1663-1664).

(2) «Sivri burunlu».

(3) المصدر السابق ص 650. *Trade to the Istanbul Kazisi* تعود إلى عام 1222 (1807).

(4) كلمة ذات أصل فارسي، وهي على الأصح *nerh*. لا يوافق *nerh* الشريعة ويقال إن النبي قد أدانها، لكنه مع ذلك يعود إلى الأيام الأولى من الخلافة؛ انظر بوليك في *R.E.I.* عام 1936 ص 261. بلدية ج 1 ص 394. انظر أيضاً *M.T.M.* ج 1 ص 505.

(5) انظر الموسوعة الإسلامية ج 4 مادة «صنف» لماسينيون. ويعتقد أنها تعود إلى القرن 9/3. انظر أيضاً فون كريم *Kulturgeschichte* ج 2 ص 186، وب. لويس في مجلة التاريخ الاقتصادي نوفمبر 1937، ص 20-37.

(6) «*fitüvvet*» (بالعربية «فتوة»).

للطوائف العثمانية، كالدرأويش، طريقة كانت في الواقع طريقة مجتمع الأخية⁽¹⁾، وبالرغم من أن معظمها قد أصبح دنيوياً بحلول القرن الثامن عشر، فما زالت هناك آثار واضحة من تنظيمها السابق. وبهذا بقي في كل طائفة رئيس أو «ولي» (pîr)، وأحياناً اثنان هما شخصان ذوا صفة دينية الأعلى عادة هو شيخ يهودي والأدنى من المسلمين، وكان من يتمون إلى الفئة الأولى هم من يتدعون الحرفة أو التجارة التي تقوم بها الطائفة المعينة. وحتى نهاية القرن التاسع عشر كان كل صاحب دكان مسلم يعرض في محله قصيدة ذكر فيها اسم وليه⁽²⁾.

كانت ترقية المتدربين تتسم بإقامة مراسم خاصة لبدنهم العمل⁽³⁾ تجري بحضور كل مقدمي ونُقباء الطائفة، ويشبه ذلك عندما يصبح المبتدئ في الطرق الصوفية ناضجاً ليرقى إلى رتبة الدرأويش⁽⁴⁾. كانت المراسم الأصلية غاية في التعقيد⁽⁵⁾، ولكنها غدت أكثر بساطة بالعلمنة النسبية للطوائف⁽⁶⁾. إن مصطلح «پشتمالك» *peştemallik* الذي يطلق على المال المدفوع لشراء دكان، هو أثر باقٍ من المراسم الأولى، وكان «پشتمال» أو المحزم هو ما يُربط به المرشح⁽⁷⁾. وهناك بعض الطوائف كالذبّاغين والإسكافيين والسراجين - وهي الأكبر والأكثر نفوذاً - لا تزال حتى وقت قريب تطلق لفظة «أخي» على الزعماء، وتستخدم پشتمال لدى ترقية المتدربين⁽⁸⁾.

(1) بلدية ج 1 ص 518، 537. ومن هنا كان الزوّساء يدعون بأهل الطريق. انظر Thorning, *Beiträge* ص 115-116.

(2) بلدية ج 1 ص 518، 522-524؛ ثورننغ ص 83، 84.

(3) تدعى بالتركية شدّ باغلامق «*şed bağlamak*». بلدية ص 8، 524.

(4) ثورننغ ص 71، 123 وما يليها.

(5) كان المرشح يخضع لاختبار دقيق. ثورننغ ص 107، 110.

(6) يكفي كدليل على ذلك غياب الضباط المهمين.

(7) بلدية ج 1 ص 518. في الأيام المبكرة كانوا يستخدمون المريلة والحزام أيضاً. انظر ثورننغ ص 140 وما يليها.

(8) بلدية ج 1 ص 537.

في القرن الثامن عشر كانت شؤون كل طائفة تدار من قبل موظفين هما الكاخية⁽¹⁾ *Kâhyâ* أو المدير، واليكيت باشى *Yiğit Başı* أو رئيس الرفقاء، بالإضافة إلى مجلس من كبار السن (الإختيارية *ihtiyârîye*)⁽²⁾ مكوّن من بعض الرؤساء أو كلّهم. أما قبل ذلك فكان في رئاسة الطائفة عدد آخر من المسؤولين بمن فيهم الشيخ والدّعاجى *Duacı* أو القارئ في الصلوات⁽³⁾، وفي بعض الطوائف كطائفة الحلاقين لا يزال هؤلاء موجودين في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ويتصدّر الرئاسة الكاخية واليكيت باشى⁽⁴⁾. كان هؤلاء الموظفون يُختارون من قبل كبار الطائفة ومن بينهم؛ وكان ذلك الإجراء متبعاً في حالة اليكيت باشى، وفي كثير من الأحيان في حالة الكاخية. لكن هذا المنصب صار يمنح مؤخراً للموظفين المتقاعدين بهدف تزويدهم بسبل العيش - وهناك سبب آخر لهذا التّغيير هو كون الكاخية ممثلاً للطائفة لدى الحكومة بالإضافة إلى كونه المدير العام لشؤون الطائفة الداخليّة⁽⁵⁾. وبسبب هذا المنصب نصف الرّسمي كان الكاخية يعدّ نوعاً ما خارجاً عن جماعة الطائفة، وبالتالي كان الأفراد أنفسهم يتعاملون مع الكاخية عن طريق اليكيت باشى⁽⁶⁾. إن كلمة يكييت هي أثر آخر من «مجتمع الفتوة» الذي كان أفراده يدعون بالفتى، وهي كلمة تعني بالعربية الرجل الشريف الكريم. ويكييت هي الكلمة المقابلة بالتركية، فأفراد الطائفة كلّهم *yigits* ورؤيسهم هو *yigıt-başı*.

(1) تحريف تركي للتعبير الفارسي كتحدا *kat khudâ* أي «سيد المنزل». وتكتب الكلمة في الوثائق التركية بهذا الشكل *kethüda*.

(2) تطلق كلمة اختيارية في التركية على كبار السن، ويبدو أنها اشتقت من كلمة اختيار العربية، أي «choice» لأنهم مجموعة مختارة. بلدية ج 1 ص 578؛ ثورنينغ ص 13 وما يليها.

(3) بلدية ج 1 ص 560. والضباط الآخرون هم: النقيب *nakib* الذي يدير شؤون الطائفة نيابة عن الشيخ والذي انتقلت مهامه فيما بعد إلى الكاخية؛ والجاوش والذي تحولت مهامه كدليل وحاجب إلى اليكيت باشى. بلدية 1 ص 561، 563، 565. انظر ثورنينغ ص 99 وما يليها؛ دوسون «الجدول العام *Tableau Général*» ج 4 ص 228 ولا يورد فيه سوى الكاخية واليكيت باشى كضباط للطائفة.

(4) بلدية ج 1 ص 563.

(5) المصدر السابق ص 564-569 - مع الاستشهاد بوثائق القرن الثامن عشر، ص 574.

(6) المصدر السابق ص 574.

تظهر العلمنة التّسببية للطوائف في القرن الثّامن عشر من خلال استعمال كلمة لونجا *lonca* المشتقة في الأغلب من الكلمة الإيطالية *loggia*⁽¹⁾ وتعني مكان اجتماع الرّؤساء. في القديم كانت هناك كلمات أخرى استخدمت لقرون قبل تأسيس الإمبراطورية العثمانية للدّلالة على مسكن الصّوفيين⁽²⁾، ويبدو أن التّغيير قد حدث في نهاية القرن السّابع عشر⁽³⁾، لكن سبب إدخال هذه الكلمة الأجنبيّة غير واضح تماماً وكذلك لم تفسر قضية علمنة الطّوائف بشكل كافٍ. يقترح صاحب «مجلة أمور بلدية» *Mecellei Umuru Belediye* سببين لذلك: الأول هو أن المراسم القديمة تتطلب مستوى أعلى من الثقافة لأدائها بشكل جيّد ممّا هو عليه الحال بين الحرفيين الجدد، والثّاني هو أن العضوية المشتركة بين المسلمين وغير المسلمين في طائفة واحدة تدعو إلى تخلي هذه الجماعات عن المراسم الإسلاميّة البحتة⁽⁴⁾. لكن سوء تنظيم المدارس التّعليمية في القرن السّابع عشر، وهي المدارس المخصّصة للعلوم الدّينية، لم يكن ليؤثر إلا قليلاً بطبقة الحرفيين؛ وليس هناك ما يدلّ على أن غير المسلمين قد شكّلوا بمرور الزّمان عنصراً أكبر داخل الطّوائف عما كانوا عليه من قبل. وفي الواقع لقد شهدت العلاقات بين المسلمين والدّميّتين تراجعاً ملحوظاً منذ القرن السّابع عشر وما بعده، كما سنرى لاحقاً. أما العلاج الذي اتّخذته الحكومة فكان فصل الأحزاب داخل طوائفها ممّا أدّى إلى سهولة أداء الشّعائر الدّينية للمسلمين. ومن جهة أخرى قد يكون هناك سبب آخر مرده إلى العادة التي نشأت في الفترة ذاتها وهي التحاق الحرفيين بفرق الجيش الإنكشاري. وفي الحقيقة فإن معظم الحرفيين على اختلاف طوائفهم

(1) انظر كرستيجيان Kerestedjian «قاموس ألفاظ اللغة التركية»، ص 26، 317. لكنها على الأرجح الكلمة الإسبانيّة *lonja* «تبديل» التي أتت بها اللاجنون اليهود.

(2) أي الزاوية (من العربية) وخانقاه *anḳâh* (الفارسية). وصارت فيما بعد ميدان، ميدان علي، ميدان أوضه سي. انظر ثورننغ ص 121، 220.

(3) بما أن أوليا چلبّي Evliya Çelebi (المتوفى عام 1679) لا يذكرها، وهو الذي تناول شؤون الطّوائف بالبحث المستفيض. قلت: الصحيح أن وفاة أوليا چلبّي كانت عام 1682، وأرجو أن يتاح لنا نشر رحلاته المطوّلة في هذه السّلسلة. (أحمد)

(4) بلدية ج 1 ص 575.

قد التحقوا بالجيش الانكشاري⁽¹⁾ حتى صاروا في القرن الثامن عشر يؤلفون الجزء الأساسي والأكبر من قواته⁽²⁾. وكان لهذا الارتباط أثره في اتباع الطريقة البكتاشية، وبعد ذلك لم تعد الطوائف تشعر بالحاجة لأن يكون لها تنظيم ديني دقيق خاص بها.

كانت الممارسات الدينية داخل الطوائف تحمل صبغة تعصبية - كانت شعائرهم الافتتاحية على سبيل المثال تقدّس الأئمة الثلاثة الأوائل للشيعة⁽³⁾، وكان الولي أخي اوران *Ahi Evren* الذي ترتبط به أقوى الطوائف من الدبّاغين والسراجين، محور التعاليم الدينية للطريقة ذاتها المرتبطة بالحاج بكتاش⁽⁴⁾.

بغض النظر عن اتباع الطريقة البكتاشية، فإن العلاقة بين الدراويش والطوائف، بما أنهم من المسلمين، قد بقيت قوية. أولاً كانت الطرق تأتي بأفرادها بشكل رئيسي من طبقة الحرفيين⁽⁵⁾، وثانياً كان عدد من أفراد الطوائف ينتمون للملامتية *Melâmism*، وهي مدرسة سرّية لها مركز في إسطنبول⁽⁶⁾. وبالرغم من فقدان الطوائف نوعاً ما لطبيعتها كمراكز للحياة الدينية، فذلك لا يوحى بأكثر من تحويل اتجاه ولاء أفرادها.

كان أفراد مجتمع الفتوة يعيشون بطريقة مشتركة تقريباً يجمعون أرباحهم من أجل فائدتهم المشتركة، وقد استمرّ هذا المبدأ بين الطوائف اللاحقة عن طريق إنشاء صندوق تعاوني مشترك⁽⁷⁾ كان كل الأفراد يساهمون فيه أسبوعياً أو شهرياً. وكان المال الذي يتولى إدارته الكاخية واليكيت باشى والرؤساء يستخدم جزء منه للأغراض

(1) المصدر السابق ص 619.

(2) سيّد مصطفى، «نتائج الوقوعات»، ج 3 ص 85-86؛ جودت پاشا «التاريخ» ج 1 ص 96.

(3) ثورننغ ص 6061، 81، 85-86؛ بلدية ج 1 ص 523؛ عبد الباقي «*Melâmilik ve Melâmi-ler*»، ص 167-168.

(4) بلدية ج 1 ص 548. انظر هاسلّك «المسيحية والإسلام في ظل السلاطين»، ص 505.

(5) ثورننغ ص 74.

(6) بلدية ج 1 ص 552 وما يليها، انظر أيضاً الفصل الثالث عشر من الكتاب.

(7) بالتركية: *Ta'âvun Sandığı*. انظر الجبّرتي ج 3 ص 6؛ ج 4 ص 198، ج 4 ص 14 (خاطي)؛

ج 9 ص 67.

الدّينية - كالا اجتماع لقراءة القرآن سنوياً في مسجد أيوب في رمضان، وتوزيع *pilāv* على العامة - وجزء منه يصرف على مساعدة أفراد الطّائفة في حال مرضهم أو إصابتهم بمحن أخرى، وإذا توفي أحد الأفراد وهو فقير تسدّد نفقات جنازته من هذا الصّندوق. أخيراً عندما كان الأفراد يحتاجون بعض المال بشكل مؤقت، وخصوصاً إن كانوا يرغبون في توسيع أعمالهم، بإمكانهم الاقتراض من الصّندوق المشترك بفائدة تبلغ 1 بالمئة.

كان المبلغ الذي في الصّندوق يزداد بالمعونات الخاصّة، وكان الرّؤساء الذين يرغبون في ترقية أحد المتدرّبين أو الصّناع إلى رتبة أعلى يتبرّعون بمبالغ ثابتة من أجل نفقات المراسم التي ترافق التّرقية⁽¹⁾. وكل بضعة سنين، أحياناً عشر وأحياناً عشرين، كانت الطّائفة تقيم احتفالات تدوم أكثر من أسبوع في مكان مبهج كالكاغد خانة⁽²⁾ *Kāgīdhane*. ولم تكن تلك الاحتفالات من أجل المتعة فقط بل كانت مصدر ربح للأفراد، إذ يقومون بإنشاء معارض حديثة وحملات دعائية. وينطبق الأمر أيضاً على مشاركة الطّوائف في الأعياد الرّسمية التي يأمر السلطان بإقامتها بين الحين والآخر، وتكون غالباً بمناسبة ولادة أو ختان الأمراء. عندها تسير الطّوائف في الموكب رافعة شعاراتها⁽³⁾، وإذا كانت صناعاتهم مقبولة كانوا يقدّمون نماذج منها كهدايا للسلطان ورؤساء الوزراء. كانت نفقات الاحتفالات والمواكب تحصل من ضرائب تفرض على الأفراد. وكان للطّوائف ملكية مشتركة أيضاً كالصّحون وأدوات الطّبخ وهي إما أن تشتري وإما أن تقدّم كمقابل لهديّة من السلطان، وكانت تستخدم في أيام الاحتفال⁽⁴⁾.

(1) 50 قرشاً للمتدرّب العادي، و300 قرش للمتدرّب المؤهل ليصبح رئيساً (دون تحديد الزّمان).

(2) «المياه العذبة الأوروبية».

(3) انظر دوسون «Tableau» ج 4 ص 410، حيث يقول: «يرتدي الجميع الملابس الفخمة وتتقدم كل فرقة بشكل مستقل مع شارات التنصر المزينة بالرموز والأدوات، والمنتجات من كل فن ومن كل حرفة».

(4) بلدية ج 1 ص 579-583.

كان تنظيم الحكومة لشؤون الطائفة يتم من خلال القاضي، وتوجه الأوامر المتعلقة بطوائف العاصمة الصادرة من السلطان أو الباب العالي إلى قاضي إسطنبول الذي تمتد سلطته ضمن العاصمة فقط، أما «البلدات الثلاث»⁽¹⁾ أيوب وغلطة وأسكدار فلها قاضٍ خاص بها. لكن وُجد فيما بعد أن تولي شؤون الطوائف في المنطقة كلها والتعامل مع الحرفيين والتجار كان أكثر سهولة لقاضي إسطنبول، وذلك بسبب العدد الكبير المتواجد منهم في إسطنبول نفسها. لكن الأمر برمته لم يكن منظماً بشكل كافٍ، وعندما لم تكن الأوامر الخاصة تصدر من قاضي إسطنبول كان القضاة الثلاثة الآخرون يحتفظون بسلطاتهم⁽²⁾. كان لقاضي إسطنبول وكلاء متعدّدون موجودون في أحياء مختلفة من المدينة، بالإضافة إلى وكلاء آخرين متجولين للإشراف بالنيابة عنه على سلوك الطوائف من حيث الأسعار والأوزان والقياسات. كانت مسؤولية هذه الرقابة تقع على عاتق القاضي بشكل رئيسي، مع وجود أكثر من ثلاثة موظفين آخرين يساعدونه في القيام بالمهمة. وكان الصدر الأعظم وأغا الإنكشارية يقومان كالقاضي بجولات دورية في الأسواق يرافقهما رجال يحملون موازين للتأكد من عدم غش أصحاب الدكاكين بالوزن، كما كانت هناك رقابة لصيقة مستمرة من قبل ضابط يدعى المحتسب (أو المفتش) ورجاله⁽³⁾.

يتم تعيين واحد من هؤلاء المفتشين⁽⁴⁾ في مدن وبلدات الإمبراطورية التي تفخر بوجود قاضٍ فيها. وعلى عكس القاضي كان المحتسب مكلفاً بشؤون الطوائف وجباية

(1) بالتركية: *Bilâdi selâsa*.

(2) بلدية ج 1 ص 302-303؛ دوتون «صورة عامة» ج 4 ص 228.

(3) نشأ هذا التعدد عن كون الصدر الأعظم مسؤولاً عن الشؤون الحكومية كلها، سواءً تولاهم معاونوه أم لا، وكون آغا الإنكشارية مسؤولاً عن الأمن العام في إسطنبول باستثناء بعض الأحياء المحيطة بالقصر. بلدية ج 1 ص 885. وبالرغم من أن كلمة «محتسب» الموروثة عن الأيام الأولى للإسلام كانت مستعملة أيضاً في اللغة الرسمية للعثمانيين، فقد كان هناك لفظ آخر يميز هذا الموظف هو «احتساب آغاسي». انظر *M.T.M*. ج 2 ص 504-506.

(4) بلدية ج 1 ص 327.

الرّسوم المختلفة على البضائع والمعاملات التجارية⁽¹⁾. هناك رسوم مفروضة على كل أصحاب الدّكاكين من أجل دفع راتبه هو ورجاله؛ وبما أن إحدى مهام المفتش هي جباية تلك العوائد، فقد أصبحت وظيفته، ككل الوظائف التي تتضمن جباية العوائد، تمنح على أساس سنوي⁽²⁾. وفي إسطنبول كان للمفتش قوة تحت إمرته قوامها واحد وثلاثون رجلاً يعرفون باسم كول أوغلان⁽³⁾ *Kol Oglans*.

للمفتش سلطة في معاقبة أصحاب الدّكاكين المخالفين فوراً، مختلفاً بهذا من حيث المبدأ عن وظيفة القاضي الذي يفترض به إصدار العقوبات بعد سماع الشّهود في المحكمة⁽⁴⁾. ولكن يبدو أنه عندما يقوم القاضي بجولاته كان يتخلّى عن الشّكليات كما يفعل الموظفون الآخرون - إذ تبدو الإجراءات التي يأخذها الصّدر الأعظم وآغا الإنكشاريّة مشابهة لإجراءات المفتش.

إن عقاب أفراد الطّائفة المخالفين أمر معقد جداً بسبب التحاق أعداد كبيرة منهم بفيلق الإنكشاريّة، إذ تقضي القوانين القديمة ألا يُعاقب الجندي الإنكشاري إلا من قبل الضابط المسؤول عنه؛ وطُبّق هذا القانون على الحرفيين مع أنهم لم يكونوا جنوداً إلا بالاسم. وإذا أحضر أحدهم إلى محكمة القاضي مُتّهماً بجنحة ما، يجد القاضي نفسه مضطراً لإحالة إلى ضباط الإنكشاريّة. لقد أدّى هذا الالتحاق بالجيش إلى إضعاف سلطة الكاخية ورؤساء الطّوائف إلى حدّ ما، إذ كانوا مخوّلين في السّابق، ودون رجوعهم إلى سلطة أعلى، بإيقاف الأفراد المسيئين عن ممارسة حرفتهم⁽⁵⁾. كان الضباط الآخرون يتعاملون

(1) هذه بدعة عثمانية. ففي الخلافة كان المحتسب مسؤولاً عن الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. انظر الماوردي «الأحكام السلطانية».

(2) بلدية ج 1 ص 327-329.

(3) كان خمسة عشر من هؤلاء يدعون گديكلي «*Gedikli*» لأنهم يستلمون وظائفهم بفضل گديك *gedik* الوراثي. وعندما يتوفى گديكلي *Gedikli* دون أبناء كان المكان يشغل بأقدم الرّجال الستة عشر المدعوين «ملازم». وقد وصل عدد الكول أوغلان خلال القرن الثامن عشر إلى ستة وخمسين.

(4) بلدية ج 1 ص 309.

(5) وكان الرّجل الموقوف عن العمل يدعى «يولسز *Yolsuz*» - أي بلا طريق. وللمخالفات

مع أصغر المخالفات بالضرب، وكان المجرم يُضرب بالعصا أمام باب دكانه، أما الجنحة الخطيرة، وخصوصاً عندما ترتكب أكثر من مرّة، فكانت عقوبتها السّجن مع الأشغال الشّاقة أو بدونها، لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر أو لأجل غير مسمى. يفترض أن يكون جنود الإنكشاريّة وأفراد الطّائفة العاديون على قدم المساواة في هذا الأمر بالرّغم من حجزهم في سجون مختلفة⁽¹⁾. وإذا عُثر على أن الحرفيين يبيعون البضائع بشكل سيئ أو يصنعونها بشكل رديء، كانت تلك البضائع تُحجز ثم يتم إتلافها⁽²⁾.

كانت معظم الأعمال المهنّيّة واليدويّة تُنفّذ من قبل المسلمين والذّمّيين على حدّ سواء، لكن هناك بعض المهن التي كانت مقتصرة على المسلمين كالعطارة ودهان المنازل، بالإضافة إلى تسعة أعشار تجارة المواد الغذائية⁽³⁾. أما في الأعمال المهنّيّة الأخرى فكان المسلمون والذّمّيون يتمون إلى الطّوائف دون تمييز بينهم، وبالرّغم من أن السلطان محمّد الفاتح كان قد قام بتشكيل فئات مختلفة من الذّمّيين تحكم نفسها بنفسها في الأمور الدّينيّة، فإن الطّوائف الموجودة في القسطنطينيّة قد انضمت إلى تلك التابعة للفتاحين. يبدو أنّ هناك شبيهاً قوياً، كما في الكثير من المؤسسات البيزنطيّة والإسلاميّة، بين أنظمة طوائف المجتمعين. يكمن أحد أوجه التّشابه في الصّفة الدّينيّة للمجتمعين كليهما⁽⁴⁾ ولا بدّ إذن من اكتشاف الطّريقة التي تم بها التّغلب على عوائق اتحادهما معاً. قد تكون الطّبيعة المتسامحة لطائفة الأخيّة هي التي سهّلت الأمور، وعلى كل حال لقد أصبحا متّحدين. منذ حوالي منتصف القرن السابع عشر

الأكبر، كالسرقة، قد يطرد الآثم من حرفته - انظر قدسي ص 32.

(1) بلدية 1 ص 637-640. كان جنود الإنكشاريّة يسجنون في روملي حصار للمخالفات البسيطة، وفي *Kilidülbahir* في الدردنيل للمخالفات الخطيرة والاعتداءات. أما الحرفيون العاديون فكانوا يسجنون في سجن آغا قابي سي.

(2) انظر بلدية ج 1 ص 639، القصة تعود إلى عام 1131 (1718-1719) عن قاضي إسطنبول الذي رمى في البحر بعض الأواني النحاسية المعروضة للبيع بالرّغم من عدم صلاحيتها. وكان يتم التّخلص من بعضها أحياناً خارج دكان المذنب - قدسي ص 32.

(3) المصدر السابق ص 645.

(4) ثورنيتش ص 79.

حدث جفاء في العلاقات بين الفريقين، وبالرغم من أن ذلك لم يعمّ الطوائف كلها، فقد بدأت الطبقتان تلتقيان في أماكن منفصلة، ثم حصل الذميون على حق انتخاب يكييت باشى خاص بهم. وحتى وقت متأخر بقي منصب الكاخية في أيدي المسلمين، لكنه في النهاية مُنح في مناسبات عدّة لغير المسلمين⁽⁵⁾. وأثناء القرن الثامن عشر تقدّم ذميّو بعض الطوائف بطلب إلى الديوان يلتمسون السّماح لهم بإقامة احتفالات دورية مستقلة، واشتكووا من رفاقهم المسلمين الذين كانوا يستخدمون لقبهم الإنكشاري لإرهاب ضحاياهم وجعلهم يدفعون التكاليف كاملة⁽⁶⁾.

إن الانقسام الرّئيسي للطوائف بعد الانقسام الدّيني إنما هو بين التّجار والحرفيين⁽⁷⁾، وبهذا فقدت كلمة گديك *gedik* صلتها بتأسيس الحرفة، وأصبحت تستعمل في طوائف التّجار فقط الذين كان التدريب بالنسبة لهم يلعب دوراً أقلّ أهمية، خصوصاً وأن فرص التّجارة الماهرة قد قيّدت كثيراً بهيمنة الحكومة. مع ذلك كانت هناك طوائف لأشخاص لا يتمون لأيّ من الفئتين، وهم من جهة «العمال المثقفون» كموظفي السّكرتارية والأطباء والمدّاح والطلاب الذين كانت لكل منهم طائفة ورئيس وضباط ومراسم... إلخ، ومن جهة أخرى هناك الفلاحون - على الأقل أولئك المتواجدون في المقاطعات المحيطة بإسطنبول⁽⁸⁾. وفي الواقع حتى ممارسة الأعمال الإجرامية وسيئة السمعة كانت منظمة بالطريقة ذاتها؛ وكانت هناك طوائف للشحاذين والبغايا والنّشالين واللصوص وغيرهم من المجرمين. بالطبع لم يكن لطوائف المجرمين كاخية معترف به من قبل السّلطات، مع أنهم كانوا يدفعون الضرائب لرجال الشرطة

(5) بلدية ج 1 ص 570، 574، 577.

(6) المصدر السابق ص 584 وما يليها. مع الاستشهاد بوثائق القرن الثامن عشر.

(7) كان عدد كبير من الحرفيين يبيعون منتجاتهم بأنفسهم؛ ولم يكن أصحاب الدّكاكين الذين ينتجون بضائعهم بأنفسهم مشمولين بلفظة «تاجر *tâcir*» وإنما كانت خاصّة بفئة من السّماسرة الكبار وبالأخصّ تجار الجلود والزّيت في المغرب. بلدية ج 1 ص 668.

(8) بلدية ج 1 ص 500.

كما كان بعضهم يفخر باعترافه بالولي⁽¹⁾.

يتوقع المرء من المجرمين العداء ضد السيطرة الحكومية، لكن الأمر في الحقيقة تقليدي إلى حد ما في الطوائف كلها، إذ لم تكن الحركات الثورية هي التي أوجدت الطوائف في الإسلام فحسب⁽²⁾ بل كان لتنظيم الأخية الذي تنتمي إليه الطوائف العثمانية نصيب كبير من الفوضى التي تلت الاجتياح المغولي لآسيا الصغرى في القرن الثالث عشر. لقد كان من أحد أهدافها آنذاك تنظيم معارضة ضد كل عملاء الحكومة⁽³⁾؛ وفي المناطق المجاورة لأنقرة وسيواس كانت بعض جماعات الأخية قد أنشأت إدارة خاصة بها⁽⁴⁾. ولهذا السبب دون شك سعت السلطات العثمانية إلى إحكام سيطرتها على كل نشاطات الطوائف، مع ذلك فقد احتفظ بعضها ببقايا من استقلالها السابق الذي يمنحها بعض المزايا. لقد تمكن الدبّاغون والسّراجون من انتزاع أمر من السلطان محمد الفاتح بمنع رجال الشرطة من دخول أسواقهم، واستمر الأمر على حاله في عهد خلفائه. تمتعت أحياء أخرى في إسطنبول، هي السوق

(1) المصدر السابق ص 501. انظر «*Revue du Monde Musulman*» ج 9 ص 148. كانت طوائف المجرمين موجودة قبل العهد العثماني - انظر ثورننغ ص 211 وفون كريم «*Kultur-geschichte*» ج 2 ص 187. إن العديد من الاحتفالات المخصصة لأولياء الدراويش في مصر، وبالأخص احتفالات سيدي البدوي في طنطا، كانت (لغاية منتصف القرن التاسع عشر) تستغل كمناسبات لعروض طوائف البهلوانات والبغايا وغيرهم على الملأ. (انظر دُنون «أسفار» ج 3 ص 93-94؛ كوفيدو «مصر المعاصرة» (1870)، ص 236-237؛ الجبّرتي ج 1 ص 230-231؛ ج 3 ص 39-40، ج 2 ص 178؛ ج 4 ص 84-85). كانت البغايا يدفعن إيجاراً سنوياً للمسؤول عن الضريح في طنطا، لكن علي بك أبطل هذه العادة (مؤقتاً فقط). انظر الجبّرتي ج 1 ص 306، ج 3 ص 7-8. وعندما ألغى باشا مصر عام 1730 دكاكين الخمر وبيوت البغايا في القاهرة، وجد أنه من الضروري تعويض مفتش الشرطة ورجاله عن هذه الخسارة (المصدر السابق ج 1 ص 144، ج 2 ص 1).

(2) كحركة القرامطة Carmathians. انظر الموسوعة الإسلامية مادة «صنف».

(3) انظر ابن بطوطة ج 2 ص 261.

(4) بلدية ج 1 ص 550.

المصري والبزستان⁽¹⁾ *Bezistân* وشارع حائكي الكتان، بمزية مشابهة. ولقد احتفظ الدبّاغون في إسطنبول وأدرنه بعادة مميزة من عادات مجتمع الفتوة، وهي أنه إذا وقع قاتل أو لص في قبضتهم فبدلاً من إرساله إلى السلطات، كانوا يأخذونه ويدربونه حتى يحتلّ مكاناً بينهم كحرفي شريف.

إن قوة الطوائف الخاصة في حفاظها على مثل هذه الحقوق تعتمد بالطبع على حجمها؛ فقد كانت طوائف الدبّاغين والسراجين ذات أفراد أكثر، بينما كانت الطوائف الأخرى صغيرة مقارنة معها. هناك طوائف أخرى تعمل في حرف وتجارات متشابهة، فاكسبت أهمية من خلال انتظامها في جماعات. وبهذا عمل الإسكافيون في إسطنبول، المسلمون منهم والذميّون، في صنع أنواع مختلفة من الأحذية والخفاف بالمشاركة مع بائعي تلك السلع، وكانوا مرتبطين معاً، فكان كاخية صانعي الأحذية في السوق الكبير هو رئيس الطوائف الفرعية بالإضافة إلى طائفته ويملك حق الدخول إلى دكاكينهم ليتفحص البضائع المعدة للبيع. وكثيراً ما كانت هذه الطوائف المجتمعة تتخذ ولياً عاماً لها، بينما لكل واحدة وليّ فرعي خاص بها يكون غالباً من صحابة النبي. ويمكن معرفة مدى اعتماد الطوائف الأصغر على دعم الحكومة من خلال حالة بائعي التبغ. لقد عُرف تدخين التبغ في الإمبراطورية في وقت مبكر في القرن السابع عشر، وكان ممنوعاً من قبل الحكومة لفترة طويلة. كان العالم الإسلامي آنذاك قد أحجم عن قبول المُستجدّات بعد أن أغلق باب الاجتهاد، ولم يكن هناك تخمين بإمكانية وجود التبغ. عارض حكماء الأمة، لكن العامة رحّبوا بالمتعة الجديدة بحماسة كبرى، وأجبر الديوان على إلغاء المنع وبدأت التجارة تتطوّر. ومع أن لبائعي التبغ تنظيمهم الخاص، فلم يتمكنوا من إيقاف التجار الآخرين عن بيع بضاعتهم في الخفاء، ولم يتمكنوا كذلك من الحصول على تعيين كاخية لهم والاعتراف بهم رسمياً كطائفة إلا في عام 1725.

(1) أو *Bezâzistân* أو *Bedisten* وتعني حرفياً صالة القماش، أي مستودع البضائع الثمينة كالمجوهرات الأشياء النفيسة. وكان كل واحد مسؤولاً عن اثنين من الكاخية تعيّنهما الحكومة - دوسون ج 4 ص 209.

لم تكن الهيمنة الحكومية الشديدة على شؤون الطوائف موجهة بالكامل لقمع نزعتهم للعصيان، بل كان لها هدف آخر هو حماية العاملين أنفسهم. وكانت توافق على إنشاء گديكات *gediks* جديدة لافتتاح دكاكين وورشات، فقط عندما يكون الطلب على البضائع التي بصدد البيع أو الإنتاج يبرّر هذا الإجراء، وبالتالي تقي من البطالة في مكان ما عن طريق منع استيراد السلع المنافسة من أماكن أخرى. كانت أيضاً تحمي مصالح العاملين بتنظيم الإيجارات المدفوعة لمنشآت الگديكات *gediks* وهي إما أملاك وقفية أو خاصة. علاوة على ذلك، بالرغم من أن الحكومة تتعامل مع طوائفها في الحالات الاعتيادية عن طريق الكاخية وتعيينها للمحتسب ورجاله لمراقبة عملياتهم التجارية، فقد كان رؤساء الطوائف يملكون الحرية الكاملة للّجوء إلى القاضي في المحكمة لإصلاح الأخطاء التي يرتكبها هذان الموظفان.

في الأيام التي ينضمّ فيها المتدربون إلى الطائفة في مجتمع الأخية، كانوا يُسلمون إلى اثنين من «آباء الطريق» واثنين من «إخوة الطريق» للإشراف على تدريبهم وسلوكهم. إن العلاقة بين الرئيس والمتدرب تشبه كثيراً العلاقة التي تربط الدرويش بالمريد، وكان هناك شعور قوي بالوحدة بين أفراد الطائفة الواحدة، الذي لم يعد رابطة دينية بل أصبح نوعاً من الولاء، ممّا شجع على عملية العلمنة. لا بدّ أن التحاق عدد كبير من الحرفيين بالجيش الإنكشاري قد قسّم ولاءهم نوعاً ما، لكن وحدتهم تعزّزت بفضل تجاور دكاكينهم، علاوة على أن التقييدات الشديدة المفروضة من قبل الحكومة على العمليات جعلت التنافس بينهم شبه مستحيل وقلّلت رغبتهم في الرّبح إلى أدنى حد، ولعلنا نستطيع تصوّر موقفهم من خلال العادة التي ظلت سائدة حتى انهيار الطوائف. كان أصحاب الدكاكين الذين باعوا شيئاً من بضاعتهم يحولون الرّبون التالي إلى واحد من رفاقهم لم يقم بالبيع بعد وهكذا. وبشكل عام كان مستوى الأمانة بين أفراد الطائفة عالياً بشكل ملحوظ، ويتميّز هنا المسلمون عن الدّميّين برأي المراقبين الأوروبيين.

كان التنظيم الصّناعي في الأقاليم العربية، حسبما تشير به معلوماتنا الضئيلة، أكثر

حرية من التنظيم في إسطنبول⁽¹⁾ إذ أن قاعدتها قبل مجيء العثمانيين لم تتأثر إلا قليلاً بالأعراف التركية الغربية المشتقة من الأخية، وكان الحكام هنا وفي المناطق الأخرى راضين بترك العادات القديمة دون تغيير، وبقيت الحرف تدار من قبل الشيخ أو الكبير (الذي كان منصبه انتخابياً اسماً لكنه في الحقيقة كان وراثياً داخل عائلة محدّدة)، يساعده شاويش⁽²⁾ *şawîş*. وبشكل عام كان التنظيم برمته وراثياً، لدرجة أن بعض الحرف اقتصرت على بضع عائلات وأحياناً على عائلة واحدة⁽³⁾. كانت مهمات الشيخ تتلخص بترؤس اجتماعات أفراد الحرفة، والمحافظة على وحدة الطائفة، ومعاينة المذنبين، وإيجاد العمل للحرفيين وتعيين رؤساء لهم، ومناقشة كل شؤون الطائفة مع السلطات. إن أهم هذه الشؤون هي الضرائب السنوية المفروضة على أفراد الطائفة بحسب مواردهم⁽⁴⁾.

لغاية القرن الثامن عشر بقيت الروابط الدينية للحرف سليمة لم يمسها سوء، وكانت تظهر علناً في الاحتفالات الدينية العامة عندما كانت كل طائفة تسير في الموكب

(1) لقد ذكرت الطوائف في معظم الأعمال التي تناولت مصر وغيرها، لكن دون كثير من التفاصيل. انظر على سبيل المثال لاين، الفصل 4؛ كلوت بك ج 1 ص 336؛ باورينغ ص 117؛ شابرول ص 321-323 (و168)؛ جومار ص 698-699. أما المصدر الوحيد المحتوي على التفاصيل فهو بحث الياس قدسي «نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية» المنشور من قبل كارلو لاندبرغ (باللغة العربية) في «أعمال المؤتمر السادس للمستشرقين»، الجزء الثاني (لايدن 1885). وحول الطوائف الحرفية في القاهرة انظر أيضاً *M. Clerget* «القاهرة» ج 2 ص 130-137.

(2) كان الشيخ يُنتخب بالاتفاق، لا بالنسبة الأعلى من الأصوات. وإذا فشل الرؤساء في الاتفاق يقوم شيخ المشايخ بتعيين أحد المرشحين، ويتبع الانتخاب مراسم التثبيت التي يؤدي الشيخ القسم فيها (قدسي ص 13-14). وكان الشاويش يُنتخب أيضاً من قبل الحرفيين ويعمل كمعاون وساع للشيخ، لكنه لا يملك أية سلطة (المصدر السابق ص 15). وعلى الأرجح فإن المنادي *munâdi* في القاهرة هو الموظف نفسه (الجبرتي ج 4 ص 99، ج 8 ص 221).

(3) على سبيل المثال تقتصر مهنة تذهيب الجدران في دمشق على عائلة واحدة (ومن هنا أتى اسم الذهبي)، وفقدت في حوالي بداية القرن التاسع عشر (المعلوف ص 24).

(4) كانت الضريبة المفروضة على حياكة الكتان في الفيوم مثلاً مقدرة بـ 20,000 پارة سنوياً (جبرار ص 598)؛ انظر جومار ص 698.

تحت رايتها⁽¹⁾، لكنها كانت أشد تقارباً في اللقاءات والمناسبات الخاصة. وبالرغم من أصولهم المختلفة، يبدو أن أماكن تجمع الحرفيين في الأراضي العربية (كالأزهر) قد أصبحت على المذهب السني، أو الصوفي كما يوحي اللفظ. وكما في تركيا كانت المراسم الرئيسية هي شدّ (*şedd*) المتدرب لدى قبوله للانضمام إلى الطائفة⁽²⁾. وبالرغم من اختلاف التفاصيل، فإن المراسم التي ذكرها القدسي هي النمط السائد في دمشق. في اجتماع الحرفيين كان المرشح للقبول يُكسى من قبل التقيب (وهو ممثل رئيس الشيوخ للطوائف كلها) بشال أو حزام مربوط فيه ثلاث عقد ترمز إلى قسم الأخوة بالأخذ والعطاء. يقوم شيخ الحرفة والشاويش ورئيس المرشح بحلّ العقد وفق صيغة معينة، ثم يُعيّن أحد الرؤساء كأب له في الحرفة، ويقسم الفرد الجديد قسم الولاء لحرفته ويقدم هدايا رمزية للمُشرّفين. تنتهي المراسم بأناشيد وأدعية دينية وبحفلة متواضعة يقيمها للأفراد جميعهم⁽³⁾. يمكن قبول عدّة مرشحين في آن معاً، ويحقّ لأي فرد الاعتراض على قبول مرشح ما بعرض نموذج من عمل رديء قام بصنعه. هناك مراسم «شدّ» أخرى تُعقد عندما يرقى الحرفي إلى مرتبة رئيس، لكنها كانت مختصرة إذ يعطي المرشح وعداً بالمحافظة على تقاليد الحرفة⁽⁴⁾.

وهنا أيضاً كان الأفراد والطوائف من غير المسلمين⁽⁵⁾ يُمنحون مركزاً أدنى

-
- (1) انظر الوصف في كتاب لاين «المصريون العصريون» الفصل 25.
 - (2) بالرغم من أن جيران يقول (ص 603) إنه لم يكن هناك تدريب بالمعنى الحرفي للكلمة، فإن السيطرة المطبقة على المتعلمين كانت شديدة للغاية. انظر قدسي ص 16.
 - (3) انظر وصف لاين لمراسم القبول في بعض الطوائف الحرفية في القاهرة (الفصل 27)، وعرض الجبرتي لشهادة القبول في طائفة صنع الأقواس (ج 2 ص 214-216، ج 5 ص 136-139) التي توضح الصبغة الأخلاقية للطقوس المتبعة. يقدر قدسي نفقات المرشح إجمالاً بأربعين إلى مئة فرنك.

- (4) قدسي ص 28.
- (5) كما في الطوائف المسيحية لأعمال البناء والتّقش في دمشق، والجزارين اليهود في حلب. كانت طائفة البتّانين في حلب مؤلفة من مسلمين ومسيحيين. وكان الإسكافيون منقسمين إلى عدة فئات حرفية؛ فهناك أنواع معينة من الأحذية يصنعها المسلمون فقط، بينما يصنع المسيحيون أنواعاً أخرى، وهناك بعض الأنواع التي يصنعها الفريقان معاً واليهود، وهم جميعاً ينتمون إلى

كنتيجة لهذه الصّلات الدّينية⁽¹⁾، لكنهم لم يكونوا يُستبعدون من المشاركة في مراسم وتنظيمات الحرفة، وكان الأفراد غير المسلمين المتمون إلى طائفة مختلطة يعيّنون كأباء حرفة للأفراد المسلمين. ومن جهة أخرى كانت تقاليدهم الدّينية محترمة، وكان القَسَم الإسلامي على سبيل المثال يستبدل بالصّلاة الرّبّانيّة لدى قبول المرشح المسيحي⁽²⁾.

إن عدد⁽³⁾ وتنظيم الطّوائف الحرفية قد منحها نفوذاً كبيراً في الحياة السّياسية؛ ولما كان لشيوخ الطّوائف حق الدّخول على البابا في زمن محمّد علي⁽⁴⁾ فمن الممكن افتراض أنهم كانوا يملكون الحق نفسه في القرن الثامن عشر ويمارسونه من حين لآخر.

لقد تعرّز نفوذ الطّوائف في إدارة وتصرفات الحكام (بالإضافة إلى طبيعة التّمرّد السّائعة لدى أفرادها) في العهد العثماني باندماج الإنكشاريّة والأوجاقات المحليّة في الطّوائف الحرفية. وبشكل مشابه للتطوّر الذي لاحظناه في إسطنبول، تغلّغت أوجاقات القاهرة ودمشق وحلب وبغداد والمدن الأصغر تدريجياً في الحرف المحليّة، وفي حالات عدة تمكنت من السيطرة على الطّوائف أو احتكارها. في بداية

طائفة واحدة. ومن بين الطّوائف المشتركة الأخرى طائفة الخطاطين والجواهرية والنحاسين والتّجارين (انظر الغزّي ج 1 ص 101 وما يليها؛ المعلوف «صناعات دمشق» في «مجلة غرفة التجارة في دمشق» (باللغة العربيّة)، 1922). هناك طائفة مشتركة غربية يظهر وجودها التّسامح الاجتماعي في المدن الإسلاميّة، ألا وهي طائفة «المهرّجين والطّفيّلين» في دمشق، وفيها شيخ مسلم وآخر مسيحي، ومراسم قبول هزلية (قدسي ص 30).

(1) من المحتمل أن يكون أحد الأهداف من وراء إنشاء هذه الصّلات بالدّرجة الأولى (في العصور الوسطى) هو التّحول السّلمي لطبقة الحرفيين إلى اعتناق الإسلام.

(2) قدسي ص 29.

(3) لا يمكن الوصول إلى عدد دقيق؛ يذكر الجبّرتي عادة 70 أو 72 طائفة في القاهرة لكنه في أحد المقاطع (الذي يعود إلى عام 1814) يلمح إلى وجود حوالي 106 طائفة (ج 4 ص 198-200، ج 9 ص 67-72). يقدر باورينغ (في عام 1838) عددها في القاهرة بـ 164 (ص 117) لكن يبدو أنه مبالغ فيه بل إن عدة طوائف كانت تجارية أو غير حرفية.

(4) باورينغ ص 117.

القرن الثامن عشر من الممكن أن نجزم أن الطوائف في القاهرة كانت مكونة بشكل رئيسي من الجنود وأبناء الجنود⁽¹⁾، وبالرغم من إعفاء هؤلاء الحرفيين (المدعّوين بالاسم التركي يولداس *yoldas* المعرب إلى إلضاش⁽²⁾ *ildâş*) من الخدمة العسكرية، فقد بقيت أسماؤهم مدوّنة في سجلات الأوجاق، وظلّوا يتمتّعون بحصّة من الأموال الموزعة على الفرق العسكرية، كما احتفظوا بحقهم في المطالبة بحماية أفواجهم⁽³⁾. وفي بغداد يقال إن السّكان مؤلفون بشكل كامل تقريباً من الإنكشاريّة العاملين في التجارة والصّناعة⁽⁴⁾. ينطبق الحال نفسه على سوريا⁽⁵⁾، ويلاحظ بشكل خاص في طرابلس⁽⁶⁾.

مقارنة بنماذج المنتجات الصناعيّة في القرون الوسطى، تبدو تلك التي في مصر وغرب آسيا في نهاية القرن الثامن عشر بدائية وريّثة، ولهذا التّراجع أسباب عدة. إن التدهور الاقتصادي العام في الشّرق الأدنى الذي سبّبه الحروب والكوارث الطّبيعية في القرنين الرّابع عشر والخامس عشر، قد زاد من حدّته تحوّل معظم التّجارة الهنديّة

(1) الجبّرتي ج 1 ص 37، ج 1 ص 88؛ يقول فولني 1 ص 143: «اليوم لا تعدو فرقنا الإنكشاريّة والعزبان والفرق الخمس الأخرى كونها جماعات من الحرفيين، وهم مشرّدون أو غاد يقومون بحراسة الأبواب ويقبضون أجورهم» (وهي مبالغة واضحة بما أن الفرق الخمس الأخرى تضم المماليك أنفسهم). وبشكل مشابه الإنكشاريّة في القاهرة، فولني ج 1 ص 7.

(2) الجبّرتي ج 2 ص 131، 135؛ ج 3 ص 92.

(3) انظر محاولة القبطان باشا حسن لتعديل هذا الوضع: الجبّرتي ج 2 ص 135، ج 4 ص 260. لقد كان نظاماً سائداً في الفرق العثمانية لدى دخولها مدينة ما أن يرافق كل جندي فرد من أفراد طائفته يقوم بحمايته مقابل نصف حصته، مما يثير سخط الحرفيين والتّجار المحليين (الجبّرتي ج 2 ص 116؛ ج 3 ص 89، ج 4 ص 209؛ ج 6 ص 169).

(4) روسو «بغداد» ص 9.

(5) «ليس هؤلاء الجنود المزعمون سوى حرفيين وقرويين جاهلين كغيرهم، لكنهم أسهل انقياداً. وعندما يسيء أحد الهاشوات استخدام سلطته يكونون أول من يرفع راية التّمرد» (فولني ج 2 ص 43). ولكن من الصّعب التصديق أن فرق الإنكشاريّة قد عملت في الزّراعة بالإضافة إلى الصّناعة.

(6) فولني ج 2 ص 68.

إلى الطريق البحري الأفريقي في القرن السادس للصناعة من السهل انتقال حرف بأكملها عشر. جعلت الطبيعة الوراثية وبالأخص الحرف الدقيقة والأكثر تخصصاً، واحتفظت العائلات القليلة بأسرار الحرفة بتعصب زائد⁽¹⁾. بصرف النظر عن هذا التدخل الإداري، فلم يكن من النادر اندثار حرفة مقتصرة على عائلة واحدة، وقد تدمر الحرفة الأوسع والأكثر تخصصاً بسبب كارثة طبيعية⁽²⁾. وهناك عامل خفي آخر هو التنافس المتنامي للبضائع الأوروبية - وخاصة الأقمشة النسيجية - مع المنتجات المحليّة بسبب الثراء والتفوذ الذي أظهرته العائلات الأوروبية⁽³⁾. يعتقد أن الأسباب الرئيسية سياسية وإدارية - أي غياب التشجيع الإيجابي للصناعة، باستثناء من قبل بعض الحكام القلائل، والحالة الاقتصادية الواهنة في الشرق الأدنى ككل تحت الحكم العثماني، والمحافظة لدى الطوائف والحرفيين⁽⁴⁾ وما يضاف إليها من ابتزاز واختلاس المال من قبل الحكام والضباط الأتراك والمماليك. من جهة أخرى إن اندماج كل الأراضي العربية في البنية الإمبراطورية الواحدة، بالإضافة إلى الأراضي الواقعة على السواحل الشمالية للبحر المتوسط، قد فتح آفاقاً جديدة للعلاقات الاقتصادية التي حفزت الصناعة؛ ولم يكن من المفاجئ أن نجد (في حال توفر المعطيات الموثوقة) أن ما فقد من حيث التنوع قد تم تعويضه بزيادة ملحوظة في كم تلك الصناعات. وإن حركات الصناعة لم تكن متجهة في منحى واحد؛ ففي سوريا على الأقل نشأت

(1) على سبيل المثال قام تيمور بنقل عدد كبير من الحرفيين من دمشق إلى عاصمته سمرقند؛ وإن في تحويل العاصمة من القاهرة إلى إسطنبول نقلاً للصناعة، حتى ولو لم نؤمن بصحة القصة التي تقول إن السلطان سليم قام بعد الاستيلاء على القاهرة بنقل عدد كبير من الحرفيين إلى إسطنبول.

(2) كالزلازل الشديدة الذي حدث عام 1759 في سوريا، والذي يفترض أنه قد دمر ورشات صناعة القاشاني في دمشق (المعلوف ص 16-17) والذي هدم مدينة بعلبك (فولني ج 2 ص 183).

(3) انظر جيران ص 590.

(4) لقد علّق كل المراقبين على الطبيعة التوتينية للصناعة، وكان العمال يملكون مهارات تقنية لكنها غير إبداعية تطورت إلى «نوع من الغريزة» (دُنون «أسفار» ج 1 ص 277)، وكانوا على جهل تام بمبادئ فنهم (ثورنتون «تركية» ج 1 ص 101)؛ انظر فولني ج 1 ص 174، ج 2 ص 285؛ باورينغ ص 57.

حرف أو أجزاء من حرف جديدة خلال العهد العثماني إما من المراكز الأخرى أو تلبية للحاجات المستجدة⁽¹⁾.

بشكل عام، ارتكزت الصناعات في الأراضي العثمانية على أساس اقتصادي راسخ، وكانت كل منطقة تستخدم بشكل رئيسي المواد الخام المنتجة فيها، وتستورد عند الضرورة ما تحتاجه من المناطق المجاورة عن طريق المبادلة بمنتجاتها. كانت المدن الإقليمية منهمكة بشكل أساسي في إنتاج البضائع المحلية للاستهلاك داخل مقاطعاتها الخاصة، أما في المدن الرئيسية وبعض المراكز القليلة الأخرى فقد كانت الصناعات مجهزة للتصدير على نطاق واسع. وفي معظم الحالات يجب علينا أن نقنع بالطوائف ذات العدد القليل من الحرفيين الذين يقومون بالتجارة بصناعاتهم المنزلية، بالرغم من أن العديد منهم قد أسس منشآت كبيرة نسبياً يعمل فيها عدد من العاملين والمتدربين⁽²⁾. وإن ذكر «مصانع» الحياكة في دمياط ورشيد⁽³⁾ يدل على تركيز وجود الأنوال في مكان واحد منظم وفق خطط رأسمالية⁽⁴⁾.

إن الصناعة الرئيسية في معظم المراكز هي صناعة الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية، وكانت النساء يقمن بالغزل كجزء من الأعمال المنزلية. كانت المنتجات القطنية تحاك في كل المراكز المهمة في العراق وسوريا ومصر، كما كانت الصناعة الرئيسية في صيدا وغزة⁽⁵⁾ وهناك صناعات قطنية واسعة في المحلة الكبرى وبني سويف ومصر العليا. وعندما كانت المواد المحلية تنقص كان التجار المصريون يستوردونها من سوريا⁽⁶⁾. كانت حياكة الكتان

(1) على سبيل المثال، جلبُ الباشوات العثمانيين لحرف خياطة جديدة إلى دمشق، المعلوم ص 33 (قد تكون إحداها الصناعة المهمة - التي يمكن الحكم من اسمها التركي «ألاجا - alâ-ca» - للملابس القطنية والحريرية المخططة)؛ وكمثال على الصناعة الجديدة نذكر صناعة قطع الثرجيلة التي توضع في الفم في حلب.

(2) انظر الرادي 1 ص 167 (سيد محمود الفلافسي Seyyid Maḥmūd al-Falâkasnî).

(3) جبرار ص 601-602.

(4) كان الأجر اليومي للحائك يتراوح بين ثماني پارات وما فوق، جبرار ص 595، 597، 605.

(5) قولني ج 2 ص 99، 208؛ ويقدر عدد الأنوال في غزة بحوالي خمسمئة.

(6) جبرار ص 594-597، 601؛ ويقدر عدد حائكي القطن بحوالي ألفين في المحلة الكبرى

صناعة أساسية في مصر منذ زمن بعيد، وبالأخص في منطقة الدلتا حيث كان في كل بلدة المئات من الأنوال، وكان لمنتجاتهم، بالإضافة إلى أقمشة التغليف الكتانية الخشنة في الفتيوم، رواج واسع في سوريا وتركيا⁽¹⁾. تشتهر الفتيوم والدلتا بحياكة الصوف، وتختص الأولى بالشالات البيضاء (وكان التصدير الأسبوعي لها إلى القاهرة يبلغ أحياناً ألفي شال)، بينما تختص الثانية بالأثواب الصوفية⁽²⁾؛ وهي تصنع أيضاً في سوريا والعراق⁽³⁾. لم تكن حياكة الحرير موجودة في سوريا فقط، بل كان الحرير الخام يصدر أيضاً إلى مصر ويحاك بأشكال متنوعة في القاهرة وبلدات الدلتا، ثم يصدر جزء من الإنتاج ثانية إلى سوريا⁽⁴⁾. نشأ عن نسج الحرير عدد من التجارات الإضافية كالصبغة (والصبغ الوردي مشهور في القاهرة) والتطريز وصنع الشرابات⁽⁵⁾، وصنع خيوط الذهب والفضة (في القاهرة وحلب). وقد فسحت صناعات القطن والصوف المجال لعمل كثير من الطوائف المختصة بالتدف. وبالإضافة إلى الأقمشة شملت صناعات النسيج صنع البسط، وهي على العموم صناعة محلية لكنها تركزت في بضعة أماكن تصنع فيها بسط عالية الجودة⁽⁶⁾.

وخمسمة إلى ستمئة في بني سويف. ومن المهم ملاحظة أن صناعة القطن في مصر كانت مزدهرة قبل عهد محمد علي بزمان طويل. يذكر ثورنتون («تركية» ج 1 ص 67) أن منسوجات الحرير والكتان والقطن في القاهرة هي من بين أجود الصناعات في الأراضي العثمانية. من أجل نوعية المنسوجات القطنية في دمشق انظر فولني ج 2 ص 155.

(1) جيرار ص 597-600. كانت النساء يشتري الكتان من الأسواق ثم يبعن الخيوط المغزولة بسعر أربع پارات للثلة.

(2) جيرار ص 598-600. كانت الضريبة في الفتيوم پارتين على كل نول أسبوعياً.

(3) أخذت المعلومات عن حلب بشكل رئيسي عن الغزي ج 1 ص 101 وما يليها؛ وتلك المتعلقة بالعراق من روسو «وصف پاشوية بغداد *Description du Pachalik de Bagdad*».

(4) جيرار ص 601-602؛ أوليفيه ج 2 ص 9؛ بلومناو Blumenau ص 306. وفقاً لمصادر يهودية، كان معظم حياك الحرير في القاهرة من اليهود.

(5) تصنع في حلب بواسطة النساء تبعاً لرواية الغزي، أما في القاهرة فهناك طائفة لصانعي حبال الحرير والشرابات (عقادين *akkâdin*: الجبرتي ج 1 ص 350، ج 3 ص 89).

(6) على سبيل المثال في الفتيوم ومنوف في الدلتا، وكان في الأخيرة حوالي ستمئة أو سبعمة عامل. وكان القصب يجلب بواسطة عرب الجواييص *Gawâbit* من وادي النطرون وتصدر الحصر إلى القاهرة وسوريا وتركيا - جيرار ص 604-605.

تضمّن صنع الزيت والمنتجات الزيتية صناعات عدة، ففي مصر كان الزيت يُنتج في معظم البلدات من أجل الاستهلاك المحلي وذلك من بذور الخسّ والزّعفران واللفت والكتّان والسّمسم، وكان زيت الخسّ يصدّر من مصر العليا إلى جزيرة العرب. كانت هذه الصناعة متميّزة لأنها تتطلب استخدام أغلى الآلات ثمناً في مصر، وقد يبلغ ثمن معصرة الزيت أربعمئة دولار⁽¹⁾. وفي سوريا ساعدت الزراعة الواسعة لأشجار الزيتون على توفير المواد الخام لقيام صناعة الصّابون وخصوصاً في فلسطين وحلب⁽²⁾ حيث توجد أيضاً صناعة الشموع ولكن على نطاق أضيق. من بين الصناعات الأصغر يمكن ذكر تقطير ماء الورد في الفيوم⁽³⁾، وصناعة السكر المكرّر ودبس السكر في مصر العليا⁽⁴⁾؛ وصناعة أملاح النّشادر بشكل رئيسي من مقلب التّفايات في القاهرة والدلتا⁽⁵⁾؛ وإنتاج الملح بالتبخير

(1) جيرار ص 605-607. بشكل عام كان استخدام الآلات ممنوعاً ليس فقط بسبب كلفة التركيب والتشغيل، بل لأن كلفة عمل الإنسان والدّواب كانت أقل وذلك بسبب رخص المعيشة والزّواتب الضئيلة.

(2) كان البدو يجلبون الصّودا ويحصلون عليها بإحراق نباتات الصّحراء القلوية (فولني ج 2 ص 196؛ رسل ص 18). وكانت القلويات تصدر أيضاً من الإسكندرية إلى سوريا لهذا الغرض (سافاري Savary ج 1 ص 44) لكن كان في الإسكندرية نفسها عدد من مصانع الصّابون التي تستخدم الزيت المستورد من كريت (أوليفيه ج 2 ص 9).

(3) جيرار ص 609.

(4) في فرشوط Faršūt وأخميم Aḥmīm؛ وهي حالة مهمّة إذ كانت مشروعاً مشتركاً بين مجموعة المماليك والمصنعين، بحيث يقدم الأولون الأرض والأبنية والمواد ويقدم الآخرون العمال الذين يتلقون أجراً يومياً هو ست پارات، جيرار ص 610-611. وكان متوسط بيع السكر المكرر هو عشرة دولارات للقطار البالغ 150 رطلاً؛ وفقاً لرواية جومار (ص 716) كان أفضل نوع من السكر المكرر «الذي يشبه سكر هامبورغ» يباع بستين پارة للرطل. من أجل تزايد الطلب على السكر المصري في التسعينيات انظر أوليفيه ج 2 ص 172.

(5) جيرار ص 611-613. كان في معمل المنصورة ثلاثون عاملاً يتقاضى كل واحد منهم دولارين ونصف الدّولار شهرياً بالإضافة إلى الطّعام. وكان ملح النّشادر أحد الصّادرات الرئيسيّة في مصر، وقد زوّد في زمن من الأزمنة أوروبا بأكملها؛ لكن بلومناو (ص 308) يعلّق أنه كان بسبب عدم نقائه يحتاج إلى تكرير ثانٍ في مرسيليا.

والمُح الصخري⁽¹⁾؛ وصهر الحديد في لبنان⁽²⁾. وهناك صناعة مهمة في مصر هي المداجن التي يحتكرها الحكام الإقليميون بشكل واسع حيث يؤجرون المحاضن لمشرفين، ويبلغ إيجار محاضن الأقصر على سبيل المثال ثلاثين دولاراً شهرياً⁽³⁾.

كانت الفنون والحرف الثانوية والأكثر تخصصاً مقتصرة على المدن الرئيسية، فتجد في القاهرة حرف الأشغال الخشبية والمعدنية، حيث لا بد من استيراد كل المواد الخام كما هو الحال في المدن السورية، لكن كان الطلب قليلاً على الأثاث الفني الفخم وباتت هذه الصناعات في طريقها إلى الزوال في كل مكان⁽⁴⁾. احتكر المسيحيون والأرمن السوريون مهنة صياغة المجوهرات في كل البلاد، بينما شغل اليهود في مصر مهنة خاصة كسماسرة للمعادن الثمينة⁽⁵⁾. أما صناعة الزجاج فكانت تقليدية في مدينة الخليل وانتقلت منها إلى دمشق في بداية العهد العثماني⁽⁶⁾. كانت كل صناعة متركزة في حي من أحياء المدينة، أو في سوق منفصل بما يتوافق مع التنظيم الحرفي التقليدي⁽⁷⁾.

كان صيد الأسماك منتشرًا في كل مكان، لكن المسامك المنظمة لم توجد إلا في بحيرتي البرلس والمنزلة في الدلتا. كانت حقوق الصيد في الأولى مضمّنة لأحد

(1) جيران ص 616-617.

(2) المعلوف ص 13-14. ويتفرع عنه صناعة الأسلحة النارية. يصف فولني الوسائل البدائية المستخدمة في صهر الحديد ويقارنها بصناعة الصب الكتالونية في منطقة البيرينيه. (ج 2 ص 287).

(3) جيران ص 613-615. كان البيض يشتري بثمانية إلى عشر پارات للمنة، بالإضافة إلى ربع پارة عن كل بيضة تفقس لتخرج صوصاً؛ وكان العمال يتقاضون أجورهم دجاجاً.

(4) لم يذكر جيران حرفة متطورة سوى النحاسية (ص 617-619) وفي حلب كان النحاسون من المسيحيين في معظمهم؛ أما في دمشق فكانوا من اليهود.

(5) صموئيل برنارد «Monnoies» ص 399؛ انظر قانون ناميه من ديجون ص 276 والجبرتني ج 4 ص 205، ج 9 ص 82.

(6) فولني ج 2 ص 196؛ المعلوف ص 34.

(7) رسل ص 6. لقد أهمل عدد كبير من الصناعات مثل صناعة العباءات وأغطية الرأس والأحذية؛ البناء والتجارة؛ وصناعة الحبال.

البكوات بمبلغ 3,300 دولار سنوياً ويعمل فيها حوالي أربعمئة صياد، وهناك صيادون إضافيون يعملون في منتصف فصل الربيع لاصطياد وإعداد البطارخ⁽¹⁾. أمّا صيد السمك في بحيرة المنزلة فكان يقوم به جماعة من الصيادين يتمركزون في بلدة المطرية ويدفعون ضريبة المركب للباشا. كان السمك الذي لا يباع طازجاً يرسل إلى دمياط لتجفيفه ثم تصديره إلى القاهرة ومناطق أخرى من الشرق، وبالأخص لاستعماله من قبل المسيحيين الشرقيين⁽²⁾. أخيراً، لقد لعب العدد الكبير من القوارب المخصصة للتقل في نهر النيل دوراً مهماً لا يمكن الاستغناء عنه، ومصدر رزق لتلك الأعداد الكبيرة من القرويين الذين لم يكونوا يعملون بالزراعة سوى في الشتاء، وحيث تبتلع الضرائب المرتفعة أرباحهم من المحاصيل⁽³⁾. وهناك قسم من سكان المدن الساحلية يعملون كبجارة في المراكب الساحلية⁽⁴⁾.

3. التجارة

إن لمهنة التجارة تركباً معقداً متعدّد الأشكال⁽⁵⁾ مقارنة بمهنتي الزراعة والصناعة. كانت التجارة الداخلية لكل منطقة تدار بشكل رئيسي من خلال أسواق أسبوعية في كل البلدات والمراكز الزراعية⁽⁶⁾ حيث يتم تبادل الفائض من الإنتاج ببضائع من

(1) ويحضر من بيض سمك البوري الرمادي الذي يبيض في هذه المياه.

(2) جيرار ص 615-616؛ سافاري (ترجمة إنكليزية ج 1 ص 318، 334). كانت طوائف بيع السمك المملح (الفسخ) والبطارخ ذات مرتبة دنيا بين طوائف القاهرة (الجبرتي ج 2 ص 152). مع ذلك كان فيها أفراد أثرياء، ويحكى أن أحدهم قد تعرض لسرقة أربعة آلاف دولار منه أثناء أعمال الشغب في عام 1815 (الجبرتي ج 4 ص 227، ج 9 ص 134).

(3) جيرار ص 621.

(4) أوليفيه ج 2 ص 8.

(5) يمكن إيجاد رواية كاملة عن التجارة المصرية في الدراسة التي أجراها جيرار في كتابه «Description» ج 2 ص 621-687. ولا يوجد بحث كهذا يخص سوريا أو العراق. ومن أجل التجارة الأوروبية انظر بحث ماسون «تاريخ التجارة الفرنسية في المشرق في القرن السابع عشر» (باريس 1896)؛ «وفي القرن الثامن عشر» (باريس 1911).

(6) تدعمها المعارض السنوية أو نصف السنوية، وأشهرها معرضان لسيدى أحمد البدوي في

العاصمة. كانت بعض الأسواق الأسبوعية المشابهة تعقد لتصريف المستوردات الإقليمية⁽¹⁾، بينما كانت الأسواق الرئيسية تُدعم بواسطة الإنتاج المنتظم للصناعات المحلية. كانت تجارة الجملة والعمليات الكبيرة للتصدير والاستيراد تتم في الخانات الفسيحة (وتدعى في مصر بالوكالات، ويدعوها الفرنجة *okels*) التي كانت المدن الرئيسية تعجّ بها⁽²⁾.

على الرغم من ازدهار التجارة الداخلية والإقليمية، فقد أعيقت بسبب عوامل عدة. لقد جعل الفقر العام للسكان وتدهور مستوى المعيشة من أي أمل في التوسع أمراً بعيد المنال، كما أسهم في قبوله المعدّل الكمي للمبادلات التجارية. وإن ضعف طرق الاتصال والنقل⁽³⁾ مع فقدان الدائم للأمان لدى المسافرين ضدّ قطاع الطرق والصوص⁽⁴⁾، لم ينتج عنه خسارة كبيرة في الأرواح فحسب بل تباطؤ عام في وتيرة التجارة. كان التجّار يفضلون الانتظار إلى أن تنتهي قافلة كبيرة للانطلاق فيسافرون معها

-
- طنطا في يوم تساوي الليل والنهار في الربيع وانقلاب الشمس في الصيف. ويتم تبادل المنتجات بين البدو والسكان في الأسواق المحلية، جيران ص 622-623؛ بوكوك ج 2 ص 144.
- (1) جيران ص 626. ولم يتضح الحد الذي وصل إليه التجّار كوسطاء بين المنتج والحرفي أو المنتجون الكبار الذين يسوّقون منتجاتهم بشكل مباشر.
- (2) يؤكد جومار (في وصف القاهرة ص 727) أن عدد الوكالات في القاهرة، بما فيها المؤسسات الصغيرة، قد بلغ 1,200 إلى 1,300. ويقدر لابين (الفصل 14) العدد بمئتين في القاهرة. من أجل الخانات في صيدا انظر أوليفيه ج 2 ص 226.
- (3) لم يكن هناك في مصر والعراق طرقات لتحدث عنها، وكان النّقل يتم عبر الماء، ويتضمّن ذلك المبادلات عبر السفن. ومن جهة أخرى تؤمن هذه الطريقة شحن كميات كبيرة بينما كان النّقل بالجمال الوسيلة الوحيدة المتاحة، ولم تكن العربات معروفة (انظر فولني ج 2 ص 271).
- (4) من أجل القرصنة التي تقوم بها «بعض القرى» الواقعة على النيل، انظر جيران ص 628؛ سافاري (ترجمة إنكليزية ج 1 ص 74)؛ ومن أجل قطع الطريق على دجلة والفرات انظر روسو ص 52. وحول فقد الأمان على الطرقات في فلسطين: فولني ج 2 ص 199؛ المرادي ج 4 ص 228؛ وبين حلب والساحل: فولني ج 2 ص 56؛ أوليفيه ج 2 ص 296-297؛ 301-302؛ وفي العراق: روسو ص 90، 94. انظر أيضاً ماسون ج 2 ص 284-286. وكان الحرس مقيمين على الطرقات الرئيسية، لكن نشاطهم كان محصوراً بأخذ مبالغ من المال من المسافرين؛ انظر أوليفيه ج 2 ص 294.

من أجل الحصول على الأمان الذي يتوافر مع وجود عدد كبير من المسافرين⁽¹⁾. وإن إهمال الحكام لتنظيف القنوات والموانئ، وتشكّل مناطق ضحلة خطيرة عند مصبات نهر النيل⁽²⁾، قد ألحق الضرر بالتجارة أكثر من ضرائب الوكالات⁽³⁾ ورسوم السوق. وعندما تقع مهام التصدير والاستيراد في أيدي عملاء عديمي الضمير وفي أوقات اضطراب سياسي، فإنها تصبح بلاءً ساحقاً⁽⁴⁾، كما لا يمكن تخمين مدى الإعاقة التي لاقتها نشاطات التجّار المسلمين بسبب فقدان التسهيلات المصرفية المنظّمة. بالرغم من أن القانون الإسلامي، كما هو معروف، يحرم الرّبّا بكل أشكاله ويعارض بالتالي أخذ الفائدة على القروض، فإن هذا التحريم لم يكن ملاحظاً بشكل عام. هناك عدة وسائل يمكن من خلالها التملّص من القانون⁽⁵⁾، ومن لم يكن ضميره يسمح له بفعل ذلك يلجأ إلى اليهود والأقباط. يذكر جيرار، في معرض حديثه عن زراعة الأرز، أن أخذ ربح يزيد عن 10 بالمئة يُعدّ عملاً ربوياً، وفي المناطق الأخرى كانت الصّلات التجارية بين مصر ودول البربر تسمح للتجار بالتعامل إما نقداً أو بالدّين لعام واحد وتتراوح عندها الفائدة بين 7 و12 بالمئة⁽⁶⁾. من المحتمل أن المبدأ نفسه كان منطبقاً على الصّلات التجارية في سوريا وتركيا. وهناك دلائل كافية في المصادر العربية تؤكّد أن استثمار الأموال بالفائدة كان أمراً شائعاً بين المسلمين⁽⁷⁾. لكن حتى قوانين

(1) ومن هنا تأتي أهمية عمل الحكام الإقليميين في المصادر العربية بشأن توفير الأمن في الطّرق والمحافظة على النظام؛ مثال علي بك، انظر حيدر ج 1 ص 76، 77؛ ومحمّد باشا العظم - انظر المرادي ج 4 ص 101.

(2) سافاري ج 1 ص 35، 53-55، 310؛ موانئ اللاذقية وبيروت - فولني ج 2 ص 69، 78؛ أوليفيه ج 2 ص 276.

(3) إستيف ص 361.

(4) انظر الفصل السابع من الكتاب.

(5) شابرول ص 261 وما يليها.

(6) جيرار 577، 647.

(7) على سبيل المثال الجبّرتي ج 1 ص 191، ج 2 ص 121؛ والثروة البالغة ألفي كيس من النقود (أي خمسين مليون پارة) التي خلفها محمّد جوريجي «المرايبي» (المتوفى عام 1138/1725، المصدر السابق ج 1 ص 137، ج 1 ص 315-316).

الاستدانة لم تعوّض التاجر المسلم عن المزايا التي يجنيها منافسه الأوروبي من نظامه المصرفي الأكثر مرونة، وبسبب المزايا الخاصة التي (كما سنرى لاحقاً) تمتّع بها الآخرون ومن يعملون معهم، بدأوا يحلّون محلّ التّجار المسلمين إلى حدّ كبير في القرن الثامن عشر.

من جهة أخرى، فإن احترام الشّعائر والأعراف الإسلامية التي كانت الحكومة العثمانية حريصة دائماً على إظهارها، قد عمل على تحفيز العمليات التجارية وتوسّعها وتميزها في المجتمع الإسلامي. ولما كانت أصغر الأسواق السنوية التي تُعقد بإشراف ولي مشهور معفاة من الرّسوم⁽¹⁾، فلم يجرؤ سوى قلة من الحكام العثمانيين على وضع العراقيل في طريق الحجّ إلى الديار المكرّمة. إن العلاقة بين الحجّ إلى مكة والتجارة البسيطة وطيدة في الإسلام، إذ كان الحجاج يتبادلون البضائع على طول الطريق إلى الحجاز بدءاً بمنتجات بلادهم فيبيعون معظمها أثناء الرحلة، وبالمبالغ التي حصلوا عليها يشترون من مكة التوابل واللؤلؤ والقهوة العربية وأقمشة الموسلين والشّالات والفلفل المستورد من الهند ليقوموا ببيعها في طريق العودة إلى ديارهم⁽²⁾. استفادت كل من مصر وسوريا كثيراً من هذه التجارة، ولم تكن بضائع الحجاج تدخل مصر دون رسوم فقط بل دون تفتيش أيضاً من قبل السّلاطات الجُمركيّة⁽³⁾ سواء جاءت بالقوافل البرية أو بحراً كما في حالة معظم حجاج دول البربر⁽⁴⁾. تظهر أهمية تجارة البربر إلى مصر من خلال العمل الذي قام به سلطان المغرب، إذ وجّه رسالة عام

(1) جيرار ص 627.

(2) انظر فولني ج 2 ص 154. لكن قانون ناميه السلطان سليمان يعترض بشدة على تلك الإساءات، ويأمر بأخذ رسوم الجمرك على كل البضائع والعبيد المستوردين من قبل الحجاج مهما بلغت رتبتهن. - ديجون ص 227.

(3) جيرار ص 642؛ إستيف ص 348.

(4) عبر ليفورنو عادة (جيرار ص 643). ومن الملاحظ أن الرّسوم في العصور الوسطى كانت تجبى على بضائع الحجاج المارين عبر مصر حتى في ظل حاكم مستقيم كصلاح الدين، انظر ابن جبير ص 239-240 (مع إعادة الصياغة لدى كارا دي فو Carra de Vaux «مفكرو الإسلام» ج 2 ص 89-91).

1746 إلى علماء مصر يعاتبهم فيها على السماح بحدوث أمور مخالفة للتقوى، رافضاً انضمام القافلة المغربية لقافلة الحج في ذلك العام بعد مضايقات أمير الحج المصري للحجاج؛ وقد أدى ذلك إلى معاقبة الأمير المسيء بالقتل⁽¹⁾. لقد كانت الفائدة في سوريا، وبالأخص دمشق، أكبر إذ كانت القافلة الشامية هي الأولى من حيث الحجم والأهمية؛ وإن تجهيز هذا العدد الكبير من الحجاج بكميات المؤن التي يحتاجونها خلال ثلاثة أشهر ذهاباً وإياباً وتزويد الآلاف منهم بوسائل النقل وأدوات التخميم كان بالفعل سبباً أساسياً في ازدهار الاقتصاد في دمشق في العهد العثماني⁽²⁾. شاركت العراق أيضاً في هذه التجارة⁽³⁾، وإن كان بشكل محدود، لكنها عوّضت عن ذلك بمجيء عدد كبير من الحجاج الفرس الأحياء والأموات لزيارة أضرحة الشيعة في النجف وكربلاء والكاظمية، وعدد أقل لكنه دائم من الحجاج السنة، وخصوصاً من الهند، لزيارة ضريح أبي حنيفة وعبد القادر الجيلاني في بغداد.

لقد كان نظام المجتمعات التجارية في القرن الثامن عشر غامضاً نوعاً ما، وقد أظهرت المعلومات الضئيلة المتوفرة أنه لم يكن أبداً بصلابة نظام الحرفيين في مصر وسوريا. لكن من الصعب تحديد إن كان ذلك ينطبق على القرون الأولى أم أن النظام التجاري، وهو الجزء الأكثر حساسية في بنية المجتمع المسلم، كان يترقب العاصفة القادمة. لقد ذكرت عدة طوائف لتجار التجزئة في المصادر⁽⁴⁾، وكما أن تجار البضاعة نفسها كانوا يتجمعون على أنفسهم في الأسواق، فقد كان تنظيمهم مع شيخ معين⁽⁵⁾ أمراً متطابقاً مع نظام الطوائف. مع ذلك ليس لدينا معلومات إن كانت مراسم

(1) الجبّرتي ج 1 ص 174، ج 2 ص 77-79.

(2) انظر سوفاجيه في مجلة الدراسات الإسلامية 1934 ص 469-470.

(3) انظر روسو ص 119 (إعادة التصدير من جزيرة العرب).

(4) على سبيل المثال بائعو التبغ والصابون (الجبّرتي ج 3 ص 107-108، ج 4 ص 207)، وبائعو القماش (ج 2 ص 224، ج 5 ص 153) وتجار البنّ والتوابل وتجار الحبوب (ج 2 ص 151-152، ج 5 ص 5-7).

(5) الجبّرتي ج 4 ص 250، ج 9 ص 182. هناك إشارة أيضاً إلى طوائف تجار في أسواق معينة - ج 4 ص 199، ج 9 ص 69: تجار الغورية، تجار خان الخليلي، تجار الحمزاوي (ويظن أن

القبول في تلك الطوائف تماثل مراسم طوائف الحرفيين، وقد يكون نمط نظامهم مجرد تجمعات إدارية. كان رئيس المجتمع التجاري، وهو في العادة أكثر التجار ثراء، يدعى في مصر بالشهيندر⁽¹⁾ *Şâhbandar* ومهامه هي ممارسة السلطة على كل التجار والحرفيين وبائعي المفرق في نزاعاتهم وتنظيماتهم الداخلية⁽²⁾. وهناك منصب مشابه في دمشق ويقال إنه خلال ثورة في عام 1793 أمر الحاكم الشهيندر بإيقافها فقام بالفصل بين المتقاتلين⁽³⁾.

وبالرغم من أن التجار لم ينجوا من الابتزاز والعوانية *avanias*، فقد شكّلوا جزءاً غنياً محترماً من المجتمع الإسلامي⁽⁴⁾، وكانوا مع السكرتاريين وفئة من العلماء يؤلفون الطبقة المتوسطة القادرة على الضغط على الإدارة. ومعظم التجار الرئيسيين هم من الأعيان أو وجهاء المدينة ومن عائلات عديدة استطاعوا، حتى في القرن الثامن عشر، تحصيل ثروات ضخمة وتزوجوا من نساء عائلات البكوات والعسكر الأرستقراطيين والمشايخ⁽⁵⁾. إن مؤسس عائلة الشرايبي *Şarâ'ibî* في القاهرة هو محمد الدادا (المتوفى عام 1724) الذي ترك 1,480 كيساً من الذهب وأملاك واسعة منقولة وغير منقولة، من ضمنها أسطول مؤلف من ثلاثة مراكب في البحر الأحمر⁽⁶⁾.

الأخيرين من يونانيي الأصل).

(1) لا يظهر هذا اللقب في كتاب الجبرتي قبل تعيين سيد محمد المحروقي عام 1813 - ج 4 ص 176، ج 9 ص 90؛ لكننا نجد في قصص ألف ليلة وليلة (التي يعود نصها إلى القرن الثامن عشر)، انظر ترجمة لاين ج 2 ص 361 وقد أكد جومار (ص 724) على مهام هذا المنصب بقوله إن الأب، سيد أحمد المحروقي، كان رئيساً لمجلس التجارة.

(2) الجبرتي، المصدر السابق. وقد كان توسع سلطته على الحرفيين من ابتداء محمد علي.

(3) ميخائيل الدمشقي ص 7؛ ويدعى هنا «مقدم التجار» (أي التاجر الأول).

(4) هناك أسباب عديدة لهذا منها غياب النظام الإقطاعي الحقيقي والصّلات المتشكلة بين التجار والشيوخ والعلماء والتفوذ الذي حصلوه بفضل ثرائهم، وصلة التجارة بالحق، وهناك سبب مهم كون محمد نفسه يعمل بالتجارة، إذ أنها لطالما نظر إليها الإسلام كمهنة محترمة.

(5) مثل الجبرتي 2 ص 221، ج 5 ص 148.

(6) الجبرتي ج 1 ص 87، ج 1 ص 203؛ انظر أيضاً ج 1 ص 176، 204، ج 2 ص 218-219، ج 3 ص 141؛ ج 5 ص 142.

ولقد بنت عائلة السّفرجلاني في دمشق عدّة مساجد⁽¹⁾. كان لهؤلاء التّجار فروع ووكالات في المدن الأخرى⁽²⁾، وكانوا يضطرون أحياناً لاصطحاب خدام مسلحين نظراً للخطورة التي قد يلاقونها في الطّريق⁽³⁾. ولم يكن من غير الشّائع أن تشغل عائلات المشايخ بالتجارة وتحصيل أرباح جيّدة⁽⁴⁾، وفي بعض الحالات يفضّل أتباع المذاهب المتشدّدة كالمذهب الحنبلي التجارة الشّريفة على المناصب التي يُشكّ في شرعية عائدها في نظر الشّريعة⁽⁵⁾.

كانت مصر تستورد من سوريا كميات كبيرة من خيوط الحرير⁽⁶⁾ والمواد الخام الأخرى بحسب حاجة معامل المنسوجات فيها (كالقطن وأحجار القصارة والأصبغة) بالإضافة إلى النّيلة وبذور التّمسّم وتشكيلة واسعة من المنسوجات السّورية والصّابون وزيت الزّيتون والمشمش والتين المجفّفين والتبغ. تنقل تلك البضائع بشكل رئيسي بحراً من الموانئ السّورية إلى دميّاط إما على مراكب يونانية أو تركية أو على مراكب ساحلية أوروبية، وكانت القوافل الصّغيرة ترافق أحياناً بأعراب من سيناء قادمة من فلسطين⁽⁷⁾ وتعود بالمواد الغذائيّة كالأرز والفلّ والعدس والقمح بحسب الحاجة، وكذلك بعض الكتّان المنسوج وأقمشة الحرير والنّيلة وأملاح التّشادر والسكر والجلود والأصداق⁽⁸⁾، بالإضافة إلى كميات قليلة من المتوجّات السّودانية. كانت

(1) المُرادى ج 1 ص 15-16. ولقد خلّف عمر السّفرجلاني (المتوفى عام 1700) 65,000 قرش نقداً وبضائع وأبنية وعقارات (المصدر السابق ج 3 ص 187).

(2) مثل عائلة الجوخى في حلب - المُرادى ج 4 ص 131.

(3) انظر رواية روسو عن ابن رزق في البصرة (ص 45).

(4) المُرادى ج 1 ص 175، 250.

(5) المُرادى ج 1 ص 68.

(6) حوالي ثلاثة آلاف بالة تزن واحدتها 135 ليرة وبشكل رئيسي من طرابلس وبيروت. من أجل التّوعية الرّديئة للحرير في طرابلس انظر فولني ج 2 ص 67.

(7) جيرار ص 644-647؛ فولني ج 1 ص 177. وكانت هناك أيضاً حركة تهريب منتظمة عبر بحيرة المنزلة - جيرار ص 649.

(8) 100,000 إلى 200,000 مع 200,000 من جوز التّخيل *dôm-palm nuts* و 25 طناً من الحبوب المسماة *bezrebât* تستخدم كلها لصنع المسابح وغيرها للحجّاج المسيحيين. تبعاً

الأرباح الوسطية في كل رحلة تتراوح بين 10 و30 بالمئة⁽¹⁾. أما البضائع الرئيسية المستوردة من الأقاليم الأوروبية في تركيا ومن إزمير، فهي الأقمشة والفواكه المجففة والفراء والقطران والخشب والأسلحة مقابل الأرز والقمح والتمر والسكر والزعفران والجلود والمنسوجات وخيوط القطن والحرير والسنا والبن، والمنتجات الهندية والسودانية بما فيها العبيد⁽²⁾.

ليست لدينا أرقام تفصيلية عن التجارة المحلية بين سوريا وتركيا والعراق، والصادرات المحلية الأساسية هي نفسها من أقمشة وحرير وأحجار قصارة وتبغ ونيلة وفواكه مجففة. أما حلب فكانت مركزاً لتجارة الفستق الواسعة⁽³⁾، وسوقاً رئيسية للعبيد البيض القادمين من بلاد القوقاز⁽⁴⁾. كانت العراق تصدر القليل من منتجاتها المحلية ما عدا تمر البصرة، وتأتي حمولة قوافلها بأكملها تقريباً من الهند وفارس وجزيرة العرب (محملة باللؤلؤ والبن والتوابل)⁽⁵⁾.

لكن التجارة الداخلية لم تشكل سوى جزء صغير نسبياً من الصّلات التجارية في الإمبراطورية العثمانية. وبالرغم من مصر والأراضي العربية الأخرى قد عانت بشدة من تحول تجارة الهند الرئيسية إلى طريق رأس الرجاء الصالح، فإن موقعها الجغرافي لا يزال يمنحها مزايا طبيعية هائلة كمراكز للتجارة البحرية بين أوروبا وآسيا وأفريقيا. إن أهم نقاط التقاء الطرق التجارية هي القاهرة وحلب وتليهما بغداد. أما القاهرة فقد احتكرت تجارة القوافل مع السودان الشرقي (باستثناء البضائع التي تصدرها قوافل

لقولني (ج 2 ص 181-182) كانت تلك التجارة الرئيسية للمسلمين والمسيحيين في القدس. وكانت هناك كميات كبيرة تصدر من القدس إلى تركيا وبلاد البحر الأبيض المتوسط ويشتهر دير الأرض المقدسة Terra Santa بأنه يربح سنوياً 50,000 قرش من هذه التجارة.

(1) جيرار ص 647-649.

(2) شابرول، المصدر السابق؛ قولني ج 1 ص 177.

(3) قولني ج 2 ص 49-50، 155؛ أوليفيه 2 ص 308. ومن الواضح أن دمشق وجنوب سوريا كانت تتاجر بشكل رئيسي مع مصر، وحلب مع تركيا والعراق.

(4) الغزي ج 1 ص 148.

(5) روشو ص 10، 44.

الحجاج عبر دمشق والعراق) ومع الأقاليم العربية الواقعة على البحر الأحمر. وكانت حلب⁽¹⁾ بؤابة الطريق التجاري الذاهب إلى بغداد ممّا جعلها قناة رئيسية للصلّات التجارية مع فارس والخليج العربي، لكن تلك الصّلات لم تكن لها أهمية كبرى لولا أنها تنتهي خارجياً في أوروبا وفارس والهند. دخلت منتجات مصر وسوريا ضمن تلك المبادلات التجارية بنسب غير متساوية - وهي حقيقة ستؤدّي فيما بعد إلى عواقب خطيرة، وفي النهاية مدمرة لبنية التجارة الداخلية. وفي نهاية القرن الثامن عشر، كانت النسبة العظمى من المنتجات المحلية في مصر تجري مبادلتها مع البضائع الأوروبية كحديد الخردة الرّخيص والزّجاج، وبشكل أقل مع البضائع الهندية⁽²⁾. وإن الموقع المهيمن والمهم الذي احتلته في التجارة البحرية سيظهر بوضوح من خلال استعراض موجز لأهم المبادلات التجارية.

كانت القوافل السنوية القادمة من دارفور وسنار تحمل معها العاج والتمر الهندي والجلود، كجلد التمر، واللبن والقرقة وريش النعام وبودرة الذهب والتّطرون والعييد السود⁽³⁾، ثم ترجع بالقليل من الصّناعات المصرية ما عدا البضائع القطنية والأقمشة الأخرى. كانت أغلبية مشترياتهم من المنتجات الهندية أو الأوروبية كالححرير والموسلين والشّالات والأواني الزّجاجية والمرايا وأمواس الحلاقة والأدوات المعدنية⁽⁴⁾ والبنادق والبارود ومواد متنوعة لأدوات الزينة والتجميل. ومقابل

(1) من الجدير بالذكر أن كل الخانات الكبيرة التي لا تزال موجودة في حلب تعود إلى العهد العثماني. انظر سوفاجيه «حلب» (باريس 1941)، ص 186، ومن أجل الصّلات بين حلب والداخل انظر شارل رو *Les Échelles de Syrie* (باريس 1928)، الملحق 7. وتوجد روايات مفصّلة عن الطّرق في «الصحراء السورية» لكريستينا فلپس Christina Phelps (لندن 1937).
(2) جيرار ص 626، 628. انظر أيضاً قوائم الواردات والصادرات المصرية في شابرول ص 286-297 و300-303.

(3) لتفاصيل أوسع عن معدّل الواردات والصادرات لهذه القوافل انظر جيرار ص 629-640. كانت قوافل دارفور تجلب سنوياً حوالي خمسة أو ستة آلاف من العبيد (وأكثر من أربع أخماسهم من الإناث)، بينما تجلب قوافل سنار بضعة مئات منهم سنوياً.

(4) كانت قوافل دارفور مثلاً تأخذ 25 طناً من الزّجاج الفينيسي (البندقى) و4,000 رزمة من

الزيت والعسل والزبد والطرايش والخفاف المغربية والشالات والعباءات الصوفية المستوردة من دول البربر، كانت مصر تصدر كمّاً كبيراً من البضائع تشكل أغلبها المنسوجات الكتّانية والقطنية⁽¹⁾. أما الباقي، ما عدا أملاح الشادر وأوراق الورد المجففة، فكان مؤلفاً من البنّ والتوابل المجلوبة من الهند وجزيرة العرب. وكانت القوافل المغربية البرية تأخذ كميات متساوية تقريباً من الأقمشة السورية والمصرية⁽²⁾.

كانت التجارة البحرية بين موانئ البحر الأحمر في السويس والقُصير وموانئ جزيرة العرب في ينبع وجدة لا تزال قائمة على قدم وساق، وتقتصر تجارة الاستيراد في القُصير على البنّ القادم من اليمن عبر جدة، حيث يصل حوالي عشرة أو عشرين مركباً شهرياً⁽³⁾. أما تجارة السويس فتألف بالإضافة إلى البنّ واللبن والبخور ومنتجات جنوب الجزيرة الأخرى، من الموسلين والمنتجات الهندية الأخرى التي أحضرها الحجاج من جزيرة العرب في الشرق وبواسطة التجارة البسيطة للمراكب العربية والماليزية مع جدة⁽⁴⁾. كانت البضائع التي تصل إلى القُصير تنقل على جمال مستأجرة

الشفرات و1,000 رزمة من المبارد، بينما تأخذ قوافل سنار خمسة أطنان من الأواني الزجاجية و18,000 من المرايا.

(1) كانت هناك عشر إلى اثنتي عشرة حمولة تذهب سنوياً إلى تونس، وثلاث إلى أربع حمولات إلى الجزائر واثنتان إلى ثلاث إلى طرابلس، تحمل كل واحدة منها من 150 إلى 400 بالة من المنسوجات، كمية قليلة منها فقط صناعة سورية. تحتوي بالة المنسوجات الكتّانية والقطنية ثلاثمئة إلى أربعمئة قطعة قيمتها بين 60 و200 پارة للقطعة الواحدة (جيرار ص 642).

(2) جيرار ص 641-644. يقدر فولني عدد جمال قافلة البربر بـ 3,000 إلى 4,000 جمل.

(3) كانت هذه القوارب مراكب شراعية (تسمى الدّاو) يصنع معظمها في الهند وتتسع لحمولة 70 إلى 80 طناً، بينما تبلغ حمولة الأكبر حجماً 90 طناً. وفي نهاية القرن كان هناك حوض لبناء السفن في جدة حيث يأتي الإنكليز بالمواد من الهند. كان (الدّاو) الواحد يكلف 4,000 إلى 5,000 قرش (جيرار ص 655). كان الميناء في القُصير مرسى ضحلاً للسفن وكان الحمالون يفرغون حمولات المراكب في البحر.

(4) جيرار ص 650-657. كان قسم كبير من البضائع الهندية يأتي مع قوافل الحجيج بما أنها كانت معفّية من الرّسوم، أما في القُصير فكانوا يدفعون رسم استيراد بقيمة 10 بالمئة. وفي عام 1798 استمرّت قيمة الواردات الهندية القادمة عن طريق القوافل بالازدياد لتصل إلى 250,000 و300,000 دولار، وقبل خمسة وعشرين عاماً كانت القيمة أعلى.

إلى قنا ومنها بواسطة النهر إلى القاهرة، أما البضائع التي تصل إلى السويس فكانت تحملها إلى القاهرة أربع قبال بأجر يبلغ تسعين پارة للجمل الواحد⁽¹⁾. وبالمقابل كانت مصر تصدّر لجزيرة العرب أربعين أو خمسين ألف أردب من القمح والفل والعدس، بالإضافة إلى الزيت والسكر والزعفران والمنسوجات الكتانية عبر القصير، ومن السويس تصدّر كميات كبيرة من البضائع الأوروبية كالسلع الزجاجية والمرجانية الفينيسية، والقرمز والزعفران والحديد والرصاص والتحاس والورق وخيوط الذهب والفضة، بقيمة إجمالية تتجاوز ربع مليون دولار⁽²⁾.

من جهة أخرى، كانت البصرة وبغداد تستوردان منتجات متنوعة من الهند وفارس وجزيرة العرب، تنقل معظمها إلى حلب ودمشق لتستبدل بالبضائع الأوروبية أو تباع نقداً، باستثناء الإنتاج المحلي من التمر والتبغ⁽³⁾.

كانت للتجارة الأوروبية ميول مشابهة، فقد كانت السلع الأساسية المستوردة إلى مصر هي الأقمشة الثقيلة والساتان والورق والأواني الزجاجية والمعادن وحديد الخردة والأسلحة والتوابل والخشب⁽⁴⁾؛ وإلى سوريا الأصواف والأصبغة والسكر

(1) كان مبلغ ثلاثة وعشرين قرشاً يدفع عن كل جمل كرسوم حماية لعرب العبادلة الذين يمرّ طريق القصير بأراضيهم، كما كان هناك رسم إضافي يؤخذ في قنا بقيمة ثلاثة قروش ونصف لكل مئة رطل.

(2) جيرار ص 658-661.

(3) روسو ص 44-45، 119-120. كانت أهم الواردات: من الهند والأرخيل: التيلة والشالات والمنسوجات الحريرية والقطنية والتوابل والسكر؛ ومن فارس: الحرير والمنسوجات الصوفية وجلود الأغنام وقصب الترجيلة والشالات والزعفران والتبغ والكبريت والتترات والأقمشة والفواكه المجففة والسجاد والمعادن والعقاقير المختلفة؛ ومن جزيرة العرب: البنّ واللؤلؤ والبخور ونبات المرّ والعقاقير. أما البضائع الأوروبية المصدرة بالمقابل، فهي الأصواف والحرائر والشرايط والمجوهرات والمرجان والمنسوجات الذهبية والفضية والأدوات المعدنية وغيرها.

(4) للتفاصيل انظر جيرار ص 662-678. وكانت تجلب إلى مصر على مراكب قادمة من البندقية وتريسته Trieste وليفورنو ومرسليا، أما المنتجات غير الفرنسية والإيطالية فكانت تستخدم الخدمات الأكثر ملاءمة (على سبيل المثال المعادن والأدوات الحديدية من الإمبراطورية عبر

والبنّ الهندي والورق والمعادن وحديد الحُرْدَة و سلع الرّفاهية⁽¹⁾. وبالمقابل كانت مصر تصدّر جزءاً صغيراً من منتجاتها المحليّة (وبالأخصّ الزّعفران وأملّاح التّشادر والسّنا والتّطرون والجلود وبعض المنسوجات الكتّانية والقطنية)⁽²⁾، أمّا الباقي فيتألّف من إعادة تصدير بعض السّلع من جزيرة العرب (كالبنّ والبخور واللّبّان والأدوية) ومن السّودان (كالعاج واللّبّان والتّمّر الهندي وريش النّعام). ومن حلب كانت الصّادرات تتضمّن إعادة تصدير لمنتجات فارس وجزيرة العرب بالإضافة إلى أحجار القصارة والنّحاس، لكن جنوب سوريا لم يقدّم سوى المواد الخام وبالأخصّ القطن والحرير⁽³⁾.

يتّضح من هذا الاستعراض أن التّجارة الخارجيّة للبلاد العربيّة كانت ذات فائدة قليلة لهم، وبما أن السّلع المستوردة تتألّف من المنتجات المصنّعة وبضائع الرّفاهية للأثرياء بينما تتألّف السّلع المصدّرة من المواد الأولية الخام، فقد كان الأمر مضراً بصالح صناعاتهم واقتصادهم بشكل عام⁽⁴⁾. بالإضافة إلى هذا، فقد سبّب الضرر

البندقية، والأسلحة الإنكليزية والبضائع العامّة عبر ليفورنو والمعادن الإنكليزية والسّويدية والتوابل الهولندية عبر مرسيليا). في التّسعينيات كانت هناك حوالي أربعون رحلة تجاريّة سنويّاً من هذه الموانئ إلى الإسكندرية (6-7 من البندقية، 12-15 من ليفورنو، وحوالي 20 من مرسيليا، وكانت السفن بحمولة 200-400 طن.

(1) بالمراكب الفرنسيّة بشكل رئيسي (انظر شارل رو وتقرير غرفة التّجارة في مرسيليا الملحق في كتاب فولني ج 2 ص 340-360)، لكن البضائع الإنكليزية وغيرها كانت تصل إلى الإسكندرية من ليفورنو. وهناك عدد كبير من المراكب الفرنسيّة العاملة في الملاحة السّاحليّة في المشرق (المصدر السّابق؛ جيرار ص 675)، وبعض المراكب الإنكليزية (شارل رو ص 82).

(2) وكانت ليفورنو تأخذ كميات كبيرة من خيوط الكتّان والقطن. وكان تصدير القمح من قبل التّجار الأوروبيين خاضعاً لأنظمة متشدّدة إلى درجة المنع (انظر ديجون ص 221).

(3) تقرير غرفة التّجارة في مرسيليا (المصدر السّابق)؛ انظر فولني ج 2 ص 279؛ شارل رو ص 8-7.

(4) «إذا اعتبرنا أن قسماً كبيراً من البضائع الهنديّة والبنّ يذهب إلى الغرب؛ وأن الدّيون تدفع على البضائع الأوروبيّة والتركّيّة؛ وأن استهلاك البلاد يتألّف تقريباً من كل سلع الرّفاهيّة التي وصلت؛ وأخيراً أن المنتجات المقدّمة بالمقابل هي في معظمها مواد بدائيّة، نستطيع أن نحكم بأن كل هذه التّجارة كانت تنفّذ دون الكثير من المزايا التي تؤدّي إلى ثراء مصر وخير الأُمّة»:

إخلاقاً بالتوازن المالي، ولعله العامل الرئيسي في انخفاض قيمة العملة الفضية خلال القرن⁽¹⁾. من جهة أولى كانت العملة تسكّ بكميات لا تكفي لتلبية حاجات التجارة، وكانت كميات هائلة من النقد تصدر كل عام إلى المشرق من فرنسا وإيطاليا⁽²⁾. ومن جهة ثانية سببت التجارة الهندية والعربية نفاداً مدمراً للذهب والفضة من مصر وسوريا والعراق، إذ لم يكن سوى جزء قليل من المبادلات التجارية يتم بالمقايضة، وما لا يمكن مقايضته بالسلع الأوروبية يحصل نقداً⁽³⁾. وما زاد الطين بلة هو أن الهنود والعرب على حدّ سواء لم يكونوا مستعدين لقبول نقود فضية سوى الطالر *thaler* الإمبراطوري (أو الهنغاري) المعروف باسم «أبو طاقة» أو پاتاك⁽⁴⁾ *pataque*.

قد يمكن التعويض إلى حدّ ما عن المساوئ الاقتصادية التي جلبتها التجارة الأوروبية والشرقية على مصر وسوريا، مادياً لأن تجار مصر وتجار سوريا المسلمين لهم نصيب كبير منها، ومعنوياً لأن التعامل مع التجار الأوروبيين قد وسّع آفاق ولو جزء صغير من المجتمع الإسلامي، وأبعد عنه بعضاً من الجهل الذي كان عالمهم متسماً به بشكل واضح آنذاك. لكن الحاليتين كليهما لم تتحققا، ومن هنا نرى أن هذا العجز المضاعف هو السبب الرئيسي للاضطراب العنيف الذي ألتّم بالمجتمع الإسلامي في القرن التالي.

فولني ج 1 ص 178؛ من أجل سوريا انظر ج 2 ص 281. وقد عبّر عن الشعور ذاته السفير الفرنسي في القسطنطينية، شوازل غوفيه Choiseul-Goffier، في رسالة إلى مونمورن Montmorin (في 25 يناير 1788): «إذا كان الأتراك الحلفاء الأكثر إزعاجاً... فيمكن اعتبارهم إحدى المستعمرات المربحة لفرنسا» (نقلاً عن ماسون ج 2 ص 279).

(1) انظر الفصل السابع من الكتاب.

(2) يبدو أنه من المستحيل الحصول على حساب دقيق للكمية المعنية. وحتى أرقام التقارير الفرنسية الرسمية الرسمية تتباين بشكل واسع، انظر ماسون ج 2 ص 506-508. ولعل أفضل معدل هو الرقم المقدم في تقرير غرفة التجارة في مرسيليا (فولني ج 2 ص 347-349)، وهو مليون فرنك سنوياً لسوريا ومصر وحدهما. لكن العملة الهنغارية والإسبانية كانت تستورد بشكل رئيسي من الموانئ الإيطالية، وبهذا يمكن أن يكون المجموع العام أكبر بثلاث أو أربع مرات من هذه الكمية. انظر أيضاً جيرار ص 662 وما يليها؛ شابرول ص 285.

(3) شابرول ص 287؛ دُنون «أسفار» ج 2 ص 227؛ روسو ص 45؛ أوليفيه ج 2 ص 452.

(4) ماسون ج 2 ص 507.

كانت التجارة الأوروبية بأكملها بأيدي المسيحيين (الأوروبيين والمشرقيين) واليهود. وقد تعاملت شركة الشرق الفرنسية حصراً مع دور العمل الفرنسية ورعاياها في مصر وسوريا. أما حمولات تجارة البندقية فكانت توجه (في نهاية القرن) إلى أربع شركات فينيسية وأربع أخرى يهودية في الإسكندرية والقاهرة. ولم تكن التجارة التوسكانية من نصيب التجار الإيطاليين القلائل (عدا عن النمساويين) في مصر وسوريا، بل أيضاً التجار اليهود في ليفورنو Leghorn الذين عملوا كوسطاء للمصدرين الأوروبيين من كل الجنسيات بالتنسيق مع التجار المسيحيين في دمشق وحلب⁽¹⁾. وإن الجزء الأكبر من تجارة دول البربر كان يتم عبر ليفورنو أو بالملاحة الساحلية بواسطة المراكب الفرنسية. وكانت التجارة السودانية والعربية (بغض النظر عن قوافل الحج) بأيدي التجار العرب من تلك البلاد⁽²⁾. أما التجارة بين حلب وبغداد فكانت تدار بشكل رئيسي من قبل الأرمن⁽³⁾، بينما يدير التجارة بين إيران والعراق تجار فرس يسكنون بغداد⁽⁴⁾؛ وقد احتكر العرب والإنكليز تجارة الخليج العربي⁽⁵⁾. لم تكن التجارة الداخلية والإقليمية حتى بأيدي التجار المسلمين، وبالرغم من أن القسم الأعظم من الحمولة ينقل في مراكب ساحلية أوروبية يملكها تجار أترك⁽⁶⁾، فقد كان جزء - يصعب تقديره في بداية القرن، لكنه كان يزداد باستمرار - بأيدي المسيحيين السوريين واليونان واليهود والأرمن⁽⁷⁾. وطالما أنهم ينضوون جميعاً تحت

(1) انظر ماسون وجيرار وود وشارل رو ص 48-49، 284.

(2) جيرار ص 651-652.

(3) أوليفيه ج 2 ص 306؛ شارل رو ص 202.

(4) روسو ص 10: «من أكثر الأشخاص المثقفين والباحثين والمخلصين والموهوبين بكل الصفات الأساسية للتجارة الأجانب».

(5) روسو ص 37.

(6) فولني ج 2 ص 258؛ أوليفيه ج 2 ص 6. في عام 1798 قدر جيرار (ص 675) عدد المراكب الفرنسية العاملة في الملاحة الساحلية في بلاد المشرق بحوالي 100 مركب.

(7) ومن جهة أخرى فمن الخطأ إظهارهم كمحتكرين للتجارة الداخلية كما يفعل فولني (ج 2 ص 277)، انظر أوليفيه ج 2 ص 307.

راية الإمبراطورية العثمانية مع منافسيهم المسلمين لم يكن هناك الكثير من الضرر، ولكن قبل انتهاء القرن بدأت هذه الاختلافات العقيدية تثبت بأنها ذات أهمية خطيرة.

لا يمكن البحث عن السبب الرئيسي لتلك التطورات في المخططات الخفية للتجار الأجانب أو الحكومات، بل نبحث عنه في خصوصية المجتمع الإسلامي. كان للشرقيين غير المسلمين، كما سنرى لاحقاً، مناصب اجتماعية ووضع اجتماعي يتناسب معها، أما الفرنجة فكانوا منبوذين تماماً. وبالرغم من تمتّعهم بمزايا عديدة فقد كانوا عرضة لكثير من التقييدات القانونية⁽¹⁾، ولعلها كانت أخفّ في التعامل مع المسلمين في التحفظ الذي يبديه الأخيرون تجاه لباقتهم الظاهرية. لم يكن الأمر ذاته في المدن جميعها؛ فقد تميّزت حلب على سبيل المثال بتسامح سكانها⁽²⁾، بينما اتصفت دمشق بعدم التسامح⁽³⁾، واتخذت القاهرة موقفاً وسطاً بين الاثنين. نتج عن هذه الحالة الأمران الخطيران اللذان سبق ذكرهما، وبما أن الفرنجة كانوا بحاجة إلى عملاء محلّيين و مترجمين ومزوّدين، فلم يجدوا سوى أن يستغلوا تلك الفئات المستعدة للعمل معهم، وكانوا في مصر من اليهود بشكل رئيسي لغاية منتصف القرن⁽⁴⁾؛ وفي سوريا مسيحيين من المناطق الساحلية وخصوصاً الملكيين Melkites، وأرمن حلب. وبالرغم من جهود التجار الأوروبيين، وبالأخصّ في الشركات الفرنسية، لحصر دور هؤلاء كوكلاء، فقد لجأ الكثير منهم، بعد أن وطّدوا أقدامهم في التجارة الأوروبية، على تطويرها لحسابهم الخاص⁽⁵⁾، وساعدهم في ذلك اندماجهم في جنسيات من

(1) يستمّيها فولني ج 1 ص 196 «العراقيل المعتادة»، وبالرغم من أن هذه العبارة تشير إلى وضع التجار بعد عام 1777 فقد كانت الأمور أفضل قليلاً في فترة سابقة؛ انظر ماسون وشارل رو ص 33.

(2) انظر فولني ج 2 ص 51: «يعدّ السكان المسلمون والمسيحيون الأكثر تحضراً في تركية كلها»؛ ماسون ج 2 ص 286؛ أوليفيه ج 2 ص 313. وهذا الأخير يفرّد سكان بغداد بأنهم أكثر تهدياً وثقافة ونشاطاً وتسامحاً من سكان المدن الأخرى، ج 2 ص 388.

(3) فولني ج 2 ص 151.

(4) كان القبط يعملون في استثمار عائدات الأراضي ولم يعملوا سوى قليلاً بالتجارة.

(5) انظر ماسون ج 2 ص 167-168 حول السياسة المتناقضة للسلطات الفرنسية نحو «المحميين

قبلهم تحت حمايتهم، وذلك بسبب الأعراف السائدة بموجب الاتفاقيات والتي تخوّل السفراء في القسطنطينية منح براءات أو وثائق حماية صادرة عن الباب العالي لعدد من الأشخاص يختارونهم للالتحاق بخدمتهم.

في النصف الثاني من القرن، زادت كثافة واتساع النشاطات التجارية في التجاريتين الخارجية والداخلية للمسيحيين السوريين والأرمن بشكل خاص. ولقد أسهم عاملان اثنان في هذا التطور الأول هو سوء استعمال السفراء لمزية منح البراءات، يكتب فولني عام 1785: «منذ ما يقرب من عشرين عاماً أدركوا أن بيع البراءات يعود عليهم بربح وفير، وأصبح الثمن الحالي من خمسة إلى ستة آلاف ليرة»⁽¹⁾. وبما أنه كان تحت تصرف كل سفير خمسون براءة تجدد عند إعادة تعيينه، فمن غير المفاجئ أن تجد عدد الرعايا المتمثلين بالجنسيات الفرنسية والنمساوية والسويدية والبريطانية وغيرها قد تزايد بسرعة كبيرة. يمكن فهم مدى الإساءة من خلال تقرير يقول إن باشا حلب اشتكى عام 1793 للباب العالي بأن عدد مترجمي القنصلية في حلب قد أصبح حوالي ألف وخمسمئة، كلهم معفون من الضرائب ويعملون بالتجارة. تم إرسال مفتش من إسطنبول للقيام بالتحقيقات وعاد بنتيجة حرمان الجميع ما عدا ستة منهم من براءاتهم (الحقيقية أو الزائفة)، وإرسالهم إلى إسطنبول لنيل العقاب بالرغم من عروض الرشاوى التي قدّموها⁽²⁾.

لقد كسب الرعايا العثمانيون المنتمون إلى جنسية أوروبية فائدة مضاعفة، فهم أولاً حصلوا على حماية قناصل الدول الأوروبية، ووسيلة للوقوف في وجه الظلم الذي سببه طمع ونزوات موظفي الجمارك والحكام في كل فروع التجارة⁽³⁾، والذي أصبح أمراً شائعاً وكأنه واجب اعتيادي. لا يعني هذا أنهم هربوا بالكامل، كحمايتهم الأوروبيين،

الأجانب» - «إن اليهود والأرمن وغيرهم تجار بارعون، لكنهم غير أخلاقيين ومتطفلون».

(1) فولني ج 2 ص 278؛ وود «*Levant Company*». ص 135.

(2) الغزي ج 3 ص 311.

(3) حول «الممارسات المزعجة لتجارة المشرق» انظر شارل رو ص 53-54، 183-184، وحول الهدايا الاعتيادية للضباط انظر المصدر السابق ص 51-52.

من هذه الابتزازات لكنهم على الأقل نجحوا أكثر من الرعايا العثمانيين الذين لم يكن لهم حام ولا ملجأ سوى محاكم القانون التي بالرغم من احتمال تعاملها بشكل مرضٍ نسبياً مع الدعاوى المدنية والتجارية، فهي عاجزة تماماً أمام الاستبداد الغاشم للبكوات المماليك والباشوات من نمط أحمد الجزار وعملائهم⁽¹⁾. الفائدة الثانية هي أنهم حصلوا على المزايا الممنوحة للتجار الأوروبيين بحسب الاتفاقيات وبالأخص المستوى المخفّض من الضرائب على السلع التي يستوردونها ويصدّرونها⁽²⁾. وبهذه الوسيلة تمكنوا من المضاربة على منافسهم ذوي الجنسية العثمانية، والحصول في نهاية القرن على شبه احتكار لتجارة الجملة داخل الإمبراطورية⁽³⁾.

أما العامل الثاني الذي أسهم في تركيز التجارة المصرية والسورية بأيدي مسيحيين سوريين، فهو الطرد المفاجئ (وغير المبرّر أيضاً) لليهود من مناصبهم في الإدارة المالية التي كانوا يشغلونها في مصر وجنوب سوريا في حوالي الستينيات من القرن⁽⁴⁾. وكان لوضع المسيحيين السوريين أيديهم على الجمارك المصرية⁽⁵⁾ أثر كبير في منحهم السيطرة على أحد المناصب المهمة في التجارة، وبالميل المعروف لأية أقلية غير مسلمة بمحاربة أبناء دينهم، فقد بدأ عدد التجّار المسيحيين في مصر يزداد بسرعة منذ تلك الفترة⁽⁶⁾. هناك نتيجة أخرى غير متوقعة لنجاحهم هي أنهم (أو بعضهم)

(1) جيرار ص 649؛ انظر أيضاً ص 662.

(2) انظر الفصل السابع من الكتاب.

(3) انظر ملاحظة فُولني بأن كل التجارة السورية تقريباً كانت بأيدي الفرنجة واليونان والأرمن وسابقاً اليهود، لكنه لا يجد تفسيراً لذلك سوى أن الحكومة تجد أن الأرباح لها هو بيع حقوق صناعة المسلمين للأجانب. (ج 2 ص 277).

(4) انظر الفصل السابع من الكتاب.

(5) لقد أعطى علي بك حقوق الجمارك في مصر لسوري هو حتّا فخر، ونعيد إلى الأذهان أنه في الوقت نفسه كان الوزير القوي لظاهر العُمَر في جنوب سوريا من طائفة السريان الملكيين Syrian Melkite.

(6) فُولني ج 1 ص 190-191؛ قرالي Carali ج 1 ص 1، 85. بحلول نهاية القرن كانت التجارة المصرية مع ليفورنو بقيادة خمسة عشر إلى عشرين سورياً واثنين أو ثلاثة من اليهود - جيرار ص 672.

استخدموا وظائفهم ونفوذهم لوضع العراقيل أمام التّجار الأوروبيين، ومن المؤكد أن التّجار المسيحيين هم الذين حرّضوا على حوادث الابتزاز التي تعرّضت لها الجالية الفرنسية⁽¹⁾.

من جهة أخرى، بدأ التّجار الأوروبيون يسعون في العقود الأخيرة من القرن إلى الحصول على حصّة أكبر من المراحل المربحة الشرقية والمتوسطة للتجارة البحرية. ومنذ عام 1780 كانت شركة الشرق الهندية قد حصلت على مركز متفوق في الخليج العربي، وكان يمثلها أحد الرعايا في بغداد⁽²⁾. وحتى قبل ذلك كانت قد تغلغت في البحر الأحمر وصولاً إلى جدّة حيث تفرغ ثلاثة أو أربعة مراكب حمولتها السنوية من السلع الهندية ومواد بناء السفن، وكانت على الأرجح تستخدم الأموال التي تتلقاها لشراء البنّ في المُخا⁽³⁾. كانت الحكومة العثمانية تمنعهم من الإبحار إلى شمالي جدّة، لكن أثناء الفترة القصيرة لحكم علي بك جرت محاولة لإعادة فتح طريق السويس أمام التجارة الإنكليزية بناء على نصيحة تاجر إيطالي جريء هو كارلو روسيتي Carlo Rossetti، قنصل البندقية والنمسا في القاهرة⁽⁴⁾. وبعد بداية واعدة (إذ بالرغم من اعتراض الباب العالي، تابع محمّد بك أبو الذهب سياسة علي بك بهذا الخصوص) توقف المشروع بسبب مجموعة من المصالح، دعمها المصير المشؤوم الذي لاقته إحدى القوافل بين السويس والقاهرة عام 1779⁽⁵⁾. كان روسيتي في تلك

(1) إستيف ص 350؛ ماسون ج 2 ص 304.

(2) لونغريغ ص 188، 253-254.

(3) جيرار ص 652-653، 655.

(4) حول دور روسيتي كمستشار لعللي بك ومنظم صلاته مع روسيا وتجارته مع الهند، انظر فولني ج 1 ص 100، حاشية (والمعلومات مستقاة من روسيتي نفسه).

(5) حول هذه الأحداث انظر جيرار ص 657-658؛ بولدوين «مذكرات سياسية»؛ شارل رو

«حوالي طريق *Autour d'une route* ص 26 وما يليها؛ هـ. دودويل «مؤسس مصر الحديثة»

ص 4-5؛ وود «شركة المشرق» ص 167-172. بالرغم من أن الخطة كانت تجري اسماً تحت

الحماية الإنكليزية، فإن السفير البريطاني في القسطنطينية (الذي كان ضد المخطط) أعلن أن

المنظمين الحقيقيين هم مجموعة من المغامرين اليونان والأرمن ورعايا معظم البلاد الأوروبية

الأثناء يدرس أحوال التجارة الداخلية عن كثب، وذلك بفضل التفوذ الذي تمتع به بين بكوات الممالك؛ وقبل نهاية العهد المملوكي كان قد بدأ بالتدخل فيها لمصلحته الشخصية بحصوله على احتكار استيراد السنا⁽¹⁾.

كانت كمية كبيرة من البضائع المستوردة موجهة للاستهلاك الشخصي للطبقات الحاكمة، إما مباشرة أو بالمقايضة على منتجات سودانية وهندية وفارسية⁽²⁾، وبهذا تمكنت التجارة الأوروبية من تفادي الآثار السيئة للفوضى التي حلت في العقود الأخيرة، لكنها لم تنج من الابتزازات والتحديثات التي كانت على وشك القضاء على البنية الاقتصادية التقليدية للمجتمع المسلم⁽³⁾.



وبعض الرعايا البريطانيين. (شارل رو ص 101). وكان بولدوين في الواقع التاجر الإنكليزي الوحيد في القاهرة آنذاك (المصدر السابق ص 110).

(1) حول دور روستي في تشجيع مُراد بك لشن حملة على دارفور من أجل استثمار مناجم الذهب انظر أوريان «مغامرون ومُبدعون» *Aventuriers et Originaux* ص 14-21.

(2) جيرار ص 590: «كانت العائلات الثرية ذات التفوذ تضمن وضعها المُترف عبر التجارة مع الخارج»؛ انظر فولني ج 1 ص 156-157، والجبرتي ج 2 ص 224، 227، ج 5 ص 153، 159.

(3) انظر الفصل القادم من الكتاب.

الملحق الأول الجيش

(أ) الإنكشارية

كانت أورطات التقسيمات الثلاثة التي يتألف منها الجيش الإنكشاري منظمة بشكل متشابه. وإن وجود هذه التقسيمات في العهود اللاحقة يظهر أنها كانت ذات أصل مستقل، وكان السكمن قوة مستقلة فعلاً. ومن الممكن أن يكون البولوك اللاحقون هم القوة التي مثلت الحراس الخصوصيين للسلطان في مقره، والجماعت هي التي أوكل إليها حراسة الحاميات في الأقاليم. فبالدرجة الأولى كان عدد الجماعت ضعفي عدد البولوك تقريباً⁽¹⁾. وثانياً، لا يكتفي دوسون⁽²⁾ بذكر أنه في زمانه كان أكثر من نصف أورطات البولوك (أي إحدى وثلاثون من إحدى وستين أورطة) متمركزاً في إسطنبول، مقابل إحدى عشرة من أصل مئة أورطة للجماعت، وتسع منها يقودها ضباط ذوو مناصب رفيعة في الأوجاق⁽³⁾،

(1) تشتمل على مئة وأورطة (قبل إلغاء الأورطة الخامسة والستين في عهد مُراد الرابع)، مقابل واحدة وستين من البولوك.

(2) 7 ص 312-313.

(3) كانت الأورطات المعنية هي الستون والواحدة والستون والثانية والستون والثالثة والستون، أي مجموعات الصّولاقي الأربع، والرابعة والستون، أي الزّغارجية *Zagarcis*، والواحدة والسبعون، أي الصّامسونجية *Samsuncus*، والثالثة والسبعون، أي الطّورنه جية *Turnacis*، والرابعة والتسعون، أي أورطة الأوجاق إمامي *Ocağ İmâmı*، وأخيراً الواحدة بعد المئة، أي بيت المال جي *Beytül Mâlci*.

بل يعطينا انطباعاً⁽¹⁾ بأنه في حين تتركز بعض الأورطات بشكل دائم في العاصمة، فإن أورطات أخرى تتركز في الأقاليم بشكل دائم أيضاً، ويعلق أيضاً⁽²⁾ أن إحدى أورطات الجماعت لم تنتقل أبداً من ودين Vidin مذ تم فتحها في القرن الرابع عشر، وأن أورطات الأقاليم «بقيت دائماً في مكانها الحصين الذي عُيِّن لها»⁽³⁾. ثالثاً، تبدو تسمية البولوك مهمة، وكانت تُطلق أيضاً على تقسيمات الخيالة المتمركزة في مقر القيادة. ولسوء الحظ فإن الجداول التي وضعها جواد⁽⁴⁾ مظهراً عدد الرجال المتواجدين في أماكن مختلفة من الأقاليم في تاريخ معين من عهد السلطان مُراد الرابع ثم في عامي 1723 و1750، لم تذكر الأورطات المعنية. وحتى تنظيم الإنكشارية، فقد اضمحل قبل هذه التواريخ. مع ذلك تستطيع أن نرى فيها زيادة في بعض الحاميات ونقصاً في الأخرى خلال هذه الفترة. علاوة على ذلك، فإن أورطات الإنكشارية كانت قد أرسلت إلى حاميات بعض الأماكن مثل كريت ولم يتم فتحها إلا بعد أن بدأت الإمبراطورية بالانهيار. بهذا يبدو وكأن القاعدة هي ترك الأورطات في مواقع دائمة، لكنها كانت تُنقل إذا دعت الضرورة. رابعاً، كان البولوك تحت قيادة قُول كاخية سى *Kul Kâhyası* وهو اسم مختصر لقابى قُولى كاخية سى *Kapı Kulu Kâhyası* (المشرف على القابى قُول)؛ وكان حراس الإنكشارية من أفضل القابى قُول. لم يكن القُول كاخية سى قائداً للقسم بأكمله فحسب، بل لأورطته الأولى أيضاً التي شرفها السلطان نفسه بانتسابه إليها⁽⁵⁾، وعلى الرغم من أن رتبته أدنى من رتبة الآغا، فقد كان يتمتع بهيبة كبيرة في الأوجاق الذي لا بدّ من الحصول على موافقة جميع أفرادهِ قبل أن تقرّر إقالته من منصبه. أخيراً، وتبعاً لأحمد جواد⁽⁶⁾، كان رجال الجماعت يُدعون يايا بكلى *Yaya Beyleri*، وقد يدل هذا على أنهم قد حلوا محل اليايا الأوائل الذين كانوا

(1) المصدر السابق.

(2) ج 7 ص 316.

(3) ج 7 ص 321.

(4) أحمد جواد ص 164-171.

(5) دوشون ج 7 ص 315.

(6) أحمد جواد ص 28.

أساساً من الأقاليم بسبب وضعهم الإقطاعي.

أما السَّگمن فيلاحظ أنها لا تعني اللفظة الفارسية سَگبان *Sāgbān* التي يعدّ اسمهم تحريفاً عنها «مربّي الكلاب» فحسب، بل هناك ثلاث فرق، عرفت فيما بعد بالجماعات، تحمل أسماء «مربّو الكلاب الرّغاريّة، أي السّلوقية» *greyhound-keepers* و«مربّو كلاب الصّامسون، أي الدّرواس» *mastiff-keepers* و«مربّو طير الكركي» *crane-keepers* ويقال إنها أنشئت في الوقت نفسه من قبل السّلطان بايزيد الأول⁽²⁾. لذلك يبدو وكأن الفرق الإنكشاريّة قد ضمّت في شكلها النّهائي جزءاً على الأقل⁽³⁾ ممّا كان في السّابق خدمة الصّيد للسّلطان.

فيما بعد، دمج السّلطان محمّد الثّاني السّگمن مع الإنكشاريّة على أمل حثهم في الأوجاق على أن يكونوا روحاً واحدة أسهل انقياداً ممّا كانت عليه في السّابق. وإلى أن بدأ السّلطان سليم الأول بتعيين ضباط من العاملين في القصر في منصب الآغوية لهدف مشابه، كان السّگمن باشية هم أصحاب هذه الوظيفة⁽⁴⁾. لكن فرقة السّگمن كانت تضمّ عدداً من الأورطات أقل ممّا تحويه فرق البولوك، ومن بينها كانت واحدة فقط هي المتمركزة في العاصمة (في الأيام الأخيرة على الأقل)⁽⁵⁾. علاوة على ذلك، كان للقول كاخية سى، قائد البولوك، اعتبار أكبر من السّگمن باشى في الفيلق نفسه - وله نفوذ أعظم من نفوذ الآغا نفسه. بل وأكثر من ذلك، كان مسؤولاً عن كل التّعيينات في الأورطات ما عدا تعيين القادة؛ وكان مسؤولاً عن اقتصاد الأورطات بشكل عام؛ وكانت القضايا المتعلقة بالإنكشاريّة تحلّ من قبله ومن قبل الآغا؛ وبواسطته تدار العمليات العسكريّة في الحرب. ويقال⁽⁶⁾ إنه لا يمكن عزله من منصبه دون موافقة

(1) وهم الرّغارجية والصّامسونجية والطّورنّه جية.

(2) الموسوعة الإسلاميّة مادة «سَگبان» *Segbān*.

(3) جزء واحد فقط إذ بقيت مجموعات الصّقارين الأربع مرتبطة بالعاملين في القصر السّلطاني.

(4) أحمد جواد ص 51؛ دوسون ج 7 ص 314.

(5) دوسون ج 7 ص 313.

(6) هامر، ويستشهد بذلك أحمد جواد.

الأوجاق. وبهذا، فليس من المفاجئ أن نجده في النهاية قد ارتقى إلى المرتبة الثانية في سلم الإنكشارية. وفي نهاية القرن السادس عشر، عندما اضطر السلطان مُراد الثالث إلى العودة للنظام القديم بتعيين الآغوات من داخل الفيلق، اشترك القول كاخية سى مع السگمن باشى بمزية التأهل للحصول على هذه الترقية، وفيما بعد حل محل السگمن باشى كمعاون أول لرئيس الآغوات⁽¹⁾.

كان الضباط الثلاثة الآخرون الذين يشكّلون ديوان الأوجاق هم قادة أورطات «الصيد» المذكورة أعلاه، ويدعون على الترتيب زغارجى باشى *Zagarcı Başı* وصامسونجى باشى *amsuncu Başı* وطورنّه جى باشى *Turnacı Başı*. وإلى جانب آغوات الأوجاق هؤلاء هناك ضباط آخرون أدنى منهم يتولّون بعض شؤون الفيلق، وهم بيت المال جى⁽²⁾ *Beytü'l-Mâlcı*، أو الخازن، وكاخية يري *Kâhyâ Yeri*، أو نائب الكاخية، وبينچري كاتبى *Yeniçeri Kâtibi*، أو السكرتير. يقود الأُولان الأورطة⁽³⁾ الموجودة في العاصمة ويساعد الخازن موظف يدعى القسام *Kassâm*، أو مقسّم الميراث، وهو من رجال الدين⁽⁴⁾. وكان الكاخية يري ممثلاً للآغا في الأوجاق ويحلّ محله، عندما يكون غائباً، في مجالس الدولة؛ وكانت الأوامر الموجهة من الحكومة إلى الجيش الإنكشاري تصدر باسمه؛ وهو الذي ينقل أوامر الآغا إلى حراس

(1) أحمد جواد ص 40، 51؛ دوسون ج 7 ص 314-315، 334. يصنف دوسون السگمن باشى أولاً والقول كاخية سى ثانياً بعد الآغا في قائمة ضباط الإنكشارية (ص 314-315) لكنه يقول إن القول كاخية سى هو الملازم الأول للآغا (ص 334)، أو قائم مقام بالعربية. ويذكر صارى محمّد پاشا، مؤلف كتاب «نصائح الوزراء» في أواخر القرن السابع عشر، الآغا والقول كاخية سى كمديرين مشتركين للفرقة متجاهلاً السگمن باشى تماماً. انظر رايث «القدرة السياسية العثمانية *Ottoman Statecraft*» النص 64 وما يليه، الترجمة ص 110 وما يليها.

(2) من العربية «بيت المال» وهو اسم تقليدي للخزينة العامة.

(3) يقود بيت المال جى الأورطة الواحدة بعد المئة من الجماعت (دوسون ج 7 ص 318)، ويقود الكاخية يري الأورطة الثانية والثلاثين من البولوك، (وفقاً لدوسون ج 7 ص 319، والثالثة والثلاثين وفقاً لجدول رواتب عام 1634 الذي قدمه أحمد جواد ص 144).

(4) معين من قبل قاضي عسكر الرّوملي.

الحصون والجنرالات الأدنى أثناء الحرب⁽¹⁾. أما السكرتير فلم يكن من الإنكشارية أبداً بل هو «خادم مدني»، وكان يحتفظ بالسجلات بمساعدة طاقم كبير من الموظفين. وكان التعيين، على الأقل في الأزمنة المتأخرة، سنوياً⁽²⁾.

يأتي بعد هؤلاء الضباط آخرون تمتد سلطتهم إلى خارج الأورطات الخاصة بهم، لكنها تنحصر بتلك المستقرّة في منطقة إسطنبول. أولهم هو الباش چاؤش *Baş Çavuş* الذي يقود الأورطة الخامسة لفرق البولوك، وهو أيضاً رئيس الأوجاق ويأتمر بأمره ثلاثمئة رقيب يُدعون قُول چاؤش⁽³⁾ *Kul Çavuş*. ينقل الباش چاؤش الشكاوى من أفراد الإنكشارية إلى مجلس الآغا، ويجمع الأورطات في القصر ثلاث مرات سنوياً لقبض الأجور⁽⁴⁾. يعادله في الرتبة المُحضر آغا⁽⁵⁾ *Muḥdir Ağa*، أو المستدعي *Summoner* الذي، بالإضافة إلى كونه رئيساً لحرس الآغا الذي تجهزه تحت إمرته الأورطة الثامنة والعشرون للبولوك، وكونه آمر السجن الموجود في مقر الآغا، كان يمثل الأوجاق في معاملاته مع الحكومة⁽⁶⁾. هناك ضابط ثالث في هذه الفئة، وإن يكن أقل شأنًا، هو قائد الأورطة الرابعة والعشرين للبولوك ويدعى تعليم خانِه جى *Ta'lim hāneci*، أو مدير التعليم، وهو الذي يشرف على التدريب العسكري لفرق الإنكشارية المحليّة (اليرلية)⁽⁷⁾. أخيراً، هناك قائد أورطة آخر هو إمام الصلاة، وإن كان تسليم هذه

(1) أحمد جواد ص 42-43؛ دوسون ج 7 ص 319.

(2) دوسون ج 7 ص 333-322. لغاية عهد السلطان الفاتح كان السكرتير يعين من بين قادة الأورطة. يذكر أحمد جواد ص 43 وجود ثلاثة موظفين أساسيين (بازجية) واحد لكل قسم. وكان السكرتير يدعى أيضاً ينجري أفندي سي *O.T.E.M. Yeniçeri Efendisi*. العدد 14 الملحق ص 26 الحاشية الأولى، وأحمد جواد ص 35.

(3) يدعون قُول چاؤش تمييزاً لهم عن چاؤشية القصر السلطاني.

(4) دوسون ج 7 ص 318؛ أحمد جواد ص 29-42.

(5) محضر بالعربية اسم فاعل من «أحضر»، وتلفظ بالتركية «مُحْظِر».

(6) دوسون ج 7 ص 318؛ أحمد جواد ص 32، 41.

(7) أورطته هي الرابعة والخمسون من البولوك (دوسون ج 7 ص 319) وليست الخامسة والخمسين من الجماعت كما يقول أحمد جواد ص 32. ولم تكن الأخيرة متمركزة في إسطنبول (انظر دوسون ج 7 ص 312، حاشية 3).

المهمة لغير رجل الدين أمراً غير مألوف⁽¹⁾.

هناك رجل أعظم شأناً من هؤلاء، وإن يكن أقل سلطة، هو آغا إسطنبول الذي يشرف على الأورطات الأربع والثلاثين⁽²⁾ الملحقة بالأوجاق حيث يتلقى العجمي أوغلان تعليمهم وتدريبهم الأولي. كان لديه ضابطان يساعدانه يتولّى أحدهما شؤون مجندي الأقاليم الأوروبية بواسطة الدوشرمة ويدعى آغا الرّوملي (روملي آغاسي) *Rumeli Ağası*، بينما يتولى الآخر شؤون مجندي آسيا ويدعى آغا الأناضول (أناطولي آغاسي) *Anadolu Ağası*، ويسيطر كل منهما على سبع عشرة أورطة مجتمعة في ميدانين⁽³⁾. كان المجندون الجدد يتعلمون مبادئ الإسلام ويتلقون أساسيات العلوم

(1) أورطته هي الرابعة والتسعون من الجماعات، وليست الرابعة الثمانين كما قال أحمد جواد ص 32. والأورطة الرابعة والثمانون لم تكن متمركزة في العاصمة (انظر دوسون ج 7 ص 312، حاشية 3). وكان الإمام يلبس عمامة تميّز رجال الدين، لكنه كان يتخلى عن لبسها وعن مهامه الدينية عندما يترقى في سلم الأوجاق. دوسون ج 7 ص 317-318.

(2) وفقاً لدوسون ج 7 ص 312-313. وبإعطائه رقم 229 كعدد للأورطات، فإنه يضع في حسابه إلغاء الأورطة الخامسة والستين من الجماعات. ووفقاً لأحمد جواد ص 257 كان هناك في أحد الأوقات 59 أورطة من العجمي أوغلان و30 من البولوك و29 من الجماعات، ويصل إلى ذلك من خلال قوائم الرّواتب التي اطلع عليها، ولكن إن كان الجدول الذي وضعه في الصفحة 259 المتعلق بتوزيع الرّواتب عام 1623 يظهر إحدى قوائم دفع الرّواتب، فهو لا يدعم قوله، إذ يظهر 31 بنداً تحت البولوك (وهذا الرقم يتوافق مع عدد أورطات البولوك وحدها، تبعاً لدوسون ج 7 ص 313) و38 تحت الجماعات. ويبدو حسابه ككل مضطرباً، لذلك اتبعنا حسابات دوسون.

(3) الميدان بالعربية هو مكان مكشوف أو حلبة أو مكان الاستعراض. وكان الأخية يستخدمون هذه الكلمة للإشارة على مكان اجتماعهم. وربما نرى بذلك ارتباطاً آخر بين تنظيمهم وتنظيم الإنكشارية. وقد يهمننا في هذه الصّلة أن أورطات العجمي أوغلان هي الأقدم على الإطلاق (انظر دوسون ج 7 ص 313).

وفي جدول نقله أحمد جواد عن المال الذي قدمه السلطان مراد الثالث للإنكشارية (عام 1574) يظهر آغا الرّوملي وآغا الأناضول وآغا أعلى منهما رتبة، لكنه دون رتبة آغا إسطنبول، هو آغا غاليليولي. كان بعض العجمي أوغلان يرسلون إلى غاليليولي للتدريب (انظر سيّد مصطفى)؛ وهذا هو قائدهم على الأرجح. ويذكر في صفحة 257 أيضاً ميدان كاخية سى كضابط لكل أورطة عجمي أوغلان، ويعادل الأوضه باشى. ولكن يبدو من المحتمل أن يكون هذا اسماً آخر لآغا الرّوملي وآغا الأناضول أو أن يكون لكل منهما مساعد يدعى كذلك وبالأخص أن

العامّة، يشرف على ذلك خوجات *Hocas* خاصّون. لم يكونوا مجبرين على مفارقة دينهم لكنهم لا يأملون بالترقية ما لم يفعلوا ذلك. وبعد إنهاء التدريب كانوا يُرَقَّون إلى الخدمة في أي فيلق من فيالق الأوجاق، وكانت تلك التّريقات تتم كل سبع سنوات⁽¹⁾.

أما بقية الضبّاط ذوي السّلطة القيادية البسيطة، فكانوا يقيمون في نقاط محصنة على الحدود لذلك يدعون سَرَحْد آغا سي⁽²⁾ *Ser-hadd Ağası*. وكانت كل حامية تضم عدداً من أورطات الإنكشاريّة التي أشرنا إليها عند حديثنا عن الحاميات الإقليميّة عموماً، والتي تبقى في مراكزها بشكل دائم. وفي الحرب قد تدعى أورطات الحاميات بالطّبع للقتال في مكان آخر بعيد عن مراكزها؛ وقد تتطلب الضرورة الإستراتيجية زيادة أفراد إحدى الحاميات على حساب الأخرى. وقد تؤدّي التّزاعات بين أورطتين أحياناً إلى تغيير موقع إحداهما أو كليهما، وما عدا ذلك لا تجري أيّة تعديلات في تنظيمهما. كان هناك اثنان وعشرون سرحد آغا متساوون في الرّتبة، باستثناء قائد ودين *Vidin* على نهر الدّانوب الذي كان يتمتّع بسطوة ولقب طورنّه جى باشى *Turnacı Başı* مثل عضو ديوان الإنكشاريّة المذكور سابقاً⁽³⁾، وهو مسؤول عنه إذ كان على كل الضبّاط الحصول على رتبة طورنّه جى باشى الدّيوان للتأهل لمنصب «قائد الحاميات»⁽⁴⁾.

القاييحي، الذي يقول إنه ضابط أورطة آخر، له علاقة بتقسيم العجمي أوغلان بأكمله، يقارن أحمد جواد بينه وبين المحضر آغا.

ثم يقول أحمد جواد أيضاً (ص 187) إن العجمي أوغلان المجنّدين من بين أسرى الحرب كان لهم مشرف آخر يدعى قُول أوغلي باش چاؤش، لكن هذا الاسم - ويعني حرفياً رئيس چاؤشية أبناء العبيد - يبدو أكثر ملاءمة لضابط يشرف على أبناء المتقاعدين (الذين يدعون قُول أوغلي) المقبولين في الأوجاق بالأفضلية.

(1) دوشون ج 7 ص 316-317، 327-328. أحمد جواد (نقلاً عن نعيما بشأن فترة السبع سنين) ص 247، 256-257.

(2) سَرَحْد تعبير مركب من *sār* بالفارسية وتعني الرّأس، وحدّ بالعربية.

(3) الطورنّه جى باشى هو الأدنى رتبة بين القواد الثلاثة لأورطات الصّيد.

(4) كان تجنيد الدّوشيرمه يجري بإشراف الطورنّه جى باشى والضباط المساوين له في الرّتبة، وفقاً لأحمد جواد ص 250، 251. لا يتضح أي طورنّه جى باشى هو المقصود ولا الضباط المساوين له في الرّتبة. ربما يكون السَرَحْد آغاسي.

بالرغم من أن فرق الإنكشارية كانت في الأصل مؤلفة من ثلاث تقسيمات متميزة، فإن الأورطاط التي نشأت عنها، باستثناء بعضها المخصص لمهام خاصة، تترأسها نفس المجموعة من القادة. وإن الترتيب في كل أورطة أمر غير اعتيادي، فهي تتألف من سبعة أو ثمانية ضباط فقط لا يتساوون في رتبهم لكنهم يختلفون عن كل التنظيمات العسكرية التي يكون لدى القائد الأعلى فيها ضابطان أو أكثر تحت إمرته، لكل واحد منهم سلطة على عدد من الضباط ذوي الرتب الأدنى، وهكذا. أما ضباط الإنكشارية فهم على عكس ذلك، إذ يبدو أن لكل منهم وظيفته الخاصة المتعلقة بالأورطة بأكملها. لا شك أن هذه الغرابة تعود إلى الظروف التي تكوّن فيها أوجاق الإنكشارية لأول مرة، إذ كان عبارة عن مجموعات صغيرة لا يتجاوز عدد أفراد الواحدة منها خمسين رجلاً، ويدلّ هذا على أن ضباطها لم يكونوا متدرّجين بشكل هرمي، ولم يكن القائد يحتاج سوى نصف العدد من الضباط المساعدين ليسيّط على هذا العدد القليل من الرجال، حتى ولو كانوا مرتبين هرمياً. ولكن، كما سبق ولاحظنا، فإن فرق الإنكشارية، باستثناء بعض تقسيمات الخيالة، كانت الوحدات الأولى التي دفعت لها الحكومة العثمانية الفتية الرّواتب وزودتها بالمؤن. ولهذا كان من الطبيعي الاهتمام بمشكلة إطعامهم، بما أن الوحدات الإقطاعية لم تكن تتلقى الأجور أو المؤن من الدولة. وألقاب بعض الرتب في سلك الضباط يبدو أنه يدل على أن الوظيفة حاملها كانت تتعامل مع تلك المشكلة، إذ كان قادة الأورطة يدعون بالجوربة جية *Çorbacis* (وتعني حرفياً المزودون بالحساء)؛ وهناك اثنان من الضباط الأدنى رتبة في كل أورطة يدعيان على الترتيب بالآشجي *Aşçı* (الطباخ) والباش قره قوللقجي *Baş Kara Kullukcu* (رئيس خدم المطبخ)^(١). ومن چاوشية الأورطة من يدعون قره قوللقجي (أي خدم المطبخ) وكان أعزّ ممتلكاتهم الذي يوقرونه أكثر من رايتهم هو القدر النحاسي الكبير (قزغان

(١) هكذا ترجمها دوسون ج 7 ص 320 «*premier marmiton*». ولدى ردهاوس هو ضابط ثانوي لفرق الإنكشارية القديمة الذي كان يقود فرقة حرس الحاميات، لكن هذا ليس هو معنى الكلمة، إذ هي مشتقة من قول (أي عبد) وتعني حرفياً «رجل العبيد السود»، وبهذا فهي تلائم رئيس خدم المطبخ. وكلمة قوللقجي التي سنصادفها لاحقاً ستعني مجرد «خادم».

(*kazğan*) الذي يطهون فيه البيلاف⁽¹⁾ *pilāv*. ليس هناك ما يوضح في الأيام المتأخرة إن كان هؤلاء الطباخون ورؤساء خدم المطبخ لا يزالون يحتفظون بوظائفهم، أم أنها اقتصرت على العمل كمساعدين للقادة⁽²⁾. كان الضابط الوحيد الذي يحمل لقباً يدل على مهمته العسكرية هو البيرقدار⁽³⁾ أو حامل الراية. أما بقية الضباط فكانت ألقابهم تدل على مهماتهم المادية أو الروحية في الأورطة، ويدعون على الترتيب: الأوضه باشى *Oda Başı* أو قائد الثكنة، ووكيل الخرج⁽⁴⁾ *Vekil Harc* أو أمين المخزن، والسقا *Sakkâ* أو حامل الماء⁽⁵⁾، والإمام *Imâm* أو القائد في الصلاة. وكان لكل أورطة أيضاً موظف يحتفظ بسجلاتها⁽⁶⁾، وفي كل من الأورطتين اللتين يقودهما القول كاخية سى والباش چاؤش هناك ضابط إضافي يدعى الزنبيلجي⁽⁷⁾ *Zenbilci*.

لم يتضح لنا الترتيب الذي كانت عليه هذه الوظائف المختلفة⁽⁸⁾ لكننا متأكدون

- (1) أرز مسلوق، يحضر مع الزبد.
- (2) لرؤساء خدم المطبخ مهمات عسكرية بالتأكيد.
- (3) تعني كلمة بيرق بالتركية «العلم»، ودار بالفارسية «صاحب». مير عَلم (بالعربية أمير الأعلام)، وبهذا كان البيرقدار يدعى أيضاً علمدار *Alemdâr*. وستعرف على علمدار باشا شهير في الجزء الثاني من الكتاب. أما كلمة دار فتظهر أيضاً في بعض الكلمات مثل خزينة دار ودفتر دار مركبة كذلك مع أسماء عربية.
- (4) أي وكيل الخرج (بالعربية وتعني الموظف المالي المسؤول عن التفتقات). قد تدل كلمة خرج على العائدات أو التفتقات، لكنها تستخدم بالمعنى الثاني في التركية.
- (5) من يوزع الماء للشرب.
- (6) وفقاً لأحمد جواد ص 43. يقول دوستون ج 7 ص 323 إن عدد الأوضه يازجية هو ستون يرأسهم باش يازجى.
- (7) تعني كلمة زنبيل *Zenbîl* «السلة».
- (8) لا توافق السلطات على هذه الأسماء، وبهذا يظهر دوستون الأسطة كاسم آخر للأشجى بينما لا يظهر أحمد جواد وجود أي أسطة، ولا يظهر سيد مصطفى وجود الأشجى؛ ومن جهة أخرى يعرف أحمد جواد الباش قره قُوللقجى بأنه الباش اسكي (رئيس الأقدمين) بالرغم من فصل دوستون بين الاثنين، وتجاهل سيد مصطفى له. ويبدو أن الترتيب الأرجح هو التالي: (1) الجوزبة جى، (2) الأوضه باشى، (3) وكيل الخرج (ويدعوه سيد مصطفى بالمثولي)، (4) البيرقدار، (5) الأشجى أسطة (ويضعه سيد مصطفى في مرتبة أعلى من الأوضه باشى ويضعه

أن الترقية من واحدة لأخرى كانت حسب الأسبقية في الخدمة. كان الجُوزِبَه جية هم الوحيدون الذين يعيتون من خارج الأورطة ودون تمييز بين التقسيمات الثلاثة للأوجاق، كما كانوا يتغيرون كثيراً في الأقاليم. ويملك أولئك الذين يقودون أورطات الجماعات في العاصمة مزية البقاء في هذا القسم⁽¹⁾. كان الجُوزِبَه جية يقودون أورطات العجمي أوغلان أيضاً⁽²⁾ لكن لم يتضح إن كانت رتب الضباط المساعدين مشابهة لرتب ضباط الإنكشارية أم لا⁽³⁾.

كان رجال كل أورطة، باستثناء العجمي أوغلان، ينقسمون منذ عهد السلطان سليمان العظيم إلى ثلاث درجات أعلاها درجة المتقاعدين⁽⁴⁾ (أوطوراق Oturak) الذين أقعدتهم إصاباتهم أو كبر سنهم عن الاشتراك في الحرب؛ وأوسطها درجة الجنود (عمل ماندي Amel mände)⁽⁵⁾؛ أما أدناها فدرجة المحاربين (إشكينجي

أحمد جواد في مرتبة أدنى من الباش قره قوللقجي)، (6) الباش قره قوللقجي أو الباش اسكي، (7) السقا. ولا يذكر الإمام سوى سيد مصطفى ويضعه بعد البيرقدار. دوسون ج 7 ص 320؛ سيد مصطفى ج 1 ص 142؛ أحمد جواد ص 46. أما القوجه سگمن باشي في الرسالة الموجهة إلى السلطان مصطفى الرابع عام 1804 فيشير إلى ضباط الأورطة كما يلي: الأوضه باشي آغا، السقا بابا، الأشجي أسطة، الباش قره قوللقجي... (جودت ج 7 ص 293).

(1) دوسون ج 7 ص 321-322.

(2) أحمد جواد ص 257.

(3) كما سبق وقلنا، يبدو أن الضباط الذين ذكرهم أحمد جواد ينتمون إلى أوجاق العجمي الفرعي أكثر من كونهم ضباطاً للأورطة.

(4) تعني كلمة Mutekâ id «المتقاعد» وهي مشتقة من الكلمة التركية أوطورمق oturmak وفعل قَعَد بالعربية. وهناك ضباط متقاعدون بالإضافة إلى الرجال.

(5) هو تعبير مختلط من «عمل» بالعربية و«ماندي» بالفارسية وتعني محفوظ أو باق، ويبدو أن العمل ماندية مختلفون عن الأوطوراق كونهم يملكون الحق بالتقاعد من الخدمة بأكملها. وإذا ترك الأوطوراق المتزوجون أيتاماً، يعيشون على نفقة الحكومة. يدعى هؤلاء الأطفال فضوله خوران Fodule Horân «أكلة الخبز» (من فضلة أي فائض بالعربية وخوردان أي يأكل بالفارسية). وكانت كلمة فضوله تطلق بالأساس على الخبز الفائض الذي توزعه المؤسسات الدينية على الفقراء، ثم أصبحت تطلق على نوع معين من الخبز الأبيض الطري (انظر عطا ص 336). ولفضوله خوران الإنكشارية سكرتير خاص يتولى شؤونهم، أحمد جواد ص 34، 142، 185.

(Eşkinici⁽¹⁾)، وكانوا كلهم تحت القيادة المباشرة للرقباء الذين سبق ذكرهم. وكانت الترقية إلى رتبة چاؤش أو قره قُوللقجى عن طريق اجتماع الأسبقية والخدمة الجيدة. كان ضابط الدرجة الأدنى لكل أورطة يُختار غالباً من بين الجاؤشية، ويُعرف رجال الدرجة الوسطى المقيمون في إسطنبول بالقوروجى *Korucus* وعلى الرغم من وجودهم في ثكنات الإنكشارية⁽²⁾، فقد كانوا يعملون تحت إمرة ضابط القصر السلطاني كمفتشين على القنوات التي تزود العاصمة بالماء⁽³⁾. وكان أفراد آخرون في كل أورطة يعملون كمساعدين للأشجى⁽⁴⁾ *Aşçı* ويختص بعضهم بفروع مختلفة من أعمال المطبخ⁽⁵⁾.

عندما كانت العمليات الحربية تتطلب جسارة خاصة وحاضرة، كان المتطوعون يجتدّون من بين فرق الإنكشارية ويدعون بالمجازفين بالرؤوس (سردن غچتي *Serden-geçti*)⁽⁶⁾ أو السيوف المجردة (دال قليج *Dal Kılıç*)، وكانوا يوعدون بزيادة أجورهم، كما كان يسمح للناجين منهم بارتداء قبعة خاصة توحى للناظر بما تحمله

(1) باللغة التركية يعني فعل إشمك *eşmek* السير بالحصان على مهله (رهونة)، وخصوصاً إلى الحرب. وكان مصطلح الإشكنجى يطلق أيضاً على الشباهية الإقطاعيين، لكنه اكتسب معنى أعم من مجرد الخروج للحرب سواء على ظهر الحصان أم لا.

(2) دوسون ج 7 ص 321.

(3) سيد مصطفى ج 1 ص 142.

(4) أحمد جواد ص 46. كان جنود الإنكشارية الصغار الذين يساعدون في المطبخ يدعون جويلق *Cevelik* - المصدر السابق ص 191.

(5) أحمد جواد ص 48 ينقل عن جودت قوله بوجود رجال أدنى رتبة من الأشجى باشى يدعون الجور كجى *Çörekçis* (وتعني چورك *çörek* «الكعكة»). ويذكر من بين أولئك الرجال شخصاً يدعى أوطوراقجى *Oturakçı* (أي واحد من فئة المتقاعدين أو لعله رئيس المتقاعدين)، وآخر يدعى قولتوقجى *Koltukçu* (أو الصقار)، وثالثاً يدعى تلال (من العربية دلال أي المنادي) ويصنفهم كقائفه جية، ولذلك لا يعرفون من بين يماق الأشجى. قد يكونون من الضباط المساعدين للمتقاعدين بفرض أن الأخيرين لا يتدربون للحرب، بل يسمح لهم بكسب عيشهم عن طريق حرف بسيطة؛ وقد يكون هؤلاء الرجال ظهروا لاحقاً بشكل غير رسمي عندما تحول الأوجاق إلى مجرد مركز للتجار الملتحقين بالأورطات المختلفة.

(6) وتعني بالتركية «تخلّى عن رأسه».

من معنى⁽¹⁾. وباستثناء الأورطات التي ذكرناها بشكل مستقل والتي يقودها ضباط الأوجاق، هناك عدد من الأورطات التي تحمل أسماء خاصة يوجد أولاً ست منها في العاصمة، وهي الأورطتان الأولى والرابعة من الجماعت ومن الأورطة الستين إلى الثالثة والستين التي تحمل اسم صولاق *Solak* وتشكل جزءاً من الحرس الخاص للسلطان. يقود كل أورطة صولاق باشى مع اثنين من الملازمين، وكنا قد ذكرنا هؤلاء الحراس من قبل لدى حديثنا عن العاملين في القصر السلطاني. ثانياً كان رجال الأورطة التاسعة عشرة من البولوك يعرفون باسم البكجية *Bekçis* أو الخُفراء لأنهم يعملون كحراس للجيش في المخيمات أثناء الحرب⁽²⁾. وثالثاً كان رجال الأورطة الثالثة والثلاثين من فرقة السگمن يدعون الآوجى *Avcus* (أو القناصون)، ويقودهم الآوجى باشى *Avcu Başı* أو السّر شكارى *Ser Şikârî* ويمضون الصيف في إسترانجه *Istranca* قرب ساحل البحر الأسود⁽³⁾. ومن بين الأورطات الإقليمية دعيت اثنتان من فرق السگمن واحدة باسم سكرتيرها (وهي الثامنة عشرة) والأخرى باسم الكاخية (وهي العشرون)⁽⁴⁾، وليس لدينا معلومات عن ضباطهما ويبدو أنهم مجرد جُوزبِه جية بعد أن اندمج السگمن بباقي فرق الإنكشارية. وبقيت الأورطات ذات الأسماء الخاصة من الجماعت، وهي الأربعة الأولى (من الخاصكية *Hâşşekis*)⁽⁵⁾، والسابعة

(1) سید مصطفی ج 1 ص 142، يشير عطا ج 1 ص 23 إلى أن السردن غچتي والدال قلیچ رجال متطوعون ألحقهم قادة الإنكشارية بالجند بعد انهيار النظام في الأوجاق (انظر جودت ج 1 ص 97). ويضيف عطا أنها كانت عادة في القرن الحادي عشر للهجرة أبطلت بعد 1689/1100.

(2) دوستون ج 7 ص 343.

(3) المصدر السابق ص 313، 319-320، 343.

(4) كاتبي سگمن أورطة سى وكاخية سگمن أورطة سى - انظر الموسوعة الإسلامية مادة «سگمن».

(5) يدعوهم دوستون كذلك (ج 7 ص 343) لأن خاصكية القصر، الذين يعدّون من البوستانجية، كانوا يُجندون من هذه الأورطة. يقول أحمد جواد ص 29 أن الأورطات الثلاث للجماعت تدعى أيضاً بالخاصكي، وهي التاسعة والأربعون والخامسة والستون والسابعة والستون، ويذكر (ص 41) ضابطين في الأوجاق يدعيان بِيوك خاصكي وكچوك خاصكي ويضعهم (ص 35) في رتبة أعلى من الباش چاؤش. يقول إن كل ضابط يقود أورطة وهما مسؤولان عن حملات الحدود،

عشرة (من الجرغجية Çergecis أو ناصبي خيمة الاحتفالات)⁽¹⁾، والثامنة والعشرون (من الأوقجية Okcus أو الرُماة)⁽²⁾، والخامسة والثلاثون وتدعى مجموعة السَّكْمَن أوجى سى Segmen Avcisis (وهو اسم محير)⁽³⁾. ويقال إن جُوزْبَه جية أورطات الذَّوه جية الأربع أعلى رتبة من كل زملائهم⁽⁴⁾.

أما الطوائف، وتدعى أوردى أصناف Ordu Eşnâf، فكانت مرتبطة بفيلق الإنكشارية، ويذكر في وثيقة تعود إلى نهاية القرن السابع عشر⁽⁵⁾ أن مرافقة الطوائف للجيش من إسطنبول وأدرنه وبورصة هي عادة قديمة وتظهر فيها قائمة لائتين وعشرين طائفة تمثل أصحاب الحرف التالية: نذافي الصَّوف وصانعي السيوف وصانعي الأقواس والسَّراجين وتجار الكتان والإسكافيين والحلاقين والحَدَّادين وصانعي الشَّمُوع وبائعي رؤوس الغنم المطهَّوة وصانعي الشَّرائط الحديدية لنعال الأحذية والعطارين وصانعي أقمشة شعر الماعز وصانعي الخفاف وصانعي القفاطين

ويرسلون خارج العاصمة لمعالجة المشاكل التي تنشأ بين فرق الإنكشارية في الأقاليم. لم يذكرهما دوسون أو سيد مصطفى لذلك قمنا بحذفهما من حسابنا. ومن الملاحظ أن الأورطة الخامسة والستين التي يقول جودت إنها من الخاصكي هي نفسها التي ألغاهما السلطان مُراد الرابع.

(1) أحمد جواد ص 31. كانت خيمة الاحتفالات تنصب مقابل خيمة السلطان في الحرب، وبهذا كان مضطراً للمرور عبرها.

(2) دوسون ج 7 ص 343. وتعني أوقجى بشكل عام التبال، أي صانع أو بائع السَّهَام (أوق تعني «سهم»).

(3) تعني سَكْمَن أوجى سى مربِّي الكلاب - الصَّياد، وهي محيرة لأن هذه الأورطة لم تكن من تقسيمات السَّكْمَن ولكن من الجماعت - مثل أورطة الرَّغْرِجِية.

(4) أحمد جواد ص 29. وفي جدول رواتب عام 1634 يُظهر أيضاً عدداً من الأورطات الأخرى للجماعت تدعى دوه جية أو شُتْرْبَان Şütiirbân (وهي كلمة فارسية تعني سائق الجمال). ويقدم الجدول أيضاً أسماء خاصة لأورطات أخرى لكن الصَّعُوبَة التي لاقاها في فك أحرف الخط الذي دونت به جعلت كتابه غير دقيق تماماً، مما جعلنا نتردد بقبول نتائجه، خصوصاً في هذه القضية.

(5) «إرادة» لقاضي إسطنبول تعود إلى عام 1697، نشرها عثمان نوري ج 1 ص 631-632.

وتجارة الحرير وصانعي السراويل والتخاسين والسمكرية والخبازين⁽¹⁾. لسوء الحظ، إن المعلومات المتوفرة لدينا تعود إلى زمن كان فيه نظام الأوجاقات قد انهار⁽²⁾، لكن يبدو أن طوائف الأوجاقات تلك قد وُضعت على أساس دائم بحلول القرن الثامن عشر، وكان عددها حينذاك أربعاً وثلاثين لكل منها ورشتها الخاصة (كرخانه *Kâr-hâne*) المؤلف من حوالي ثلاثين حرفياً يرأسهم أسطة⁽³⁾. لكن وضعهم كان قد أصبح غير سوي في ذلك الوقت، إذ صار معظم أفراد الإنكشارية من الحرفيين أنفسهم.

(ب) الإنكشارية و فرق الشرطة الأخرى

كما سبق أن شرحنا كانت إدارة الأقاليم، أي كل تلك الأجزاء من الإمبراطورية التي يحكمها موظفون معينون من إسطنبول، مقسمة إلى إيالات. لكن هناك منطقة كبيرة تحيط بإسطنبول من جهتي البوسفور مستثناة من الإيالات المجاورتين وتتبع العاصمة بشكل مباشر. وكانت تلك المنطقة نفسها مقسمة أيضاً إلى أربعة مراكز قضائية - إسطنبول وما يدعى بالمدن الثلاث: أيوب وغلطة وأسكدار. وفي الوقت نفسه كان يقوم على حمايتها جنود بقيادة ما لا يقل عن خمسة ضباط، لكن حدود سلطاتهم لم تكن متطابقة مع حدود هذه المراكز. ولقد تحدثنا في موضع آخر عن اثنين من هؤلاء الضباط، هما رئيس البوستانجية (بوستانجي باشي) والأدميرال (قبطان پاشا). كان الجزء الأكبر من المنطقة محمياً من قبل قوة تعمل تحت إمرة رئيس البوستانجية، أما الأجزاء الخاضعة لسلطة الضباط الثلاثة الباقين، وهم آغا الإنكشارية والطويجي باشي والجبجي باشي، فقد خضعت لإسطنبول وجزء من قضاء غلطة. كانت أساليب الضباط الخمسة متشابهة، وبكلامنا عن الطرق التي اتبعها آغا الإنكشارية نكون قد أظهرنا إلى حد ما كيفية ممارسة الضباط الآخرين لسلطاتهم.

كانت الإساءات التي تسعى السلطات وقوات الشرطة إلى منعها واضحة ومحددة

(1) حُذفت طائفتان. للطوائف بشكل عام انظر الفصل السادس من الكتاب.

(2) انظر عثمان نوري ج 1 ص 627.

(3) دوتون ج 7.

في الشريعة والقوانين والعادات؛ وكذلك العقوبات المطبقة على الأشخاص الذين يرتكبونها. وبشكل عام كانت الأمور بيد رجال الدين الذين يحكمون بقوانين الشريعة، أي القضاة ونوابهم، فيوقعون القصاص بمن ثبت إدانته. وكما سبق وشرحنا لدى حديثنا عن الحكام الإقليميين، هناك ضباط وموظفون ذوو مناصب عليا يملكون سلطة معاقبة الأثمين دون الرجوع إلى رجال الدين على ألا تكون أحكامهم، نظرياً على الأقل، مخالفة لقوانين الشريعة. كان القايي قول لرى بشكل خاص خاضعين تماماً لسلطة ضباطهم الكبار الذين يحكمون ويعاقبون المسيئين بينهم دون الرجوع إلى رجال الدين⁽¹⁾. علاوة على ذلك، كان غير المسلمين يُحكمون من قبل كبار رجال ملتهم. إذن لم يكن هناك أكثر من دستور واحد للقانون فحسب (أي الشريعة، والقوانين والعادات، ورجال الطوائف الأخرى)، بل كان هناك ثلاثة أصناف من الموظفين على الأقل هم رجال الدين الذين يطبقون الشريعة، والضباط الذين أشرنا إليهم للتو، وكبار الملل الأخرى، وهم جميعاً مشتركون في تنفيذ هذه الأنظمة. وبهذا كان على الفرق التي تقوم بمهام الحماية أن تعمل بتناغم مع هذه السلطات المختلفة. ولذلك نجد في بعض أنحاء إسطنبول، وهي ما تعيننا حالياً، أن بعض هؤلاء الأشخاص يأتمرون بأوامر القاضي ونوابه بالرغم من كونهم من الإنكشارية فعلاً أو يُعدّون من الإنكشارية. ويمكن تقديم مثال على السلطة المزوجة لرجال الدين والضباط المعنيين بجولات التفتيش التي كان يقوم بها الصدر الأعظم كل أربعاء برفقة القاضي والآغا وعدد كبير من رجال الحاشية⁽²⁾. وكان الآغا يُجبر أيضاً على القيام بجولات مستقلة مرتين أسبوعياً على الأقل⁽³⁾ بينما يقوم الضباط الأدنى رتبة بالسيطرة على مرؤوسيههم بالطريقة ذاتها. كان ستة من ضباط الأوجاق، باستثناء الآغا، يتولّون أعمال الشرطة بشكل مستقل عن مهامهم العسكرية، وأولئك هم السگمن باشى وآغا إسطنبول والمُحضّر آغا

(1) من أجل هذه المزية انظر دوسون ج 7 ص 353.

(2) من أجل قانون ديوان الأربعاء انظر M.T.M. ج 1 ص 503 وما يليها.

(3) أحمد جواد ص 37؛ عثمان نوري ج 1 ص 888؛ M.T.M. ج 1 ص 524 - قانون آغا الإنكشارية.

والتعليم خانه جى واثان لم نذكرهم من قبل هما الچازداق چُوزبَه جى ⁽¹⁾ *Cardak* و *Çorbacı* والعساس باشى ⁽²⁾ *Assâs Başı*. كان السگمن باشى مسؤولاً أمام الآغا في أوقات السلم عن سلوك كل الضباط التابعين له والمسؤولين عن حفظ النظام، وينوب مكان الآغا لدى ذهابه إلى الحرب، فيتولّى عندها شؤون المنطقة التابعة لسلطة الآغا ⁽³⁾. كان آغا إسطنبول مسؤولاً عن أورطات العجمي أوغلان وهي تؤدّي المهام البوليسية، وهي كما ذكرنا تحلّ محل الأورطات العادية الذاهبة إلى الجبهة؛ ولكن لم يتضح إن كانت هناك مقاطعات أخرى يتولون حراستها ⁽⁴⁾. أما التعليم خانه جى والچازداق چُوزبَه جى فقد كان كل منهما مسؤولاً عن مقاطعة معيّنة، حيث يتولّى الأول أمر المنطقة المحيطة بأوق ميداني ⁽⁵⁾ *Ok Meydanı* حيث توجد مدرسته التعليمية، بينما يشرف الثاني على منطقة تسمى باسمه (چازداق) على القرن الذهبي حيث تتمركز أورطته، السادسة والخمسون من البولوك، بشكل دائم ⁽⁶⁾. ومن بين أفراد

(1) أو چارطاق *Çartak* - من الكلمة الفارسية جهار طاق *Çāhār Tāk* أي «الأقواس الأربعة». انظر حاشية عثمان نوري ج 1 ص 799. قلت: ومعنى چازداق عموماً بالتركية المحكية اليوم: العريشة، العرزال. (أحمد)

(2) بالعربية من يخرج ليلاً في جولات تفتيشية، وتكتب «عَسَس *asses*» بالتركية القديمة.

(3) عثمان نوري ج 1 ص 888-889.

(4) يظهر آغا إسطنبول في القائمة الطويلة للضباط المسؤولين عن حفظ القوانين والنظام في العاصمة الواردة في كتاب عثمان نوري ج 1 ص 884، وأيضاً في كتاب عطا ج 1 ص 290 عن الأشخاص المرتبطين بالشهر آميني.

(5) عثمان نوري ج 1 ص 885. يقول المؤلف إن التعليم خانه جى يساعده في مهمته قوروجو الأوجاق، ويضيف أنهما كانا ينفذان حكم الإعدام بالمجرمين المدنيين بربطهم إلى شجرة ثم جلدهم بحبل القوس ورميهم بالسهم، أما المجرمون العسكريون فيتم شنقهم، وهي مزية ممنوحة من قبل السلطان محمّد الفاتح. وهكذا تعني أوق ميداني «أرض استعراض رمي السهم».

(6) دوسون ج 7 ص 319. يقول عثمان نوري ج 1 ص 799، حاشية، إنه كان هناك رصيفان يدعيان چازداق، أحدهما چازداق يميş *Yemiş* (أي رصيف الفاكهة) والآخر چازداق أون قپانى *Un Kapanı* (أي رصيف وزن الطحين). وكانت كلمة چازداق تستخدم كمرادف لكلمة *Kapan* المشتقة من الفارسية *Kāpān* وتعني «الميزان»، وأصبحت تطلق أيضاً على البناء المقبّب حيث يجري وزن البضائع.

أورطة الجازداق يؤخذ حرس مقر الآغا، وهو قصر قريب من جامع السليمانية، ومن بينهم أيضاً الرجال الذين يسيرون مركبه⁽¹⁾.

إن المُحضّر آغا هو ممثل الإنكشارية لدى الصدر الأعظم الذي يأتي جزء من حرس مقرّه من أورطته، ولديه تحت إمرته أيضاً فرقة من حملة الحراب ويدعون الحرّبه جيه⁽²⁾ Harbacis يأتون من أورطة الجازداق جُوزيه جى⁽³⁾، ومجموعتان من الضباط الأدنى رتبة يدعون قابى كاخية سى *Kapı Kâhyasis* (أو حُرّاس الباب)، وكذلك عدد من حملة البنادق ويدعون المومجية⁽⁴⁾ *Mumcus*. وكان المُحضّر واحداً من ثلاثة ضباط مهمتهم التأكيد إن كانت الأحكام الصادرة عن رجال الدين والصدر الأعظم قد تم تنفيذها⁽⁵⁾ من قبل القابى كاخية سى، وعددهم ستون، وحملة البنادق. كان خمسة من أولئك القابى كاخية سى مسلّحين بعصي تسمى الفلقة *falaka* لهذا أصبحوا يعرفون بالفلقجية *Falakacis*، وكان واحد أو اثنان منهم يرافقان الصدر الأعظم والآغا في جولاتهما، ليقوما بضرب الأثمين الذين يحكمان عليهم آتياً. وكان المُحضّر آغا أيضاً مفتش السجن الملحق بمكان إقامة الصدر الأعظم الذي، كما سبق أن رأينا، يضم عدداً من المكاتب الحكومية⁽⁶⁾.

-
- (1) أحمد جواد ص 32، نقلاً عن هامر. وقد صار هذا المكان مقراً لشيخ الإسلام بعد قمع الإنكشارية، ولغاية إلغاء هذا المنصب بإعلان الجمهورية.
 - (2) من كلمة «حرّبه» العربية وهي الرمح القصير.
 - (3) يقدر أحمد جواد عدد الحرّبه جيه بـ 100، ويقول إنهم يأتون من الأورطة السادسة والخمسين. لا يذكر دوشون (ج 7 ص 325) من أي أورطة يأتون ويقدر عددهم بـ 60.
 - (4) من موم *Mum* أي «الشمعة» وتعني هنا «الفتيل».
 - (5) دوشون ج 7 ص 167.

(6) المصدر السابق ص 318، 325. كان عدد المومجية 84 يرأسهم المهتر باشى (أو رئيس حرس الباب - كلمة مهتر *Mehter* من الفارسية مهتار *Mehtār* وتعني «الأعلى» ومن هنا هم الخدم الأعلى). لم يكونوا جميعاً مرتبطين بأورطة المُحضّر آغا، بل كان بعضهم مرتبطاً بأورطة العتاس باشى والكاخية يري. وهناك ضابطان في أورطة المحضر آغا يدعيان تُفَنكجى باشى (رئيس حملة السلاح) ومطره جى باشى (رئيس حملة قراب الماء) يسيران إلى جانبي الصدر الأعظم عندما يخرج في جولاته (دوشون ج 7 ص 172؛ عثمان نوري ج 1 ص 83). ومن أجل خدمة الفلقجية للصدر الأعظم انظر دوشون ج 7 ص 325. ومن أجل خدمتهم للآغا انظر

العساس باشى هو ثاني ضابط تنفذ الأحكام تحت إشرافه، أما الثالث فهو صوباشى إسطنبول⁽¹⁾، وبالرغم من كونه من الإنكشارية⁽²⁾ فلم يكن أحد الضباط الأساسيين في الأوجاق⁽³⁾. كان العساس باشى والصوباشى يعملان معاً، ويعتمدان بشكل كبير على القوانين الشرعية أكثر مما يفعل المحضر آغا⁽⁴⁾ بالرغم من أنه كان يأتزم جزئياً بأوامر الآغا والسكمن باشى⁽⁵⁾. كانا يخرجان في جولات تفتيشية ويوقفان الأشخاص الذين يُشتبه بقيامهم بالمخالفة، وبعد إخضاعهم لحكم الشريعة يقومان بإيقاع العقاب بهم. كان السجن الرئيسي الذي يسمى بابا جعفر *Baba Ca'fer* والواقع قرب رصيف الفاكهة (*Yemiş Iskelesi*)⁽⁶⁾، تحت سيطرتهما المشتركة فيديره الصوباشى ويحرسه العساس باشى⁽⁷⁾ الذي تقع على عاتقه مهمة أخرى هي إبعاد حشود الناس من الشوارع

عثمان نوري ج 1 ص 888؛ أحمد جواد ص 37.

(1) دوتون ج 7 ص 167. لقد سبق وأشرنا إلى الضباط الآخرين المدعويين صوباشى كمشرفين على السباهية الإقطاعيين وكقائمين بمهام رجال الشرطة في المقاطعات الريفية. وفي الواقع نشأ النوعان من فئة واحدة: ففي الأيام المبكرة أطلق اللقب على قادة الجيش التركي (وكلمة *سو* لا تعني مياه - فكلمة *صو* تعني مياه - بل تعني الجيش). واستعملت بهذا المعنى في عهد الغزنويين (انظر على سبيل المثال تاريخ البيهقي في القرن الحادي عشر). وفي عهد الحكم السلجوقي في آسيا الصغرى كلف الصوباشية بالحفاظ على النظام في المدن. وفي الفترة الأولى من الحكم العثماني كان الاسم لا يزال يحمل معنى الأبهة ثم بدأ يضمحل، وخصوصاً بعد فتح القسطنطينية، كما هو حال الألقاب دائماً (انظر عثمان نوري ج 1 ص 903-904). الموسوعة الإسلامية مادة «صوباشى».

(2) انظر عثمان نوري ج 1 ص 900، 902.

(3) انظر قائمة دوتون ج 7 ص 313-320.

(4) عثمان نوري ج 1 ص 884، 902.

(5) المصدر السابق ص 900.

(6) كان بابا جعفر ولي المساجين، وكان هناك زاوية للعبادة يشرف المتولي منها على توزيع الطعام المقدم كصدقة للمساجين (انظر عثمان نوري ج 1 ص 911 من أجل وثيقة 1766-1767 المتعلقة بسوء الإدارة في السجن). وكانت بوابة المدينة عند رصيف الفاكهة تدعى زندان قايى *Zindân Kapısı* (بوابة السجن) بسبب قربها من هذا المبنى. الموسوعة الإسلامية مادة «القسطنطينية».

(7) يقول دوتون ج 7 ص 319 إن السجن تحت إمرة العساس باشى كان في مركز المدينة لكنها معلومة خاطئة.

في المناسبات الرسمية⁽¹⁾ أو عند إيقاع العقوبة بأحد المجرمين على الملأ⁽²⁾.

إن الرقابة الدائمة التي تطبقها الأورطات المستقرة في القولق *Kulluqs* من قبل العتاس باشى والصوباشى ورجالهما، والرقابة العرضية التي يقوم بها الصدر الأعظم وآغا الإنكشارية والسكمن باشى وغيرهم، تُخضع الرغبات الإجرامية لدى السكان إلى فحص دقيق. لكن ذلك لم يكن ليضمن قمع هذه الميول، ولهذا كان الناس يخضعون لرقابة أفراد آخرين من أوجاق الإنكشارية، وهم جواسيس متخفون يدعون الصالمة تبديل جوقدارية⁽³⁾ *Şalma Tebdil Çoğadaris* والبوجك باشية⁽⁴⁾ *Böcek Başis*. كان الأولون يقدمون تقارير يومية للآغا ويهتمون بمنع المراهنات التي قد تحدث اضطرابات عامة، ومنع إهمال الحرفيين لواجباتهم الدينية⁽⁵⁾، كما كانوا يراقبون إن كان رجال الأوجاق يتصرفون بشكل لاأثق بين الملأ، ويحرصون على ألا يحدث الأطفال ضجيجاً في الجوامع أثناء شهر رمضان. أما البوجك باشية فكانوا يتولون مهمة منع السرقات ومعاقبة اللصوص. ومن الملاحظ أنهم كانوا يستخدمون النساء في أعمالهم السرية، ويقال إنهم قد نجحوا نجاحاً باهراً في استعادة الأملاك المسروقة⁽⁶⁾.

(1) عثمان نوري ج 1 ص 902، 954.

(2) دوسون، المصدر السابق.

(3) تعني حرفياً «الخدم المتخفون للخروج في جولات تفتيشية»، وكلمة جوقة (أو جوخة) *çoka* تعني بالتركية القماش الفاخر ودار *dâr* تعني بالفارسية (مالك) وتبديل بالعربية من فعل بَدَّل، وأصبح المعنى بذلك تغيير الملابس أو المظهر، أي التخفي؛ وتستخدم كلمة صالمة *Şalma* بمعنى جاسوس. وكان هؤلاء الرجال يدعون أيضاً صالمة باش جوقدارية *Şalma Baş Çoğadâris* وصالمة تبديل عسكرية *Şalma Tebdil 'Askeris*، ويبلغ عددهم بين العشرين والأربعين.

(4) بوجك تعني بالتركية الحشرة، لأنهم يتسللون كالذبدان داخل الأسرار الإجرامية، ومن هنا صارت بوجك باشى تعني التحري.

(5) كانوا يضربون الرجال الذين يتجاهلون الأذان ويجبرونهم على الذهاب إلى المسجد.

(6) عثمان نوري ج 1 ص 901.

(ج) الخيالة

كان كل من تقسيمات الخيالة الستة، كما سبق وأشرنا، يقوده آغا يُعيّن من بين العاملين في القصر السلطاني. وكان فيها أيضاً ضباط عامون كالكاخية والكاخية يري - اللذين يمثلانها لدى الصدر الأعظم⁽¹⁾ كما يمثل المُحضّر آغا الإنكشارية - وباش چاؤش وباش بولوك باشى وسكرتير أو أكثر⁽²⁾، وبما أن لكل منها رايته الخاصة فهناك على الأغلب عدد من العَلَمَدارية⁽³⁾ *Alemdârs*. وبالرغم من أن كل قسم كان يدعى بالبولوك، فقد كانت هذه الكلمة تطلق أيضاً على فروع تلك التقسيمات التي تتألف كل واحدة منها، في فرق السّباهية والسّلخدارية إن لم يكن في البقية، من عشرين رجلاً يقودهم بولوك باشى⁽⁴⁾. ويدلّ وجود الجاؤش باشى بين الضباط الآخرين على أنّ لكل فرقة چاؤش أو أكثر. ويمكن ملاحظة أنّ أحد المؤرّخين العثمانيين في القرن السابع عشر⁽⁵⁾ ينتقد تنظيم الخيالة النظاميين بأنه مزوّد بعدد قليل من الضباط للحفاظ على النظام بشكل جيّد.

لا شك أن امتلاك كل رجل من التقسيمات العليا لعدة أتباع مسلّحين قد جعل السيطرة عليهم أمراً صعباً، ويبدو أن عدد هؤلاء العبيد لدى كلّ رجل كان يتناسب مع الرّواتب التي تُدفع له⁽⁶⁾. وبهذا نجد أن السّباهية أو غلان أصحاب الرّواتب الأعلى

(1) دوسون ج 7 ص 172. في زمن دوسون كانت البولوكات الأربع قد دُمجت مع السّباهية والسّلخدارية، وبهذا لم يبق في الخدمة سوى كاخية الكتيبتين الأخيرتين. يذكر عثمان نوري ج 1 ص 883 كاخية يري السّباهية من بين الضباط المرتبطين بالصدر الأعظم.

(2) يذكر رامبرتي الكاخية واليازجية أو السّكرتيرية؛ بينما يضيف سيّد مصطفى ج 1 ص 144 الجاؤشية؛ ويذكر دوسون ج 7 ص 364 الكاخية يرية والباش بولوك باشية.

(3) كان للسّباهية والسّلخدارية والعُلوفه جية والغربا على الترتيب رايات حمراء، وصفراء، وحمراء وخضراء، وبيضاء وخضراء. تسنكايزن ج 3 ص 176؛ انظر دوسون ج 7 ص 368 وسيّد مصطفى ج 1 ص 144.

(4) ليبير (رامبرتي) ص 251؛ دوسون ج 7 ص 364، 365.

(5) حاجي خليفة «كاتب چلبى» (سيّد مصطفى، المصدر السابق).

(6) وفقاً لليبير ص 98 نقلاً عن روايات أجنبية في القرن السادس عشر، أما سيّد مصطفى ودوسون

يحتفظون بخمسة أو ستة منهم، ويحتفظ السِّلْخُدارية بأربعة أو خمسة، بينما يحتفظ العُلُوفَه جية باثنين أو ثلاثة فقط. أما العُرباء، الذين كانوا يتقاضون أقلّ الرّواتب، فلم يكن يُسمح لهم أبداً بالاحتفاظ بأحد من هؤلاء⁽¹⁾.

بالرغم من التّفوق العددي والاجتماعي للسّباهية على الإنكشاريّة، فإن قوّادهم الذين يُنتقون من أعلى فئة من وصفاء السّلطان كانوا يوضعون في مرتبة دون مرتبة آغا الإنكشاريّة بحسب الأسبقية. وبالفعل كان عدد من موظفي وضباط القصر السّلطاني يندرجون في مرتبة بينه وبينهم وفق هذا التّرتيب⁽²⁾، إذ كان الإنكشاريّة يتمتّعون بتقدير

فلم يشير إلى وجود هؤلاء العبيد المسلّحين.

(1) المصدر السابق ص 100. لم يتّضح تماماً إن كان السّباهية أنفسهم أو الخزينة هي من يدفع أجور الجنود، وإن كان السّباهية هم الذين يدفعون الأجور كما نظن فلا بدّ أنهم يعتمدون على سكوت السّلطات التركيّة عن هؤلاء العبيد. لكن لبيير Lybyer يذكر نقلاً عن كاتب فينيسي (غارزوني، 1573) أن 40,000 من الخيالة كانوا يتقاضون رواتبهم من الخزينة. يقول سيّد مصطفى ج 1 ص 144 إنه لما ازداد عدد أفراد البولوك في عهد مُراد الثالث إلى 20,000 بلغت رواتبهم السنوية أكثر من 130,000,000 آقچه، وهذا يعادل حوالي 20 آقچه يومياً للشّخص الواحد، وهذا يكفي السّباهية وحدهم دون أتباعهم. صحيح أن سيّد مصطفى يذكر ج 1 ص 145 أن الرّاتب اليومي للسّباهية هو 13 آقچه وللعُلُوفَه جية 11 آقچه وللعُرباء 9 آقجات، لكنه يضيف قائلاً إن هذا المبلغ هو للجدد فقط أما البقية فيتلقون مبالغ إضافية لقاء خدمتهم في الحرب؛ ويقول تسنكارين ج 3 ص 176 إنه في عهد سليم الأول كان السّباهية والسِّلْخُدارية يتلقون من 20 إلى 40 آقچه يومياً والعُلُوفَه جية والعُرباء من 15 إلى 20، بينما يشير رامبرتي (ليبير، ص 250-251) إلى تلقي السّباهية 40 آقچه والسِّلْخُدارية 25 آقچه والعُلُوفَه جية 8 إلى 16 آقچه والعرباء 7 إلى 14 آقچه.

(2) إن ترتيب الأسبقية الموضح في قانون نامِه علي عثمان هو كالتالي:

آغا الإنكشاريّة (بعد السنجق بكية).

مير علّم، قايجي باشي، مير آخور، چاقرجي باشي، چاشنيگير باشي - وكلّهم من الخدمة الخارجية للقصر السّلطاني.

أغوات البولوك.

چاؤش باشي.

قايجي لر كاخية سي.

جَبَه جى باشي.

متميز كفرقة، فعلى سبيل المثال عندما كانت الرّواتب توزّع على القوات النظامية ثلاث مرات في العام، كان ضباطهم هم الوحيدون الذين تُصرف لهم رواتبهم بشكل مفصل، بينما كان أغوات بولوكات الخيالة يتلقون مبلغاً من المال يوزّعونه فيما بعد في قصر الصدر الأعظم⁽¹⁾. مع ذلك فهم يشتركون مع أوجاقات المشاة بمزية أن السّباهية المذنبين تتم معاقبتهم من قبل ضباطهم الخاصين⁽²⁾ بالرّغم من عدم كون هؤلاء يتولّون مهام البوليس كأغا الإنكشارية والطّوبجي باشى والجّبه جي باشى.

بما أن معظم رجال البولوكات الأربعة الأولى، وليس فقط الأغوات الستة، يجتّدون من بين العاملين في القصر السلطاني، فكان من الطّبيعي أن تكون صلاتهم بالسلطان قريبة. وكما رأينا سابقاً كان للسلطان حرّاس خاصون من الخيالة يرافقونه في الحرب، والغريب أنهم يُعدّون من «النبلاء»⁽³⁾. لكن السلطان سليمان العظيم اختار تشكيل فيلق آخر من خيرة رجال البولوكات وعيّنهم، تحت اسم الملازم⁽⁴⁾، كمعاونين شخصيين له. كان عددهم ثلاثمئة رجل وكان يُسمح لهم كمكافأة في نهاية كل حرب يشاركون فيها القيام بمهام «مدنية» تعويضية كإدارة عقارات الأميرات أو أراضي الالتزام أو جمع الجزية من غير المسلمين. كان هؤلاء الخيالة النظاميون يُرقّون ليصبحوا ولاة على أقاليم صغيرة، ممّا يستلزم منهم العناية بالشؤون

طوبجي باشى (O.T.E.M. العدد 13، ص 83).

وفي نص آخر (ص 22) للدّتر أميني والشّهر أميني أسبقية على أغوات البولوك؛ وفي قانون ناميه عبد الرّحمن توقيعي وضع أغوات البولوكات الأربع بعد الجاوش باشى والقايجي لركاخية سي - لكن ذلك لم يرد سوى في بحث يتناول الملابس الرّسمية في الدّيوان (M.T.M. ج 1 ص 526).

(1) انظر أحمد جواد ص 116 وما يليها. دوشون ج 7 ص 222 وما يليها.

(2) انظر M.T.M. ج 1 ص 510 (قانون ناميه عبد الرّحمن توقيعي).

(3) هم حرس المتفرقة المذكورون سابقاً.

(4) أطلقت الكلمة أيضاً في المناصب الدّينية (انظر الفصل الثامن من الكتاب). وبإعادة تنظيم الجيش خلال القرن التاسع عشر أصبحت تطلق على أدنى مرتبتين من الضباط.

المدنية والعسكرية معاً. وربما كان هدف السلطان سليمان من مكافأة الملازمين هو إعدادهم لتلك الترقية. بينما ننظر إلى هذا المنصب كهبة، ينظر إليه السباهية كحق وقد أسهم إصرارهم على الحصول عليه في الاضطرابات التي لحقت بتنظيماتهم والتنظيمات الحكومية فيما بعد⁽¹⁾.



(1) سيّد مصطفى ج 1 ص 145؛ أحمد راسم ج 1 ص 381. وكانت هذه الوظائف المدنية تدعى خدمت (خدمة) *Hidmet*.



الملحق الثاني العاملون في القصر الإمبراطوري

(أ) الخصيان السود

كان المخصي الأسود الذي ينضم أخيراً إلى قسم الحريم يُعرف باسم إين آشاغي آغا *En Aşağı Ağa* أي الآغا الأدنى. وبعد تقديمه للقيزر آغاسي *Kızlar Ağası* يأخذه الأوضه لالاسي *Oda Lalası*، وهو مشرف قسم الأغوات، إلى الضابط الرئيسي لحرس الخصيان الذي يدعى قابي غلامى *Kapı Gûlâmı* ويدوّن اسمه في السجلات بحضوره، ومن ثم يُطلب منه تقبيل يد الضابط المساعد ذي رتبة الحاصللى *Hâşilli* أو الأورطنجه *Ortanca* الذي يُعيّن لالا له، أي مشرفاً عليه. وتصبح وظيفته خدمة خصيان المرتبة الأعلى منه مباشرة الذين يدعون أغوات العجمي (أي الأجنبي)⁽¹⁾، وضباطهم المساعدين، والتوّبت قالقه سية⁽²⁾ *Nevbet Kalfası* (أي الحرس البدلاء)، ويتولّى بدوره قيادة الخصيان المسؤولين عند أبواب قسم الحريم. أما الآغا الأدنى فكان يشرف بنفسه على الحراسة في أوقات الوضوء والصلاة⁽³⁾، ويمضي بقية وقته في تعلم مبادئ وقوانين الأوجاق.

(1) ربما يعود سبب تسمية جنود الإنكشارية الجدد بالعجمي أو غلان لأن أغوات العجمي كانوا، مثلهم، من غير المسلمين.

(2) نوّبت من العربية (نوبة) أي «دور» وتدل على العمل المتكرر. قالقه كلمة تركية محرفة من العربية «خليفة». قلت: وهذا غلط، فالعبارة لا علاقة لها بالعربية، وتعني: وكيل، أستاذ، معلّم الصنعة. (أحمد)

(3) ربما لأن الأقدم منه مجبرون على حضور الصلوات المسبوقة بالوضوء، في مسجدهم.

وما إن ينضم مخصي آخر للخدمة حتى يصبح الآغا الأدنى بشكل تلقائي آغا عجمي تاركاً لقبه السابق للقادم الجديد. لم يُذكر عدد أغوات العجمي المعيّنين آنذاك، لكنهم كانوا يُرقّون في النهاية حسب الأسبقية عندما تكون هناك شواغر، ليصبحوا نوبت قالفه سية. كانت تلك التّرقّيات تُمنح للقيزلر آغا *Kızlar Ağa* والباش قايى غلامى من قبل الضابط المسؤول عن نظام ونظافة الفيلق، ويدعى مساندرجى باشى *Müsândereci Baş*.

هناك خمسة نوبت قالفه سية أربعة منهم، مرتبون حسب الأسبقية، يتناوبون تولي المهام بينما يشرف الخامس، وهو الأهم مرتبة، على البقية في مهاجعهم ويقوم أحياناً بمهمة الحراسة عندما يخرج السلطان والقوادن إلى أحد سرادقات الحديقة⁽¹⁾. يتولى التوبت قالفه سية مهمة الاحتفاظ بمفاتيح أبواب الحريم وهي أربعة، اثنان من الحديد واثنان من البرونز يتوضع أحدها وراء الآخر في الممرّ الوحيد الذي يمكن الدّخول منه إلى قسم الحريم⁽²⁾. ويتسلّم التوبت قالفه سى مفاتيح هذه الأبواب من القيزلر آغاسى في الصّباح الباكر ويعيدها إليه في الليل.

فوق رتبة التوبت قالفه سية، هناك أربعة ضباط مساعدين يُدعون الأورطنجه⁽³⁾ *Ortanca*، وفوقهم مباشرة اثنا عشر آخرون يدعون حاصللى⁽⁴⁾ *Hâsilli* ويشرفون على التوبت قالفه سية. تكون الترقية بالأسبقية أيضاً، لكن يحقّ للأورطنجه والحاصللى رفض استقبال التوبت قالفه سى أو الأورطنجهى الأقدم المؤهل للانضمام إلى صفوفهم. ولدى ترقية المخصي إلى هاتين الدّرجتين يستقبله القيزلر آغاسى، فيقوم بتقبيل طرف ثوبه ثم يذهب إلى مسجد الخصيان لتوزيع الأعطيات.

(1) كانت هذه التّزهات ذات المراسم المعقدة تسمى خلوتى هُمايون *Halveti Hümayûn* (أي الخلوة السلطانية). انظر دوسون ج 7 ص 82.

(2) انظر دوسون ج 7 ص 70.

(3) أي «الوسط» ويعني ذلك بين التوبت قالفه سية والحاصللى.

(4) أي «كامل التدريب». «حاصل» بالعربية يعني التّاج، ومنه «الريح» أي «ما يتبقى بعد عملية التّنقية».

يؤهل الحاصللى الأقدم، لدى وجود الشاغر، ليصبح الضابط الثاني للحراس ويسمى يايلا (يايلاق) باش قايى غلامى *Yayla(k) Baş Kapı Gûlâmı*، بينما يترقى الضابط الثاني ليصبح ضابطاً أول ويسمى يني سراي باش قايى غلامى *Yeni Serây Baş Kapı Gûlâmı*. يعني اللقبان على الترتيب رئيس عبيد الباب الصيفي *Summer Head Slave of the Door* ورئيس عبيد الباب في القصر الجديد⁽¹⁾ *Head Slave of the Door of the New Palace*. يدعى الأول بهذا اللقب لأنه يتسلم القيادة عندما يذهب السلطان في الصيف إلى بشيكتاش *Beşiktaş* أو قصر آخر غير طوب قايى سراي. وكانت وظيفة المدعوين باش قايى غلامى هي الأعلى في الأوجاق التي يمكن للخصيان أن يترقوا ليصلوا إليها بالأسبقية، أما الوظائف الأخرى فتُمنح بالأفضلية، حتى التي تكون أدنى رتبة من هاتين الوظيفتين. وبهذا كانت كل شقة (دائرة *Dâ'ira*) مستقلة من قسم الحريم - كتلك التي تخصّ الوالدة أو القوادن - مزودة بباش آغا⁽²⁾ يُختار عادة من بين الأورطنجه أو الحاصللى، بالإضافة إلى عدد من الخصيان يعملون بأمره ويُختارون من بين العجمي والثوب قالفه سية ويدعون أغوات الحريم *Harem Ağası* لتمييزهم عن المختصين بالحراسة. يستمر كل هؤلاء الخصيان بالترقي حسب الأسبقية بغض النظر عن عملهم الخاص، وتبقى المناصب الأخرى خارج الترتيب الذي ذكرناه لكنها لا تنتظم، كما يبدو، ضمن ترتيب مستقل. وهي على ثلاثة أنواع: المُساندرجية⁽³⁾ *Müsânderecis* ويرأسهم المُساندرجي باشى،

(1) غُلام بالعربية، وتطلق هنا على العبد، وهي معادلة لكلمة أوغلان التركية. يستخدم دوشون كلمة أوغلان بدلاً من غُلام بهذا الخصوص.

(2) يعمل باش آغا الوالدة كمساعد لرئيس حرس الخصيان الباش قايى غلامى.

(3) معنى هذه الكلمة غير واضح، ويقول ردهاوس إن المُساندره *Müsânderere* تحريف للكلمة العربية المصدرة *Maşdara* وهي اللوح المثبت في نهاية الأريكة التركية، لكن ذلك لا يوضع صلتها بالكلمة التي نود معرفة معناها. وإن كلمة مصدرة ليست فصيحة ولم تظهر في قاموس دوزي، أما «المصادرة» فتعني الانتزاع بالقوة - وقد تعني هنا «فرض غرامة» وبمقارنة فكريتي فرض الغرامة وفرض العقوبات تبدو الصلة معقولة وقد يكون المُساندرجي هو تمويله للمصادرة جى.

والمصاحبين *Muṣāhibs* ويرأسهم المصاحب باشى، والخزينة دار آغا *Hazînedâr Ağâ*، ووكيله خزينه وكيلى *Hazîne Vekîli*. تنحصر مهمة المُساندرجية، كما سبق وأشرنا، في مراقبة نظافة الخصيان والتزامهم بالأنظمة وأداء واجباتهم الدينية. كان كل الخصيان لغاية رتبة الحاصللى يعاقبون بالضرب، أما ذوو الرتب الأعلى فيعاقبون بتوجيه الإنذار إليهم، وفي حال الذنب الكبير يُنْفون إلى مصر. وكانت مهمة المصاحب باشى⁽¹⁾ البقاء في انتظار السلطان لدى دخوله إلى قسم الحريم لينقل أوامره إلى القيزلر آغاسى. ويبلغ عدد المصاحبين العاديين ثمانية أو عشرة، ويرافق السلطان ورئيسهم اثنان منهم في كل مرة ويقومون بنقل الأوامر إلى رئيسة الوصيفات. وسبق أن ذكرنا أن مهمة الخازن ووكيله هي الإشراف على الشؤون الاقتصادية في الأوجاق، ويحتل الخازن مرتبة رقيب للأغا، ويأتي قبل المصاحب باشى مباشرة⁽²⁾.

يبدو أنه في القصور الأخرى، وبالأخص السراي القديم، حراس مشابهون من الخصيان يرأسهم باش قايى غلامى، لكن لم يتضح لنا إن كان الخصيان ينتقلون من خدمة إلى أخرى. لقد أصبحوا هم وكل الخصيان العاملين في قصور الأمراء والأميرات تحت سلطة القيزلر آغاسى. لم يكن لكل أميرة باش آغا فقط، كالوالدة والقوادن، بل لديها باش قايى غلامى ومايين جى⁽³⁾ الذي يرأس عشرة أو اثني عشر من خصيان الحريم. وأخيراً، كان لكل أمير في «قفصه» مخصي أسود كأحد معلميه أو المشرفين عليه (ويُدعى لالا *Lala*).

أما العاملون في قصر الآغا فيتألفون من عدد من التوبت قالفه سية، يبقى أحدهم في الخدمة أثناء الليل في حال تم طلب الآغا لأمر طارئ، وعدد من الجواري⁽⁴⁾، وحاشية

(1) المصاحب كلمة عربية تعني المرافق، وتعني هنا «المتنظر في الخدمة».

(2) انظر دوشون ج 7 ص 55، ويدعوه باش مصاحب.

(3) إن مهمة المايين جية هي حمل فانوس أو مصباح أمام الداماد، أي زوج الأميرة، عندما يزور قسم الحريم ليلاً، وحمل الرسائل منه إلى الأميرة عندما يكون في السلامك أو غرفة الاستقبال.

(4) يذكر دوشون ذلك كمزية غريبة لمخصي، ج 7 ص 54.

كاملة من الخدم والحراس بمختلف أنواعهم، وهم ليسوا جميعهم من الخصيان⁽¹⁾. كانوا خاضعين لتوجيهات مشرف غرفته⁽²⁾ الذي بالرغم من عدم علو مرتبته، يتولى شؤون القصر في غياب الآغا. وعندما يُعزل الآغا يُنْفى هو أيضاً إلى مصر ويُستبدل إما بباش قايى غلامى السراي القديم أو بحاكم المدينة، وهو منصب سبق وذكرنا أنه صار يُمنح في الأيام الأخيرة للخصيان السود العاملين في خدمة الحريم⁽³⁾.

(ب) الخدمة الداخلية

1. الخصيان البيض

لغاية قرب انتهاء القرن السادس عشر كان الخصيان البيض مسيطرين على خدمة الدّاخل وخدمة الحريم. وكان لرئيسهم، آغا باب السّعادة أو القايى آغاسى، خمسة ملازمين من الخصيان البيض الرئيسيين، واحد لكل غرفة من الغرف الثلاث العليا، ويدعون:

(1) للخاص أوضه *Hâşş Oda*، خاص أوضه باشى⁽⁴⁾ *Hâşş Oda Başı*

(2) للخزينة *Hazîne*، الخزينة دار باشى *Hazînedâr Başı*

(1) يذكر عطا ما يلي:

كوركجو باشى *Kürükçü Başı* (المسؤول عن معاطف الفراء)؛

قوشجى باشى *Kuşçu Başı* (رئيس الطّباخين)؛ كك

قهوجى باشى *Kahveci Başı* (رئيس صانعي القهوة)؛

باش چوقدار *Baş Çokadâr* (رئيس الخدم)؛

حقبجى *Heğbeci* وزلفلى بالطّح جى *Zülfülü Baltacı* وقزبكجى *Kıbekci*.

والأصناف الثلاثة الأخيرة ليست من الخصيان بالتأكيد.

(2) أوضه لالاسى *Oda Lalası*.

(3) عطا ج 1 ص 257 وما يليها.

(4) في الأيام الأولى كان الخاص أوضه باشى وصيفاً وليس من الخصيان ح انظر لبيير ص 127،

وقانون نامه الفاتح (*O.T.E.M.* العدد 13، الملحق 14). ولكن يمكن ملاحظة أن الخاص

أوضه باشى مصتّف في رتبة بين المخصّيين من أغوات الباب والخزينة دار باشى وكأنه واحد

منهم.

(3) للكيلار *Kilâr*، كيلارجى باشى⁽¹⁾ *Kilârcı Başı*؛

وواحد لكل من الغرفتين (اللتين تسميان الغرفة الكبرى *Büyük Oda* والغرفة الصغرى *Küçük Oda*)⁽²⁾، حيث يتابع الوصفاء تعليمهم الذي بدأوه في غلطة سراي أو في مكان آخر قبل أن يتم قبولهم للعمل في الخدمة المناسبة، وهم:

(4) آغا السراي *Serây Ağası* (آغا القصر) المسؤول عن أمن المبنى ويقود حرساً من أربعين تابعاً من الخصيان؛

(5) كاخية سى السراي *Serây Kâhyası* (مشرف القصر)⁽³⁾، الذي لم تذكر مهماته.

وأدنى من هذه الرتب هناك

(6) خمسة من الكوشه باشية *Köşe Başısı* (وتعني حرفياً رؤساء الزاوية) وتتلخص مهمتهم بمراقبة سلوك مرؤوسيههم وتحملهم لواجباتهم⁽⁴⁾

(7) عدد غير محدد من الباش إسكية *Baş Eskis* (أي رؤساء الأقدم رتبة)، وتدعى أعلى رتبة بينهم أوضه كاخية سى (أي مشرف الغرفة)؛ و(8) اثنان من أوزنگى آغاسى *Üzengi Ağası* (أغوات الركاب - مع عدم الخلط بينهم وبين ضباط الخدمة الخارجية الذين يحملون اللقب ذاته)، يدعى أحدهما «اليمين» والآخر «اليسار» - ربما لأنهما يسيران إلى جانبي السلطان حين يخرج في موكبه⁽⁵⁾.

كان الخصيان البيض المساعدون الذين يرأسون مجموعة أغوات الإيچ يدعون

(1) الكيلارجى هو من يعتني بالكيلار - أي غرفة حفظ المؤن.

(2) أشار عطا إلى الغرفة الصغرى فقط، أما دوشون (ج 7 ص 47) ومحرر قانون نامه محمد الثاني (*O.T.E.M.* ج 13 ملحق 15، حاشية) فقد أشارا كلاهما إلى الغرفتين الكبرى والصغرى.

(3) وفقاً لعطا ج 1 ص 164. ولم يذكر دوشون ج 7 ص 56 وما يليها السراي كاخية سى.

(4) لم يذكر أن تلك هي مهمة الكوشه باشية بل الخاص أوضه لية الذين يحملون اللقب ذاته.

(5) عطا، المصدر السابق.

الصفرة إسكي سية *Sofra Eskisis* (أي الأقدم على المائدة)⁽¹⁾.

حدث أول فقدان للسلطة من الخصيان البيض إلى الخصيان السود في عهد السلطان مُراد الثالث عندما، في عام 1582، مُنح منصب آغا دار السعادة لمخصي أسود، وهو في العادة من نصيب الخزينه دار باشى أو آغا السراي، ثم أعيد بعد عشر سنوات إلى آغا السراي، لكنه مُنح للسود أخيراً في عهد السلطان محمد الثالث عام 1595 عندما انتزعت سلطة الحريم وتفتيش بعض الأوقاف الإمبراطورية من يد القايى آغاسى للأبد. لا شك أن هذا التغيير نتج أيضاً عن ضعف سلطة الخصيان البيض على البوصفاء، لكن إدارة الخدمة الداخلية لم تؤخذ من بين أيديهم وتُسلم للوصفاء أنفسهم إلا بعد قرن من الزمان⁽²⁾. ومنذ ذلك الحين أصبحت مهام الخاص أوضه باشى محصورة في إلباس الشخصيات المهمة كالصدر الأعظم وشيخ الإسلام وبعض موظفي القصر أثواب الشرف: ويقال إنه أصبح رئيس مراسم الخدمة الداخلية (إندرون تشريفاتجى *Enderûn Teşrifâtçı*)؛ بينما انحصرت مهام الخزينه دار باشى والكيلار باشى في الإشراف على تزويد أمكنة السكن بالمؤن. واستمرت مهمة آغا السراي كقائد للقصر في غياب السلطان والضباط المرافقين له⁽³⁾؛ وبقيت العناية بغلطة سراي من نصيب أحد الخصيان البيض. لكن الخصيان البيض كانوا حينها قد فقدوا كل مراكزهم البارزة السابقة، ويذكر دوسون أنه في ذلك الزمان لم يعد هناك سوى ثمانين منهم، مقابل مئتين من الخصيان السود⁽⁴⁾.

2. الغرف السفلية

يعود أغلب معلوماتنا المتعلقة بتنظيم الخدمة الداخلية إلى القرن الثامن عشر حين لم تعد بأيدي الخصيان البيض. وإن نزع السلطة منهم قد ترافق دون شك ببعض

(1) عطا ج 1 ص 160.

(2) بتخطيط من چورلولى علي پاشا.

(3) وفقاً لدوسون ج 7 ص 57.

(4) المصدر السابق؛ عطا ج 1 ص 164-165.

الإصلاحات، ولكن يبدو أن معظم المناصب في الغرف الثلاث العليا قد أحدثت أثناء عهد السلاطين محمد الثاني وبايزيد الثاني وسليم الأول⁽¹⁾، وبالرغم من أن غرفة السّفَرلي *Seferli Oda* لم تنشأ إلا لاحقاً في عهد السلطان أحمد الأول لتحل محل «الغرفة الصّغرى»⁽²⁾ (*Küçük Oda*) التي كانت مدرسة عامة لتدريب الوصفاء أكثر من كونها قسماً نظامياً للخدمة، فكانت قد بُنيت قديماً قبل زمن إعادة التنظيم.

كانت الغرف السفلى الثلاث، الخزينه والكيلار والسّفَرلي⁽³⁾، منظمة بطريقة متشابهة في شكلها النهائي، وبهذا كان رجال معيّنون في كل قوغوش *Koğuş* يدعون بِچاقلى *Bıçaklı* لأنهم يتمنطقون بخناجر (*Bıçak*) مطلية بالذهب أو الفضة؛ بينما يُعرف من هم أقل منهم رتبة بالصُويناق⁽⁴⁾ *Şoyunakş*، لأنه كان يُسمح لهم بارتداء ملابس التّوم عند انتهاء واجباتهم. يبدو أنّ هناك حوالي أحد عشر بِچاقلى وتسعة صويناق لكننا لم نعرف عددهم الكلي⁽⁵⁾. هناك أيضاً في كل قوغوش اثنا عشر قالفه *Kalfas* (خليفة *Halifes*) يتلقون إعطيات سنوية تتجاوز الرّاتب المعتاد للوصفاء، وكانت مهمّتهم مساعدة الخوجات *Hocas* (المدرّسين)⁽⁶⁾ في تعليم المبتدئين. أخيراً، باستثناء الكاخية، كان لكل قسم عدد كبير من الموظفين ومعاونيهم ينقسمون إلى فئتين تبعاً لنوع ترقيةهم.

أما الكاخية أنفسهم فكانوا أفراداً سابقين في الخاص أوضه في مرتبة أدنى مباشرة من الوصيف الأول، السّلخدار آغا، الذي كانوا يعملون تحت إمرته، وكان كل واحد

(1) انظر عطا ج 1 ص 30، 72، 73، 94، 98.

(2) سبق أن ذكرنا أن عطا يتجاهل وجود الغرفة الكبرى. ويذكر دوتون ج 7 ص 48 أن الغرفتين ألغيتا في عهد محمد الرابع، بينما يذكر عطا ج 1 ص 154 تحويل الغرفة الصّغرى إلى غرفة السّفَرلي في عهد أحمد الأول (1606) أو (1607).

(3) هكذا يسمّيها عطا في مواضع مختلفة من كتابه. ولدى دوتون ج 7 ص 44 هي (سفر أوضه سي) وترجم إلى العربية بغرفة السّفَر أو الحرب.

(4) من التركية صوينمق *soyunmak* أي «يخلع ثيابه».

(5) وفقاً لعطا ج 1 ص 138.

(6) عطا ج 1 ص 75. وكان هؤلاء على الأرجح من اللالا الكبار.

منهم يُعيّن في الغرفة التي بدأ خدمته فيها. وبهذا لم يكن لدى كاخية الكيلار والسّفرلي أمل كبير في التّرقّي إلى خدمة السّراي، أما كاخية الخزينة فكان يترقى عادة لينال منصب السّلّحدار⁽¹⁾.

كان الموظفون الأدنى رتبة في كل غرفة، والذين يُرَقّون لأسبقيتهم، يدعون بِچاقلى إسكي *Bıçaklı Eski* ويُعيّنون من بين البچاقلى المذكورين أعلاه. كانوا اثني عشر في كل غرفة⁽²⁾، وكان أعلى اثنين في الخزينة والسّفرلي وأعلى خمسة أو ستة في الكيلار ينالون ألقاباً خاصّة⁽³⁾، بينما يعمل البچاقلى إسكي الذين لا يحملون ألقاباً في كل غرفة كموظفين معاونين⁽⁴⁾. يعيّن الموظفون الباقون حسب الكفاءة والمهارة - وكان عددهم يختلف بحسب القسم الذي يعملون فيه. وفي الوقت ذاته كان في كل قسم عشرة موظفين ذوي ألقاب مطابقة، أولهم بِچاقلى إسكي بينما يعيّن البقية حسب الأفضلية.

هؤلاء العشرة الأوائل هم:

(1) گوّج إسكي سى⁽⁵⁾ *Göç Eskisi* (أي الأقدم للانتقال أو السّفر) - ويدعى كذلك لأنه كان يحلّ محل كاخية غرفته عندما ينتقل السّلطان إلى مكان سكن آخر؛

(2) الباش قُوللقجى *Baş Kullukçu* (رئيس الخدم)؛

(3) التّوبّجى باشى *Nevbetçi Baş* (رئيس الحراس)؛

(4) و(5) قُوللقجى *Kullukçus* أو خُدام (2) و(3)؛

(1) دوشون ج 7 ص 44.

(2) عطا ج 1 ص 96؛ دوشون ج 7 ص 45.

(3) انظر عطا ج 1 ص 165-166. يقول إنه كان هناك ستة يحملون لقب بِچاقلى إسكي في الكيلار، لكنه لا يبيّن سوى خمسة منهم. ولا ندرى في أي موضع أخطأ.

(4) وفقاً لدوشون، المصدر السابق.

(5) گوّج تعني الانتقال أو الهجرة - من الفارسية كوّج *Koç*. والغوّج إسكي سى في كل قسم هم من البچاقلى إسكي سى.

(6) پارس كاخية سى *Pâris Kâhyası* (المشرف على غرفة المرضى)⁽¹⁾؛

(7) إمام الكاخية *Kâhya's Imâm* (الإمام للصلاة)؛

(8) قُوللجى الكاخية *Kâhya's Kullukçu*؛

(9) كيلارجى الكاخية *Kâhya's Kılarcı* (السّاقى)؛

(10) قفتانجى الكاخية *Kâhya's Hoftâncı* (رئيس غرفة الملابس)⁽²⁾.

أما الموظفون الخاصون في كل غرفة فهم:

(أ) في غرفة الخزينة

(1) الكيّم باشى *Giyim Başı* (رئيس اللباس)⁽³⁾ - وهو نائب الكاخية؛

(2) الباش يازجى *Baş Yazıcı* (رئيس الكاتبين)، ويدعى أيضاً الباش أفندي؛

(3) ثلاثة كاتبين أدنى رتبة يدعون اليازجى الأول، الثانى، والثالث؛

(4) ثلاثة يازجية مساعدون.

إن مهمة هؤلاء الكاتبين السبعة هي الاحتفاظ بسجلات الأشياء الموجودة في الخزينة، وتدوين ما أخذ منها وما أضيف إليها.

(5) حافظ الكتب *Kütüb Hâfizi*، وهو مسؤول أمام الكاخية عن الحفاظ على النظام في مكتبات القصر.

(6) الچانطه جى⁽⁴⁾ *Çanṭacı*، وهو مسؤول مع قفتانجى الكاخية عن تفتيش

(1) ربما تكون كلمة پارس (التي لا توجد عند ردهاوس) تحريفاً عن كلمة «مريض» العربية.

(2) كلمة قفتان *Hoftân* (خفتان) هي على الأصح قفطان *Kaftân* أي «المعطف».

(3) أو الكوگوم باشى *Gügüm Başı*، مع أن اللفظ غريب، (انظر دوسون ج 7 ص 41)، عطا ج 1 ص 165 ويفضل كلمة كييم لأنها تعني اللباس بينما تعني كلمة گوگوم «إناء». وكان الكييم باشى من الچاقلى إسكى.

(4) چانطه كلمة تركية بمعنى حقيبة أو كيس نقود.

خزانة الأموال الخاصة (خارجي خاصه دولابي *Harci Hâşşe Dolâbı*) والاحتفاظ بالسجلات المتعلقة بها. وكانوا، مع الكاتبين وباش قُوللقجى الخزينة، مسؤولين أمام الكاخية عن الخزينة نفسها تفريقاً لهم عن موظف الغرفة. وللباش قُوللقجى مهمة أخرى هي تسجيل وتدقيق الستائر والسجاد والأشياء الأخرى التي تزود بها الأقسام المختلفة للخدمة الداخلية من قبل ورشة الخياطين (التي تنتمي للخدمة الخارجية).

كانت الخزينة قد أنشئت أساساً لحفظ الأشياء الثمينة التي يحصل عليها السلاطين بعد فتح القسطنطينية أولاً ثم سوريا ومصر. لكنها تضم أيضاً مجوهرات وفراء السلطان وصورة لكل سلطان بدءاً بمحمد الثاني ومن تلاه⁽¹⁾، بل وإنها تحوي الأشياء التي يستعملها أغوات الخدمة ونزلاء قسم الحريم يومياً⁽²⁾. ويتم تدقيق محتوياتها بأكملها كلما تغير الكاخية بعملية تستغرق عدة أشهر. كان الكاخية، خلال فترة خدمته، مجبراً على تزويد السلطان بكشوف شهرية عن الواردات والصادرات التي يحصيها الكاتبان الأولان، مع اتخاذ احتياطات دقيقة ضد السرقة. وبينما كان الكاخية يحتفظ بختم السلطان سليم الأول الذي تُختم به الأبواب، فقد كان رئيس الكتاب يحتفظ بالمفاتيح بحيث لا يمكن فتح الخزينة إلا بوجودهما معاً. وعندما تُفتح لإدخال شيء جديد أو أخذ شيء قديم أو للتنظيف الدوري لمحتوياتها، كانت كل تلك العمليات تتم تحت إشراف موظفي القسم الرئيسيين⁽³⁾.

وبالإضافة إلى موظفي الخزينة المذكورين أعلاه، يورد دوسون ستة آخرين لم يأتِ عطا على ذكرهم، وهم:

-
- (1) دوسون ج 7 ص 39؛ عطا ج 1 ص 57.
 - (2) كانت الأشياء التي يحتاجها قسم الحريم تطلب بواسطة القيزلر آغاسى، وتطلب مواد الكتابة من قبل السركاتبى، أما الأسلحة فيطلبها التُفَنكجى باشى - عطا ج 1 ص 199-200. ويمكن رؤية كل تلك الأشياء الآن في متحف السراي.
 - (3) عطا ج 1 ص 172-173؛ دوسون ج 7 ص 39-41.

(1) آغا الآختار *Anahtar Ağası* (أي آغا المفتاح)⁽¹⁾ - وهو رجل الشرطة الخاص بالغرفة؛

(2) السّرغو تچجی *Serğuççu* (المسؤول عن حلي رأس السلطان)؛

(3) القپانیچہ جی *Kapanıçacı* (المسؤول عن أثواب السلطان المبطنة بالفرو والمخصّصة للاحتفالات)؛

(4) الطّبق إسکي سى *Tabak Eskisi* (المسؤول عن الأطباق) - أي أدوات الطّعام الخزفية؛

(5) اثنان من التّفنکجیة *Tüfengcis* (المسؤولان عن البنادق) - ويحملان بنادق السلطان عندما يخرج للصيد⁽²⁾.

(ب) في الكيلار (مكان حفظ المون)

(1) الشّکیر باشی *Peşkir Başı*. الشّکیر كلمة فارسية (پیش - گیر *Pîş-gîr*) وتعني «المنديل» وبهذا يكون الشّکیر باشی هو رئيس (أو المشرف على) المائدة، ومهمته مراقبة الطّعام والشّراب المحضّرين للسلطان والاحتفاظ بالأواني التي تستخدم لذلك، وهو مسؤول أيضاً عن تعليم وانضباط أغوات القسم الذي يعمل فيه. أما نائبه الذي يحلّ محله في التّزهات الصّيفية فهو گوچ إسکي سى الكيلار الذي يدعى أيضاً موم باشی *Mum Başı* أو رئيس الشموع.

(2) التّپسجی إسکي سى *Tepsici Eskisi* (رئيس حملة الصّواني) ومهمته تقديم الطّبق الفضي والملاعق الفضية للسلطان، كما يقدّم للأغوات حلوى الفضوله *Fodüle* المصنوعة بالدقيق الأبيض، وهو مسؤول أيضاً عن المطبخ الذي يسمى خرجي فرن *Harcı Fırın*، وهو جزء من الخدمة الخارجية⁽³⁾.

(1) يذكر عطا وجود آختار غلامی ينتمي إلى الكيلار، بينما لا يذكره دوتون.

(2) دوتون ج 7 ص 42-43.

(3) عطا ج 1 ص 166.

(3) الموم شاغردى *Mum Şagirdi* (أي تلميذ الشموع)، ومهمته الاعتناء بشموع غرفة عبادة النبي (*Hırkaî Se'âdet Odası*).

(4) الآختار غلامى *Anahtar Gûlâmı* (أي وصيف المفتاح)، ومهمته حراسة المهجع ليلاً مع عدد من الخفراء.

(5) الشربتجى (صانع الشراب)، وكان يرافق السلطان كلما غادر القصر، بصفة رسمية أو غير رسمية، ومعه الطعام والشراب وأدوات الأكل والغسيل التي قد يحتاجونها، محملة على زوج من البغال.

(6) اليمشجى *Yemişçi* (مقدم الفاكهة).

(7) الطورشى جى *Turşucu* (مقدم المخلل).

(8) الصو قُوللقجى *Şu Kullukçu* (أي خادم الماء)، وكان يعمل بإمرة الموم باشى فيجعل بوستانجى السقا أوجاغى *Sakkâ Ocağı* يأتي بالماء العذب على البغال من جامليجَه *Çamlıca* إلى القصر⁽¹⁾.

أما باقي الموظفين فهم أولاً، خدم البشكير باشى والتبسيجى إسكى سى والموم شاغردى، ثانياً، شربتجى الأمراء (أبناء السلاطين الحاكمين والمتوفين)، وأخيراً، كيلارجى السلخدار آغا رئيس الوصفاء⁽²⁾.

وبهذا كانت مهمة إعداد طعام السلطان موزعة بين عدد من الأغوات بقيادة كيلار كاخية سى. في الأيام الأولى، قبل تأسيس المناصب المذكورة، كان الباش قُوللقجى يتولى شؤون الكيلار بإشراف المخصي الأبيض كيلارى باشى، وفيما بعد لم يعد الباش كيلارجى مسؤولاً سوى عن عدد قليل من الأطباق. هناك موظف مهم آخر هو نوبتجى باشى الكيلار الذي يتولى أمر الأطباق الذهبية والفضية والأدوات الخزفية

(1) كل الأغوات المذكورين إلى الآن هم من الجاقلى إسكى، وبهذا لا يتبقى سوى ستة آخرين.

عطا ج 1 ص 166.

(2) عطا ج 1 ص 167.

التي يوضع فيها طعام السلطان - وكانت سجلات هذه القطع محفوظة بتوجيهات من الكاخية والبشكير باشي والتوبتجي نفسه؛ وهو أيضاً مسؤول عن المخزن الطبي حيث يحتفظ بالأدوية والأدوات الضرورية للفصد والحجامة التي يستخدمها الأغوات. ولقد أدى غياب الخصيان البيض إلى تولي الموظفين المذكورين أعلاه، وبالأخص التوبتجي باشي، معظم المهمات التي كان الكيلارجي باشي يقوم بها⁽¹⁾.

(ج) في السِّفَرلي (أي غرفة الحرب)

(1) الجامه شوي باشي *Câmeşûy Başı* (رئيس الكوائين)⁽²⁾.

(2) المَهْتَر باشي *Mehter Başı* (رئيس أعضاء الفرقة الموسيقية).

(3) الحمامجي باشي *Hammâmcı Başı* (رئيس المسؤولين عن الحمامات).

(4) الصَّاريقجي يماغية (يماقية) *Şarıkçı Yamağıs* (مساعدو المسؤول عن لف العمام).

يكمن سبب تنوع المهمات التي يقوم بها أفراد غرفة السِّفَرلي إلى الظرف الذي أنشئت فيه كبديل عن الغرفة الصَّغرى *Küçük Oda* التي سبق وذكرنا أنها كانت مدرسة عامة لتدريب الأغوات. إن الأنواع الأربعة الرئيسية من الخدمات التي يقوم بها أفرادها هي: قرع الطبول (*Tablzenlik*) ولف العمام وحلاقة الرأس وتنظيف ملابس السلطان⁽³⁾. ولدى تأسيسها كان وصفاءها يقومون بغسل ثياب السلطان أثناء الحرب، ومن هنا أتى اسمها (سفرلي) ولقب الموظف الرئيسي فيها (رئيس الكوائين). وفي أوقات السلم كان الوصفاء يقومون بتنظيف أنواع متعددة من المناشف والمناديل فقط؛ وبما أن العمام المصنوعة من الموسلين (صاريق *Şarık*) التي يستخدمها

(1) عطا ج 1 ص 174-175.

(2) من جامه *Câme* الفارسية وتعني «الزَّداء»، وشويْدَن *Şüyüdân* وتعني «يغسل». ويذكر عطا هذا الموظف من بين البجاقلى إسكي.

(3) عطا ج 1 ص 154.

السلطان - وكذلك مناشفه التي يغسلها باش قُوللجى القسم⁽¹⁾ - مختلفة عن قماش المناديل، فقد تولّى مهمّة لفها وفق التّمتّ المحدّد، بعد غسلها، خمسة عشر منهم (وهي حتى هذه اللحظة تؤدّي من قبل أغوات الخزينة). هؤلاء الوصفاء الخمسة عشر هم مساعدو رئيس لُقافي العمائم وهو فرد من أفراد الغرفة الخاصّة *Hâşş Oda* ويُختار من بينهم⁽²⁾. هناك عشرون وصيفاً وعشرة مساعدين يتولّون مهمّة حلاقة رؤوس العاملين في الخدمة، وهي الآن مهمّة أغوات الخزينة والكيلار الذين أظهروا موهبتهم في هذا الفن. كانوا يعملون تحت إمرة رئيس الحمامات الذي يعمل بدوره تحت إمرة رئيس الحلاقين بَزَبَر باشى *Berber başı*، وهو فرد آخر من الغرفة الخاصّة يقوم بالحلاقة للسلطان نفسه. كان الأغوات يحلقون مرة شهرياً في الحمام الكبير الذي بناه السلطان سليم الثاني بجانب الخزينة. وكان الحمام يُسخن للمناسبة بإشراف الحمامجى باشى بواسطة عبيد السفن المبعوثين من الأدميرالية⁽³⁾. أما مهمّة قرع الطّبول - التي تطورت إلى عزف موسيقي بشكل عام - فهي من نصيب المَهْتَر باشى وفرقته⁽⁴⁾. يبدو أن العازفين كانوا يُتّقون من بين الأغوات المدعوين بچاوشية القسم. ستسمح لنا الفرصة للكلام عن چاوشية البلاط الذي حديثنا عن الخدمة الخارجية والإدارة المركزية. يبدو من رواية عطا أنه حتى العاملين في الخدمة الداخليّة كانوا يُستخدمون كسُعاة في البداية، ولكن فيما بعد، وبالرغم من بقائهم كزُسل داخل القصر⁽⁵⁾، فقد دُرّب معظمهم ليصبحوا إما موسيقيين أو مؤدّنين (إن كان صوتهم جميلاً) أو للهِتاف أثناء المناسبات الرّسمية. يقال إن الآخرين قد عملوا كمُشرفين ومدرّبين لتلاميذ هذه الفنون⁽⁶⁾. ومع أن أفراد الفرقة الموسيقية ينتمون إلى غرفة السّفرلي، فإن دوسون يدرج الچاوشية

(1) عطا، المصدر السابق؛ دوسون ج 7 ص 44.

(2) عطا ج 1 ص 194-195.

(3) عطا ج 1 ص 198.

(4) عطا ج 1 ص 154.

(5) يقول دوسون ج 7 ص 46 إن اثنين من كل غرفة كان دائماً في خدمة السّلخدار آغا لينقلا أوامره إلى الوصفاء التّابعين له.

(6) عطا ج 1 ص 170.

الموسيقيين من بين أغوات الخزينة والكيلار⁽¹⁾. كان چاوشية الخدمة الداخلية يرأسهم باش چاوش الذي يُعدّ أحد مساعدي وصفاء الغرفة الخاصة⁽²⁾.

3. الغرفة الخاصة

كما هو الحال في الغرف السفلية، ينقسم العاملون في الغرفة الخاصة إلى فئتين بحسب حصولهم على التعيين - سواء بالأسبقية أو بالأفضلية والكفاءة. وكانت الوظائف التي لا تتطلب مهارة أو تدريباً تُمنح بالترقية الاعتيادية حسب الأسبقية من منصب البچاقلى إسكي للغرف السفلية؛ كما يُعدّ ذوو المناصب العليا في الغرفة الخاصة بچاقلى إسكي فيها⁽³⁾. أما وظائف الفئة الأخرى - التي تتطلب مهارة أو تدريباً في فن من الفنون (مثال صنع القهوة أو أعمال السكرتاريا) - فهي من نصيب أغوات الغرف السفلية ما عدا البچاقلى إسكي. بعض هذه التّرقيات ثابت - كوظيفة الصّاريقجي باشى *Şarıkçı Başı* الذي يُختار دائماً من بين الصّاريقجي يماغية *Şarıkçı Yamağıs* في غرفة السّفّرلي - وبعضها متغير - كمنصب الغرفة الخاصة الذي يُمنح لأيّ آغا يُعتقد بأنه مناسب له. تُعرف الوظائف التي تتطلب مهارة معيّنة في القرن الثامن عشر باسم المايين جي *Mâ-beynci* ويُعد أصحابها الخدم الشخصيين للسلطان ويؤدون مهامهم في المايين أو الأقسام المتوسطة من القصر - أي بين الحرّيم من جهة والبلاط الثالث (مجال الخدمة الداخلية ككل) من جهة ثانية. يبدو أنه قبل إعادة التنظيم الذي تلا اضمحلال نفوذ الخصيان البيض، أصبح كل وصفاء الغرفة الخاصة، إن لم يكن الوصفاء جميعهم، من المايين جية. وبعد أن أصبحت مرتبة البچاقلى إسكي أعلى من رتبة المايين جية⁽⁴⁾ قُسمت وظائف الغرفة فعلياً إلى ثلاث درجات: أعلاها منصب

(1) دوسون ج 7 ص 46.

(2) عطا ج 1 ص 168.

(3) وفقاً لعطا ج 1 ص 188، 192. أما دوسون فلا يشير إلى وجود بچاقلى إسكي في الغرفة الخاصة.

(4) انظر عطا ج 1 ص 190-201.

البِجَاقلى إسكي أو كبار الأغوات؛ ويليها منصب المايين جية؛ ثم منصب صغار الأغوات الذين لم يحملوا لقباً متميزاً.

أسس السلطان الفاتح الغرفة الخاصة، وقد ذكرت ألقاب الموظفين الأربعة الرئيسيين فيها⁽¹⁾، ويبدو أن السلطان سليم الأول قد حدّد عدد أفرادها بأربعين رجلاً عندما شكّل الوصفاء الذين أصبحوا حراساً لعباءة النبي⁽²⁾. يذكر دوسون أن العدد لا يزال أربعين في زمانه وأن هذا الرّم الميمون يشمل السلطان نفسه - وبهذا يكون عدد الوصفاء تسعة وثلاثين فقط⁽³⁾. أما عطا فيذكر أن عدد الوصفاء كان أربعين بدون السلطان (ولا يذكر انتماءه إليهم أبداً) وباستثناء السّلحدار آغا أيضاً الذي يُعدّ عادة الوصيف الرئيسي⁽⁴⁾. وبغضّ النظر عن عددهم، فالروايات تختلف في بعض النّقاط أهمها التناقض في عدد الأغوات الموجودين في كل درجة من الدّرجات الثلاث.

وسواءً كان السّلحدار من ضمن الأربعين⁽⁵⁾ أم لا، فإنّ رتبته البارزة ترفعه إلى فئة كبار الأغوات، تماماً كما يتميّز الكواخي في الغرف السفلية عن معاونيهم. ويمكن القول إنّ السّلحدار والكواخي قد شكّلوا فئة خاصّة بهم وكان كاخية الخزينة، كما سبق ولاحظنا، يُعيّن خلفاً للسّلحدار عندما يصبح المنصب شاغراً. ولهذا نفرد السّلحدار في قسم خاص به.

(أ) السّلحدار آغا (حامل السيّف).

تنحصر مهام السّلحدار الأساسية في حمل سيف السلطان متديلاً من كتفه الأيسر (باستثناء المراسم العامة حيث كان يعلقه في كتفه الأيمن)؛ والحفاظ عليه وعلى كل

(1) انظر O.T.E.M. العدد 14، الملحق 23.

(2) عطا ج 1 ص 30، 94.

(3) دوسون ج 7 ص 34.

(4) انظر عطا ج 1 ص 188، 192، حيث الوصيف الأعلى رتبة هو الجوّقدار آغا.

(5) أو التسعة والثلاثين.

دروع وأسلحة السلطان بحالة جيّدة⁽¹⁾. وبعد ترقّيته إلى المرتبة الأولى في الخدمة أُلقيت على عاتقه مهام أخرى، فقد أصبح متواجداً بشكل دائم منذ الخروج المبكر للسلطان لأداء صلاة الفجر حتى عودته في وقت متأخر من المساء. وكان يقدّم كل تقارير (تلخيص *Telhîs*) الوزراء وغيرهم؛ كما كان يحمل كل أوامر السلطان (إرادة *Irâde*) إلى الضباط والموظفين المعنيين. ثم أصبح مشرفاً على سير المراسم التي يشارك فيها السلطان؛ واشترك مع كاخية الخزينة في تولي أمور خزانة المال الخاصة التي سبق ذكرها؛ بالإضافة إلى أنه صار مسؤولاً عن السلوك الحسن لكل الوصفاء - وتقع نيابة عنه مهمة الحفاظ على الانضباط في الغرف السفلية الثلاث على عاتق الكاخية؛ وكان يستقبل المبتدئين في الخدمة وينظم رواتب الأغوات عند تقاعدهم؛ ويقود فرق الزُلفى بالطّه جية *Zülüflü Baltacıs* في الخدمة الخارجية. وتنعكس أهميته من خلال العدد الكبير لحاشيته التي تتألف من خمسة لالات *Lalas*، وقفنانجي *Hofîâbeci*، وكيلارجي *Kilârcı*، وتوتونجي⁽²⁾ *Tütüncü*، وتسعة جوقدارية *Çokadârs* الذين كانوا يعملون في مجال الصقور أيضاً، وثلاثة زُلفى بالطّه جية *Zülüflü Baltacıs*، وستة صوفلية *Şofalıs*، واثنين من اليدكجية *Yedekçis*، واثنين من الحَقَبَجية *Heğbecis*، وسقا *Şakkâ*، وخمسة آشجية *Aşçıs*. وعندما كان السَلَحْدَار يُصرف من الخدمة، إلا إذا تقاعد، تُعهد إليه غالباً حكومة مصر أو حكومة إقليمية مهمة أخرى⁽³⁾.

(ب) كبار الأغوات، أو يچاقلی إسكية الغرفة الخاصة.

(1) و(2) الجوقدار آغا *Çokadâr Ağa* والركابدار آغا *Rikâbdâr Ağa*، وبعد إعادة التنظيم أصبحت وظيفتا هذين الأغوين شاغرة تقريباً. عندما كان چورلولی علي

(1) دوسون ج 7 ص 34-35.

(2) تتن *tütün* تعني «التبغ».

(3) عطا ج 1 ص 209-212؛ دوسون ج 7 ص 34-35؛ *O.T.E.M.* العدد 14 الملحق 23،

الحواشي.

باشا سَلْخُداراً أصر عليهما بالقيام بمهام المايين جية؛ ولكن بحلول القرن السابع عشر كان الأسلوب السابق الذي يترقى وفقه الوصفاء بسرعة من الخدمة الداخلية إلى وظيفة حكومية قد تلاشى وغدت الترقية من الخدمة أبطأ بكثير من السابق ولم يعد بمقدور الأغوات الحصول على مناصب عليا بسهولة قبل أن يبلغوا الستين من العمر أو أكثر؛ وفي هذه السن تكون مهمة المايين جى مجهدة لهم؛ وبهذا كانوا يعفون من الخدمة ويقتصر عملهم على الظهور كمعاونين للسَلْخُدار في المناسبات العامة. وقد اعتادوا أيضاً عند مرافقة السَلْخُدار والمخصي الأبيض خاص أوضه باشى على خدمة السلطان أثناء سفره بحراً.

قبل إعادة التنظيم كانت مهمة السَلْخُدار مرافقة السلطان حيثما يذهب سواء في نزاهاته المنفردة في أراضي القصر أو في أي مكان آخر، فيمسك بركابه لدى ركوبه وترجله. وأصبح الجُوقَدار يسير لاحقاً عن يمين السلطان في الموكب حاملاً دثار المطر الخاص (خاص ياغمورلُك *Hâşş Yağmurluk*)، ولدى توجه السلطان إلى المسجد يقوم بنثر قبضات من النقود الفضية المسكوكة حديثاً بين العامة⁽¹⁾. يحتمل أنه كان سابقاً المشرف المباشر للمايين جى ويدعى باسم يثير الالتباس هو باش جُوقَدار *Baş Çoğadâr* (أي رئيس الخدم) والذي كانت مهمته تتعلق بملابس السلطان. في البداية كان الرُكَّابدار أقدم الاثنين رتبة⁽²⁾، ولكن في القرن الثامن عشر لم يكن الجُوقَدار يحل محل السَلْخُدار في غيابه فحسب بل أصبح يخلفه في وظيفته، وبشكل مماثل كان السَلْخُدار حينها نائباً للجُوقَدار ووريثاً لمنصبه. من بين كل الأغوات لم تُمنح مزية لبس العمامة سوى لهذين الاثنين والسَلْخُدار، أما من هم أدنى منهم رتبة فيلبسون قلنسوات مطرزة⁽³⁾.

(1) انظر: *O.T.E.M.* العدد 14 الملحق 23-24، الحواشي.

(2) انظر *O.T.E.M.* العدد 14 الملحق 14.

(3) عطا ج 1 ص 208-209؛ دوسون 7 ص 35؛ *O.T.E.M.* العدد 14 الملحق 23-24،

الحواشي.

(3) الدُولْبَنْد آغاسى *Dülbend Ağası* (آغا العمامة)⁽¹⁾. يختلف عطا ودوسون في شرحهما للقب هذا الوصيف، فيذكر دوسون أنه ووصيف آخر من الغرفة الخاصة يتبعان السلطان في المواكب الرسمية ويحملان العمامات الإمبراطورية ينحنيان بها على حشود الناس ليقوموا بأداء التحية⁽²⁾. أما عطا فيذكر أن الدُولْبَنْد آغاسى هو نائب السلطان في خدمة وتفتيش غرفة عباءة النبي (*Hırkaı Se'âdet Odası*)، وبعد قيام الناس بتقبيل الرداء المقدس يقوم بمسحه بقماش عمامة مطرزة. تبعاً لهذه الرواية لم يكن مسؤولاً فقط عن تنظيف هذه الغرفة وإضاءتها بالشموع (بمساعدة موم شاغردى الكيلار)، بل يقوم بتنظيم تلاوة الخاص أوضه لية للقرآن بشكل مستمر والتي كانت إحدى مهامهم الرئيسية. كانوا يستمرّون في أداء مهمتهم أربعاً وعشرين ساعة، اثنان منهم في وقت واحد⁽³⁾، وكان الدُولْبَنْد آغاسى يخبر السلّخدار بأيّ قصور في أدائهم⁽⁴⁾.

(4) الآنختار آغاسى (آغا المفتاح)⁽⁵⁾. بعد إعادة التنظيم حلّ هذا الموظف محلّ المخصي خاص أوضه باشى كمشرف على الغرفة العليا⁽⁶⁾، وكانت وظيفته مطابقة لوظيفة الكاخية في الغرف السفلية. أما مهمته الرئيسية فهي التأكد من أداء الخاص أوضه لية الجيد وتوزيع الخدمات فيما بينهم ومراقبة خروجهم لصلاة الفجر واستلام طلبات إجازاتهم المرضية والإشراف على تنظيف مكان اجتماعهم الذي يسمى يشيل ديرك *Yeşil Direk* (أي العمود الأخضر)⁽⁷⁾. ويذكر دوسون أنه كان يعمل أيضاً كمشرف على الغرفة وعلى خدمة مائدة السلطان⁽⁸⁾.

(1) دُولْبَنْد مأخوذة من الفارسية دُولْبَنْد *Dolbānd* وربما تكون كلمة *turban* أو *turband* مشتقة منها - الموسوعة الإسلامية مادة «*Turban*». وهي معادلة للكلمة التركية صاريق *Sarıq*.

(2) دوسون ج 7 ص 35.

(3) دوسون ج 7 ص 38.

(4) عطا ج 1 ص 207-208.

(5) آنختار (ويكتبها عطا أنخدار) كلمة يونانية.

(6) عطا ج 1 ص 164.

(7) عطا ج 1 ص 206.

(8) دوسون ج 7.

(5) الباش بشكير آغاسى *Baş Peşkir Ağası* (الآغا المشرف على المنديل). بعد إعادة التنظيم لم يعد صاحب هذه الوظيفة يؤدي المهمة التي يوحي بها اللقب - أي تقديم منديل للسلطان يمسح به يديه بعد غسلهما - ولكنه أصبح الآن نائباً للانتخاب آغاسى عندما يغادر السلطان قصره إلى قصر صيفي آخر، إذ لم يكن الانتخاب آغاسى ولا الكواخي الثلاثة في الغرف السفلية يخرجون مع السلطان. وبهذا كان الباش بشكير آغاسى يتولى شؤون الخاص أوضه لية الذين يرافقون السلطان ويستلم التقارير من الكوچ إسكي سية الذين ينوبون عن الكاخية وعن الخصيان البيض - السراي كاخية سي⁽¹⁾ والكيلارجى باشى - اللذين ينوبان أيضاً عن القاهى آغاسى. وفي تلك المناسبات كان الباش بشكير آغاسى، كالانتخاب آغاسى، مسؤولاً بالطبع أمام السلخدار آغا⁽²⁾.

(6) البينيش بشكير آغاسى *Biniş Peşkir Ağası* (وتعني حرفياً آغا المنديل الرّكّاب)، وهو مرافق الباش بشكير آغاسى. أما كلمة بينيش فتعني ظهور السلطان خارج السراي ممتطياً فرسه. وقد يكون البينيش بشكير آغاسى مسؤولاً عن الخاص أوضه لية ذوي الرتبة الأدنى من رتبته الذين يشاركون في تلك المواقب.

(7) الإبريق دار آغاسى *Ibrîkdâr Ağası* (آغا الإبريق). لم يذكر عطا هذا الوصيف، لكن دوستون يقول إن مهمته هي صبّ الماء فوق يدي السلطان عندما يرغب بغسلهما⁽³⁾.

(8) و(9) اثنان من الكوشه باشى *Köşe Başıs* (وتعني حرفياً رئيس الزاوية)، ويدعوهما عطا كوشة بشكير آغاسى *Köşe Peşkir Ağası* (وتعني حرفياً آغا الزاوية للمنديل). ويدعوهما دوستون برجلي الشرطة الخاصين بالغرفة، بينما يقارنهما عطا

(1) ذكره عطا باسم السراي آغاسى؛ ولكن سبق وقلنا إن السراي آغاسى، وفقاً لدوستون ج 7 ص 57، كان يتسلم أمور القصر في غياب السلطان.

(2) عطا ج 1 ص 206؛ دوستون ج 7 ص 36.

(3) دوستون ج 7 ص 36. هذه العبارة مشكوك بصحتها، لأن هذه المهمة تشير إلى أن صاحبها مابين جى، لكن الإبريق دار آغاسى لم يشمل دوستون مع المابين جية.

بالينيش بشكير آغاسى ويحدّد مهمتهما بمرافقة السلطان حيثما يذهب، وعندما يجلس تحت المظلات المقامة في زوايا تلك الأمكنة كانا يراقبان انتظام الخاص أوضه ليه في صف واحد، والتصرف اللائق لمن ينتظرون أداء دورهم في الخدمة⁽¹⁾.

(ج) المايين جيه.

(1) الباش جوقدار *Baş Çoğadâr* (رئيس الخدم). وتكون صلة خدمه من المايين جيه بالسلطان أقرب من صلة كبار الأغوات، وهم بهذا يتمتعون باحترام مماثل. أما رئيسهم الباش جوقدار فقد كان، على الأقل في القرن الثامن عشر، موظفاً يكاد يعادل السلخدار أهمية ويعمل مساعداً له في شؤون المايين جيه. أما مهماته فهي متنوعة، أولها أنه مسؤول عن أربعين جوقداراً يقسمون إلى فئتين⁽²⁾، وأفراد من الغرف السفلية الثلاث التي يعين أقدمهم برتبة إيكنجي جوقدار *İkinci Çoğadâr* (أي الجوقدار الثاني)، والتالي في الرتبة وهو الجيزمه جي *Cizmeci* (حامل الجزمة)، لأنه كان يحمل

(1) يوجد بعض الاضطراب لدى عطا في ذكر لهؤلاء الموظفين، ففي أحد المقاطع (1 ص 205) يقول إن هناك ثلاثة تابعين للباش بشكير آغاسى يدعون أغوات بينيش وكوشه بشكير ثم يصف نظام ترفيتهم فيقول إنه كان من رتبة البينيش بشكير آغاسى إلى رتبة الكوج (التي لم تُذكر قبل ذلك) ومنها إلى الباش بشكير آغا - مشيراً على الأرجح أن الموظفين الأربعة المعنيين يدعون بحسب أهميتهم:

باش بشكير آغاسى،

كوج بشكير آغاسى،

بينيش بشكير آغاسى،

كوشه بشكير آغاسى.

وفي مقطع آخر (ج 1 ص 192) يشير إلى الباش بشكير آغاسى وثلاثة أغوات كوشه بشكير قائلاً إن هؤلاء الموظفين الثمانية مع من هم أعلى رتبة، أي الجوقدار آغا والركاب دار آغا والدولبتند آغاسى والآنخار آغاسى هم البجاقلى إسكي الاثنا عشر في الغرفة الخاصة. وأخيراً، في مقطع ثالث (ج 1 ص 192-193) يقول إن الخاص أوضه ليه الثمانية ثلاثة منهم يدعون بشكير آغاسى وخمسة كوشه باشى بينما يدعى الآخرون بجاقلى إسكي. ولهذا فضلنا اتباع معلومات دوسون.

(2) يلبس العشرون الأولون ملايس فخمة على نفقة الخزينة؛ أما الآخرون، ويعدون من الملازمين (أي المرشحين لنيل هذا المنصب)، فينفقون على حسابهم.

جزمة السلطان في حقيبة عندما يخرج ركباً، بينما يحمل الجوقدار الثاني الخفين⁽¹⁾. ويقود الباش جوقدار أيضاً عدداً من الأوجاقات أو فرقاً من الخدمة الخارجية، ويعمل كمفتش للخزينة المتعلقة بالإصطبلات الإمبراطورية. لقد مُنح ومساعدوه مزية استقبال الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وخانات القرم عندما يأتون إلى السراي ليتقلدوا مناصبهم. وعندما يخرج السلطان أمام الناس كان الباش جوقدار ومساعدوه يجمعون المظالم المقدمة في الطريق. يشرف الجوقدار الثاني على الجوقدارية المساعدين، بينما يشرف الجزमे جى على الطواقم التسعة المؤلف كل منها من اثني عشر رجلاً يقومون بالتجذيف في زوارق القصر المسماة بالصندل⁽²⁾ *Sandal*.

(2) كاتب السر *Sirr Kâtibi*. بالرغم من أن هذا الوصيف يلي الباش جوقدار، رتبة فقد حظي باحترام كبير أكثر من أي فرد من المايين جية، وذلك بفضل اطلاعه على أسرار الدولة؛ ويضعه دوسون بالفعل في رتبة أعلى من رتبة الباش جوقدار، وكان أحد يازجية الخزينة يرقى لينال هذا المنصب. كانت مهمة كاتب السر فض اختام التقارير المقدمة من السلخدار وتسليمها للسلطان. وعندما يقرأ السلطان أحدها ويرغب بالرد عليه يقوم كاتب السر بختمه وإرساله مع رسول من الخدمة الخارجية، كما يقوم بالاحتفاظ بالأوراق التي لم يتم البت بها فوراً، ثم يعرضها لاحقاً، عند الضرورة، على السلطان ليعيد النظر في أمرها. ويجعل فيما بعد مساعده يقدم تلخيصاً للمظالم التي جمعها الجوقدارية في الطريق لدى ظهور السلطان أمام العامة، ثم يسلمه للسلطان مع الأصل. كانت هذه المهمة من نصيب القايي آغاسي قبل الإصلاح ومن عمل السلخدار في أيام حكم چورلولي علي پاشا. وكان كاتب السر يتبع السلطان في مواكبه حاملاً أدوات الكتابة في حقيبة مطرزة بالذهب وواضعاً في حزامه حافظة أقلام ذهبية كشارة على منصبه.

(1) يقول دوسون أن الباش جوقدار هو من يحمل الخفين.

(2) كان يشرف عليهم كنانب عن الباش جوقدار - عطا ج 1 ص 201-204؛ دوسون ج 367-

(3) الصّاريقجي باشى *Şarıkçı Başı* (رئيس المسؤولين عن لف العمامم). كما سبق أن قلنا، يرقى هذا الموظف من بين خمسة عشر صاريقجي يماغية *Şarıkçı Yamağıs* العاملين تحت إمرته في غرفة السّفرلي، وكانوا يحتفظون بعمائم مختلفة الأشكال، ليلبسها السّلطان على سبيل التّخفّي، على حوامل مطلية بالذهب في غرفة تدعى صاريق أوضه سى *Şarık Odası* تطلّ على المصبّ الجنوبي للبوسفور⁽¹⁾. ولدى لبس العمامة مرّة واحدة يتم فكّها وإصلاحها وتسلم القلنسوة (قاووق *Kavuk*) التي تلف العمامة فوقها إلى آغا آخر يدعى القاووقجي باشى *Kavukçu Başı*. وعند الحاجة إلى شراء قماش جديد، كان الصّاريقجي باشى يُعلم الباش قُوللقجي وقتنانجي الخزينة لتدوّن المشتريات في سجلاتها⁽²⁾.

(4) القهوجى باشى *Kahveci Başı* (رئيس صانعي القهوة). إن مهمّة الآغا هي تحضير القهوة وتقديمها أولاً للسّلطان بعد صلاة الفجر وبعد وجبتي الغداء والعشاء، وثانياً للشّخصيات المهمّة مثل شيخ الإسلام وخان القرم والوزراء وقضاة العسكر الذين يجتمعون عندما يخرج السّلطان من القصر. يذكر عطا أنه لم يكن دائماً في الأيام الأولى يُمنح رتبة المايين جى، وبالرّغم من أنه حصل عليها لاحقاً فقد توقف فعلياً عن القيام بهمات المايين جى، ولا يقَدّم القهوة بنفسه إلا عند ظهور السّلطان أمام العامة في المناسبات الرّسمية. وكان القهوجى باشى مسؤولاً عن كل الأواني والأدوات المستخدمة في صنع القهوة والتي تُسجل في الخزينة، وإذا ما انكسر شيء منها يستبدله على نفقته الخاصّة⁽³⁾.

(5) المؤدّن باشى *Mü'ezzin Başı* (رئيس المؤذنين للصّلاة). سوف نشرح مهمات المؤدّن لدى حديثنا عن مهنة رجال الدّين، وكيفينا هنا ملاحظة أنّ المؤدّن باشى يعمل في أيّ مسجد إمبراطوري يختاره السّلطان لصلاة الجمعة، وكان يرأس

(1) هذا في الأيام اللاحقة، أما قبل ذلك فكانت العمامم تحفظ في جناح خاص يدعى روان أوضه سى *Revân Odası* (عطا).

(2) عطا ج 1 ص 194-195؛ دوسون ج 7 ص 37.

(3) عطا ج 1 ص 196-197؛ دوسون، المصدر السابق.

فريقاً من صغار المؤذنين يختارهم لأصواتهم الجميلة من بين چاوشية الغرف السفلية. أما نائبه فيدعى الباش مؤذن *Baş Mü'ezzin* أو السّري محفل *Seri Mahfil* (رئيس المقصورة - أي المكان الذي يصلي فيه السلطان). ومهمة السّري محفل هي تدريب الجاوشية المرشحين لوظيفة المؤذن ويزكي أصحاب الموهبة أمام المؤذن باشي ليقوم بتعيينهم لدى وجود شاغر. من مهامه أيضاً تنظيم جدول عمل صغار المؤذنين، وبعد أن يصبحوا مؤذنين يُقبل الأغوات المختارون للانضمام إلى رجال الدين ويخرجون بهذا عن كونهم من القاهي قول لر. وكان من ينال رتبة المؤذن باشي يرقى ليصبح إمام السلطان (وهو منصب ديني في الخدمة الخارجية) وقد يرقى أيضاً لينال منصباً جليلاً هو قاضي عسكر⁽¹⁾.

(6) التّفنكجي باشي *Tüfengci Baş* (رئيس المسؤولين عن البنادق)⁽²⁾. ويساعد هذا الآغا عشرون آخرون من التّفنكجية يؤتى بهم من الغرف السفلية الثلاث، حيث كان يعمل هو شخصياً. كانت بندق الصيد السلطانية، التي تقتضي مهمتهم الاعتناء بها، تُحفظ في خزانة عند مدخل غرفة عباءة النبي. وفي حملات الصيد الشهيرة للسلطان كان التّفنكجي باشي يأمر ثلاثة من الخدم يدعون آوادان بوستانجية⁽³⁾ *Avadan Bostancis* بأخذ البنادق إلى حيث يقوم هو ومساعدوه، الذين يحملون أهداف الرمي، بإعدادها وضبطها. كانت الطرائد المصادة تقدّم إليه، ثم يقوم التّفنكجية بالاعتناء بكل الأسلحة النارية في الخدمة الداخلية وصبّ العبوات الضرورية في داخلها. وكانوا يزوّدون بالبارود المستخدم من قبل السّلخدار آغا⁽⁴⁾.

(7) البربر باشي *Berber Baş* (رئيس الحلاقين). يعيّن هذا الآغا للغرفة الخاصة من بين حلاقي غرفة السّفرلي التي تحدثنا عنها، ومهمته الحلاقة للسلطان شخصياً.

(1) عطا ج 1 ص 169؛ دوستون ج 7 ص 36. يضع دوستون المؤذن باشي في أعلى القائمة قبل السّركاتبي والباش جوقدار.

(2) يدعوه دوستون «حامل البندقية» *Porte-Arquebuse*.

(3) أو إيشلكجية *İşlikçis*.

(4) عطا ج 1 ص 195-196.

وكان الشعر المخلوق يحفظ بعناية في علبة ويرسل سنوياً مع الصّرة *Şurra* (أي كيس المال الذي يحوي الهدية السنوية لأشراف الحجاز) إلى المدينة حيث يُدفن باحترام. يذكر عطا أن البرّباشى كان رتبة ثابتة في المايين جية⁽¹⁾.

(8) الطّرناقجى باشى *Tırnakçı Başı* (المختصّ بالأظافر)⁽²⁾، وكان يقلّم أظافر السّلطان أيام الخميس⁽³⁾، لكن دوسّون لم يذكر هذا الوصيف.

(9) الباش لالا *Baş Lala* (رئيس المعلمين).

يحتفظ هذا الموظف بصندوق من الأدوية الخاصّة - وهي عقاقير أندر ممّا يحتفظ به التّوبتجى باشى من قسم الكيلار. يعمل تحت إمرته قُوللقجى وخمسة مشرفين آخرين أتى بهم من أوجاقات مختلفة في الخدمة الخارجيّة أحدهم، الزُّلفلى بالطّه جى، يقوم مع القُوللقجى بصنع وصفات من هذه العقاقير تحت إشراف صيدلي يعمل بأمر من الحكيم باشى *Hekîm Başı* (رئيس الأطباء - وهو منصب في الخدمة الخارجيّة). وعندما تصبح الأدوية جاهزة يقوم رئيس الأطباء مع الباش لالا بختمها. كما كان الباش لالا يحضر بين يدي السّلطان لدى تناوله وجباته. ويبدو أن وظيفته، بما أنه يتقاضى راتباً من الدرجة الثّانية، يمكن أن تضم إلى وظيفة القهوجى باشى⁽⁴⁾، وقد يكون هذا هو السّبب الذي دفع دوسّون إلى تجاهله. وهو يشير إلى الباش لالا كمعلمين للأمرء ذاكراً أنّهم كانوا من الخاصّ أوضه لية⁽⁵⁾؛ ولكن من المحتمل أن يكون الوصفاء أصحاب هذه الوظائف قد جُلبوا من الغرفة الخاصّة، ولهذا هم مكملون للتسعة والثلاثين أو الأربعين فرداً الأساسيين فيها.

(1) عطا ج 1 ص 198.

(2) طيرنق *Tırnak* تعني «ظفر».

(3) عطا ج 1 ص 198.

(4) عطا ج 1 ص 193-194.

(5) دوسّون ج 7 ص 97.

أما المابين جية الثلاثة الباقيون، الذين يذكر دوسون أن عددهم اثنا عشر⁽¹⁾، فلم يكونوا يحملون أية ألقاب. وبما أن دوسون يحذف الطرناقجي والباش لالا من قائمته فيبقى الخمسة الآخرون دونما ألقاب. ولا يشير عطا إلى مابين جية آخرين غير أولئك المذكورين سابقاً. والآن يمكننا الانتقال للحديث عن صغار الأغوات.

(د) صغار الأغوات.

يذكر دوسون أن عددهم سبعة عشر، لكنه لسوء الحظ لا يزودنا بمعلومات أخرى عنهم؛ وما يمكن استخلاصه من رواية عطا ليس قليلاً فحسب بل مضطرباً للغاية. ففي أحد المقاطع⁽²⁾ يذكر أن مجموعة الأربعين مؤلفة من خمسة أغوات (ملغياً مساعدي الباش بشكير آغاسي)، وثمانية مابين جية (ملغياً الطرناقجي)، وسبعة وعشرين بچاقلی إسكي؛ وفي مقطع آخر⁽³⁾ يقول إن الخاص أوضه لية الأدنى رتبة من البچاقلی إسكي الاثني عشر يتألفون من ثمانية بچاقلية عاديين وعشرين گديكليية *Gediklis* ومن بينهم خمسة عشر ملازماً؛ وفي مقطع ثالث⁽⁴⁾ يذكر أن الأربعين، وفقاً لبعض الروايات، مقسمون إلى عشرين ذوي رتب عليا وعشرين ذوي رتب أدنى. وهو في المقطعين الآخرين لا يشير إلى المابين جية، وبهذا يتركنا حائرين بشأن الطريقة التي دخلوا بها في سلك البچاقلية. ويبدو أن وصفاء البچاقلی، وخصوصاً أولئك الذين ترقوا بالأسبقية فقط، كانوا يتمتعون بزيادات تلقائية في أجورهم حسب رتبتهم وليس المنصب الذي يشغلونه؛ بينما يتلقى المابين جية أجوراً معيّنة⁽⁵⁾. ومن الممكن إذن أن ينطبق نظام البچاقلی على الأغوات من غير المابين جية، والذين يقسمون إلى فئتين دعوناهما

(1) دوسون ج 7 ص 38.

(2) عطا ج 1 ص 191.

(3) المصدر السابق ص 192.

(4) المصدر السابق.

(5) انظر قائمتي عطا المتضاربتين عن الأشخاص المؤهلين لهذين النوعين من الترقية، ج 1 ص

بالأعلى والأدنى (أي بالنسبة للمايين جية). وبدمج الروايتين معاً وبافتراض أن هناك اثنا عشر آغا أعلى، حسب قول عطا، واثنا عشر مايين جياً، حسب قول دوستون، يبقى لدينا خمسة عشر أو ستة عشر آغا أدنى منهم ثمانية من البِجاقلية العاديين.

وكما سبق أن ذكرنا، يشير عطا إلى خمسة عشر ملازماً مضافين إلى الأربعين كديكلي. وفي الواقع لقد أشار إليهم مرتين على الأقل⁽⁶⁾، ومن المحتمل أنه من بين هؤلاء الملازمين، أو حتى من بين الأغوات الأدنى أنفسهم، قد يكون هناك مساعدون من الوصفاء المهمين كالخوَقدار الثاني والجزمه جى والباش چاؤش والسَّري مَحفل ويماقية كاتب السَّر والتَّفَنكجى باشى وصقاري السِّلحدار والأغوات الأساسيين الآخرين. يشير عطا بالتأكيد إلى هؤلاء الموظفين وغيرهم كإمام الغرفة الخاصة وكأنهم غير مرتبطين بالغرف السفلية⁽⁷⁾، لكنه للأسف لم يوضح أكثر من ذلك.

(ج) الخدمة الخارجية

1. أغوات الرِّكاب

في قانون نامه السلطان الفاتح⁽⁸⁾ أدرج هؤلاء الأشخاص كأغوات الرِّكاب:

1. ينيچري آغاسى *Yeniçeri Ağası*.

2. مير عَلم *Mir 'Alem*.

3. قايچى باشى *Kapıcı Başı*.

4-5. مير - آخور *Mir-Ahor* (الاثنتان الأخيران).

6. چاقرجى باشى *Çakırcı Başı*.

7. چاشنيگير باشى *Çaşnî-gîr Başı*.

(6) في موضع آخر ج 1 ص 190.

(7) انظر رأس كل قائمة 1 ص 168-169.

(8) انظر: *O.T.E.M.* العدد 13 الملحق 11-12.

13-8. ست أغوات من بولوكات الخيالة.

14. چاؤش باشى *Çavuş Başı*.

15. قاييجى لر كاخية سى *Kapıcılar Kâhyası*.

16. جبّه جى باشى *Cebeci Başı*.

17. طوپجى باشى *Topçu Başı*.

أما الأغوات غير العسكريين منهم فهم (1) المير عَلم، (2) القاييجى باشى، (3) مير- آخور الأكبر، (4) مير- آخور الأصغر، (5) الچاقرجى باشى، (6) الچاشنيگير باشى، (7) الچاؤش باشى، (8) القاييجى لر كاخية سى؛ والأربعة الذين فقدوا رتبة الآغا بحلول القرن الثامن عشر هم: القاييجى باشى والچاقرجى باشى والچاشنيگير باشى والچاؤش باشى.

لقد حدث التّغيير بالتأكيد بعد عام 1677، بما أن كل أولئك الموظفين يظهرون كأغوات الرّكاب في قانون ذلك العام - ومن الممكن أن يكون التّغيير قد تمّ في عهد السّultan أحمد الثالث (1703-1730) مع باقي التّغييرات الحاصلة. وفقاً لهذا القانون ذاته كان لبعض هؤلاء الأغوات شرف مساعدة السّultan في ركوب فرسه، فيمسك رئيس الخيل الأكبر بالرّكاب القريب، بينما يمسك رئيس القاييجى باشية (وكان هناك الكثير منهم كما سنرى) بالرّكاب البعيد ويمسك حامل العَلم باللجام، ويقوم الچاشنيگير باشى بإسناد مرفق السّultan، بينما يمسك رئيس الخيل الأصغر (ويدعى آخور قالّه سى *Ahor Kalfası*) برأس الحصان⁽¹⁾.

نقترح هنا الاستفاضة في وصف أغوات الرّكاب والرّجال الذين يعملون تحت قيادتهم. وبما أننا لم نتناول بالبحث الأغوات الذين فقدوا لقبهم بحلول القرن الثامن عشر، فسنبداً حديثنا بهم.

(1) انظر: *M.T.M.* ج 1 ص 526.

2. أغوات الرّكاب السابقون

(1) القاييجى باشى.

كان هناك في الأصل قاييجى باشى (أو رئيس حرس الباب) واحد، ولكن بعد فترة قصيرة تضاعف العدد؛ وبمرور الزمن أصبح هناك أربعة ثم عشرة، وأخيراً، في زمان دوسون، صار هناك ما لا يقلّ عن مئة وخمسين منهم. وبهذا صاروا يشكلون فرقة لها قائد يدعى الباش قاييجى باشى أو رئيس رؤساء حرس الباب. وفي الوقت نفسه أصبحوا مستقلين عن المير عَلم؛ وبسبب أهمية المنصب لم يكن يقبل في الفرقة سوى الأشخاص البارزين كأبناء البكوات والباشوات والوجهاء. وكون المهمة الأصلية للقاييجى باشى هي حراسة الباب تنعكس من خلال مراقبة واحد منهم⁽¹⁾ من أورطة القايى للباب الكبير المفضي إلى الباحة الثانية للسراي. أما القاييجى باشية اللاحقون فقد وظفوا كحجاب في غرف استقبال القصر، وكذلك كمبعوثين في المهمات السرية إلى الأقاليم. وكان اثنا عشر منهم يرافقون السلطان لدى خروجه إلى المسد لأداء صلاة الجمعة⁽²⁾.

(2) الجاقرجى باشى.

تعني كلمة جاقر «الصّقر» وبهذا كان الجاقرجى باشى رئيس الصّقارين، وكان في عهد الفاتح مسؤولاً عن كل صقور القصر. أما في القرن السادس عشر، عندما أصبح الصّيد بالصقور شائعاً في البلاط، فقد نشأت ثلاثة مناصب أخرى لا تقلّ أهمية هي الشاهينجى باشى *Şahinci Baş* والطوغانجى باشى *Doğancı Baş* والآتْمَجَه جى باشى - والشاهين والطوغان والآتْمَجَه هي أنواع من الصقور؛ ولم يفقد الجاقرجى باشى أهميته فحسب بل نزل إلى المرتبة الثانية وأصبح يلي الشاهينجى باشى. وفي عهد السلطان سليم الثاني، أو بعده، لم يعد السلاطين يحبذون هذه الرياضة؛ بينما عدّ أتباعهم قتل الطرائد أمراً مكروهاً يستوجب دفع الصدقة تكفيراً عن القسوة، كما قالوا

(1) وفقاً لدوسون، أما عطا فيذكر أن اثنين منهم كانا يخرجان معاً للمراقبة الليلية.

(2) دوسون ج 7 ص 14، 18-19؛ O.T.E.M. العدد 13 الملحق 11، حاشية.

إن أكل الطرائد غير جائز لاحتمال تلوثها بمواد غير طاهرة⁽¹⁾. وبالرغم من استمرار وجود المناصب الأربعة، وبالرغم من استمرار كل واحد من الوصفاء الرئيسيين بالاحتفاظ بصقار في جناحه⁽²⁾، فقد أصبحت هذه الوظائف بحلول القرن الثامن عشر شاغرة تماماً وأصبحت تلي في رتبها رتبة رجال الشرطة، في الفئة الثالثة من الخدمة الخارجية. أما الطوغانجي باشى فكان مسؤولاً عن العسكر البلغاريين، ويدعون بالطوغانجي أيضاً، المكلفين بتربية صقور السراي⁽³⁾.

(3) الجاشنيغير باشى.

وتعني بالفارسية «الذواق». وكان الجاشنيغير باشى في أيام الفاتح، كأغا ركاب، ذا أهمية كبرى، لكنه في زمن دوشون لم يكن سوى موظف من الدرجة الخامسة في الخدمة الخارجية، ويعمل كمعاون لمسؤول المطبخ ومخصي ووصيف غرفة حفظ المؤن. مع ذلك، كان يعمل تحت إمرته حوالي خمسين ذواقاً أصغر مهمتهم إحضار أطباق الطعام بإشرافه ليأكل منها الصدر الأعظم والوزراء في أيام جلسات الديوان. فضلاً عن ذلك، كان مسؤولاً عن قسم من المطبخ السلطاني الذي يُسمى خلوا خانه *Halvâ-Hâne* أو قسم إعداد الحلوى بالمشاركة مع موظفين آخرين يدعيان حلواجى باشى *Halvâcı Başı* (رئيس صانعي الحلوى)، وخوشاب باشى *Hoş-Âb Başı* (رئيس صانعي الشراب). وكان أفراد هذا القسم يوزعون مرة في العام، في ليلة تعرف بأوث گيجه سى *Ot Gecesi* (أي ليلة النار)، أنواعاً خاصة من الحلوى منكهة بالتنوع والتوابل الأخرى لكل سكان السراي، ويكافأون بمشاهدة عرض للبهلوانات والمشعوذين بإشراف رئيس البوستانجية. قد يقومون أحياناً بخدمة أغوات القصر؛ وبما أنهم كانوا على صلة مباشرة مع الشخصيات البارزة فقد كان من الشائع لأفراد منهم الارتقاء في خدمة القصر بسرعة غير اعتيادية. وكمثال على هذه الترقيات السريعة

(1) دوشون ج 4 ص 25-26.

(2) عطا 1 ص 168، وهؤلاء من الشاهينجية وليسوا من القوشجى.

(3) دوشون ج 7 ص 20؛ O.T.E.M. العدد 13 الملحق 12، حاشية.

نذكر الصّدر الأعظم كوبرلي محمد الذي بدأ عمله كواحد من صانعي الحلوى.

لا يذكر دوسون رئيس صانعي الشراب لكنه يقول إنه كان لرئيس صانعي الحلوى، الذي كان موظفاً في الدرجة الخامسة، حوالي مئة وخمسين مساعداً⁽¹⁾. ووفقاً لقانون نامه عبد الرحمن التوقيعي، كان الذواقون يعملون كرسل توكل إليهم، كما للمتفرقة، مهام ثانوية⁽²⁾.

(4) الجاوش باشى (والجاوشية).

تعني كلمة جاوش «المنادي أو الرسول»⁽³⁾، ويعزى استخدام السلاطين العثمانيين للجاوشية إلى رغبتهم في تقليد العادات البيزنطية، لكن ذلك التفسير خاطئ إذ هناك موظفون يحملون التسمية ذاتها في حكومات إسلامية مختلفة قبل قيام الدولة العثمانية. أوكل إلى الجاوشية العثمانيين الأوائل مهمة الحجاب والسعاة والحراس. ولقد اعتاد السلاطين على حضور مجالس عامة كل يوم تقريباً، من جهة لمناقشة أمور الدولة، ومن جهة أخرى لاستقبال الضيوف المتميزين، ومن جهة ثالثة لإقامة العدل والاستماع إلى المظالم. كان الجاوشية ورئيسهم الجاوش باشى يحضرون هذه المجالس لينظموا أمكنة الضيوف والضباط والموظفين وأصحاب الدعاوى، ولينقلوا أوامر السلطان إلى من هي موجهة إليهم سواء في العاصمة أو في الأقاليم. وعندما يغادر السلطان قصره كان الجاوشية يترأسون موكبه كجزء من الحرس الخاص، ويرافقونه عند خروجه للحرب⁽⁴⁾.

(1) انظر: O.T.E.M. العدد 13 الملحق 12، حاشية؛ عطا ج 1 ص 297-298؛ دوسون ج 7 ص 23-22.

(2) انظر: M.T.M. ج 1 ص 526.

(3) انظر ردهاوس.

(4) لا يوجد في قانون نامه السلطان الفاتح ما يشير إلى مهمات الجاوش، لكن عطا ج 1 ص 169-170 يذكر على سبيل المثال أنهم كانوا يُستخدمون كرسل في الأيام المبكرة ويصف قانون نامه عبد الرحمن توقيعي حضور الجاوشية ديوان الجمعة ووضع الأطواغ عند اندلاع الحرب وتنظيم الشكاوى في الدواوين السلطانية - M.T.M. ج 1 ص 501-502، 508، 531.

بحلول النصف الثاني من القرن الخامس عشر، نشأ نوعان من الجاوشية: فئة تُدفع أجورهم من الخزينة العامة، ويدعون عُلوْفه لي (أي ذوو الأجور) وفئة تعيش على الإقطاعيات ويدعون گديكلي (أي الاحتياطي) - ويظهر هذا الاسم أن الجاوشية الأوائل كانوا كلهم من ذوي الأجور⁽¹⁾، ولكن ليس من الواضح إن كانت مهمات الفتتين مختلفة أم لا. أما الأمر المؤكد فهو أنهم قد تم استبدال مهمتهم كسُعاة بموظفين آخرين - القاييجى باشى والخاصكي والمتفرقة⁽²⁾، وأنه بالرغم من استمرار مشاركتهم في مواكب السلطان العامة فقد أصبحوا مُلحقين بخدمة الصدر الأعظم (الذي تولى في النهاية كل مهمات السلطان العامة) وليس بخدمة القصر. ومن هنا نرى فقدان الجاوش باشى لرتبة آغا الرّكاب وتصنيف دوسون⁽³⁾ له على أنه وزير دولة وليس موظفاً في البلاط. وإن استمراره في ترأس مراسم الديوان بمشاركة القاييجى لركاخية سي⁽⁴⁾ لا يعني أنه فرد من الخدمة الخارجية إذ أن الدّواوين لم تعد برئاسة السلطان بل برئاسة الصدر الأعظم. ولهذا السّبب نورد وصف مهمّاته ومهمات الجاوشية من خلال الحديث عن الإدارة المركزية.

3. أغوات الرّكاب في القرن الثامن عشر

(1) البوستانجى باشى.

بعد ترقية البوستانجى باشى أصبحت رتبته تلي مباشرة رتبة المير عَلم، وفي قانون نامِه الفاتح يشار إلى البوستانجى باشى على أنه من موظفي الدّولة ومرتبّط بوصفائه

انظر دوسون ج 7 ص 33.

(1) يتضح ذلك من قانون نامِه السلطان الفاتح وقانون نامِه عبد الرّحمن توقيعي، حيث يذكر الأول تيمارات الجاوشية (O.T.E.M. العدد 4 الملحق 28) بينما يشير الثاني إلى جاوشية العُلوْفه لي والغديكلي (M.T.M. ج 1 ص 543). وفي الثاني يبلغ عدد الجاوشية الإقطاعيين مئتين.

(2) انظر عطا ج 1 ص 61، 170.

(3) ج 7 ص 166.

(4) انظر دوسون ج 7 ص 17.

الخدمة الدّاخلية⁽¹⁾. لقد أوكل إلى البوستانجي باشى الاعتناء بالحديقة، وعندما كان البوستانجية يستخدمون للتجذيف في مركب السلطان يقوم البوستانجي باشى بالقيادة⁽²⁾. لغاية التّصف الثاني من القرن السابع عشر، لم يكن للبوستانجي باشى مكان في مراسم القصر، وفي قانون ناميه عبد الرّحمن توقيعي لا نجد له ذكراً أبداً؛ أما الإشارة الوحيدة لمعاونيه فكانت للبوستانجي أوضه باشى سى كرجل شرطة يحضر مجالس دواوين الأربعاء والجمعة⁽³⁾. وإن ترقية البوستانجي باشى إلى رتبة آغا ركاب تعود حتماً إلى تولّيه مهمات كان يقوم بها موظفون آخرون. وبهذا فإن مهمته في الإشراف على العقوبات وتنفيذ الأحكام كانت سابقاً من نصيب الباش قاييجى باشى⁽⁴⁾ الذي نجد أن عطا، الذي تعود معظم رواياته إلى القرن الثامن عشر، يصنّفه كأغا ركاب بدلاً من البوستانجي باشى⁽⁵⁾.

أما الفرقة التي كان يترأسها فكان الأقدمون فيها يدعون بالخاصكية *Hâşşekîs*، وهو مصطلح كان يطلق، كما أشرنا سابقاً، على سيدات من الحرّيم تميّزاً لهنّ عن سواهن. كان هؤلاء الرّجال يشكلون أوجاقاً داخل الأوجاق نفسه ويتحدّث عن ذلك كل من عطا ودوسون⁽⁶⁾ بالرّغم من اختلاف روايتهما. يقول دوسون إنّ الخاصكية كانوا ثلاثمئة صف ضابط لا يحملون رتباً ويشكّل ستون منهم الحرس الخاص بالسلطان؛ وأن قائدهم هو الباش خاصكي؛ وأن هناك ثلاثة موظفين آخرين هم: الكيرنججي باشى *Kirecci Başı* (رئيس الكلاسين *Lime-farmer*) الذي يتمتّع بحق جباية ضريبة على نتاج الصّاروج (الكلس)؛ والبالق أمينى *Balık Emîni* أو ضابط الأسماك الذي

(1) انظر: *O.T.E.M.* العدد 14 الملحق 24.

(2) بالتركية:

Bağçeye Bostancı Başı konulmuştur. Kayığa konuldukta Bostancı kürek çekip, ol dümen tuta.

(3) انظر: *M.T.M.* العدد 1 ص 504، 508.

(4) انظر لبيير ص 131 نقلاً عن سباندوغينو *Spandugino*.

(5) عطا ج 1 ص 74.

(6) انظر عطا ج 1 ص 293، ودوسون ج 7 ص 29-30.

يجبي الضرائب من صيادي الأسماك في المناطق المجاورة للعاصمة؛ والشّراب أميني *Şarâb Emîni* أو ضابط الشّراب الذي كان ينظّم ويفرض الرّسوم لصالح البوستانجى باشى على نتاج عصير العنب. أما عطا فيحدّد عدد الخاصكية بمئة رجل فقط من بينهم اثنا عشر يُدعون تبديل خاصكية *Tebdîl Hâşşekîs* يرافقون السّلطان حينما ذهب متخفّين بثياب مدنية؛ ويذكر آخرين يدعون قوشجى ⁽¹⁾ *Kuşçus* مهمتهم اعتقال ومعاقة أي فرد من الخاصكية يسيء التّصرف. يتضح من رواية عطا أنه يعدّ كل الموظفين القدامى ورجال فرقة البوستانجية من الخاصكية، وبهذا تتطابق قائمته عن الخاصكية مع قائمة دوسون عن البوستانجية⁽²⁾. وبما أن دوسون يوافقه بأن معاون البوستانجى باشى كان يدعى خاصكي آغا، فيبدو من المحتمل أن يكون عطا على حق. أمّا الموظفون الآخرون الذين ذكرهم الاثنان فهم: (1) كاخية الأوجاق، (2) البوستانجى لر أوضه باشى سى الذي يمثّل الفرقة في حاشية الصّدر الأعظم، (3) القره قُولا⁽³⁾ *Kara Kulak* الذي يقيم في مقر آغا الإنكشاريّة ليحرس المدينة. ويذكر دوسون موظفين آخرين من البوستانجية هما القوشجى باشى *Kuşçu Başı*، مفتش الغابات بإشراف البوستانجى باشى، والتّرکه جى باشى⁽⁴⁾ *Terekeci Başı* الذي يجمع رسوم البوستانجى باشى. وأخيراً تتفق روايات الاثنين على أنه من الشائع استخدام الخاصكية كسّعاة لإيصال الرّسائل إلى الأقاليم.

يقول دوسون إنّ عدد رجال أوجاق البوستانجى يصل إلى ألفين وخمسمئة وأنهم مقسمون إلى أورطات كالإنكشاريّة؛ بل وأنهم يؤلفون جزءاً من فيلق الإنكشاريّة⁽⁵⁾.

(1) قوش تعني طير (بالتركية) وقوشجى تعني «من يتعامل بالطيور» أو «الصقار»، وعلى الأرجح هو المعنى الثاني بالرّغم من صعوبة الجزم بتسمية هؤلاء الرّجال بالصّقارين. ولكن يمكن ملاحظة أن البوستانجى المدعو قوشجى باشى كان مشرفاً على الغابات.

(2) الموظف الوحيد الذي ذكره عطا، وليس دوسون، هو الباش تبديل أو رئيس المحققين.

(3) يعني اللقب «الأذن السوداء». انظر الملحق الثالث. قلت: وفي التركية هذا الاسم يطلق على الوشق، عنّاق الأرض. (أحمد)

(4) لم يحدّد دوسون أية رسوم، لكن التّرکه تعني «عقار يترك بعد الوفاة».

(5) دوسون ج 7 ص 27-28. ويصنف دوسون البوستانجية كحراس للقصر.

أما معلومات عطا فتعطينا انطباعاً بأن الأوجاق كان مؤلفاً من عدد من الأوجاقات الفرعية يلبس رجالها القلنسوة الحمراء المميّزة للبوستانجية، لكن كلاً منها يؤلف فرقة مختلفة؛ ويتوافق وصف دوستون نوعاً ما مع ذلك عندما يعدّد المهمات التي من واجبهم القيام بها. وبالرغم من أن الخاصكية يؤلفون جزءاً من هذه الأوجاقات الفرعية، فقد كانت فرقهم مختلفة ومتميّزة عن الأخرى بشكل واضح. ومع أن البوستانجي باشى كان مسؤولاً نوعاً ما عن البقية، فقد كان يشترك في المسؤولية غالباً مع ضابط أعلى أو أكثر. لم يكن في هذه الأوجاقات قائد (أمير) فحسب بل كانت تضم ناظراً وضابطاً، وللبوستانجي باشى أن يشغل أيّاً من هذه المناصب.

إن واحداً من أهم الأوجاقات الفرعية هو الخنكار صندلجية *Hünkâr Sandalcısı* أو رجال المراكب السلطانية. تعني كلمة صندل قارب التجديف الأوروبي تمييزاً له عن القايق المحلي *Kayık* (caïque). وكان مقرّ هذا الأوجاق يسمى القايق خانه؛ وكان الصندلجية يعملون في قوارب تدعى الفلوكة *Filûka* ذات التّمط الأوروبي، والزّورق *Zevrek* ذو الأصل الأوروبي الأصغر حجماً. أما العاملون فيها فيدعون الحملجية *Hamelcis* (أي المجذفون)، ويدعى المشرف عليهم بالباش حملجي، بينما كان قائدهم هو الباش جوقدار⁽¹⁾ وناظرهم البوستانجي باشى. لم يكن الصندلجية يجذّفون في قوارب السلطان فحسب بل في قوارب ضباط القصر الأساسيين، وعندما يسافر السلطان بحراً يقوم البوستانجي باشى بتوجيه مركبه بنفسه، وذلك في القرن الثامن عشر كما كان عليه الحال في القرن الخامس عشر⁽²⁾.

ومن الأوجاقات الأخرى التي أوردها عطا:

(أ) تلك التي يراقب رجالها أراضي وسراقات القصر، وسمّي الكثير منها بحسب تلك السراقات مثل گلخانه⁽³⁾ *Gül-Hâne* وإسحاقية *Ishâkîye* وسبجیلر كوشكى

(1) أحد وصفاء الخدمة الدّاخلية الأساسيين في الغرفة الخاصّة.

(2) عطا ج 1 ص 300؛ دوستون ج 7 ص 37.

(3) أطلق اسم هذا السراق على فرمان عام 1839.

Sepeciler Köşkü ويالى كوشكى *Yalı Köşkü* وصوغوق چشمه *Şoğuk Çeşme*. أما البامية جية⁽¹⁾ *Bamyacı* فكانوا يحرسون سرادق سنان پاشا ويعتنون بحديقته ويعيشون على ما يبيعونه من إنتاج. وكان رجال أوجاق الشوقية *Şevkîye ocak* يفعلون الشيء ذاته في سرادقات الإنجيلي *Incili* والإفطارية *Ifîârîye*، وكان البغجية *Bağcis* والإيشلمجية *Işlemecis* يسقون أشجار حدائق القصر على العموم، وكان البوستانجي باشى يضبط الأوجاقات كلها ويقودها الباش جوقدار.

(ب) الأوجاقات المسماة بأسماء بوابات أسوار القصر.

1. أوجاق الجزمة قايى سى *Cizme Kapısı* (باب الجزمة *The Gate of the Boot*). ويقوم رجاله بحراسة سرادق قريب من هذا الباب حيث كان الوصفاء وحراس المشافي يستجمون. ويقودهم رئيس الخصيان البيض.

2. أوجاق طوب قايى *Top Kapı* (باب المدفع *Cannon Gate*)⁽²⁾. ويكلف رجاله بمنع دخول أرض القصر عن طريق البحر للأشخاص غير المسموح لهم بذلك⁽³⁾.

3. أوجاق بالى خانة قايى سى *Balık-hâne Kapısı* (باب خان السمك *Gate of the Fish-house*). ويقوم رجاله بحراسة السجناء التازلين عند هذا الباب، ويذهبون لصيد السمك عندما تكون الرياح مواتية⁽⁴⁾.

(1) البامية نوع من الخضروات *Hibiscus Esculentus*. كان رجال إحدى مجموعات الخيالة المؤلفة من قبل محمد الأول يدعون أيضاً بالبامية جية، ويدعى رجال مجموعة أخرى لحنة جية *Laḥanacis* (Laḥana تعني الملفوف). وقد اكتسبوا هذه الأسماء لأن المجموعة الأولى كانت تتدرب بالقرب من أماصيا *Amasya* في مكان تزرع فيه البامية بكثرة، بينما كانت المجموعة الثانية تتدرب في مرزيفون *Merzifon* حيث يزرع الملفوف (عطاج 1 ص 177). لكن لم يتضح إن كان بامية جية سرادق سنان پاشا مرتبطين بالآخرين أم لا.

(2) في القرن الثامن عشر عندما لم يعد السلاطين يسكنون القصر القديم، كان من الطبيعي تسميته باسم يميزه عن المسكن الفعلي للسلطان - طولمة بغجة أو يلدز كوشكى *Yıldız Köşkü* - فصار يسمى باسم الباب «طوب قايى سراي *Top Kapı Serâyı*».

(3) عطاج 1 ص 304.

(4) عطاج 1 ص 305. وقد تكون هناك صلة بين هذا الأوجاق والبالق أمينى.

4. أوجاق أوتلاق قابی سی Otlak Kapısı (باب المرعى Gate of the Pasture).
ويقوم رجاله بحراسة الإصطبلات ويقودهم رئيس الخيل⁽¹⁾.

5. أوجاق فيل قابی سی Fil Kapısı (باب الفيل Gate of the Elephant). ويقوم
رجالهم بحراسة هذا الباب⁽²⁾ يقودهم مشرف حراس الباب.

(ج) الأوجاقات التي يحرس رجالها أرسفة الميناء حول البوسفور والقرن
الذهبي، وتدعى بأسماء الأماكن المعنية: طولمه بَغْچَه Dolma Bağçe وقره يالى
Kara Yalı وبشيكطاش Beşiktaş وخير الدين Hayr ed-dîn وأورطه كوي Orta
Köy وقورى Kuru Köy وچشمه Çeşme وبيك Bebek ويني كوي Yeni Köy وقلندر
Kalender وئوك دَرَه Büyük Dere وصارى يار Sarı Yar وقاواق Kavak وبغقوز
Beğkoz وطوقاد Tokad وسلطانية Sultaniye وپاشا بَغْچَه سی Paşa Bağçesi
وانجير كوي İncir Köyü وچوبوقلى Çubuklu وگوك صُو Gök Şu وقوله بَغْچَه
سى Kule Bağçesi وچنگل كوي Çengel Köyü وقوزغونجق Kuzguncuk
وأسكدار Üsküdar وأيازمه Ayazma وصلاجيق Şilacık وحيدر پاشا Haydar
Paşa وتازيجيلر Tazicilar وقاضي كوي Kađi Köyü وفنار بَغْچَه سی Fenar
Bağçesi ونربدانلي Nerbedanlı وأرن كوي Eren Köyü وبوستانجى باقى كوپرى
سى Bostancı Bağı Köprüsü وبلغورلى Bulğurlu وچامليجه Çamlıca وفيلوريه
Filuriye وداوود پاشا Davud Paşa وطوپجیلر Topçular وويدوس Veydos وعلي
بك كوي Ali Bey Köyü وكاغد خانه Kağid-hâne وبهاريه Behâriye وقره آغاچ
Kara Ağaç وخاص كوي⁽³⁾ Hâşş Köy. لا يمكن لهذه القائمة إحصاء كل الأماكن
التي يشرف البوستانجى باشى على حراستها، إذ تمتد منطقة نفوذه إلى البحر الأسود
على جانبي المضائق لتصل إلى حدود إيالة الرّوملي التي تمتد مسافة واسعة إلى شمال

(1) المصدر السابق.

(2) عطا ج 1 ص 305.

(3) عطا ج 1 ص 310؛ عثمان نوري ج 1 ص 919.

وغرب العاصمة⁽¹⁾. لكل قرية في هذه المنطقة فرقة من البوستانجية يرأسها أسطة.

(د) أوجاقات الحمّالين. هناك اثنان هما (1) أوجاق الحَقْبَجية *Heğbecis*، وحَقْبَة كلمة تركية محرفة عن الكلمة العربية «حقيية» وتعني الخُرج أو الصّندوق. لدى كل موظف في الخدمة الدّاخلية، بمن فيهم رئيسا الخصيان، حَقْبَجية في خدمته يقودهم رئيس الوصفاء حامل السّيف، ولهم ضابط هو البوستانجي باشي⁽²⁾؛ (2) أوجاق اليشليكجية *Yişlikçis* أو الإيشليكجية *Işlikçis* الذي يتألف من اثني عشر رجلاً فقط يعرفون أيضاً باسم آودان بوستانجي *Avadan Bostancı* (وتعني كلمة آودان⁽³⁾ «التقني أو الخبير»). كان ستة منهم يذهبون في مهمات يومية فيحمل ثلاثة الأسلحة - كالأقواس والسّهام - التي قد يحتاجها السّلطان لدى خروجه من القصر، كما يأمرهم الجوّقدار آغا، بينما يبقى الثلاثة تحت أمر التّفنكجي باشي ليحملوا البنادق والدّخيرة⁽⁴⁾. وكانت مهمّة هذا الضابط تقديم البنادق للسّلطان عندما يذهب للصّيد⁽⁵⁾.

(هـ) أوجاقات سيّاس الخيل. وهناك أيضاً اثنان هما أوجاق اليذكجية *Yedekçis* (وتعني سيّاس الخيول الإضافية)، وأوجاق السّراج خانة *Serrâc-hâne* (أي إسراج الخيول). وكان هؤلاء الرّجال يسوسون خيول الوصفاء الرّئيسيين في الخدمة الدّاخلية وخيول الخصيان⁽⁶⁾.

(و) أوجاقات المؤن. وهناك خمسة منها كلها تحت إشراف البوستانجي باشي، وهي:

1. أوجاق الطّاووق خانة *Tavuk-hâne* (المدجّنة)، ويربي أفراد الدّجاج للمطابخ

(1) عثمان نوري ج 1 ص 918.

(2) عطا ج 1 ص 305.

(3) ومنها آودانلق: آلات، أدوات. (أحمد)

(4) عطا ج 1 ص 300.

(5) دوشون ج 7 ص 37.

(6) عطا ج 1 ص 308.

السلطانية في مكان يقع أسفل مسجد السلطان أحمد، ويشرف عليهم وصيف من الخدمة الداخلية يدعى طاووقجى باشى *Tavukçu Başı* (رئيس مربى الدجاج)⁽¹⁾.

2. أوجاق الصاى *Sayı* (العدد). ويرعى أفراد الأغنام المجلوبة من الرّوملي إلى العاصمة في مكان يدعى رامي چفتلغي *Rami Çiftliği* أعلى أيوب على القرن الذهبي. كانوا يحصون عدد الأغنام لحاجة القصر (ومن هنا يأتي اسمهم) ويأخذون الباقي إلى سوق المدينة. قائدهم هو المسؤول عن المطبخ ومشرفهم هو رئيس الجزارين⁽²⁾.

3. أوجاق الخاص بـغچه *Hâşş Bağçe* (الحديقة الخاصة). ويزرع أفراد الفواكه والخضروات، فيستخدم قسم منها في المطابخ ويبيعون الفائض لحسابهم الخاص. يقودهم حامل السيف⁽³⁾، وبما أن قانون الفاتح يشير إلى أن البوستانجى باشى قد نُصب للعناية بالحدائق، فقد يكون هذا الأوجاق نواة فرقة البوستانجى بأكملها.

4. أوجاق الكُمش صويو *Gümüş Suyu* (ماء الفضة)، وهو نبع يقع فوق أيوب يأخذ الرجال منه الماء لصنع قهوة السلطان. يقود هذا الأوجاق وصيف يدعى قهوجى باشى (رئيس صانعي القهوة)⁽⁴⁾.

5. أوجاق القوش خانة *Kuş-hâne* (بيت الطيور) - على ألا يلتبس مع جزء من المطابخ يحمل الاسم ذاته. يربي أفراد الطيور وبالأخص نوعاً يسمى كوهى *Kuhu* من أجل الريش المستخدم في السهام، يقودهم حامل السيف⁽⁵⁾. ولم يتضح إن كانت هناك علاقة بين هذا الأوجاق والبوستانجى الذي يدعى قوشجى باشى *Kuşçu Başı* ومعاونيه الذين يدعون قوشجى *Kuşçus*.

(ز) أوجاق السقائين أو حاملي المياه. يقع مقرهم مقابل بوابة آيا صوفيا العظيمة.

(1) عطا ج 1 ص 308-309.

(2) عطا ج 1 ص 309.

(3) عطا ج 1 ص 304.

(4) عطا ج 1 ص 309.

(5) عطا ج 1 ص 309.

ولدى اندلاع التيران في المدينة كانوا يحملون قراب الماء على حيواناتهم في محاولة منهم لإخماد اللهب بواسطة خراطيم المياه. وفي أيام الاحتفالات كانت مهمتهم تنظيف القصر، كما كان اثنان منهم ينظفون غرف الطعام يومياً في المهاجع المختلفة من الخدمة الداخلية قبل وبعد الوجبات، بالتناوب فيما بينهم، ومن ثم يحصلون على ما تبقى من طعام. كانوا يعملون تحت إمرة مفتش المياه⁽¹⁾ (Water Inspector) ورئيسهم هو السقا باشى⁽²⁾ ولهم كاخية خاص بهم. في الدواوين السلطانية كان السقا باشى يقدم المشروبات المعطرة بالمسك أو الحلويات حسب الموسم للوزراء وهم ينتظرون بدء المجلس، كما كان ينبههم عند قدوم الصدر الأعظم. وكان مع رجاله يدورون بالأحواض والمناديل على الوزراء الذين يتناولون العشاء بعد انتهاء العمل في الديوان⁽³⁾.

(ح) أوجاق المزبلة كشان *Mezbele Keşân* أو الزبالين. ويتولى رجاله مهمة أخذ النفايات من القصر، اثنان منهم معاً، ورميها في البحر. يقودهم الجوقدار آغا⁽⁴⁾.
(2) رؤساء الخيل.

يشكل العاملون في الإصطبلات الإمبراطورية (*Iştablı 'Âmire*) أوجاقاً يدعى خاص آخور⁽⁵⁾ *Hâşş Ahor Ocağı* (أوجاق الإصطبل الخاص)، يقوده الضابط المسؤول عنه بإمرة الجوقدار آغا ويشرف عليه رئيس الخيل الأكبر. ويبدو أن أهم موظف بعد الرئيس الأصغر هو السكرتير (خاص آخور كاتب *Hâşş Ahor Kâtibi*) وله خمسة مساعدين يُدعون طاولة كاتب *Tavla Kâtibi* (سكرتير أو حارس الإصطبل)، وآرته كاتب *Arpa Kâtibi* (سكرتير الشعير)، وصمان كاتب *Şaman*

(1) عطا ج 1 ص 309.

(2) لم يتضح إن كان السقاؤون في الديوان هم أنفسهم الذين تتناولهم بالحديث الآن، وهم على الأرجح كذلك.

(3) انظر قانون نامه عبد الرحمن توقيعي، *M.T.M.* ج 1 ص 507، 509.

(4) عطا ج 1 ص 303.

(5) إصطبل بالعربية وآخور بالفارسية.

Kâtibi (سكرتير العلف)، وكياء كاتبي *Giyâh Katibi* (سكرتير التبن)، وسترَاجلر كاتبي *Serrâclar Katibi* (سكرتير السَّراجين). وبما أن الإصطبلات تضمّ خزينة تودع فيها الأشياء الثمينة كالسروج والمعدات الملبسة بالذهب والفضة، فقد كان في الأوجاق خازن (خاص آخور خزينه داري *Hâşş Aħor Hazînedârı*) يشرف عليه الباشا جوقدار ورئيسا الخيل والسكرتير؛ أما تسجيل محتويات الخزينة فهو مهمة موظف خاص يدعى رخت كاتبي *Raħt Kâtibi* (سكرتير المعدات) يساعده موظف من قسم الخزينة العامة يدعى باش مُحاسبى *Baş Muħâsebe*. أما موظفو الإصطبل الآخرون فهم رئيس السراجين (سترَاج باشى *Serrâc Başı*) ورئيس الحدائين (نعل بند باشى *Na'l-bend Başı*) ورئيس الإصطبل الخاص (خاص آخور إسكي سى *Hâşş Aħor Eskisi*) وعدد من رجال الشرطة (تبدیل إسكي سى *Tebdîl Eskisis*) لكن لم يتمكن من الحصول على وصف لمهامهم⁽¹⁾.

(3) ناظر حراس الباب.

كان حراس الباب القاپجية (*Kapıcıs*) يعملون تحت إمرة ناظرهم ورئيس الخصيان البيض، وكان الأقدم منهم، وعددهم ثمانية عشر، يشكلون أوجاقاً فرعياً يدعى باسم غريب هو أوجاق والد الآغا (آغا باباسى أوجاغى *Ağa Babası Ocağı*)⁽²⁾ ويقيمون في برج أورطه قاپى⁽³⁾، وهو الباب الرئيسى الذي يفضي إلى الباحة الثانية من السراي، ومهمتهم الإشراف على حمالي القصر. وعند الحاجة إلى حمال في أي قسم كانت الطلبات تقدّم في هذا الأوجاق حيث يسجل الحمالون من قبل الضابط الأقدم فيه. كان أفراد الأوجاق يرتدون غطاء رأس خاص، ولأكبرهم مزية العمل كساع لدى السلطان عند خروجه في موكبه. وكان لاثنين من كبارهم أيضاً لقبان خاصان هما إسكمله جى باشى *Iskemleci Başı* (رئيس حملة الكرسي) ودوشليکجى باشى *Düşelikçi Başı*

(1) عطا ج 1 ص 290، 308.

(2) معنى هذا الاسم غامض؛ وقد تعني كلمة باباسى باب آغاسى.

(3) أي الباب الأوسط.

(رئيس باسطي السجاد)⁽¹⁾. كان الأول يقدم منصة ركوب فضية - silver mounting block للسلطان عند ركوبه الخيل، ويعيد الشكاوى المستلمة إلى أصحابها⁽²⁾. أما الثاني فكان يعمل كچاؤش للقاييجى باشية⁽³⁾.

4. رجال الشرطة

(1) الشَّهْر أميني Şehir Emîni (أمين المدينة، المحافظ).

سبق أن ذكرنا أن الشَّهْر أميني لم يكن يشرف على تشييد الأبنية وترميم القديم منها في العاصمة فحسب، بل كان مسؤولاً أيضاً عن تزويدها بالمياه.

أما عن الأبنية فكان الشَّهْر أميني مسؤولاً عن جلب المواد والعمال بنفسه بينما يجهز مساعده المعمار باشى *Mi'mâr Başı* المعلومات العلمية والفنية المطلوبة⁽⁴⁾. كانت أعمال البناء مضبوطة بشدة بالغة، ولم يكن تشييد أو ترميم أي بناء سواء كان حكومياً أو دينياً أو خاصاً دون موافقة رئيس المعمارين، وبعد الحصول عليها تتلوها سلسلة من المعاملات المطلوب إجراؤها⁽⁵⁾. لدى المعمار باشى مهندسان مساعدان⁽⁶⁾ وعدد من رؤساء البنائين والمفتشين⁽⁷⁾. علاوة على ذلك، عند تشييد صرح مهم يتم تعيين رجال شرطة ليقوموا بالحراسة⁽⁸⁾. لم يكن تقسيم المسؤوليات

(1) لا يذكر ردهاوس كلمة دوشليك *Düşelik* بل دوشك *Düşek* ودوشكليك *Düşeklik* ودوشلي *Düşeli* وهو أي شيء يُمدّ للنوم فوقه. قلت: والكلمة المألوفة التي تستعمل للفراش هي: دوشك. (أحمد)

(2) أحمد راسم ج 2 ص 133-134، حاشية.

(3) عطا ج 1 ص 290-302.

(4) عثمان نوري ج 1 ص 1361.

(5) المصدر السابق.

(6) يدعيان: سر معمارى، ومعمارى ثاني، عثمان نوري ج 1 ص 977؛ عطا ج 1 ص 290.

(7) من الكواخي والچاؤشية. وكانت مهمتهم التفتيش الدائم على الأبنية بجميع أنواعها، العامة والخاصة، في العاصمة - عثمان نوري ج 1 ص 977-978.

(8) المصدر السابق ص 977.

بين الشهر أميني والمعمار باشى محدداً بدقة دائماً، وخصوصاً في الأيام الأخيرة⁽¹⁾. وكان بعض الموظفين يساعدون الأول تارة والثاني تارة أخرى، وهم الكيترججي باشى (رئيس الكلاسين) *Kirecci Başı* ومدير التعمير *Ta'mirât Müdürî* وأمين المخازن *Enbâr Emîni*⁽²⁾. كان تصميم المساجد الكبرى يقع على عاتق مهندسين من القاهي قول لرى أي رجال مجندين لخدمة السلطان كعبيد عن طريق الدوشيرمه، إما بالأسر أو الشراء، وأشهرهم سنان آغا مبتدع مسجد سليمانية وشهزاده⁽³⁾، والذي كان يعمل لدى السلطان سليمان العظيم وخليفته. وبعد إلغاء الدوشيرمه صار من الشائع توظيف الذميين، وبهذا قام شخص مسيحي يدعى سمعان قالقه *Simeon Kalfa* بتصميم مسجد لاله لي *Lâleli* ونور عثمانية *Nûri 'Osmânîye* أثناء فترة بحثنا متبعاً النمط الإيطالي⁽⁴⁾.

كان تزويد العاصمة بالمياه يتم عن طريق ينابيع تقع خارج الأسوار، وكانت بعض الخزانات التي يحفظ فيها الماء، والمجاري والقنوات التي توصل المياه للمدينة، والأحواض والينابيع التي يُستجر منها الماء تعود إلى العهد البيزنطي، بينما تم إنشاء البقية من قبل السلاطين وأشخاص مستقلين. ولقد عُدت هذه المنشآت المائية أوقافاً يديرها المتولون *Mutawallîs* والجُباة⁽⁵⁾ *Câbîs*. وكان المتبرعون يهبون أموالاً لإعالة مشرف أو أكثر⁽⁶⁾ يعمل بإمرتهما عدد من العمال يدعون رجال المجاري المائية

(1) المصدر السابق ص 978، 1362.

(2) عثمان نوري ج 1 ص 978.

(3) شهزاده بالتركية نقلاً عن الفارسية اجتزاء من: شاه زاده، أي الأمير، ابن الملك. وقد يكتبها البعض بالعربية: شيخ زاده، وهو غلط. (أحمد)

(4) عثمان نوري ج 1 ص 978. وقد أخطأ الكاتب بالتأكيد عندما قال إن المهندسين الكبار الأوائل كانوا كلهم من الأتراك والمسلمين، فقد كان سنان مجنداً من الدوشيرمه (انظر سيرة حياة أحمد رفيق، معمار سنان) وبهذا هو مسيحي المولد - وكان أصل الآخرين مشابهاً على الأرجح. وفي الواقع هم ممن اعتنقوا الإسلام من القاهي قول لرى.

(5) من أجل الأوقاف وإدارتها انظر الفصل الثاني عشر من الكتاب.

(6) يدعى بولوك باشى في حالة الأملاك الإمبراطورية وأسطة في حالة الأوقاف.

(صُو يولجي *Su Yolcus*) ينقسمون إلى فئتين⁽¹⁾ ويتقاضون رواتبهم من المحسنين. لكن المشرفين ورجالهما (وتعدّ مناصبهم وراثية) كانوا خاضعين لثلاث طبقات من الموظفين الحكوميين المسؤولين أمام الضابط الأول المعاون للصُو ناظري *Su Nâziri* والشَّهر أمني في هذا القسم. وهؤلاء هم: أولاً القَيِّمون على الخزانات (*Bend* *Muhâfizis*)⁽²⁾؛ ثانياً القوروجي⁽³⁾ *Korucus* المسؤولون عن القنوات المائية خارج الأسوار؛ ثالثاً الجاوشية المسؤولون عن امتدادها داخل الأسوار. كان الاهتمام الأول للموظفين هو الحفاظ على تدفق ماء مستمرّ غير ملوَّث، وتوزيع المخزون بالتساوي بين مالكي كروم العنب والبساتين المثمرة خارج الأسوار، وبين الأحياء المختلفة للمدينة حيث كان أكثر المستهلكين هم أصحاب الخانات والحمامات⁽⁴⁾.

(2) المطبخ أمني *Maṭbah Emîni*.

سبق أن ذكرنا أن المطبخ أمني مسؤول عن مطابخ القصر التي تقسم إلى أربعة أقسام هي: (1) المخابز⁽⁵⁾، (2) قسم صنع الحلوى، (3) المطبخ السفلي أو أوجاق الطَّباخين⁽⁶⁾، (4) وما يدعى بقسم الطَّيُّور⁽⁷⁾ الذي تعدّ فيه الوجبات الخاصة بالسلطان. يدير المخابز رئيس الخبازين⁽⁸⁾، وبيت الحلوى رئيس الذواقين ورئيس صانعي

(1) قاله وچراق (من المتدربين).

(2) *Bend* كلمة فارسية تعني أي شيء متماسك، وتعني هنا الخندق أو الخزان.

(3) حراس، وبالأخصّ للمروج والغابات.

(4) عثمان نوري ج 1 ص 1220-1224.

(5) للمخابز قسمان، الفرن الخاص *Hâşş Fırın* والفرن العادي *Harcı Fırın* - انظر عطا 1 ص 297، لكن يبدو أن أفرادهما يتمون إلى الأوجاق ذاته.

(6) آشجى لر أوجاغى - عطا ج 1 ص 299. وكان الطَّعام الذي يؤكل ليلاً في رمضان يعد في هذا المطبخ.

(7) لأنه يديره اثنان من الزُّلفى بالطَّه جية يدعيان قوشجى - وتعني الكلمة حرفياً رجال الطَّير أو الصَّقارين.

(8) إكمكجى باشى *Ekmekçi Başı*.

الحلوى ورئيس صانعي الشراب⁽¹⁾، والمطبخ السفلي رئيس الطباخين⁽²⁾، وكلهم ينتمون إلى الفئة الخامسة من الخدمة الخارجية⁽³⁾. وبهذا فهم يخضعون للوصيف والمخصي الأبيض⁽⁴⁾ اللذين يديران غرفة حفظ المؤن، لكنهم يتلقون التوجيه أيضاً من مسؤول المطبخ ومعاونيه. أما هيئة قسم الطيور، التي تندرج تحت هذه السلطة المشتركة أيضاً فهي مؤلفة من طباخين ماهرين تمت ترقيتهم من بيت الحلوى والمطبخ السفلي⁽⁵⁾. كان مسؤول المطابخ يقود الأوجاقين الخاضعين لسلطة البوستانجي باشى واللذين يزودان المطابخ بالأغنام والدجاج⁽⁶⁾.

5. موظفو الفئة الرابعة من الخدمة الخارجية

يتبع هؤلاء الموظفون الأربعة رئيس الخصيان، وهم:

(أ) الجادر مهتري باشى *Çadır Mehteri Başı* أو رئيس ناصبي الخيام.

كانت مهمة الجادر مهتري الأساسية هي نصب وتقويض خيام السلطان عند ذهابه للحرب⁽⁷⁾، وفي الأيام المتأخرة، عندما لم يعد السلاطين يقودون جنودهم بأنفسهم، أصبح الجادر مهتري ينصبون الخيام الملكية في حدائق القصر أو أي مكان بالقرب من إسطنبول عندما يرغب السلاطين بالخروج في نزهة. في القرن الثامن عشر كان هناك أكثر من ثمانمئة منهم ينقسمون إلى أربع مجموعات، ويكلف بعضهم بمهام متناقضة. كان الأربعون الأقدم يشكلون أوجاقاً للوزانين (*Vezendâr*) يرأسهم كبير

(1) چاشنيگير باشى *Çâşnî-gîr başı* وحلواجى باشى *Halvâcî Başı* وخوشاب باشى *-Hoş âb Başı*.

(2) آشجى باشى *Aşçı Başı*.

(3) دوسون ج 7 ص 22-23، مع أنه لم يذكر خوشاب باشى.

(4) أي الكيلار كاخية سى والكيلارجى باشى.

(5) عطا 1 ص 297.

(6) وهما أوجاقا الطاووق خانه والصايبى.

(7) انظر *O.T.E.M.* العدد 13 الملحق 2، حاشية.

الوزانين (وزندار باشى) وهو مفتش في الخزينة العامة الموضوعة في الباحة الأولى من القصر ويعمل بإمرة وزير المال (الدفتردار). ومن جهة أخرى كان رجال الدرجة الأدنى من ناصبي الخيام يعملون كشانقين أو منفذي أحكام الإعدام حيث يبقى أربعة أو خمسة منهم مستعدين عند بوابة الباحة الثانية لينفذوا أوامر السلطان ووزرائه⁽¹⁾.

(ب) الخزينة دار باشى *Hazînedâr başı* أو رئيس الخزينة⁽²⁾.

تقع الخزينة بجوار غرفة الديوان، ولتمييزها عن خزيتي أندرون *Enderûn* (الداخل) والحريم أطلق عليها اسم ديش خزينة *Dış Hazîne* أو خزينة الخارج⁽³⁾. تحفظ فيها سجلات القسم المالي والملابس ذات الفراء وأثواب الشرف⁽⁴⁾ التي تمنح للوجهاء المحليين والأجانب في المناسبات الرسمية؛ وكذلك حقائب القماش الذهبية التي ترسل داخلها الأوامر إلى الحكام الإقليميين. ويوجد في الخزينة عشرون مساعداً⁽⁵⁾.

(ج) البازرگان باشى *Bâzergân Başı* أو المسؤول عن أقمشة القصر.

(د) الپیشکشچی باشى *Pişkeşçi Başı* أو رئيس حراس الهدايا المقدمة للسلطان⁽⁶⁾.

(1) دوسون ج 7 ص 21.

(2) على ألا يلتبس بالمخصي الذي يحمل نفس اللقب.

(3) انظر قانون نامه عبد الرحمن توقيعي (قانون نامه الديوان السلطاني - *M.T.M.* ج 1 ص

507). عندما كان الصدر الأعظم يدخل غرفة الديوان كان خزينة دار باشى الخزينة الخارجية

يقدم إليه أختام الباب الشمعية، وبعد تقيلها يقضها الصدر الأعظم ثم يعيدها إليه.

وفي القانون ذاته (ص 509) يقال إنه بعد تناول الصدر الأعظم وباقي الموظفين العشاء كان

الچاوش باشى يختم الخزينة بالخاتم السلطاني - ويُقصد بذلك مستودع سجلات القسم

المالي والخزينة نفسها.

(4) ثوب الشرف هو الخلعة *Hil'a* - من الجذر العربي «خلع الرداء» لأن هذه الأثواب كانت في

الأصل مهمة من قبل الحاكم ثم بارتدائه لها أضفى عليها بعضاً من مجده وعزه.

(5) دوسون ج 7 ص 21-22.

(6) المصدر السابق؛ انظر عطا 1 ص 290. إن الموظفين الذين ذكرهم عطا ولم يذكرهم دوسون

هم القصاب باشى *Kaşşâb Başı* (رئيس الجزارين أو القصابين) والبازار باشى *Bâzâr Başı*

6. موظفو الفئة الخامسة

لقد سبق وتحدثنا عن أربع من هؤلاء هم الجاشينغير باشى والإكمكجى باشى والآشجى باشى والقهوجى باشى. أما الاثنان الباقيان فأحدهما مرتبط بتزويد القصر بالطعام، أي الكيلارجى آغاسى (آغا غرفة المؤن) ويساعده حوالي مئة كيلارجى؛ ويعتمد أولئك الخمسة على المخضبي الأبيض والوصيف المسؤولين معاً عن غرفة المؤن⁽¹⁾.

والموظف السادس في هذه الفئة هو العلم مَهْتَرِي باشى 'Alem Mehteri Baş' (رئيس حاملي الرايات) أو ميرى مَهْتَرِي طبل وْعَلَم 'Mîri Mehteri tabl u' (رئيس الفرقة الموسيقية أو حاملي الطبول والرايات). وكما سبق أن لاحظنا كان استخدام الفرق الموسيقية العسكرية، وبالأخص الطبول، شارة مميزة للسلطة الملكية في الإسلام منذ زمن بعيد. كان عدد أفراد فرقة السلطان اثنين وستين في أوقات السلم، ويتضاعف العدد لدى الخروج للحرب حيث يعزفون أمام خيمته في وقت الصلاة. كان العلم مَهْتَرِي باشى خاضعاً لسلطة حامل الراية وله مساعد هو سازنده باشى Sâzende Baş' (رئيس العازفين)⁽²⁾.

7. الأوجاقات المستقلة في الخدمة الخارجية

(1) البالطه جية Baltacıs.

لقد كُلف بعض بالطه جية السراي الجديد، زُلْفَلِي بالطه جية 'Zülüflü Baltacıs' بمهام خاصة، فهناك اثنا عشر منهم يعرفون القراءة والكتابة ويدعون بالقالفه⁽³⁾ Kalfas، يقومون بخدمة السلطان في رحلاته يرافقهم ثلاثون مساعداً لحماية رايته، وفي أيام الأعياد والمناسبات الرسمية يقومون بإحضار عرشه من الخزينة الداخلية إلى

(رئيس تجار السوق Chief Marketer؟) والتختروانجى باشى Tahtrevancı Baş' (رئيس

حملة اليهودج) والقاووقجى باشى Kavukçu Baş' (رئيس صانعي القلنسوات).

(1) أي الكيلار كاخية سى والكيلارجى باشى. دوسون ج 7 ص 22-23.

(2) دوسون ج 7 ص 14، 23؛ انظر O.T.E.M. العدد 13 الملحق 11، حاشية. وبهذا يتميز

مسؤولو الرايات عن مسؤولي الخيام.

(3) يدرسون على يد خوجات القديسة صوفيا.

غرفة مجلسه⁽¹⁾. وكانوا أيضاً يحملون أمتعة الحريم عندما يخرج السلطان في نزهاته الصيفية ويعلمون الخصيان السود الأصغر القراءة والكتابة. وهناك واحد منهم يعمل كقوشجي *Kuşçu* أو صقار تحت إمرة القيزلر آغاسي؛ بينما يقوم آخرون يدعيان أيضاً قوشجي بالإشراف على مطبخ إعداد وجبات السلطان، ومن هنا يأتي اسمه (قوشخانه *Kuşhane*)⁽²⁾. باستثناء القالفه كان لكل واحد من الخاص أوضه لية، أي الخصيان البيض وكاخية الغرف السفلية الثلاث، بالطه جي في خدمته⁽³⁾، وكان للسلاحدار آغا الذي يقود هذا القسم من الفيلق باش بالطه جي وثلاثة من مساعديه يقومون على خدمته، بينما يقوم على خدمة الخزينة كاخية سي (كبير وصفاء غرفة الخزينة ومفتشها) رجلان منهم. أما الضباط التابعون لهذا القسم فهم كاخيته ومعاون الباش بالطه جي والديوان خانجي المذكور سابقاً وبالطه جي الكيلارجي باشي (وهو من الخصيان البيض) الذي يتولى ضبط شؤون المطبخ السفلي والمخابز⁽⁴⁾.

كان القسم الآخر من الفيلق الأساسي في الأوقات اللاحقة تحت إمرة القيزلر آغاسي، ولكن بما أن أفراد القدامى كانوا يساعدون هذا الشخص البارز في إدارة المنشآت الدينية للمدينتين المكرمتين وأماكن أخرى، فيبدو أن هؤلاء بالطه جية كانوا تحت قيادة القاهي آغاسي. وفي الواقع كان لموظف آخر من الخصيان البيض، هو السراي آغاسي، بالمشاركة مع أحد الخصيان السود، هو الباش قاهي غلامي من السراي القديم، سلطة عليهم في المكان الذي يقيمون فيه، حيث كانت حماية قسم الحريم والعناية به هي أولى مهامهم. وكان العديد من كبارهم يوظفون كرؤساء

- (1) وبهذا يكون الموظف الثالث هو الديوان خانه جي *Dîvân-hâneci*.
- (2) سبق وذكرنا معنى الكلمة. وقد أعطى ردهاوس معنى ثانوياً هو قدر الطبخ الصغير، لكن الأرجح أن الكلمة بهذا المعنى اشتقت من اسم المطبخ وليس العكس. كما ذكر عطا هؤلاء الرجال وهم يؤدون مهمتهم (*Kuşçu*) دون تحديد طبيعة هذه المهمة. بينما اكتفى دوتون بقوله إن القوشجية *Couschdjis* كانوا ينقلون الرسائل من السلخدار إلى السلطان.
- (3) كان أولئك الذين يعملون في خدمة الخصيان البيض يدعون القنديلية *Kandillis* (حملة القناديل)، وكان بالطه جية يقدمون القهوة للخاص أوضه لية بإشراف القهوجي باشي.
- (4) كل ذلك وفقاً لرواية عطا ج 1 ص 290 وما يليها، 297، 299. أما رواية دوتون فتختلف عنها.

صانعي قهوة (قهوجى باشى) للوالدة والأميرات والقوادن والقيزلر آغاسى؛ بينما يعمل واحد منهم في خدمة القيزلر آغاسى وموظفين من الخصيان السود كقيم على غرفة الملابس. وفي السراي الجديد كان أولئك الذين يساعدون في إدارة المنشآت الدينية يعملون في السكرتاريا وعددهم سبعة⁽¹⁾ يُختارون بفضل خبرتهم الثقافية⁽²⁾ حيث يترقون في الغالب ليحصلوا على مناصب عليا في الإدارة العامة⁽³⁾.

(2) أوجاقات القزبكجية Kızbekçis والدولاب Dolab والصوفا Sofa والحطب أنبارى Hatab Enbârî.

كان القزبكجية⁽⁴⁾ يشرفون على تزويد المياه ويقدمون للسلطان مياه الشرب والاغتسال في المناسبات، ويفرشون له سجاده له لدى ذهابه إلى المسجد، ويمسحون المكان الذي يمتطي فيه فرسه. وكان رجال الدولاب أوجاغى يوزعون الماء بين الأقسام

(1) هم الباش يازجى (وتعني حرفياً رئيس الكاتبين) وستة من القالفه. يذكر دوتون اثنين من البالطه جية مرتبطين بهذه المنشآت وهما الخاصكي باشى، محصل الرسوم المستحقة للأغا، والخاصكي باش كاتبى، وهو سكرتيه الأول، وقد يكونا معدودين من بين القالفه.

(2) كانوا يدرسون على يد خوجات مسجد بايزيد.

(3) يختلف دوتون ج 7 ص 30-32 وعطاج 1 ص 305-307 في روايتيهما عن كيتيتي البالطه جية، إذ ينسب دوتون إلى أولئك العاملين في السراي القديم وظائف ومهمات، يقول عطا إنها من مهمات الزُلفى مثل وظيفة الكاخية، وحمل ممتلكات الحریم. لا شك أن هذا الاضطراب قد نشأ بسبب أن بعض بالطه جية السراي القديم صاروا يعملون في السراي الجديد، وأن بعض الزُلفى كانوا يعملون بامرة القيزلر آغاسى. يقدر دوتون عدد البالطه جية بأربعمئة وعدد الزُلفى بمئة وعشرين. قد يكون عطا مخطئاً إلى حد ما، فمثلاً أثناء تعداده لموظفي الزُلفى يدعو معاون القائد ببالطه جى لر كاخية سى وليس زُلفى بالطه جى لر كاخية سى، مما يدل على أن دوتون على حق في تخصيص هذا المنصب للكتيبة الثانية. وفي خضم هذا الشك اتبعنا رواية عطا بما أنها لم تترجم، وهي بذلك أقل قابلية للحصول عليها.

(4) يدعون كذلك وفقاً لرواية مشكوك بها وهي أن قائدهم الأول منع فتاة مجنونة (قز Kız) من الفرار - وبكجى تعني حارس أو خفير. أسس هذا الأوجاق السلطان محمد الفاتح في نهاية عهده وهو مؤلف من أربعين رجلاً يقودهم قزبكجى باشى. وقد تحرف الاسم فيما بعد ليصبح قوزبكجى Kızbekçi. لم يذكر دوتون هذا الأوجاق مع أنه بقي موجوداً حتى بعد زمانه - عطا ج 1 ص 294 وما يابها.

المختلفة من القصر كما يقومون بحراسة وتنظيف سرادق القايى آغاسى القريب من مكان إقامتهم⁽¹⁾. أما رجال الصّوفا⁽²⁾ أوجاغى فمهمة كل واحد منهم الأساسية هي العمل على خدمة واحد من الخاص أوضه ليه وبعض أغوات الإيج الصغار، بالإضافة إلى مهمة خاصة هي إحضار الخراف التي يريد السلطان نحرها في عيد الأضحى⁽³⁾ إلى الباحة الثانية. كان رجال مخزن الأخشاب⁽⁴⁾ يوزعون الحطب بشكل عام على أقسام القصر المختلفة، لكن بعض القدامى فيهم⁽⁵⁾ يؤدّون خدمة غريبة هي الإشراف على تنظيف مشفى القصر بواسطة أسرى حرب يُجلبون من الأدميرالية، لهذا الغرض. وعندما يمرض أحد الأغوات يتم نقله من الأورطة قايى إلى هذا المشفى في عربة خاصة يجرها رجال من مخزن الأخشاب⁽⁶⁾.

(3) أوجاقات الحرفيين.

تشغل ورشة الخياطين ترزي لر كر خانة (*Terziler Kâr-hânesi*) جزءاً من كنيسة تم تحويل الباقي منها إلى مسجد، في مكان يقع خارج الباب الإمبراطوري. قام السلطان سليم الأول بتنظيمها وتضم أربعين خياطاً يرأسهم رئيس الخياطين (ترزي باشى *Terzi Başı*) ورئيس الحلاجين (حلاج باشى *Hallâc*) Head Carder. وكان

(1) عطا ج 1 ص 301. دولاب *Dôlâb* (كلمة فارسية تكتب بالتركية القديمة طولاب *Tolab*) وتعني الناعورة أو أي آلة دوارة.

(2) أو على الأصح صُفّة *suffa* وتعني غرفة سابقة محاطة بالأرائك. وقد اشتق اسم هذا الأوجاق من المسجد المجاور المدعو صوفا جامعي *Şofa Câmî'i* الواقع ضمن أراضي القصر. يعود المسجد والأوجاق معاً إلى عهد السلطان سليمان العظيم.

(3) عطا ج 1 ص 298-299. يأتي عيد الأضحى (أو العيد الكبير) في العاشر من شهر ذي الحجة، وهو الشهر الذي تؤدّى فيه شعائر الحج. وتربى الأغنام المعدة للأضاحي في أوجاق القربان.

(4) حطب أنبارى *Haṭab Enbârı*.

(5) يدعون ورديان *Vardiyan* من الكلمة الإيطالية غوارديانو *guardiano*. وكانت أسماء العاملين المرتبطين بالأدميرالية تشتق من كلمات إيطالية كما سبق ولاحظنا.

(6) عطا ج 1 ص 301.

الخياطون يزودون العاملين في القصر بكل ما يحتاجونه من ثياب ولحف وغيرها⁽¹⁾.

يقع أوجاق صانعي الحُصر (حَصِير جية *Haşircıs*) في مخزن الأخشاب، ويعمل أفرادُه بشكل رئيسي في حياكة الحصر التي يتم تغييرها مرة في العام في غرفة عباءة النبي وفي المساجد⁽²⁾.

(4) المتفرقة *Muteferrihas*.

كالچاوشية تقسم المتفرقة، على الأقل منذ عهد الفاتح، إلى عُلوْفه لي *Ölûfeli* (أي من يتقاضون راتباً) وگديكلي *Gedikli* (أي إقطاعيين)⁽³⁾. وكالچاوشية أيضاً يرتبط المتفرقة الإقطاعيون بخدمة الصدر الأعظم أكثر من ارتباطهم بخدمة السلطان. وعندما يمتلكون إقطاعيات الزعامت يُدعون زُعماً گديكليّة⁽⁴⁾ *Gedikli Za'îms*. لهم قائد مستقل هو المتفرقة باشي *Muteferrika Başı*، وهو أحد معاوني الصدر الأعظم⁽⁵⁾. وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر كان هناك حوالي مئتين من المتفرقة الإقطاعيين وعدد غير محدد من العُلوْفه لية⁽⁶⁾ الذين لم يذكرهم دوسون في روايته وربما يكونون قد اضمحلوا آنذاك، بينما يبقى عدد الإقطاعيين مئتين.

(1) عطا ج 1 ص 310.

(2) عطا ج 1 ص 299-300. يشير دوسون إلى هؤلاء الحرفيين بقوله إنهم ثلاثمئة - من الخياطين والفرائين والإسكافيين - ج 7 ص 25.

(3) استعمل مصطلح عُلوْفه لي متفرقة في قانون نامة الفاتح (ص 18، 20، 25) مقارنة بمصطلح زعيم متفرقة أو تيمار متفرقة. وفي حالة الچاوشية ربما يكون مصطلح گديك *Gedik* قد استعمل لاحقاً. وجدناه في قانون نامة عبد الرحمن توقيعي (*M.T.M.* ج 1 ص 543). وبهذا يكون دوسون قد أخطأ بالتأكيد بقوله إن الگديكليّة *Gediklis* لم يوجدوا إلا منذ عام 1597.

(4) انظر دوسون ج 7 ص 168، 173، 377 - وكان چاوشية الزعامت يُدعون أيضاً زُعماً گديكليّة *Gedikli Za'îms*.

(5) دوسون ج 7 ص 173.

(6) وفقاً لقانون نامة عبد الرحمن توقيعي. أما زنكاييس 3 ص 182 فيقول إن عددهم بلغ 300 إلى 400 عام 1640، و631 عام 1660. وبحلول عام 1698 كان عدد المتفرقة والچاوشية معاً قد أصبح 500.

الملحق الثالث منزل الوزير الأعظم

يشبه منزل الوزير الأعظم منازل معظم رعايا السلطان الأثرياء، ويتخذ شكل القصر. كان الوزير الأعظم هو الوحيد الذي يحظى بعائدات كبيرة، وهو بذلك أقدر من غيره على محاكاة القصر الإمبراطوري من حيث الحجم، لكنه يختلف عنه ببعض الأمور، نذكر منها على سبيل المثال أن قسم الحريم لديه كان لا يقوم على حراسته سوى أربعة أو خمسة من الخصيان، لكنه كان مقسماً إلى خدمتين داخلية وخارجية. كان في الأولى أربعة وعشرون وصيفاً يرأسهم السلخدار آغا، ويحمل الآخرون ألقاباً مشابهة لتلك التي يحملها الخاص أوضه لي والخدم الأدنى مرتبة في قصر السلطان⁽⁷⁾، كما تضم، على الطراز الإمبراطوري، عدداً من الرُّسل الصَّم والخُرس⁽⁸⁾. أما الخدمة الخارجية فتضم، كما في قصر السلطان، الخازن وسائس الخيل وخدم الباب والمطابخ وبعض «العلماء»⁽⁹⁾. بل وتشبه التَّمط نفسه إذ تحوي على أشخاص يعملون بالأشغال العامة، حتى يبدو الخط الفاصل بين هذا الجزء من قصر الوزير وبين

(7) كان لدى الصدر الأعظم على سبيل المثال جُوقدَار آغا وبشكير آغا وقهوجي باشي وصاريقجي باشي وبربر باشي وإبريق دار باشي تتطابق ألقابهم مع أولئك العاملين في الغرفة الخاصة لقصر السلطان. وكان لديه أيضاً مفتاح آغا يعادل آختر آغا السلطان. انظر دوسون ج 7 ص 179-180.

(8) المصدر السابق ص 180.

(9) المصدر السابق ص 178-179. لم يذكر دوسون الألقاب التركية لهؤلاء الموظفين. وإن المسؤول عن توزيع الصدقات والمؤذنين كانوا على الأرجح من رجال الدين (العلماء).

الموظفين والجنود العاملين في خدمته غير واضح المعالم. لم تكن تعتمد كثيراً على طبيعة المهام الموكلة إلى أولئك الموظفين، بل على مصدر الرواتب التي يتقاضونها: أي من مال الوزير الخاص أم من الخزينة العامة. كان واضحاً أن الشُّطَّار الثمانية الذين يرافقونه على الملأ هم خدمه الخاصون، أما خدم الباب الأربعون الموجودون في معظم الدوائر الحكومية، فقد كانوا أدنى مرتبة، بالإضافة إلى الأربعين آغا الموكلين بحمل الرسائل إلى الأقاليم، والچاوشية الاثني عشر الذين يمشون في المواكب العامة في المناسبات، والمثني وصيف الذين يعمل رئيساهم كمخبرين ومهتتهما تقديم التقارير للقائد الثاني من قواد رئيس الوزراء.

في القرن الثامن عشر (والذي ينطبق عليه ما ذكر أعلاه)، كان الأشخاص المعتمدون كموظفين عامين مرتبطين بدائرة الوزير الأعظم يتألفون من حراس وسُعاة آخرين، نذكر منهم على سبيل المثال الكديكلي متفرقة، وفيلق مكون من ميتين من تثار القرم الذين انتقلت إليهم الخدمات التي كان يقوم بها الچاوشية. كان قائدا هاتين المجموعتين يدعيان متفرقة باشى وطَطر آغا، وهناك مجموعتان صغيرتان من الخيالة⁽¹⁾ أفرادهما من العاملين لدى الوزير الأعظم، وهما مؤلفتان من ثلاثة موظفين وخمسة عشر ضابطاً من الچاوشية⁽²⁾. كان الأولان من هؤلاء الضباط، التلخيصجي⁽³⁾ ونائبه⁽⁴⁾، مسؤولين عن إيصال المعلومات الموجهة من الوزير الأعظم للسلطان (وهو وحده من يوجهها)

(1) هما الگوكلى (تلفظ: گونلى) Gönüllü (المتطوعون) والدلى Delis (الكشافة). وكان عدد أفراد كل منهما في خدمة الصدر الأعظم خمسة عشر رجلاً، وقائدهما يدعيان گوكلى لر آغاسى ودلى لر آغاسى.

(2) البولوك باشية، وهم قادة المجموعات الخمس عشرة للچاوشية.

(3) من الفعل العربي «لخص» أي قَدَم ملخصاً ومن هنا التلخيص هو التقرير أي الرسائل الموجهة من الصدر الأعظم إلى السلطان. ولدى كلامنا عن المؤسسة الدينية سلاحظ أن لدى شيخ الإسلام تلخيصجي أيضاً.

(4) يدعى وزير قره قولاغى Kara Kulağı بسبب القلنسوة المصنوعة من فراء الوشق التي يرتديها. تعني قره قولاغ حرفياً «الأذن السوداء» وتطلق على الوشق الآسيوي. (ومنه اشتقت كلمة caracal من التركية).

إلى رئيس الخصيان السود، قيزلر آغاسى *Kızlar Ağası*. أما الثالث فهو القفتانجى باشى *Hoftancı Başı* أو رئيس خزانة الملابس *Pelisses* التي يقدمها الوزير الأعظم لذوي المناصب الجدد. أخيراً، هناك معاونون شخصيون للوزير هم ممثلون عن كل واحد من الأوجاقات النظامية للمشاة والخيالة (بالرغم من انخفاض عدد الأخيرة إلى اثنين فقط)⁽¹⁾. إن المعاون الذي يمثل الإنكشارية هو مُحَضِّر آغا *Muhdîr Ağa* الذي تشكّل أورطته، المؤلفة من ثمانية وعشرين من البولوكات، حرس الباب العالي. أما معاون البوستانجى فهو أوضه باشى ذلك الفيلق؛ ويمكن ملاحظة أنه بما أن البوستانجى باشى هو من يقود مركب السلطان، فإن الأوضه باشى هو من يقود مركب الوزير الأعظم - وهذا دليل آخر على أن للوزير مزية تقليد السلطان، ولكن على مستوى أقل من العظمة⁽²⁾.



(1) وكان الكاخية يري يمثل السباهية والسلخدارية؛ ويمثل چاوشية الباب الجبه جيه والطوبجية والطوب عربجية. وقد تحدث دوسون عن چاوشية باب آخرين يمثلون الأمراء، لكن لم يتضح من يقصد منهم. وقد يكون الأمراء من سلالة النبي أو من السنجق بكية الذين يحملون اللقب ذاته.

(2) دوسون ج 7 ص 172-173، 177-179.

محتويات الكتاب

5	سلسلة رواد المشرق العربي.....
7	هذا الكتاب ظهور الدولة العثمانية وبداية توسعها
11	أوروبا والعثمانيون.....
15	التاريخ العثماني في الدراسات النقدية المعاصرة.....
29	نقاط حول الترجمة
35	التسميات التركية.....
43	المجتمع الإسلامي والغرب المجلد الأول.....
43	الجزء الأول مقدمة.....
65	الفصل الأول الإمبراطورية العثمانية والشريعة
75	الفصل الثاني الخلافة والسلطنة
91	الفصل الثالث المؤسسة الحاكمة.....
287	الفصل الرابع الحكومة والإدارة في الأقاليم العربية.....
331	الفصل الخامس الفلاحون وتملك الأراضي والزراعة
385	الفصل السادس المدينة: الصناعة والتجارة.....
435	الملحق الأول الجيش.....
511	الملحق الثالث منزل الوزير الأعظم.....